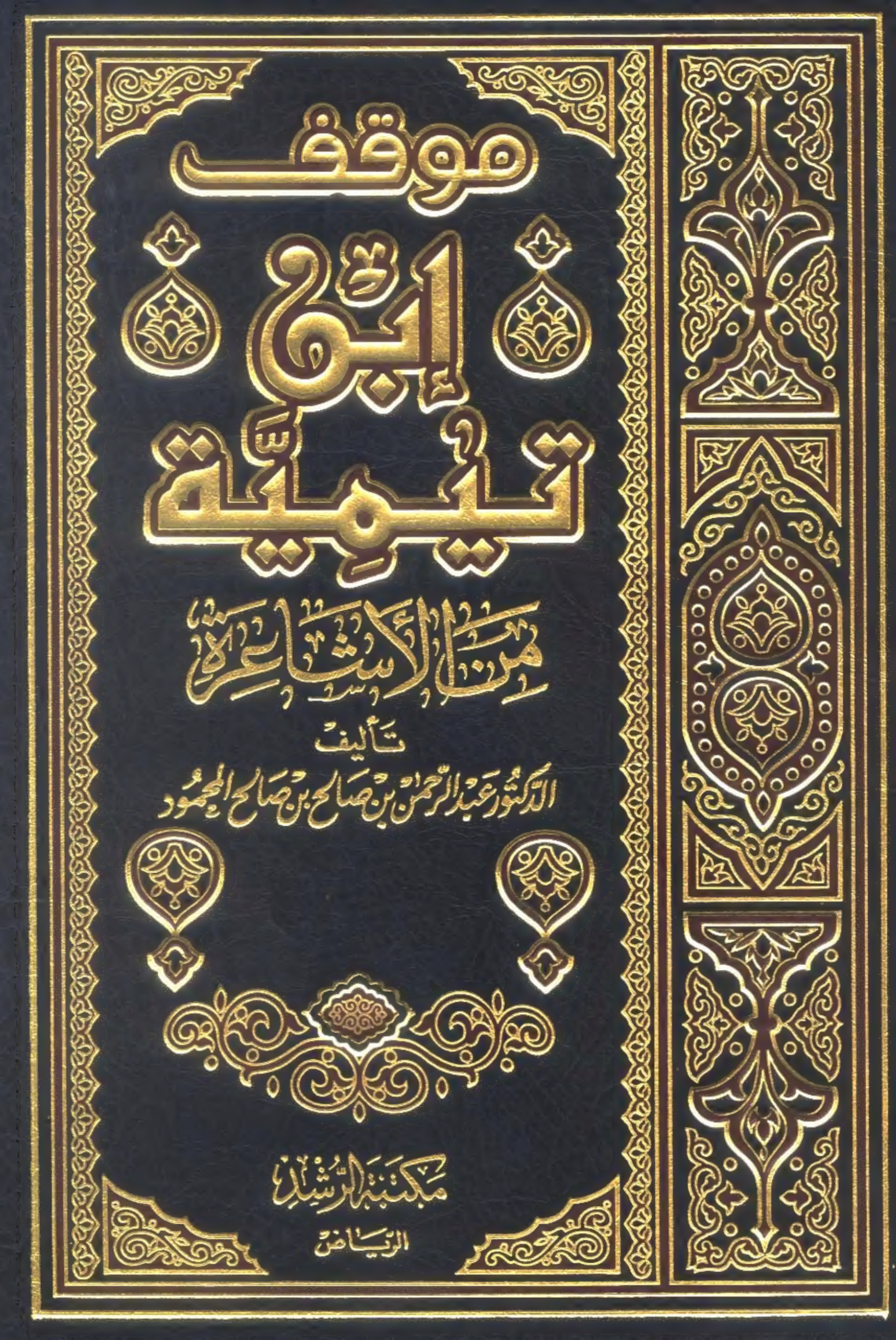

موقف
ابن تيمية
من الأشاعرة
تأليف
الدكتور عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود
مكتبة الرشد
الرياض

موقف ابن تيمية

من الأشاعرة

تأليف

الدكتور عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود

الجزء الأول

الناشر

مكتبة الرشد

الرياض

أصل هذا الكتاب رسالة دكتوراة تقدم بها المؤلف إلى كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة وتكونت لجنة المناقشة من :

الدكتور : ســالم بن عبــد الله الدخيــل مشرفا"

معالي الشيخ ناصر بن حمــد الراشــد عضوا"

فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان عضوا"

وذلك بتاريخ ١٩ / ٥ / ١٤٠٩ هـ . وقد نالت الدرجة العالمية الدكتوراة مع مرتبة الشرف الأولى .

الطَّبعَة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

ح مكتبة الرشد، ١٤١٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
المحمود، عبد الرحمن صالح.
موقف ابن تيمية من الأشاعرة / إشراف سالم بن عبد الله الدخيل.
٤٧٢ ص، ١٧ × ٢٤ سم.
ردمك × ـ ٠١٨ ـ ٠١ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة).
٨ ـ ٠١٩ ـ ٠١ ـ ٩٩٦٠ (ج ١).
١ ـ الأشعرية ٢ ـ ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ).
(أ) الدخيل، سالم بن عبد الله (مشرف) (ب) العنوان.
ديوي ٢٦٢ ٢٠٢٧ / ١٤
رقم الإيداع ٢٠٢٧ / ١٤

ردمك × ـ ٠١٨ ـ ٠١ ـ ٩٩٦٠ (مجموعة)
٨ ـ ٠١٩ ـ ٠١ ـ ٩٩٦٠ (ج ١)



النَّاشِر

مكتبة الرشد للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض - طريق الحجاز

ص.ب: ١٧٥٢٢ - الرياض: ١١٤٩٤ - هاتف: ٤٥٨٣٧١٢
تلكس: ٤٠٥٧٩٨ - فاكس ملي ٤٥٧٣٣٨١
فرع القصيم - بريدة - طريق المدينة
ص.ب: ٢٣٧٦ - هاتف وفاكس: ٣٢٤٢٢١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . وبعـد :

فلا شك أن العالم الإسلامي مع بداية هذا القرن – الخامس عشر الهجري – وقبله بقليل ، يمر بمرحلة مهمة من تاريخ المسلمين المعاصر ، وقد تمثلت هذه المرحلة بشكل واضح في العودة إلى الإسلام والثقة به عقيدة وشريعة ، وذلك في خضم العقائد والفلسفات والأنظمة والقوانين السائدة في العالم . ولا شك أن هذه العودة – والصحوة – تبهج وتسر قلب كل مؤمن ، وتملؤه فخرا واعتزازا بهذا الدين ، الذي حاربه أعداؤه بكل الوسائل والأساليب ، ولكن ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ ٱللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَٱللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الصف : ٨] .

ولما كان شعار كل مسلم وكل داعية العودة إلى الكتاب والسنة ، – وهو ما يتفق على إعلانه الجميع – إلا أن الأمر حين ينتقل إلى التطبيق العملي والتربية المنهجية وتحديد المصادر المفسرة والشارحة لهذين المصدرين – المسَلَّمين – يأخذ أشكالا وسمات متعددة ، وكثيرا ما تكون متعارضة ، وفي النهاية يتخذ كل واحد منها شكل طائفة أو فرقة أو مذهب فكري محدد . والعجيب أن كلا منهم يدعي أن أصول مذهبه قائمة على الكتاب والسنة ، ومن ثم فمن لم يلتزم بأصوله فهو ضال مبتدع .

وهذه المشكلة لا تختص بعصرنا هذا ، بل هي مشكلة قديمة نشأت منذ ظهور الفرق والطوائف في أواخر عهد الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين – وإلى عهود التابعين ومن جاء بعدهم .

وفي العصر الحاضر نشأت إضافة إلى الفرق والطوائف القديمة - تيارات فكرية متعددة ، ومذاهب وفلسفات متباينة ، ومن ثم أصبح تحديد المنطلق والمنهج والأصول أكثر إلحاحا وأشد حاجة من ذي قبل ، خاصة مع كثرة التدليس والتلبيس ، ومحاولة إخضاع الأصول والنصوص الإسلامية لتوافق كثيرا من النظريات والمذاهب السائدة أو التي يريد لها أعداء الإسلام أن تسود .

وأخطر ما يواجه مسيرة المسلمين اليوم - إذا صرف النظر عن التيارات الإلحادية الصريحة ، والمذاهب الباطنية ، وما شابهها مما هو صريح في إلحاده وبعده عن حقيقة الإسلام - تياران كبيران :

أحدهما : تيار القوميين والعلمانيين ، الذين لا يرفضون الإسلام صراحة ، ولكنهم يجعلونه ضمن دائرة خاصة لا يتعداها ، وذلك بجعله جزءا من التراث - كما يسمونه - بحيث يشمل كل الفلسفات والأفكار والتقاليد والمناهج والنظم - سواء وجدت قبل الإسلام أو بعده ، وسواء كانت موافقة لأصول الإسلام أو مخالفة ، ما دام يدخل ضمن دائرة تراث هذه الأمة التي ينتسبون إليها . وهؤلاء ينظرون إلى الإسلام نظرة إكبار وإعزاز لا لأنه دين الله الذي لا يقبل من أحد سواه ، وبه النجاة من عذابه يوم القيامة ، وإنما لأنه أحد معطيات تراث الأمة القومي . ومن هؤلاء من يريد حصر الإسلام في جانب ضيق من حياة الإنسان ، بحيث يبقى ضمن نطاق محدود من إقامة الشعائر التعبدية ، والأحوال الشخصية ، والالتزام الفردي بأخلاقياته ومحاسن آدبه ، أما نواحي الحياة المختلفة فالأمر فيها متروك للأمة أن تستفيد من النظم والقوانين المختلفة ، ومناهج التربية المتعددة ، من الشرق أو الغرب ولو كانت مخالفة للإسلام وهذا ما يتبناه العلمانيون وأضرابهم .

وهذا التيار غالبا ما يحمل أفراده أفكارا وفلسفات غربية وفاسدة لها تصورها الخاص ومنطلقاته العقدية التي تغلب جانب العقل وتعلي من شأنه ، وغالبا ما تكون لها جذور فلسفية أو كلامية سابقة تنطلق منها ، أو تستفيد من آثارها وكتبها .

والذي يميز هؤلاء عداؤهم للسلف أهل السنة والجماعة ، ومن يدعو إلى العودة إلى عقيدتهم ومنهجهم ، ووصمهم لهم بعبارات الاحتقار والازدراء وقلة

الفهم والعقل ، والتخلف والتعقيد .

والتيار الثاني : تيار أهل البدع من أهل الاعتزال والكلام والتصوف ، وهم امتداد واضح وقوي لمن سبقهم من هذه الطوائف وغيرها ، ويقومون بجهود عظيمة في الدعوة إلى مذاهبهم ، ونشر كتبهم ، وإقناع الناس ممن حولهم ، أو يسمع كلامهم بأن ما عندهم هو الحق وان هذا اعتقاد كبار الشيوخ سلفا وخلفا . ويغضون من شأن الدعاة إلى مذهب السلف ويرمونهم بشتى التهم التي تنفر الناس منهم .

وأخطر ما يمثل هذا التيار : الأشعرية والصوفية ، حيث إن لهما امتدادا عريضا في أماكن مختلفة من العالم الإسلامي ، وساعد على ذلك أمور من أهمها :

١ - تبني كثير من الجامعات والمراجع العلمية للمذهب الأشعري - أو الماتريدي - على أنه المذهب الحق الذي يجب أن يكون ضمن مناهج التعليم .

٢ - استمرار تبني هذا المذهب من خلال دروس المشايخ - في بعض البلاد - منذ قرون مضت ، وربطه في الغالب بالمذاهب الفقهية المشهورة ، بحيث أصبح أمرا معهودا ، وطريقة مسلمة [١] .

٣ - وفرة الكتب والمراجع المخطوطة والمطبوعة التي تخدم هذا المذهب ، والتي نشرت وطبعت بتحقيق وبدون تحقيق .

٤ - الترابط - أو الامتزاج - الذي وقع بين المذهب الصوفي والأشعري ، مما جعل الطرق الصوفية المختلفة تجعل العقيدة الأشعرية عقيدتها المفضلة .
والتصوف وطرقه منتشر في غالب بلاد العالم الإسلامي ، ولهم أنشطة واضحة ومتعددة .

ولكن هذه التيارات بإمكاناتها الكبيرة وجهودها المتواصلة يقابلها تيار قوي ، منتشر في أنحاء العالم الإسلامي يتبنى عقيدة السلف ومنهجهم في الاستدلال ،

---

(١) يذكر الهراس أنه - في العصور المتأخرة استقرت أحوال الأمة - في كثير من بلاد الإسلام - على تحريم أخذ الأصول بغير المذهب الأشعري . انظر ابن تيمية السلفي للهراس (ص : ١٩) .

ويدعو إلى العودة إلى ما كان عليه الرسول - ﷺ - وأصحابه ، ولديه ثقة مطلقة بأنه لا عزة للمسلمين ولا رفعة ولا مكانة ولا نجاة من عذاب الله إلا بالرجوع إلى هذا الدين عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ، ويقومون بما يجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والرد على أهل الانحراف والإلحاد سواء من أصحاب الأفكار الغربية المستوردة ، أو من أهل البدع والكلام والأهواء ، كما يقومون بجهود مشكورة في الدعوة إلى مذهب السلف بالوسائل المختلفة ، ونشر الكتب التي تخدم هذا المذهب وتوضحه ، وتحقيق ما كان مخطوطا منها ، والقيام بالدراسات المختلفة التي تختص بدراسة مسائل أو جوانب محددة تبين فيها وجه الحق وترد على أهل الباطل .

وقد كان للأقسام الشرعية في جامعات هذه البلاد جهود مشكورة في هذا المجال ، خاصة في البحوث التي يقوم بها الدارسون للحصول على الدرجات العلمية والتي تشمل تحقيق المخطوطات ، ودراسة الموضوعات . ونسأل الله تعالى أن يبارك في هذه الجهود وأن يرزقنا جميعا الإخلاص في الأقوال والأعمال .

ولما كنت قد حصلت على درجة الماجستير من قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في كلية أصول الدين بالرياض ، رغبت في تسجيل بحث آخر للدكتوراه ، فهداني الله إلى إختيار موضوع « موقف ابن تيمية من الأشاعرة » ، وترجع أهمية هذا الموضوع إلى عدة أمور منها :

١ - أن هناك خلطا في تحديد مذهب السلف ، أهل السنة والجماعة ، ومجمل اعتقادهم الذي يميزهم عن غيرهم من أهل البدع والأهواء . ومن المعلوم أن مذهب الأشاعرة قد اشتهر بين كثير من الناس على أنه هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وأن اعتقادهم يمثل اعتقاد السلف ، ومن المؤسف أن هذا المفهوم سائد إلى الآن في كثير من البلاد الإسلامية [١] .

ومن أبرز العلماء الذين عملوا - بشكل قوي ومركز وشامل - على بيان

---

(١) انظر : ابن تيمية السلفي ، للهراس (ص : ٢٣،٦-٢٤) .

الحق في ذلك وتمييز مذهب السلف عما يدعيه هؤلاء : شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى [١] - .

٢ - أن مذهب الأشاعرة قد انتشر في العالم الإسلامي ، قبل ابن تيمية [٢] ، وقد حدثت له عدة تطورات قربته كثيرا من المعتزلة والفلاسفة والمتصوفة ، ولم يأت عهد ابن تيمية إلا وقد بلغ أوجه في التطور والانتشار بعد الجهود الكبيرة التي قام بها علماء كبار من هذا المذهب كالغزالي والرازي وغيرهما ، فلما جاء شيخ الإسلام ابن تيمية بعد ذلك ممثلا لمذهب السلف ومدافعا عنه ورادا على هؤلاء ، تميز عهده بأمرين :-

أحدهما : بروزه على أنه أول من تصدى بقوة للمذهب الأشعري - خاصة بعد تطوره الأخير - ولذلك يقول المقريزي - بعد عرضه لنشأة المذهب الأشعري وانتشاره على يد بعض العلماء والسلاطين : « فكان هذا هو السبب في اشتهار مذهب الأشعري وانتشاره في أمصار الإسلام ، بحيث نُسي غيره من المذاهب وجهل ، حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه إلا أن يكون مذهب الحنابلة - أتباع الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - رضي الله عنه - ، فإنهم كانوا على ما كان عليه السلف لا يرون تأويل ما ورد من الصفات - إلى أن كان بعد السبعمائة من سني الهجرة اشتهر بدمشق وأعمالها تقي الدين أبو العباس أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني ، فتصدى للانتصار لمذهب السلف ، وبالغ في الرد على مذهب الأشاعرة ، وصدع بالنكير عليهم وعلى الرافضة وعلى الصوفية » [٣] .ولا شك أنه كانت لعلماء السلف في كل زمن جهود مشكورة في الدفاع عن عقيدة السلف والرد على خصومها ،

---

(١) يقول عبد الحليم محمود - وهو صوفي - : « ولا يزال هذا الجدل حول تحديد مذهب السلف مستمرا إلى الآن بين مدرسة الأشعري ومدرسة ابن تيمية ، كل منهما يزعم انتسابه للسلف ومتابعته لمالك وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما » ، التفكير الفلسفي في الإسلام (ص : ١٣٥) .

(٢) سيأتي إن شاء الله بيان ذلك في الفصل الرابع من الباب الأول .

(٣) الخطط (٢/٣٥٨-٣٥٩) ، مصورة بولاق ، وانظر في علم الكلام - الأشاعرة - لأحمد صبحي (ص : ١٤) .

ولكن ما قام به شيخ الإسلام كان من القوة والتأثير بحيث أصبح يمثل مرحلة بارزة من مراحل كل من مذهب الأشاعرة ومذهب السلف أيضا .

والثاني : أن مجيئه في وقت متأخر - حيث ولد سنة ٦٦١ هـ وتوفي سنة ٧٢٨ هـ - وفر له وسائل الاطلاع على ما انتهى إليه هؤلاء الأشاعرة في شرح مذهبهم ، والاستدلال له والرد على خصومه ، ومن ثم تميزت ردود شيخ الإسلام ومناقشاته لهم بالقوة والعمق والشمول ، وكشف خبايا هذا المذهب وتناقضاته ، وتسجيل اعترافات شيوخه وردود بعضهم على بعض . ولا شك ان هذه الأمور لها أثر كبير في بيان فساد أقوال الخصوم وتهافت أدلتهم .

ومذهب الأشاعرة لا يزال موجودا ومنتشرا - معتمدا على الأصول التي انتهى إليها المذهب الأشعري قبيل عهد ابن تيمية - ولم يحدث له تطور آخر ، وإنما بقى معتمدا على من سبقه ، ومن ثم فالرد عليه وبيان ما فيه من مخالفة لمذهب السلف لابد أن يكون معتمدا على ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية . وهذا واقع الحال ، فقلما يتصدى أحد للرد على المعتزلة أو الأشاعرة أو المتصوفة أو الرافضة أو غيرهم إلا ويكون جل اعتماده في ذلك - بعد الكتاب والسنة وأقوال السلف - على ردود ومناقشات هذا الإمام العظيم .

٣ - أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان صاحب منهج واضح ومحدد ، سار فيه على وتيرة واحدة في جميع كتبه ، لم تتغير طريقته ، ولم تتناقض أقواله ، مع كثرة كتبه ، وطولها ، وتشعب مسائلها ، كما أن قناعته بمذهب السلف ، وأن الحق كل الحق فيه ، وأن ما عداه من الآراء والأقوال المبتدعة إما ضلال أو انحراف ، أو في مذهب السلف ما يغني عنه تمام الغنى - لم تتغير أو تضعف . ولذلك كانت هناك أهمية خاصة لما كتبه في بيان عقيدة السلف والمنهج الصحيح في تقريرها ، وكذلك ما كتبه في الرد على مخالفي عقيدة أهل السنة والجماعة والمنهج الصحيح لذلك .

٤- وأخيرا فمما يلاحظ أن ردود شيخ الإسلام على كثير من الطوائف التي كانت أشد انحرافا من الأشاعرة ، كالفلاسفة ، وغلاة الصوفية ، والمعتزلة ،

والجهمية ، وغيرهم – لم تكن مقصودة لذاتها ؛ لأن أصحابها كانوا قلة وكان المجتمع الإسلامي رافضا لها ولأفكارها ، فلما تغلغلت آراء وأقوال هذه الطوائف عن طريق إدخالها في المذهب الأشعري ، وتبني بعض أعلام الأشاعرة لها ، صار خطرها يتهدد عامة المسلمين الذين كانوا يثقون في كثير من هؤلاء الشيوخ لأنهم علماء الأمة وفقهاؤها وقضاتها . فلما رأى شيخ الإسلام ذلك شمر للرد عليهم جميعا وعرض لفساد الأصول التي ترجع إليها هذه الأقوال وزيفها ، وأطال في نقضها . وما كان شيخ الإسلام ليشغل نفسه بالرد على الفلاسفة مثلا لولا أن كثيرا من أصولهم صارت جزءا من كتب أهل الكلام ، يعتمدون عليها ، ويشرحونها في كتبهم ، ويبنون عليها كثيرا من أدلتهم ، حتى أصبحت هذه الأصول هي الأصل ، وما جاء به الكتاب والسنة وأقوال السلف فرعاً لا حجة فيه ولا قيمة له إلا في حدود ضيقة .

فهذه الأمور وغيرها تبين أهمية بحث موقف ابن تيمية من الأشاعرة ، ولا شك أن البحوث حول كل من ابن تيمية وجهوده العلمية المختلفة [١] ، وحول الأشاعرة وأعلامهم وعقائدهم [٢] – كثيرة جدا ، كما أن لعلمائنا الأفاضل

---

(١) المؤلفات حول شيخ الإسلام ابن تيمية كثيرة جدا ، ويصعب حصرها ، ويمكن الإشارة إلى البحوث والأطروحات العلمية منها ، فإضافة إلى العدد الكبير من كتبه التي قدمت للتحقيق ، كالجواب الصحيح ، والتدمرية ، وشرح الأصفهانية ، والتسعينية ، وبغية المرتاد ، واقتضاء الصراط المستقيم ، وشرح حديث النزول ، والقواعد الفقهية ، ومناسك الحج والعمرة من كتاب شرح العمدة ، والمسودة . وغيرها – هناك عدد من الموضوعات المقدمة رسائل علمية ومنها على سبيل المثال : منهج ابن تيمية في تفسير القرآن صبري المتولي ، ومنطق ابن تيمية : محمد حسني الزين ، وأصول الفقه وابن تيمية : صالح المنصور ، وموقف ابن تيمية من التصوف والمتصوفة : أحمد بن محمد بناني ، وهذه كلها مطبوعة . ومنها دور ابن تيمية في الجهاد ضد المغول : مريم محمد بن لادن ، وابن تيمية ونقده للنصارى : فايزة بكري ، وغيرها كثير جدا .

(٢) منها : أبو الحسن الأشعري بين السلف والمتكلمين : هادي طالبي ، ونشأة الأشعرية وتطورها : جلال موسى ، والأشاعرة ، لأحمد صبحي ، وما كتبه عبد الرحمن بدوي في الجزء الأول من مذاهب الإسلاميين ، وفخر الدين الرازي للرزكان ، وآراء الغزالي في الإلهيات : سليمان شيبي ، والبيهقي وموقفه من الإلهيات : أحمد عطية الغامدي ، وغيرها كثير .

ردوداً متنوعة على الأشاعرة وبيان ما خالفوا فيه مذهب السلف [١] .

وهذا البحث الذي أقدمه اليوم – على ضعف مني وقلة حصيلة وقصر باع – إنما هو محاولة لبيان الحق في هذه المسألة العظيمة من خلال ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – .

وقد اشتملت خطة البحث – بعد المقدمة العامة – على تمهيد وبابين وخاتمة .

أما التمهيد : فقد كان بعنوان : السلف ومنهجهم في العقيدة ، وقد اشتمل على التعريف بالسلف وأهل السنة والجماعة ، ثم بيان نشأة التسمية بهذا الاسم ، ثم شرح منهجهم في العقيدة والاستدلال لها . وقد جاء هذا التمهيد مفصلا بعض الشيء لأن كلا من الأشاعرة وابن تيمية ينسب مذهبه إلى مذهب السلف ، فكان لابد من ذكر مذهب السلف من مصادره ليتبين عند المقارنة من الذي كان سائرا على مذهب السلف ومن الذي انحرف عنه .

وأما الباب الأول : فكان موضوعه : ابن تيمية والأشاعرة ، وقد اشتمل على عدة فصول :

الفصل الأول : عن حياة ابن تيمية ، وقد اشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : عصر ابن تيمية وقد عُرضت فيه لبعض القضايا والأحداث التي حفل بها هذا العصر المليء بالاضطرابات ، مثل الغزو الصليبي للعالم الإسلامي ، وظهور التتار وسقوط الخلافة العباسية في بغداد ، وقيام دولة المماليك ،

---

(١) من ذلك ما كتبه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز في مجلة المجتمع الكويتية العدد (٩٥٨) بتاريخ ١٤٠٤/٥/١٢ هـ – وأعيد نشر المقال في العدد الذي يليه من المجلة المذكورة – ردا على أقوال محمد علي الصابوني حول الأشاعرة – نشرت آراء الصابوني في مجلة المجتمع في الأعداد (٦١٣،٦٢٩،٦٤٦) كما رد على الصابوني فضيلة الشيخ الدكتور صالح الفوزان ، وقد نشر رده في مجلة المجتمع العدد (٦٤٦،٦٤٧) كما نشر في مجلة الدعوة السعودية العدد (٩٠٤) . كما رد على الصابوني بشكل مركز وشامل الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي ، وقد نشر رده في مجلة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، ثم أعيدت طباعته في كتاب مستقل ، نشر الدار السلفية في الكويت .

ودور الباطنين والرافضة ، إضافة إلى الجوانب العلمية والعقدية . وقد فُصل القول في هذا المبحث بعض الشيء لأمرين أحدهما : أنه عصر مليء بالأحداث الجسام فهو كثير الشبه بعصرنا ، ومن ثم فلا يكفي الاختصار والعرض السريع . والثاني : أن تفصيل بعض المسائل أغنى عن ذكرها عند الحديث عن مواقف ابن تيمية تجاه أحداث عصره .

المبحث الثاني : في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية ، وذلك بتوضيح الجوانب المعهودة في التراجم مثل اسمه ونشأته ، وشيوخه ، وجهاده وربطه العلم بالعمل ، ودوره في مقاومة التتار والرافضة ، ثم بيان منزلته ومكانته ، وما جرى له من محن على يد أعدائه في الشام ومصر ، وقد فصل القول في ذلك مع التركيز على بيان دوره الإيجابي في هذه المحن كلها . ثم ذكر تلاميذه والمتأثرين به ، ورسائله وكتبه مع التركيز على بيان ما ألفه منها في الرد على الأشاعرة ، ثم ذكر وفاته - رحمه الله - .

الفصل الثاني : في منهج ابن تيمية في تقرير عقيدة السلف والرد على خصومها ، وقد شمل ذلك البحث منهجه في المعرفة والاستدلال ، وبيان العقيدة والاستدلال لها ، والرد على الخصوم ، وما تميز به شيخ الإسلام من الأمانة العلمية .

الفصل الثالث : عن حياة أبي الحسن الأشعري وعقيدته ، واشتمل هذا الفصل إضافة إلى ترجمة الأشعري وحياته وشيوخه وتلاميذه ومؤلفاته بحث مسألة الأطوار التي مر بها في حياته العقدية وهل كانت طورين أو ثلاثة ، وهل كان رجوعه في الإبانة إلى مذهب السلف رجوعا كاملا أو بقيت عليه بقايا من أقوال أهل الكلام ، ثم عرض لعقيدته وآرائه .

الفصل الرابع : وموضوعه : نشأة الأشعرية وعقيدتهم ، وقد اشتمل هذا الفصل على عدة مباحث ، منها مبحث شيوخ الأشاعرة وأسلافهم وهم الكلابية ، مع الترجمة لأبرز أعلامهم . ومبحث الماتريدية وعلاقتهم بالأشعرية ، ثم مبحث نشأة المذهب الأشعري وأسباب انتشاره . وأخيرا وبشكل مختصر عقيدة الأشاعرة .

الفصل الخامس : وموضوعه : تطور مذهب الأشاعرة وأشهر رجالهم

إلى عهد ابن تيمية ، وفي هذا الفصل عرض لما حدث لمذهب الأشاعرة من تطور على يد أبرز رجاله ، سواء بالميل إلى التأويل وأقوال المعتزلة ، أو الامتزاج بالتصوف ، أو الخوض في علوم الفلاسفة وإدخال آرائهم وأصولهم لتصبح جزءا من كتب الأشاعرة الكلامية . وقد ترجم في هذا الفصل لأبرز أعلام الأشاعرة — مع عرض مركز لأثر كل علم في تطور المذهب الأشعري ، وهؤلاء الأعلام هم : أبو الحسن علي بن مهدي الطبري ، والباقلاني ، وابن فورك ، والبغدادي ، والبيهقي ، والقشيري ، والجويني ، والغزالي ، وابن تومرت ، وأبو بكر بن العربي ، والشهرستاني ، وابن عساكر ، والفخر الرازي ، والآمدي ، والعز بن عبد السلام ، والبيضاوي ، وأبو عمر السكوني ، وصفي الدين الهندي ، وعضد الدين الإيجي ، وبدر الدين بن جماعة ، وهؤلاء الخمسة كانوا معاصرين لشيخ الإسلام ابن تيمية — رحمهم الله جميعا — ولم يكن الحديث عن هؤلاء من حيث التركيز والإطالة على وتيرة واحدة ، بل منهم من أطيل الكلام حوله كالباقلاني ، وابن فورك ، والبيهقي ، والجويني ، والغزالي ، والرازي ، والباقون بين التوسط والاختصار ، وذلك حسب أهمية العلم وكثرة مؤلفاته العقدية ، ودوره في تطوير مذهب الأشاعرة .

أما الباب الثاني : فموضوعه : موقف ابن تيمية من الأشاعرة ، وقد اشتمل على ثلاثة فصول :—

الفصل الأول : في عرض ابن تيمية لجوانب الأشاعرة الإيجابية ، واعترافه بما عندهم من حق ، وهذا جزء من منهجه العام في الرد على الخصوم — والذي وضح في الفصل الثاني من الباب السابق — ، وشيخ الإسلام وهو يرد على الأشاعرة وأعلامهم ردودا طويلة لم يمنعه ذلك من الاعتراف بجوانبهم الإيجابية في الرد على الفلاسفة ، والباطنية ، والمعتزلة والنصاري وغيرهم ، وهو يدل على صفة العدل والإنصاف مع خصومه ، حتى وهم يمتحنونه ، ويكونون سببا في سجنه وإيذائه .

الفصل الثاني : في منهج ابن تيمية العام في الرد على الأشاعرة ، وهذا الفصل من أهم فصول الرسالة ، وفيه عرض للقضايا العامة التي ناقش فيها شيخ

الإسلام الأشاعرة ، والتي لا تختص بباب معين من أبواب العقيدة ، مثل مسألة أن الكتاب والسنة فيهما ما يغني عما ابتدعه هؤلاء ، وحجية خبر الآحاد في العقيدة ، وعلم الكلام المذموم ، وكون مذهب السلف أعلم وأحكم وأسلم ، وجهل الأشاعرة بمذهب السلف ، وإرجاع أقوالهم إلى أصولها الاعتزالية والكلامية ، وأنه لا تعارض بين العقل والنقل ، والرد على متأخري الأشاعرة بأقوال شيوخهم ، وتناقض الأشاعرة وما وقع فيه أعلامهم من الحيرة والشك ، ثم رجوع بعضهم إلى الحق . ثم بيان تسلط الملاحدة من الفلاسفة والقرامطة عليهم لضعف ردودهم عليهم وأخذهم بأصول أهل الكلام الباطل . وكل مسألة من هذه المسائل يذكر لها شيخ الإسلام أمثلة متعددة .

الفصل الثالث : وموضوعه : ردود شيخ الإسلام ابن تيمية عليهم تفصيلا ، ويشمل عدة مباحث :

المبحث الأول : ردوده عليهم في مسألة توحيد الألوهية والربوبية ، ويدخل في هذا المبحث بعض المسائل مثل مسألة أول واجب على المكلف ، ومفهوم التوحيد عند الأشاعرة ، وبيان خطئهم وتقصيرهم في مسألة توحيد الربوبية ، وإغفالهم لتوحيد الألوهية .

المبحث الثاني : في الأسماء والصفات ، وقد احتوى هذا المبحث على مسائل كثيرة جدا تتعلق بأسماء الله ، والصفات التي أثبتها الأشاعرة ، والصفات التي نفوها ، وكيف رد عليهم شيخ الإسلام طويلا ، وخاصة في المسائل الكبرى كمسألة العلو والاستواء ، والصفات الفعلية ، كالنزول والمجيء والغضب والرضا ، والصفات الخبرية ، وغيرها .

المبحث الثالث : في القضاء والقدر ، وبعض المسائل المتعلقة به ، وردوده عليهم في ذلك .

المبحث الرابع : في الإيمان ، وميلهم إلى الإرجاء وردوده على أقوالهم .

المبحث الخامس : وفيه عرض لبعض المسائل المتفرقة التي خالف فيها الأشاعرة مذهب أهل السنة .

أما الخاتمة ففيها عرض مختصر لأهم نتائج البحث .

وقد ذيلت الرسالة بالفهارس المهمة : كفهرس الآيات ، والأحاديث ، والأعلام المترجم لهم ، والفرق والطوائف ، والمصادر ، والموضوعات .

وفي الختام أسأل الله أن يجزل المثوبة لكل من أعانني على استكمال هذا البحث ، وأخص بذلك الدكتور سالم بن عبد الله الدخيل المشرف على هذه الرسالة ، الذي قرأ جميع فصولها ومباحثها ، والذي كان لتوجيهاته وملاحظاته الدقيقة أكبر الأثر .

كما أسأل الله أن يجزل المثوبة لكل الإخوة الذين زودوني ببعض المصادر - أو مخطوطة ومطبوعة - وأخص منهم الدكتور/ ناصر العمر - وكيل الكلية للدراسات العليا سابقا - والأخ / أحمد الحربي ، والأخ / محمد الخميس .

وفي الختام أسأل الله أن يغفر لنا خطايانا وتقصيرنا ، وأن يلهمنا الصواب ، ويعيذنا من فتنة القول وفتنة العمل . إنه ولي ذلك والقادر عليه . والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

وكتبه / عبد الرحمن بن صالح المحمود

الرياض - كلية أصول الدين

ص - ب ١٧٩٩٩

الرمز ١١٤٩٤

تمهيـد

السلف ومنهجهم في العقيدة

أولا : التعريف بالسلف ، أهل السنة والجماعة .

ثانيا : نشأة التسمية بأهل السنة والجماعة .

ثالثا : منهج السلف في العقيدة .

تمهيد

لما كان موضوع الرسالة يتعلق بشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وموقفه من الأشاعرة ، وشيخ الإسلام يمثل في موقفه هذا مذهب السلف - رحمهم الله - كان من المهم التمهيد ببيان التعريف بالسلف وهل لهم أسماء أخرى عرفوا بها ، وكيف تميزوا عن الطوائف والفرق الأخرى ؟ ، ثم لابد من بيان منهجهم في العقيدة وضرورة هذا المنهج لكل مسلم يبحث عن الحق ، ويرجو الفوز برضوان الله والنجاة من عذابه يوم القيامة .

ومسألة الالتزام بمذهب السلف ليست مسألة اختيارية ، من شاء سلكها ومن شاء سلك غيرها ، بل هي مسألة تتعلق بالإيمان بالله وبما جاء به كتابه وسنة رسوله - ﷺ - واتباعهما قولا وعملا ، وهذا مما لا يختلف فيه أحد ممن ينتسب إلى الإسلام ولذا تجد الفرق المنحرفة - على اختلاف فيما بينها - كل واحدة تزعم أنها تسير على ما سار عليه الرسول - ﷺ - وأصحابه ، وتحتج على أقوالها بالنصوص ، وحينما تعدد رجالاتها السابقين تذكر في الطبقة الأولى منهم الرسول - ﷺ - وأصحابه وهي مع ذلك منحرفة انحرافا بينا ، فهي تصادم النصوص ، وأحيانا ترفض الاحتجاج ببعضها .... وغالبا ترفض فهم الصحابة للنصوص وتفسيرهم لها .

ولذا فلابد للباحث المسلم أن ينطلق في بحثه من منطلقين :

أحدهما : الثقة المطلقة بمذهب السلف ، أهل السنة والجماعة ، وأن يكون عنده يقين في ذلك لا يتزعزع أبدا .

والآخر : تحديد المقصود بالسلف ، من هم ؟ ، وما منهجهم ، حتى يسلك طريقتهم على بصيرة ، ولا يتخبط في سيره بين المناهج الأخرى .

ولما كان المنطلق الأول مما لا يختلف حوله أحد ولو بشكل مجمل ، فإننا في هذا التمهيد نعرض للمنطلق الثاني من خلال المباحث التالية :

المبحث الأول : التعريف بالسلف ، وأهل السنة والجماعة ، وأهل الحديث .

المبحث الثاني : من المقصودون بالسلف ، ونشأة التسمية بأهل السنة والجماعة ؟ .

المبحث الثالث : منهج السلف ، أهل السنة والجماعة في العقيدة .

* * *

المبحث الأول

التعريف بالسلف ، وأهل السنة والجماعة وأهل الحديث

أولا : السلف :

قال ابن فارس : « سلف » : السين واللام والفاء أصل يدل على تقدم وسبق ، من ذلك السلف الذين مضوا ، والقوم السلاف : المتقدمون [(١)] .

هذا هو أصل هذه الكلمة لغويا ، ولذا قال في العباب الزاخر : « وسلف يسلف سلفا – بالتحريك – مثال طلب يطلب طلبا أي : مضى قال الله تعالى : ﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] ، والقوم السلاف : المتقدمون ، وسلف الرجل : آباؤه المتقدمون ، والجمع أسلاف وسلاف » [(٢)] ، ثم نقل عن أبي عبيد الهروي معاني السلف ومنها : القرض ، والسلم ، ثم قال : « وللسلف معنيان آخران : أحدهما كل عمل صالح قدمه العبد أو فرط فرط له ، والسلف من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك » [(٣)] ، وهذان المعنيان ذكرهما أهل غريب الحديث ، ففي مشارق الأنوار : « والسلف : كل عمل صالح تقدم للعبد ، ومنه قوله في الدعاء للطفل : « اجعله لنا فرطا وسلفا » [(٤)] أي خيرا متقدما نجده في الآخرة ، والسلف أيضا : من تقدمك من آبائك وقرابتك [(٥)] ، ومثله في النهاية ، ومجمع بحار الأنوار [(٦)] ، ويشهد للمعنى الأخير : من تقدمك من آبائك وقرابتك ،

---

(١) معجم مقاييس اللغة ، مادة : « سلف » (٩٥/٣) .

(٢) العباب الزاخر : للحسن بن محمد الصغاني . حرف الفاء ، مادة : « سلف » .

(٣) المصدر السابق .

(٤) هذا الأثر مروى عن الحسن ، وقد علقه البخاري في صحيحه : كتاب الجنائز – باب قراءة فاتحة الكتاب على الجنازة (فتح الباري : ٢٠٣/٣) ، وذكره البخاري قبل حديث رقم (١٣٢٥) – وقد وصله ابن حجر كما في تغليق التعليق (٤٨٣/٢–٤٨٤) – وقد روى مسلم لفظة (فرطا وسلفا) من حديث آخر مرفوع ونصه : « إن الله تعالى إذا أراد رحمة أمة من عباده قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطا وسلفا بين يديها ... » (مسلم ، كتاب الفضائل : باب إذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها ، ورقمه : ٢٢٨٨) .

(٥) مشارق الأنوار (٢١٩/٢) .

(٦) انظر النهاية لابن الأثير ، مادة : « سلف » (٣٩٠/٢) . وانظر أيضا : مجمع بحار الأنوار : محمد طاهر الصديقي ، مادة : « سلف » (١٠٠/٣) . وانظر : لسان العرب ، مادة : « سلف » .

حديث فاطمة – رضي الله عنها – أن النبي – ﷺ – قال لها « ... ولا أراني إلا قد حضر أجلي وأنك أول أهلي لحوقا بي ، ونعم السلف أنا لك » [١] ، أي المتقدم . وكذا لما ماتت ابنته قال :« الحقي بسلفنا الصالح الخير ، عثمان بن مظعون ... » [٢] . ومنه الدعاء لأهل القبور : « أنتم سلفنا ونحن بالأثر » [٣] . أي : المتقدمون .

ونستخلص من هذا أن من معاني السلف : التقدم والسبق سواء كان بالعمل الصالح ، أو من تقدم من الآباء وذوي القرابة وغيرهم ، ومن هذا المعنى سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح [٤] .

ولما حدث الافتراق ونشأت البدع بدأ يتحدد مصطلح السلف في عرف المتأخرين بأنهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان . وسيأتي مزيد إيضاح ومناقشة لهذا بعد التعريف بالمصطلحات المرادفة لمصطلح :« السلف » ، مثل : أهل السنة ، والجماعة ، وأهل الحديث ، والأثر ، لأن هذه المصطلحات اشتهرت وكثر استعمالها ، وخاصة في مجال أصول العقائد .

ثانيا : أهل السنة :

السنة لغة : السيرة والطريقة ، قال ابن فارس : « سن » : السين والنون أصل واحد مطرد ، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة ، والأصل قولهم : سننت الماء على وجهي أسنه سنا ، إذا أرسلت إرسالا .... ، ومما اشتق منه السنة ، وهي السيرة ، وسنة رسول الله عليه السلام سيرته [٥] ، فالسنة هي الطريقة ،

---

(١) رواه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة – باب فضائل فاطمة ، ورقمه (٢٤٥٠) مكرر ، ورواه أحمد (٢٨٢/٦) .

(٢) رواه أحمد (٢٣٧/١) ، ورقمه عند أحمد شاكر (٢١٢٧) وفيه : أنها زينب ، ورواه أحمد أيضا (٣٣٥/١) ورقمه عند أحمد شاكر (٣١٠٣) وفيه : أنها رقية .

(٣) رواه الترمذي ، كتاب الجنائز – باب ما يقول الرجل إذا دخل المقابر ، ورقمه (١٠٥٣) تحقيق : فؤاد عبد الباقي .

(٤) النهاية مادة « سلف » (٣٩٠/٢) ، وتاج العروس مادة : « سلف » .

(٥) معجم مقاييس اللغة ، مادة : « سن » (٦٠/٣–٦١) ، وانظر : مجمل اللغة له (٥٤/٣–٥٥) . ط معهد المخطوطات – الكويت .

محمودة كانت أو مذمومة ، وهي مأخوذة من السنن وهو الطريق [١] ، ومنه الحديث : « من سن في الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها ، وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ، ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » [٢] ، يقول ابن الأثير : « وقد تكرر في الحديث ذكر « السنة » وما تصرف منها ، والأصل فيها الطريقة والسيرة [٣] ، وفي الحديث : « لتتبعن سنن من كان قبلكم » [٤] ، أي طريقهم ، وقولهم : « هي السنة » [٥] أي الطريقة التي سنها النبي عليه الصلاة والسلام وأمر بها [٦] ، ولذلك صار لفظ السنة يطلق على ما كان محمودا فيقال : فلان من أهل السنة ، معناه ، من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة [٧] .

أما السنة في الاصطلاح فلها عدة إطلاقات :

أ) ففي اصطلاح المحدثين : عرفها ابن حجر بأنها : « ما جاء عن النبي - ﷺ - من أقواله وأفعاله وتقريره وما هم بفعله » [٨] ، وعرفها البعض بأنها : « كل ما أثر عن النبي - ﷺ - من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، أو صفة خلقية أو خلقية ، أو سيرة ، سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها » [٩] ،

---

(١) انظر : لسان العرب ، مادة : « سنن » .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ، ورقمه (١٠١٧) .

(٣) النهاية ، مادة : « سنن » (٢٢٣/٢) .

(٤) رواه البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء - باب ما ذكر عن بني اسرائيل ورقمه (٣٤٥٦) ، فتح الباري (٤٩٥/٦) - السلفية ، ورواه مسلم كتاب العلم - باب اتباع سنن اليهود والنصارى ، ورقمه (٢٦٦٩) .

(٥) ترد كثيرا على لسان الصحابة والتابعين ، انظر مثلا : صحيح مسلم ، كتاب المساجد - باب جواز الإقعاء على العقبين ، ورقمه (٥٣٦) .

(٦) مشارق الأنوار (٢٢٣/٢) .

(٧) انظر : لسان العرب ، مادة : « سنن » .

(٨) فتح الباري (٢٤٥/١٣) . السلفية ، وانظر : توجيه النظر (ص : ٣) .

(٩) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للسباعي (ص : ٤٧) ، وانظر السنة قبل التدوين (ص : ١٦) ، ودراسات في الحديث النبوي للأعظمي (١/١) .

فهي بهذا مرادفة للحديث .

ب) وفي اصطلاح علماء أصول الفقه يطلق لفظ السنة على ما جاء منقولا عن النبي – ﷺ – على الخصوص ، مما لم ينص عليه في الكتاب العزيز ، بل إن ما نص عليه من جهته عليه الصلاة والسلام ، كان بيانا لما في الكتاب أولا » [١] ، فهي مختصة بما صدر عن النبي – ﷺ – من غير القرآن مما يصلح أن يكون دليلا شرعيا [٢] .

جـ) وفي اصطلاح الفقهاء فهي : ما ثبت عن النبي – ﷺ – ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب [٣] . فهي مرادفة للمندوب .

د) وقد تطلق السنة على كل ما دل عليه دليل شرعي ، سواء كان ذلك في الكتاب العزيز أو مأثورا عن النبي – ﷺ – ، أو اجتهد فيه الصحابة كجمع المصحف ، وتدوين الدواوين .. [٤] ، ودخول ما اجتهد فيه الصحابة يدل عليه حديث : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين » [٥] ، وقول علي في الخمر : « جلد النبي – ﷺ – أربعين ، وجلد أبو بكر أربعين ، وجلد عمر ثمانين ، وكل سنة » [٦] .

هـ) كما تطلق السنة في مقابل البدعة ، « فيقال : فلان على سنة ، إذا عمل على وفق ما عمل عليه السلام ، كان ذلك مما نص عليه الكتاب أو لا » [٧] .

---

(١) الموافقات للشاطبي (٣/٤) ، وانظر : النهاية لابن الأثير (٤٠٩/٢) .

(٢) انظر : السنة قبل التدوين (ص : ١٦) .

(٣) انظر : إرشاد الفحول (ص : ٣١) .

(٤) السنة للسباعي (ص : ٤٨) ، وانظر : الموافقات (٤/٤-٦) .

(٥) رواه الترمذي ، كتاب العلم – باب ما جاء في الأخذ بالسنة اجتناب البدع ، ورقمه (٢٦٧٦) ، تحقيق عطوه . ورواه أبو داود ، كتاب السنة – باب لزوم السنة ، ورقمه (٤٦٠٧) . ط الدعاس .

(٦) رواه مسلم ، كتاب الحدود – باب حد الخمر ، ورقمه (١٧٠٧) . وأحمد (٨٢/١) ، ورقمه عند أحمد شاكر (٦٢١) .

(٧) الموافقات (٤/٤) .

هذه أهم إطلاقات السنة عند العلماء [١] ، والذي يهمنا هنا اصطلاح « السنة » حينما يقال : « أهل السنة » في مجال العقائد ، خاصة لما حدث الافتراق في الأمة الإسلامية . يقول ابن رجب : « وعن سفيان الثوري قال : « استوصوا بأهل السنة خيرا فإنهم غرباء » [٢] ، ومراد هؤلاء الأئمة بالسنة طريقة النبي – ﷺ – التي كان عليها هو وأصحابه ، السالمة من الشبهات والشهوات ، ولهذا كان الفضيل بن عياض يقول : « أهل السنة من عرف ما يدخل في بطنه من حلال » [٣] ، وذلك لأن أكل الحلال من أعظم خصال السنة التي كان عليها النبي – ﷺ – وأصحابه رضي الله عنهم . ثم صار في عرف كثير من العلماء المتأخرين من أهل الحديث وغيرهم : السنة عبارة عما سلم من الشبهات في الاعتقادات خاصة في مسائل الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وكذلك في مسائل القدر ، وفضائل الصحابة ، وصنفوا في هذا العلم تصانيف وسموها كتب السنة ، وإنما خصوا هذا العلم باسم السنة لأن خطره عظيم ، والمخالف فيه على شفا هلكة ، وأما السنة الكاملة فهي الطريقة السالمة من الشبهات والشهوات » [٤] .

وهذا الذي ذكره ابن رجب – رحمه الله – استقر عليه مصطلح أهل السنة ، ولذلك لما وصل السمعاني في الأنساب إلى ذكر من نسب إلى السنة فقيل : « السني » قال : « السني : بضم السين المهملة ، وتشديد النون المكسورة ، هذه النسبة إلى السنة التي هي ضد البدعة ، ولما كثر أهل البدع

---

(١) يطلق لفظ : « أهل السنة » في مقابل الرافضة ، كما أن الرافضة يعنون به من عداهم ، يقول ابن تيمية في منهاج السنة (١٦٣/٢) ، المحققة : « فلفظ أهل السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة ، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى .... وهذا الرافضي – يعني المصنف – جعل أهل السنة بالاصطلاح الأول وهو اصطلاح العامة : كل من ليس برافضي قالوا : هو من أهل السنة » .

(٢) رواه اللالكائي في شرح السنة رقم (٤٩) .

(٣) رواه بلفظ مقارب اللالكائي في شرح السنة رقم (٥١) ، وأبو نعيم في الحلية (١٠٤/٨) .

(٤) كشف الكربة (ص : ١٩–٢٠) .

خصوا جماعة بهذا الانتساب » [١] ، ولما سأل عمرَ بن عبد العزيز رجلٌ عن القدر أجابه بجواب طويل أوله : « أما بعد ، أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمره [٢] ، واتباع سنة نبيه - ﷺ - ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته ، وكفوا مؤنته ، فعليك بلزوم السنة ، فإنها لك - بإذن الله - عصمة ... » [٣] . فأمره - وهو يجيبه عن موضوع القدر وما أحدث فيه أهل البدع - بلزوم السنة وأن فيها وحدها العصمة من الانحراف .

ثالثا : الجماعة :

يقال : « أهل السنة والجماعة » ، وقد ورد الأمر بلزوم الجماعة في عدة أحاديث ، منها ما رواه ابن عمر - رضي الله عنهما - أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خطب بالجابية [٤] ، فقال : قام فينا رسول الله - ﷺ - مقامي فيكم فقال : « استوصوا بأصحابي خيرا ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يفشو الكذب ، حتى إن الرجل ليبتدىء بالشهادة قبل أن يسألها ، فمن أراد منكم بحبحة [٥] الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد ... » [٦] ، وفي بعض روايات حديث الافتراق أن الفرقةالناجية : الجماعة [٧] ، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « الصلاة المكتوبة إلى الصلاة المكتوبة التي بعدها كفارة

---

(١) الأنساب (١٧٥/٧) ط لبنان .

(٢) أي التوسط بين الإفراط والتفريط . حاشية سنن أبي داود (١٩/٥) ، ط الدعاس .

(٣) رواه أبو داود ، كتاب السنة - باب لزوم السنة ، ورقمه (٤٦١٢) ، ط الدعاس .

(٤) الجابية : قرية بدمشق . تحفة الأحوذي (٢٠٧/٣) هندية .

(٥) في بعض الألفاظ - منها لفظ الترمذي - بحبوحة الجنة - والمعنى : وسطها وخيارها . تحفة الأحوذي (٢٠٧/٣) هندية .

(٦) رواه أحمد (٢٦،١٨/١) ، وهو في المسند تحقيق شاكر برقم (١٧٧،١١٤) . ورواه الترمذي في الفتن - باب ما جاء في لزوم الجماعة ، ورقمه (٢١٦٥) تحقيق : إبراهيم عطوة ، وقال فيه الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح غريب » . ورواه الحاكم في المستدرك (١١٤/١-١١٥) ، من طرق وصححه ووافقه الذهبي . ورواه ابن أبي عاصم في السنة (٤٢/١) من عدة طرق وصححه الألباني .

(٧) منها : رواية معاوية - رضي الله عنه - رواه الإمام أحمد (١٠٢/٤) ، وأبو داود ، =

لما بينهما ، قال : والجمعة إلى الجمعة ، والشهر إلى الشهر – يعني رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما – قال : ثم قال بعد ذلك : إلا من ثلاث – قال : فعرفت أن ذلك الأمر حدث – إلا من الإشراك بالله ، ونكث الصفقة ، وترك السنة ، قال : أما نكث الصفقة أن تبايع رجلا ثم تخالف إليه تقاتله بسيفك ، وأما ترك السنة فالخروج من الجماعة » [1] ، وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي – ﷺ – قال : « من رأي من أميره شيئا فليصبر ، فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية » [2] ، وغيرها من الأحاديث التي وردت بالأمر بلزوم الجماعة ، والنهي عن الخروج عليها .

وقد اختلف العلماء في المقصود بالجماعة على أقوال أهمها :

١ – أن الجماعة هم الصحابة دون من بعدهم ، « فإنهم الذين أقاموا عماد الدين ، وأرسوا أوتاده ، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أبدا » [3] ، وهذا القول مروى عن عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – فمما روى عنه

= كتاب السنة رقم (٤٥٩٧) – ط الدعاس ، والحاكم في المستدرك (١٢٨/١) ، والدارمي (١٥٨/٢) برقم (٢٥٢١) – ط اليماني ، والآجري في الشريعة (ص : ١٨) ، وابن أبي عاصم (٣٤/١ –٣٥) ، واللالكائي في شرح السنة (١٠١/١–١٠٢) ، وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وحسنه ابن حجر أحاديث الكشاف (ص : ٦٣) ، « ملحق في آخر الكشاف للزمخشري » . وجود اسناده العراقي – إحياء علوم الدين (٢٥٥/٣) ، وقال عنه ابن تيمية : « هذا حديث محفوظ » إقتضاء الصراط المستقيم (١١٨/١) ، المحققة . وصححه الألباني : سلسلة الصحيحة ، رقم (٢٠٤) .

ومنها : رواية عوف بن مالك – رضي الله عنه – رواها ابن ماجه ، كتاب الفتن ، رقم (٣٩٩٢) ، وابن أبي عاصم (٣٢/١) ، واللالكائي (١٠١/١) ، وإسناده حسن ، وذكره الألباني في الصحيحة رقم (١٤٩٢) . ومنها : رواية أنس بن مالك – رضي الله عنه – رواها الإمام أحمد (١٢٠/٣، ١٤٥) ، وابن ماجه في الفتن ، ورقمه (٣٩٩٣) ، واللالكائي (١٠٠/١) ، والآجرى في الشريعة (ص : ١٦–١٧) ، والطبراني في الصغير (٢٥٦/١) ، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢٦٢/٢) ، ويصح بمجموع طرقه .

(١) رواه أحمد (٢٢٩/٢) ، وهو في مسند شاكر ، برقم (٧١٢٩) وصححه ، ورواه الحاكم (١١٩/١–١٢٠) وقال : « صحيح على شرط مسلم ، ولا أعرف له علة » ووافقه الذهبي .

(٢) رواه البخاري في الفتن ، ورقمه (٧٠٥٤) ، وفي الأحكام ورقمه (٧١٤٣) ، ورواه مسلم في الإمارة ، ورقمه (١٨٤٩) .

(٣) الاعتصام (٢٦٢/٢) ، وانظر : فتح الباري (٣٧/١٣) .

أنه قال : « سن رسول الله – ﷺ – وولاة الأمر من بعده سننا ، الأخذ بها تصديق بكتاب الله ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، من عمل بها مهتدى ، ومن استنصر بها منصور ، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى وصلاه جهنم وساءت مصيرا » [(١)] ، قال مالك : « فأعجبني عزم عمر على ذلك » [(٢)] ، فعلى هذا القول فلفظ الجماعة مطابق للرواية الأخرى لحديث الافتراق حيث قال : « وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة قالوا : ومن هي يارسول الله ؟ ، قال : ما أنا عليه وأصحابي » [(٣)] ، والصحابة لهم خصوصيات كثيرة ، فهم الذين شاهدوا التنزيل ، وسمعوا من الرسول ، فلهم من العلم والفضل ، والاقتداء ما ليس لغيرهم ممن جاء بعدهم .

٢ – وقيل : إن الجماعة هم أهل الحديث ، أو أهل العلم [(٤)] المجتهدون « لأن الله جعلهم حجة على الخلق ، والناس تبع لهم في أمر الدين » [(٥)] ،

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢٢٨/٢) بسنده إلى مالك عن عمر بن عبد العزيز ، وأيضا رواه أبو نعيم في الحلية (٣٦٤/٦) ، والآجري في الشريعة في عدة مواضع (ص : ٤٨، ٦٥، ٣٠٧) ، واللالكائي في شرح السنة رقم (١٣٤) . ولكن هذا الكلام مروى عن مالك ، رواه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص : ٧) ، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٨٨/٨) .

(٢) الاعتصام (٢٦٣/٢) .

(٣) رواه الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، كتاب الإيمان ، ورقمه (٢٦٤١) ، ورواه الحاكم (١٢٨/١–١٢٩) ، والآجري في الشريعة من طريقين (ص : ١٥–١٦) ، واللالكائي في شرح السنة ، رقم (١٤٥–١٤٧) ، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢٦٢/٢) ، وابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص : ٨٥) .

وقال فيه الترمذي : « هذا حديث حسن ، غريب مفسر لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه ، قال في تحفة الأحوذي (٣٦٨/٣) ، هندية : « في سنده عبد الرحمن بن زياد الإفريقي وهو ضعيف ، فتحسين الترمذي له لاعتضاده بأحاديث الباب » . قول الترمذي « مفسر » اسم مفعول من التفسير ، أي : مبين ، بين فيه ما لم يبين في حديث أبي هريرة المتقدم (تحفة الأحوذي : ٣٦٨/٣ – هندية) ، وذكره ابن تيمية محتجا به ، حيث نقل تحسين الترمذي له . اقتضاء الصراط المستقيم (١١٦/١) المحققة .

(٤) يلاحظ أن بعض العلماء عبر عن الحديث بالعلم ، فالخطيب البغدادي سمى كتابه : تقييد العلم ، وابن عبد البر سمى كتابه : جامع بيان العلم وفضله ، وقصدهم الحديث .

(٥) فتح الباري (٣٧/١٣) .

وهذا رأي الإمام البخارى قال : « باب ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، وما أمر النبي – ﷺ – بلزوم الجماعة ، وهم أهل العلم » (١) ، وهو رأي الإمام أحمد – رحمه الله – ، فإنه قال عن الجماعة : « إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم (٢) ؟ » ، وهو رأي الترمذي الذي قال : « وتفسير الجماعة عند أهل العلم : هم أهل الفقه والعلم والحديث » (٣) ، وهو رأي ابن المبارك وعلي بن المديني ، وأحمد بن سنان الذي قال : « هم أهل العلم وأصحاب الآثار » (٤) .

فعلى هذا القول فالجماعة هم أهل السنة العالمون المجتهدون ، فيخرج منهم المبتدعة ، كما يخرج العامة المقلدة لأن الغالب فيهم أنهم تبع للعلماء .

٣ – وقيل : إن الجماعة هم السواد الأعظم ، وعليه رواية الافتراق التي أخبر النبي – ﷺ – فيها أن الفرقة الناجية هم السواد الأعظم (٥) ، قال في النهاية : « عليكم بالسواد الأعظم (٦) : أي جملة الناس ومعظمهم ، الذين يجتمعون على طاعة السلطان وسلوك النهج القويم » (٧) ، يقول عبد الله مسعود – رضي الله عنه – في إحدى خطبه : « يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة ، فإنهما السبيل في الأصل إلى حَبْلُ الله الذي أمر به ، وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة » (٨) ، ويقول أبو غالب – رحمه الله – :

---

(١) صحيح البخاري : فتح الباري (٣١٦/١٣) .

(٢) شرف أصحاب الحديث (ص : ٢٥) .

(٣) سنن الترمذي (٤٦٥/٤) .

(٤) شرف أصحاب الحديث (ص : ٢٦–٢٧) .

(٥) رواه الطبراني في الكبير من طرق (٣٢١/٨–٣٢٨) ، وأرقامه (٨٠٣٥، ٨٠٥١، ٨٠٥٣، ٨٠٥٤) ، ورواه اللالكائي في شرح السنة من طريقين ، رقمها (١٥١–١٥٢) ، ورواه ابن أبي زمنين في أصول السنة (ص : ٣٦) ، من المخطوطة ، والحارث ابن أبي أسامة كما في المطالب العالية (٨٦/٣) ، كما رواه مختصرا بدون ذكر الافتراق : أحمد والترمذي وابن ماجه في قصة الخوارج . قال في مجمع الزوائد (٢٣٤/٦) : « ورواه الطبراني ورجاله ثقات » .

(٦) رواه ابن ماجه – مرفوعا – في الفتن ، رقمه (٣٩٥٠) ، وإسناده ضعيف ، وروى موقوفا عن أبي أمامة . مسند أحمد (٢٧٨/٤) ، وعن عبد الله بن أبي أوفى – المسند أيضا (٣٨٣/٤) .

(٧) النهاية (٤١٩/٦) .

(٨) رواه اللالكائي ، رقم (١٥٨–١٥٩) ، والآجري في الشريعة (ص : ١٣) .

« إن السواد الأعظم هم الناجون من الفرق ، فما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق ، ومن خالفهم مات ميتة جاهلية سواء خالفهم في شيء من الشريعة أو في إمامهم وسلطانهم فهو مخالف للحق » [١] ، ويقول أبو مسعود الأنصاري – رضي الله عنه – حين خرج ونزل في طريق القادسية وقال له أصحابه : اعهد إلينا ، فإن الناس قد وقعوا في الفتنة فلا ندري أنلقاك بعد اليوم أم لا . فقال : « اتقوا الله واصبروا حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر ، وعليكم بالجماعة فإن الله لا يجمع أمته على الضلالة » [٢] ، يقول الشاطبي معقبا : فعلى هذا القول يدخل في الجماعة مجتهدو الأمة وعلماؤها ، وأهل الشريعة العاملون بها ، ومن سواهم داخلون في حكمهم لأنهم تابعون لهم ومقتدون بهم ، فكل من خرج عن جماعتهم فهم الذين شذوا وهم نهبة الشيطان ، ويدخل في هؤلاء جميع أهل البدع ؛ لأنهم مخالفون لمن تقدم من الأمة ، لم يدخلوا في سوادهم بحال » [٣] . ويقول الآجري : « فمن أراد الله تعالى به خيرا فتح له باب الدعاء ، والتجأ إلى مولاه الكريم وخاف على دينه ، وحفظ لسانه ، وعرف زمانه ، ولزم الحجة الواضحة السواد الأعظم ... » [٤] .

٤ – وقيل : إن الجماعة هم جماعة أهل الإسلام إذا أجمعوا على أمر من أمور الشرع سواء في أمور الأحكام أو المعتقدات ، يقول الكرماني : « يلزم على المكلف متابعة حكم الجماعة والاعتصام به ، وهو اتفاق المجتهدين من الأمة في عصر على أمر ديني [٥] فهذا القول يفسر الجماعة بأهل الإجماع ، ولذا فهو قريب من القول الثاني .

٥ – إن الجماعة : هم جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير ، وهذا رأي الطبري الذي ذكر الأقوال السابقة ، ثم قال : « والصواب أن المراد من الخبر

---

(١) الاعتصام (٢/٢٦٠) .
(٢) رواه اللالكائي ، ورقمه (١٦٢-١٦٣) .
(٣) الاعتصام (٢/٢٦١) .
(٤) الشريعة (ص : ٤٤) .
(٥) شرح الكرماني على البخاري (٢٥/٧٥) .

لزوم الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره ، فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة » [١] ، ولذا أمر النبي - ﷺ - بلزومه ، ونهى عن الخروج عليه ، وفراق الأمة فيما أجمعوا عليه من تأميره وتقديمه عليهم [٢] .

هذه أهم الأقوال في الجماعة وحاصلها أن الجماعة ترجع إلى أمرين :

أحدهما : أن الجماعة هم الذين اجتمعوا على أمير على مقتضى الشرع ، فيجب لزوم هذه الجماعة ، ويحرم الخروج عليها وعلى أميرها .

الثاني : أن الجماعة ما عليه أهل السنة من الاتباع وترك الابتداع ، وهو المذهب الحق الواجب اتباعه والسير على منهاجه ، وهذا معنى تفسير الجماعة بالصحابة ، أو أهل العلم والحديث ، أو الاجماع ، أو السواد الأعظم ، فهي كلها ترجع إلى معنى واحد هو : ما كان عليه رسول الله - ﷺ - وأصحابه ، فيجب الاتباع حينئذ ولو كان المتمسك بهذا قليلا ، ولهذا قال عبد الله ابن مسعود - رضي الله عنه - إنما الجماعة ما وافق طاعة الله وإن كنت وحدك » [٣] ، وروى عنه أنه قال : « إنما الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك » [٤] ، يقول أبو شامة : « حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه ، وإن كان المتمسك بالحق قليلا والمخالف كثيرا ، لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي -ﷺ - وأصحابه - رضي الله عنهم - ولا تنظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم » [٥] ، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول - ﷺ - باطنا وظاهرا ، واتباع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، واتباع وصية رسول الله - ﷺ - حيث قال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ،

---

(١) فتح الباري (٣٧/١٣) .
(٢) انظر الإعتصام (٢٦٤/٢-٢٦٥) .
(٣) رواه اللالكائي في شرح السنة ، رقمه (١٦٠) .
(٤) الحوادث والبدع لأبي شامة (ص : ٢٢) .
(٥) المصدر السابق (ص : ٢٢) .

وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة »[١] ، ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد - ﷺ - ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس ، ويقدمون هدى محمد - ﷺ - على هدى كل أحد ، وبهذا سموا أهل الكتاب والسنة ، وسموا أهل الجماعة ؛ لأن الجماعة هي الاجتماع وضدها الفرقة ، وان كان لفظ الجماعة قد صار اسما لنفس القوم المجتمعين ، و« الإجماع » هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين ، وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة وظاهرة مما له تعلق بالدين »[٢] . ولهذا نجد أحيانا بعض العلماء يفسرون الجماعة بأشخاص تمثل فيهم المنهج الحق والاتباع ، فعبد الله ابن المبارك لما سئل عن الجماعة قال : « أبو بكر وعمر ، فقيل له : قد مات أبو بكر وعمر ، قال : ففلان وفلان ، قيل له : قد مات فلان وفلان ، قال ابن المبارك : أبو حمزة السكري جماعة »[٣] . فأراد ابن المبارك أن يفسر الجماعة بمن اجتمعت فيه صفات الاتباع الكامل للكتاب والسنة .

رابعا : أهل الحديث

تقدم في القول الثاني من الأقوال في المقصود بالجماعة : أنهم أهل الحديث ، وان هذا قال به جماعة من أهل العلم كالبخاري والإمام أحمد ، والترمذي ، وابن المبارك ، وابن المديني ، وأحمد بن سنان ، وغيرهم . ولذلك صار عند كثير من العلماء أن الفرقة الناجية والتي يجب السير على منهاجها هم أهل الحديث . ولذلك فسنعرف بهم هنا :

الحديث في اللغة ضد القديم[٤] ، وفي الاصطلاح : عرفه بعضهم بأنه :

---

(١) سبق تخريجه عند الكلام عن معنى « أهل السنة » .

(٢) مجموع الفتاوى - ط الرياض (١٥٧/٢) .

(٣) سنن الترمذي (٤٦٧/٤) بعد حديث رقم (٢١٦٧) ، تحقيق : عطوة ، وشرح السنة للبغوي (٢٠٥/١) ت : السيد صقر .

(٤) الصحاح للجوهري ، مادة : حدث .

« ما أضيف إلى النبي - ﷺ - من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خلقي أو خلقي »[١] ، وعلى هذا فلا يشمل الموقوف والمقطوع[٢] ، ولكن جمهور العلماء ذهبوا إلى أنهما من الحديث[٣] .

علم الحديث :

علم الحديث قسمان :

أ) علم الحديث رواية : وهو : « علم يشتمل على أقوال النبي - ﷺ - وأفعاله وتقريراته ، وصفاته ، وروايتها وضبطها وتحرير ألفاظها »[٤] .

ب) علم الحديث دراية : وهو : « علم بقوانين يعرف بها أحوال السند والمتن »[٥] ، وهو ما يعرف بمصطلح الحديث .

واذا قيل : « أهل الحديث » فالمقصود بهم الذين يعنون بحديث رسول الله - ﷺ - رواية ودراية ، ولكن لابد لهؤلاء - حتى يكونوا من أهل الحديث حقا - أن يكونوا عالمين وعاملين ، وأن يكونوا مطبقين لما يتعلمونه ، متبعين للسنة مجانبين للبدعة ، وبهذه الأمور يتميزون عن أهل الأهواء ، أما إذا كانوا لا يعملون بعلمهم - كما يحدث من بعض من ينتسب إلى الحديث - فقد اشتد نكير العلماء على مثل هؤلاء[٦] . وقد روى عن هارون الرشيد أنه قال : « طلبت أربعة فوجدتها في أربعة : طلبت الكفر فوجدته في الجهمية ، وطلبت الكلام والشغب فوجدته في المعتزلة ، وطلبت الكذب فوجدته عند الرافضة ،

---

(١) منهج النقد في علوم الحديث (ص : ٢٦) .

(٢) الموقوف : ما أضيف إلى الصحابي ، والمقطوع : ما أضيف إلى التابعي .

(٣) منهج النقد (ص : ٢٧) وانظر : نزهة النظر (ص : ١٨) .

(٤) تدريب الراوي (٤٠/١) .

(٥) المصدر السابق (٤١/١) .

(٦) انظر مثلا : جامع بيان العلم وفضله (٢٢٩٤١) وما بعدها ، وشرف أصحاب الحديث (ص : ١٢٠) وما بعدها .

وطلبت الحق فوجدته مع أصحاب الحديث » [١] ويروى الخطيب عن أحمد بن سنان قال : « كان الوليد الكرابيسي خالي ، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه : تعلمون أحدا أعلم بالكلام مني ؟ قالوا : لا ، قال : فتتهموني ؟ ، قالوا : لا ، قال : فإني أوصيكم أتقبلون ؟ ، قالوا : نعم ، قال : عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإني رأيت الحق معهم ...» [٢] .

فأهل الحديث مرادف لأهل السنة ، يقول اللالكائي : « فلم نجد في كتاب الله وسنة رسوله وآثار صحابته إلا الحث على الاتباع ، وذم التكلف والاختراع ، فمن اقتصر على هذه الآثار كان من المتبعين ، وكان أولاهم بهذا الاسم ، وأحقهم بهذا الوسم ، وأخلصهم بهذا الرسم » أصحاب الحديث « لاختصاصهم برسول الله - ﷺ - واتباعهم لقوله ، وطول ملازمتهم له ، وتحملهم علمه ...» [٣] ، ثم يعلل وجه تسميتهم بأهل الحديث بأن اسمهم مأخوذ من الكتاب والسنة لاتباعهم ما فيهما ، فهم حملة القرآن وأهله وقراؤه وحفظته ، وهم نقلة حديث رسول الله - ﷺ - وحملته [٤] .

* * *

هذه تعريفات للمصطلحات التي تطلق على السلف ، أصحاب المذهب الحق ، والمنهج الحق ، وهي كلها تدل على معنى واحد ، ولذلك يمكن أن يفسر بعضها بما تدل عليه معاني البعض الآخر ، فهم الجماعة ، وهم أهل السنة ، وهم أيضا أهل الحديث ، وهم الطائفة المنصورة التي قال فيها رسول الله - ﷺ - :

---

(١) شرف أصحاب الحديث (ص : ٥٥) .

(٢) المصدر السابق (ص : ٥٦) .

(٣) شرح السنة للالكائي (٢٢/١) .

(٤) انظر : المصدر السابق (٢٤/١) .

« لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس »[١] وفي لفظ « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك »[٢] .

* * *

(١) راه مسلم ، كتاب الإمارة ، ورقمه بعد حديث رقم (١٩٢٣) .

(٢) رواه مسلم ، ورقمه (١٩٢٠) ، عن ثوبان ، ورواه البخاري عن المغيرة بن شعبة ، ورقمه (٢٦٤٠) ، وهذا الحديث مروى في جميع كتب السنة – تقريبا – عن عدد كبير من الصحابة ، فهو متواتر .

المبحث الثاني
من المقصود بالسلف ؟ ونشأة التسمية بأهل السنة والجماعة

من المقصود بالسلف ؟

لقد تنوعت الآراء والمذاهب حول المقصود بمذهب السلف ، وعلى من ينطبق وصف « السلف » الذين يجب اتباع مذهبهم والسير على منهاجهم ، والسبب أن كل فئة تنطلق من وضعها الخاص بها وتدعى أن ما معها هو المذهب الحق ؛ لذلك نجد هذه الفئة تحدد المقصود بالسلف بما يتلاءم مع ما عندها من أصول عقائدية ، أو منهج ارتضته للوصول إلى ما يجب اعتقاده .

أ) فأحيانا يتجه البعض [١] – من المحدثين – إلى حصر مذهب السلف بفترة معينة لا يتعداها ، ثم يزعم أن الفكر الإسلامي قد تطور بعد ذلك على يد رجاله ، وهذا التطور لا ينحصر عنده في نطاق فئة معينة ، وإنما كل ما ظهر من الآراء والفرق منتسبا بعمومه إلى الإسلام فهو جزء منه ، ولو خالف ما كان عليه السلف في المنهج والفهم والاعتقاد ، وعلى هذا فالمعتزلة والرافضة بل والجهمية والباطنية هم نتاج مذهب السلف بعد تطويره وبعثه ، وتجريده من ثوبه التقليدي البسيط إلى لباس العقل الفلسفي والتأويل الكلامي والباطني .

ولذلك فكثيرا ما يزعم بعض هؤلاء أن عقيدتهم هي التعبير الصحيح عن مذهب السلف ، وأن مذهب السلف – بشكله المعروف – إنما ناسب الزمن الذي نشأ فيه ، وأن رجاله الأوائل لو عاشوا إلى الزمن الذي بعدهم لطوروه إلى المستوى الذي وجد عليه فيما بعد .

ب) وبعضهم يفهم أن السلف نصيون ، يعتمدون على النصوص فقط ، أما العقل فلا يعتمد عليه في شيء أبدا ، فهم يسلمون فقط لظاهر النصوص دون فهم لها ، ويكلون علمها – معانيها وكيفيتها – إلى الله تعالى ،

---

(١) أمثال مصطفى غالب وعارف تامر ، وغيرهم ، ممن يعنون ويميلون إلى الأفكار الباطنية والفلسفية .

ولذلك فقد شغلوا أنفسهم بما يرون أنه أنفع ؛ من العبادة والجهاد في سبيل الله ، وإقراء القرآن ، ونقل الحديث وروايته .

والعجيب أن مفهوم هؤلاء عن السلف ومنهجهم منتشر بين جمهرة كبيرة من العلماء الذين نحوا منحى كلاميا – في عقائدهم أو في كتبهم حول العقيدة – وأيضا من الذين كتبوا حول الفلسفة وعلم الكلام ، أو أية قضية من قضاياه ، ولذلك انتشرت بين هؤلاء جميعا عبارة : أن مذهب السلف هو التفويض ، أو عبارة بعض السلف : « أمروها كما جاءت » ، أو أن مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم وأحكم [1] .

أما العقل عند السلف – على رأي هؤلاء – فلا يعتمد عليه مطلقا ، ولا أدري ما يصنع هؤلاء بالدلائل العقلية التي جاء بها القرآن والسنة ، والتي استخدمها علماء السلف في العصر الأول ؟ .

ويعلل هؤلاء نشوء ما يسمى بمذهب « الخلف » أو « علم الكلام » بأنه لما كثرت الشبهات التي تثار ضد العقيدة الإسلامية ، رأى علماء الإسلام أنه لا يكفي للرد عليها وإبطالها وحماية الناس – وخاصة العامة منهم – من شرورها وآثارها لا يكفي في ذلك الاعتماد على مذهب السلف النصي ، فنشأ علم الكلام بمباحثه العقلية والكلامية ليرد الشبهات ويثبت العقيدة ويظهر الحجاج لها في أجواء سادت فيها مذاهب الفلاسفة والجهمية والمعتزلة والقرامطة .

فهل فهم هؤلاء لمذهب السلف كان صحيحا ؟ حين قصروه على الإيمان بالنصوص والتسليم دون فهم أو اقتناع ؟

جـ) وتأتي فئة أخرى تزعم أن ما نشأ من الدراسات العقلية في علم الكلام لم ينشأ من المؤثرات الخارجية والشبهات التي أثارها أعداء العقيدة – وإن كان قد تطور بسببها – وإنما نشأ من مذهب السلف نفسه وأن بواكير الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام إنما جاءت من القرآن الكريم ، ففيه المجادلة للمخالفين من أهل الديانات الأخرى وغيرهم ، وفيه ذكر الحكمة التي كانت

---

(١) كما هو منتشر في كتب كثير من الأشعرية وغيرهم .

معروفة عند العرب وكان يفتخر بأصحابها ، وأن ما نشأ من البحث حول الاجتهاد في الأحكام الشرعية ، وذلك بما يسمى بأصول الفقه إنما هو بداية ظهور الاتجاه العقلي عند المسلمين [١] .

فالذي يفهم من هذا أن السلف - رحمهم الله تعالى - كانوا يحترمون النصوص ، ولكن من خلال منظار عقلي استخدموه ونشأ على أثره علم الكلام ، فكيف يصح هذا على إطلاقه مع ما هو متواتر عن السلف من الإيمان والتسليم والثقة المطلقة بما جاءت به النصوص ، وأن هذه الثقة توجد على أتمها حين ترد على النفس أو يورد بعض الناس - شبهات أو وساوس حولها ؟ .

د) وإذا كانت الآراء السابقة تنحو منحى خاصا في فهم المقصود بمذهب السلف ، فإن هناك اتجاها آخر يزعم أصحابه أن مذهب السلف يشتمل على عدة اتجاهات وتيارات ، وأن هذه التيارات وإن تباينت في المنهج - إلاّ أنها تلتقي في أنها قامت ونشأت على يد علماء الإسلام ممن هم من أهل الدين والفضل والعلم بالأحكام ، يقول ابن السبكي في شرح عقيدة ابن الحاجب : « اعلم أن أهل السنة والجماعة كلهم قد اتفقوا على معتقد واحد فيما يجب ويجوز ويستحيل وإن اختلفوا في الطرق والمبادىء الموصلة لذلك ، وبالجملة فهم بالاستقراء ثلاث طوائف :

الأولى : أهل الحديث ، ومعتمد مبادئهم الأدلة السمعية : الكتاب والسنة والإجماع .

الثانية : أهل النظر العقلي ، وهم الأشعرية والحنفية ، وشيخ الأشعرية أبو الحسن الأشعري ، وشيخ الحنفية : أبو منصور الماتريدي ، وهم متفقون في المبادىء السمعية فيما يدرك العقل جوازه فقط ، والعقلية والسمعية في غيرها ، واتفقوا في جميع المطالب الاعتقادية إلاّ في مسائل .

---

(١) انظر : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، مصطفى عبد الرازق ، (ص : ١١٥-١٢٣) ، وانظر : المدرسة السلفية ، حسين نصار ، (ص : ٦٢٤-٦٢٥) .

الثالثة : أهل الوجدان والكشف ، وهم الصوفية ، ومبادئهم مبادىء أهل النظر والحديث في البداية والكشف والإلهام في النهاية » [١] ، وهكذا يخلط بين اتجاه أهل الحديث ، والاتجاه التأويلي للأشعرية والماتريدية ، واتجاه الكشف عند المتصوفة ليصبح كل اتجاه منها هو مذهب أهل السنة والجماعة .

* * *

وهذه الاتجاهات والآراء حول تحديد المقصود بالسلف نشأ الخطأ في كل واحد منها من جهة أنه لم ينطلق أصحابها من منطلق شرعي واضح ، مبني على الكتاب والسنة اللذين أمرا بالاتباع ونهيا عن الابتداع ، وحددا معالم المنهج والطريق الذي يجب السير فيه ، ومن ثم يجب اتباع من سار على هذا الطريق المستقيم .

ومما ينبغي ملاحظته أنا إذا أردنا أن نبين القول الصحيح في تحديد من هم الذين يصدق عليهم اسم السلف ، تبرز بعض الملاحظات والاعتراضات :

أ) **فمثلا** : حين نقول : إن السلف هم الصحابة والتابعون والتابعون لهم للحديث الوارد : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم .. » [١] ، يرد الاعتراض بأن التفرق والاختلاف نشأ في عهد هؤلاء ، فالخوارج والشيعة والقدرية وجدوا في عهد الصحابة ، وكذا بقية الفرق بعد هؤلاء بقليل ، فهل وجود هؤلاء في هذه الفترة الزمنية التي هي خير القرون يعطيهم صفة السلفية المفضلة ؟ ، وإذا كان الجواب قطعا بالنفي فلابد من التقييد لمثل هذا الإطلاق في تحديد من هم السلف بحيث لا يقتصر على التحديد الزمني فقط .

---

(١) إشارات المرام للبياضي – الحاشية – (ص : ٢٩٨) .

(٢) رواه البخاري ، في الشهادات ، ورقمه (٢٦٥١) ، وانظر أطرافه بعد ذكر الحديث . ورواه مسلم في فضائل الصحابة ، وأرقامه (٢٥٣٣–٢٥٣٦) .

ب) وكذلك حينما يقال : إن السلف هم الذين يعتمدون في أقوالهم على الكتاب والسنة ، يبرز اعتراض خلاصته : من الذي يعتمد عليه في فهم الكتاب والسنة ؛ خاصة وأن الفرق كلها تدعي الاعتماد على القرآن والسنة ؟ ، فالإطلاق هكذا يحتاج إلى بيان وإيضاح .

جـ) وكذلك حين يحصر البعض مذهب السلف بالأئمة الأربعة : أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ، فمن كان قبل هؤلاء من الصحابة والتابعين أليسوا أولى بوصف السلف ؟ .

لذلك لابد من التحديد الدقيق للتعريف بالسلف بحيث يشمل :

أولا : التحديد الزمني : ليشمل الصحابة والتابعين والتابعين لهم بإحسان ، وهذا لبيان المنطلق والبداية لمذهب السلف ، وفائدة هذا التحديد الرجوع إلى أقوال رجال هذا الزمن وإلى فهمهم عند الاختلاف الذي قد ينشأ فيمن بعدهم . وهذه مسألة مهمة جدا ؛ إذ الخلاف الحاصل بعد القرون المفضلة بين من يتمسك بمذهب السلف ومن عداهم من أهل الأهواء والبدع لا يمكن حسمه إلاّ بالاتفاق على مثل هذا التحديد التاريخي ليحتكم إلى إجماعهم – إذا أجمعوا – أو أقوالهم ، أو فهمهم للنصوص .

ولا يعني هذا حصر مذهب السلف في هؤلاء ، لأن كل من قال بقولهم فهو على السلف وإن تأخر .

ثانيا : ثم يأتي بعد ذلك بيان أن الفهم والمنطلق يجب أن يكون بما يوافق الكتاب والسنة ، فمن ابتدع في أمر من الأمور واتخذ لبدعته منهاجا خاصا ، لا يكون قوله قولا للسلف ، ولو كان هذا في القرون الأولى ، لأن وجوده في هذا الزمن لا يكفي للحكم عليه بأنه سائر على مذهب السلف .

ثالثا : بعد ظهور الافتراق يصبح مدلول « السلف » منطبقا على من حافظ « على العقيدة والمنهج الإسلامي ، طبقا لفهم الأوائل الذين تلقفوه جيلا

بعد جيل » [١] ، فمن سار على طريقة الصدر الأول من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، الذين اتبعوا و لم يبتدعوا فهو سائر على مذهب السلف ، وهو أيضا بالنسبة لمن بعده من السلف .

والخلاصة أن مصطلح السلف صار له مدلولان :

* مدلول خاص : وهذا ينطبق على مذهب الصحابة والتابعين ، والتابعين لهم بإحسان ، ممن لم يبتدعوا ، وهذا فيه حصر تاريخي .

* ومدلول أعم : يشمل ما بعد هذه القرون المفضلة ، وهذا شامل لكل من سار على طريقة ومنهج خير القرون ، والتزم النصوص والفهم الذي فهموه [٢] .

نشأة التسمية بأهل السنة والجماعة :

إذا كان مذهب أهل السنة والجماعة هو ما كان عليه رسول الله – ﷺ – وأصحابه ، فإطلاق القول بنشأة أهل السنة كما يقال نشأة المعتزلة والجهمية أو نشأة الرافضة ؛ لا معنى له ؛ لأنه واضح تمام الوضوح ، ولذلك آثرنا أن يكون العنوان : نشأة التسمية بأهل السنة والجماعة كمصطلح عليهم ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « ومذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم ، معروف ، قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد ، فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم ، ومن خالف ذلك كان مبتدعا عند أهل السنة والجماعة فإنهم متفقون على أن إجماع الصحابة حجة ، ومتنازعون في إجماع من بعدهم » [٣] .

والمتتبع لنشأة التسمية بأهل السنة يلاحظ أنها ربطت بالإمام أحمد – رحمه الله – وليس ذلك لأن الإمام أحمد هو الذي أنشأه ، وإنما لأنه هو الإمام الذي امتحن فيه فصبر فصار إماما من أئمة أهل السنة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية

---

(١) قواعد المنهج السلفي ، مصطفى حلمي (ص : ٢٣) ط ثانية .
(٢) انظر : المصدر السابق ، نفس الصفحة .
(٣) منهاج السنة (٤٨٢/٢) تحقيق محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى .

بعد الكلام السابق : « وأحمد بن حنبل وإن كان قد اشتهر بإمامة السنة والصبر في المحنة ، فليس ذلك لأنه انفرد بقول أو ابتدع قولا ، بل لأن السنة التي كانت موجودة معروفة قبله علمها ودعا إليها ، وصبر على من امتحنه ليفارقها ، وكان الأئمة قبله قد ماتوا قبل المحنة ، فلما وقعت محنة الجهمية نفاة الصفات في أوائل المئة الثالثة – عهد المأمون وأخيه المعتصم ثم الواثق – ودعوا الناس إلى التجهم وإبطال صفات الله تعالى ، وهو المذهب الذي ذهب إليه متأخرو الرافضة ، وكانوا قد أدخلوا معهم من أدخلوه من ولاة الأمور ، فلم يوافقهم أهل السنة حتى تهددوا بعضهم بالقتل ، وقيدوا بعضهم ، وعاقبوهم ، وأخذوهم بالرغبة والرهبة ، وثبت الإمام أحمد على ذلك الأمر حتى حبسوه مدة ، ثم طلبوا أصحابهم لمناظرته ، فانقطعوا معه في المناظرة يوما بعد يوم ...[وذكر المحنة] ثم قال : « ثم صارت هذه الأمور سببا في البحث عن مسائل الصفات وما فيها من النصوص والأدلة والشبهات من جانبي المثبتة والنفاة ، وصنف الناس في ذلك مصنفات ، وأحمد وغيره من علماء السنة والحديث ما زالوا يعرفون فساد مذهب الروافض والخوارج والقدرية والجهمية والمرجئة ، ولكن بسبب المحنة كثر الكلام ، ورفع الله قدر هذا الإمام ، فصار إماماً من أئمة السنة ، وعلما من أعلامها ، لقيامه بإعلامها وإظهارها ، واطلاعه على نصوصها وآثارها ، وبيانه لخفي أسرارها ، لا لأنه أحدث مقالة أو ابتدع رأيا ، ولهذا قال بعض شيوخ المغرب : المذهب لمالك والشافعي ، والظهور لأحمد ؛ يعني أن مذاهب الأئمة في الأصول مذهب واحد ، وهو كما قال » (١) .

فمن هذا النص يتبين أن مذهب أهل السنة والجماعة امتداد لما كان عليه الرسول – ﷺ – وأصحابه ، فإذا ما قام إمام من الأئمة في زمن البدع بالدعوة إلى العقيدة السليمة وإلى منهج أهل السنة ، ومحاربة ما يخالفها فهذا الإمام لم يأت بجديد ، وإنما جدد ما اندرس من مذهب أهل السنة وأحيا ما مات منه ، وإلا فالعقيدة لم تتغير ، فإذا ما نسب – في بعض الأزمان أو الأمكنة – مذهب

---

(١) منهاج السنة (٢/٤٨٢-٤٨٦) تحقيق : محمد رشاد سالم .

أهل السنة إلي عالم من العلماء ، أو مجدد من المجددين فلأنه دعا اليه لا لأنه ابتدعه أو اخترعه .

ومما سبق يتبين أن طرح النشأة لمذهب أهل السنة ينبغي أن ينصب على التسمية ، أما النشأة ذاتها فواضحة لأنها كانت مع مجيء الإسلام الذي وضح وكمل أتم كمال وأبينه في عهد الرسول - ﷺ - فمن جاء بعده إذا قيل عنه : إنه إمام أهل السنة - في زمنه أو بعد زمنه - فلأنه دعا إلى الأصول الأولى لمذهب أهل السنة وجدد ما اندرس منها .

وبدء التسمية مرتبط بنشأة الفرق ؛ لأن من الطبيعي أن يتميز أهل السنة عن بقية أهل الأهواء من أهل الفرق الذين انحرفوا عن المنهج السوي والذين ابتدعوا أقوالا وآراء مخالفة لما كان عليه أهل الصدر الأول .

والكلام حول بدء الفتنة ونشوء الفرق يطول ، ولكن نشير إلى لمحات في هذا الأمر لنصل إلى حقيقة تميز أهل السنة عن غيرهم :

١ - من المعلوم أن الفتنة وقعت في آخر عهد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وكان من آثارها استشهاده ، ثم نشأت على أثر ذلك الفرق ، وكان أول بدعة نشأت بدعة الخوارج والروافض ، فالخوارج كفروا عليا - رضي الله عنه - وخرجوا عليه ، والروافض ادعوا إمامته وعصمته ، أو نبوته أو إلهيته .

ثم بعد ذلك أخذت البدع تتوالى في الظهور فـ « لما كان في آخر عصر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك حدثت بدعة المرجئة والقدرية ، ثم لما كان في أول عصر التابعين - في أواخر الخلافة الأموية - حدثت بدعة الجهمية والمشبهة والممثلة ، ولم يكن على عهد الصحابة شيء من ذلك » [1] .

٢ - كانت بدعتا الروافض والخوارج - من أول البدع ظهورا - كما سبق - وكانتا من المعالم الرئيسة في تميز أهل السنة والجماعة أو أهل الحديث :

---

(١) المنتقى (ص : ٣٨٧) .

أ) ففي أجواء هذه الفتنة بدأ المسلمون يعنون بالبحث عن الإسناد ، والكلام في الرجال ، وذلك لأن السلف خافوا من الكذب على رسول الله - ﷺ - ، خاصة وأن دواعي ذلك موجودة في مثل هذه الظروف ، فقد روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن سيرين أنه قال : « لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم » (١) ، وابن سيرين كان يقول : « إن هذا الحديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » (٢) .

وهنا بدأ التميز لأهل السنة والجماعة ، وذلك بتمييز من تقبل روايته ممن لا تقبل ؛ فمن كان من أهل السنة والاتباع ، ولم يقل بقول طائفة من الطوائف المنحرفة بل ثبت على الهدي الصحيح ، هدي الصحابة والتابعين ، فهذا له تميز عند علماء الحديث ، وروايته مقبولة - مع الاعتراف بتفاوت الرجال الذين لهم هذه الصفة من ناحية الحفظ والضبط - وأما من كان من أهل البدعة فروايته مردودة إلاّ بشروط دقيقة (٣) .

ومما يلاحظ أن الكذب قد اشتهر عند الرافضة ، ولذلك قال عنهم الإمام الشافعي - رحمه الله - : « لم أر من أهل الأهواء أشهد بالزور من الرافضة » (٤) ، ولما وقعت فتنة المختار - ذي الميول الشيعية (٥) - اشتهر في زمنه الكذب ووضع

---

(١) صحيح مسلم ، المقدمة (ص : ١٥) ، وانظر : الكفاية (ص : ١٦٢-١٦٣) هندية ، وشرح علل الترمذي (٥١/١) .

(٢) الكفاية (ص : ١٦٢) .

(٣) حكم الرواية عن أهل البدع تكلم عنها العلماء : انظر : الكفاية (ص : ١٥٩) وما بعدها ، وشرح علل الترمذي (٥٣/١) وما بعدها ، وتدريب الراوي (٣٢٤/١) وما بعدها .

(٤) الكفاية (ص : ١٦٧) ، وقال يزيد بن هارون [توفي سنة : ٢٦ هـ] ، سير أعلام النبلاء : ٩ /٣٥٨ : « يكتب عن كل مبتدع - إذا لم يكن داعية - إلاّ الرافضة فإنهم يكذبون » (المنتقى ص : ٢٢) .

(٥) من العجيب أن هذا الكذاب كان أول أمره ناصبيا ، فأبغضته الشيعة ، ثم تشيع . انظر ترجمته في : البداية والنهاية (٢٨٩/٨-٢٩٢) ، وانظر سير أعلام النبلاء (٥٣٨/٣) ، وميزان الاعتدال (٨٠/٤) ، وكان المختار يزعم أنه يوحي إليه . انظر : المسند للإمام أحمد (٢٢٣/٥-٢٢٤) قتل المختار سنة : ٦٧ هـ .

الحديث علي رسول الله – ﷺ – ، ولهذا روى الإمام أحمد عن جابر بن نوح عن الأعمش عن إبراهيم [النخعي] قال : « إنما سئل عن الإسناد أيام المختار » [(١)] ، والمختار نفسه كان يأمر بأن توضع له الأحاديث المكذوبة ، فقد أمر رجلا – من أصحاب الحديث – قائلا : « ضع لي حديثا عن النبي – ﷺ – أني كائن بعده خليفة » ، فرفض الرجل [(٢)] ، بل أمر محمد بن عمار بن ياسر أن يحدث عن أبيه بحديث كذب فأبى فقتله [(٣)] . ولذلك فشا الكذب في عهده ، كما روى شريك عن أبي إسحاق : سمعت خزيمة بن نصر العبسي – أيام المختار – وهم يقولون ما يقولون من الكذب – وكان من أصحاب علي – قال : « ما لهم قاتلهم الله ، أي عصابة شانوا وأي حديث أفسدوا » [(٤)] . وإذا كان الرافضة أهل كذب فقد ضموا إليه الطعن في أصحاب رسول الله – ﷺ – ورميهم بالكفر والردة إلّا أعدادا قليلة .

وليس الغرض استقصاء هذه الأمور – فالموضوع فيها طويل – ولكن نشير هنا إلى أن تميز أهل السنة واكب ظهور الرافضة من جهتين :

الأول : انتشار الكذب عندهم [(٥)] ، مما أثار علماء السنة للبحث عن الرجال والأسانيد ، فبدأ بتميز أهل الحديث عن غيرهم ، وسبق أن ذكرنا أقوال العلماء بأن الفرقة الناجية هم أهل الحديث .

الثانية : طعنهم في الصحابة ، ونشوء البدع وكثرتها لديهم ، حتى أصبح شعار « أهل السنة » كثيرا ما يستعمل في مقابل الرافضة ، وسفيان الثوري – رحمه الله –

---

(١) شرح علل الترمذي (٥٢/١) ، ورواه الخطيب في الجامع عن خثيمة بن عبد الرحمن . (الجامع : ١٣٠/١) تحقيق : الطحان .

(٢) التاريخ الكبير للبخاري (٤٣٤/٨–٤٣٥) ، والصغير (١٤٧/١) ، والموضوعات لابن الجوزي (٣٩/١) .

(٣) الجامع للخطيب (١٣١/١) ، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٤٣/٨) .

(٤) رواه البيهقي في المدخل ، رقم (٨٣) ، وانظر علل الترمذي (٥٢/١) .

(٥) بل الكذب أحد أصولهم وذلك بما يسمى « التقية » عندهم .

فسر موافقة السنة بـ « تقدمة الشيخين أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – » [(١)] .

ب) وفي مقابل فتنة الروافض جاءت فتنة الخوارج ، والذي يلاحظ أن الخوارج اشتهر عنهم الصدق ، ولعل مرد ذلك اعتقادهم أن مرتكب الكبيرة كافر ، والكذب كبيرة من الكبائر ، ولهذا روي عن أبي داود سليمان بن الأشعث أنه قال : « ليس في أصحاب الأهواء أصح حديثا من الخوارج » [(٢)] . ولذلك روى البخاري وغيره عن دعاتهم ، ولكن صدقهم وحماستهم لم يكن حائلا دون أن تكون فتنتهم وضلالهم شديدة الوطأة علي المسلمين ، لأنهم كفروا من عداهم ، ولم يكتفوا بذلك ، بل ميزوا صفوفهم عن صفوف غيرهم من المسلمين ، وحاربوا وقاتلوا ، فصارت بدعتهم وانحرافهم أشد من غيرها ، ولذلك قاتلهم علي – رضي الله عنه – وأجمع الصحابة على قتالهم .

فالخوارج خرجوا على الجماعة الذين لهم إمام شرعي ، ومع ظهور فتنة هؤلاء برز أهل السنة بحرصهم على الجماعة وعدم الخروج على الإمام الشرعي – ولو كان جائرا – وصاروا يذكرون هذا الاعتقاد ويدعون إليه ويحذرون من مخالفته ، وحرص المسلمون علي الجماعة ونبذ الفرقة ، ولما اجتمعوا على معاوية – رضي الله عنه – عام إحدى وأربعين بعد تنازل الحسن – رضي الله عنه – سموا هذا العام عام الجماعة .

---

(١) شرح السنة للالكائي (١٥٢/١) ، ومما يلاحظ أن سفيان الثورى في اعتقاده هذا الذي سأله عنه شعيب بن حرب – لما ذكر بعض أمور الاعتقاد التي تميز أهل السنة ذكر مسألة المسح على الخفين وعدم الجهر بالبسملة – مع أن مسألة الجهر بالبسملة من السائل الفرعية التي وقع فيها الخلاف بين أهل السنة . وقد علل ذلك ابن تيمية في منهاج السنة (١٨٤/٢) ط مكتبة الرياض الحديثة ، بقوله : « حتى أن سفيان الثوري وغيره من الأئمة يذكرون في عقائدهم ترك الجهر بالبسملة ، لأنه كان عندهم من شعار الرافضة كما يذكرون المسح على الخفين لأن تركه عندهم من شعار الرافضة .... » .

(٢) الكفاية (ص : ١٧٢-١٧٣) هندية – ولكن وردت روايات أن الخوارج ربما يضعون الأحاديث ، فقد روى عن أحد شيوخهم أنه قال : « إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فإنا كنا إذا هوينا أمرا صيرناه حديثا » . (رواه الرامهرمزى في المحدث الفاصل ص : ٤١٥-٤١٦) ، =

فظهور بدعة الخوارج ميزت أهل السنة من جانبين :

الأول : خروج الخوارج عن المذهب الحق بالتكفير لمن عداهم من المسلمين ، ولا شك أن هذه بدعة شنيعة ، وقد حرص المسلمون على الرد على أصحابها ، وتحذير الناس أشد التحذير منهم . وصار من معالم مذهب أهل السنة عدم التكفير لمرتكب الكبيرة .

والثاني : خروجهم على الجماعة وعلى الإمام الشرعي وقتالهم للمسلمين بناء على أصل مذهبهم التكفير ، وقد قابل أهل السنة هذا بمقاتلتهم حتى يقضي عليهم أو يكفوا شرهم وبالتحذير منهم وإعلان وجوب اتباع النصوص التي حذرت من الخروج على أئمة المسلمين وإن جاروا وظلموا ، ولذا كان أحد المعاني المهمة للجماعة أنها الجماعة الذين اجتمعوا على أمير .

٣ – وبعد ظهور فتنة الروافض والخوارج أخذت بقية البدع تظهر بين المسلمين كبدعة القدر ، والإرجاء ، والتجهم ، فقاومها أهل السنة وحذروا منها ومن أصحابها ، حتى صار أهل البدع نشازا في المجتمع الإسلامي يأوي إليهم ويسمع أقوالهم إما أهل الزندقة والنفاق ، ممن يكيدون لهذا الدين في الخفاء ، وإما أصحاب الإيمان الضعيف ممن تؤثر فيهم وتستهويهم هذه البدع وما فيها من آراء وأفكار جديدة على المسلمين ، أما السواد الأعظم من المسلمين فإنهم يتبعون علماء الآفاق من أهل السنة في كل مكان .

وحذر علماء أهل السنة من أصحاب الأهواء ، حتى كان الحسن يقول : « لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم » [(١)] ، ولما جاءه رجل فقال : « يا أبا سعيد أني أريد أن أخاصمك » ، فقال الحسن : « إليك عني

= والخطيب في الكفاية (ص:١٦٣) هندية ، وابن الجوزي في الموضوعات (١/٣٨–٣٩) ، وانظر مناقشة الموضوع بشكل موسع في كتاب : « الوضع في الحديث (١/٢٢٩–٢٣٨) » حيث رجح الدكتور عمر فلاتة في رسالته هذه أن الخوارج ليس لهم دور في الوضع في الحديث .

(١) شرح السنة للالكائي ، رقم (٢٤٠) ، ورواه الدارمي في السنن ، رقم (٤٠٧) – ط اليماني – عن الحسن وابن سيرين .

فإني قد عرفت ديني ، وإنما يخاصمك الشاك في دينه »[١] . واستمر تحذير العلماء من أهل الكلام والبدع ، وصار مذهب أهل السنة متميزا بالاتباع والسير على منهاج الصحابة – رضي الله عنهم – مع البعد عن أهل البدع والإنكار عليهم – فصار لقب أهل السنة في مقابل : أهل البدع والأهواء والكلام .

ولما وقعت محنة القول بخلق القرآن – وصار للمعتزلة دولة وصولة امتحن أهل السنة وثبت الله الإمام أحمد – رحمه الله – فصار وقوفه وثباته مثالا شامخا للثبات على مذهب أهل السنة في مقابل أهل البدعة ، فصار الإمام أحمد إمام أهل السنة لذلك .

هذه خطوط عريضة لعلّها تكون قد أوضحت كيف نشأت التسمية بأهل السنة والجماعة ، أو أهل الحديث ، وان ذلك كان مع ظهور البدع ونشوء الفرق ، وما صاحب ذلك من الاستهانة بحديث رسول الله – ﷺ – ، وبنقلته من الصحابة ، فبدأ أهل السنة يعلنون تميزهم من خلال :

١ – العناية بالحديث رواية ودراية ، والكلام في الرجال ، والسبب في ذلك نشوء الكذب مع كثرة أهل الأهواء .

٢ – المحافظة على السنة وعلى ما كان عليه رسول الله – ﷺ – وأصحابه ، من غير ابتداع في الدين أو اتباع لأهل الأهواء والكلام المذموم على اختلاف مذاهبهم وأقوالهم .

٣ – المحافظة على الجماعة التي تعني الاتباع والسير على المنهج الحق ، وتعني أيضا المحافظة على وحدة الأمة وعدم الخروج على الجماعة التي لها إمام شرعي .

أما التحديد الدقيق لنشأة التسمية بأهل السنة والجماعة ، وربط ذلك بزمن محدد ، أو بعلم من أعلام أهل السنة ، أو بنشوء فرقة من الفرق ، فلا أظن أن ذلك ممكن إلاّ من خلال خطوط عريضة كما أسلفنا – والله أعلم – .

---

(١) شرح السنة ، رقم (٢١٥) ، والآجري في الشريعة (ص : ٥٧) بلفظ مقارب .

المبحث الثالث

منهج السلف في العقيدة

سنعرض في هذا المبحث - بشكل مختصر - لمنهج السلف في العقيدة ، وتميزهم بهذا عن غيرهم من أهل البدع والأهواء ، وهذا الموضوع قد كتب حوله الكثير ، ولكن أغلب ما كتب جاء مقدمة لبعض النصوص المحققة في عقيدة أهل السنة ، أو لبعض البحوث المتعلقة بجانب من جوانبها ، وكان من الواجب أن يفرد برسالة جامعة تستقصي ما يتعلق بهذا الموضوع ، وتبين الشبهات المثارة حول مذهب السلف ، وترد عليها ، كما ترد علي دعاوي المنتسبين إليها ممن ليس من أهلها أو ممن انحرف عنها - وعلى حد علمي لم يكتب في ذلك رسالة - [(١)] .

والكتابة حول هذا الموضوع من خلال التمهيد لهذا البحث المتعلق بموقف ابن تيمية من الأشاعرة لا يمكن التوسع فيها إلا من خلال ما يتعلق بالموضوع ، وقد ناقش ابن تيمية - رحمه الله - كثيرا من الأشاعرة في هذه المسألة ، وبين غلطهم في بعض القضايا المتعلقة بحقيقة مذهب السلف أو بحقيقة منهجهم - رحمهم الله - وسنشير إلى ذلك في موضعه من هذه الرسالة - إن شاء الله - .

أما هنا فسنذكر لمحات في هذا الموضوع تكملة للمبحثين السابقين ، والشيء الواضح في هذا أن السلف تميزوا عن أصحاب الأهواء والفرق بميزة الرجوع إلي الكتاب والسنة والاعتصام بهما ، وبذلك سلموا من الانحراف ، أما من عداهم فلابد أن تجد في انحرافهم أو بدعهم ما كان سببه وقوعهم في مخالفة أمر الله وأمر رسوله - ﷺ - ، أو ارتكاب ما نهى عنه الله ونهى عنه رسوله - ﷺ - ، **ومن أمثلة ذلك :**

* نهى الله ونهى رسوله - ﷺ - عن اتباع المتشابه ، فجاءت فرق عديدة تتبع ما تشابه من القرآن ، وتضرب كتاب الله بعضه ببعض .

---

(١) في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة سجلت رسالة بعنوان : العقيدة السلفية فى مسيرتها التاريخية وقدرتها على مواجهة التحديات . للباحث محمد المغراوى .

* نهى الرسول – ﷺ – عن سب الصحابة وبين فضلهم ، فجاءت فرق الرافضة وغيرهم لتسب الصحابة – رضي الله عنهم – وتنتقص من شأنهم .

* أمر الرسول – ﷺ – بطاعة الأمير – وإن جار أو ظلم – فجاءت الخوارج ليخرجوا على أئمة المسلمين ويثيروا الفتنة بين المسلمين .

* نهى الرسول – ﷺ – عن الخوض في القدر ، فجاءت القدرية وغيرهم ليخوضوا فيه بالباطل .

* أمر الرسول – ﷺ – باتباع سنته ، وأخبر أنه سيأتي أناس من أمته لا يحتجون بسنته ، ونشأ بعد ذلك من لا يحتج بخبر الآحاد في العقيدة .

* وأمر الرسول – ﷺ – باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ، فجاء أقوام يضربون بأقوالهم عرض الحائط ويقولون : نحن رجال وهم رجال .

* وأخبر النبي – ﷺ – وهو الصادق المصدوق – أن هذه الأمة ستفترق إلي فرق عديدة ، وذكر أن هناك فرقة هي الفرقة الناجية ، وهي الطائفة المنصورة ، ثم وجد بعد ذلك من يتزعم الفرق الضالة ، أو يتبعها ويترك الاعتصام بالسنة وما كان عليه رسول لله – ﷺ – وأصحابه ومن تبعهم بإحسان .

والسلف الذين لم يخوضوا في شيء مما خاض فيه أهل الأهواء استقام أمرهم لموافقتهم الكتاب والسنة ، ولوعيهم – خاصة أثناء وقوع الفتن وانتشار البدع – وتذكرهم لمثل هذه النصوص التي حذر فيها المصطفي – ﷺ – أمته من الوقوع فيما نهي عنه :

وسنعرض لمنهج السلف من خلال ما يلي :

أولا : منهج السلف في العقيدة .

ثانيا : المميزات التي تميزوا بها عن غيرهم .

أولا : منهج السلف في العقيدة

١ - أول قاعدة في منهج السلف هي اقتصارهم في مصدر التلقي على الوحي : كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - الصحيحة ، وقد تمثلت هذه القاعدة في عدة ركائز :

أ) الاعتقاد الجازم أنه لا يتحقق رضا الله تبارك وتعالى والفوز بجنته والنجاة من عذابه إلا بالإيمان بهما والعمل بما جاءا به ، وما يترتب على هذا من وجوب أن يعيش المسلم حياته كلها اعتقادا وعملا وسلوكا ، مستمسكا ومعتصما بهما ، لا يزيغ عنهما ولا يتعدى حدودهما . ومن مستلزمات هذا أن يتحاكم إليهما عند التنازع والاختلاف ، قال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء : ٥٩] ، وقال تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ ﴾ [النساء : ٦٥] ولقد تربى الصحابة على ذلك ، فعاشوا لا يلتفتون إلى غير الكتاب والسنة ، وكان رسول الله - ﷺ - يحذرهم كل التحذير من أن يلتفتوا إلى كتب السابقين التي نزلت على الأنبياء ودخلها التحريف - فضلا عن غيرها من كتب الفلاسفة والملاحدة ، فقد روى عبد الله بن ثابت قال : « جاء عمر بن الخطاب إلى النبي - ﷺ - فقال : يارسول الله ، إني مررت بأخ لي من قريظة فكتب لي جوامع من التوارة ألا أعرضها عليك ، قال : فتغير وجه رسول الله - ﷺ - قال عبد الله : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله - ﷺ - ، فقال عمر : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد - ﷺ - رسولا ، قال : فسرى عن النبي - ﷺ - ، ثم قال : والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين »[١] ،

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤٧٠/٣-٤٧١) ، وعبد الرزاق الصنعاني في المصنف (١١٣/٦) ورقمه (١٠١٦٤) .

وفي رواية جابر أنه قال لما غضب علي عمر : أمتهوكون [١] فيها يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو بباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده لو أن موسى – عليه السلام – كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني » [٢] ، وقد طبق هذا عمر – رضي الله عنه – عمليا ، فقد ضرب رجلا من عبد القيس لأنه انتسخ أحد الكتب السابقة وأمره بمحوه [٣] .

والاستغناء بالكتاب والسنة والاعتماد عليهما نابع من اليقين القاطع أن ما جاء به فهو حق وصدق ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « وأما خبر الله ورسوله فهو صدق ، موافق لما الأمر عليه في نفسه ، لا يجوز أن يكون شيء من أخباره باطلا ولا مخالفا لما عليه في نفسه ، ويعلم من حيث الجملة أن كل ما عارض شيئا من أخباره وناقضه فإنه باطل من جنس حجج السوفسطائية [٤] ، وإن كان العالم بذلك لا يعلم وجه بطلان تلك الحجج المعارضة لأخباره ، وهذه حال المؤمنين للرسول الذين علموا أن رسول الله الصادق فيما يخبر به ، ويعلمون

---

(١) أي : أمتحيرون ، هكذا فسره الحسن وأبو قلابة ، كما في شعب الإيمان للبيهقي (٤٨١/١) والمراسيل (ص : ٢٢٤) .

(٢) رواه الإمام أحمد (٣٨٧/٣) ، والدارمي في سننه – باب ما يتقى من تفسير حديث النبي – ﷺ – (٩٥/١) ورقمه (٤٤١) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٧٩/١) – ط الدار السلفية في الهند .

وهذا الحديث رواه أبو داود في المراسيل عن أبي قلابة في كتاب العلم (ص : ٢٢٣) ت السيروان كما رواه ابن أبي حاتم مختصرا كما في تفسير ابن كثير (سورة يوسف : ٣) . وانظر التعليق القادم .

(٣) ثم ذكر عمر قصته مع النبي – ﷺ – رواه بو يعلى الموصلي ، وأبو بكر الإسماعيلي ، كما نقله عنهما ابن كثير في تفسيره (سورة يوسف : ٣) .

والحديث حسنه الألباني كما في تخريج المشكاة رقم (١٧٧، ١٩٤) .

(٤) السوفسطائية : السفسطة : قياس مركب من الوهميات ، والغرض منه تغليط الخصم وإسكاته ، والسوفسطائيون : جماعة من فلاسفة اليونان ، وزعيمهم بروتاجوراس الذي ولد سنة (٤٨٠ ق.م) .

ونظريتهم تقوم على أنه ليس هناك وجود خارجي مستقل عما في أذهاننا ، فما يظهر للشخص أنه الحقيقة يكون هو الحقيقة له ، فإذا رأى السراب ماء فهو عنده حقيقة ماء . انظر : التعريفات (ص:٦٣) ، وكشاف اصطلاح الفنون (١٧٣/٣) ، وقصة الفلسفة اليونانية (ص : ٦٢-٧٢) ، وربيع الفكر اليوناني (ص : ٦٥) ، والمعجم الفلسفي (٦٥٨/١) .

من حيث الجملة أن ما ناقض خبره فهو باطل ، وأنه لا يجوز أن يعارض خبره دليل صحيح لا عقلي ولا سمعي ...» [١] .

ويقول : « وما أحد شذ بقول فاسد عن الجمهور إلا وفي الكتاب والسنة ما يبين فساد قوله ، وإن كان القائل كثيرا ... ، وأما القول الذي يدل عليه الكتاب والسنة فلا يكون شاذا وإن [كان] [٢] القائل به أقل من القائل بذاك القول ، فلا عبرة بكثرة القائل باتفاق الناس » [٣] .

ب) أن هذا الدين كامل ، والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] ، ويقول أيضا : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] ، وقال ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥، ١٦] . يقول ابن تيمية بعد ذكره لهذه الآيات وغيرها : « ومثل هذا في القرآن كثير ، مما يبين الله فيه أن كتابه مبين للدين كله ، موضح لسبيل الهدى ، كاف لمن اتبعه ، لا يحتاج معه إلى غيره يجب اتباعه دون اتباع غيره من السبل » [٤] ، ومسألة كمال الدين من المسائل المهمة في بيان منهج السلف - رحمهم الله تعالى - ، فقد انطلقوا بقوة من هذا المنطلق ، وهذا لا يعني أنه لم يكن في عهد الصحابة ومن بعدهم ديانات ومذاهب ، بل كانت موجودة ، لكن من الذي يلتفت إليها وهو مقتنع تمام الاقتناع بكمال ما لديه من كتاب وسنة وأن فيهما ما يغني ويكفي ، وأن ما فيهما حق وصدق لا يأتيه الباطل أبدا ، فـ « متى ذكرت ألفاظ القرآن والحديث وبين معناها

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٥/٢٥٥) .

(٢) في طبعة النبوات لدار الكتب العلمية (ص : ٢٠٤) ، ودار الفكر (ص : ١٣٨) بدون « كان » ، والسياق يقتضيها .

(٣) النبوات (ص : ٢٠٤) ط دار الكتب العلمية .

(٤) درء تعارض العقل والنقل (١٠/٣٠٤) .

بيانا شافيا فإنها تنظم (١) جميع ما يقوله الناس من المعاني الصحيحة ، وفيها زيادات عظيمة لا توجد في كلام الناس ، وهي محفوظة مما دخل في الكلام من الباطل كما قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّه لكتَـٰب عَزِيز * لايَأْتيهِ ٱلبَـٰطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤١،٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ آلر كِتَـٰبٌ أُحكِمَتْ ءَايَـٰتُه ثُمَ فُصِّلَت مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] ، وقال : ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [لقمان : ٢] ، وفيه من دلائل الربوبية والنبوة والمعاد ما لا يوجد في كلام أحد من العباد ، ففيه أصول الدين المفيدة لليقين ، وهو أصول دين الله لا أصول دين محدث ورأي مبتدع » (٢) .

جـ) وجوب تقديم الشرع على العقل عند توهم التعارض ، وإلاّ ففي الحقيقة والواقع لا يمكن أن يتعارض النقل الصحيح مع العقل الصريح ، ولقد كان تقديم ما في كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - على ما فى غيرهما من معقول أو غيره يعارضها من مسلمات منهج السلف رحمهم الله تعالى .

وليس هذا موضع تفصيل الأدلة لذلك ، ولكن نشير إلى أن الأنبياء أعلم بالله وأسمائه وصفاته واليوم الآخر من غيرهم فيجب رد الأمر إليهم ، وهذا كما أن العامة يردون ما يختلفون فيه مما يتعلق بالطب وغيره من أمور الدنيا إلى من هو أعلم به منهم ، « وإذا كان الأمر كذلك فإذا علم الإنسان بالعقل أن هذا رسول الله ، وعلم أنه أخبر بشيء ، ووجد في عقله ما ينازعه في خبره ، كان عقله يوجب عليه أن يسلم موارد النزاع إلى من هو أعلم به منه ، وأن لا يقدم رأيه على قوله ، ويعلم أن عقله قاصر بالنسبة إليه ، وأنه أعلم بالله وأسمائه وصفاته واليوم الآخر منه ، وأن التفاوت الذي بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت

---

(١) في الأصل : « فإنها لا تنظم » ط دار الكتب العلمية ، وكذا في مصورة دار الفكر ، (ص : ٢٢١) ، ولعل الصواب حذف « لا » .

(٢) النبوات (ص : ٣٣٤) ط دار الكتب العلمية .

الذي بين العامة وأهل العلم بالطب » [١] .

د) الأدب مع نصوص الكتاب والسنة ، وذلك بأن تُراعى ألفاظهما عند بيان العقيدة ، وأن لا تستخدم الألفاظ والمصطلحات الموهمة غير الشرعية ، فـ « أهل السنة والحديث فيهم رعاية النصوص لألفاظ النصوص وألفاظ السلف » [٢] .

٢ - عدم الخوض في علم الكلام والفلسفة ، والاقتصار في بيان وفهم العقيدة على ما في الكتاب والسنة ، وقد تجلى هذا في منهج السلف من خلال عدة أمور :

أ) الحرص على العلم النافع مع العمل . فالعلم علمان : علم نافع يولد عملا ، وينفع صاحبه فى الدنيا والآخرة ، وعلم غير نافع ، لا ينفع صاحبه في الدنيا أو لا ينفع صاحبه في الآخرة « ولذلك جاءت السنة بتقسيم العلم إلى نافع وغير نافع ، والاستعاذة من العلم الذي لا ينفع ، وسؤال العلم النافع ، ففي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أن النبي - ﷺ - كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها [٣] » [٤] . وقال معروف الكرخي [٥] : « إذا أراد الله بعبد خيرا فتح له باب العمل ، وأغلق عنه باب الجدل وإذا أراد الله بعبد شرا أغلق عنه باب العمل وفتح له باب الجدل » [٦] . وللعلم النافع علامات ذكرها بعض العلماء [٧] .

ب) النهي عن البدع ، ومن ذلك علم الكلام ، وقد كان موقف السلف

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١٤١/١) ، وانظر : قواعد المنهج السلفي مصطفى حلمي (ص : ٢٥٣-٢٥٧) ط ثانية .

(٢) نقض التأسيس المطبوع (١١٠/٢) .

(٣) رواه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، ورقمه (٢٧٢٢) .

(٤) بيان فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب (ص : ١٧) ط دار الأرقم .

(٥) هو معروف بن فيروز أو فيرزان ، أبو محفوظ البغدادي الكرخي ، أحد الزهاد ، مدحه الإمام أحمد . انظر ترجمته في : مناقب معروف الكرخي وأخباره لابن الجوزي ، وتاريخ بغداد (١٩٩/١٣) وطبقات الحنابلة (٣٨١/١) ، وسير أعلام النبلاء (٣٣٩/٩) .

(٦) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٦١/٨) ، وابن الجوزي في مناقب معروف الكرخي (ص : ١٢٢-١٢٣) .

(٧) انظر مثلا : بيان فضل علم السلف على الخلف (ص : ٥١-٥٤) .

واضحا ومشهورا من علم الكلام ، فقصة عمر - رضي الله عنه - مع صبيغ ابن عسل [١] لما علم أنه يتتبع متشابه الكلام ويسأل عنه ، فضربه عمر ونفاه إلى البصرة - قصة مشهورة [٢] - ، ولذلك لما حدث يزيد بن هارون بحديث الرؤية ، فقال له رجل : يا أبا خالد ، ما معنى هذا الحديث ؟ فغضب وحرد [٣] وقال : ما أشبهك بصبيغ وأحوجك إلى مثل ما فعل به [٤] . وعمر - رضي الله عنه - روي عنه أنه قال : « انه سيأتي أناس يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن ، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله » [٥] .

وقد استمر السلف على هذا المنهج من التحذير من البدع وعلم الكلام وما عليه أهل الأهواء ، فالشافعي أثر عنه الكثير في التحذير من أهل الكلام حتى قال : « لأن يلقى اللهَ العبدُ بكل ذنب ما خلا الشرك أحب إليَّ من أن يلقاه بشيء من الأهواء » [٦] ، والإمام أحمد - رحمه الله - يقول في رسالته - الثابتة عنه - إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان - لما طلب منه المتوكل أن يكتب له حول مسألة « خلق القرآن » : « وقد روى غير واحد ممن مضى من سلفنا - رحمهم الله - أنهم كانوا يقولون : القرآن كلام الله عزّ وجل وليس بمخلوق ،

---

(١) هو صَبيغ بن شريك بن المنذر بن قشع بن عسل التميمي ، ويقال صبيغ بن عسل ، نسبة إلى جده . ترجمته في : الإكمال لابن ماكولا (٥/٢٢١،٦/٢٠٦-٢٠٨) ، والإصابة (٣/٤٥٨) ، ترجمة رقم (٤١٢٧) ، وتبصير المنتبه (٣/٩٥٤) ، والوافي في الوفيات (١٦/٣٨٣) .

(٢) رواها : الدارمي في سننه ، رقم (١٤٦) ، والآجري في الشريعة (ص : ٧٣) ، واللالكائي في شرح السنة ، رقم (١١٣٦-١١٤٠) ، والصابوني في عقيدة السلف ، رقم (٨٣-٨٥) ، تحقيق : بدر البدر ، ورواها غيرهم . انظر : الإصابة (٣/٤٥٨) ، رقم الترجمة (٤١٢٧) ت البجاوي ، والدر المنثور للسيوطي . أول سورة الذاريات .

(٣) « حرد » أي غضب واغتاظ وهم به . انظر : الصحاح ، والمعجم الوسيط ، مادة : « حرد » .

(٤) عقيدة السلف للصابوني ، رقم (٨٢) .

(٥) رواه الدارمي رقم (١٢١) ، واللالكائي رقم (٢٠٢) ، والآجري في الشريعة (ص : ٥٢) .

(٦) رواه البيهقي في : مناقب الشافعي (١/٤٥٢) ، وفي الاعتقاد (ص : ٣٩) ، تحقيق : أحمد عصام الكاتب ، وأبو نعيم في الحلية (٩/١١١) ، وابن عساكر في تبيين كذب المفتري (ص : ٣٣٧) ، واللالكائي في شرح السنة ، رقم (٣٠٠) ، وابن أبي حاتم : كما في توالي التأسيس لابن حجر (ص : ١١٠) .

وهو الذي أذهب إليه ، ولست بصاحب كلام ولا أرى الكلام في شيء من هنا ، إلّا ما كان في كتاب الله عزّ وجل أو في حديث النبي – ﷺ – أو عن أصحابه أو عن التابعين ، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود ... » [١] .

واشتهر هذا الموقف من علم الكلام ومن المنطق عن أعلام السلف – رحمهم الله – وصارت دواوين السنة تذكر كثيرا من الآثار عنهم في موقفهم هذا . بل وصل الأمر في إحدى الحالات أن النساخ كانوا يقسمون أنهم لم ينسخوا كتابا في المنطق [٢] .

وموقف السلف من علم الكلام كان لأسباب [٣] ، وليس لأنهم عجزوا أو جهلوا أو شغلوا عنه كما يحلو للبعض أن يفسر ذلك ، ولا شك أن منهج علم الكلام يقوم على أسس غريبة على المنهج الذي كان عليه رسول الله – ﷺ – وأصحابه . وأية محاولة للعودة بالمسلمين إلى الإسلام فلابد أن تكون أولى مسلماته العودة إلى صفاء العقيدة وتخليصها مما ران عليها من شوائب علم الكلام والفلسفة ، يقول سيد قطب – رحمه الله – في معرض كلامه عن المنهج الذي يراه في العقيدة : « ولما كانت هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة ، وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة ، وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية وتلك المحاولات الصغيرة المضطربة المفتعلة التي تتضمنها الفلسفات والمباحث اللاهوتية البشرية .... فقد بدت « الفلسفة الإسلامية – كما سميت – نشازا كاملا في لحن العقيدة المتناسق ، ونشأ من هذه المحاولات تخليط كثير ، شاب صفاء التصور الإسلامي ، وصغر مساحته ،

---

(١) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (١٣٩/١–١٤٠) ، وأبو نعيم في الحلية (٢١٦/٩) ، وابن الجوزي في المناقب (ص : ٤٦٢) باختصار ، والذهبي في تاريخ الإسلام (ترجمة الإمام أحمد مفردة – ط : دار الوعي بحلب) (ص : ٧٠–٧١) ، وقال الذهبي في آخرها : « قلت : رواة هذه الرسالة عن أحمد أئمة أثبات أشهد بالله أنه أملاها على ولده » ، وذكرها في سير أعلام النبلاء (٢٨٦/١١) ، وقال : « إسنادها كالشمس » .

(٢) انظر : الكامل لابن الأثير حوادث سنة : ٢٧٩ (٤٥٣/٧) دار صادر .

(٣) انظر : بيان فضل علم السلف لابن رجب (ص : ٥٥–٥٨) ، ومنهج علماء الحديث والسنة مصطفى حلمي (ص : ٦٠–٦١) ، ومنطق ابن تيمية (ص : ٢٧٧) .

وأصابه بالسطحية ، ذلك مع التعقيد والجفاف والتخليط ، مما جعل تلك الفلسفة الإسلامية ومعها مباحث علم الكلام غريبة غربة كاملة علي الإسلام وطبيعته ، وحقيقته ، ومنهجه وأسلوبه » .

« وأنا أعلم أن هذا الكلام سيقابل بالدهشة – علي الأقل – سواء من كثير من المشتغلين عندنا بما يسمي « الفلسفة الإسلامية » أو من المشتغلين بالمباحث الفلسفية بصفة عامة .... ولكنني أقرّر وأنا على يقين جازم بأن « التصور الإسلامي » لن يخلص من التشويه والانحراف والمسخ إلاّ حين نلقي عنه جملة بكل ما أطلق عليه اسم الفلسفة الإسلامية ، وبكل مباحث علم الكلام ، وبكل ما ثار من الجدل بين الفرق الإسلامية المختلفة في شتى العصور أيضا ، ثم نعود إلى القرآن الكريم ... » [١] .

جـ) الرد على المنحرفين وأصحاب الأهواء بمنهج متميز ، فالسلف – رحمهم الله – لما حذروا من المنطق ومن علم الكلام لم يكتفوا بهذا ، وإنما ردوا وناقشوا أصحاب البدع بالأدلة النقلية والعقلية المبنية على الكتاب والسنة .

والسلف كانوا أصحاب منهج واضح ، مقنع ، وليس كما يزعم بعض أهل الكلام من أن السلف أو أهل الحديث لا يعرفون الرد ومجادلة الخصوم ويذكرون في ذلك قصة لهارون الرشيد لما منع الجدال في الدين وحبس أهل الكلام ، وخلاصتها : أن ملك السند بعث يطلب منه أن يرسل إليه من يناظره ، فأرسل إليه قاضيا – أو رجلا من أهل الحديث – فعجز عن مناظرته ، فغضب الرشيد وسأل من حوله : « أليس لهذا الدين من يناضل عنه ؟ » ، فقيل له : بلى ، هم الذين نهيتهم عن الجدال ، وفيهم من هو في الحبس . فأحضروهم ، وأرسل واحدا منهم إلى ملك السند ، فدس له السم قبل وصوله إليه [٢] . وهذه قصة باطلة لأن فتح السند وقتل ملكها كان سنة ٩٣ هـ وهارون الرشيد تولى الخلافة سنة ١٧٠ هـ .

---

(١) خصائص التصور الإسلامي : كلمة في المنهج (ص : ١٠-١١) .

(٢) المصدر المعروف لهذه القصة – التي وردت بعدة روايات – هو كتاب المنية والأمل – لابن المرتضي المعتزلي (ص : ١٥٥-١٥٨) ت : محمد جواد مشكور ، وهي في طبعة أرنلد التي أفرد =

وهذه القصة كما يظهر من مصدرها ليس لها سند صحيح ، وسياق القصة يدل على الهدف من وضعها ، واذا كان مصدر السلف الأول هو كتاب الله وفيه الحجج والبراهين الدامغة فكيف يخطر علي البال أنهم يعجزون عن المناقشة والرد على أهل البدع . أما إن كان القصد المناقشة ببدع وأصول أهل الكلام فلا ريب أن السلف كانوا بعيدين عنها ولا يعرفونها لأنهم في غنى عنها ، لكن من عاش منهم مع أهل الكلام ثم رجع إلى منهج ومذهب أهل الحديث فهذا قد تكون له خبرة بهم ، ولذلك قال نعيم بن حماد [١] - الذي امتحن في مسألة القرآن فأبى أن يجيب ، فحبس ومات في السجن - يقول عن نفسه : « أنا كنت جهميا ، ولذلك عرفت كلامهم ، فلما طلبت الحديث عرفت أن أمرهم يرجع إلى التعطيل » [٢] .

والسلف - رحمهم الله - لم ينهوا عن جنس النظر والاستدلال ، ولكن معارضتهم تركزت على الأساليب الكلامية المبنية على غير الكتاب والسنة [٣] . ولذلك روى الآجري عن محمد بن سيرين لما ماراه [٤] رجل في شيء ، فقال له محمد : « إني أعلم ما تريد ، وأعلم بالمماراة منك ولكني لا أماريك » [٥] ، فهو لا يريد المماراة والجدل ، ولو جادله لجادله بمنهج القرآن والسنة لا بمنهج المتكلمين .

= فيها ذكر المعتزلة (ص : ٣١-٣٣) ، وذكرها النشار في نشأة الفكر الإسلامي (٥٠٤/١-٥٠٥) ، وردها ، وانظر قواعد المنهج السلفي (ص : ٨٠-٨٢) الطبعة الثانية .

(١) هو نعيم بن حماد بن معاوية ، أبو عبد الله الخزاعي - ت : ٢٢٨ هـ ، طبقات ابن سعد (٥١٩/٧) ، وتاريخ بغداد (٣٠٦/١٣) ، وتهذيب المزي - المخطوط (ص : ١٤١٩) ، وسير أعلام النبلاء (٥٩٥/١٠) .

(٢) تاريخ بغداد (٣٠٧/١٣) ، وتهذيب المزي (ص : ١٤٢٠) ، وسير أعلام النبلاء (٥٩٧/١٠) .

(٣) انظر : قواعد المنهج السلفي : مصطفى حلمي (ص : ٨٥) ، ومنهج علماء الحديث والسنة له (ص : ٤٠) .

(٤) من المماراة : تقول ماريت الرجل ، أي : جادلته . انظر : الصحاح مادة : « مرا » من حرف الياء ، وقد وردت اللفظة في الشريعة وفي طبعتي فضل علم السلف « ومارآه » وهو تحريف .

(٥) الشريعة للآجري (ص : ٦١-٦٢) ، وانظر : بيان فضل علم السلف لابن رجب (ص : ٣٧) ط دار الأرقم .

وهذا يدل على أن السلف لا يناظرون إلّا عند الحاجة ، ومناظرتهم لا تكون بمنهج المتكلمين ، يقول الآجري : « فإن قال قائل : فإن اضطر في الأمر – وقتا من الأوقات – إلى مناظرتهم وإثبات الحجة عليهم ، ألا يناظرهم ؟ ، قيل : الاضطرار إنما يكون مع إمام له مذهب سوء ، فيمتحن الناس ويدعوهم إلى مذهبه ، كفعل من مضي في وقت أحمد بن حنبل – رحمه الله – : ثلاثة خلفاء امتحنوا الناس ، ودعوهم إلى مذهبهم السوء ، فلم يجد العلماء بدا من الذب عن الدين ، وأرادوا بذلك معرفة العامة الحق من الباطل ، فناظروهم ضرورة لا اختيارا ، فأثبت الله عز وجل الحق مع أحمد بن حنبل ومن كان على طريقته وأذل الله العظيم المعتزلة وفضحهم وعرفت العامة أن الحق ما كان عليه أحمد ابن حنبل ومن تابعه إلى يوم القيامة »[١] .

٣ – حجية السنة في العقيدة ومن ذلك خبر الآحاد ، وهذه من القواعد الكبرى في منهج السلف – رحمهم الله – تميزوا بها عن كثير من أهل الأهواء والبدع ، وما عني أهل السنة بجمع السنة والكلام في متونها وأسانيدها ، ونشأ هذا العلم الذي تميزت به الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم ، وبذلوا في سبيل ذلك جهودا منقطعة النظير ، كل ذلك إنما كان منهم حفاظا على المصدر الثاني الذي هو وحي يوحىٰ من الله تعالى ، ولم يميزوا بين الأحاديث المتعلقة بالأحكام والأحاديث المتعلقة بالعقائد .

وقد كان اعتمادهم على السنة وتعظيمهم لها مبنيا على أمور منها :

أ) أن من مقتضيات شهادة أن محمدا رسول الله التي لا يتم الإيمان إلا بها ، ولذلك قرنت بشهادة أن لا إله إلّا الله وجوب تصديقه فيما أخبر ، سواء كان عن الله أو صفاته أو مخلوقاته أو ما يستقبل من أمور الآخرة وغيرها من المغيبات .

ب) أن أعرف العباد بما صلح لهم رسول الله – ﷺ – ، وأنه أرغب الناس في نشرالخير وتعريف الخلق به ، ولذلك فما من خير إلا ودل أمته عليه ،

---

(١) الشريعة (ص : ٦٢) .

وما من شر إلا وحذرها منه ، ومن المعلوم أن أهم الأمور بالنسبة للعباد ما يتعلق بالعقيدة من الأمور الإلهية والمعارف الدينية ، والعلم في هذه « مأخذه عن الرسول ، فالرسول أعلم الخلق بها ، وأرغبهم في تعريف الخلق بها ، وأقدرهم علي بيانها وتعريفها ، فهو فوق كل أحد في : العلم ، والقدرة ، والإرادة ، وهذه الثلاثة بها يتم المقصود . ومن سوى الرسول : إما أن يكون في علمه بها نقص أو فساد ، وإما أن لا يكون له إرادة فيما علمه من ذلك فلم يبينه ، إما لرغبة وإما لرهبة ، وإما لغرض آخر . وإما أن يكون بيانه ناقصا ، ليس بيانه البيان عما عرفه الجنان » .

« وبيان الرسول على وجهين : تارة : يبين الأدلة العقلية الدالة عليها . والقرآن مملوء من الأدلة العقلية والبراهين اليقينية على المعارف الإلهية والمطالب الدينية . وتارة : يخبر بها خبرا مجردا ، لما قد أقامه من الآيات البينات ، والدلائل اليقينيات علي أنه رسول الله المبلغ عن الله ، وأنه لا يقول عليه إلا الحق ، وأن الله شهد له بذلك ، وأعلم عباده وأخبرهم أنه صادق مصدوق فيما بلغه عنه ، والأدلة التي بها نعلم أنه رسول الله كثيرة متنوعة ، وهي أدلة عقلية تعلم صحتها بالعقل ، وهي أيضا شرعية سمعية » [1] .

جـ) أن الرسول بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه ، لم يكتم شيئا من ذلك ، وأنه عليه الصلاة والسلام قد بلغ ذلك أتم بلاغ وأبينه حتى ترك أمته على البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلّا هالك .

وقد تمثلت هذه الأمور – السابقة – في موقف السلف من السنة وتعظيمهم لها ، وإنزالها منزلتها اللائقة بها ، وذلك بكونها وحيا من الله تعالى وبكونه – ﷺ – لا ينطق عن الهوىٰ . وبدا هذا واضحا من خلال :

أ) الخضوع لحديث الرسول – ﷺ – إذا صح – وتعظيمه وعدم الاعتراض عليه بأي نوع من أنواع الاعتراض ، ومن ذلك ما روي أن أبا معاوية

---

(١) رسالة الفرقان بين الحق والباطل – مجموع الفتاوى (١٣/١٣٦) .

الضرير [1] كان يحدث « هارون الرشيد » فحدثه بحديث أبي هريرة – رضي الله عنه – : « احتج آدم وموسى » [2] ، فقال عيسى بن جعفر : « كيف هذا ، وبين آدم وموسى ما بينهما ؟ » ، قال : فوثب به هارون وقال : يحدثك عن الرسول – ﷺ – وتعارضه بكيف ! ، قال : فما زال يقول حتى سكت عنه » [3] ، وفي رواية أنه حبسه ، ولم يطلقه حتى حلف الأيمان المغلظة أنه ما سمعه من أحد وما جرى بينه وبينه كلام [4] ، أي لم يتلق هذه الشبهة عن أحد ، يقول الصابوني معلقا على هذا : « هكذا ينبغي للمرء أن يعظم أخبار رسول الله – ﷺ – ويقابلها بالقبول والتسليم والتصديق ، وينكر أشد الإنكار على من يسلك فيها غير هذا الطريق الذي سلكه هارون الرشيد – رحمه الله – مع من اعترض على الخبر الصحيح الذي سمعه ، – بكيف – على طريق الإنكار والاستبعاد له ، ولم يتلقه بالقبول كما يجب أن يتلقى جميع ما يرد من الرسول – ﷺ – » [5] .

ولما سئل ابن المبارك – حين روى حديث النزول – كيف ينزل ؟ أجاب : « ينزل كيف يشاء » [6] ، وفي رواية أنه قال : « إذا جاءك الحديث عن رسول الله – ﷺ – فاخضع له » [7] .

---

(١) هو : محمد بن خازم أبو معاوية الضرير – روى له الجماعة . تهذيب التهذيب (١٣٧/٩) ، وتاريخ بغداد (٢٤٢/٥) .

(٢) متفق عليه : البخاري ، كتاب القدر ، ورقمه (٦٦١٤) ، الفتح (٥٠٥/١١) ، مسلم في القدر ، ورقمه (٢٦٥٢) .

(٣) رواه الصابوني : عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص : ١١٦-١١٧) ط : بدر البدر ، وانظر الفقرة التالية .

(٤) رواه الفسوى في المعرفة والتاريخ (١٨١/٢-١٨٢) ، والخطيب في تاريخ بغداد (٢٤٣/٥) ، [ومختصراً في (٧/١٤-٨) ، وانظر سير أعلام النبلاء (٢٨٨/٩)] ، وقد أوردوا القصة بطولها وهي قصة عجيبة تدل على مدى حرص الرشيد على السنة وحرب أهل البدع .

(٥) عقيدة السلف للصابوني (ص : ١١٧) وهو آخر الرسالة .

(٦) رواه الصابوني في عقيدة السلف (ص : ٢٩) ، البيهقي في الأسماء والصفات (ص : ٤٥٣) عن الصابوني .

(٧) الصابوني في عقيدة السلف (ص : ١٧٢) تحقيق : الأخ ناصر الجديع – مطبوع على الآلة الكاتبة وهو في طبعة بدر البدر (ص : ٢٩) ، لكن عبارته « فاصغ له » .

ب) اعتمادهم على الأحاديث الصحيحة ، ونبذ الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، وقد تمثل هذا عندهم بالإنكار على من اعترض على الأحاديث الصحيحة الثابتة ، وتمثل أيضا بذكرهم للأسانيد فيما يروونه ، ومعلوم أنه إذا أسند الراوي فلابد من النظر في إسناده والحكم على الحديث صحة وضعفا بعد جمع طرقه ورواياته ، ومن الملاحظ على كتب السنة - التي اختصت بالعقيدة - ورود بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة فيها ، ولا شك أن الناظر فيها - في العصور المتأخرة - يحس أنه كان من المفروض تمييز صحيحها من غيره ، أو يراد ما صح منها فقط ، أما إدخال هذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة فيها فله سلبيات لعل من أهمها التشهير بأهل السنة من جانب أهل التعطيل ووصفهم لهم بالحشو والتشبيه ، والتندر بهم بذكر نماذج من هذه الأحاديث . ولكن لو رجعنا إلى هذا الزمن الذي دونت فيه لوجدنا ما يبرر فعلهم هذا ؛ فالعناية بالحديث كانت شديدة ، ومعرفة الضعفاء والوضاعين كانت مشتهرة ، ثم إن هذه الروايات التي أوردوها - ويعلمون أحيانا أنها ضعيفة - قد تكون وردت عند أحد أعلام المحدثين بطريق أو بطرق أخرىٰ صحيحة ، فليس هناك ما يضمن مع كثرة المحدثين والرواة في مختلف أمصار المسلمين أن هذه الأحاديث لم ترد إليهم بطرق أخرى .

جـ) حجية خبر الآحاد في العقيدة إذا صح ، وهذا من المعالم الرئيسة لمنهج السلف ، والقول بأن أخبار الآحاد لا تفيد العلم ومن ثم فلا يحتج بها في العقيدة بدعة كبرى تلقفها أو أحدثها المعتزلة ، ولكن من المؤسف أن كثيرا من العلماء ممن ينتسبون إلى السنة - وخاصة في كتبهم في أصول الفقه - ظنوا أنها لا تفيد العلم وإنما تفيد الظن ، وانتشرت هذه المقالة بنسبة القول بها إلى الجمهور ، ومما يلاحظ أن كثيرا ممن ألف في أصول الفقه هم ، إما من المعتزلة أو الأشاعرة أو الماتريدية ، فأدخل هؤلاء هذه المسألة وصاروا يذكرون فيها أن أخبار الآحاد لا تفيد إلا الظن فيحتج بها في الأمور العملية من الأحكام لا العلمية ، ويقصدون بها أمور العقائد بينما لو تتبعنا نصوص السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم لوجدنا الإجماع منهم - تقريبا - على عدم التفريق في أخبار الآحاد بين الأحكام والعقائد ،

ولذا يحسن هنا أن نذكر قصة إسحاق بن راهويه [١] مع عبد الله بن طاهر [٢] ، فقد روى عن إسحاق بن راهويه قال : « دخلت على عبد الله بن طاهر ، فقال لي : يا أبا يعقوب ، تقول : إن الله ينزل كل ليلة ؟ ، فقلت : أيها الأمير ، إن الله تعالى بعث إلينا نبيا نقل إلينا عنه أخبار ، بها نحلل الدماء وبها نحرم ، وبها نحلل الفروج وبها نحرم ، وبها نبيح الأموال وبها نحرم ، فإن صح ذا صح ذاك ، وإن بطل ذا بطل ذاك ، قال : فأمسك عبد الله » [٣] .

هذا مذهب السلف ومنهجهم لم يؤثر عن أحد منهم ممن يعتد بقوله إذا ورد عليه حديث صح عنده ثبوته أن رد ما دل عليه من أمور العقيدة بأنه خبر آحاد – وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة المهمة ، وإنما الغرض الإشارة المجملة .

٤ – أن الصحابة أعلم الناس – بعد الرسول – ﷺ – بالعقيدة ، لذلك فأقوالهم وتفاسيرهم للنصوص حجة لأنهم – رضي الله عنهم – قد اكتمل فيهم الفهم والمعرفة لأصول الدين التي دل عليها كتاب الله المنزل وسنة رسوله – ﷺ – .

والعجب أن بعض من يدعي الانتساب إلى مذهب أهل السنة يشتد غضبه حينما يعرض لرأي الرافضة في الصحابة وتنقيصهم لهم ، ولكن لا يرى بأسا في أن يقرأ أو يسمع لبعض شيوخه من المنتسبين للسنة في مقابل الرافضة والمعتزلة كلاما يؤول إلى تنقيص الصحابة والطعن في فهمهم وعقولهم ، مثل عبارة : أن الصحابة لم يعلموا – علم الكلام – لأنهم كانوا مشغولين بالجهاد ،

---

(١) هو : إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي ، أبو محمد بن راهويه المروزي ، قرين أحمد بن حنبل حياته (١٦١–٢٣٧) أو (٢٣٨ هـ) ، تاريخ بغداد (٣٤٥/٦) ، وسير أعلام النبلاء (٣٥٨/١١) ، والتهذيب (٢١٦/١) ، وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص : ١٨٨) .

(٢) عبد الله بن طاهر ، أبو الحسين بن مصعب ، الأمير العادل ، أبو العباس ، حاكم خراسان ، توفى سنة : ٢٣٠ هـ وله (٤٨) سنة .

تاريخ بغداد (٤٨٣/٩) ، وولاة مصر للكندي (ص : ٢٠٤–٢٠٨) ، وسير أعلام النبلاء (٦٨٤/١٠) ، والفرج بعد الشدة (٣٣٩/١) .

(٣) ذكره البيهقي في الأسماء والصفات (ص : ٤٥٢) .

ومثل قول بعضهم : إن الصحابة كانوا يقرؤون القرآن ولكنهم يمرون النصوص المتعلقة بالصفات وغيرها دون فهم لها ولمعناها ... ، أو أن الصحابة لو واجهوا الشبهات التي واجهها من بعدهم لتأولوا كما تأولنا ... الخ .

وهذا - بلا شك - منهج خطير ، لا يقف الانحراف فيه عند حد الصحابة ، بل قد يلزم منه اتهام الرسول - ﷺ - وهو الرسول المبلغ عن الله - بمثل هذه التهم التي توجه إلى الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - .

والصحابة - في نظر أهل السنة ، الذين هم أهل الحديث - كلهم عدول ، ومن ثبتت صحبته ثبتت له العدالة بمجرد الصحبة ، ولا شك أن هذه الأفضلية - أعني أفضلية الصحبة التي اختصوا بها ، ولا يمكن أن ينال فضلها أحد ممن جاء بعدهم - تجعل لهم منزلة في فهم العقيدة وإدراكها ، لا يمكن أن ينالها من جاء بعدهم . ولذلك كان السلف يفتخرون في أن دينهم أخذوه عن التابعين عن الصحابة ، فشريك بن عبد الله [١] لما قيل له : إن قوما من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث [أي أحاديث النزول] حدث بنحو عشرة أحاديث في هذا ، وقال : « أما نحن فقد أخذنا ديننا هذا عن التابعين عن أصحاب رسول الله - ﷺ - فهم عمن أخذوا ؟ »[٢] .

ولمكانة الصحابة عند السلف حرصوا على تدوين أقوالهم وآرائهم في مختلف المسائل ، فقد روى صالح بن كيسان [٣] قال : « اجتمعت أنا والزهري [٤]

---

(١) هو : شريك بن عبد الله النخعي الكوفي ، القاضي ، أبو عبد الله ، صدوق ، يخطئ كثيرا ، كان عارفا عابدا ، شديدا على أهل البدع ، ولد سنة (٩٠ هـ) وتوفى سنة ١٧٨ هـ : ميزان الاعتدال (٢٧٠/٢) ، سير أعلام النبلاء (١٧٢/٨) ، تهذيب التهذيب (٣٣٣/٤) ، التقريب (٣٥١/١) .

(٢) رواه الصاغاني - كما في : سير أعلام النبلاء (١٨٥/٨) ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن الصاغاني (ص : ٤٥١) .

(٣) هو : صالح بن كيسان المدني ، أبو محمد أو أبو الحارث ، مؤدب ولد عمر بن عبد العزيز ، ثقة ، ثبت ، فقيه ، مات بعد سنة : ١٤٠ هـ . تهذيب تاريخ دمشق (٣٨٠/٦) ، وتذكرة الحفاظ (١٤٨/١) ، وسير أعلام النبلاء (٤٥٤/٥) ، والتقريب (٣٦٢/١) ، وطبقات الحفاظ (ص : ٦٣).

(٤) هو : محمد بن مسلم بن عبيد الله ، أبو بكر القرشي الزهري المدني ، أحد الأعلام ، =

– ونحن نطلب العلم – فقلنا : نكتب السنن ، فكتبنا ما جاء عن النبي – ﷺ – ، قال : ثم قال الزهري : نكتب ما جاء عن أصحابه فإنه سنة . قال : فقلت أنا : لا ، ليس بسنة ، لا نكتبه . قال : فكتب ولم أكتب ، فأنجح وضيعت » [(١)] .

والصحابة تميزوا في العقيدة وفهمها بعدة ميزات ، أهمها :

أ) أنهم شاهدوا التنزيل ، وعاشوا مع النبي – ﷺ – وهو يتلقى هذا الوحي من ربه الذي ينزل عليه مفرقا حسب الوقائع والأحداث ، فعاصروها جميعا ، واحدة فواحدة ، فكيف لا يكونون وهم كذلك – أعلم الناس بالتنزيل وأسباب نزوله – إن كانت له أسباب – وأعلم الناس – من ثم – بمراد الله ومراد رسوله – ﷺ – . ولا يقول عاقل : إن من حضر الواقعة أو الحادثة – أيا كانت – أقل علما بها ممن لم يحضرها ولم يشارك فيها .

ب) من المعلوم أن حواري الرسل وصحابتهم الذين اتبعوهم وآمنوا بهم هم أكثر الناس فهما لرسالتهم وما يتلعق بها من أحكام سواء في العقيدة أو الشريعة ؛ فهم العارفون بدقائقها المدركون لحقائقها ، وهم أكمل الناس علما وعملا ، ولا يكون من بعدهم أكمل منهم في شيء من ذلك ، ولذلك روى عبد الله ابن مسعود – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – أنه قال : « ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلاّ كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره . ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه

= توفي سنة : ١٢٤ هـ . طبقات ابن سعد – الجزء المتمم (ص : ١٥٧) ، وتاريخ دمشق – طبعت ترجمته مفردة – ووفيات الأعيان (١٧٧/٤) ، وغاية النهاية في طبقات القراء (٢٦٢/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٣٢٦/٥) ، والوافي للصفدي (٢٤/٥) ، وتهذيب التهذيب (٤٤٥/٩) .

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف (٢٥٨/١١) ورقمه (٢٠٤٨٧) ، والخطيب في تقييد العلم (ص : ١٠٦-١٠٧) ، وابن سعد في الطبقات (٣٨٨/٢) ، وفي الجزء المتمم (ص : ١٦٨) ، والفسوى في المعرفة (٦٣٧/١، ٦٤١) ، وابن عساكر – ترجمة الزهري مفردة – (ص : ٦٢) ، وأبو نعيم في الحلية (٣٦٠/٣) .

فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » [١] ، فمن سار على نهج الصحابة سلم من هذه الصفة الذميمة . ومع كل ذلك فمن أتى بعد الصحابة فلن يكون مثلهم في الفهم والعلم .

جـ) لم يكن بين الصحابة خلاف في العقيدة ، فهم متفقون في أمور العقائد التي تلقوها عن النبي – ﷺ – بكل وضوح وبيان ، وهذا بخلاف مسائل الأحكام الفرعية القابلة للاجتهاد والاختلاف ، يقول ابن القيم – رحمه الله – : « إن أهل الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام ، ولا يخرجون بذلك عن الإيمان ، وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين ، وأكمل الأمة إيمانا . ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال ، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة ، كلمة واحدة ، من أولهم إلى آخرهم ، لم يسوموها تأويلا ، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا ، ولم يبدوا لشيء منها إبطالا ، ولا ضربوا لها أمثالا ، ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها ، ولم يقل أحد منهم : يجب صرفها عن حقائقها ، وحملها على مجازها ، بل تلقوها بالقبول والتسليم ، وقابلوها بالإيمان والتعظيم ، وجعلوا الأمر فيها كلها أمرا واحدا ، وأجروها على سنن واحدة » [٢] .

والأمور اليسيرة التي اختلفوا فيها – كرؤية النبي – ﷺ – ربه ، وغيرها لا تؤثر في هذه القاعدة العامة ؛ لأن الخلاف فيها كان لأسباب وقد يكون لبعض الصحابة من العلم ما ليس عند الآخر ، لكنهم – رضي الله عنهم – إذا جاءهم الدليل خضعوا له بلا تردد .

د) كان الصحابة يسألون عما يشكل عليهم ، وهذا أمر مشهور عنهم – رضي الله عنهم – فأم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – رُوي عنها أنها

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الإيمان – باب كون النهي عن المنكر من الإيمان ، ورقمه (٨٠) .

(٢) إعلام الموقعين (١/٥١-٥٢) ت : الوكيل .

« كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه إلاّ راجعت فيه حتى تعرفه » (١) ولذلك سألت رسول الله – ﷺ – عندما قال : « من نوقش الحساب عذب » عن الآية : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ [الانشقاق : ٧،٨] ، فأجابها : « إنما ذلك العرض ... » (٢) ، كذلك سأل الصحابة عن رؤية الله فمثل لهم برؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب (٣) ، وكذلك قدرة الله على البعث ضرب لها مثالا بالنبات (٤) .

ومن هذه الميزات تتضح بجلاء مكانة الصحابة وعلمهم وفهمهم – رضي الله عنهم أجمعين – كما يتبين فضلهم – في هذه الأمور وغيرها – على من جاء بعدهم ، وأن أي تجهيل لهم بأسلوب صريح أو غير صريح يعتبر ضلالا وانحرافاً ، لا يتوقف عند حد اتهام الصحابة أنفسهم بل يتعداه إلى ما بلغوه عن رسول الله – ﷺ – من أمور الدين كلها . وإن العجب ليأخذ الإنسان وهو يقرأ مثل هذا الكلام لأحد الكتاب وهو يعرض لمذهب السلف ومدرستهم ، يقول : « ولعلنا نلمح – من خلال هذا العرض – الفرق الواضح بين الإيمان والمعرفة ، فالأول محله القلب ، والثانية محلها العقل . ومن ثم نستطيع أن نقرر أن المتدينين في الصدر الأول قد فقهوا النص الديني – وخاصة ما يتعلق بأمور العقيدة – بقلوبهم ، قبل إدراكه بمقاييس العقل ، كالذي عرف فيما بعد لدى بعض فرق المتكلمين ، وتخريجهم نصوص العقيدة على مقتضى ما وضعوه من مقامات عقلية »

---

(١) رواه البخاري عن ابن أبي مليكة في العلم ، رقم (١٠٣) ، واسمه : عبد الله بن عبيد الله ابن عبد الله بن أبي مليكة بن عبد بن جدعان ثقة ، فقيه ، روى عن مجموعة من الصحابة – منهم عائشة – روى له الجماعة . انظر : التهذيب (٣٠٦/٥) ، والتقريب (٤٣١/١) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري عن ابن أبي مليكة عن عائشة ، كما رواه عن ابن أبي مليكة عن القاسم عن عائشة ، وأرقامه (١٠٣، ٤٩٣٩، ٦٥٣٦، ٦٥٣٧) ، ومسلم في الجنة ، ورقمة (٢٨٧٦) .

(٣) رواه أحمد – عن أبي رزين العقيلي ابن المنتفق – المسند (١١/٤) ، ورواه أبو داود في السنة ، رقمه (٤٧٣١) ، وابن ماجه في المقدمة ، رقمه (١٨٠) ، وابن أبي عاصم في السنة ، رقمه (٤٥٩–٤٦٠) ، وحسنه الألباني .

(٤) رواه أحمد عن أبي رزين العقيلي ، واسمه لقيط بن عامر بن المنتفق ، وهو الذي سأله . المسند (١١/٤) .

ثم يعقب قائلا : « وليس في هذا القول نسبة لهم – أي المتدينين – إلى التجهيل كما فهم تقي الدين ابن تيمية » [١] .

هكذا يقول الكاتب عن الصدر الأول – وفيهم الصحابة – إنهم كانوا يؤمنون بأمور العقيدة بقلوبهم ، ولكنهم لا يعرفونها بعقولهم ، وإنما عرفها أهل الكلام من بعد لما جاءوا بالمقدمات العقلية ، ومع ذلك فليس في هذا تجهيل للصحابة والصدر الأول [٢] .

٥ – ومن منهج السلف : التسليم لما جاء به الوحي ، مع إعطاء العقل دوره الحقيقي ، وعدم الخوض في الأمور الغيبية مما لا مجال للعقل فيه ، فالسلف – رحمهم الله – لم يلغوا العقل كما يزعم خصومهم من أهل الكلام ، أو من لا خبرة له بمذهب السلف من غيرهم ، كما أنهم لم يحكموه في جميع أمورهم كما فعل أهل الضلال ، وإنما وزنوا الأمر بموازين الشرع : فما جاء به الوحي فهو حق وصدق ولا يمكن أن يخالف معقولا صريحا أبدا ، إذ كيف يخالفها والوحي من الله والعقول مخلوقة لله ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك والمقصود هنا بيان أن من منهجهم التسليم لما ورد في النصوص وعدم معارضتها بشيء من الأهواء أو العقول ، مع إعطاء العقل دروه المناسب له [١] .

٦ – لم يكونوا يتلقون النصوص ومعهم أصول عقلية يحاكمون النصوص إليها ، كما فعل المعتزلة وغيرهم الذين وضعوا أصولاً عقلية ، ثم لما جاءوا إلى القرآن والسنة وما فيهما من دلالات في الاعتقاد ، نظروا فما وجدوه موافقا لتلك الأصول العقلية أخذوا به ، وما وجدوه مخالفا لشيء منها أولوه أو أنكروا الاحتجاج به ، وقد كان سيد قطب – رحمه الله – من الدعاة إلى هذا المنهج في العودة إلى العقيدة والتصور الإسلامي ، يقول في كلامه حول المنهج الصحيح لذلك : « ومنهجنا

---

(١) المدرسة السلفية ، تأليف : محمد عبد الستار نصار (ص : ٤٧٨) .

(٢) انظر : في موضوع منزلة الصحابة ، قواعد المنهج السلفي (ص : ٥١–٦٨) الطبعة الثانية .

(٣) انظر : علاقة الإثبات والتفويض (ص : ٢٣–٢٦) ، ومنهج علماء الحديث والسنة (ص : ٤٠) ، وانظر : نقض التأسيس المطبوع (١/٢٤٦–٢٤٧) .

في استلهام القرآن الكريم ، ألا نواجهه بمقررات سابقة إطلاقا ، لا مقررات عقلية ، ولا مقررات شعورية – من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن ذاته – نحاكم إليها نصوصه ، أو نستلهم معاني هذه النصوص وفق تلك المقررات السابقة » .

« لقد جاء النص القرآني – ابتداء – لينشئ المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر ، وأن تقوم عليها حياتهم ، وأقل ما يستحقه هذا التفضل من العلي الكبير ، هذه الرعاية من الله ذي الجلال – وهو الغني عن العالمين – أن يتلقوها وقد فرغوا لها قلوبهم وعقولهم من كل غبش دخيل ، ليقوم تصورهم الجديد نظيفا من كل رواسب الجاهليات – قديمها وحديثها على السواء – مستمدا من تعليم الله وحده ، لا من ظنون البشر ، التي لا تغني من الحق شيئا » .

« ليست هناك إذن مقررات سابقة نحاكم إليها كتاب الله تعالى ، إنما نحن نستمد مقرراتنا من هذا الكتاب إبتداء ، ونقيم على هذه المقررات تصوراتنا ومقرراتنا ، وهذا – وحده – هو المنهج الصحيح ، في مواجهة القرآن الكريم ، وفي استلهامه خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » [1] .

٧ – الرجوع إلى النصوص الواردة في مسألة معينة ، وعدم الاقتصار على بعضها دون البعض الآخر ، وهذا ناشئ من أنهم لا يفرقون بين النصوص وليس لديهم أصول عقلية متقررة سلفا عندهم ليأخذوا من النصوص ما وافقها ويدعوا ما خالفها ، كما وقع فيه أهل الأهواء كلهم ؛ إذ ما من طائفة من طوائفهم إلّا وأخذت بجزء من النصوص مما يوافق مذهبها ثم تأتي طائفة تطعن في أدلة الطائفة الأخرى ... وهكذا في جميع مسائل العقيدة .

أما السلف – ومذهبهم هو الوسط – فلا يسلكون مثل هذا المنهج ، بل يأخذون بجميع النصوص ، فيكون معهم الحق الذي مع كل من الطائفتين المنحرفتين ،

---

(١) خصائص التصور الإسلامي (ص : ١٤–١٥) ، ومع هذا المنهج الواضح لسيد قطب فلا يخلو كتابه « في ظلال القرآن » من بعض الهفوات التي وقع بها ، خاصة في بعض الصفات كالاستواء وغيره .

ويسلمون من الباطل الذي معهما . والأمثلة على ذلك كثيرة وواضحة والحمد لله .

فالسلف يجمعون النصوص في المسألة الواحدة من مسائل العقيدة وغيرها ، ثم يأخذون بها جميعا فيخلصون إلى مذهب وسط هو المذهب الحق والعدل .

٨ - التزام العدل والإنصاف مع أعدائهم ، فهم يعترفون بما عند الخصوم من حق ، ولا يعميهم ما يجدونه عندهم من ضلال فيصدهم عن قول الحق فيهم ، أو يدعوهم إلى رميهم بما ليس فيهم من الباطل . وهذا بخلاف منهج أهل الأهواء الذين يرمون كل من لم يقل بمقالتهم بشتى أنواع التهم ، ويحملون أقوال من يخالفهم أسوأ الاحتمالات ، ولا يعترفون له بحق أبدا . أما أهل السنة فيلتزمون الإنصاف مع أنفسهم ومع من يخالفهم ، ولذلك فهم يقسمون من عداهم إلى قسمين :

أ) أهل كفر وعناد فهؤلاء يجاهدونهم ويكشفون باطلهم .

ب) أهل بدعة وعصيان . فهؤلاء يحمدون لهم ما عندهم من إيمان وجهاد وخير وخدمة للإسلام ، ويردون ما هم عليه من بدعة ، ويبينون ما فيها من ضلال ومخالفة لمذهب أهل السنة ، ومن كان داعيا إلى بدعته فالموقف منه يشتد حسب خطورة المقالة الضالة التي أتى بها ، وحسب المصلحة التي تنجم عن كشف البدعة وتفسيق صاحبها .

٩ - لا يتعصبون لشخص إلاّ للرسول - ﷺ - ، فعندهم أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلاّ الهادي البشير عليه الصلاة والسلام ، لأنه الذي لا ينطق عن الهوى . وهذا بخلاف أهل الأهواء الذين يتعصبون لطائفتهم أو إلى رجل من رجالهم ، ويجعلون أقوال هؤلاء كالنصوص ، لا تقبل الرد ولا التأويل ، ومن ثم يردون نصوص الكتاب والسنة لأجلها . أما أهل السنة فإمامهم وقائدهم الذي يتبعون ما جاء به ويزنون جميع أقوال الناس بأقواله ؛ رسول الله - ﷺ - .

ثانيا : تميز السلف « أهل السنة والجماعة » عن غيرهم :

والقصد من هذا بيان الميزات التي تميز بها أهل السنة عن غيرهم ومن أهمها :

١ - أن أهل السنة ليس لهم اسم يسمون به إلاّ اسم « أهل السنة والجماعة » ، أو « أهل الحديث » فهو الاسم الذي عرفوا به ، وهذا بخلاف

أصحاب البدع الذين تسموا بأسماء وألقاب أو عرفوا بها فصارت علما عليهم ، ومن المعلوم أن أهل السنة قد يسميهم غيرهم بأسماء وألقاب أخرى ، إذ ما من فرقة إلّا وسمت أهل السنة باسم يناسب ما خالفها فيه أهل السنة ، ولكن بقي أهل السنة لم يلزمهم شيء من هذه الألقاب الباطلة . ولذلك ذكر ابن عبد البر أن رجلا جاء إلى الإمام مالك فقال : « يا أبا عبد الله ، أسألك عن مسألة أجعلك حجة فيما بيني وبين الله عز وجل ، قال مالك : ما شاء الله لا قوة إلاّ بالله ، سل . قال : من أهل السنة ؟ ، قال : أهل السنة الذين ليس لهم لقب يعرفون به ، لا جهمي ، ولا قدري ، ولا رافضي [(١)] ، ويقول الشيخ عبد القادر الجيلي [(٢)] في الغنية : « واعلم أن لأهل البدع علامات يعرفون بها فعلامة أهل البدعة الوقيعة في أهل الأثر ، وعلامة الزنادقة تسميتهم أهل الأثر بالحشوية ، ويريدون إبطال الآثار ، وعلامة القدرية تسميتهم أهل الأثر مجبرة ، وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة ، وعلامة الرافضة تسميتهم أهل الأثر ناصبة ، وكل ذلك عصبية وغياض لأهل السنة ، ولا اسم لهم إلّا اسم واحد وهو : أصحاب الحديث ، ولا يلتصق بهم ما لقبهم به أهل البدع ، كما لم يلتصق بالنبي - ﷺ - تسمية كفار مكة ساحرا وشاعرا ومجنونا ومفتونا وكاهنا ، ولم يكن اسمه عند الله وعند ملائكته وعند إنسه وجنه وسائر خلقه إلاّ رسولا نبياً... » [(٣)] .

٢ - توسطهم بين الناس ، وعدم الإفراط أو التفريط ، وهذا مبني على أن مذهبهم هو المذهب الوسط . وقد حرص السلف على أن يكونوا وسطا

---

(١) الانتقاء لابن عبد البر (ص : ٣٥) .

(٢) أو الجيلاني ، وهو الشيخ عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله الجيلي الحنبلي ، وفي مقدمة الغنية في ترجمته (ص : ٣) عبد القادر بن موسى وكذا في الأعلام (٤٧/٤) - الطبعة الأخيرة - ، ولد الشيخ عبد القادر سنة ٤٧٠ هـ ، وتوفى سنة ٥٦١ هـ . قال عنه الذهبي : « وفي الجملة : الشيخ عبد القادر كبير الشأن ، وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاويه » ، وسماه في بداية الترجمة شيخ الإسلام وعلم الأولياء . سير أعلام النبلاء (٤٣٩/٢٠-٤٥١) ، وانظر الأنساب (٤١٤/٣) ، ط لبنان والمنتظم (٢١٩/١٠) ، وذيل طبقات الحنابلة (٢٩٠/١-٣٠١) .

(٣) الغنية (٨٠/١) .

في الأمور كلها وأن لا ينساق أحد منهم مع أحد القولين المتطرفين ، ولذلك كان الشعبي [(١)] يقول : « أحبّ أهل بيت نبيك ولا تكن رافضيا ، واعمل بالقرآن ولا تكن حروريا ، واعلم أن ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، ولا تكن قدريا ، وأطع الإمام وإن كان عبدا حبشيا ولا تكن خارجيا ، وقف عند الشبهات ولا تكن مرجيا ، وأحب صالح بني هاشم ولا تكن خشبيا [(٢)] ، وأحب من رأيته يعمل الخير وإن كان أخرم سنديا » [(٣)] .

٣ - ثباتهم على منهجهم لقناعتهم أنه الحق ، وعدم تقلبهم كما هي عادة أهل الأهواء ، ولذلك روى عن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - أنه قال : « من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل » [(٤)] ، كما روى عن الإمام مالك أنه قال : « كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل على محمد - ﷺ - لجدله » [(٥)] ، وروى معن بن عيسى قال : « انصرف مالك بن أنس - رضي الله عنه - يوما من المسجد وهو متكيء على يدي ، فلحقه رجل يقال له أبو الحورية - كان يتهم بالإرجاء - فقال : يا عبد الله ، اسمع مني شيئا أكلمك به وأحاجك ، وأخبرك رأيي ، قال : فإن غلبتني ؟ قال : إن غلبتك اتبعني . قال : فإن جاء رجل آخر فكلمنا فغلبنا ؟ قال نتبعه . قال مالك - رحمه الله تعالى - : يا عبد الله ، بعث الله عز وجل محمدا - ﷺ - بدين واحد ، وأراك تنتقل

---

(١) هو : الإمام المشهور : عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار ، أبو عمرو الهمذاني الشعبي ، روى له الجماعة . توفى سنة ١٠٥ هـ ، وقيل غير ذلك . انظر : أخبار القضاة (٢/٤١٣-٤٢٨) والحلية (٤/٣١٠) ، وسير أعلام النبلاء (٤/٢٩٤) ، والوافي في الوفيات (١٦/٥٨٧) .

(٢) هم أتباع المختار بن أبي عبيد ، من الشيعة ، وهم من الكيسانية وغيرهم ، وسموا بذلك لاستعمالهم العكاكيز في الحرب . انظر : مروج الذهب (٣/٣١٠) ، منشورات الجامعة اللبنانية ، وانظر فهارس هذا الكتاب (٦/٣٠٦) .

(٣) تهذيب تاريخ دمشق (٧/١٤٣) .

(٤) رواه الدارمي ، رقم (٣١٠) - باب من قال : العلم الخشية وتقوى الله ، والآجري في الشريعة (ص : ٥٦) ، والبغوي في شرح السنة (١/٢١٧) ، طـ المكتب الإسلامي ، ورواه اللالكائي في شرح السنة ، رقم (٢١٦) .

(٥) رواه اللالكائي في شرح السنة ، رقم (٢٩٣-٢٩٤) .

من دين إلى دين ، قال عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل » [(١)] .

ولذلك ما أكثر تنقل أهل الأهواء ، بخلاف السلف الذين عرفوا الحق فثبتوا عليه ، وأهل الكلام « لو اعتصموا بالكتاب والسنة لا تفقوا كما اتفق أهل السنة والحديث ، فإن أئمة السنة والحديث لم يختلفوا في شيء من أصول دينهم » [(٢)] .

٤ - اتفاقهم على أمور العقيدة ، وعدم اختلافهم مع اختلاف الزمان والمكان ، وهذا ما يمكن أن يسمى به الوحدة الفكرية عندهم « فأهل السنة في أي قرن من القرون ، وفي أي مكان لو اختبرت الواحد منهم لوجدته يحمل من العقيدة والمنهج - مع القناعة التامة بذلك - مثل ما يحمله الآخر يقول قوام السنة الأصبهاني [(٣)] : « ومما يدل على أن أهل الحديث هم أهل الحق انك لو طالعت جميع كتبهم المصنفة من أولهم إلى آخرهم ، قديمهم وحديثهم ، مع اختلاف بلدانهم وزمانهم ، وتباعد ما بينهم في الديار ، وسكون كل واحد منهم قطرا من الأقطار - وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة ، ونمط واحد ، يجرون على طريقة لا يحيدون عنها ، ولا يميلون فيها ، قولهم في ذلك واحد ، ونقلهم واحد ، لا ترى فيهم اختلافا ولا تفرقا في شيء ما وإن قل . بل لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم وجدته كأنه جاء عن قلب واحد ، وجرى على لسان واحد ، وهل على الحق دليل أبين من هذا ؟ » [(٤)] . وهذا وصف دقيق لوحدة أهل السنة وعدم تباين واختلاف أقوالهم مثل ما حدث ويحدث لمن عداهم من أهل الأهواء والابتداع .

---

(١) الشريعة للآجري (ص : ٥٦-٥٧) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣٠٦/١٠) .

(٣) هو : الإمام إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي ، التيمي الأصبهاني ، (ويقال له : الجوزي ، نسبة إلى الجوزة ، وهي الفرخة في لغة العجم) ، وبها نسبه تلميذه صاحب الأنساب ، وذكر أنه كان يكرهها ، لكنه قال : ولولا اشتهاره بها ما نسبته إليها ، ويلقب بقوام السنة ، ولد سنة : ٤٥٧ هـ وتوفى سنة : ٥٣٥ هـ . الأنساب (٣٦٨/٣) ، وطبقات الشافعية للأسنوي (٣٥٩/١) وشذرات الذهب (١٠٥/٤) ، وسير أعلام النبلاء (٨٠/٢٠) ، والأعلام (٣٢٣/١) .

(٤) الحجة في بيان المحجة - مخطوط - ورقمة (١٦٤) ب .

٥ - ردهم على أهل البدع - في كل زمان - حسب البدع التي نشأت فيه ، وهذا لأنهم حريصون أتم الحرص على سلامة العقيدة من أن يشوبها شيء من كدر الهوى والابتداع ، فكل ما حدثت بدعة ردوا عليها وبينوا فسادها ، وهكذا في البدع التي تليها . ولا يفتعلون افتراضات وشبهات ثم يقومون بالرد عليها كما يفعل أهل البدع ، وإنما يحرصون على تربية الناس على العقيدة الصحيحة من الكتاب والسنة ، ويبينون للناس ذلك ويشرحونه ، حتى تمتلئ قلوبهم بعظمة الله ، وبعظمة الوحي من كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - . وما يترتب على هذه التربية من الاعتزاز بهذا الدين وبمذهب أهل السنة والجماعة ، وأنه طريق النجاح والفلاح . أما مجادلة أهل البدع والرد عليهم فإنما يأتي عرضا حسب خطورة البدعة والخوف من انتشارها ، فيردون عليها فقط ولا يتعدى ذلك إلى افتراض بدع أخرى ثم الرد عليها ، حتى توجد هذه البدعة ، ولذلك فمن الواضح من منهج السلف أنه « قد يبين بعضهم في بعض الأوقات ما لا يبينه غيره لحاجته في ذلك ، فمن ابتلي بمن يقول : ليس هذا كلام الله كالإمام أحمد كان كلامه في ذم من يقول : هذا مخلوق ، أكثر من ذمه لمن يقول : لفظي مخلوق . ومن إبتلى بمن يجعل بعض بعض صفات العباد غير مخلوق ، كالبخاري صاحب الصحيح ، كان كلامه في ذم من يجعل ذلك غير مخلوق أكثر . مع نص أحمد والبخاري وغيرهما على خطأ الفريقين » [(١)] .

٦ - حبهم لسنة الرسول - ﷺ - ، وموالاتهم لأهلها ، وهذه ميزة بارزة لأهل السنة كما أن ضدها من الإعراض عن السنة وعدم الاهتمام بها ، والإزراء أحيانا بمن يفنون أعمارهم في روايتها ونقلها وتعليمها للناس - إحدى علامات أهل البدع الكبرى . رُوي عن البخاري أنه قال : « كنا ثلاثة أو أربعة على باب علي بن عبد الله فقال : إني لأرجو أن تأويل هذا الحديث عن النبي - ﷺ - : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم » [(٢)] ،

---

(١) الجواب الصحيح (١٠٣/٣) .

(٢) سبق تخريجه (ص : ٣٥) .

إني لأرجو أن تأويل هذا الحديث أنتم ، لأن التجار قد شغلوا أنفسهم بالتجارات ، وأهل الصنعة قد شغلوا أنفسهم بالصناعات ، والملوك قد شغلوا أنفسهم بالمملكة ، وأنتم تحيون سنة النبي - ﷺ - [١] ، ويقول قتيبة بن سعيد [٢] : « إذا رأيت الرجل يحب أهل الحديث مثل يحيى بن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه - وذكر قوما آخرين - فإنه على السنة ، ومن خالف هذا فاعلم أنه مبتدع » [٣] ، ويقول الشيخ أبو اسماعيل الصابوني : « وإحدى علامات أهل السنة حبهم لأئمة السنة وعلمائها وأنصارها وأوليائها ، وبغضهم لأئمة البدع الذين يدعون إلى النار ، ويدلون أصحابهم على دار البوار ، وقد زين الله سبحانه قلوب أهل السنة ونورها بحب علماء السنة فضلا منه جل جلاله » [٤] .

٧ - قبولهم عند الناس والتمكين لهم ، فهم العدول الذين تقبل أقوالهم ويحتج برواياتهم . ولو استعرضنا تاريخ الإسلام لوجدنا البارزين فيه كل عصر هم أهل السنة الذين قاموا بالحق ودعوا إليه ، وجددوا ما اندرس من أمور الإسلام ، وجاهدوا في الله حق جهاده بالنفس والمال والقلم واللسان . يقول إسحاق ابن موسى الخطمي [٥] « ما مكن لأحد من هذه الأمة ما مكن لأصحاب الحديث لأن الله عز وجل قال في كتابه : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور : ٥٥] ، فالذي ارتضاه الله قد مكن لأهله فيه ، ولم يمكن لأصحاب

---

(١) شرف أصحاب الحديث (ص : ٥٢) .

(٢) هو : قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف الثقفي ، أبو رجاء البغلاني ، ثقة ثبت ، ولد سنة ١٤٩ هـ ، وتوفي سنة ٢٤٠ هـ . روى له الجماعة . سير أعلام النبلاء (١٣/١١) ، والأنساب (٢٥٧/٢) ، والتقريب (١٢٣/٢) .

(٣) شرف أصحاب الحديث (ص : ٧١-٧٢) ، ورواه - مع اختلاف يسير - الصابوني في عقيدة السلف (ص : ١٠٩) ، واللالكائي في شرح السنة ، رقم (٥٩) .

(٤) عقيدة السلف للصابوني (ص : ١٠٨-١٠٩) .

(٥) هو : اسحاق بن موسى الخطمي ، أبو موسى المديني ، ثقة متقن من رجال مسلم وبعض أصحاب السنن ، توفي سنة ٢٤٤ هـ ، تهذيب الكمال للمزي (٤٨٠/٢) مطبوعة ، وسير أعلام النبلاء (٥٥٤/١٠) ، والتقريب (٦١/١) .

الأهواء في أن يقبل منهم حديث واحد عن أصحاب النبي - ﷺ - . وأصحاب الحديث يقبل منهم حديث رسول الله - ﷺ - وحديث أصحابه . ثم ان كان فيهم رجل أحدث بدعة سقط حديثه وإن كان من أصدق الناس » [١] .
وهذا على العموم ، وإلا فقد روى بعض العلماء عن بعض أهل البدع بشروط دقيقة حددوها .

٨ - حرصهم على تنشئة الشباب على السنة ، لأن الشاب إذا نشأ على قراءة القرآن ومحبة السنة ومدارستها ، وما ينشأ عن ذلك من مجالسة أصحابها والتعلم منهم - أحرى أن يكون معهم وأن يكون صاحب سنة ، مبغضا للبدعة وأصحابها . قال عمرو ابن قيس الملائي [٢] : « إذا رأيت الشاب أول ما ينشأ مع أهل السنة والجماعة فارجه ، وإذا رأيته مع أهل البدع فايئس منه فإن الشاب على أول نشوئه » [٣] ، وقال عبد الله بن شوذب [٤] : « إن من نعمة الله على الشاب إذا نسك أن يواخي صاحب سنة يحمله عليها » [٥] ، وروى عن أيوب [السختياني] [٦] أنه قال : « إن من سعادة الحدث والأعجمي أن يوفقهما الله لعالم من أهل السنة » [٧] .

---

(١) شرف أصحاب الحديث (ص : ٣٢) .
(٢) أبو عبد الله الكوفي ، ثقة متقن ، عابد ، مات سنة بعض وأربعين ومئة حددها بعضهم بسنة ١٤٦ هـ . تهذيب التهذيب (٩٢/٨) ، والتقريب (٧٢/٢) .
(٣) الإبانة لابن بطة (الصغرى) (ص : ١٣٣) رقم (٩٢) .
(٤) هو : عبد الله بن شوذب الخراساني ، أبو عبد الرحمن ، صدوق عابد ، ولد سنة ٨٦ هـ ، وتوفي سنة ١٤٤ هـ ، وقيل : ١٥٦ هـ . الحلية (١٢٩/٦) ، سير علام النبلاء (٩٢/٧) ، تهذيب التهذيب (٢٥٥/٥) ، التقريب (٤٢٣/١) .
(٥) شرح السنة للالكائي رقم (٣١) ، وانظر : الإبانة (الصغرى) (ص : ١٣٣) .
(٦) هو : أيوب بن أبي تميمة ، كيسان السختياني ، أبو بكر البصري ، ثقة ، ثبت ، حجة ، من كبار الفقهاء والعباد ، توفي سنة ١٣١ هـ . سير أعلام النبلاء (١٥/٦) ، تهذيب المزي (٤٥٧/٣) ، رقم الترجمة : ٦٠٧ - مطبوعة - ، وتهذيب التهذيب (٣٩٧/١) (٣٩٧/١) ، والتقريب (٨٩/١) .
(٧) رواه اللالكائي ، رقم : ٣٠ ، وابن الجوزي في تلبيس (ص : ٩) ، الطبعة المنيرية .

٩ - الحرص على جماعة المسلمين ووحدتهم ، فهم دائما يحضون على الوحدة وينبذون الفرقة والتفرق . وهذا واضح في منهج السلف القائم على أن أي اتفاق بين المسلمين لا يكون إلّا على أساس الرجوع إلى الكتاب والسنة ، وتحكيمها ، فهم أهل السنة والجماعة المجتمعون على الحق ، الحريصون على جمع الناس على كلمة الحق .

* * *

الباب الأول

ابن تيمية والأشاعـرة

ويشمل الفصول التالية :

الفصل الأول : حياة ابن تيمية – عصره ، ونشأته وآثاره .

الفصل الثاني : منهجه في تقرير عقيدة السلف وفي رده على الخصوم .

الفصل الثالث : أبو الحسن الأشعري .

الفصل الرابع : نشأة الأشاعرة وعقيدتهم .

الفصل الخامس : تطور مذهب الأشاعرة ، وأشهر رجالهم إلى عصر ابن تيمية .



الفصل الأول
حياة ابن تيمية

ويشمل مبحثين :-

المبحث الأول: عصر ابن تيمية .

المبحث الثاني : ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية .

الفصل الأول

تقدمــة

يعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – من العلماء البارزين الذين حظوا بتراجم عديدة ، مفردة وغير مفردة . كما أن كتبه ورسائله وفتاواه وما تضمنته من اجتهادات في مسائل الفقه والأحكام ، ودراسات أصولية – في الفقه والحديث والتفسير – وشروح لمذهب السلف وردود على المخالفين .... وغيرها – صارت مجالا خصبا للتأليف والدراسة والنشر والتحقيق ، ولم تغفل هذه الكتب الترجمة لابن تيمية ودراسة جوانب من منهجه .

لذا فإن الباحث يقف في حيرة من هذا الأمر : كيف يترجم لهذا العلم مع هذا العدد الكبير من المصادر والمراجع التي تناولت حياته بالشرح والتفصيل ؟ خاصة إذا كان من المهم إبراز جوانب تتعلق بحياة المترجم لها مساس بموضوع البحث الأساسي .

وقد جاء هذا الفصل المتعلق بحياة شيخ الإسلام يركز على مبحثين :

الأول : عصر ابن تيمية ، وأوضاعه السياسية والإدارية والعلمية والعقدية ، ونظرا لتأخر عصر ابن تيمية نوعا ما فقد حرصت على أن لا يكون العرض مختصرا ، بل شاملا ومركزا يعرض للخلفيات ، والمواقف ، خاصة مواقف العلماء ومنهم ابن تيمية ، ولعل تفصيل بعض النقاط هنا يغني عن تفصيلها عند الحديث عن ترجمة شيخ الإسلام .

الثاني : ترجمة شيخ الإسلام ، تركز على نسبه وشيوخه وجهوده العلمية والعملية ، ومحنه التي مر بها ، ثم تلاميذه ، وآثاره مع التركيز على كتبه ورسائله التي رد فيها على الأشعرية .



المبحث الأول

عصر ابن تيمية

عاش شيخ الإسلام ابن تيمية في النصف الثاني من القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن الهجري ، وبالتحديد بين عامي ٦٦١ - ٧٢٨ هـ ، وقد كان هذا العصر امتدادا لعصور سابقة اعتورتها أحداث كبار ومتغيرات كثيرة في العالم الإسلامي ، سواء في وضعه السياسي أو وضعه العقدي أو وضعه الاجتماعي والتشريعي .

وتفصيل هذه الأمور يبعدنا عن موضوع هذه الرسالة ، لذا سنقتصر على الإشارة إلى بعض القضايا التي تلقي الضوء على هذا العصر دون الدخول في متاهات الأوضاع السياسية وتقلباتها - التي فصلتها كتب التاريخ -

وأهم هذه القضايا :-

١ - الغزو الصليبي للعالم الإسلامي .

٢ - ظهور التتار واجتياحهم للعالم الإسلامي .

٣ - المماليك يخلفون الأيوبيين في حكم مصر والشام .

٤ - سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، وانتقال مركز القيادة والثقل في العالم الإسلامي إلى مصر .

٥ - الباطنيون والرافضة .

٦ - بداية ظهور التقنين والتحاكم إلى غير الشريعة الإسلامية .

٧ - الجوانب العلمية والعقائدية :

أ - أهل الذمة .

ب - التصوف والشركيات .

جـ - المذهب الأشعري .

أولا : الصليبيون : [٤٩٠ – ٦٩٠ هـ] .

الحرب بين المسلمين والنصارى لم تهدأ في يوم من الأيام منذ انتشار الاسلام فالدولة البيزنطية في شمال الشام كانت موجودة وبينها وبين المسلمين حروب ومناوشات كثيرة ، وكذلك النصارى في الأندلس كانت بينهم وبين المسلمين حروب مستمرة . ولكن ما اصطلح عليه اسم « الحروب الصليبية » كانت خاصة بتلك الهجمات والحملات من جانب نصارى أوربا على قلب العالم الإسلامي في بلاد الشام ، وما حققوه في البداية من انتصارات ثم تلك المقاومة الرائعة من جانب قادة عظام من قواد المسلمين برزوا في ذلك الوقت ليقارعوا الصليبيين حتى أجلوهم وطردوهم من بلاد الإسلام .

ولم يكن باستطاعة النصارى أن يفعلوا ما فعلوا لولا الواقع المؤسف الذي كان يعيشه العالم الإسلامي : فالدولة العباسية كانت مقسمة وسلطات الخلفاء كانت شكلية ، والدويلات المتفرقة تتقاسم أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي : فالسلاجقة [١] في بغداد ، والفاطميون في المغرب ومصر ، والشام والجزيرة في كل مدينة إمارة . ولم يقتصر الأمر على هذا التفرق فقط وإنما كان الصراع محتدما بين هؤلاء ، فالفتن والحروب فيما بينهم مشتعلة ، والتفرق والتباين المذهبي كان يجعل مسألة الوحدة مسألة شبه مستحيلة . أما في الأندلس فيكفي أنها كانت تعيش عهد دول الطوائف [٢] .

ومع هذا التفرق والانقسام فقد وقعت معركتان فاصلتان بين المسلمين والنصارى إحداهما في المشرق والأخرى في المغرب ، انتصر فيها المسلمون انتصاراعظيما :

---

(١) كان السلاجقة سنة ، وقد احتلوا بغداد سنة ٤٤٧ هـ وقضوا على بني بويه الشيعة . انظر تاريخ دولة آل سلجوق للأصفهاني (ص : ١٢) .

(٢) قدمت عدة دراسات حول هذه الحقبة من تاريخ العالم الإسلامي : ففي أحوال بلاد الشام وما حولها . انظر : بلاد الشام قبل الغزو الصليبي علي محمد الغامدي ، والمجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية أحمد رمضان محمد ، والصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية ، حامد زيان – ومدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، سهيل زكار . أما الأندلس =

أولاهما :معركة ملازكرد [(١)] في عام ٤٦٣ هـ انتصر فيها ألب أرسلان السلجوقي على إمبراطور الروم مما أدى إلى انهزام الروم في الأناضول واستيلاء السلاجقة على غالب تلك المنطقة ، حتى أصبحت مدينة القسطنطينية مهددة من جانب السلاجقة [(٢)] .

والأخرى : معركة الزلاقة [(٣)] التي كانت بين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين وبين النصارى . وكانت عام ٤٧٩ هـ . وقد كان من نتائج هذه المعركة تأخر إجلاء المسلمين عن الأندلس عدة قرون [(٤)] .

ولكن مع هذا فإن الضعف والتفرق المحيط بالمسلمين كان قد وصل إلى حالة مؤسفة ، بحيث لم تكن مثل تلك المعارك الفاصلة التي انتصر فيها المسلمون بداية لتحركهم وزيادة فتوحاتهم واسترداد ما احتله أعداؤهم من بلادهم أو على الأقل إيقاف الخصوم عند حدودهم . لكن الذي حدث هو العكس تماما فبعد سنوات محدودة تجمعت أوربا الصليبية وسارت بحملات رهيبة إلى داخل العالم الإسلامي ليكونوا فيه دويلات لهم ويحتلوا القدس الشريف ، وقد بدأت هذه الحملات عام ٤٩٠ هـ .

والذي يلفت الانتباه – في مسألة نشوء هذه الحملات – ما يذكره ابن الأثير في الكامل من رواية تقول : « إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة

= والمغرب فانظر البيان المغرب (١٥٣/٣) وما بعدها ، والدراسة الشاملة لمحمد عبد الله عنان في سلسلة دولة الإسلام في الأندلس جزء دول الطوائف .

(١) تسمى « منازجرد » وهي هكذا في معجم البلدان ، وقد تبدل الجيم كافا ، بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم ، يعد في أرمينية ، انظر معجم البلدان (٢٠٢/٥) ، ومختصره مراصد الاطلاع (١٣١٤/٣) .

(٢) انظر : تاريخ دولة آل سلجوق للأصفهاني (ص ٤٠-٤٤) ، والكامل (٦٥/١٠-٦٧) ، والبداية والنهاية (١٠٠/١٢-١٠١) .

(٣) بطحاء الزلاقة من اقليم بطليوس من غرب الأندلس – الروض المعطار (ص : ٢٨٧) .

(٤) انظر : الروض المعطار (ص : ٢٨٧-٢٩٢) ، الذي علق في نهايتها قائلا : « خالفت بشرح هذه الوقيعة شرط الاختصار لحلاوة الظفر في وقت نزول الهمم ووقوعها في الزمن الخامل » وانظر الكامل (١٥١/١٠) ونفح الطيب (٤٣٩/١ ، ٣٥٤/٤-٣٧١) ، وروض القرطاس (ص : ١٤٥-١٥١) ، والعجب (ص : ١٩٥) ، والحلل الموشيه (ص : ٣٨-٦٦) ، ودول الطوائف لعنان (ص : ٣٢٠-٣٣٢) .

الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم ، ودخول أقسيس إلى مصر وحصرها ، خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ، ويكونوا بينهم وبين المسلمين ، والله أعلم » [١] . وقد ذكر قبل ذلك عزم النصارى على الخروج وكيف عدلوا عن عزمهم من السير إلى افريقية إلى الشام لكون الشام فيه بيت المقدس ، وفتحها فخر للنصارى ، ولوجود عهود مع أهل إفريقية [٢] . ولا يعني هذا أن العبيديين لم يقاتلوا الصليبيين ، بل قاتلوهم ولكن ذلك إنما يكون حين يهاجمهم الصليبيون الذين كانت لهم أطماع في الشام – وفيها ما هو تحت سيطرة العبيديين ، كما كانت لهم أطماع في مصر أيضا [٣] .

وهكذا غزا الصليبيون بلاد الإسلام واحتلوا بيت المقدس ، هدفهم الكبير وذبحوا المسلمين بشكل رهيب [٤] وفجع العالم الإسلامي بذلك ،

---

(١) الكامل (٢٧٣/١٠) ، وانظر تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص : ٦٧٩) ، وهذه القضية بحاجة إلى إبراز ، لأن تعاون الدولة العبيدّية الباطنية وتعاون الحركات الباطنية بعد ذلك مع النصاري أمر مشهور . ومما يجدر ملاحظته أن معركة ملازكرد التي أشرنا إليها قبل قليل كان من أهم آثارها وقف تعاون قوي بدت معالمه بين العبيديين والبيزنطيين ضد السلاجقة السنيين . أما تعاون الدولة العبيدّية مع النصارى – زمن الحروب الصليبية – فأحداث تاريخ تلك الحقبة تحمل حقائق مذهلة ، حتى أن صاحب النجوم الزاهرة (جـ ٥ ص ١٤٧) – يأسى لتقاعس صاحب مصر عن مناصرة السلاجقة في مواجهتهم للصليبيين . ولما انشغل السلاجقة في حرب الصليبيين شمال الشام انقض الباطنيون من مصر على بيت المقدس واحتلوه وقد أرسل الأفضل الوزير الفاطمي إلى الصليبيين وهم يحاصرون انطاكية سفارة عرضت التعاون معهم للقضاء على السلاجقة واقتسام الشام بينهم . وما هذه إلا أمثلة ، وانظر الحركة الصليبية – عاشور (١٩١/١، ٢٢٧) ، وكتاب « الفاطميون والصليبيون (ص : ٥٣) وما بعدها ، والحروب الصليبية : سميل (ص : ٨١) .

(٢) الكامل (٢٧٢/١٠–٢٧٣) .

(٣) انظر الحركة الصليبية (٢٣١/١) ، ومما يلاحظ أن الصليبيين عقدوا في الرملة سنة ٤٩٢ هـ قبل زحفهم إلى بيت المقدس – اجتماعا ومجلسا للحرب ناقشوا فيه عدة مسائل منها الرأي القائل بأنه لابد من البدء بمهاجمة مصر ، لأن استقرارهم في بيت المقدس لن ينعموا به إلا إذا أخضعوا القاهرة لهم . المصدر السابق (٢٣٣/١) .

(٤) قتل الصليبيون كل مسلم وجدوه في أي مكان حتى أنهم قتلوا من احتمى بالمسجد الأقصى ، فقتلوا فيه أكثر من سبعين ألفا ، وهذا العدد لم يذكره مؤرخو الإسلام فقط وإنما ذكره مؤرخو النصارى ومنهم – ابن العبري – في كتابه مختصر الدول (ص : ١٩٧) – حيث قال : « ولبث الافرنج في البلد أسبوعا يقتلون =

حتى أن المستنفرين من بلاد الشام توجهوا في رمضان إلى بغداد عاصمة الخلافة « فأوردوا في الديوان كلاما أبكى العيون وأوجع القلوب ، وقاموا بالجامع يوم الجمعة ، فاستغاثوا ، وبكوا ، وأبكوا ، وذكر ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال ، وسبي الحريم والأولاد ، ونهب الأموال ، فلشدة ما أصابهم أفطروا » [١] ، وقد ندب الخليفة الفقهاء إلى الخروج إلى البلاد ليحرضوا الملوك على جهادهم ، ولكن ذلك لم يفد شيئا [٢] . وقد عبر أحد الشعراء عن أحوال المسلمين وتقاعسهم عن جهاد النصارى حين احتلوا بيت المقدس في ذلك الوقت فقال من قصيدة :

وكيف تنام العين ملءَ جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهورَ المذاكي أو بطون القشاعم
تسومُهمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ ... تجرون ذيل الخفض فعلَ المسالم

....

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا ... رماحهم ، والدين واهي الدعائم [٣]

ولما احتل النصارى بيت المقدس أغاروا على ما حوله من المدن الساحلية وغيرها وتكونت لديهم عدة إمارات . أما المسلمون فقد قابلوا هذه الحملات بحركة جهاد عظيمة قادها أبطال عظام ، كان لهم في إحياء روح الجهاد بين المسلمين ، وتوحيد كلمتهم وبعث الغيرة على دين الله ومحارمه – ما صار فيما بعد – غرة في جبين تاريخ المسلمين ، فقاوم السلاجقة أولا ثم بدأ الجهاد آل زنكي

= فيه المسلمين ، وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا » وانظر مصادر أخرى افرنجية في الحركة الصليبية (٢٣٧/١–٢٣٨) والعجيب أن افتخار الدولة – حاكم بيت المقدس العبيدي عند احتلال النصارى له – خرج هو وجنده وحدهم سالمين – لم يصابوا بأذى – بعد أن أعطاهم الفرنج الأمان ! الحركة الصليبية (٢٣٦/١–٢٣٧) .

(١) الكامل (٢٨٤/١٠) .

(٢) انظر : المصدر السابق ، والبداية والنهاية (١٥٦/١٢) .

(٣) الشاعر هو : أبو المظفر الأبيوردي ، والقصيدة في ديوانه (١٥٦/٢) وذكرها ابن الأثير وابن كثير .

وعلى رأسهم عماد الدين زنكي ، وابنه نور الدين محمود ، ثم جاء صلاح الدين الأيوبي وأولاده [١] ليوجهوا إلى الإفرنج ضربات موجعة ويسترجعوا بيت المقدس بعد أن بقي في يد النصارى قرابة تسعين عاما . والذي يعنينا هنا – ونحن نعرض لعصر ابن تيمية ما يلي :–

١ – واصل المماليك – الذين حكموا الشام ومصر بعد الأيوبيين – جهادهم ضد النصارى ، فالظاهر بيبرس وجه إليهم حملات متتابعة ، واستطاع أن يسترجع كثيرا من المدن التي احتلوها ، ومنها أنطاكية – تلك المدينة المهمة بالنسبة للأفرنج وكان ذلك سنة ٦٦٦ هـ [٢] . ثم بعد ذلك جاء المنصور قلاوون – الذي عقد سنة ٦٨٠ هـ مع النصارى صلحا ليقطع تحالفهم مع المغول الذين كانت قوتهم وخطرهم شديدا [٣] – ، ولكنه لم يمض على هذا الصلح أربع سنوات حتى نقض النصارى الصلح باعتدائهم على قافلة من تجار المسلمين ، وهنا هاجم المنصور قلاوون الصليبيين فاستولى سنة ٦٨٤ هـ على حصن المرقب الذي كان « في غاية العلو والحصانة ، ولم يطمع أحد من الملوك الماضين في فتحه » [٤] ثم استولى على مدينة طرابلس سنة ٦٨٨ هـ [٥] . وأخيرا جاء عهد ابنه الأشرف خليل الذي تولى تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام ، والذي استهل عهده بفتح عكا سنة ٦٩٠ هـ والتي شارك في فتحها كثير من العلماء

---

(١) انظر في الجهود العظيمة التي قام بها هؤلاء في كتب التاريخ وبالأخص : التاريخ الباهر لابن الأثير ، والكواكب الدرية في السيرة النورية ، لابن قاضي شهبة ، والروضتين لأبي شامة ، والنوادر السلطانية (سيرة صلاح الدين) لابن شداد .

(٢) الروض الزاهر (ص : ٣٠٧) ، والمختصر لأبي الفداء (٤/٤) ، والسلوك للمقريزي (٥٦٧/١) ، والبداية والنهاية (٢٥١/١٣) ، وانظر الظاهر بيبرس – عاشور – (ص : ٥٩–٧٤) .

(٣) انظر : السلوك (٦٨٥/١) ، وتاريخ ابن الفرات – حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، عن مقدمة تحقيق كتاب تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور (ص : ٨٢) ، وانظر دولة بني قلاوون في مصر (ص : ٢٣٢) ، وانظر مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك عاشور (ص : ١٩٦) .

(٤) المختصر لأبي الفداء (٢١/٤) ، وانظر تشريف الأيام (ص : ٧٧–٨٦) ، والنجوم الزاهرة (٣١٤/٧) .

(٥) انظر : السلوك (٧٤٧/١) ، والبداية والنهاية (٣١٣/١٣) ، والنجوم الزاهرة (٣٢٠/٧) .

والفقهاء [١] ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى [٢] – أما بقية معاقل الصليبيين فقد سقطت في أيدي المسلمين دون مقاومة . وبذلك أسدل الستار على قرنين من الزمان عاشتها بلاد الشام في ظل هذه الحروب والمعارك المتلاحقة فعادت بلاد الشام إلى حكم المسلمين .

٢ – بقيت قبرص في يد النصارى ، وقد كان حكامها من أشد أعوان الصليبيين حيث كانوا يمدونهم بالمؤن والسلاح والرجال . وقد لجأ إليها من فر من النصارى من بلاد الشام – وقد بقيت في أيديهم إلى ما بعد عهد ابن تيمية ، ولذلك رأينا شيخ الإسلام يرسل رسالة إلى ملكها يأمره بالرفق في أسارى المسلمين [٣] .

٣ – لم تنته الحرب الصليبية بطردهم من بلاد الشام ، وإنما انتقلت إلى تطور آخر أكثر خطورة ، فقد « كان من الصعب أن يتخلى الغرب الأوربي عن الفكرة الصليبية تخليا تاما مفاجئا ، فظلت تلك الفكرة تراود عقول بعض المتحمسين والمتدينين الذين دعوا لاستئناف الحرب ضد المسلمين ، وعبروا عن حماستهم وآرائهم بمجموعة من المشاريع الصليبية ذات الأهمية البالغة منذ نهاية القرن الثالث عشر [السابع الهجري] وهنا نلاحظ في ذلك الدور الجديد من أدوار الحركة الصليبية أن الدعاة لم يكونوا خطباء من طراز بطرس الناسك ، و لم يعتمدوا على البيان في تحريك عواطف الناس واستثارة شعورهم الديني ، وإنما صاروا كتابا يكتبون الرسائل والكتب ويرفعونها إلى البابوات والملوك والأمراء ، شارحين فيها مشاريعهم الصليبية » [٤] . وقد قاموا بهجمات على شمال إفريقية كان هدفها التبشير بالديانة النصراينة . فهل كانت تلك مقدمات لما شهده العالم الإسلامي في العصر الحاضر من هجوم صليبي

---

(١) انظر البداية والنهاية (٣٢٠/١٣) ، وتذكرة النبيه (٣١٧/١) ، والسلوك (٧٦٣/١، ١٠٠٣) ، والمختصر لأبي الفداء (٢٤/٤–٢٥) ، وتاريخ بيروت (ص : ٢٣) .

(٢) الأعلام العلية (ص : ٦٨) ، والكواكب الدرية (ص : ٩٢) .

(٣) انظر عن قبرص بعد جلاء الصليبيين من الشام : الحركة الصليبية (١١٦٢/٢) وما بعدها . وقد استطاع المماليك استعادة قبرص وأسر ملكها – بعد سنين طويلة – سنة ٨٢٩ هـ في عهد الملك الأشرف برساي ، انظر المنهل الصافي (٢٦٣/٣) ، وبدائع الزهور (١٠٦/٢–١٠٧) .

(٤) الحركة الصليبية (١٣٤/٢) .

إستعماري كان هدفه الأول الغزو الثقافي والفكري للمسلمين ؟

ثم إن من يطلع على ما كتبه علماء الإسلام في الرد على النصارى ، وبيان تحريفهم وكذبهم – وفي مقدمتهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم – يدرك أن تأثير النصارى على المسلمين سواء كان ذلك إبان الحملات الصليبية أو فيما بعد ؛ كان محل خطر يشعر به ذوو الغيرة على هذا الدين [١] .

ثانيا : ظهور التتار [٢] :

اذا كان العالم الإسلامي قد مني بتلك الحملات الصليبية – على بلاد الشام – في أواخر القرن الخامس الهجري [٤٩٠ هـ] ، فإن هذه الحروب لم تكد تنتهي حتى فجع العالم الإسلامي بمصيبة أخرى أشد وأفظع وأعظم خطرا . فقد اكتسح التتار (المغول) العالم الإسلامي من الشرق ، وساروا في بلاد الإسلام يقتلون ويأسرون ويحرقون ويدمرون بطريقة همجية لم يشهد لها التاريخ مثيلا . وقد عبر عن ذلك المؤرخون المسلمون ، وكان أصدقهم تعبيرا ابن الأثير – صاحب التاريخ – الذي عاصر بداية هجومهم ولم يعاصر سقوط بغداد [فقد توفي سنة ٦٣٠ هـ] فقد قال – عن خروج التتر – في حوادث سنة ٦١٧ هـ : « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها ،

---

(١) من الكتب في ذلك قبل ابن تيمية : الفصل لابن حزم ت ٤٥٦ هـ – الفصل المتعلق بالنصارى – وكتاب الرد الجميل للغزالي ت ٥٠٥ هـ – وكتاب مقامع الصلبان لابن أبي عبيدة – أحمد بن عبد الصمد الخزرجي ت ٥٨٢ هـ (ط في تونس ، وطبع في مصر – مكتبة وهبة – بعنوان : بين الإسلام والمسيحية) أما المعاصرون لابن تيمية فمنها الأعلام للقرطبي (إن كان المفسر فقد توفي سنة ٦٧١ هـ) ، وكتاب الأجوبة الفاخرة للقرافي ت ٦٧٤ هـ ، ومنظومة الأبوصيري في الرد على النصارى مع شرحها – للأبوصيري – ت ٦٩٦ هـ ومنها كتاب على التوراة للباجي ت ٧١٤ هـ – وضمنه الرد على النصارى . أما الكتب التي ألفت بعد ابن تيمية فكثيرة .

(٢) ويسمون « المغول » أو « المغل » ، وهم قبائل من الجنس الأصفر ، كانوا يسكنون منغوليا جنوب شرق سيبيريا على حدود الصين ، وقد اختلطوا بالقبائل التركية حتى أن البعض صار يجعلهم من قبائل الترك . ويقول مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله الهمذاني (وزير قازان) « ومع أن الأتراك والمغول وشعبهم يتشابهون ، وأطلق عليهم في الأصل لقب واحد ، فإن المغول صنف من الأتراك ، وبينهم تفاوت واختلاف شاسع » جامع التواريخ المجلد الثاني . الجزء الأول (ص : ٢١٢) ، وانظر الكامل (٣٦١/١٢) ، ودائرة المعارف الإسلامية (٥٧٦/٤) ، ودائرة معارف وجدي (٥٣٨/٢) .

فأنا أقدم إليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسيا منسيا » [١] . أما السيوطي فقد نقل قائلا : « هو حديث يأكل الأحاديث وخبر يطوى الأخبار ، وتاريخ ينسى التواريخ ، ونازلة تصغر كل نازلة ، وفادحة تطبق الأرض وتملؤها ما بين الطول والعرض » [٢] .

وقد كان هؤلاء التتار قبائل متفرقة لا تستقر في مكان محدد ، بل كانت ظروف البلاد التي يعيشون فيها [ما بين الأراضي الصينية الحارة والباردة في سيبيريا] ، تجعلهم يتنقلون كما يتنقل الرعاة . وفي أواخر القرن السادس الهجري برز فيهم أحد شبابهم الذي استطاع أن يجذب إليه ثقة كبار رجال المغول من عشيرته ، ثم القبائل من حوله ، فوحد بينها وتوج عليهم ملكا ، وكان اسمه « تموجين » فتسمى بعد اختياره امبراطوراً بـ (جنكيزخان) وكان ذلك سنة ٦٠٢ هـ . وبدأ يرسم لنفسه سياسة التوسع ، فاتجه إلى الجنوب لإخضاع الصين ، وإلى الغرب لإخضاع دولة الخطا [٣] ، وكذا ما حول ذلك من البلاد حتى أصبحت دولة المغول متاخمة للدولة الخوارزمية في إيران [٤] . وحتى – نتجنب التوسع الذي ربما تفرضه أحداث هذه الفترة – نوضح الكلام حول المغول بما يلي :–

أ – بلغت الدولة الخوارزمية [٥] التي قامت وتوسعت بعد السلاجقة – أوج اتساعها في عهد علاء الدين خوارزم شاه وابنه جلال الدين منكبرتي ، وقد كان لهؤلاء

---

(١) الكامل (٣٥٨/١٢) .

(٢) تاريخ الخلفاء (ص : ٧٤١) .

(٣) الخطا بكسر الخاء وفتح الطاء مجموعة من القبائل المغولية وغيرها كونوا لهم دولة في تركستان سنة : ٥١٩ هـ قضى عليهم جنكيزخان سنة : ٦١٥ هـ وكانت دولة وثنية . انظر صبح الأعشى (٤٨٣/٤) ، وكتاب الدولة الخوارزمية والمغول (ص : ٤٦) وما بعدها .

(٤) انظر : تاريخ الخميس (٣٦٧/٢–٣٦٨) ، الكامل (٣٦١/١٢) وما بعدها ، سيرة السلطان جلال الدين للنسوي (ص : ٣٨) وما بعدها ، والدولة الخوارزمية والمغول (ص : ١٠٨–١١٤) .

(٥) تنسب الدولة الخوارزمية إلى نوشتكين أحد الأتراك في بلاط ملكشاه السلجوقي ، ثم اشتهر ولده محمد الذي عين حاكما على خوارزم ولقب خوارزم شاة ، وبدأت هذه الدولة في التوسع ، وصار صراع بينها وبين السلاجقة الذين تفرقوا وانهارت دولتهم بمقتل طغرلبك بعد معركة قرب الري سنة ٥٩٠ هـ =

دور عظيم في مقاومة المغول ، وإلحاق الهزائم بهم أحيانا ، مما كان سببا في تأخير هجوم المغول على بغداد ، ثم بلاد الشام . وهؤلاء وإن كان مؤرخو الإسلام ينتقدون ما كانوا يقومون به من القتل والسبي إلا أنهم يذكرون لهم ما قاموا به وبذلوه في حرب التتار [١] . حتى إنه لما قتل السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه سنة ٦٢٨ هـ دخل جماعة على الملك الأشرف موسى – صاحب دمشق [٢] فهنأوه بموته – لما كان بينهما من العداوة – فقال الأشرف : تهنئوني بموته وتفرحون ، سوف ترون غبه ، والله لتكونن هذه الكسرة سببا لدخول التتار إلى بلاد الإسلام . ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج » [٣] . وكان كما قال ، فإنه لما قضي على الدولة الخوارزمية تهيأ التتار لاجتياح بغداد .

ب – قضى التتار – بقيادة هولاكو الذي عهد إليه أخوه قيادة الحملة إلى إيران – على الإسماعيلية المتمركزين في حصونهم في إيران وكان ذلك سنة ٦٥٤ هـ ، وقد كان هؤلاء الباطنيون يراسلون المغول ويحضونهم على القضاء على الخوارزميين ويدلونهم على عوراتهم . ولكن المغول يعرفون حقيقة هذه الطائفة وفسادها وأساليبها في حرب أعدائها ، فلم يعبأوا بتلك العلاقات ، بل سارعوا إلى القضاء عليهم حتى لا يكونوا شوكة في ظهورهم وهم سائرون إلى بغداد [٤] . ومما تجدر ملاحظته ان نصير الدين الطوسي كان مقيما عند الإسماعيلية لما هاجمهم هولاكو ، لكنه خرج سالما لممالأته له بل أدخله في خدمته واستوزره

= فسيطروا على العراق العجمي ، وتقلدوا الحكم رسميا من الخليفة العباسي . انظر الكامل (١٢/١٠٦) ، والعبر لابن خلدون (٥/٩٤) ، وزبدة التواريخ للحسيني (ص : ٣١١-٣١٤) ، وانظر : الدولة الخوارزمية والمغول (ص : ١٧-٣٣) .

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٢٢/٣٢٨) ، والعبر (٣/١٩٨،٢٠٢-٢٠٣) .

(٢) ترجمته في سير أعلام النبلاء (٢٢/١٢٢) .

(٣) النجوم الزاهرة (٦/٢٧٧) .

(٤) دول الإسلام للذهبي (٢/١٥٨) ، وسير أعلام النبلاء (٢٣/١٨٠) ، وجامع التواريخ ، المجلد الثاني ، الجزء الأول (ص : ٢٥٠-٢٥٧) ، وانظر كتاب « مؤرخ المغول الكبير : رشيد الدين الهمذاني ، تأليف : فؤاد الصياد (ص : ٢٨-٣١) ، وانظر الحركة الصليبية (٢/١٠٦٢) .

لما علم هولاكو اخلاصه ونصحه [١] .

جـ - لما قضى التتار على الدولة الخوارزمية ، وعلى الإسماعيلية اتجهوا إلى بغداد . وقد وقعت في سنة ٦٥٥ هـ فتنة مهولة ببغداد بين أهل السنة والرافضة وقتل عدد من الفريقين ، ونهب الكرخ - موطن الرافضة وذوي ابن العلقمي - فحنق ابن العلقمي [٢] وزير المستعصم وكاتب التتار وأطمعهم في العراق ، وعمل على تهيئة الأجواء فسرح جند الخلافة فلم يبق منهم إلا القليل ، وحجب عن الخليفة الرسائل التي ترد إليه من صاحب الموصل وغيره ، وبذلك تهيأت الأجواء لهؤلاء التتار ، فجاءوا وأحاطوا ببغداد سنة ٦٥٦ هـ فخرج إليهم ابن العلقمي واستوثق لنفسه من هولاكو ، فرجع هو ونصير الدين الطوسي - وهما رؤوس الرافضة الخبثاء - إلى بغداد ليكملوا بقية دورهم في تخذيل الناس والخليفة بأساليب خادعة - حتى لا يبقى في وجه التتار مقاومة تذكر ، يقول صاحب ذيل مرآة الزمان : « وقصد هولاكو بغداد من جهة البر الشرقي عن دجلة وهو البر الذي فيه مدينة بغداد ودور الخلافة ، وضرب سورا على عسكره ، وأحاط ببغداد ، فحينئذ أشار ابن العلقمي الوزير على الخليفة بمصانعة ملك التتر ومصالحته ، وسأله أن يخرج إليه في تقرير ذلك ، فخرج وتوثق منه لنفسه ثم رجع إلى الخليفة وقال له : إنه قد رغب أن يزوج ابنته من ابنك الأمير أبي بكر ، ويبقيك في منصب الخلافة كما أبقى سلطان الروم في سلطنة الروم ، لا يؤثر إلا أن يكون الطاعة له ، كما كان أجدادك [مع] السلاطين السلجوقية ، وينصرف بعساكره عنك فتجيبه إلى هذا فإن فيه حقن دماء المسلمين ، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد ، وحسن له الخروج إليه

---

(١) جامع التواريخ (م ٢ ج ١ ص : ٢٥٧) ، وانظر حول علاقته ووزارته لهولاكو الوافي (١٧٩/١) ، وفوات الوفيات (٢٤٦/٣) ، والبداية والنهاية (٢٠١/١٣) ، وذيل مرآة الزمان (٨٥/١-٨٦) ، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٤٢/٣٥) .

(٢) هو : محمد بن محمد بن علي العلقمي ، كان وزيرا للمستعصم ، وكان رافضيا خبيثا ، وكان من نيته لما اتصل بالتتار أن يقيم دولة رافضية في بغداد ، فلم يتحقق له ما أراد ، بل لقي أشد الإهانة من التتار فهلك غما وهما وكمدا في نفس هذا العام ٦٥٦ هـ . انظر الوافي (١٨٤/١) ، وشذرات الذهب (٢٧٢/٥) ، والبداية والنهاية (٢١٢/١٣) .

فخرج في جمع من أكابر أصحابه فأنزل في خيمة ، ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا عقد النكاح فيما أظهره ، فخرجوا فقتلوا وكذلك صار يخرج طائفة بعد طائفة » [١] وقتل المستعصم قيل : إنه رفس حتى مات ، « وبقي السيف في بغداد بضعة وثلاثين يوما ، فأقل ماقيل : قتل فيها ثمانمائة ألف نفس ، وأكثر ما قيل بلغوا ألف ألف وثمانمائة ألف ، وجرت السيول من الدماء فإنا لله وإنا إليه راجعون » [٢] ولم ينج من بطشهم في بغداد إلا الرافضة وأهل الذمة [٣] ، كما لم ينج من بطش النصارى لما فتحوا بيت المقدس إلا أتباع الدولة الفاطمية وولاتها على بيت المقدس .

وهكذا قُضي على الخلافة العباسية ، وأصبح العالم الإسلامي بلا خلافة – وكان للأساليب الوحشية التي قام بها التتار في قتل المسلمين آثار نفسية شديدة على بقية المسلمين بحيث أصبح ذكر التتار يثير الرعب في النفوس ، وغلب على الناس مقولة : إن التتار لا يغلبون . وسارع الأمراء في الشام كصاحب الموصل وصاحب حلب وكذا سلاطين سلاجقة الروم – إلى إعلان الولاء لهولاكو وتهنئته بفوزه على الخليفة في بغداد [٤] .

د – اتجه المغول بعد ذلك إلى الشام لاحتلاله ، وكان يقتسمه النصارى من الفرنج ، والأرمن ، والأمراء الأيوبيون . وكان أول عمل عمله التتار عقد التحالف مع النصارى في أرمينية وأنطاكيا ضد الأمراء الأيوبيين وضد المماليك فيما بعد [٥] . ثم ساروا إلى الشام والجزيرة فاحتلوا ميافارقين ثم ماردين [٦] ،

---

(١) ذيل مرآة الزمان لليونيني (١/٨٨–٨٩) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٣/١٨١) .

(٣) انظر : البداية والنهاية (١٣/١٠٢) ، والحركة الصليبية (٢/١٠٦٧) .

(٤) انظر : في سقوط بغداد – وأحداثها المروعة – غير ما سبق : العبر للذهبي (٣/٢٧٧) ، ودول الإسلام (٢/١٥٩) وشذرات الذهب (٥/٢٧٠) ، والنجوم الزاهرة (٧/٤٧) وما بعدها ، والسلوك (ج ١ ق ٢ ص : ٤٠٩) .

(٥) كان لهولاكو زوجة مسيحية ، وكان لها دور في الصلات بين التتار والنصارى ، وقد اشترك عدد كبير من الأرمن والنساطرة في جيش هولاكو لما هاجم بغداد ولم يكونوا أقل قسوة ووحشية من التتار أنفسهم . انظر الحركة الصليبية (٢/١٠٦٠،١٠٦٧،١٠٧٥) وما بعدها .

(٦) انظر : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام – عماد الدين خليل (ص : ٣٢٧–٣٣٢) .

كما احتلوا نصيبين وحران والرها ، وفي سنة ٦٥٨ هـ هاجموا حلب وقتلوا فيها خلقا كثيرا حتى امتلأت الطرقات بالقتلى وأسروا النساء ونهبوا الأموال . وأحرق النصارى الجامع الكبير فيها [١] ثم في نفس هذه السنة أخذ التتار دمشق ، وصار لحلفائهم النصارى صولة وجولة ، وتقدموا بالهدايا لهولاكو وعملوا أعمالاً منكرة ، من ذلك أنهم حملوا الصليب فوق الرؤوس وهم ينادون بشعارهم : ظهر الدين الصحيح دين المسيح ويذمون دين الإسلام وأهله ، بل ألزموا المسلمين بالقيام في دكاكينهم للصليب وأهين القضاة والفقهاء لما جاءوا يشكون إلى متسلمها النصراني [٢] .

ثم رجع هولاكو إلى الشرق لما علم بوفاة أخيه وكان ذلك سنة ٦٥٨ هـ بعد أن أقام له نائبا معه جيش قوامه عشرة آلاف من التتار وكان ذلك بضغط من النصارى الذين كانوا يأملون في استرداد بيت المقدس من المسلمين [٣] .

وقد واصل التتار زحفهم إلى بقية بلاد الشام فاحتلوا الخليل وغزة وبذلك أصبحوا على مشارف مصر .

هـ - في هذه الأجواء التي عاشها العالم الإسلامي انقرضت دولة الأيوبيين ونشأت دولة المماليك ، وكان السلطان وقت سقوط بغداد : المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك ، وكان صبيا صغيرا ، فلما ظهر الخطر المغولي خاصة بعد احتلالهم الشام رأى المماليك أن السلطان صبي لا يستطيع تدبير المملكة ، ومن ثم أعلن السلطان قطز [٤] سلطانا سنة ٦٥٧ هـ ، وقد أرسل هولاكو - قبل رجوعه - رسالة إلى الملك المظفر ملؤها التهديد والوعيد والغطرسة وفيها يطلب منه

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٢١٨/١٣) ، والنجوم الزاهرة (٧٤/٧-٧٦) ، والسلوك (ج ١ ق ٢ ص : ٤٢٢) ، وذيل مرآة الزمان (٣٤٩/١) .

(٢) انظر : البداية والنهاية (٢١٩/١٣) ، والنجوم الزاهرة (٧٦/٧) ، والسلوك (ج ١ ق ٢ ص : ٤٢٣-٤٢٥) .

(٣) السلوك (ج ١ ق ٢ ص : ٤٢٧) ، مؤرخ المغول (ص : ٥١) .

(٤) هو : الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزى ، يقال : أنه بن أخت خوارزم شاه ، جلال الدين - آخر ملوك الدولة الخوارزمية الذين قاوموا التتار في المشرق - قتل الملك المظفر بعد وقعة عين جالوت في ١٦ ذو القعدة سنة : ٦٥٨ هـ . ذيل الروضتين (ص : ٢١٠) ، وسير أعلام النبلاء (٢٠٠/٢٣) ، والدليل الشافي (٥٤٤/٢) .

الخضوع لسلطة المغول الذين لا تقف أمام قوتهم وسيوفهم أية قوة – كما يزعم – .
وقد عقد السلطان مجلسا استشار فيه الأمراء ، وبعد مداولات قرروا أنه لا مفر من الجهاد في سبيل الله ومقاومة التتار ، وكان للملك المظفر دور في الخروج بهذه النتيجة ، وأعلن الجهاد في سبيل الله في القاهرة وبقية أقاليم مصر ، وأخذ يجمع المال اللازم للجهاد (١) . ولما تكامل العسكر طلب من الأمراء الرحيل فتلكأوا . ولكن الملك المظفر قال لهم : « وأنا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين » (٢) . وسار السلطان وقال : أنا ألقى التتار بنفسي فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا معه وسار الجيش إلى غزة ثم تقدم عن طريق الساحل فمر على عكا – وقد أوقع الله الخلف بين المغول والنصارى (٣) – فلم يتعرض النصارى للمسلمين بل استقبلوهم وفرحوا بمقدمهم – وتجمعت الجيوش في عين جالوت (٤) ، وجرت تلك المعركة المشهورة ، التي انتصر فيها المسلمون على التتار انتصارا ساحقا ، وهزم التتار شر هزيمة ، وقتل قائدهم ، وطاردهم المسلمون يقتلونهم في كل مكان إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب ، وفر منهم من كان بدمشق فتبعهم المسلمون يطاردون فلولهم ، ودقت بشائر النصر في قلعة دمشق وغيرها وفرح المسلمون فرحا شديدا وكبت الله اليهود والنصارى ومن مالأ التتار من المنافقين . ودخل الملك المظفر قطز دمشق في موكب عظيم ثم أخضع بقية الشام الذي كان بأيدي الأيوبيين ، فصفا الشام لحكم المماليك .

---

(١) كان للعز بن عبد السلام موقف عظيم ، إذ أنه عارض أن يجبى شيء من المال من عامة الناس إلا بعد أن يحضر السلطان والأمراء ما عندهم وما عند حريمهم من المال والحلي ، وإذا لم تكف جاز أن يقترض من أموال التجار وأن يفرض ضرائب على الرعية . النجوم الزاهرة (٧٢/٧) ، وطبقات السبكي (٢١٥/٨) ، وكتاب العز بن عبد السلام : رضوان الندوى (ص : ١٤٩–١٥١) .

(٢) السلوك (ج ١ ق ٢ ص : ٤٢٩) .

(٣) انظر : أسباب ذلك وظروفه في كتاب الحركة الصليبية (١٠٧٥/٢) وما بعدها .

(٤) بلدة من أعمال فلسطين تقع في الشمال الغربي من بيسان ، فهي بينها وبين نابلس ، معجم البلدان (١٧٧/٤) ، الموسوعة الفلسطينية (٣٦٨/٣) .

كان لهذه المعركة أثر عظيم في نفوس المسلمين في كل مكان ، وقد عبر عن مدى الفرح والتأثر بنتائجها مؤرخو الإسلام الذين ذكروا هذه المعركة حتى قال صاحب المختصر : « وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ولأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكرا إلا هزموه فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم » [١] . كما كانت هذه المعركة بداية تحول في التاريخ الإسلامي فبرزت سلطة المماليك كدولة كبرى ، كما مهدت للقضاء على الصليبيين ، ولعل من أهم آثارها ظهور تغير عند التتار أنفسهم وتحول بعضهم إلى الإسلام .

و - مسألة تأثر التتار واعتناق بعضهم الإسلام تحتاج إلى تفصيل ، لأن بعض التتار - من أبناء عم هولاكو - دخلوا في الإسلام قبل معركة عين جالوت ولذلك يمكن توضيح هذا الأمر كما يلي :

١ - قسم جنكزخان مملكته بين أولاده ، فكان من نصيب أحدهم وهو جوشي أكبر أبنائه ؛ البلاد الواقعة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين ، وكانت تلك البلاد تسمى القبشان ، ويطلق عليها اسم القبيلة الذهبية - نسبة إلى خيام معسكراتها ذات اللون الذهبي - فلما مات جوشي خلفه أحد أولاده الذي تلقب بخان القبائل الذهبية ثم تولى بعده ولده ، ثم تولى بعده بركة خان سنة ٦٥٤ هـ [٢] ، وكان بركة هذا مسلما لذلك عمل على نشر الإسلام بين قبيلته وأتباعه ، وأظهر شعائر الإسلام واتخذ المدارس وأكرم الفقهاء وكان يميل إلى المسلمين ميلا شديدا . وقد بدا هذا في ظاهرتين :

أولاهما : محاربته لابن عمه هولاكو ، خاصة بعد استيلائه على بغداد وقتله

---

(١) المختصر لأبي الفداء (٢٠٥/٣) ، وانظر في هذه المعركة : الروض الزاهر (٦٤) ، وبدائع الزهور (ج ١ ق ١ ص : ٣٠٦) ، وذيل مرآة الزمان (٣٦٠/١) ، والبداية والنهاية (٢٢٠/١٣) ، والعبر للذهبي (٢٨٨/٣) ، وحسن المحاضرة (٣٩/٢) ، والنجوم الزاهرة (٧٨/٧) ، وانظر قيام دولة المماليك : أحمد مختار العبادي (ص : ١٥٨) وما بعدها .

(٢) انظر : السلوك (٣٩٤/١-٣٩٥) ، - حاشية - ودولة بني قلاوون في مصر (ص : ٢١٧) .

للخليفة ، وقد ظهرت بينهما خصومات ومعارك . وقد أقلق موقفه وإسلامه الطاغية هولاكو الذي اتجه إلى محالفة المسيحين ضد بركة وحلفائه .

ثانيهما : دخوله ومن جاء بعده في حلف سلاطين المماليك ، الظاهر بيبرس ، والناصر قلاوون وغيرهما ، وقد توطدت العلاقة بين هاتين الدولتين ، خاصة بعد المصاهرة التي تمت بينهم ، وتبادل الرسل والهدايا ، ومواجهتهم لعدو مشترك هم التتار الكفار [١] .

٢ - أما دولة المغول الكبرى في إيران وما جاورها والتي منها انطلقت جحافلهم لغزو العراق والشام فقد حدث في عام ٦٨٠ هـ أن أسلم أحد أولاد هولاكو وهو السلطان تكودار بن هولاكو الذي تسمى بعد إسلامه باسم أحمد ، فصار اسمه : أحمد بن هولاكو ، وقد أعلن إسلامه في منشور أصدره لما جلس على العرش ووجهه إلى أهل بغداد ، كما أرسل رسالة إلى السلطان المنصور قلاوون يعلن اهتداءه إلى الإسلام ، ويدعو إلى المصالحة ونبذ الحرب ، ولم يتخل - كما هو واضح من رسالته هذه - عن افتخاره واستعلائه على سلطان المماليك ، وقد رد عليه السلطان قلاوون ، ثم تبودلت الرسائل بينهم ، ولكن لم تكن العلاقات بينهم جيدة كما يظهر من صيغة الرسائل المتبادلة . ومما يجدر ذكره أن السلطان أحمد دخل لوحده في الإسلام ، ولم يستطع أن يفرضه على أتباعه ولا على أمراء المغول من حوله ، فصار دخوله في الإسلام فرديا ، وهذا ما يفسر سرعة القضاء عليه وقتله من جانب منافسيه من أمراء المغول الذين تآمروا عليه فقتلوه سنة ٦٨٣ هـ [٢] .

---

(١) انظر إضافة إلى المصدرين السابقين : المنهل الصافي (٣٤٩/٣) ، والبداية والنهاية (٢٤٩/١٣) ، والنجوم الزاهرة (٢٢٢/٧) ، وذلك في ترجمة بركة خان وإسلامه ، وقد وقع خلاف في تاريخ إسلام بركة ، هل كان بعد توليه الملك سنة : ٦٥٤ هـ ، أو قبل ذلك بكثير . ولعل الثاني أرجح ، وقد توفي سنة ٦٦٥ هـ ، وانظر الوافي (١١٧/١٠) ، والعبر (٣١٢/٣) .

(٢) انظر تذكرة النبيه (٩٠/١) ، تشريف الأيام والعصور (ص : ٤-٧١) وفيه نص المراسلات بين السلطان أحمد والسلطان قلاوون ، وانظر جامع التواريخ (٨٦/٢-٩٢) ، والوافي (٢٢٧/٨) ، والمنهل الصافي (٢٥٤/٢) ، ومؤرخ المغول (ص : ٦٠) ، ومما ينبغي ملاحظته أن محيي الدين ابن عبد الظاهر ذكر أن الشيخ عبد الرحمن الذي أرسله السلطان أحمد رسولا من قبله كان هو المشير على السلطان أحمد بالإسلام وإن ذلك كان خديعة ومكرا حتى يطمئن إلى هذه الجهة ويكتفي أمر السلطان ويتفرغ =

٣ - في سنة ٦٩٣ هـ تولى محمود قازان عرش المغول ، ثم في سنة ٦٩٤ هـ دخل في الإسلام ، يقول الذهبي عن هذه السنة : « وفيها دخل ملك التتار غازان ابن أرغون في الإسلام وتلفظ بالشهادتين بإشارة نائبه نوروز ، ونشر الذهب واللؤلؤ على رأسه ، وكان يوما مشهودا ، ثم لقنه نوروز شيئا من القرآن ، ودخل رمضان فصامه ، وفشا الإسلام في التتار »[1] ، وقد أعلن غازان الإسلام دينا رسميا للدولة المغولية في إيران ، كما غير المغول زيهم فلبسوا العمامة ، كما أمر بتدمير الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية ، والأصنام البوذيه ، كما أمر أهل الذمة بأن يتميزوا بلباس خاص بهم . وهكذا اختلف إسلام قازان عن إسلام السلطان أحمد بأن إسلامه لم يكن فرديا وإنما حوله إلى دين رسمي لدولته .

ولكن هذه الصورة التي قد تبدو جميلة سرعان ما تتغير حين يتابع المرء الأحداث التي تمت في عهد هذا السلطان ، فقد هاجم وجيشه الشام مرات ودارت بينهم وبين أهل الشام - ومعهم سلاطين مصر - معارك كبيرة ، انتصر المغول في أولاها وهزموا فيما تلاها ، وقد عاث الجيش التتري فسادا في الأرض وفعلوا - كما قال ابن تيمية لقازان نفسه لما التقى به - ما لم يفعله أسلافه من حكام التتار الوثنيين . وقد بقيت الأمور على هذه الحال إلى ما بعد وفاة غازان سنة ٧٠٣ هـ[2] .

وقد كان التتار يقدسون دستورهم الذي وضعه لهم جنكيزخان وكان يسمى الياسا أو الياساق وكانوا يتحاكمون إليه - وسيأتي عرض هذا الموضوع إن شاء الله - وبعد إسلامهم لم يتركوا التحاكم إلى هذا الدستور ، فأوقع إسلامهم ونطقهم بالشهادتين شبهة لدى كثير من الناس - وفيهم بعض العلماء - حول جواز قتالهم وهم على هذه الحال . وقد حسم ذلك ابن تيمية - كما سيأتي .

= لقتال قومه . انظر تشريف الأيام (ص : ٤٨) ، والسلطان أحمد قتل ولم يجر بينه وبين المسلمين قتال . فالله أعلم بحقيقة الحال . انظر العبر (٣٥٢/٣) .

(١) دول الإسلام (١٩٦/٢) .

(٢) انظر فيما سبق وفي ترجمة قازان : شذرات الذهب (٩/٦) ، وذيول العبر (ص : ٩) ، والنجوم الزاهرة (٢١٢/٨) ، والبداية والنهاية (٢٩/١٤) ، وانظر مؤرخ المغول (ص : ٧٠) وما بعدها . ووثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي (ص : ٨٣) .

٤ - بعد وفاة قازان تولى من بعده أخوه أولجاتيو ، خدابنده ، وصار اسمه محمد بن أرغون ، وقد تولى عرش المغول سنة ٧٠٣ هـ إلى سنة ٧١٦ هـ ، وقد بدأ عهده بتحسين العلاقة مع سلطان المماليك ، فأرسل إليه هدية وكتابا خاطب فيه السلطان بالأخوة « وسأله إخماد الفتن ، وطلب الصلح ، وقال في آخر كلامه : عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه ، فأجيب ، وجهزت له الهدية ، وأكرم رسوله » [(١)] .

ولكن لم يكد يمضي سنة من توليه سلطة المغول حتى حدث تحول خطير عند محمد بن أرغون هذا ، فقد اعتنق مذهب الشيعة ، وعمل على نشره في الجهات الغربية من دولته حتى إنه غير الخطبة وأسقط اسم الخلفاء سوى علي - رضي الله عنه - ، وأظهر عداءه للمماليك السنيين ، وطلب من النصارى أن يساعدوه ضدهم ، ثم هاجم الشام سنة ٧١٢ هـ [(٢)] .

ومما ينبغي ملاحظته أن تشيع هذا السلطان كان بتأثير من أحد كبار الرافضة وهو ابن المطهر الحلي الذي صارت له منزلة كبيرة في عهده ، وقد أقطعه عدة بلاد [(٣)] ، ولعل نفوذ وشهرة هذا الرافضي - وهو صاحب كتاب منهاج الكرامة - دعا ابن تيمية - رحمه الله - إلى إفراد الرد على كتابه هذا بكتابه العظيم : « منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية » .

وقد استمر سلطان المغول على تشيعه حتى مات ، ثم تولى ابنه أبو سعيد - وهو صغير - الذي لعب كثير ممن حوله به ، ثم لما كبر مال إلى العدل وإقامة السنة وإعادة الخطبة بالترضي عن الشيخين ثم عثمان ثم علي - وفرح الناس بذلك [(٤)] .

هذه خلاصة تاريخ المغول ، وما يتعلق منه بأحوال العصر الذي عاش فيه شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد كانت له جهود عظيمة في صد هذا الخطر الزاحف ، كما كانت له مواقف عظيمة منهم .

---

(١) السلوك (ج ٢ ق ١ ص : ٦) .

(٢) انظر : الوافي (١٨٥/٢) ، وتاريخ ابن الوردي (٣٧٧/٢) ، والسلوك (١٥٩/٢) ، والنجوم الزاهرة (٢٣٨/٩) ، والدرر الكامنة (٤٦٨/٣) ، ودولة بني قلاوون في مصر (ص : ٢٠٣-٢٠٤) .

(٣،٤) انظر : البداية والنهاية (٧٧/١٤) .

ثالثا : المماليك :

أ - نشأتهم وأشهر سلاطينهم :

عاصر ابن تيمية دولة المماليك ، التي امتدت من سنة ٦٤٨ هـ إلى سنة ٩٢٣ هـ لما سقطت مصر بأيدي العثمانيين .

أما أصل التسمية بالمماليك فالمعروف أن « المملوك عبد يباع ويشترى ، غير أن التسمية اقتصرت في معظم الدول المتأخرة على فئة من الرقيق الأبيض يشتريهم الحكام من أسواق النخاسة البيضاء لتكوين فرق عسكرية خاصة في أيام السلم ، وإضافتها إلى الجيش أيام الحرب ، ثم صار المملوك الأداة الحربية الوحيدة في بعض الدول مثل دولة المماليك في مصر والشام » [١] .

ويعتبر المأمون العباسي [خلافته ١٩٨-٢١٨ هـ] أول من استخدمهم ، خاصة وأن كثيرا منهم كان يؤتى بهم إليه هدايا من الأمراء التابعين له في المشرق ولكن استخدام المماليك كقوة عسكرية يعتمد عليها الخليفة برز في عهد المعتصم [خلافته ٢١٨-٢٢٧ هـ] فقد أراد أن يحمي نفسه بجيش من جند الترك بعد أن فقد ثقته بجنده من العرب والفرس [٢] .

بعد ذلك أصبح استخدام المماليك - كجند وجيش وحماة للسلطة - أمرا مألوفا في الدول التي جاءت بعد ذلك سواء ضمن دائرة الخلافة العباسية أو انفصلت عنها ، فأحمد بن طولون [مما يلاحظ أن أباه طولون كان من مماليك المأمون أهداه إليه أمير بخاري سنة ٢٠٠ هـ وكان من الترك] مؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام [٢٥٤-٢٩٢ هـ] والذي أعلن استقلاله عن الدولة العباسية استخدم عشرات الآلاف من المماليك من الترك والديلم [سكان جنوب بحر قزوين] والمرتزقة [٣] . وكذلك الأخشيديون لما أسسوا دولتهم في مصر والشام سنة [٣٢٣-٣٥٨ هـ] جعل محمد بن ظغج [٣٢٣-٣٣٥ هـ] جيشه

---

(١) قيام دولة المماليك (ص : ١١) .

(٢) انظر : تشريف الأيام والعصور (ص : ٣٥) من مقدمات المحقق .

(٣) انظر : الخطط للمقريزي (٩١/١) .

من الأتراك الذين بلغوا مئات الألوف [(١)] . ومثلهم فعل الفاطميون [٢٩٧-٥٦٧ هـ] لما استولوا على مصر سنة ٣٥٨ هـ أضافوا إلى جيوشهم - التي كانت مكونة من المغاربة - أتراكا وأكرادا وديلما وسودانا وغيرهم [(٢)] . وكذلك الأيوبيون [٥٦٩-٦٥٠ هـ] أكثروا من استخدام المماليك ، لكن الملك الصالح نجم الدين أيوب [٦٣٧-٦٤٧ هـ] اشتهر بأنه استكثر من مماليك الترك ، وبنى لهم الثكنات في القلعة التي أنشأها سنة ٦٣٨ هـ ، ولذلك ينقل الذهبي عن ابن واصل أنه « اقتنى من الترك ما لم يشتره ملك ، حتى صاروا معظم عسكره ، ورجحهم على الأكراد ، وأمر منهم وجعلهم بطانته والمحيطين بدهليزه ، وسماهم البحرية » [(٣)] ، وهؤلاء المماليك البحرية [(٤)] الذين حكموا على أثر إنقراض الدولة الأيوبية ، ونجم الدين أيوب هو زوج شجرة الدر [(٥)] التي تولت السلطنة بعد ولده توران شاه الذي تولى بعد أبيه ثم قتلته شجرة الدر ، وتولت بعده وكان ذلك سنة ٦٤٨ هـ ولكن توليها لم يكن مقبولا ، فقد اعترض عليه بعض العلماء منهم العز بن عبد السلام ، وكذلك الخليفة العباسي الذي أرسل

---

(١) المصدر السابق - نفس الصفحة ، وانظر النجوم الزاهرة (٥١/٣) .

(٢) انظر : الخطط (٩١/١) .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٩١/٢٣-١٩٢) ، وانظر شفاء القلوب (ص : ٣٧٥، ٣٨٠) ، والمختصر لأبي الفداء (١٧٩/٤) .

(٤) يرى الذهبي أنهم سموا بذلك « لكون التجار جلبوهم في البحر من بلاد القفجاق » السير (١٩٢/٢٣) . وهذا ما يرجحه العبادي في كتابه : قيام دولة المماليك (ص : ٩٩) ، وكذا يوسف غوانمه في كتابه : التاريخ السياسي لشرق الأردن في العصر المملوكي (ص : ٥١) . « وهو الذي نبه إلى نص الذهبي من مخطوطة السير قبل طباعته » . أما الرأي الآخر الذي يذكره أغلب الدارسين لهذا العصر فهو أنهم سموا بالبحرية نسبة إلى جزيرة الروضة - على نهر النيل - التي أسكنهم نجم الدين أيوب فيها لما استقدمهم ، انظر مثلا : عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك (ص : ١٥٣) ، وانظر ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر : النظم السياسية (ص : ١٠) وانظر مراد كامل : مقدمة تشريف الأيام والعصور (ص : ٣٦) .

وقد امتدت دولة المماليك البحرية إلى سنة : ٧٩٢ هـ ، ثم جاءت دولة المماليك الجراكسة أو البرجية لأن ثكناتهم كانت في قلعة القاهرة وامتد حكمهم إلى سنة : ٩٢٣ هـ .

(٥) كانت من مماليك نجم الدين أيوب ، ولذلك يرى بعضهم أن حكمها كان بداية حكم المماليك ، انظر : ترجمتها في بدائع الزهور (٢٨٦/١/١) ، والسلوك (٣٦١/١) ، والسير (١٩٨/٢٣-١٩٩) ضمن ترجمة المعز .

إلى أهل مصر كتابا يعاتبهم في ذلك ويقول : إن كان ما بقي عندكم رجل تولونه فقولوا لنا نرسل إليكم رجلا [(١)] وقد وصل خطاب الخليفة هذا إلى المماليك بعد أن مضى على تولي شجرة الدر ثمانون يوما اقتنع أمراء المماليك بخطئهم وقالوا : لا يمكن حفظ البلاد والملك لامرأة ، فأشاروا على شجرة الدر أن تتزوج كبير المماليك وهو الأتابك أيبك التركماني وتتنازل له عن العرش ، فقبلت ذلك وخلعت نفسها من السلطنة ، فتولى عز الدين أيبك هذا سنة ٦٤٨ هـ ، وبذلك قامت دولة المماليك في مصر [(٢)] .

وقد عاصر ابن تيمية سلطنة عدد من المماليك بلغوا عشرة خلال فترة حياته وقد برز منهم أربعة :

الأول : الظاهر ركن الدين بيبرس [٦٥٨-٦٧٦ هـ] الذي تولى بعد وقعة عين جالوت وقتله للملك المظفر قطز ، وتعتبر ولايته البداية الحقيقية لسلطة المماليك كحكام قاموا وعملوا على صد المغول ومقاومة الصليبيين عن بلاد الشام ومصر . وقد تميز عهده بما يلي :

١ - مقاومة وصد العدوان المغولي على الشام .

٢ - مقاومة وحرب الصليبيين في بلاد الشام وتطهير بعض المدن من رجسهم - كما تقدم - .

٣ - إعادة وإحياء الخلافة العباسية في مصر سنة ٦٥٩ هـ .

٤ - وفي ما يتعلق بالقضاء تميز عصره ببداية تولية أربعة قضاة للمذاهب الأربعة [(٣)] بدل قاض واحد كما كان في السابق ، وكان ذلك سنة ٦٦٣ هـ

---

(١) بدائع الزهور (٢٨٧/١١) ، والسلوك (٣٦٨/١) ، وحسن المحاضرة (٣٦/٢) ، والعز ابن عبد السلام للوهيبي (ص : ٢٤-٢٥) .

(٢) ليست هذه أول دولة للمماليك ، بل سبق أن أسسوا دولة لهم في الهند في دلهي سنة ٦٠٢ هـ وامتدت إلى سنة ٩٦٢ هـ ، وأول ملوكهم ايلتش الذي إعترف به الخليفة العباسي في بغداد سلطانا ، ومن الطريف ونحن نشير إلى شجرة الدر - أنه بعد وفاة إيلتمش سنة ٦٣٤ هـ تولت ابنته السلطة على عرش دهلي فحكمت إلى سنة : ٦٣٨ هـ فاعترض على سلطتها وقتلت . انظر قيام دولة المماليك (ص : ٢٩-٣١) ، ومعجم الأسر الحاكمة (٥٩٨/٢) ، ورحلة ابن بطوطة (٤٨٦/٢-٤٨٧) .

(٣) سبق في سنة : ٥٢٥ هـ زمن الدولة الفاطمية أن عين أربعة قضاة لكنهم : شافعي ، ومالكي ، =

أما سبب ذلك :

أ – فقيل إنها بادرة من السلطان نفسه وإنه نظر « في كثرة الناس وإن القاهرة هي دار الملك ، وقد جمعت أهل المذاهب من العلماء فأمر بنصب أربعة قضاة نوابا لقاضي القضاة تاج الدين » [١] .

ب – وقيل السبب « توقف القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز [٢] عن تنفيذ كثير من الأحكام ... ، فكثرت الشكاوي منه وتعطلت الأمور فوقع الكلام في ذي الحجة بين يدى الملك الظاهر » [٣] فأشار عليه جمال الدين أيدغدي العزيزي بذلك فمال إليه ، وعين أربعة قضاة ، وأبقى للشافعي النظر في أموال اليتامى وأمور بيت المال ، وفي العام التالي فعل مثل ذلك في الشام [٤] .

٥ – ومن الأمور الجليلة التي عملها الظاهر بيبرس ، القضاء على الإسماعيلية في بلاد الشام ، واحتلال حصونهم حصنا بعد آخر من سنة ٦٦٨ هـ إلى سنة ٦٧١ هـ [٥] .

الثاني : المنصور سيف الدين قلاوون ، وهو أول السلاطين من أسرة قلاوون التي حكمت فترة طويلة ، وقد استمر حكم المنصور من سنة ٦٧٨ هـ إلى سنة ٦٨٩ هـ .

= وإسماعيلي ، وإمامي . حسن المحاضرة (١٦٥/٢) ، وانظر الدولة الفاطمية في مصر – سرور (ص : ١٢٠) .

(١) الروض الزاهر (ص : ١٨٢) .

(٢) هو : الشيخ عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي ، تاج الدين ابن بنت الأعز ولد سنة : ٦٠٤ هـ ، وتوفي : سنة ٦٦٥ هـ . طبقات السبكي (٣١٨/٨) ، وحسن المحاضرة (٤١٥/١) ، وذيل الروضتين (ص : ٢٤٠) ، آخر الكتاب ، والنجوم الزاهرة (٢٢٢/٧–٢٢٣) ، وفيه أن ولادته سنة : ٦١٤ هـ وهو خطأ – وطبقات الأسنوي (١٤٧/١) ، والبداية والنهاية (٢٤٩/١٣) .

(٣) المنهل الصافي (٤٦٦/٣) ، ووقعت ترجمة القاضي تاج الدين في الحاشية خطأ فهي ليست له .

(٤) انظر أيضا : طبقات السبكي (٣١٩/٨) ، والعبر (٣٠٧/٣) ، ودول الإسلام (١٦٨/٢) ، وصبح الأعشى (٤١٩/١) ، وطبقات الأسنوي (١٤٩/١) ، والظاهر بيبرس – عاشور – (ص : ١٤٨) .

(٥) انظر : الروض الزاهر (ص : ٣٦٥) ، والظاهر بيبرس (ص : ٨٠) .

وكان من أبرز ما جرى في عهده :

١ – في سنة ٦٧٨ هـ خرج عليه سنقر الأشقر في الشام ، وهجم على القلعة في دمشق وتملكها ، وبويع له ولقب بالسلطان الملك الكامل شمس الدين سنقر الصالحي ، فأرسل إليه قلاوون جيشا قويا سنة ٦٧٩ هـ أنزل الهزيمة به ففر سنقر واتصل بالمغول يزين لهم غزو الشام [١] . كذلك حاول بعض الأمراء الظاهرية – من مماليك الظاهر بيبرس – أن يتآمروا على المنصور قلاوون واتصلوا بالصليبيين سرا . ولكن قلاوون علم بهم وعاقبهم [٢] .

٢ – أكثر قلاوون من شراء المماليك ، وأنشأ فرقة منهم ربَّاهم في أبراج القلعة وهؤلاء هم المماليك البرجية – والجراكسة – الذين حكموا فيما بعد [٣] .

٣ – وفي عهده بني المدرسة والبيمارستان – المستشفى – كما استحدثت كثير من الوظائف الديوانية [٤] .

٤ – وفي عهده استمرت مقاومة التتار ، ومن أشهر ما وقع في عهده هزيمة التتار في وقعة حمص ، وكانت هزيمة ساحقة [٥] .

٥ – أما النصارى فقد صالحهم ، ثم نقضوا العهد فقاومهم واستولى على كثير من قلاعهم وحصونهم .

الثالث : السلطان الأشرف صلاح الدين خليل – ابن المنصور قلاوون – وكانت ولايته من سنة ٦٨٩–٦٩٣ هـ . ومن أبرز ما جرى في عهده :–

١ – فتح عكا سنة ٦٩٠ هـ ، وتصفية الوجود الصليبي في الشام .

٢ – فتح قلعة الروم سنة ٦٩١ هـ وهي قلعة غربي الفرات ، وكان أهلها يمالئون التتار ضد المسلمين فكانت بمنزلة الشجى في الحلق [٦] .

---

(١) انظر : السلوك (٦٧٦/١) .
(٢) مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك (ص : ١٩٥) .
(٣) انظر : بدائع الزهور (٣٦٢/١/١) .
(٤) المصدر السابق (٣٤٨/١/١–٣٤٩ ، ٣٥٣) .
(٥) انظر : العبر (٣٤٢/٣) ، والبداية والنهاية (٢٩٥/١٣) .
(٦) انظر : البداية والنهاية (٣٢٧/١٣) ، والسلوك (٧٧٨/١) ، والنجوم الزاهرة (١٢/٨) ، ودولة بني قلاوون (ص : ١٧٢) .

الرابع : السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وقد كانت سلطته غير مستقرة – خاصة في البداية – فقد تولى وهو صغير ، ثم لما تولى السلطة في المرة الثالثة استقر الأمر له ، بحيث أصبح من أكثر المماليك استقرارا وقوة وطول مدة .

وسلطنة الناصر محمد جاءت كما يلي :–

الأولى : من سنة ٦٩٢ هـ – ٦٩٤ هـ وكان عمره لما تولى تسع سنوات ، ولم يكن له من الأمر شيء ، وقد استبد بالأمر في عهده هذا علم الدين سنجر ثم الأمير كتبغا المنصوري الذي تسلطن – بحجة أن السلطان صغير – وتسمى بالعادل ، وكانت سلطته سنة ٦٩٤ هـ ، وفي سنة ٦٩٦ هـ خرج عليه حسام الدين لاجين الذي لقب بالملك المنصور [(١)] .

الثانية : في سنة ٦٩٨ هـ – ٧٠٨ هـ : وأبرز ما في هذا العهد ظهور التتار في الشام وقيام معارك انتهت بانتصار المسلمين ، وكان لابن تيمية دور عظيم فيها . ومع ذلك فقد بقي الناصر مضيقا عليه من قبل أمراء المماليك حتى ضاق ذرعا وعزم على الذهاب إلى الكرك ، فلما وصل إلى الكرك اضطرب أمر المماليك فأرسلوا إليه أن يرجع فأبى ، فزوروا عليه كتابا أنه تنازل عن الملك [(٢)] ، ثم تولى الملك الجاشنكير سنة ٧٠٨ هـ وتسمى بالمظفر ركن الدين بيبرس الثاني ، ولكنَّ كثيرا من أمراء الشام لم يعترفوا به ، واضطربت الأحوال في عهده ، وأخذ الناصر يعد العدة لاسترداد ملكه وتم له ذلك .

الثالثة : من سنة ٦٠٩ هـ إلى سنة ٧٤١ هـ : وهي فترة طويلة امتدت إلى أكثر من ثلاثين عاما ، وفيها صفا له الأمر ، واتسعت دائرة حكمه من المغرب غربا حتى الشام والحجاز شرقا ، ومن النوبة – في الحبشه – جنوبا حتى آسيا الصغرى شمالا ، كما أنه عنى بالإصلاح الداخلي ، وبناء المنشآت من المساجد

---

(١) يلاحظ أن محنة ابن تيمية حول الحموية التي كانت سنة : ٦٩٨ هـ إنما كانت في أواخر عهد لاجين هذا . انظر : البداية والنهاية (٤/١٣) .

(٢) يرى البعض أنه تنازل ، وهذا غير صحيح وقد ناقش هذه القضية بشكل جيد الدكتور يوسف درويش غوانمة في كتابه : التاريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي (ص : ١٦٠–١٦٤) .

والقناطر والجسور وغيرها [١] .

ومما يلاحظ أن محن ابن تيمية جاءت في عهد الناصر ، مع وجود فترات تقوى صلة الناصر بابن تيمية ويتبنى آراءه ويستجيب لمطالبه خاصة ما يتعلق منها بالجهاد أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو الموقف من أهل الذمة .

وقد تميز عهد الناصر بما يلي :

١ – مقاومة التتار الذين هجموا على بلاد الشام ، وعاثوا فيه فسادا مع أنهم يعلنون الإسلام وينتسبون إليه .

٢ – مقاومة الرافضة في بلاد الشام أيضا .

٣ – العناية بالمنشآت – كما سبق – .

أ – نظام المماليك الإداري :

كتب الكثير عن نظام المماليك الإداري [٢] ، ونعرض هنا لنظامهم باختصار شديد :

١ – استجد في عهد المماليك كثير من النظم الإدارية – التي لم تكن موجودة من قبل – خاصة وأنها كانت دولة يصح أن يطلق عليها بأنها دولة عسكرية ، كما أنها قامت على يد المماليك ، ويغلب عليهم اللغة التركية .

٢ – كان رأس المماليك الحاكم السلطان ، ويأتي نتيجة لاختيار الأمراء له عندما يكون ذا نفوذ كبير ، أو يقوم بقتل من سبقه ، ولم تكن الوراثة مبدأ عاما لنظامهم ، بل قد يتولى الابن بعد أبيه ، وقد لا يتولى . وكان يلقب بالسلطان أو سلطان الإسلام والمسلمين ، أو الملك ، ومن ألقابه : نصير أمير المؤمنين أو ناصر الملة المحمدية ، أو محيي الدولة العباسية – وهذا بعد إحيائها في القاهرة – حيث أصبح السلطان يتقلد الملك بعهد تولية من الخليفة العباسي ومبايعته حتى

---

(١) انظر : أحداث هذه السنين في كتب التاريخ وخاصة : البداية والنهاية ، والسلوك ، والنجوم الزاهرة .

(٢) من الكتب القديمة : خطط المقريزي ، وصبح الأعشى ، ونهاية الأرب للنويري ، ومن الحديثة : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ، في جزأين : عبد المنعم ماجد .

تصبح توليته شرعية ، ويشهد ذلك كبار القضاة وقد يخطب الخليفة بهذه المناسبة – ولكن يلاحظ أن الخليفة كانت سلطته شكلية – وإذا تولى خليفة جديد أقيمت له حفلة مبايعة كبرى يحضرها السلطان والنواب والقضاة وغيرهم من مختلف طبقات الشعب .

٣ – يأتي بعد مرتبة السلطان : النائب ، وهناك نائب للسلطنة في مصر ، ونائب في الشام ، وكانت الشام مقسمة إلى عدة نيابات ولكن النائب الأساسي هو الذي يقيم في دمشق ، وكان النائب يتولى تعيين الوظائف الديوانية والدينية . أما مرتبة الوزير ففي هذه الحالة – حالة وجود النائب – تصبح في المرتبة الثالثة ويختص عمل الوزير بالشئون المالية ، وقد تُلغي الوزارة نهائيا ويُكتفى بكبار الكتاب .

٤ – كانت وظائف الدولة المملوكية تقسم إلى ثلاث وظائف : الأقلام ويتعلق بها الوظائف الديوانية ، والعلماء : ويتعلق بهم الوظائف الدينية ، والسيوف : ويقصد الوظائف الحربية ، ويلاحظ تطور الفصل بين الوظائف الدينية وغيرها التي لم يكن في السابق يوجد حد فاصل بينها .

٥ – كان عماد الدواوين طبقة الكتاب ، وكان السلطان يعين كبار الكتاب ، وكانت هذه الوظائف يشغلها في الغالب مصريون لا أتراك ، وكانوا كثيرا ما يكون من القبط النصارى الذين لهم عناية بمثل هذه الوظائف العزيزة . وكان أهم الأعمال الديوانية ديوان الإنشاء وكان رئيسه يسمى كاتب السر ، وكان تحته مجموعة من الكتاب الذين يحضرون مع السلطان وينفذون أوامره ونظره في المظالم ، وكان من تحتهم مجموعة من كتاب السجلات الذين يقومون بالمراجعة والتلخيص وكان عمل ديوان الإنشاء يختص بأمور ثلاثة لها أهميتها الكبرى وهي : المكاتبات ، من السلطان وإليه ، والبريد ، والنظر في المظالم .

٦ – أما الأمور المالية فكان يتولاها الوزير ، وكان يشاركه عدة موظفين على رأسهم ناظر الدولة الذي قد يسمى ناظر المال أو ناظر المملكة ، وكانت أهم موارد الدولة : الخراج والضرائب من المكوس والعشور وكانت تفرض على الصادر والوارد – ومن الموارد الجوالي – من جالية وهم غير المسلمين –

التي تفرض على رؤوس غير المسلمين ، ومن الموارد : المعادن والزكاة ؛ وما يتحصل من سك العملة . وغيرها .

٧ – أما القضاء فكان في يد الشافعية ، حتى بعد تولية أربعة قضاة ؛ وكان منصب قاضي القضاة ، وما يتعلق به من أمور أخرى كالنظر في الأوقاف ، والمحجور عليهم واليتامى والخطابة ، والنظر في بيت المال والمدارس .... يتولاه قاض من الشافعية . ثم يأتي بعده القضاة من المذاهب الأخرى الحنفية والمالكية والحنبلية ، وكان لكل مذهب قاضي قضاة ، وكان لهم نوابهم في مصر والشام . وكان قاضي القضاة يختار الشهود الذين يسمون الشهود العدول حيث يأتي إليهم أصحاب المعاملات للإشهاد . وكان لقاضي القضاة – الأعلى الشافعي – منزلة كبيرة في الدولة ، حتى في تنصيب الخلفاء والسلاطين . وبالإضافة إلى القضاء كان هناك : النظر في المظالم ، وكان يتولى النظر فيه السلطان في دار تسمى دار العدل ، ثم أصبح ينظر فيه نائب السلطنة أو حاجب الحجاب . وكان أيضا نظام الحسبة ، الذين يقومون بالنظر في الأسواق ومنع الغش فيها ، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومنع المنكرات الظاهرة من الدعارة والخمور والتبرج وغيره ، كما كان يتولى النظر في أحوال أهل الذمة حتى يتميزوا عن المسلمين بهيئاتهم ولباسهم .

٨ – كما كان للمماليك نظمهم المتعلقة بالسيف ، مثل الشرطة – في الداخل – ومثل النظم الحربية لإدارة الجيوش والجنود ، والأساطيل ، ولها أنظمتها الدقيقة [١] .

٩ – وقد انتشر في عهد المماليك دفع الرشوة [البرطلة] للوصول إلى المناصب ، ولذلك أحيانا تصدر الأوامر بأن لا يولى أحد بمال ولا رشوة لأن ذلك يفضي إلى ولاية من لا يستحق [٢] .

---

(١) انظر : نظم دولة سلاطين المماليك للدكتور عبد المنعم ماجد .

(٢) انظر : البداية والنهاية (١٤/٦٦) ، ويذكر ابن كثير أن سبب صدور هذا الأمر ابن تيمية – رحمه الله – . وانظر كتاب : البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك (ص : ٢٥) وما بعدها .

رابعا : سقوط الخلافة العباسية في بغداد وإحياؤها في القاهرة :

سبق أن أشرنا إلى سقوط الخلافة العباسية في بغداد على يد التتار وذكرنا – فيما سبق – إشارة سريعة إلى إعادتها في القاهرة سنة ٦٥٩ هـ على يد الظاهر بيبرس [١] . وقد يقول قائل : إذا كانت إعادة الخلافة الإسلامية تحولت إلى إعادة شكلية لأن الأمور كلها – ومنها تحديد الخليفة – بيد السلطان ، فما فائدة الاهتمام بهذه المسألة ؟ . والجواب على ذلك أنه حتى في العهود العباسية المتأخرة أصبحت السلطة كلها بيد الوزراء – مثل بني بويه ، والسلاجقة – ولم يكن للخليفة إلا الاسم ، ومع ذلك لما قضي على الخلافة حزن الناس على ذلك وصاروا يذكرون الأمور الهائلة التي جرت وعلى رأسها قتل الخليفة ثم بقاء المسلمين بلا خليفة ، ولذلك فبقدر هذا الحزن كان استبشارهم بإحيائها في القاهرة ، فالخلافة عند المسلمين رمز للوحدة واتباع شرع الله في تعيين إمام للمسلمين ، ولذلك لما قامت الخلافة في القاهرة صار بعض الملوك في الأقاليم البعيدة يرسلون إلى الخليفة يطلبون منه أن يقرهم على ملكهم وأن يكونوا تابعين له حتى يحظوا بالشرعية أمام شعوبهم [٢] . ولا شك أن هناك أسبابا دعت المماليك إلى إعادة الخلافة ولعلها تتضح فيما يلي :–

١ – أن فكرة إعادة الخلافة – كانت في البداية – على أساس أن الخليفة إذا بويع له فإن مهمته تبدأ بالعودة إلى بغداد وتخليصها من التتار وإعادة الخلافة هناك ، والدليل على ذلك شيئان : أولهما : أن بعض الروايات تذكر أن المظفر قطز بايع في الشام الحاكم بأمر الله ، وأرسل معه جماعة من أمراء العرب ، وأن الخليفة سار وافتتح بعض المدن – جهة العراق – وأنه قاتل التتار وانتصر عليهم ، وأن نائب دمشق استدعاه ، وأن الظاهر بيبرس – بعد توليه – استدعاه ولكنه علم أن المستنصر العباسي سبقه إلى القاهرة فلم يذهب إليها ولكن رجع إلى حلب

---

(١) يذكر السيوطي أن المظفر قطز هو أول من فكر في ذلك وأنه بايع فعلا أبا العباس الحاكم بأمر الله في دمشق – الذي تولى فيما بعد سنة ٦٦١ هـ . تاريخ الخلفاء (ص : ٧٦٠) .

(٢) من هؤلاء : محمد بن تغلق ، انظر : رحلة بن بطوطة (٥٢٣/٢) ، وانظر : الإسلام والخلافة : علي الخربوطلي (ص : ٢٤٨–٢٥٢) .

فبويع من هناك وكان ممن بايعه عبد الحليم بن تيمية [١] . أما الثاني : فهو ما قاله الخليفة العباسي المستنصر في خطبته الأولى فإنه قال بعد مدحه للظاهر في إحيائه للخلافة العباسية ، وبعد حثه على العدل والجهاد في سبيل الله ، قال : « وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأولى ، فأيقظ لنصرة الإسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا ، وكن في مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعاً ... » [٢] ومقر الخلافة بغداد ، وبعد وقت قصير سار الخليفة والسلطان إلى الشام فلما وصلا إلى دمشق جهز السلطان الخليفة ومعه الأمراء والجند ، وسار الخليفة جهة العراق ، وكان الظاهر يريد أن يبعث معه عشرة آلاف فارس حتى يستقر ببغداد ، ولكن بعض الأمراء أشار إليه أن لا يفعل وقالوا : إن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر ، فلم يخرج مع الخليفة إلا قوة صغيرة لا تتناسب ومستوى المهمة ، ولذلك سرعان ما قضي عليه سنة ٦٦٠ هـ وبعد ذلك عزم الظاهر على إعادة الخلافة مرة أخرى فأعادها سنة ٦٦١ هـ ، وتولى الخلافة أحمد الحاكم بأمر الله ، ولكن بقي الخليفة في القاهرة ولم يسمح له بمغادرتها .

٢ - ومن الأسباب التي دعت المماليك إلى إحياء الخلافة الإسلامية كونهم مماليك وأن أصلهم غير حر ولعل حادثة بيعهم أيام نجم الدين أيوب على يد العز ابن عبد السلام [٣] لم تكن غائبة غن أذهانهم وأذهان الناس - لذلك وحتى يضفوا الشرعية على ملكهم وسلطانهم عمدوا إلى إحياء الخلافة ، وأنهم ليسوا إلا تابعين للخليفة . ولما كان شرط القرشية سائدا لم يجرؤ المماليك إلى نسبتها إلى أنفسهم وإنما عينوا خليفة عباسيا .

---

(١) انظر : تاريخ الخلفاء (ص : ٧٦٠) ، وانظر : النجوم الزاهرة (٧/١١٥-١١٦) .

(٢) الروض الزاهر (ص : ١٠٨) ، والسلوك (٤٥٦/١) ، وهذه البيعة حضرها القضاة والأمراء وعلى رأسهم العز بن عبد السلام - الذي يقال : إنه أول من بايع الخليفة - وتاج الدين بن بنت الأعز قاضي القضاة الذي أثبت بشهادة الشهود ثبوت نسب الخليفة إلى بني العباس ، وانظر : حسن المحاضرة (٥٣/٢) ، والبداية والنهاية (٢٣١/١٣) ، ومما يلحظ أنه في سنة ٦٩٠ هـ خطب الخليفة العباسي في مصر في إحدى المناسبات أمام السلطان وحض في خطبته على أنتزاع العراق من التتار . الخطط (٣٨١/٢) .

(٣) انظر : طبقات الشافعية للسبكي (٢١٦/٨-٢١٧) .

٣ – وهناك سبب آخر وهو أن بعض الدول المجاورة للمماليك لقبوا أميرهم بلقب الخليفة – بعد سقوط بغداد – ومن أبرز هذه الدول الدولة الحفصية في تونس [١] ، فحرص المماليك على قطع الطريق على أولئك لينالوا وحدهم المفخرة والشرعية فسارعوا إلى إعلان الخلافة عندهم في القاهرة .

وعلى الرغم من أن الخلافة كانت شكلية ، إذ ليس للخليفة حول ولا قوة إلا أن هذه الخطوة لم تخل من آثار لعل من أهمها :

أ – عودة الخلافة السنية كان بمثابة دعم قوي لما فعله نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي من إزالة الخلافة الفاطمية في مصر وإقامة دولة سنية ، والقضاء على الفاطميين وإن كان قد مر عليه زمن طويل إلا أن هناك محاولات عديدة قام بها أفراد أو طوائف باطنية تدين بالولاء للدولة الفاطمية ومذهبها الباطني وذلك للعودة إلى الخلافة الشيعية ، ومن هذه المحاولات ما فعله ابن العلقمي – في سقوط بغداد – الذي كان يطمع من خلال تعاونه وممالأته للتتار أن يقيم حاكما علويا بدل الخليفة العباسي السني ، ولكنه فشل [٢] .

ومنها ما قام به رجل شيعي يعرف بالكوراني – نسبة إلى كوران من قرى إسفرايين – حين أظهر الزهد والورع ، وأخذ يجمع حوله بعض خدم السلطان ويحرضهم على الخروج ضد المماليك ليتولى بدلهم حاكم شيعي ، ثم ثاروا وشقوا القاهرة وهم ينادون : يا آل علي وفتحوا دكاكين السيوفيين وأخذوا ما فيها من سلاح .

---

(١) ينتسب بنو حفص إلى أبي حفص عمر رئيس قبيلة هنتانه البربرية ، وكانوا في الأصل أتباعا للموحدين ، وفي سنة ٦٢٥ هـ أعلن أبو زكريا الحفصي استقلاله ، فبدأت الدولة الحفصية التي استمرت إلى أن سقطت تونس بأيدي العثمانيين سنة ٩٨٢ هـ ، والذي بويع له بالخلافة من قبل شريف مكة [ويلاحظ أن الذي قام بإقناع الشريف كما قام بكتابة الولاية بن سبعين الصوفي صاحب القول بوحدة الوجود والذي فر من تونس إلى مكة لما أنكر عليه العلماء ورموه بالكفر والفسق] هو أبو عبد الله المستنصر الذي تولى سنة ٦٤٧ هـ ، وفي سنة ٦٥٧ هـ وصلت بيعة شريف مكة له فسمي بأمير المؤمنين ، ولكن الأمور اضطربت في عهده ، ولذلك لم يعترف مؤرخو الإسلام – خاصة أهل المشرق – بهذه الخلافة ، وإنما اعترفوا بخلافة القاهرة . انظر : العبر لابن خلدون (٦٣٤/٦) ، ط بيروت ، والأدلة البينة النورانية لابن الشماع (ص : ٥٧) ، وكتاب السلطنة الحفصية (ص : ١٨٨) وما بعدها .

(٢) سبق قريبا عند الكلام عن المغول وسقوط بغداد .

ولكن عسكر السلطان الظاهر بيبرس أحاطوا بهم وأوثقوهم فأصبحوا مصلوبين . وكان ذلك في أواخر سنة ٦٥٨ هـ [١] .

ب - تحول أنظار العالم الإسلامي من بغداد إلى القاهرة وما يتبعها من بلاد الشام وبذلك أصبحت حاضرة المسلمين وموئل العلماء وطالبي العلم وصارت مدارسها ومساجدها وشيوخها ذات أثر بالغ ، مما لم يبلغه مكان آخر ، ولهذا يقول السيوطي معلقا على موضوع انتقال الخلافة إلى مصر : « واعلم أن مصر حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الإسلام فيها وعلت فيها السنة ، وعفت منها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء ... » [٢] . إلى غير ذلك من الآثار [٣] .

خامسا : الباطنية والرافضة :

تعتبر الحركات الباطنية من أخطر الحركات في تاريخ العالم الإسلامي ، وكذلك الرافضة ، والطائفتان متداخلتان في المنهج والاعتقاد والموقف من أهل السنة ، ولا عجب ؛ إذ كلها قائمة على مبدأ التشيع ومنطلقة منه ، وإن كان التطور في بعضها قد يصل إلى الغلو أو الإباحة كما حدث للإسماعيلية والقرامطة ، إلا أن القاسم المشترك بينها هو دعوى موالاة أهل البيت والقيام بالواجب نحوهم ، واستخلاص حقوقهم المغتصبة - من الإمامة وغيرها - من أعدائهم .

وهذه الحركات لا تزال - حتى الآن - تقوم بدور خطير في عالمنا الإسلامي وتحظى - كما يحظى من يتبناها من دول وغيرها - بدعم كبير من اليهود والنصارى والملاحدة - من شيوعيين ولا دينيين - ؛ إذ أدرك أعداء الإسلام أن حرب المسلمين - ويقصد أهل السنة - لا تتم إلا بإحياء الطائفية بينهم ودعم تلك الفرق والحركات المناهضة للإسلام الحق .

---

(١) انظر : السلوك (٤٠٠/١) ، وقيام دولة المماليك (ص : ١٧٨) .

(٢) حسن المحاضرة (٩٤/٢) .

(٣) يحسن أن نشير هنا إلى أنه في عام ٨١٥ هـ تولى الخليفة العباسي أبو الفضل الملقب بالمستعين بالله السلطنة في مصر ، فصار هو الخليفة وهو السلطان . انظر : أنباء العمر لابن حجر (٥٣/٧) - هندية وحسن المحاضرة (٨٥/٢) .

وقد كتبت دراسات عن الحركات الباطنية ، ولكن هذه الدراسات – حسب علمي – قامت على إحدى وجهتين :

١ – إما وجهة تاريخية ، تنظر إلى تاريخ هذه الطوائف ، ودورها في الأحداث وما لها وما عليها ، ولا تعطي الجانب العقائدي الذي قامت به إلا دورا صغيرا لا يتعدى التعريف والنشأة .

٢ – وإما وجهة عقائدية بحتة ، تنظر إلى عقائد هذه الطوائف وفكرها ، وأهم مبادئها ، وأما دورها في الأحداث وما قامت في المجال السياسي والاجتماعي فلا تتعرض له بشيء .

وفي رأيي – القاصر – أن مثل هذه الحركات الخطيرة لا تتم معرفة أبعادها والاستفادة من تاريخها السابق – وأبعاده العقائدية والسياسية – إلا بالجمع بين هاتين الوجهتين أثناء الدراسة والتحليل .

والحركات الباطنية – في العصر الحاضر – كما أن لها نشاطا سياسيا ملحوظا فلها أيضا نشاط فكري تنشر من خلاله مذاهبها وعقائدها وكتبها ووثائقها [(١)] .

والعصر – الذي نحن بصدد الحديث عنه – كان للباطنية والرافضة فيه دور كبير ، وهو وإن كان قد انحسر – بالنسبة للعصر الذي قبله – إلا أن بقاياهم قامت بأدوار تكميلية سواء بنشر مذاهبهم أو التعاون مع الصليبيين ، ولذا رأينا كيف أن الظاهر بيبرس يهاجم حصونهم ويقضي عليها ، والسلطان قلاوون وغيره يقومون بغزو الرافضة في جبل كسروان وما جاوره ، ورأينا عالما مثل شيخ الإسلام ابن تيمية يتصدى لجهادهم وغزوهم ، كما يتصدى لفضح المذهب الباطني ويبين حكم الشرع فيهم ، ويرد على علمائهم في منهاج السنة وغيره .

---

(١) تأسست في الهند سنة ١٩٤٦ م « الجمعية الإسماعيلية » ونشرت في الهند ومصر كثيرا من مؤلفاتها ومخطوطاتها . انظر : كتاب الحاكم بأمر الله – عنان – (ص : ١٣-١٤) ، كما أن كثيرا من الباحثين تفرغوا لنشر التراث الإسماعيلي والباطني وكتابة الدراسات حوله – حتى أن واحدا منهم نشر قرابة أربعين كتابا حول هذه الحركات ، وبعض الباحثين من هؤلاء لا يكتفون بالتحقيق أو الكتابة العلمية فقط ، وإنما يبثون الدعاية لها ويدعون إلى الاستفادة من تجاربها ، كما يزعمون أنها حركات مظلومة ولذا ينبغي إعادة كتابة تاريخها من خلال حرية الفكر والأديان التي ينادون بها .

ونوجز الكلام حول هذه الحركات بما يلي :

أولا : برز التشيع كظاهرة في وقت مبكر ، في عهد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بل قبله بقليل حين ظهرت السبئية - أتباع عبد الله بن سبأ - وكان التشيع في عمومه قد بدا معتدلا إلا أنه في هذه الظواهر بدا غاليا أشد ما يكون الغلو ، وليس تأليه علي بن أبي طالب الذي قال به أناس في عهده إلا نواة لتلك الحركات الباطنية التي أخذت أشكالا مختلفة في الظاهر ، وهي متفقة في الحقيقة والباطن .

أما ما قد يتبادر إلى الذهن من تفاوت بينها اعتدالا وغلوا فليس هذا إلا أمر عارض ينشأ في بعض الأحوال حسب ما يقتضيه مبدأ التقية ، أو التدرج في المدعوين أو حين التطبيق العملي لمبادئهم ، إضافة إلى مبدأ السرية والعلنية في عقائدهم التي يجعلون جزءا مهما منها يبقى تحت دائرة الكتمان إلا عن القلة القليلة من أكابرهم وعلمائهم ، ولذلك صدقت فيهم مقولة أبي حامد الغزالي : « إنه مذهب ظاهره الرفض ، وباطنه الكفر المحض ، ومفتتحه حصر مدارك العلوم في قول الإمام المعصوم » [١] .

ثانيا : حدثت انقسامات داخل هذه المذاهب الرافضية الباطنية :

ومنها : الانقسام الذي وقع حول من يكون الإمام بعد جعفر الصادق - رحمه الله - .

فطائفة : قالت : الإمام بعده ابنه موسى واستمرت الإمامة بعده إلى الإمام الثاني عشر - المهدي المنتظر عندهم - وهؤلاء هم الرافضة الموسوية ، الجعفرية ، الاثنى عشرية ، ومن يطلع على عقائدهم ومذاهبهم يرى أنه لا يمكن أن يكونوا طائفة معتدلة بحال من الأحوال ، إلا حال التقية [٢] .

---

(١) فضائح الباطنية (ص : ٣٧) .

(٢) قدم الأخ العزيز - ناصر القفاري - رسالته للدكتوراه عن أصول الشيعة الاثنى عشرية وعقائدهم بعد دراسته - الجادة والموفقة - إن شاء الله ؛ حول مسألة التقريب بين السنة والشيعة في رسالته للماجستير .

وطائفة : قالت : الإمام بعده أي - بعد جعفر الصادق - ابنه إسماعيل - الذي مات في عهد أبيه - وهؤلاء هم طائفة الإسماعيلية التي انبثقت منها حركة القرامطة ، والدولة الفاطمية في المغرب ومصر ، والإسماعيلية في بلاد فارس وغيرها .

ومنها :- أي من الانقسامات التي حدثت - ما حدث سنة ٤٨٧ هـ - لما مات الخليفة المستنصر بالله - الفاطمي العبيدي - فقد افترقت الإسماعيلة إلى فرقتين :

إحداهما : قالت بأن الإمام بعده ولده نزار ، وأن المستنصر نص على ذلك قبل وفاته ، و« الإسماعيلية » ، وملاحدة العجم وملاحدة الشام تعتقد إمامته ، وتزعم أن المستنصر كان قد عهد إليه وكتب اسمه على الدينار والطرز ، وأن المستنصر قال للحسن بن صباح : إنه الخليفة من بعده »[1] وهؤلاء ينكرون إمامة المستعلي الذي تولى الخلافة - بعد أبيه - ويرون أن خلافته ومن بعده باطلة .

والأخرى : المستعلية ، يرون صحة إمامة المستعلي ومن قام بعده من الخلفاء بمصر ، وبسبب ذلك حدثت فتن بين الطائفتين[2] .

ثالثا : لم تكن هذه الحركات الباطنية بعيدة عن الأحداث - خلال تاريخنا الإسلامي - وإنما أخذت تعمل سرا لنشر أفكارها ، وتكوين أتباع لها - وذلك خوفا من الخلافة العباسية السنية - وكان بداية ذلك لما ظهرت جماعة من الملاحدة يتزعمهم رجل فارسي مجوسي اسمه : ميمون بن ديصان المعروف بالقداح ، وكان قد تظاهر بالإسلام والتشيع ، ثم قبض عليه مع جماعة من أصحابه وسجنوا في الكوفة أواخر عهد المنصور العباسي سنة ١٤٥ هـ . وفي السجن بدأوا وضع مذهبهم وأسس دعوتهم ثم ظهرت على أثر ذلك حركتان كان لهما دور في التاريخ الإسلامي ، إحداهما : ظهور القرامطة ، والأخرى : قيام الدولة الفاطمية .

---

(١) اتعاظ الحنفاء (١٥/٣) .

(٢) انظر : تاريخ الفارقي (ص : ٢٦٧) ، واتعاظ الحنفاء (٢٧/٣) ، والبداية والنهاية (١٤٨/١٢) ، وتاريخ عطا ملك الجوين - جزء منه ضمن دولة الإسماعيلية في إيـران (ص : ١٧٩) ، وانظر الإسماعيلية - لإحسان الهي ظهير (ص : ١٥٨-١٥٩ ، ٧٣٥) ، وانظر : مذاهب الإسلاميين - بدوي (٣٥٢/٢) وما بعدها .

رابعا : ولما جاء عهد المماليك واصلوا حربهم للصليبيين والباطنيين وخاصة بعد القضاء على حصونهم في بلاد فارس الذي تم على يد هولاكو . فالظاهر بيبرس قضى عليهم - حصنا بعد الآخر - سنة ٦٧٠ هـ ، وكانوا قبل ذلك يدفعون له الجزية وكان مسيطرا عليهم يعزل وينصب من يريد من زعمائهم ، يقول المقريزي في حوادث سنة ٦٧١ هـ « وفي ثاني عشر ذي الحجة استولى السلطان على بقية حصون الدعوة الإسماعيلية وهي المينقة والقدموس والكهف ، وأقيمت هناك الجمعة وترضى عن الصحابة بها ، وعفيت المنكرات منها ، وأظهرت شرائع الإسلام وشعائره »[١] .

لكن هل انتهى دور الباطنين في بلاد الشام[٢] بالقضاء على الإسماعيلية[٣] ؟ لقد بقى من طوائفهم طائفتان كان لهم نفوذ في ذلك الوقت ، واستمر نفوذهم في بلاد الشام إلى العصر الحاضر . وهما :

أ - النصيرية :

وهؤلاء سموا بذلك نسبة إلى محمد بن نصير النميري[٤] الذي عاش في القرن الثالث زمن الأئمة الثلاثة الأخيرين من أئمة الشيعة الاثنى عشرية ، وزعم أنه الباب للإمام الحادي عشر « الحسن العسكري » وأنكر إمامة المهدي الثاني عشر ، وبذلك انفصل عن الاثنى عشرية ، وللنصيرية عقائد غالية مشهورة أهمها تأليه علي ابن أبي طالب - رضي الله عنه - وفي عهد المماليك كانوا يسكنون السواحل الشامية ، وبعض الجبال في الكسروان وغيره ، وكانوا موالين أتم الموالاة للنصارى وللتتار ، وقد حرص الظاهر بيبرس على القضاء عليهم عن طريق إلزامهم ببناء المساجد

---

(١) السلوك (٦٠٨/١) ، وانظر الروض الزاهر (ص : ٤١٣) ، والمختصر لأبي الفداء (٧/٤١) .

(٢) أما في غير بلاد الشام فلا تزال الإسماعيلية باقية إلى اليوم كطائفة مستقلة .

(٣) المطلع على رحلة ابن بطوطة (٩٣/١) ، حين زار الشام سنة ٧٢٧ هـ يرى أنه يشير إلى قلاع الإسماعيلية والفداوية ويقول أنهم سهام الناصر قلاوون يصيب بهم أعداءه وعلى هذا الأساس يكون الظاهر إنما قضى عليهم سياسيا ، بحيث لم يصبح لهم دور مستقل .

(٤) وبعضهم ينسبهم إلى نصير غلام - رضي الله عنه - .

في كل قرية ، ولكنهم « بنوا بكل قرية مسجدا بعيدا عن العمارة ، ولا يدخلونه ولا يعمرونه ، وربما أوت إليه مواشيهم ودوابهم وربما وصل الغريب إليهم فينزل بالمسجد ، ويؤذن إلى الصلاة فيقولون : لا تنهق علفك يأتيك [١] » استهزاء وسخرية ، وفي سنة ٧١٧ هـ خرجت النصيرية عن الطاعة ، وكان من بينهم رجل سموه محمد بن الحسن المهدي القائم بأمر الله كان تارة يدعى الألوهية لعلي وتارة يدعي أنه محمد بن عبد الله « وخرج يكفر المسلمين وأن النصيرية على الحق ، واحتوى هذا الرجل على عقول كثير من كبار النصيرية الضلال ، وعين لكل إنسان منهم تقدمة ألف وبلادا كثيرة ونيابات ، وحملوا على مدينة جبلة فدخلوها وقتلوا خلقا من أهلها وخرجوا منها يقولون : لا إله إلا علي ولا حجاب إلا محمد ولا باب إلا سلمان ، وسبوا الشيخين ، وصاح أهل البلد : وا إسلاماه وا سلطاناه وا أميراه ، فلم يكن لهم يومئذ نصير ولا منجد .... فجردت لهم العساكر فهزموهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا وجما غفيرا وقتل المهدي » [٢] .

وقد حفظ لنا صاحب صبح الأعشى وثيقة تشتمل على مرسوم أصدره الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٧ هـ يلغي فيه بعض المكوس في المملكة الطرابلسية ، ويأمر بإبطال بعض المنكرات ، ويذكر منكرات النصيرية ، ومما ورد فيه عنهم « ومنها : أن بالأطراف القاصية من هذه المملكة قرى سكانها يعرفون بالنصيرية لم يلج الإسلام لهم قلبا ، ولا خالط لهم لبا ، ولا أظهروا له بينهم شعارا ... [ثم يقول] : وأما النصيرية فليعمروا في بلادهم بكل قرية مسجدا ... وكذلك رسمنا أيضا بمنع النصيرية من الخطاب [٣] وأن لا يمكنوا بعد ورود هذا من الخطاب

---

(١) رحلة ابن بطوطة المسماة : تحفة النظار في غرائب الأمصار (٩٦/١) ، وانظر : خطط الشام محمد كرد علي (٢٦٣/٦) ، وذكر أن ذلك في القرن التاسع – وهو خطأ ، وتبعه على خطئه صاحب الحركات الباطنية في العالم الإسلامي – محمد أحمد الخطيب (ص : ٣٣٢) .

(٢) البداية والنهاية (٨٣/١٤–٨٤) .

(٣) المقصود بالخطاب عندهم أن يحلفوا من يدخل في دينهم – بعد تعليمه وإطلاعه على أسرارهم – أن يكتم دينه ، وشيوخه . انظر : مجموع الفتاوى (١٥/٣٥) – ضمن السؤال الوارد لابن تيمية ، وانظر : صبح الأعشى (٢٥٠/١٣) .

جملة كافية ، وتؤخذ الشهادة على أكابرهم ومشايخ قراهم لئلا يعود أحد منهم إلى التظاهر بالخطاب ، ومن تظاهر به قوبل أشد مقابلة » (١) .

ولابن تيمية – رحمه الله – فتوى مشهورة في النصيرية وحقيقة مذهبهم وخطرهم وتعاونهم مع النصارى والتتار ، والحكم عليهم وواجب ولاة المسلمين نحوهم (٢) . وستأتي الإشارة إلى دور ابن تيمية في قتالهم وإخضاعهم – مع غيرهم من دروز وملاحدة ورافضة جبل كسروان – إن شاء الله تعالى .

ب – الدروز :

وهم طائفة يقولون بتأليه الحاكم بأمر الله الفاطمي والتناسخ والحلول . وكان أول من دعا إلى ذلك سنة ٤٠٨ هـ حمزة بن علي بن أحمد الزوزني ، وفي نفس الوقت ظهر عدة دعاة على شاكلته منهم : حسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم ، ومحمد بن إسماعيل الروزي ، وفي سنة ٤١١ هـ قتل الحاكم بأمر الله – ويزعم الدروز أنه اختفى – فانتقلت هذه الطائفة إلى مناطق أخرى في بلاد الشام ، أما في مصر فلم يبق لهم بعد هلاك الحاكم وجود حقيقي (٣) . وقد استجاب لهذه الدعوة من القبائل العربية في الشام : بنو تنوخ وآل بحتر ، وآل أرسلان ، وبعد اعتناقهم لهذا المذهب الباطني تحركوا في سنة ٤٢٣ هـ إلى جبل السماق ، وجاهروا بمذهبهم وأخربوا المساجد ، واعتدوا على المسلمين المجاورين ، وكثر شرهم ، ولكن أهل أنطاكية خافوا من تفاقم أمرهم ، فجاءوهم وتلطفوا لهم حتى قبضوا على دعاتهم وأكابرهم وقتلوهم جميعا (٤) .

---

(١) صبح الأعشى (٣٣/١٣-٣٥) ، وانظر : الوثائق السياسية : العهد المملوكي (ص : ٣٠٥) وما بعدها .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى (١٤٥/٣٥-١٦٠) .

(٣) انظر في عقائدهم ونشأتهم : أخبار ملوك بني عبيد (ص : ٩٤) وما بعدها ، واتعاظ الحنفاء (١١٣/٢) ، وانظر : الحاكم بأمر الله (ص : ١٩٧) وما بعدها ، و(ص : ٣١٤) وما بعدها ، وتاريخ الدولة الفاطمية (ص : ٣٥٤) وما بعدها .

(٤) انظر : خطط الشام (٢٢٤/١) ، والتنوخيون : نديم نايف حمزة (ص : ٧١) .

وبعد مجيء الصليبيين ثم التتار كانوا يتعاونون معهم بما يخدم مصالحهم الخاصة [(١)] .

وكان الدروز متوزعين في أماكن متفرقة من لبنان ، ولذلك فقد انضم جزء منهم – من التنوخيين – إلى موالاة المماليك ، وصاروا ينخرطون في جنود الحلقة [(٢)] – الذين كانوا فرسانا يأتمرون بأمر السلطان دون أن يكونوا ملكا له – وعلى الرغم من سجن ثلاثة من زعمائهم في القاهرة فقد ردت إليهم إقطاعاتهم وصاروا مسؤولين عن الحفاظ على منطقة غرب بيروت [(٣)] .

والعجيب أنه حين هاجم جيش السلطان الناصر قلاوون سنة ٧٠٥ هـ جبل الكسروان – وكان يسكنه النصيرية والرافضة والدروز – كان من ضمن الجيش الذي هاجمهم : التنوخيون الدروز مما أثار جدلا بين بعض الباحثين [(٤)] .

جـ – إن الرافضة الاثنى عشرية كانت لهم بعض الأدوار الإفسادية ولذلك تحدث عنهم ابن تيمية حينما ذكر غزوه لجبل الكسروان – وهذا الجبل كانت تسكنه طوائف مختلفة من النصيرية والدروز والشيعة وأصحاب العقائد الفاسدة – ففي سنة ٧٠٤ هـ ذهب إليهم شيخ الإسلام ابن تيمية ومعه نقيب الأشراف زين الدين ابن عدنان وألزموهم شرائع الإسلام ، واستتابوا خلقا منهم ، كما ذهب إليهم ومعه الأمير قراقوش المنصور وألزموهم بالطاعة وأن يصلحوا ما بينهم وبين التنوخين ،

---

(١) انظر : تاريخ بيروت (ص : ٦٠،٦٣،٦٤) ، وانظر : التنوخيون (ص : ١٠٣–١١٠) .

(٢) انظر : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر – النظم السياسية – (ص : ١٤٩) .

(٣) تاريخ بيروت (ص : ٥٣–٥٤ ، ٧٠–٨٥) ، وانظر : التنوخيون (ص : ١٢٥) ، وما بعدها .

(٤) ذكر المقريزي في السلوك (١/٩٠٢–٩٠٣) ، وابن تيمية كما في رسالته إلى السلطان الناصر – العقود الدرية (ص : ١٩٣) أن الحملة على أهل كسروان كانت حملة على الدروز – سماهم ابن تيمية الحاكمية – فإذا علم أن الجيش الذي قاتلهم فيه مئات من التنوخية الدروز فكيف يتم هذا ؟ كمال الصليبي – وهو ماروني – أنكر ذلك – كما أنه دافع عن الذين كانوا في الجبل . وقد رد عليه زكي النقاش في كتابه : أضواء توضيحية على تاريخ المارونية (ص : ٤٦–٥٠) ، و(ص : ٦٣) وما بعدها . كما رد عليه صاحب كتاب التنوخيون (ص : ١٣٠) – ومؤلفه درزي .

ولكنهم رفضوا الطاعة [(١)] فأخذ ابن تيمية ونائب دمشق في الاستعداد لحربهم ، يقول ابن كثير في حوادث سنة ٧٠٥ هـ : « وفي ثانيه [أي المحرم] خرج نائب السلطنة بمن بقي من الجيوش الشامية ، وقد كان تقدم بين يديه طائفة من الجيش مع ابن تيمية في ثاني المحرم [(٢)] ، فساروا إلى بلاد الجرد والرفض والتيامنة ، فخرج نائب السلطنة بنفسه بعد خروج الشيخ لغزوهم ، فنصرهم الله عليهم وأبادوا خلقا كثيرا منهم ، ومن فرقتهم الضالة ووطئوا أراضي كثيرة من صنع بلادهم ، وعاد نائب السلطنة إلى دمشق في صحبته الشيخ ابن تيمية والجيش ، وقد حصل بسبب شهود الشيخ هذه الغزوة خير كثير ، وأبان الشيخ علما وشجاعة في هذه الغزوة ، وقد امتلأت قلوب أعدائه حسدا له وغما [(٣)] .

ويقول ابن تيمية بعد هذا النصر المبين عليهم – في كتابه إلى السلطان الناصر قلاوون في مصر – وقد ذكر بعد المقدمات شيئا من عقائدهم : « فأعان الله ويسر بحسن نية السلطان وهمته في إقامة شرائع الإسلام ، وعنايته بجهاد المارقين أن غزوا غزوة شرعية كما أمر الله ورسوله ، بعد أن كشفت أحوالهم ، وأزيحت عللهم ، وأزيلت شبههم ، وبذل لهم من العدل والإنصاف ما لم يكونوا يطمعون به ، وبين لهم أن غزوهم اقتداء بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – في قتال الحرورية المارقين الذين تواتر عن النبي – ﷺ – الأمر بقتالهم ... » [(٤)] .

ثم ذكر السبب في أخذ أموالهم وأنه كونهم خارجين عن شريعة محمد – ﷺ – وسنته ، ثم ذكر أنهم شر من التتار من وجوه متعددة ، لكن التتر أظهر وأقوى

---

(١) البداية والنهاية (١٤/٣٥) ، والسلوك (٢/١٢) ، وتاريخ بيروت (ص : ٢٧) .

(٢) هكذا ، ولعل الصواب في ذي الحجة كما أفاده كلام ابن عبد الهادي في العقود ، فإن قال (ص : ١٨١–١٨٢) « وتوجه نائب السلطنه الأمير جمال الدين الأفرم بمن تأخر من عسكر دمشق إليهم لغزوهم واستئصالهم في ثاني شهر المحرم من سنة خمس وسبعمائة ، وكان قد توجه قبله العسكر طائفة بعد طائفة في ذي الحجة » .

(٣) البداية والنهاية (١٤/٣٥) ، وانظر : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك (ص : ٣١٤–٣١٩) ، وانظر : التنوخيون (ص : ١٢٨–١٣٠) .

(٤) العقود الدرية (ص : ١٨٧–١٨٨) .

فلذلك يظهر كثرة شرهم ، ثم ذكر السبب في قطع أشجارهم وتخريب بلادهم ، ثم قال : « وأيضا فإنه بهذا قد انكسر من أهل البدع والنفاق بالشام ومصر والحجاز واليمن والعراق ما يرفع الله به درجات السلطان ويعز به أهل الإيمان »[١] ، ثم قال ابن تيمية : « فصل : تمام هذا الفتح وبركته تقدم مراسم السلطان بحسم مادة أهل الفساد وإقامة الشريعة في البلاد ، فإن هؤلاء القوم لهم من المشايخ والإخوان في قرى كثيرة من يقتدون بهم وينتصرون لهم ، وفي قلوبهم غل عظيم ، وإبطان معاداة شديدة ، لا يؤمنون معها على ما يمكنهم ولو أنه مباطنة العدو ، فإذا أمسك رؤوسهم الذين يضلونهم - مثل بني العود[٢] - زال بذلك من الشر ما لا يعلمه إلا الله ، ويتقدم إلى قراهم وهي قرى متعددة بأعمال دمشق ، وصفد ، وطرابلس ، وحماة ، وحمص ، وحلب ، بأن تقام فيهم شرائع الإسلام ، والجمعة ، والجماعة ، وقراءة القرآن ، ويكون لهم خطباء ومؤذنون كسائر قرى المسلمين ، وتقرأ فيهم الأحاديث النبوية وتنشر فيهم المعالم الإسلامية ويعاقب من عرف منهم بالبدعة والنفاق بما توجبه شريعة الإسلام ، فإن هؤلاء المحاربين وأمثالهم قالوا : نحن قوم جبال ، وهؤلاء كانوا يعلموننا ويقولون لنا : أنتم إذا قاتلتم هؤلاء تكونون مجاهدين ، ومن قتل منكم فهو شهيد ، وفي هؤلاء خلق كثير لا يقرون بصلاة ، ولا صيام ، ولا حج ولا عمرة ، ولا يحرمون الميتة والدم ، ولحم الخنزير ، ولا يؤمنون بالجنة والنار ، من جنس الإسماعيلية والنصيرية ، والحاكمية ، والباطنية ، وهم كفار أكفر من اليهود والنصارى بإجماع المسلمين »[٣] . وسئل ابن تيمية عن حكم قتالهم فأفتى بجواز ذلك إذا كانوا ممتنعين ، وشرح حالهم والحكم عليهم وهي فتوى عظيمة[٤] .

---

(١) المصدر السابق (ص : ١٩١) .

(٢) على رأسهم : أبو القاسم الحسين بن العود ، نجيب الدين الأسدي الحلبي ، شيخ الشيعة وإمامهم وعالمهم في أنفسهم ، ولد سنة ٥٨١ هـ ، وتوفي سنة ٦٧٧ هـ . البداية والنهاية (٢٨٧/١٣) ، وهؤلاء الموجودون الذين يشير إليهم ابن تيمية من أولاده وأتباعه .

(٣) العقود الدرية (ص : ١٩٢-١٩٣) .

(٤) انظر : نصها في مجموع الفتاوى (٤٦٨/٢٨-٥٠١) ، بل قال لما بين إنهم شر من اليهود =

وفي عام ٧٠٦ هـ صدر أمر برفع أيدي الرافضة عن كسروان وإقطاعها للأمراء التركمان [١] .

سادسًا : بداية ظهور التحاكم إلى غير الشريعة :

هذه مسألة من المسائل المهمة التي تميز بها هذا العصر عن العصور التي سبقته ، فقد عاش المسلمون منذ بدء الإسلام وانتشاره في البلاد التي فتحوها لا يعرفون نظاما وحكما إلا ما جاءت به شريعة الإسلام ، ولا يعني هذا أن الظلم والجور لم يقع ، ولا أن سفك الدماء وأخذ الأموال بالباطل لم يوجد ، بل حدث من جور بعض السلاطين في العهد الأموي والعباسي وغيرهما - كما وجد من ظلم الولاة وغيرهم ممن قد تكون له سلطة - الشيء الكثير ، بل وجد من الفتن والمحن التي أحاطت ببعض المسلمين أو ببعض أمصارهم ما هو مسطور في كتب التاريخ التي ألفها مؤرخون مسلمون ، ولكن مع هذا كله كانت هذه المخالفات تقع وترتكب على أنها أمور مخالفة للإسلام أملاها الهوى أو الانتقام أو غير ذلك من الأسباب ، ولذلك إذا تولى الحاكم أو السلطان العادل رد هذه المظالم وانتصر لأصحابها بما يوافق شريعة الإسلام ، ومذهب أهل السنة والجماعة أنه لا يجوز الخروج على الأئمة وإن جاروا أو ظلموا ، وهذا فيه إقرار أن الظلم والجور قد يقع ولكنه لا يجوز أن يكون مبررا للخروج عليهم وخلع الطاعة ما لم يصل إلى الكفر البواح ، أما أن يوجد نظام أو قانون - مخالف للشريعة - ويكون بوسع هذه الطائفة أو الدولة أن تتحاكم إليه مع انتسابها للإسلام فهذا لم يحدث إلا في هذا العصر الذي نتحدث عنه ، وإذا وجد من الدول من حكم بعض بلاد المسلمين وفرض عقائد وسن شرائع مخالفة للإسلام وفرضها عليهم ، فهؤلاء خارجون عن الإسلام ، وذلك كالدولة الفاطمية التي قال عنها ابن تيمية :

= والنصارى وأن كل طائفة ممتنعة يجب قتالها ... قال : « وليس هذا مختصا بغالية الرافضة ، بل من غلا في أحد من المشايخ وقال : إنه يرزقه أو يسقط عنه الصلاة ... وكل هؤلاء كفار يجب قتالهم بإجماع المسلمين » .

(١) انظر : تاريخ بيروت (ص : ٢٩) ، والسلوك (١٦/٢) .

« فإن القاهرة بقي ولاة أمورها نحو مائتي سنة على غير شريعة الإسلام ، وكانوا يظهرون أنهم رافضة ، وهم في الباطن إسماعيلية ونصيرية وقرامطة باطنية ، كما قال فيهم الغزالي – رحمه الله تعالى – في كتابه الذي صنفه في الرد عليهم « ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض » . واتفق طوائف المسلمين : علماؤهم وملوكهم وعامتهم من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة وغيرهم على أنهم كانوا خارجين عن شريعة الإسلام ، وأن قتالهم كان جائزا ، بل نصوا على أن نسبهم كان باطلا .... والذين يوجدون في بلاد الإسلام من الإسماعيلية والنصيرية والدرزية وأمثالهم من أتباعهم ، وهم الذين أعانوا التتر على قتال المسلمين [١] ، وكان وزير هولاكو النصير الطوسي من أئمتهم » [٢] .

وهذا الذي استجد في هذا العصر جاء مع ظهور التتار وهجومهم على العالم الإسلامي . وهؤلاء التتار كان يحكمهم نظام وقانون وضعه لهم زعيمهم جنكيزخان يسمى بالياسا ، أو الياسق ، وهذا القانون كانوا يطبقونه بحذافيره ، وصارت له عندهم قداسة ، وفي هجومهم على المسلمين حملوه معهم وطبقوه .

وكلمة « ياسا » وقد يقال : ياسه ، أو يساق أو يسق [٣] ، كلمة مغولية [تركية] تعني قانون التتار الذي وضعه زعيمهم ، يقول المقريزي – في أثناء ذكره لمهمات « الحجاب » – حجاب السلاطين – في عهده : وأن متوليها مهمته أن ينصف من الأمراء والجند ، تارة بنفسه ، وتارة بمشاورة السلطان ، وتارة بمشاورة النائب ،

---

(١) من العجيب – وابن تيمية يشير إلى تعاون الرافضة مع التتر – أن من نصوص قانون التتار الياسق الذي ذكره – أو بعضه – المقريزي في خططه نصا يأمر بتمييز ولد علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وأن لا يكون عليهم كلفة ولا مؤنة : يقول : « وشرط أن لا يكون على أحد من ولد علي ابن أبي طالب – رضي الله عنه – مؤنة ولا كلفة » . الخطط (٢/٢٢٠) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/٦٣٥-٦٣٦) .

(٣) في تاج العروس (٧/٩٨) – مما استدركه في فصل الياء مع القاف – قال عن كلمة « يساق » ، « كسحاب » وربما قيل يسق بحذف الألف ، والأصل فيه يساغ ، بالغين المعجمة ، وربما خفف فحذف ، وربما قلب قافا ، وهي كلمة تركية يعبر بها عن وضع قانون المعاملة » ، ولما كان معظم الجزاءات المنصوص عليها في نظام الياسا الإعدام صار من معاني هذه الكلمة القتل أو الموت . انظر : المغول في التاريخ (جـ ١ ص : ٣٣٨) .

وأن حكم الحاجب كان « لا يتعدى النظر في مخاصمات الأجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ونحو ذلك ، ولم يكن أحد من الحجاب فيما سلف يتعرض للحكم في شيء من الأمور الشرعية كتداعي الزوجين وأرباب الديون ، وإنما يرجع ذلك إلى قضاة الشرع ، ولقد عهدنا دائما أن الواحد من الكتاب أو الضمان ونحوهم يفر من باب الحاجب ويصير إلى باب أحد القضاة ويستجير بحكم الشرع فلا يطمع أحد بعد ذلك في أخذه من باب القاضي .... » [١] ، ثم ذكر المقريزي التطور الذي حدث بعد ذلك لمهمات الحجاب فقال : « ثم تغير ما هنالك وصار الحاجب اليوم [٢] اسما لعدة جماعة من الأمراء ينتصبون للحكم بين الناس ... وصار الحاجب اليوم يحكم في كل جليل وحقير بين الناس سواء كان الحكم شرعيا أو سياسيا بزعمهم ، وإن تعرض قاض من قضاة الشرع لأخذ غريم من باب الحاجب لم يمكن من ذلك » [٣] ، ثم قال : « وكانت أحكام الحجاب أولا يقال لها حكم السياسة وهي لفظة شيطانية لا يعرف أكثر أهل زمننا اليوم أصلها ، ويتساهلون في التلفظ بها ، ويقولون : هذا الأمر مما لا يمشي في الأحكام الشرعية وإنما هو من حكم السياسة ويحسبونه هينا وهو عند الله عظيم » [٤] ، ثم ذكر المقريزي معنى « الشرع » ومعنى « السياسة » في اللغة ، وأن السياسة نوعان : سياسة عادلة وهي السياسة الشرعية وقد صُنف فيها كتب متعددة ، وسياسة ظالمة ، وأن الشريعة تحرمها . ثم عرض لأصل هذه الكلمة وغلط الذين يظنون أن أصلها كلمة عربية فقال : « وليس ما يقوله أهل زماننا في شيء من هذا ، وإنما هي كلمة فعلية أصلها ياسة ، فحرفها أهل مصر وزادوا بأولها سينا فقالوا سياسة ، وأدخلوا عليها الألف واللام فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية ، وما الأمر فيها إلا ما قلت لك واسمع الآن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت

---

(١) الخطط (٢١٩/٢) .

(٢) توفي المقريزي : تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي سنة ٨٤٥ ، وكان مولده سنة ٧٦٦ هـ ، انظر : اللامع (٢١/٢) ، والبدر الطالع (٧٩/١) ، والأعلام (١٧٧/١) .

(٣) الخطط (٢١٩-٢٢٠) .

(٤) المصدر السابق (ص : ٢٢٠) .

بمصر والشام وذلك أن جنكزخان القائم بدولة التتر في بلاد الشرق لما غلب الملك أونك خان ، وصارت له دولة قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه ياسة ، ومن الناس من يسميه يسق ، والأصل في اسمه ياسة ، ولما تمم وضعه كتب ذلك نقشا في صفائح الفولاذ ، وجعله شريعة لقومه ، فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم ، وكان جنكزخان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض كما تعرف هذا إن كنت أشرفت على أخباره ، فصار الياسة حكما بتا بقي في أعقابه لا يخرجون عن شيء من حكمه » [١] . وقد نقل القلقشندي [٢] عن علاء الدين الجويني [٣] – الذي كان أحد خواص كتبة أرغون زعيم التتار وكان هجوم هولاكو على بغداد في عهده – أنه قال : « ومن عادة بني جنكزخان ؛ أن كل من انتحل منهم مذهبا لم ينكره الآخر عليه » [٤] ، ثم ذكر القلقشندي الياسة فقال : « ثم الذي كان عليه جنكزخان في التدين وجرى عليه أعقابه بعده الجرى على منهاج ياسة التي قررها ، وهي قوانين ضمنها من عقله وقررها من ذهنه ، رتب فيها أحكاما وحدد فيها حدودا ربما وافق القليل منها الشريعة المحمدية وأكثرها مخالف لذلك سماها الياسة الكبرى ، وقد اكتتبها وأمر أن تجعل في خزانته تتوارث عنه في أعقابه وأن يتعلمها صغار أهل بيته » [٥] ، ويقول ابن كثير « وأما كتابه الياسة فإنه يكتب في مجلدين بخط غليظ ، ويحمل على بعير عندهم » [٦] .

---

(١) الخطط (٣٢٠/٢) .

(٢) أحمد بن علي بن أحمد الفزاري ولد سنة ٧٥٦ هـ ، وتوفي سنة ٨٢١ هـ ، الضوء اللامع (٨/٢) ، والأعلام (١٧٧/١) .

(٣) هو : علاء الدين عطا ملك الجويني ، اشتغل هو وأبوه في خدمة المغول ، ولد سنة ٦٢٣ هـ ، وتوفي سنة ٦٨٦ هـ . دولة الإسماعيلية في إيران (ص : ١٢٧–١٣٨) ، والجويني أحد الذين أرخوا للمغول ، وعليه وعلى المؤرخ الآخر رشيد الدين ، إعتمد كثير من المؤرخين في تاريخهم للمغول ، ومنهم ابن كثير في ترجمته لجنكزخان البداية والنهاية (١١٧/١٣) .

(٤) صبح الأعشى (٣١٠/٤) .

(٥) المصدر السابق (٣١٠/٤–٣١١) .

(٦) البداية والنهاية (١١٨/١٣) .

ومن نصوص هذا الياسة : « أن من زنى قتل – ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن – ومن لاط قتل ، ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد ، أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل ، ومن بال في الماء أو على الرماد قتل ، ومن أعطى بضاعة فخسر فيها فإنه يقتل بعد الثالثة ، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل .... وأن من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح .... وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى ... وألزمهم أن لا يدخل أحد منهم يده في الماء ولكنه يتناول الماء بشيء يغترفه ، ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى ، ومنع أن يقال لشيء : إنه نجس ، وقال جميع الأشياء طاهرة ولم يفرق بين طاهر ونجس وألزمهم أن لا يتعصبوا لشيء من المذاهب »[١] ومما يلفت الانتباه أن من ضمن هذا القانون أن السلطان ألزم بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة[٢] .

هذا هو نظام الياسة الذي وضعه زعيم التتار و« لما مات التزم من بعده من أولاده ، وأتباعهم حكم الياسة كالتزام أول المسلمين حكم القرآن ، وجعلوا ذلك دينا لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه »[٣] .

هذه أحوال التتار وأنظمتهم لما هاجموا العالم الإسلامي ، ولكن حدث لهم تطور – أشرنا إليه عند الحديث عنهم – ، وذلك بدخولهم في الإسلام ، وإعلان زعيمهم قازان الإسلام ، ودخل كثير من التتار الإسلام . ولكن صاحب إسلام هؤلاء التتر عدة أمور – مخالفة لما يجب أن يكون عليه المسلم – ومنها :

أ – مهاجمتهم لبلاد المسلمين في الشام وغيره ، ومقاتلتهم ونهب أموالهم وغير ذلك من الفساد .

---

(١) الخطط (٢/٢٢٠-٢٢١) .

(٢) المصدر السابق ، والملاحظ أيضا أنه في آخر العهد العباسي ألغى نظام البريد فكان ذلك من العوامل التي ساعدت على ضعف مقاومة المسلمين للتتار .

(٣) المصدر السابق (٢/٢٢١) .

ب – تعظيم نظامهم الياسق ، وتنفيذ بعض بنوده ولو كانت مخالفة للشريعة الإسلامية .

جـ – تعطيل بعض شرائع الإسلام ، مثل إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والكف عن دماء المسلمين ، وضرب الجزية على اليهود والنصارى ، وغير ذلك .

د – إقرار المنكرات ، مثل أماكن الخمور والزنا ، والسماح للنصارى بتعليق الصلبان ، كما حدث في بيت المقدس والخليل زمن التتار .

ولكنهم مع هذا يعلنون إسلامهم وإقرارهم بالشهادتين ، بل ويزعم قازان في رسائله إلى السلطان الناصر قلاوون أنهم كلهم أهل ملة واحدة ، شرفهم الله بدين الإسلام وأنه دافع عن أهل ماردين الذين هاجمهم بعض جنود المماليك ، وأنه إنما يقاتلهم لما أخذته الحمية الإسلامية ، وفي مرسوم آخر أصدره لما احتل دمشق يتهم فيه حكام مصر والشام بأنهم خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحكام الإسلام (١) .

أمام هذه الأوضاع والدعاوي ، ومع نشوب الحرب بين أهل الشام والتتار وقع الناس في حيرة من هذه المسألة ، كيف يقاتلون التتر وهم يدعون الإسلام ، ويعلنون الشهادتين ؟ ، ولم تقتصر هذه الحيرة على عامة الناس ، بل إن العلماء والفقهاء أيضا وقعوا في حيرة ، واحتاج الأمر إلى وضوح الحكم في هذه المسألة الواقعية ، وبيان الحق فيها ، حتى يسير الناس وهم على الهدى ، فكان ممن انتدب ، وندب نفسه لبيانها شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – وجاء ذلك على محورين :

محور علمي : يبين حكم هؤلاء التتار ، وقد وردت عدة أسئلة وجهت إلى ابن تيمية حول هؤلاء الذين يعلنون الشهادتين ، ويقتلون المسلمين ، ويسبون بعض ذراري المسلمين ويهتكون حرمات الدين من إذلال المسلمين ، وإهانة المساجد لاسيما بيت المقدس .... وادعوا مع ذلك تحريم قتال مقاتلهم

---

(١) انظر : نصوص رسائل قازان إلى الناصر قلاوون وأجوبته عليها في وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي (ص : ٣٨٣-٤٠٣) .

لما زعموا من اتباع أصل الإسلام فهل يجوز قتالهم ؟ وفي سؤال آخر إضافة إلى ما سبق : وما حكم من يكون من عسكرهم من المنتسبين إلى العلم والفقه والفقر والتصوف ونحو ذلك ؟ ومايقال فيمن زعم أنهم مسلمون ، والمقاتلون لهم مسلمون ، وكلاهما ظالم فلا يقاتل مع أحدهما .... أفتونا في ذلك بأجوبة مبسوطة شافية ، فإن أمرهم قد أشكل على كثير من المسلمين ، بل على أكثرهم ، تارة لعدم العلم بأحوالهم ، وتارة لعدم العلم بحكم الله تعالى ورسوله – ﷺ – في مثلهم ، وفي سؤال آخر : سئل عن أجناد يمتنعون عن قتال التتار ، ويقولون : إن فيهم من يخرج مكرها معهم ، وإذا هرب أحدهم هل يتبع أم لا ؟ وفي سؤال سئل عن أموالهم هل أخذها حلال أو حرام ؟ .

وقد أجاب ابن تيمية عن هذه الأسئلة بأجوبة واضحة كل الوضوح ، وبناها على قاعدة في الفتوى عزيزة ، لازمة لكل من يتصدى للفتوى – خاصة في المسائل المستجدة – فقال في أحد الأجوبة : « نعم ، يجب قتال هؤلاء بكتاب الله وسنة رسوله واتفاق أئمة المسلمين ، وهذا مبني على أصلين :

أحدهما : المعرفة بحالهم .

والثاني : معرفة حكم الله في مثلهم .

فأما الأول : فكل من باشر القوم يعلم حالهم ، ومن لم يباشرهم يعلم ذلك بما بلغه من الأخبار المتواترة وأخبار الصادقين ، ونحن نذكر جل أمورهم بعد أن نبين الأصل الآخر الذي يختص بمعرفته أهل العلم بالشريعة الإسلامية فنقول : كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين وإن تكلمت في الشهادتين ، فإذا أقروا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلوات الخمس وجب قتالهم حتى يصلوا ، وإن امتنعوا عن الزكاة وجب قتالهم حتى يؤدوا الزكاة ، وكذلك إن امتنعوا عن صيام شهر رمضان أو حج البيت العتيق ، وكذلك إن امتنعوا عن تحريم الفواحش ، أو الزنا ، أو الميسر ، أو الخمر ، أو غير ذلك من محرمات الشريعة ، وكذلك إن امتنعوا عن الحكم في الدماء والأموال والأعراض والأبضاع ونحوها بحكم الكتاب والسنة ،

وكذلك إن امتنعوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار إلى أن يسلموا ويؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وكذلك إن أظهروا البدع المخالفة للكتاب والسنة واتباع سلف الأمة وأئمتها : مثل أن يظهروا الإلحاد في أسماء الله وآياته ، أو التكذيب بأسماء الله وصفاته ، أو التكذيب بقدره وقضائه ، أو التكذيب بما كان عليه جماعة المسلمين على عهد الخلفاء الراشدين ، أو الطعن في السابقين الأولين ، من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، أو مقاتلة المسلمين حتى يدخلوا في طاعتهم التي توجب الخروج عن شريعة الإسلام ، وأمثال هذه الأمور .... » [١] ، ثم ذكر الأدلة من الكتاب والسنة وفعل الصحابة مع المرتدين والخوارج وغيرهم ، ثم قال : « وأما الأصل الآخر وهو معرفة أحوالهم [أي التتار] فقد علم أن هؤلاء القوم جازوا على الشام في المرة الأولى عام تسعة وتسعين [بعد الستمائة] وأعطوا الناس الأمان وقرأوه على المنبر بدمشق ، ومع هذا فقد سبوا من ذراري المسلمين ما يقال : إنه مئة ألف أو يزيد عليه وفعلوا ببيت المقدس وبجبل الصالحية ونابلس وحمص وداريا وغير ذلك من القتل والسبي ما لا يعلمه إلا الله ، حتى يقال : إنهم سبوا من المسلمين قريبا من مئة ألف ، وجعلوا يفجرون بخيار نساء المسلمين في المساجد وغيرها ، كالمسجد الأقصى والأموي وغيره ، وجعلوا الجامع الذي العقبه دكا ؛ وقد شاهدنا عسكر القوم ، فرأينا جمهورهم لا يصلون ولم نر في معسكرهم مؤذنا ولا إماما ، وقد أخذوا من أموال المسلمين وذراريهم وخربوا من ديارهم ما لا يعلمه إلا الله .... وهم يقاتلون على ملك جنكزخان ، فمن دخل في طاعتهم جعلوه وليًّا لهم ، وإن كان كافرا ، ومن خرج عن ذلك جعلوه عدوا لهم وإن كان من خيار المسلمين ، ولا يقاتلون على الإسلام ولا يضعون الجزية والصغار » [٢] ، ثم بين كيف أنهم يعظمون جنكزخان ويقرنونه بالرسول - ﷺ - ، ويقدسون تعاليمه ، ثم قال : « ومعلوم بالاضطرار من دين الإسلام باتفاق جميع المسلمين أن من سوغ اتباع غير دين الإسلام ،

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٥١٠-٥١١) .
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/٥١٩-٥٢١) .

أو اتباع شريعة غير شريعة محمد – ﷺ – فهو كافر وهو ككفر من أمر ببعض الكتاب وكفر ببعض الكتاب » [١] ، ثم تحدث عن وزرائهم ، وإظهارهم الرفض ، ثم أجاب عن بقية التساؤلات والشبهات [٢] .

هذا هو المحور الأول ، أما المحور الثاني فهو : **المحور العملي** ، وذلك بالحض على جهاد هؤلاء التتار وإعلان جهادهم ، حتى انه ذهب من الشام إلى مصر ليلتقي بالسلطان ومن حوله من الأمراء والوزراء ليحضهم على جهادهم ، وجمع الجيوش لقتالهم ، وكان لابن تيمية في هذا الجهاد والإعداد له ، وقيادة بعض فصائله ما هو مشهور ومسطور وقد أشار إلى هذه المسألة – مسألة شبهة مقاتلة التتار مع ادعائهم الإسلام – ابن كثير – رحمه الله – وهو يعرض لبعض وقائعهم ، فقال عن وقعة « شقحب » : « وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتر من أي قبيل هو ؟ فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام ، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه » ، فقال الشيخ تقي الدين [ابن تيمية] : « هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية ، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما . وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين ، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم ، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة ، فتفطن العلماء والناس لذلك ، وكان يقول للناس : إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني ، فتشجع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم ونياتهم ولله الحمد » [٣] ، وابن كثير يقول لما ذكر الياسة وبعض أحكامه ، « وفي ذلك كله مخالفة لشرائع الله المنزلة على عباده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر ، فكيف بمن تحاكم إلى الياسة وقدمها عليه ؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين » [٤] وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠]

---

(١) المصدر السابق (٢٨/٥٢٤) .
(٢) انظر : مجموع الفتاوى (جـ ٢٨ ، ص : ٥٠١–٥٥٣ ، وص : ٥٨٩) .
(٣) البداية والنهاية (١٤/٢٣–٢٤) .
(٤) البداية والنهاية (١٣/١١٩) .

« ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة من ملكهم جنكزخان ، الذي وضع لهم اليساق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعا متبعا ، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير » [(١)] .

وهكذا أوضح ابن تيمية وتلامذته من بعده حكم هذه المسألة ، وكان الجواب حاسما في بيان الحكم ، وقويا في جهاد هؤلاء التتار وإبعاد خطرهم عن المسلمين .

* * *

وهناك أمر آخر - له علاقة بهذا الموضوع - وجد في عهد المماليك ، ألا وهو إعطاء الامتيازات للأجانب - من النصارى وغيرهم - داخل الدولة الإسلامية ، وكان الباعث على ذلك حرص المماليك على تنشيط التجارة ، وكانت التجارة أكثر ما تكون في ذلك الوقت مع الهند وما جاورها ، ومع أوربا ، وبالأخص الأندلس وإيطاليا ، وقد حرص المماليك على أن يرد التجار ببضائعهم المختلفة وتجاراتهم إلى دولة المماليك ، فقد أصدر المنصور قلاوون بيانا يعلن فيه - بعد مدح ممالك مصر والشام - حسن معاملة من يرد من التجار غير المسلمين والوفاء بالعهود لهم ، كما أوصى بإعادة النظر فى ثغر الإسكندرية وأن يحرص الناظر

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/١٢٢-١٢٣) ، ط الشعب ، وانظر : عمدة التفسير لأحمد شاكر (٤/١٧٣) ، وتعليقه على هذا الموضوع .

– في ضمن مهامه – على معاملة التجار الواردين إليه بالعدل والرفق ، وأن لا يسلك بهم حالة تجلب لهم القلق والتظلم [١] .

وكانت تتم أحيانا معاهدات – مع النصارى – تتضمن ما يتعلق بالأمور التجارية ، وكان حكام المماليك في موقف الأقوى – خاصة بعد نهاية الحروب الصليبية بالشام – ، وفي عهد المنصور قلاوون – في سنة ٦٨٦ هـ – عقد صلح مع ملك أرغون – حاكم برشلونه في الأندلس ، ومع أخيه صاحب صقلية – وكان ضمن هذا الصلح – الذي ينص على حماية كل بلد لتجار ومراكب وسفن البلد الآخر – نص يقول : « وعلى أنه متى كانت بين تجار المسلمين وتجار بلاد الريدراغون [أي ملك أرغون في شرق الأندلس] معاملة في بضائعهم وهم في بلاد مولانا السلطان كان أمرهم محمولا على موجب الشرع الشريف » [٢] .

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، وإنما تعداه – تشجيعا للتجار – إلى إعطائهم كثيرا من الامتيازات ، بحيث جعلت لهم فنادق يسكنون فيها ، وصار لهم قنصل دائم يتحدث باسم الممالك التي ينتمون إليها ، وتطور الأمر إلى ما هو أخطر وذلك بالسماح لهم بإحضار الخمور ليستعملوها هم ، وكذلك يتحاكمون إلى قناصلهم حسب قوانينهم لا حسب الشريعة [٣] .

سابعا : الجوانب العلمية والعقائدية :

إذا كان هذا العصر – عصر المماليك – قد تميز بأنه عصر جهاد ومقاومة لأعداء الإسلام من المغول والصليبيين ، الذين أرادوا أن يحطموا الإسلام وما يحمله من حضارة وعلوم ومعارف كانت محط أنظار العالم أجمع ، وإذا كان المماليك

---

(١) انظر : صبح الأعشى (١١/٤٠–٤٢ ، ٤١٩–٤٢٣) ، وأيضا (١٣/٣٣٩–٣٤٢) .

(٢) تشريف الأيام والعصور (ص : ١٦١) ، وانظر نص الهدنة (ص : ١٥٦–١٦٤) ، وانظر صلحا آخر مشابها مع أهل جنوة (ص : ١٦٥–١٦٩) .

(٣) انظر في هذه القضية : تشريف الأيام والعصور (ص : ٥١) من مقدمة المحقق ، وانظر : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى (ص : ١٣١–١٤٠) ، ودراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب (ص : ١٠٢–١١٩) ، ودولة بني قلاوون (ص : ٣٣٩–٣٤٦) .

قد قاموا بدور عظيم في الجهاد والعناية بكل ما يدعمه وينمي جيوشه وأساطيله ، فلا يعني هذا أن هذه الأمور طغت عليه فلم يتميز بجوانب أخرى .

لقد برزت الناحية العلمية – التي قادها علماء كبار – في شتى التخصصات ، في التفسير والحديث والفقه والتاريخ والتراجم واللغة وغيرها ، كما عني علماء هذا العصر بالتأليف الموسوعي ، وهذه المؤلفات وإن كان يغلب عليها الجمع والنقل عن السابقين ، إلا أنها لا تخلو من بحوث لموضوعات جديدة ، كما أنها حفظت لنا كثيرا من كتب السابقين المفقودة .

لقد برز في هذا العصر أعلام أمثال : النووي والعز بن عبد السلام ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم ، وابن كثير ، وبدر الدين بن جماعة ، كما برز الذهبي والصفدي وابن حجر العسقلاني ، والبدر العيني ، وابن تغري بردي والمقريزي والسيوطي والقلقشندي وغيرهم ممن أصبحت مؤلفاتهم – في العصر الحاضر – من أشهر المؤلفات وأكثرها فائدة للعلماء والباحثين .

ولم يكن العلماء قابعين في بيوتهم للتأليف والجمع فقط وإنما كانوا يقومون بدور كبير في التدريس والقضاء ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد وجد في هذا العصر من كانت له مواقف مشهودة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كالإمام النووي [توفي سنة ٦٧٦ هـ] الذي كتب إلى السلطان الظاهر بيبرس من ضمن ما كتب يقول – في جواب على جواب السلطان الذي يحمل التوبيخ والتهديد – : « وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد ولا أكثر منه ، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان فإني أعتقد أن هذا واجب عليّ وعلى غيري ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى .... » [1] ، أما مواقف العز ابن عبد السلام وشيخ الإسلام ابن تيمية فهي مشهورة .

---

(١) ترجمة النووي للسخاوي (ص : ٤٢) ، وحسن المحاضرة (٢/١٠٠) ، وانظر : تفاصيل موقف النووي ورسائله في هذا الموضوع في المصدرين السابقين ، في ترجمته للسخاوي (ص : ٤٠-٥٥) ، وحسن المحاضرة (٢/٩٧-١٠٥) .

أما الناحية العقدية – في هذا العصر – فلتوضيحها نعرض لأحوال أهل الذمة ثم إلى انتشار التصوف والشركيات ، وأخيرا نعرض إلى انتشار المذهب الأشعري .

أولا : أهل الذمة :

لأهل الذمة أحكام ذكرها العلماء ، وأشهر ما جمع في ذلك ما ورد في الشروط العمرية – نسبة إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – (١) ، ثم لما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – كانت له مواقف من أهل الذمة (٢) ، وقد اهتم العلماء في هذه المسألة وأبرز من اهتم بها وذكر فيها روايات عديدة عبد الرزاق الصنعاني [المتوفي سنة ٢١١ هـ] وذلك ضمن موسوعته الحديثية « المصنف » وسماه « كتاب أهل الكتابين » (٣) ، ولعل سر اهتمامه بذلك كونه عاش في اليمن حيث يوجد هناك بعض اليهود والنصارى .

وقد بقي أهل الذمة في العالم الإسلامي غالبا ما يلتزمون هذه الشروط العمرية – سواء منها ما يتعلق باللباس المميز لهم أو غيره – ، حتى إذا جاء الفاطميون واحتلوا مصر وهم يحملون معهم المذهب الشيعي الغالي المخالف لمذهب جمهور المسلمين السنيين ، ورأوا أنه لا يمكن الاعتماد – كليا – على أهل السنة الموالين للخلافة العباسية ، قرب الخلفاء الفاطميون أهل الذمة من اليهود والنصارى وولوهم مناصب كبيرة في الدولة بلغت أحيانا مرتبة الوزارة ، وقد عمل هؤلاء – حتى ولو كانوا من اليهود – على التسامح مع النصارى وتوظيفهم ، وبناء الكنائس ، وبلغ من تعاطف بعض الخلفاء الفاطميين مع النصارى أن صاروا يحتفلون معهم بأعيادهم الخاصة بهم وقد لقي المسلمون من جراء هذه الأمور

---

(١) انظر : نص هذه الشروط والكلام حول رواياتها ثم شرحها في أحكام أهل الذمة لابن القيم (٦٥٧/٢) وما بعدها . وانظر الأموال لأبي عبيد (ص : ١٢٣) وما بعدها ، وانظر : معالم القربة (ص : ٩٤) ، ونهاية الرتبة (ص : ١٠٦) .

(٢) انظر : سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص : ٨١) ولابن عبد الحكم (ص : ١٤٠) .

(٣) المصنف (١٠/٣١١-٣٧٨) .

أذى ومصاعب كثيرة [١] .

وفي عهد المماليك – صارت الدولة تلزم رؤساء الطوائف بعد تعيينهم أن يلتزموا ويلزموا أتباعهم بالشروط المعروفة على أهل الذمة ، وأن يلتزموا أيضا بالقيود المفروضة عليهم من تميزهم باللباس ، وكانت هذه الأوامر تخف أحيانا بحيث لا يلتزمها أهل الذمة ، ثم إذا طالت المدة – ووجد سبب معين – أعيد الأمر بالتزامها وشدد عليهم في ذلك .

وكان من أبرز المراسيم الصارمة الصادرة في حق أهل الذمة المرسوم الصادر سنة ٧٠٠ هـ – في عهد السلطان الناصر قلاوون – بالزامهم بأحكام أهل الذمة من لباس ومركوب ، وعدم استخدامهم في الوظائف الديوانية ، وكان لنائب السلطان : الجاشنكير دور كبير في ذلك [٢] .

وفي سنة ٧٠٩ هـ لما عاد السلطان محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة ، وأمر بإطلاق ابن تيمية – من السجن – وقدمه – فلما جلس ومعه العلماء والقضاة عرض الوزير [٣] على السلطان أن أهل الذمة قد عرضوا أن يدفعوا للديوان سبعمائة ألف في كل سنة زيادة على الحالية ، على أن يعودوا إلى لبس العمائم البيض – كالمسلمين – فاستشار السلطان العلماء « فقال لهم : ما تقولون ؟ يستفتيهم في ذلك ، فلم يتكلم أحد ، فجثى الشيخ تقي الدين على ركبتيه ، وتكلم مع السلطان في ذلك بكلام غليظ ورد على الوزير ما قاله ردا عنيفا ، وجعل يرفع صوته والسلطان يتلافاه ويسكنه بترفق وتؤدة وتوقير ، وبالغ الشيخ فى الكلام وقال مالا يستطيع أحد أن يقوم بمثله ولا بقريب منه ، وبالغ في التشنيع

---

(١) انظر : الدولة الفاطمية – سرور – (ص : ٨٦) وما بعدها ، وانظر : أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى (ص : ٥١) ، وانظر أيضا : الفاطميون في مصر – حسن إبراهيم حسن (ص : ١٩٩) وما بعدها .

(٢) انظر : صبح الأعشى (٣٧٧/١٣) ، والبداية والنهاية (١٦/١٤) ، والنجوم الزاهرة (١٣٣/٨) ، والسلوك (٩٠٩/١) ، وعلل المقريزي ذلك بزيادة ترف أهل الذمة وركوبهم الخيل المسومة ، ثم ذكر قصة قدوم وزير ملك المغرب ودوره في ذلك وقد أشار إلى دوره كل من القلقشندي وابن تغري بردي ، كما فصل ذلك المقريزي في الخطط (٤٩٨/٢) .

(٣) هو : ابن الخليل – انظر حسن المحاضرة (٣٠٠/٢)

على من يوافق فى ذلك ، وقال للسلطان : حاشاك أن يكون أول مجلس جلسته في أبهة الملك تنصر فيه أهل الذمة لأجل حطام الدنيا الفانية ، فاذكر نعمة الله عليك إذ رد ملكك إليك وكبت عدوك ونصرك على أعدائك » [١] ، ولما كان للجاشنكير – الذي كان نائبا لقلاوون ثم اغتصب السلطنة منه وتولى بدله – دور في صدور قرار إلزام أهل الذمة بشروط عمر – رضي الله عنه – سنة ٧٠٠ هـ قال السلطان قلاوون لابن تيمية لما كلمه بما سبق : إن الجاشنكير هو الذي جدد عليهم ذلك – والجاشنكير كما أنه آذى السلطان وعزله وتولى بدله فقد آذى ابن تيمية أذى شديدا وسجنه – لكن ابن تيمية لم ينظر إلى الأمر من هذه الزاوية وإنما قال للسلطان : « والذي فعله الجاشنكير كان من مراسيمك لأنه إنما كان نائبا لك ، فأعجب السلطان ذلك واستمر بهم على ذلك » [٢] .

وقد وقعت الفتن بين المسلمين والنصارى الذين ضايقهم هدم بعض كنائسهم مما تسببوا في إشعال الحرائق في القاهرة سنة ٧٠٢ هـ ، وسنة ٧٢١ هـ [٣] .

ويبدو أن مثل القضايا في مصر والشام كانت سببا في ظهور المناقشات العلمية حول أحكام أهل الذمة ، وكيف يعاملون ؟ ، وحكم كنائسهم التي كانت موجودة عند الفتح الإسلامي لمصر والشام ، وحكم الكنائس التي أحدثت في أمصار المسلمين ومنها – القاهرة – التي بنيت بعد الفتح الإسلامي بقرون ، وقد أجاب العلماء على مثل هذه الأسئلة : ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية الذي أجاب بعدة فتاوى حول أهل الذمة وإلزامهم الشروط العمرية ، وحكم كنائسهم وهدمها ، وقد بين ذلك بكل قوة ووضوح حتى قال ، وهو يعرض لحكم سبهم للرسول محمد – ﷺ – : « وهنا [٤] الشروط على أهل الذمة حق لله ، لا يجوز للسلطان ولا لغيره أن يأخذ منهم الجزية ويعاهدهم على المقام بدار الإسلام

---

(١) البداية والنهاية (٥٤/١٤) .
(٢) المصدر السابق ، وانظر العقود الدرية (ص : ٢٨١) ، والكواكب الدرية (ص : ١٣٧) .
(٣) انظر : السلوك (٩٤١/١ ، ٢٢٢/٢) ، وحسن المحاضرة (٣٠١/٢) .
(٤) لعل صوابه « وهذه » .

إلا إذا التزموها وإلا وجب عليه قتالهم بنص القرآن » [١] ، فبين أن هذا الأمر ليس السلاطين هم الذين يقررون أن يلزموهم أو لا يلزمونهم ، وإنما هو حق لله تعالى ، كما بين في فتاويه حكم الكنائس التي بنيت في الأمصار التي مصرها المسلمون ، وأنه لا يجوز إبقاؤها بحال [٢] ... ، كما أن ابن القيم – رحمه الله – لما سئل عن حكم أهل الذمة أجاب بجواب طويل جدا – بلغ مجلدين – وأوضح فيه المسألة وبينها بيانا شافياً ذاكرا الأدلة والنصوص وأقوال العلماء [٣] .

ثانيا – انتشار الشركيات والتصوف :

كثرت في هذا العصر مظاهر الشرك ، كما انتشر التصوف ، وبين الشرك والتصوف المنحرف علاقة وطيدة ؛ إذ غالبا ما يكون أهم مظاهر التصوف الشرك وذلك بالغلو في المشايخ والأولياء – الأحياء منهم والأموات – وقد كان أبرز مظاهر الشرك بناء المشاهد على القبور ، وبناء المساجد عليها ؛ بحيث تصبح هذه القبور أماكن للعبادة والتقرب إلى الله بشتى أنواع القرب فيأتيها الناس مستشفعين بهؤلاء الأموات ، طالبين منهم قضاء الحاجات وكشف الكربات ويرجع نشأة بناء المشاهد والأضرحة إلى الرافضة ، فمن المعلوم أنه لم يكن في أول الإسلام حتى أوائل العهد العباسي شيء من هذه المظاهر بارزاً ، فلما جاءت دولة العبيديين – الفاطميين – في المغرب ثم فى مصر ، ثم جاءت دولة بنى بويه في العراق – وكلهم رافضة – نشأت هذه الظاهرة الشركية في العراق ومصر وغيرهما ، ولما كان هؤلاء الرافضة ليس لهم هم إلا إفساد دين الإسلام وحرب أهله – أهل السنة –

---

(١) الصارم المسلول (ص : ٢١٣) .

(٢) انظر فتاوى ابن تيمية في : مجموع الفتاوى (٦٣٢/٢٨) وما بعدها ، وأحكام أهل الذمة (٦٧٧/٢) حيث نقل فتوى له أخرى بنصها كما كان لابن تيمية مناقشات للنصارى ، انظر الجواب الصحيح (١٧٢/٢) ، ومجموع الفتاوى (٣٧٠/١) وترجمته بقلم خادمه (ص : ٢٣) .

(٣) وهو كتاب أحكام أهل الذمة وقد حققه الدكتور صبحي الصالح – رحمه الله – وكتب له مقدمة طويلة – بروح انهزامية غربية – فهل كان متأثرا بالوضع الطائفي في لبنان وهو من أهله ، أم كان متأثرا بحضارة العصر – حضارة هيئة الأمم المتحدة – ومع ذلك فمن المحزن المبكي أن الكتاب صدر بمقدمة صبحي الصالح سنة ١٣٨١ هـ ، ثم أعيدت طباعته سنة ١٤٠١ هـ ، وفي هذا العام ١٤٠٧ هـ اغتيل صبحي الصالح في لبنان في حمى الصراع الطائفي .

عنوا بمثل هذه الأمور فبنوا الأضرحة وضخموها وعظموها ودعوا الناس لزيارتها ودعائها حتى صارت هذه المشاهد تعظم وتزار ويبذل لها أكثر من زيارة بيت الله الحرام وأداء فريضة الحج .

والنصارى – بوثنيتهم وتقديسهم للصور والتماثيل والقبور – لهم أثرهم على من يلقونه من جهال المسلمين ممن يخالطهم ويسمع كلامهم ، ولذلك لما ظهرت دولة العبيديين في مصر قدم النصارى إلى الشام واستوطنوا ثغوره وأمصاره .

وهكذا تلتقي هذه الطوائف الثلاث : النصارى ، والرافضة والمتصوفة ، في هذا الإنحراف الخطير المتمثل في أنواع من الشرك بالله – بمظاهره العديدة التي لا تزال أكثر أقطار العالم الإسلامي تعاني منه ومن آثاره [١] .

جاء عهد المماليك وكثير من هذه المشاهد والأضرحة موجودة ، قبور بني عبيد ، وقبر الشافعي ، وقبر الحسن – الذي بناه بنو عبيد – وغيرها ، فلم يحرك السلاطين ساكنا ، بل الأمر على العكس أخذوا يبنون لأنفسهم ولأقاربهم الأضرحة والقبب وتفننوا فيها بحيث جعلوا عليها مساجد ومدارس ، يأتيها العلماء وطلاب العلم وتلقى فيها الدروس المنتظمة ، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة ، فالظاهر بيبرس [توفي سنة ٦٧٦ هـ] بنى على قبر أبي عبيدة – رضي الله عنه – مشهدا ، وجدد قبة الخليل عليه السلام ، كما وسع مشهد جعفر الطيار ، وعمر تربة لزوجته [٢] ، والمنصور قلاوون – ت ٦٨٩ هـ – بنى في سنة ٦٨٣ هـ تربة على قبر والدة السلطان الملك الصالح بن المنصور قلاوون [٣] .

أما أشهر المدارس فهي المدرسة المنصورية ، وقد وضع فيها قبة سميت القبة المنصورية وفيها قبر المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد ، وهي من أكبر القباب وأشهرها ، وصارت معظمة عند المماليك إلى حد أن السلطان إذا أمّر أحدا

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى (١٦٧/٢٧ ، ٤٦٠-٤٦١،٤٦٦) .

(٢) انظر : فوات الوفيات (٢٤٣/١،٢٤٤) ، والبداية والنهاية (٢٧٦/١٣) ، والظاهر بيبرس (ص : ١٦٠-١٦١) ، ومملكة صفد (ص : ٢٦٣) .

(٣) انظر : تشريف الأيام والعصور (ص : ٥٥) .

من أمراء الشام أو مصر ، فإن الأمير الجديد ينزل من قلعة الجبل إلى القبة المنصورية ثم يحلف عند القبر المذكور ويحضر تحليفه صاحب الحجاب [١] . وتليها المدرسة الناصرية التي بناها الناصر قلاوون وبنى فيها قبة دفن والدته وأحد أولاده [٢] . ولما انتصر قلاوون سنة ٧٠٢ هـ في وقعة شقحب وقدم إلى مصر كان أول عمل عمله أن زار قبر والده – في ضريحه – والقراء يقرؤون القرآن عند القبر [٣] .

أما على المستوى العام فقد انتشر عند الناس تعظيم القبور والسفر لزيارتها ، كما شاع عندهم تعظيم بعض الأماكن التي تنسب – كذبا – إلى نبي أو ولي ، ففي دمشق كانت هناك صخرة عند مسجد التاريخ يعظمها الناس ويقبلونها ، ويزعمون أن فيها أثر قدم النبي – ﷺ – ، كما كان هناك عند الباب الصغير العمود المخلق يتبرك به الناس وقد هدمهما ابن تيمية – رحمه الله تعالى – [٤] .

أما موقف أكثر العلماء من هذه الشركيات فكان أحسن أحواله السكوت عنها – خاصة وأن كثيرا ممن تولى القضاء كانوا يميلون إلى التصوف – ويرون السفر لزيارة القبور ، وهؤلاء هم الذين وقفوا ضد فتاوى ورسائل ابن تيمية حول هذه المسائل حتى سجن ومات فيه .

أما موقف ابن تيمية من هذه الشركيات فقد كان موقفا عظيما ، وقد قام على ثلاثة محاور :

الأول : بيان حقيقة هذه المشاهد ، وأن الكثير منها كذب ، وليست قبورا لمن نسبت إليه [٥] .

---

(١) انظر : الخطط (٣٨٠/٢–٣٨١) ، والسلوك ، ملاحق (٩٩٧/١–١٠٠١) ، وكان الأمراء قبل ذلك يحلفون عند القبة فى المدرسة الصالحية . انظر : الخطط (٣٧٤/٢، ٣٨٠) .

(٢) انظر : الخطط (٣٨٢/٢) ، والسلوك – ملاحق – (١٠٤٠/١–١٠٥٠) .

(٣) انظر : السلوك – ملاحق – (١٠٣٨/١–١٠٣٩) .

(٤) انظر : ترجمة ابن تيمية بقلم خادمه (ص : ١٠–١١) ، والسلوك (٨/٢–٩) ، وبدائع الزهور (٤١٧/١) ، والبداية والنهاية (٣٤/١٤) .

(٥) انظر : كتاب رأس الحسين ، ومجموع الفتاوي (٥٠٠/١٧ ، ١٧٣/٢٧) ، وأيضا (٦١/٢٧) حول قبر نوح .

الثاني : البيان العلمي من خلال المناقشات المباشرة ، ومن خلال المؤلفات والرسائل ، وبيان ما فيها من بدع وشرك ومناقشة أقوال المخالفين .

الثالث : الناحية العملية وذلك بإزالة هذه الأماكن الشركية ومنع المتلبسين بشيء منها [١] .

أما التصوف فيعتبر هذا العصر - القرن السابع والثامن - العصر الذهبي له ، ولعل الضعف والتفرق الذي أصاب العالم الإسلامي قبل ذلك ، والحروب الصليبية التي صدمت المسلمين نفسيا قبل أن تصدمهم عسكريا ، كانت من أسباب انتشاره في هذا العصر .

والتطور الذي حدث للتصوف في هذا العصر تطور خطير ، إذ أنه تحول من تصوف فردي في الغالب يقوم على جهود الأفراد واتباعهم إلى تصوف منظم ، له مدارسه التي يبنيها الحكام وغيرهم وتهيأ لهذه المدارس والأماكن كل ما يحتاجه ساكنو هذه المدارس ومرتادوها ، ولا تنقطع بموت الشيخ أو الصوفي وإنما يتوارثها من بعده ممن اشتهروا وزعم الناس فيهم الولاية وشاعت لهم الكرامة .

وقد برز التصوف من خلال ما يلي :

أ - بناء الخوانق والربط والزوايا [٢] ، وقد انتشرت انتشارا عظيما في عصر الأيوبيين والمماليك ، ومن المحزن حقا ما ذكره بعض الكتاب من أن أول خانقاه بنيت في الشام كانت برملة بيت المقدس بناها أمير النصارى حين استولى

---

(١) انظر : نماذج من ذلك في ترجمته بقلم خادمه (ص : ٦-٢٤) .

(٢) الخانقاه : كلمة فارسية وتنطق أحيانا خانكاه ، ومعناها بيت ، ثم جعلت علما على المكان الذي يتخلى فيه الصوفية لعبادة الله تعالى ، انظر الخطط (٤١٤/٢) ، ومنادمة الأطلال (ص : ٢٧٢) .

والربط : جمع رباط وأصله المكان الذي يرابط فيه المجاهدون في سبيل الله في الثغور ، ثم بعد ذلك استخدم علما على بيت الصوفية ومنزلهم . انظر : عوارف العوارف (٢٦١/١ -٢٨١) ، والخطط (٤٢٧/٢) .

والزوايا : جمع زاوية ، وهي المكان الذي يخصصه شخص ما للعبادة ويختلي فيه ويأتيه فيه بعض مريديه . انظر منادمة الأطلال (ص : ٢٩٩) .

والفرق بينهما : أن الخانقاه على شكل مدرسة يعين لها شيخ وفيها مدرسون فلا يدخلها إلا من قبل فيه ، أما الربط : فهي لفقراء الصوفية ، أما الزاوية : فهي برسم شخص معين . انظر المجتمع الإسلامي في بلاد الشام (ص : ١٥٥) .

الفرنج على القدس ، وأنه رأى طائفة من الصوفية فأعجبه ما بينهم من ألفه ومحبة – ولعله لمس أن فيها شبها من رهبنة النصارى – فسألهم عن حالهم فأخبروه ، فقال لهم : أبني لكم مكانا لطيفا تتآلفون فيه وتتعبدون ، فبنى لهم تلك الخانقاه ثم انتشرت بعد ذلك [(١)] وفي القرن السادس والسابع كثر بناء الخوانق والربط ، فانتشرت في مصر والشام بحيث أصبحت أماكن معروفة ومشهورة يرتادها الصوفية من كل مكان ويتلقون فيها – إضافة إلى دروس العلماء وممارسة العبادات والأوراد الصوفية – وكافة ما يحتاجونه من مطعم ومشرب ومأوى وأموال تصرف لهم أحيانا ، حتى أصبحت لها امتيازات ليست لغيرها – بسبب الأموال والأوقاف الكثيرة التي تجلب لها – [(٢)] .

ب – عاش في هذا العصر طائفة من كبار الصوفية الذين كان لهم أتباع ومريدون ولا شك أن وجود هؤلاء في أماكن مختلفة يؤدى إلى أن يصبح التصوف ظاهرة اجتماعية حيثما حل الإنسان في بلد يجد هذه الفئات المتزهدة المظهرة للفقر والحاجة ، ومن أهم رجال التصوف المشهورين في هذا العصر :

١ – ابن عربي محيي الدين محمد بن علي بن محمد ، توفي سنة ٦٣٨ هـ .
٢ – ابن الفارض ، عمر بن علي بن مرشد الحموي ، توفي سنة ٦٣٢ هـ .
٣ – أبو الحسن الشاذلي ، علي بن عبد الله بن عبد الجبار ، توفي سنة ٦٥٦ هـ .
٤ – أبو القاسم بن منصور بن يحيى المالكي الأسكندري المعروف بالقبّاري ، توفي سنة ٦٦٢ هـ .
٥ – خضر بن أبي بكر المهراني ، كان الظاهر بيبرس يعتقد فيه ويخضع له ، توفي سنة ٦٧٦ هـ .
٦ – أحمد البدوي ، أحمد بن علي بن إبراهيم القدسي الملثم ، توفي سنة ٦٧٥ هـ .
٧ – التلمساني المرسي ، محمد بن موسى بن النعمان ، توفي سنة ٦٨٦ هـ .

---

(١) انظر : خطط الشام (١٣٠/٦) ، والمجتمع الإسلامي في بلاد الشام (ص : ١٥١) .
(٢) انظر : حصراً بأسماء هذه الخوانق والربط والزوايا في مصر والشام : خطط المقريزي (٤١٤/٢–٤٣٦) ، ومنادمة الأطلال (ص : ٢٧٢–٣١٦) ، وحسن المحاضرة (٢٦٥/٢–٢٦٧،٢٧٣) ، والمجتمع الإسلامي في بلاد الشام (ص : ١٥٠–١٥٥) ، وخطط الشام (١٣٠/٦–١٥٥) .

٨ - أبو العباس المرسي ، أحمد بن عمر الأنصاري ، توفي سنة ٦٨٦ هـ .
٩ - نصر بن سلمان المنبجي ، أبو الفتح ، توفي سنة ٧١٩ هـ .
١٠ - أبو الحسن الششتري ، علي بن عبد الله ، توفي سنة ٦٦٨ هـ .
١١ - ابن عطاء السكندري : أحمد بن محمد بن عبد الكريم ، توفي سنة ٧٠٩ هـ [١] .

جـ - ادعاء الكرامة وظهور السحر والشعوذة والأحوال الشيطانية ، ونسبتها إلى الأولياء والصلحاء أو من يدعون أنهم منهم ، ومذهب أهل السنة في الكرامة معروف وهو إثباتها إذا جاءت على يد الصالح المتمسك بالكتاب والسنة وليست دليلا على الولاية ، أما الكثير من الكرامات الذي وجد في هذا العصر فقد كان يأتي على يد الدجالين والمنحرفين ، أو أنها تنسب إلى الصلحاء ولكنها أحوال شيطانية تقع لمن يعتقد فيهم من عامة الناس اعتقادا قد يؤدي إلى الشرك بالله تعالى .

ولقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمية مع كثير من هؤلاء وأتباعهم صولات وجولات فبين الحق في هذه الأمور وفضح أصحابها وبين المداخل الشيطانية لهؤلاء ، ووضع أصولا للفرق بين أولياء الرحمـٰن وأولياء الشيطان . وقد حكى في مناسبات كثيرة من كتبه قصصا شاهدها أو رواها له الثقات عن كثير ممن يدعي أو يدعىٰ له الولاية والكرامة وبين كيف تجيء الشياطين وتصنع هذه الأمور الخارقة فيظن من شاهدها أو وقعت له أنها كرامة وليست كذلك .

فمما ذكره وقد سئل عن الحلاج - المقتول على الكفر والزندقة سنة ٣٠٩ هـ - فبين حاله وأحواله الشيطانية ثم قال : « ومثل هذا يحدث كثيرا لغير الحلاج ممن له حال شيطاني ، ونحن نعرف كثيرا من هؤلاء في زماننا وغير زماننا مثل شخص هو الآن بدمشق كان الشيطان يحمله من جبل الصالحية إلى قرية حول دمشق ، فيجيء من الهواء إلى طاقة البيت الذي فيه الناس فيدخل وهم يرونه ،

---

(١) انظر : حسن المحاضرة (١/٥١٨-٥٢٤) ، وانظر : الطرق الصوفية في مصر ، عامر النجار (ص : ١٣٦-١٤٠) .

ويجيء بالليل إلى باب الصغير [أحد أبواب دمشق] فيعبر منه هو ورفيقه ، وهو من أفجر الناس . وآخر كان بالشويك (١) من قرية يقال لها الشاهدة يطير في الهواء إلى رأس الجبل والناس يرونه ، وكان شيطانه يحمله وكان يقطع الطريق ، وأكثرهم شيوخ الشر .... وشيخ آخر أخبرني نفسه أنه كان يزني بالنساء ويتلوط بالصبيان الذين يقال لهم الحوارات ، وكان يقول يأتيني كلب أسود بين عيينه نكتتان بيضاوان فيقول لي : فلان ابن فلان نذر لك نذرا وغدا نأتيك به ... فلما تاب هذا الشيخ وصار يصلي ويصوم ويجتنب المحارم ذهب الكلب الأسود ... وشيخ آخر كان له شياطين يرسلهم يصرعون بعض الناس فيأتي أهل ذلك المصروع إلى الشيخ يطلبون منه إبراءه ، فيرسل إلى أتباعه فيفارقون ذلك المصروع ، ويعطون ذلك الشيخ دراهم كثيرة ، وكان أحيانا تأتيه الجن بدراهم وطعام تسرقه من الناس .... وآخر كان مشتغلا بالعلم والقراءة فجاءته الشياطين أغوته وقالوا له : نحن نسقط عنك الصلاة ونحضر لك ما تريد ، فكانوا يأتونه بالحلوى والفاكهة ، حتى حضر عند بعض الشيوخ العارفين بالسنة فاستتابه ، وأعطى أهل الحلاوة ثمن حلاوتهم التي أكلها ذلك المفتون بالشيطان ... » (٢) .

بل إن ابن تيمية نفسه تعرض لمثل هذا فتمثلت بشخصه الشياطين وأغاثوا أقواما فجاءوا يخبرونه بما وقع لهم ، يقول : « ذكر غير واحد أنه استغاث بي من بلاد بعيدة وأنه رآني قد جئته ، ومنهم من قال : رأيتك راكبا بثيابك وصورتك ، ومنهم من قال : رأيتك على جبل ، ومنهم من قال غير ذلك ، فأخبرتهم أني لم أغثهم ، وإنما ذلك شيطان تصور بصورتي ليضلهم لما أشركوا بالله ودعوا غير الله » (٣) . ويقول : « وأعرف من ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي ، وبغيري في حال غيبتنا عنهم ، فرأوني أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به

---

(١) الشويك ، قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمّان وإيله ، قرب الكرك ، معجم البلدان (٣٧٠/٣) .

(٢) جامع الرسائل – ت رشاد سالم – (١٩٢/١–١٩٤) .

(٣) الجواب الصحيح (٣١٩/١–٣٢٠) .

قد جئنا في الهواء ورفعنا عنهم ، ولما حدثوني بذلك بينت لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ فتقوى عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين ، وهذا من أكبر الأسباب التي بها أشرك المشركون وعبدة الأوثان » [١] ، وقد ذكر واقعة غريبة له وهو في السجن بمصر ، قال : « كما جرى مثل هذا لي ، كنت في مصر في قلعتها ، وجرى مثل هذا إلى كثير [٢] من الترك من ناحية المشرق ، وقال له ذلك الشخص : أنا ابن تيمية ، فلم يشك ذلك الأمير أني أنا هو ، وأخبر بذلك ملك ماردين [٣] وأرسل بذلك ملك ماردين إلى ملك مصر رسولا ، وكنت في الحبس فاستعظموا ذلك وأنا لم أخرج من الحبس ، ولكن كان هذا جنيا يحبنا فيصنع بالترك التتر مثل ما كنت أصنع بهم لما جاءوا إلى دمشق ، كنت أدعوهم إلى الإسلام فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أطعمتهم ماتيسر ، فعمل معهم مثل ما كنت أعمل ، وأراد بذلك إكرامي ليظن ذلك أني أنا الذي فعلت ذلك . قال لي طائفة من الناس : فلم لا يجوز أن يكون ملكا ؟ ، قلت : لا ، إن الملك لا يكذب وهذا قد قال : أنا ابن تيمية وهو يعلم أنه كاذب في ذلك [٤] .

والتصوف لم يقتصر على هذه الأمور ، وإنما كان تصوفا يؤول في الغالب إلى الغلو من الوحدة والاتحاد والحلول ، والوقوع في الشركيات بأنواعها ، وتعظيم الملاحدة وتصحيح أقوالهم وكفرياتهم . وقد واجه ابن تيمية من هؤلاء أعدادا

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص : ١٥٤-١٥٥) ، ط المكتب الإسلامي .

(٢) هكذا في طبعة الفرقان الموجودة في مجموع الفتاوى (٩٢/١٣) ، وطبعة دار البيان المفردة ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط (ص : ٦١) ، وفي طبعة دار إحياء العلوم ، تحقيق : حسين يوسف غزال (ص : ١١٧) كتب الكلمة : « كبير » بدل كثير ، وهو لم يعتمد على نسخة خطية ، لكن لعله هو الصواب .

(٣) ماردين ، بكسر الراء والدال ، قلعة مشهورة بعمل الموصل في الجزيرة قريبة من دارا ، وهي من أحسن القلاع وأعظمها . فتوح البلدان (٣٩/٥) ، والروض المعطار (٥١٨) ، وملك ماردين المشار إليه هو الملك المنصور نجم الدين غازي الأرتقي تولى ماردين (٦٩٣ هـ - ٧١٢ هـ) ، انظر : تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة (٣٥٣/٢) ، وانظر : الأمارات الأرتقية : عماد الدين خليل (ص : ٣٥٢) .

(٤) الفرقان بين الحق والباطل - مجموع الفتاوى (٩٢/١٣-٩٣) ، وانظر جامع الرسائل (١٩٥/١) .

كثيرة ، وتوب بعض زعمائهم ، وقتل بعضهم [١] .

وإذا كان وجود مثل هذه النوعيات خطيرا على الأمة وعقائدها ، فأخطر منه أن يتبع هؤلاء المتصوفة المنحرفين بعض العلماء والقضاة الذين يقتدى بهم ، وهذا يعطي صورة للمستوى الذي وصل إليه التصوف في هذا العصر ، يقول ابن تيمية في بيان حكم طلب الحاجات في القبور والاستغاثة بها : « والاستغاثة بالميت والغائب سواء كان نبيا أو وليا ليس مشروعا ولا هو من صالح الأعمال ، إذ لو كان مشروعا أو حسنا من العمل لكانوا به أعلم وإليه أسبق ، ولم يصح عن أحد من السلف أنه فعل ذلك ، فكلام هؤلاء يقتضي جواز سؤال الميت والغائب ، وقد وقع دعاء الأموات والغائبين لكثير من جهال الفقهاء والمفتين حتى لأقوام فيهم زهد وعبادة ودين ترى أحدهم يستغيث بمن يحسن به الظن حيا كان أو ميتا ، وكثير منهم تتمثل له صورة المستغاث به وتخاطبه وتقضي بعض حوائجه وتخبره ببعض الأمور الغائبة ، ويظن الغير أنه المستغاث به أو أن ملكا جاء على صورته وإنما هي شياطين تمثلت له به وخيالات باطلة فتراه يأتي قبر من يحسن به الظن إن كان ميتا فيقول : أنا في حسبك أنا في جوارك أنا في جاهك قد أصابني كذا وجرى عليّ كذا ، ومقصوده قضاء حاجته إما عن الميت أو به ، ومنهم من يقول للميت : اقض ديني واغفر ذنبي وتب عليّ ، ومنهم من يقول : سل لي ربك ، ومنهم من يذكر ذلك في نظمه ونثره ، ومنهم من يقول : يا سيدي الشيخ فلان أو يا سيدي يا رسول الله نشكو إليك ما أصابنا من العدو وما نزل بنا من المرض وما حل بنا من البلاء ، ومنهم من يظن أن الرسول أو الشيخ يعلم ذنوبه وحوائجه وإن لم يذكرها وأنه يقدر على غفرانها وقضاء حوائجه ، ويقدر على ما يقدر عليه الله ويعلم ما يعلمه الله ، وهؤلاء قد رأيتهم وسمعت هذا منهم ومن شيوخ يقتدى بهم ومفتين وقضاة ومدرسين » [٢] . ويقول : « وكان بعض الشيوخ الذين أعرفهم وله فضل وعلم وزهد إذا نزل به أمر خطا جهة الشيخ عبد القادر خطوات معدودات واستغاث به » [٣] . ويذكر أنه لما قدم مصر سأل

---

(١) انظر : جامع الرسائل (١/١٩٥-١٩٦) .

(٢) تلخيص الاستغاثة (١/٢٩-٣٠) .

(٣) الاستغاثة – الجزء الثاني من المصدر السابق نص الاستغاثة وليس تلخيصا (٢/٢٥٠-٢٥١) .

بعض ولاة الأمر قاضي القضاة عن فرعون « فقال : ما في القرآن ما يدل على أنه كان كافرا ، ومعلوم أن دخول فرعون النار معلوم بالاضطرار من المسلمين واليهود والنصارى .... » (١) . ووصل الأمر بكثير من الناس أنه لما هاجم التتار بلاد الشام خرجوا يستغيثون بالموتى عند القبور التي يرجون عندها كشف ضرهم .... وقال بعض الشعراء :

يا خائفين من التتر   لوذوا بقبر أبي عمر

فصار ابن تيمية يأمر الناس بإخلاص الدين لله عز وجل وأن لا يستغيثوا بغيره . « فلما أصلح الناس أمورهم وصدقوا في الاستغاثة بربهم نصرهم على عدوهم نصرا عزيزا »(٢) .

ثالثا : المذهب الأشعري :

انتشر المذهب الأشعري – في تطوره العقدي – في القرن الرابع والخامس ، ولما جاء عهد الأيوبيين – وعلى رأسهم صلاح الدين الأيوبي – تبنوا المذهب الأشعري ، وقربوا علماء الأشاعرة ، وصلاح الدين نشأ على هذا المذهب ؛ فقد حفظ « في صباه عقيدة ألفهاله قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري (٣) ، وصار يحفظها صغار أولاده فلذلك عقدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعري ، وحملوا في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه فتمادي الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بني أيوب ثم في أيام مواليهم الملوك من الأتراك » (٤) ، ولما تولى صلاح الدين حكم مصر ولّى على القضاء صاحبه صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس الماراني (٥) ، الذي ألف « رسالة في الذب

---

(١) نقض التأسيس المخطوط (٢٧٠/٢) .

(٢) الاستغاثة (٢٧٦/٢–٢٧٧) .

(٣) ولد سنة : ٥٠٥ هـ ، وتوفي سنة : ٥٧٨ هـ ، رأى أبا نصر القشيري ، ودرس بالمدرسة النظامية في نيسابور نيابة عن الجويني ، كما درس في دمشق وحلب ، انظر : وفيات الأعيان (١٩٦/٥) ، وطبقات السبكي (٢٩٧/٧) ، والنجوم الزاهرة (٩٤/٦) ، وطبقات الأسنوي (٤٩٨/٢) .

(٤) الخطط للمقريزي (٣٥٨/٢) .

(٥) ولد سنة ٥١٦ هـ ، وتوفي سنة ٦٠٥ هـ ، انظر التكملة للمنذري (١٥٦/٢) ، =

عن أبي الحسن الأشعري » [١] .

ولما جاء عهد المماليك استمر تبنيهم لهذا المذهب من خلال توليه القضاء لأئمة الشافعية والمالكية الذين كانوا يلتزمون المذهب الأشعري ، ومما يلاحظ – في هذا العصر – أن المذهب الأشعري صار تبنيه بيد من بيده السلطة من العلماء إلى الحد الذى يستنكر معه أشد الاستنكار أن يقوم أحد بمخالفته ويجاهر في رده ونقض أصوله . ولعل ما حدث لابن تيمية من محن كانت مع الأشاعرة دليل على ذلك .

وسنعرض – إن شاء الله – عند الحديث عن المذهب الأشعري وتطوره تفصيلات أخرى لهذا الموضوع .

وبعد فهذا عرض لعصر ابن تيمية ، وأحواله السياسية والعقائدية وهو إن كان فيه نوع من الإطالة إلا أنه سيساعد – بعون الله – على إدراك خلفيات هذا العصر الذي هو كالقنطرة بين عصرنا هذا والعصور السابقة ، وكثير ممن ترجم لابن تيمية مر عليها مرورا سريعا ، ولما كان موقف ابن تيمية من الأشاعرة – وغيرهم ممن كان له انحراف عن طريق السلف – موقفا بارزاً وسمة واضحة من سمات هذا العصر ، بحيث تحول إلى مدرسة كبرى في العالم الإسلامي لها أتباع ومؤيدون ، واستمرت هذه المدرسة تخرج العلماء والمؤلفات والدراسات الداعية إلى العودة إلى مذهب السلف أهل السنة والجماعة ولما كان الأمر بهذا المستوى كان لابد من عرض مركز لأحوال هذا العصر وخلفيته .

* * *

= والبداية والنهاية (٥٢/١٣) ، والعبر (١٣٩/٣) ، وسير أعلام النبلاء (٤٧٤/٢١) وحسن المحاضرة (٤٠٨/١) .

(١) طبعت في الهند مع مجموعة الرسائل السبعة في العقائد ، وقد حققها علي ناصر فقيهي وطبعها مع كتاب الأربعين في دلائل التوحيد للهروي ، وقد أخطأ المحقق في ترجمة ابن درباس فوضع في حاشية (ص : ١٠٧) ترجمة ابنه محمد بن عبد الملك المتوفي سنة : ٦٥٩ هـ ، على أنها ترجمة المؤلف للرسالة ، كما وضع تاريخ ميلاده ووفاته على الغلاف ، وهو وهم . وعبد الملك بن درباس الأب مؤلف الرسالة في الذب عن الأشعري . كان صاحبا وقاضيا لصلاح الدين الأيوبي ، وقد توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ .

المبحث الثاني
حياة ابن تيمية وآثاره

أولا : اسمه ونسبه ومولده :

هو شيخ الإسلام ، تقي الدين أبو العباس ، أحمد ابن العلامة شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم بن الشيخ الإمام شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام ابن أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر ، ابن علي ، بن عبد الله ، بن تيمية الحراني (١) .

ولد شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٢) بحران (٣) يوم الاثنين عاشر – أو ثاني عشر – ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ ، وسافر به والده مع والدته واخوته بسبب

---

(١) انظر في ترجمة ابن تيمية : العقود الدرية ، والبداية والنهاية (٢٤١/١٣) ، وما بعدها ، والأعلام العلية للبزار (ص : ١٦) وما بعدها ، وذيول العبر (ص : ٨٤) ، وتذكرة الحفاظ (١٤٩٦/٤) ، وتتمة المختصر لابن الوردي (٤٠٦/٢) ، والوافي للصفدي (١٥/٧) ، وأعيان العصر عن شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين للمنجد (ص : ٤٩) ، وفوات الوفيات (٧٤/١) ، والدرر الكامنة (١٥٤/١) ، وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص : ٥١٦) ، ودرة الحجال (٣٠/١) ، وتذكرة النبيه (١٨٥/٢) ، وشذرات الذهب (٨٠/٦) ، والكواكب الدرية (ص : ٥١) ، والشهادة الزكية والرد الوافر ، وطبقات المفسرين للداودي (٤٥/١) ، وذيل طبقات الحنابلة (٣٨٧/٢) ، والسلوك (٣٠٤/٢) ، والنجوم الزاهرة (٢٧١/٩) ، والمنهل الصافي ط الثانية (٣٥٨/١) ، والدليل الشافي (٥٦/١) ، والبدر الطالع (٦٣/١) ، وفهرس الفهارس (٢٧٤/١) ، أما الكتب المعاصرة فكثيرة جدا .

(٢) سبب تلقيبه بابن تيمية : أن جده محمد بن الخضر – أو من فوقه – حج على درب تيماء ، فرأى جارية خرجت من خباء فلما رجع وجد زوجته ولدت بنتا فرفعوها إليه فقال : يا تيمية ، يا تيمية أي إنها تشبه تلك الجارية التي رآها بتيماء ، وقيل : إن جده محمدا كانت أمه تسمى تيمية فنسب إليها ، العقود الدرية (ص : ٢) ، وتاريخ أربل (٩٧/١) ، وسير أعلام النبلاء (٢٨٩/٢٢) .

(٣) « حران » بتشديد الراء ، بلدة في الجزيرة – بين الشام والعراق ، وحران مدينة قديمة بين الرها والرقة وهذه هي التي ينسب إليها ابن تيمية ، وهناك حران من قرى حلب ، وحران قرية بغوطة دمشق – وأخطأ من نسبه إليها ، انظر معجم البلدان (٢٣٥/٢) ، ومراصد (٣٨٩/١) ، ومعجم ما استعجم (٤٣٥/١) ، وأحسن التقاسيم (ص : ١٤١) ، والروض المعطار (ص : ١٩١) ، والأنساب للسمعاني (ص : ٩٦/٤) ، ومختصر كتاب البلدان (ص : ١٣٢) .

أوضاع ديار بني بكر وما حولها – ومنها حران – التي كانت أحوالها سيئة بعد استيلاء التتر عليها [١] ، فوصلوا إلى دمشق سنة ٦٦٧ هـ واستوطنوها [٢] .

وقد اشتهرت عائلته بالعلم والمكانة ، فجده مجد الدين عبد السلام بن عبد الله من العلماء الأعلام ، قال عنه الذهبي : « كان إماما كاملا ، معدوم النظير في زمانه ، رأسا في الفقه وأصوله بارعا في الحديث ومعانيه ، وله اليد الطولى في معرفة القراءات والتفسير » [٣] ، وذكر تقي الدين أبو العباس أن جمال الدين ابن مالك [٤] كان يقول : ألين للشيخ المجد الفقه كما ألين لداود الحديد [٥] . ولد المجد سنة ٥٩٠ هـ ؛ وتوفي سنة ٦٥٢ هـ [٦] ، أما والد تقي الدين فهو الشهاب عبد الحليم بن عبد السلام ، ولد سنة ٦٢٧ هـ ، وتوفي سنة ٦٨٢ هـ قال عنه الذهبي : « ذو الفنون .... صار شيخ حران وحاكمها وخطيبها بعد موت والده » [٧] . وقال ابن كثير : « مفتي الفرق ، الفارق بين الفرق ، كان له فضيلة حسنة ، ولديه فضائل كثيرة » [٨] . وقال ابن شاكر الكتبي : « كان إماما في التفسير مبرزا في المذهب والخلاف وأصول الدين والنحو واللغة ، وله معرفة تامة بعلم الحساب والجبر والهندسة وكان يعرف علوما كثيرة ،

---

(١) حيث ضرب التتار هذه البلاد كما أن المماليك – في صراعهم مع التتار – كانوا يتلفون المزارع ، انظر : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام (ص : ٣٢٩) وما بعدها و(ص : ٤٤١) .

(٢) في عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي (٣٣٩/٢٢) ما يفيد أن حران أخليت من أهلها فقدم والده دمشق .

(٣) معرفة القراء الكبار (٦٥٤/٢) ، ط الرسالة المحققة .

(٤) هو : جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك أبو عبد الله الطائي الجياني الشافعي النحوي – صاحب الألفية – ولد سنة ٦٠٠ هـ ، وتوفي سنة ٦٧٢ هـ ، بغية الوعاة (١٣٠/١) ، وإشارة التعيين (ص : /٣٢٠) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٢٩٢/٢٣) ، ومعرفة القراء الكبار (٦٥٤/٢) .

(٦) انظر في ترجمته المصدرين السابقين ، وذيل طبقات الحنابلة (٢٤٩/٢) ، والنجوم الزاهرة (٣٣/٧) .

(٧) العبر (٣٤٩/٣-٣٥٠) .

(٨) البداية والنهاية (٣٠٣/١٣) .

وكان حسن الأخلاق لطيفا » [١] .

أما والدة تقي الدين فهي ست النعم بنت عبد الرحمن بن علي بن عبدوس الحرانية عمرت فوق السبعين ، توفيت سنة ٧١٦ هـ [٢] .

ولشيخ الإسلام تقي الدين ثلاثة من الإخوة اشتهروا بالعلم والفضل وهم :

١ - أخوه لأمه : بدر الدين أبو القاسم محمد بن خالد الحراني ، ولد سنة ٦٥٠ هـ تقريبا ، وتوفي سنة ٧١٧ هـ كان عالما فقيها إماما ، تولى التدريس عن أخيه تقي الدين [٣] .

٢ - شقيقه زين الدين عبد الرحمن بن عبد الحليم ، ولد سنة ٦٦٣ هـ ، وتوفي سنة ٧٤٧ هـ ، كان زاهدا عابدا ، كما كان تاجرا ، حبس نفسه مع أخيه تقي الدين في الإسكندرية ودمشق ليخدمه [٤] .

٣ - شقيقه شرف الدين عبد الله بن عبد الحليم ، ولد سنة ٦٦٦ هـ ، وتوفي سنة ٧٢٧ هـ لما كان تقي الدين مسجونا في القلعة ، كان عالما متبحراً وذهب مع أخيه إلى مصر وناظر خصومه وحده فانتصر عليهم [٥] .

ثانيا : حياته الأولى :

نشأ ابن تيمية وتربى في كنف والده ، فتلقى العلم عنه وعن غيره من شيوخ عصره ، ولم يقتصر على التلقي عن المعاصرين له وإنما اتجه إلى مؤلفات

---

(١) عيون التواريخ (٣٣٩/٢٢) ، وانظر في ترجمته - غير ما سبق - ذيل طبقات الحنابلة (٣١٠/٢) ، وجلاء العينين (ص : ٤٢) ط المدني ، وشذرات الذهب (٣٧٦/٥) ، والنجوم الزاهرة (٣٥٩/٧) .

(٢) البداية والنهاية (٧٩/١٤) .

(٣) انظر في ترجمته : ذيل طبقات الحنابلة (٣٧٠/٢) ، وشذرات الذهب (٤٥/٦) .

(٤) انظر في ترجمته : ذيل العبر للحسيني (ص : ١٤٣) ، البداية والنهاية (٢٢٠/١٤) ، الدرر الكامنة (٤٣٧/٢) ، شذرات الذهب (١٥٢/٦) .

(٥) انظر : العقود الدرية (ص : ٣٦١) ، وذيل طبقات الحنابلة (٣٨٢/٢) ، وشذرات الذهب (٧٦/٦) ، وجلاء العينين (ص : ٤٢) ط المدني .

من سبقه من العلماء حفظا واطلاعا ، ونلمح في حياته الأولى ما يلي :

أ - قوة حافظته وسرعة إدراكه لما يسمع أو يقرأ ، وذكر مترجموه لذلك قصة [١] .

ب - محافظته على الوقت منذ صغره ، وذكروا لذلك حكاية [٢] ، ولذلك سار بقية حياته في عمل ؛ إما جهاد أو تدريس أو أمر بالمعروف أو نهي عن المنكر أو تأليف للكتب والرسائل والرد على المخالفين .

جـ - قوة تأثيره وحجته ، فقد أسلم على يديه يهودي وهو صغير [٣] .

د - بدؤه بالإفتاء والتدريس في وقت مبكر ، فقد أفتى وعمره ١٩ سنة [٤] ، كما درس بدار الحديث السكرية [٥] مكان والده في الثاني من محرم سنة ٦٨٣ هـ - أي بعد وفاة والده بقليل - إذ توفي والده في سلخ [٦] ذي الحجة سنة ٦٨٢ هـ [٧] .

هـ - تمثلت مصادره الأولى مختلف فنون المعرفة ومنها : التفسير وعلوم القرآن ، والسنة ، الكتب الستة ، ومسند الإمام أحمد ، وسنن الدارقطني ، ومعجم الطبراني ، وما يتعلق بها من علوم الحديث والرجال ، والفقه وأصوله ، وأصول الدين والفرق ، واللغة والخط والحساب ، والتاريخ ، إضافة إلى علوم أخرى

---

(١) انظر : العقود الدرية (ص : ٤) ، والكواكب الدرية (ص : ٨٠) .

(٢) انظر : الرد الوافر (ص : ٢١٨) ، أعيان العصر عن المنجد (ص : ٥١) .

(٣) انظر : الأعلام العلية (ص : ١٧) ، وهو غير اليهودي الآخر الذي أسلم على يديه سنة ٧٠١ هـ ، انظر : البداية والنهاية (١٩/١٤) .

(٤) أذن له بالإفتاء شرف الدين المقدسي ، توفي سنة ٦٩٤ هـ ، وكان يفتخر بذلك ويقول : أنا أذنت له بالإفتاء ، انظر : البداية والنهاية (٣٤١/١٣) ، والعقود (ص : ٤) .

(٥) دار الحديث السكرية : كانت بالقصاعين داخل باب الجابية بدمشق ، وبعد تولي ابن تيمية تدريسها حرص على توسعتها ، فانتدب لذلك أحد التجار المحبين لشيخ الإسلام يقال له : محمد بن عبد الكريم التدمري ، فاعترض أحد نظار الوقف ، ولكن بعد أمور وقعت بناها التدمري وأتم بناءها سنة ٦٨٥ هـ . الأطلال (ص : ٤٥-٤٦) .

(٦) السلخ - بالفتح - آخر الشهر ، انظر : تاج العروس مادة : سلخ .

(٧) انظر : العقود (ص : ٥) ، والبداية والنهاية (٣٠٣/١٣) ، وذيل طبقات ابن رجب (٣٨٨/٢) ، والرد الوافر (ص : ١٤٦) .

من فلك وطب وهندسة [١] ، وهذا واضح في كتبه التي ألفها فيما بعد ، لا يتطرق إلى فن من الفنون إلا ويظنه القارىء متخصصا في هذا الفن .

ثالثا : شيوخه :

تتلمذ تقي الدين على شيوخ كثيرين ، وقد خرج لنفسه مشيخة – رواها عنه الذهبي – روى فيها أربعين حديثا عن أكثر من أربعين شيخا وشيخة [٢] ، كما اشتهر برواية جزء حديثي مشهور – وهو جزء ابن عرفة [٣] – ، ومن شيوخه الذين لم يردوا في مشيخته :

١ – شرف الدين المقدسي : أحمد بن الشيخ كمال الدين أحمد بن نعمة ابن أحمد الشافعي خطيب دمشق ومفتيها ، وشيخ الشافعية فيها [٦٢٢ هـ – ٦٩٤ هـ] [٤]

٢ – محمد بن عبد القوي بن بدران بن عبد الله المقدسي ، المداوي ، الفقيه المحدث النحوي ، شمس الدين أبو عبد الله ، قرأ عليه ابن تيمية العربية [ولد سنة ٦٠٣ هـ ، وتوفي سنة ٦٩٩ هـ] [٥] .

٣ – تقي الدين الواسطي ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن أحمد بن فضل الصالحي الحنبلي [٦٠٢ هـ – ٦٩٢ هـ] [٦] .

---

(١) انظر : العقود (ص : ٣،٧) ، والوافي (١٦/٧) ، وتاريخ ابن الوردي (٤٠٨/٢–٤٠٩) ، والأعلام العلية (ص : ١٨) ، وذيل ابن رجب (٣٨٨/٢) .

(٢) طبعت في مجموع الفتاوي (٧٦/١٨–١٢١) ، كما طبعت مفردة في دار القلم بتحقيق الشيخ عبد العزيز السيروان – ترجم لرواتها فوهم في تراجم بعضهم – وعدد الشيوخ الواردين في المشيخة – وبعضهم تكرر في أكثر من حديث – واحد وأربعون شيخا وأربع شيخات .

(٣) طبع هذا الجزء وانظر الصفحات (٢٣،٢٥،٢٨) من مقدمة المحقق ، وممن روى هذا الجزء عن ابن تيمية التجيبي : القاسم بن يوسف التجيبي السبتي المتوفي سنة ٧٣٠ هـ ، انظر برنامجه (ص : ١٩٢–١٩٣) ، ط الدار العربية للكتاب .

(٤) انظر : البداية والنهاية (٣٤١/١٣) ، والعبر (٣٨١/٣) ، وشذرات الذهب (٤٢٤/٥) .

(٥) انظر : العبر (٤٠٢/٣) ، وذيل طبقات الحنابلة (٣٤٢/٢) ، شذرات الذهب (٣٥٢/٥) .

(٦) انظر : العبر (٣٧٨/٣) ، والمنهل الصافي (١٢٢/١–١٢٦) .

٤ – محمد بن إسماعيل بن أبي سعد بن علي الشيباني الآمدي ثم المصري ، شمس الدين أبو عبد الله [٦٨٧ هـ – ٧٠٤ هـ] [(١)] .

٥ – المنجا بن عثمان بن أسعد بن المنجا التنوخي الدمشقي ، زين الدين أبو البركات [٦٣١ هـ – ٦٩٥ هـ] أخذ عنه ابن تيمية الفقه [(٢)] .

٦ – عبد الرحيم بن محمد بن أحمد بن فارس العلثي ثم البغدادي ، عفيف الدين أبو محمد [٦١٢ هـ – ٦٨٥ هـ] [(٣)] .

ست الدار بنت عبد السلام ابن تيمية ، عمة شيخ الإسلام ، روى عنها ، توفيت سنة ٦٨٦ هـ [(٤)] .

وغيرهم من الشيوخ الذين روى وأخذ عنهم والذين يزيدون على مئتي شيخ [(٥)] .

رابعا : هل كان مقلدا لشيوخه ؟

كل عالم يبدأ حياته العلمية غالبا ما يبدؤها بتقليد شيوخه الذين أخذ عنهم ووثق في علومهم ، والمتتبع لحياة شيخ الإسلام ابن تيمية يلمس منها أن ما أعطاه الله من ذكاء وقوة حافظة وسرعة إدراك وجو علمي مليء بالعلماء وبالكتب التي ألفها من كان قبلهم ، ساعده على أن يكون ذا قدرة علمية مستقلة بعيدة عن التقليد الأعمى ، ولذلك استمر طول حياته على منهج واحد لم يتغير ، بخلاف بعض العلماء – خاصة من غاصوا في علم الكلام والفلسفة – تجد الواحد منهم يمر في حياته بأكثر من مرحلة ، كل مرحلة لها منهج وطريقة تخالف المرحلة الأخرى .

---

(١) انظر : ذيل طبقات الحنابلة (٣٥٢/٢) .

(٢) انظر : المصدر السابق (٣٣٢/٢) .

(٣) انظر : العبر (٣٥٩/٣) ، وذيل ابن رجب (٣١٥/٢) .

(٤) انظر : أعلام النساء (١٥٤/٢) .

(٥) انظر : العقود (ص : ٣) ، والكواكب (ص : ٥٢) ، وانظر في شيوخ ابن تيمية : ذيل ابن رجب (٣٨٧/٢) ، والبداية والنهاية (١٣٦/١٤–١٣٧) ، والوافي (١٦/٧) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١٤٩٦/٤) ، والدرر الكامنة (١٥٤/١) وغيرها .

ومع ذلك فنلمس – من خلال تتبع حياة ابن تيمية – رجوعه عن بعض المسائل التي قد يكون أخذها تقليدا ، أو لم تتكامل معرفته بالشخص أو المسألة المعينة : فمثلا : يذكر أنه كان يحسن الظن بابن عربي الصوفي صاحب الفتوحات ثم عرف حقيقة حاله ، يقول : « وأنا كنت قديما ممن يحسن الظن بابن عربي ويعظمه ، لما رأيت في كتبه من الفوائد مثل كلامه في كثير من الفتوحات ، والكنه ، والمحكم المربوط ، والدرة الفاخرة ، ومطالع النجوم ، ونحو ذلك ، ولم نكن بعد اطلعنا على حقيقة مقصوده ، ولم نطالع الفصوص ونحوه ، وكنا نجتمع مع إخواننا في الله نطلب الحق ونتبعه ، ونكشف حقيقة الطريق ، فلما تبين الأمر عرفنا نحن ما يجب علينا ، فلما قدم من المشرق مشايخ معتبرون ، وسألوا عن حقيقة الطريقة الإسلامية والدين الإسلامي وحقيقة هؤلاء وجب البيان »[1] .

ومرة حضر مع الصوفية وأقاموا سماعا لكنه لم يشاركهم يقول : « وكنت في أوائل عمري حضرت مع جماعة من أهل الزهد والعبادة والإرادة ، فكانوا من خيار أهل هذه الطبقة ، فبتنا بمكان ، وأرادوا أن يقيموا سماعا وأن أحضر معهم ، فامتنعت من ذلك ، فجعلوا لي مكانا منفردا قعدت فيه ، فلما سمعوا وحصل الوجد والحال ، صار الشيخ الكبير يهتف بي في حال وجده ويقول : يا فلان قد جاءك نصيب عظيم ، تعال خذ نصيبك ، فقلت في نفسي – ثم أظهرته لهم لما اجتمعنا – : أنتم في حل من هذا النصيب ، فكل نصيب لا يأتي عن طريق محمد بن عبد الله فإني لا آكل منه شيئا ، وتبين لبعض من كان فيهم ممن له معرفة وعلم أنه كان معهم الشياطين ، وكان فيهم من هو سكران بالخمر »[2] .

وهذه القصة كانت في أوائل عمره ، وهنا يلحظ حرص هؤلاء الصوفية عليه لإدخاله في زمرتهم ، لكن موقفه القوي ووضوح العقيدة عنده ومعرفته بأحوالهم يدل على وعي مبكر بحال هذه الطائفة المنحرفة ، ولذلك استمر في موقفه منها ورد عليها وفضح دعاتها . كما حدث له في مسألة « حلول الحوادث – الصفات الاختيارية لله تعالى – ومسألة الزيارة البدعية والشرعية ما يذكره بقوله : « ولكن هذه المسألة

---

(١) رسالة ابن تيمية إلى نصر المنبجي ، مجموع الفتاوى (٢/٤٦٤-٤٦٥) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٤١٨-٤١٩) .

[أي حلول الحوادث] ومسألة الزيارة وغيرهما حدث من المتأخرين فيها شبه ، وأنا وغيري كنا على مذهب الآباء في ذلك ، نقول في الأصلين بقول أهل البدع ، فلما تبين لنا ما جاء به الرسول دار الأمر بين أن نتبع ما أنزل الله ، أو نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، فكان الواجب هو اتباع الرسول وأن لا نكون ممن قيل فيه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [لقمان : ٢١] . وقد قال تعالى : ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾ [الزخرف : ٢٤] .. » [١] ، بل يذكر أنه صنف منسكا ذكر فيه استحباب زيارة مساجد مكة وما حولها ثم تبين له أن ذلك بدعة ، يقول : « وقد ذكر طائفة من المصنفين في المناسك استحباب زيارة مساجد مكة وما حولها ، وكنت قد كتبتها في منسك كتبته قبل أن أحج في أول عمري ، لبعض الشيوخ جمعته من كلام العلماء ، ثم تبين لنا أن هذا كله من البدع المحدثة التي لا أصل لها في الشريعة ، وأن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يفعلوا شيئا من ذلك ، وأن أئمة العلم والهدى ينهون عن ذلك ، وأن المسجد الحرام هو المسجد الذي شرع لنا قصده للصلاة والدعاء والطواف وغير ذلك من العبادات » [٢] .

فهذه المواقف له تدل على المنهل الأصيل الذي انطلق منه ، متبعا للكتاب والسنة ولو كان ذلك فيه مخالفة لما كان عليه الآباء والأجداد ، أو ما يترسمه الشيوخ والعلماء والقضاة ، فالحق أحق أن يتبع ، والأمور لا توزن بكلام الناس وما اعتادوه – ولو كانوا علماء فضلاء – وإنما توزن بميزان الحق والعدل المبني على الشرع المنزل .

خامسا : جهاده وربطه بالعمل :

لقد تميزت حياة ابن تيمية بهذه الميزة العظيمة ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، فلم يكن العالم القابع في بيته ، المتفرغ للإفتاء

---

(١) رسالة في الصفات الاختيارية – جامع الرسائل – تحقيق رشاد سالم (٥٦/٢) ، وهو في مجموع الفتاوى (٢٥٨/٦) .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٨٠٢/٢) .

والتدريس والتأليف – وإنما كان رحمه الله – رابطا العلم بالعمل ، فعلمه يدفعه إلى تحمل مسؤوليته فيبادر إلى القيام بالحق والجهاد في سبيل الله وردع أهل الباطل .

وحياة ابن تيمية كلها كانت جهادا ، والكلام حول هذا الجانب يطول ولكن نشير إلى بعض الأمثلة :

أ – أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر :

وكانت له في ذلك مواقف عظيمة ، منها :

١ – كسره للأصنام والأماكن التي تعظم من دون الله – وقد مضى نماذج من ذلك عند الحديث عن انتشار بعض الشركيات في عصره – كما كان في ديار مصر – ينهى عن إتيان المشاهد وتعظيمها ، وكان ينهى الذين يحلفون إذا أرادوا تغليظ أيمانهم حلفوا عند مشهد الحسين [١] .

٢ – موقفه من النصارى : لما تضاءل الوجود النصراني في بلاد الشام صارت قبرص موطنا لهم يأوون إليها وهي تحت حكم النصارى وكانوا أحيانا يأخذون معهم أسارى المسلمين ، وقد أرسل شيخ الإسلام ابن تيمية رسالة إلى ملك قبرص – سرجوان – يدعوه فيها إلى الإسلام ، ويفضح ما يفعله القسس والرهبان من الكذب على الناس مع معرفتهم أنهم على الباطل ، ثم بعد أن ذكر ما عند الملك من الديانة ومحبة العلم وطلب المذاكرة ، وحسن المعاملة ، دعاه إلى الإسلام والاعتقاد الصحيح – بأسلوب يفيض رقة وأدبا مع مخاطبة للعقل – ثم يقول : « وإن رأيت من الملك رغبة في العلم والخير كاتبته وجاوبته عن مسائل يسألها ، وقد كان خطر لي أن أجيء إلى قبرص لمصالح في الدين والدنيا ... » [٢] ، ثم عقب بعد ذلك بذكر مواقفه من التتار وكيف انه لما خاطبهم بإطلاق الأسارى وكيف أبى إلا أن يطلق جميع الأسارى من اليهود والنصارى ولا يقتصر على المسلمين ، ثم يقول له بلهجة قوية : « فيا أيها الملك ، كيف تستحل سفك الدماء

---

(١) انظر ناحية من حياة شيخ الإسلام بقلم خادمه (ص : ١٥–١٧) .
(٢) الرسالة القبرصية (ص : ٥٤) .

وسبي الحريم وأخذ الأموال بغير حجة من الله ورسوله » [١] .

ثم أوصى في آخر الرسالة بالإحسان إلى من عنده من المسلمين ، وأن لا يسعى إلى تغيير دين أحد منهم [٢] .

كما كان لابن تيمية مناقشات لبعض النصارى ، ففي الجواب الصحيح أشار إلى بعض مناقشاته لهم [٣] ، وأيضا فقد ناقش ثلاثة من رهبان النصارى جاءوه من الصعيد لما كان في مصر [٤] .

وفي سنة ٦٩٣ هـ كانت وقعة عساف [٥] النصراني ، حين سب النبي - ﷺ - فقام عليه ابن تيمية والشيخ زين الدين الفارقي شيخ دار الحديث ودخلا على الأمير ، وكانت قصة أوذي فيه الشيخان ، ثم جاء الخبر بقتل النصراني [٦] .

٣ - أما الصوفية فله معهم مواقف عدة ، من أشهرها موقفه من الدجاجلة البطائحية [٧] ، وهذه الطائفة كان له معها وقائع متعددة ، بين لهم فيها ما عندهم من حق وباطل ، كما فضح أحوالهم الشيطانية التي يزعمونها ، وعزم على أن يدخل معهم النار التي يزعمون أنها من أحوالهم وخوارقهم ، وقد استتابهم وأظهروا له الموافقة والطاعة ، ولكنهم في تاسع جمادي الأولى سنة ٧٠٥ هـ ذهبوا إلى الأمير

---

(١) المصدر السابق (ص : ٦١) .

(٢) انظر : رسالته إلى ملك قبرص (ص : ٧١-٧٢) ، وقارن هذه الرسالة برسالة أبي الوليد الباجي المتوفي سنة ٤٧٤ هـ إلى راهب فرنسا النصراني جوابا لرسالته إلى المقتدر بالله حاكم سرقسطة ٤٣٨ - ٤٧٤ هـ يدعوه فيها إلى الدخول في النصرانية . فانتدب الباجي لإجابته ، وكان أسلوبه جيدا . انظر الرسالتين بتحقيق : محمد عبد الله الشرقاوي .

(٣) انظر : الجواب الصحيح (١٧٢/٢) .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى (٣٧٠/١-٣٧١) ، وترجمة ابن تيمية بقلم خادمه (ص : ٢٣-٢٤) .

(٥) هو عساف ابن أحمد بن حجي ، البداية والنهاية (٣٤٠/١٣) ، والنجوم الزاهرة (٧٤/٨) .

(٦) انظر : البداية والنهاية (٣٣٥/١٣-٣٣٦) .

(٧) يقال لهم الأحمدية والرفاعية نسبة إلى أحمد الرفاعي ؛ مؤسسها في أم عبيدة من قرى البطائح بين البصرة وواسط وخلف الرفاعي خاله منصور البطائحي ، انظر عن أحمد الرفاعي وأم عبيدة والبطائح : وفيات الأعيان (١٧١/١-١٧٢) ، والطرق الصوفية في مصر (ص : ٨٩) .

يشكون ابن تيمية ويطلبون منه أن يسلم لهم حالهم ، وأن يكف إمارته عنهم ، وأن لا يعارضهم ولا ينكر عليهم ، وأرادوا أمام الناس إظهار أحوالهم الشيطانية ، فلما جاء شيخ الإسلام تكلم عن اتباع الشريعة وأنه لا يسع أحدا الخروج عليها ، ورد على دعواهم أنهم يستطيعون دخول النار وأن أهل الشرع لا يستطيعون ذلك ، وعزم على أن يدخل معهم بشرط أن يغسلوا أجسامهم بالخل والماء الحار وقال في أثناء المناقشة : ومع هذا فلو دخلتم النار أو طرتم في الهواء وفعلتم ما فعلتم لم يكن دليلا على صحة ما تدعونه من مخالفة الشرع ، وبعد ما غلبوا وبهتوا أقروا بأن يلتزموا التزاما تاما بالكتاب والسنة ومن خرج عنهما ضربت عنقه .

وهكذا قضى على هذه الفتنة العظيمة ، وأحبطت مزاعم هذه الطائفة المنحرفة الذين « كانوا لفرط انتشارهم في البلاد ، واستحواذهم على الملوك والأمراء والأجناد ، لخفاء نور الإسلام ، واستبدال أكثر الناس بالنور الظلام ، وطموس آثار الرسول في أكثر الأمصار ، ودروس حقيقة الإسلام في دولة التتار ؛ لهم في القلوب موقع هائل ، ولهم فيهم من الاعتقاد ما لا يزول بقول قائل » [(١)] .

٤ - في سنة ٧٠٤ هـ قام باستتابة شيخ يسمى إبراهيم القطان ، وحلق رأسه وقلم أظافره وكانوا طوالا جدا ، واستتابه من كلام الفحشى وأكل ما يغير العقل ، وما لا يجوز من المحرمات ، وبعد ذلك استحضر الشيخ محمد الخباز البلاسي فاستتابه أيضا عن أكل المحرمات ومخالطة أهل الذمة [(٢)] . وفي الاسكندرية توب رئيسا من رؤساء الصوفية [(٣)] ، كما أنكر على طائفة القلندرية [(٤)] ،

---

(١) مناظرة ابن تيمية لدجاجلة البطائحية . مجموع الفتاوى (٤٥٦/١١-٤٥٧) ، وانظر : تفاصيل أخرى مهمة من (ص : ٤٤٥-٤٧٥) وهي ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ، ط المنار (١٢١/١-١٤٦) ، وانظر في قصتهم : العقود (ص : ١٩٤) ، والبداية والنهاية (٣٦/١٤) .

(٢) انظر : البداية والنهاية (٣٣/١٤) .

(٣) انظر : العقود (ص : ٢٧٤) .

(٤) ويسمون الملامية أو الملامتية ، واليونسية والحيدرية ، وهي من طوائف الصوفية المنحرفة نشأت بعد الستمائة بقليل في دمشق ، انظر : أخبارهم في خطط المقريزي (٤٣٢/٢-٤٣٣) ، والرد الوافر مع الحاشية (ص : ٩٤-٩٥) ، وانظر : فتوى شيخ الإسلام فيهم في مجموع الفتاوى (١٦٣/٣٥) .

وفي سنة ٧٢٦ هـ ضربت عنق ناصر بن الشرف الهيثي لكفره واستهتاره بآيات الله ، شهد قتله ابن كثير وجاءه ابن تيمية وقرعه على ما كان يصدر منه (١) . وفي إحدى المرات عزر أحد المشايخ ممن يدعي أنه المهدي (٢) .

٥ – في سنة ٦٩٩ هـ قام مع أصحابه على الخمارات والحانات فكسروا آنية الخمور وأراقوها وعزروا جماعة من أهل الحانات ففرح الناس بذلك (٣) . وفي سنة ٧٠١ هـ قام عليه مجموعة من الحسدة بسبب إقامته الحدود والتعزير (٤) .

٦ – أما مواقفه من السلاطين فمشهورة وأشهرها موقفه من قازان سلطان التتار – والتتار في ذلك الوقت كانت لهم هيبة وصولة – وكيف أنه كلمه بكلام قوي عن أعمالهم وافسادهم وانتهاكهم لحرمات المسلمين مع ادعائهم الإسلام (٥) . وكذلك موقفه من الناصر – حين عاد إلى سلطنته للمرة الثالثة وأفرج عن ابن تيمية – فعرض وزيره مسألة أهل الذمة وأنهم يريدون أن يدفعوا أموالا على أن لا يلزموا باللباس المخصوص بهم ، فاستشار السلطان العلماء الحاضرين فسكنوا ، فتكلم ابن تيمية بكلام غليظ حتى رجع السلطان (٦) . وكذلك موقفه من الأمير قطلوبك الكبير الذي كان يأخذ أموال الناس بالباطل فجاءه ونهاه (٧) .

٧ – وكان لابن تيمية تأثير على السلاطين ليقوموا بدورهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمثلا حين اشتهرت الرشوة وأصبح لها دور في تولية بعض المناصب ، بل وفي إسقاط الحدود في سنة ٧١٢ هـ ورد خطاب إلى دمشق

---

(١) انظر : البداية والنهاية (١٢٢/١٤-١٢٣) .
(٢) انظر : الاستغاثة (٢١٨/٢-٢١٩) .
(٣) انظر : البداية والنهاية (١١/١٤) .
(٤) المصدر السابق (١٩/١٤) .
(٥) انظر المصدر السابق (٨٩/١٤) ، والأعلام العلية (ص : ٦٩) ، والكواكب (ص : ٩٣) ، ودولة بني قلاوون (ص : ١٧٨) .
(٦) انظر : العقود (ص : ٢٨١) ، والبداية والنهاية (٥٤/١٤) ، والكواكب (ص : ١٣٧) ، وحسن المحاضرة (٣٠٠/٢) .
(٧) انظر : الوافي (١٧/٧) .

من السلطان أن لا يولي أحد بمال ولا رشوة ، وأن يقتص من القاتل بحكم الشرع . وكان ذلك بمشورة ابن تيمية [١] . كما حارب ابن تيمية بعض البدع ومنها صلاة الرغائب [٢] فيذكر ابن كثير أنه في سنة ٧٠٦ هـ صليت صلاة الرغائب التي أبطلها ابن تيمية بسبب سجنه في مصر [٣] ، ثم أبطلت سنة ٧٠٧ هـ [٤] .

هذه نماذج من مواقف ابن تيمية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولو لم يكن في حياته إلا هذا الجانب لكان دليلا على جهاده وصبره - رحمه الله - .

ومما يلحظ في هذا الجانب وفي غيره أن ابن تيمية كانت له جماعة من أصحابه يستعين بهم ، وينفذون معه ما يريد ، ويصحبونه في حالات جهاده ، وأمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر ، وهذا ملاحظ في ترجمته ، فابن كثير يذكر أنه في سنة ٦٩٩ هـ خرج الشيخ ابن تيمية وجماعة من أصحابه إلى ملك التتر [٥] ... ، وفي سنة ٧٠٤ هـ ذهب مع أصحابه لهدم صخرة تزار [٦] ، وفي نفس السنة ذهب مع أصحابه إلى جبل الكسروانيين ، وفي سنة ٧٠٩ هـ لم يخرج أحد من أصحابه معه إلى الاسكندرية ، لكن بعد ذلك لحق به جماعة من أصحابه [٧] .

ب - جهاده للتتار :

اكتنفت جهاد التتار حالة من الغموض في بعض الأمور المتعلقة بهم ، كما صاحبها أحوال من الخوف والهلع من هذه الجيوش المدمرة ، كما أن أوضاع العصر

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٦٦/١٤) .

(٢) صلاة مبتدعة نشأت في القدس بعد الثمانين والأربعمائة ، ورد فيها حديث موضوع ، وهي صلاة في رجب تصلى في الليل على أثر صيام أول خميس فيه ، وهذه الصلاة هي موضوع المساجلة العلمية بين العز بن عبد السلام وابن الصلاح ، انظرها مع مقدماتها . طبع المكتب الإسلامي .

(٣) انظر : البداية والنهاية (٤١/١٤) .

(٤) المصدر السابق (٤٦/١٤) .

(٥) المصدر نفسه (٨/١٤) .

(٦) المصدر نفسه (٣٤/١٤) .

(٧) انظر : البداية والنهاية (٤٩/١٤-٥٠) .

وما فيه من فوضى جعلت موضوع « الجهاد في سبيل الله » الذي هو من أشرف الأعمال وأعظمها صورة نظرية تقرأ في نصوص الكتاب والسنة وأقوال العلماء ، أو انحصرت في مسألة واضحة - لا يزال المسلمون يعيشون أحداثها - في جهادهم للنصارى . وقد هيأ الله لهذه الأمة في هذا الوضع رجلاً يقوم بدور كبير في هذا المجال وفي هذه الأحوال ، وقد ظهرت مواقف ابن تيمية وجهاده العظيم من خلال ما يلي :

أ - توضيح حال التتار ، وأنه يجب قتالهم - لاتفاق العلماء على وجوب قتال كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام - ثم بيانه لأحوال التتار وأنه ينطبق عليهم هذا الحكم - وقد تقدم بيان ذلك .

ب - بيان أسباب النصر ، وأن التتار - على قوتهم وكثرتهم ورهبة الناس منهم - ليس مستحيلا أو صعبا النصر عليهم متى ما أخذ المسلمون بأسباب النصر من تحكيم الشرع ورفع الظلم ونشر العدل ، وإخلاص النية في الجهاد في سبيل الله ، ولذلك نجده في معركة « شقحب » [1] يأمر الناس بالفطر اقتداء بالنبي - ﷺ - عام الفتح وأفطر معهم ، وكذلك لما حض السلطان على الجهاد سأله السلطان أن يقف معه فقال له الشيخ : السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه ، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم [2] ، وقبيل المعركة - وابن تيمية يحض على الجهاد - كان يحلف للأمراء والناس : إنكم في هذه الكرة منصورون فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله ، فيقول : إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا ، وكان يتأول في ذلك أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ [الحج : ٦٠] [3] .

---

(١) شقحب كجعفر ، موضع قرب دمشق ، وهي قرية صغيرة قبلي دمشق على تخوم أرض حوران تبعد عن دمشق ٣٧ كيلو مترا . وشقحب تقع تحت جبل غباغب وهي قرية في أول عمل حوران ، انظر : تاج العروس (٣٢٤/١) ط بولاق ، ومعجم البلدان (١٨٤/٤) ، والسلوك (٩٣٢/١) ، وأعلام الورى لابن طولون (ص : ١٦٦) حاشية المحقق .

(٢) انظر : البداية والنهاية (٢٦/١٤) .

(٣) المصدر السابق (٢٣/١٤) وفيه وقع تحريف في الآية .

جـ - ثم نجده - بعد جهاده لهؤلاء والانتصار عليهم - يحلل تلك المعارك ويبين الدروس المستفادة منها ، ويقف فيها وقفات يبين وجه الشبه بين ما جرى مع التتار وغزوات النبي - ﷺ - ، يقول في بداية كلامه : « إن هذه الفتنة التي ابتلى بها المسلمون من هذا العدو المفسد الخارج عن شريعة الإسلام ، قد جرى فيها شبيه ما جرى للمسلمين مع عدوهم على عهد رسول الله - ﷺ - في المغازي التي أنزل الله فيها كتابه ، وابتلى بها نبيه والمؤمنين ، ما هو أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا إلى يوم القيامة ، فإن نصوص الكتاب والسنة اللذين هما دعوة محمد - ﷺ - يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظي والمعنوي ، أو بالعموم المعنوي . وعهود الله في كتابه وسنة رسوله تنال آخر هذه الأمة كما نالت أولها وإنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم لتكون عبرة لنا ، فنشبه حالنا بحالهم ، ونقيس أواخر الأمم بأوائلها ... » (١) ، ثم يذكر هذه الفتنة التي وقعت فيقول : « ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيران ، وأنزلت الرجل الصاحي منزلة السكران ، وتركت الرجل اللبيب لكثرة الوسواس ليس بالنائم ولا اليقظان وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان » (٢) . ثم بين أقسام الناس في هذه الحادثة ووجه الاعتبار منها ، ثم أخذ يقارن بين أحداث السيرة وبين ما وقع في هذه الفتنة مع التتار ؛ فيعرض لحال الأعداء ولحال المؤمنين ، ثم يتكلم عن المنافقين وأفعالهم وصفاتهم ، مع مقارنة دقيقة بأحوالهم في عهد رسول الله - ﷺ - فيذكر تحزب الأحزاب من كل جانب على المدينة ثم يقول : « وهكذا هذا العام : جاء العدو من ناحيتي علو الشام ، وهو شمال الفرات ، وهو قبلي الفرات ، فزاغت الأبصار زيغا عظيما ، وبلغت القلوب الحناجر ، لعظم البلاء ، لا سيما لما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر ، وتقرب العدو وتوجهه إلى دمشق ، وظن الناس بالله الظنونا :

هذا يظن أنه لا يقف قدامهم أحد من جند الشام ، حتى يصطلموا أهل الشام .

---

(١) العقود الدرية (ص : ١٢١) .

(٢) المصدر السابق (ص : ١٢٤) .

وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر .

وهذا يظن أن أرض الشام ما بقيت تسكن ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسلام .

وهذا يظن أنهم يأخذونها ثم يذهبون إلى مصر فيستولون عليها ، فلا يقف قدامهم أحد ، فيحدث نفسه بالفرار إلى اليمن ونحوها .

وهذا - إذا أحسن ظنه - قال : إنهم يملكونها العام كما ملكوها عام هولاكو سنة سبع وخمسين ، ثم قد يخرج العسكر من مصر فيستنقذها منها كما خرج ذلك العام ، وهذا ظن خيارهم .

وهذا يظن أن ما أخبره به أهل الآثار النبوية وأهل التحديث والمبشرات أماني كاذبة وخرافات لاغية .

وهذا قد استولى عليه الرعب والفزع حتى يمر الظن بفؤاده مر السحاب ليس له عقل يتفهم ولا لسان يتكلم .

وهذا قد تعارضت عنده الأمارات وتقابلت عنده الإرادات لاسيما وهو لا يفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب ...

فلذلك استولت الحيرة على من كان متسما بالاهتدار ، وتراجمت به الآراء تراجم الصبيان بالحصباء هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا [١] .

وجهود ابن تيمية في جهاد التتار يمكن تلخيص أهم أحداثها فيما يلي :

١ - في عام ٦٩٧ هـ في يوم الجمعة ١٧ شوال عمل ميعادا للجهاد ، وحرض عليه ، وبين أجر المجاهدين ، وكان ميعادا حافلا جليلاً [٢] .

٢ - وفي عام ٦٩٩ هـ - حين قدم قازان بجيوشه إلى الشام - كانت له مواقف :

أ - ففي الاثنين ثالث ربيع الآخر توجه ابن تيمية وأعيان البلد إلى قازان

---

(١) المصدر السابق (ص : ١٤٩-١٥٠) ، وانظر : بقية التحليل الرائع لهذه الأحداث إلى (ص : ١٧٥) .

(٢) انظر : البداية والنهاية (٣٥٢/١٣) .

لمقابلته ، وأخذ الأمان للبلد ، وكلمه ابن تيمة كلاما قويا ، شديدا ، وكان في موقفه مصلحة عظيمة عاد نفعها للمسلمين [١] .

ب - ولما كان التتر مستولين على مدينة دمشق فأرادوا الاستيلاء على قلعتها الحصينة ، فأرسل ابن تيمية إلى نائب القلعة يقول له : لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت ، وقد حفظ هذا الحصن ولم يدخله التتار [٢] .

جـ - خرج ابن تيمية مرة ثانية لمقابلة ملك التتر في العشرين من ربيع الآخر ، فلم يتمكن من ذلك [٣] ، ثم خرج لملاقاة بولاي فاجتمع به في فكاك من كان معه من أسارى المسلمين ، فاستنقذ كثيرا منهم من أيديهم وأقام عنده ثلاثة أيام ثم عاد [٤] .

د - بعد رحيل التتار من دمشق ، بقيت البلد في خوف شديد لا يدري الناس متى يهجم التتار مرة أخرى ، فاجتمع الناس حول الأسوار لحفظ البلد ، وكان ابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط [٥] .

٣ - في سنة ٧٠٠ هـ أشيع أن التتار قادمون لغزو الشام ، فأصيب الناس بالرعب ، يقول ابن كثير : « وفي مستهل صفر وردت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام وأنهم عازمون على دخول مصر ، فانزعج الناس لذلك ، وازدادوا ضعفا على ضعفهم وطاشت عقولهم وألبابهم ، وشرع الناس في الهرب إلى بلاد مصر والشوبك والحصون المنيعة ، فبلغت الحمارة إلى مصر خمسمائة ، وبيع الجمل بألف والحمار بخمسمائة وبيعت الأمتعة والثياب والمغلات بأرخص الأثمان ، وجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية في ثاني صفر بمجلسه في الجامع وحرض الناس

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٧/١٤) - وسبقت مصادرها - وكان ممن معه بدر الدين بن جماعة . السلوك (٨٨٩/١) .

(٢) انظر : البداية والنهاية (١٤/٧-٨) .

(٣) المصدر السابق (٨/١٤) ، في السلوك (٨٩٢/١) ، إنه لم يمكنه الاجتماع به لسكره .

(٤) المصدر نفسه (١٠/١٤) ، والسلوك (٨٩٦/١) .

(٥) المصدر نفسه (١١/١٤) .

على القتال ، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك ، ونهى عن الإسراع في الفرار ، ورغب في إنفاق الأموال في الذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم ، وأن ما ينفق في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيرا ، وأوجب جهاد التتر حتما في هذه الكرة وتابع المجالس في ذلك ، ونودي في البلاد : لا يسافر أحد إلا بمرسوم وورقة ، فتوقف الناس عن السير ، وسكن جأشهم ، وتحدث الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعسكر ودقت البشائر لخروجه ، لكن كان قد خرج جماعة من بيوتات دمشق كبيت ابن صعرى ، وبيت ابن فضل الله ، وابن منجا ، وابن سويد ، وابن الزملكاني ، وابن جماعة » [1] ، ثم أرجف في ربيع الآخر بأمر التتر ، وأن السلطان رجع إلى مصر فاشتد ذلك على الناس ، وخرج الناس خفافا وثقالا هابين من المدينة وقد اشتدت الحال مع كثرة الأمطار والوحل والبرد ، فذهب ابن تيمية إلى نائب الشام في المرج فثبتهم وقوى جأشهم ، وبات عندهم فانتدبوه أن يذهب إلى السلطان يستحثه على المجيء ، فسار إليه فلم يدركه إلا وقد دخل القاهرة ، وتفرق الجند ، لكن ابن تيمية قابل السلطان واستحثه على تجهيز العساكر إلى الشام وقال لهم : « إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانا يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن ، ولم يزل بهم حتى جردت العساكر إلى الشام » [2] ، وأقام ابن تيمية بقلعة مصر ثمانية أيام يحثهم على الجهاد فأجابوه ثم رجع إلى الشام ، ثم جاءت الأخبار إلى الشام أن التتار رجعوا فأمن الناس وسكن جأشهم .

٤ — في سنة ٧٠٢ هـ كانت وقعة شقحب التي هزم فيها التتار وكان لابن تيمية دور عظيم فيها [3] .

---

(١) البداية والنهاية (١٤/١٤) .

(٢) المصدر السابق (١٥/١٤) ، وانظر : العقود (ص : ١١٩) ، والكواكب (ص : ٩٥) ، والرد الوافر (ص : ١٠٦) ، والدرر الكامنة (١٦٢/١) .

(٣) انظر : العقود (ص : ١٧٥) ، والبداية والنهاية (٢٥/١٤) ، والكواكب (ص : ٩٦) ، وبدائع الزهور (٤١٣/١/١) ، والسلوك (٩٣٢/١) ، والوثائق السياسية لعهد المماليك (ص : ٨٦) .

٥ - وفي سنة ٧١٢ هـ وابن تيمية في مصر بعد محنته وسجنه ثم الإفراج عنه خرج مع السلطان قلاوون للجهاد في سبيل الله [١] .

هذه خلاصة مواقفه من التتار ، وأسلوبه في معالجة هذه الفتن العظيمة التي حلت بالمسلمين . وفيها يتبين كيف أن هذا الإمام ذا المواقف المشهودة في مجال العلم والرد على الخصوم وتوضيح الحق للناس ، كان إماما في الجهاد ، وكان مثالا للشجاعة النادرة وقوة القلب وصدق اليقين بوعد الله في وقت ذهلت فيه قلوب الرجال .

جـ - جهاد النصارى والرافضة :

لم تشر أكثر المصادر إلى دور ابن تيمية في جهاد النصارى ، قبل إجلائهم عن الشام نهائيا ، إلا أن البزار [٢] يذكر في معرض ذكره لقوة قلبه وشجاعته فيقول : « وحدثوا أنهم رأوا منه في فتح عكة أمورا من الشجاعة يعجز الواصف عن وصفها ، قالوا : ولقد كان السبب في تملك المسلمين إياها بفعله ومشورته وحسن نظره [٣] . وفتح عكا [٤] كان سنة ٦٩٠ هـ فيكون عمر ابن تيمية وقتها قرابة الثلاثين عاما فلا يستبعد أن يشارك في فتحها خاصة وأن ابن كثير قال في أحداث هذه السنة : « وفيها جاء البريد إلى دمشق في مستهل ربيع الأول لتجهيز آلات الحصار لعكا ، ونودي في دمشق الغزاة في سبيل الله إلى عكا ... وخرجت العامة والمتطوعة يجرون في العجل ، حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء .... » [٥] . فمن البعيد أن يتخلف ابن تيمية - والحالة هذه - مع شغفه بالجهاد في سبيل الله .

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٦٧/١٤) .

(٢) هو : عمر بن علي البزار ، كان من أصحاب ابن تيمية ، ولد سنة ٦٨٨ هـ - وتوفي سنة ٧٤٩ هـ . انظر : ذيل ابن رجب (٤٤٤/٢) ، والرد الوافر (ص : ١٩٥) ، ، والدرر الكامنة (٢٥٦/٣) .

(٣) الأعلام العلية (ص : ٦٨) ، ونقلها عنه في الكواكب (ص : ٩٢) .

(٤) ويقال عكة ، وهي مدينة حصينة على ساحل بحر الشام من عمل الأردن ، معجم البلدان (١٤٣/٤) ، وآثار العباد (ص : ٢٢٣) ، والروض المعطار (ص : ٤١٠) .

(٥) البداية والنهاية (٣٢٠/١٣) ، وانظر في فتح عكا السلوك (٧٦٣/١) ، والملحق (ص : ٣-١٠) ، ومختصر أبي الفداء (٢٤/٤) ، والأنس الجليل (٨٩/٢) ، وتذكرة النبيه (١٣٧/١)

أما الرافضة : فقد كانوا يتحصنون في جبال الجرد والكسروانيين ، وقد ذهب إليهم ابن تيمية سنة ٧٠٤ هـ ومعه جماعة من أصحابه فاستتابوا خلقا منهم وألزموهم شرائع الإسلام [١] ، وفي سنة ٧٠٥ هـ - في أولها - خرج ابن تيمية ومعه طائفة من الجيش ونائب السلطنة فنصرهم الله عليهم وأبادوا خلقا منهم ومن فرقتهم الضالة ، وقد حصل بسبب شهود ابن تيمية هذه الغزوة خير كثير ، ولما رجع مع نائب الشام منتصرا امتلأت قلوب أعدائه حسدا له [٢] .

* * *

هذه نماذج من جهود ابن تيمية وربطه العلم بالعمل ، وإذا كان موضوع هذا البحث يدور حول قضايا علمية في مواقفه من الأشاعرة ، إلا أن هذه الجوانب العظيمة العملية في حياته أضفت على مواقفه وكلامه ورسائله وكتبه طابعا معينا ، فلم تكن المحن التي مر بها ، والمناظرات التي عقدت له وما لقي في سبيل الدفاع عن الحق وبيانه للناس من أذى وسجن لتمر دون أن تظهر للناس ، وتأخذ حيزاً كبيراً من اهتمامهم ، وتشغلهم أوقاتا طويلة يتابعون أحداثها ويتفاعلون معها .

سادسا : مكانته ومنزلته :

لقد تبوأ شيخ الإسلام ابن تيمية مكانة ومنزلة عظيمة بين علماء عصره ، وكان لذلك أسبابه ، كما أن هذه المنزلة تمثلت في مظاهر مختلفة ... فمن أسباب ذلك :

١ - بعده عن المناصب أو أخذ رواتب من الدولة ، وكان ذلك عن عزم منه وتصميم ، فلم يتول القضاء أو الإمارة ، كما لم يأخذ أجرا على الدروس التي كان يلقيها في دور الحديث أو الجامع ؛ فقد عرض عليه قازان لما قابله أن يعمر حران

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٣٥/١٤) ، والكواكب (ص : ٩٢) ، وانظر : منهاج السنة (٥٨/١-٦٦) ، المحققة ، وأيضا (٢٤٤/٣) .

(٢) انظر : العقود (ص : ١٧٩-١٩٤) ، تاريخ بيروت (ص : ٢٧) ، والبداية والنهاية (٣٥/١٤) ، والسلوك (١٢/٢) ، وانظر موقفا من مواقفه في جهاده في مجموع الفتاوى (٤٧٤/١١) .

وأن يكتب برسمه أميرا عليها ، فرفض ذلك [١] ، كما أنه « لما سافر على البريد إلى القاهرة سنة سبعمائة وحض على الجهاد ، رتب له مرتب في كل يوم ، وهو دينار وتحفه وجاءته بقجة قماش ، فلم يقبل من ذلك شيئا » [٢] . بل إن بعض حساده قد وشوا به إلى السلطان الناصر وأنه يطلب الملك وأنه دائما يلهج بذكر ابن تومرت [٣] ، فأحضره بين يديه وقال له من جملة كلامه : « إنني أخبرت أنك قد أطاعك الناس ، وأن في نفسك أخذ الملك » ، فلم يكترث به ، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت ، وصوت عال سمعه كثير ممن حضر : أنا أفعل ذلك ؟ والله إن ملكك وملك المغل لا يساوي عندي فلسين ، فتبسم السلطان لذلك وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة : إنك والله لصادق ، وإن الذي وشى بك اليّ كاذب » [٤] .

لقد أعطى هذا الموقف – من البعد عن المناصب والرواتب – ابن تيمية استقلالية وحرية ، كما أبعد عنه وسائل الضغط النفسية والحسية فهو لا يشعر بأن لهم منة عليه ، كما أنه لا يخاف قطع رزقه المتمثل براتب أو نحوه . وكان لذلك أثر في مكانته وهيبته في النفوس .

٢ – توضيحه لأمور اشتبهت على علماء عصره :

أ – فالتتر اشتبه أمرهم على الناس – بعد ادعائهم الدخول في الإسلام فبين ابن تيمية أمرهم للناس ، فنشطوا لقتالهم حتى انتصروا عليهم [٥] .

---

(١) انظر : الأعلام العلية (ص : ٧١) .

(٢) تتمة المختصر (٤١٠/٢) ، ولما كان في السجن في الجب في مصر لم يقبل شيئا من النفقات السلطانية ، البداية والنهاية (٤٣/١٤) .

(٣) هو : محمد بن عبد الله بن تومرت ، مهدى الموحدين – الذين قامت دولتهم على أثر دولة المرابطين في المغرب ، ولد سنة ٤٨٥ هـ ، وتوفي سنة ٥٢٤ هـ . انظر : طبقات السبكي (١٠٩/٦) .

(٤) الأعلام العلية (ص : ٧٢–٧٣) ، والكواكب (ص : ٩٨–٩٩) .

(٥) حول اشتباه أمرهم على الناس انظر – إضافة إلى نصوص الأسئلة التي وردت إلى ابن تيمية : رسالة السلطان قلاوون سنة ٧٠١ هـ . النجوم الزاهرة (١٤٤/٨) ، ورسالة أخرى في صبح الأعشى (٢٤٩/٧–٢٥٠) ، وانظر : الوثائق السياسية للعهد الصليبي والمغولي (ص : ٨١،٨٣–٨٧) .

ب – كذلك اشتبه الناس في الأموال التي أخذت من الرافضة – النصيرية وغيرهم – فأجاب ابن تيمية المستفتي ووضح أمرهم للناس [١] .

جـ – في سنة ٧٠١ هـ جاء اليهود من أهل خيبر ، فأظهروا كتابا يزعمون أنه من رسول الله – ﷺ – وأن فيه إسقاط الجزية عنهم ، فبين ابن تيمية كذبهم ، ونقد الكتاب المزعوم نقدا حديثيا معتمدا على التاريخ ؛ وذلك أن في هذا الكتاب شهادة سعد بن معاذ – رضي الله عنه – وقد توفي قبل خيبر ، وشهادة معاوية ابن أبي سفيان – رضي الله عنه – ولم يسلم إلا بعد فتح خيبر بوقت [٢] . وقد سبق ابن تيمية إلى هذا النقد الخطيب البغدادي [٣] .

د – وفي سنة ٧١٧ هـ شرع في عمارة أحد جوامع دمشق الكبرى ، فتردد القضاة في تحرير قبلته ، فاستقر الحال في أمرها على ما قاله ابن تيمية [٤] .

هـ – وفي سجنه – في القاهرة – كان – كما يقول ابن كثير – « تأتيه الفتاوى المشكلة التي لا يستطيعها الفقهاء من الأمراء وأعيان الناس ، فيكتب عليها ما يحير العقول من الكتاب والسنة » [٥] .

٣ – دوره في الجهاد في سبيل الله ، ولم يكن فيه الجندي الشجاع فقط ، وإنما كان القائد والمعلم ، وصاحب المشورات والخطط العسكرية ، وإذا خاض معركة مع التتار أو الروافض ورجع الجيش منتصرا كان ابن تيمية مقدم هذا الجيش الذي يحظى بتقدير واحترام الناس وإعجابهم الشديد .

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٧٨/١٤) .

(٢) انظر البداية والنهاية (١٩/١٤) ، وانظر أيضا (٢١٩/٤–٢٢٠ ، ٣٥١/٥–٣٥٢) وقد وقف ابن كثير على هذا الخطاب .

(٣) هو : أحمد بن علي بن ثابت ، حياته [٣٩٢هـ – ٤٦٣ هـ] ترجمته في المصادر التالية : وانظر في قصة كشفه لتزويرهم هذا الكتاب : طبقات السبكي (٣٥/٤) ، ومعجم الأدباء لياقوت (١٨/٤) ، والبداية والنهاية (١٠١/١٢–١٠٢) ، والإعلان بالتوبيخ (ص : ٢٦) ، طبع مفردا – مؤسسة الرسالة – والمنار المنيف لابن القيم (ص : ١٠٥) ، وانظر : حاشية المحقق – ومقاييس نقد متون السنة (ص : ١٨٨) ، وانظر في بطلان ونقض هذا الكتاب المزور أحكام أهل الذمة (٧/١–٩ ، ٢٣٥) .

(٤) انظر : البداية والنهاية (٨١/١٤) .

(٥) انظر : المصدر السابق (٤٦/١٤) .

٤ - أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وفضحه لأصحاب الحيل الشيطانية ، وبيانه لأحوال أهل الفلسفة والكلام والطوائف الضالة ، فكثيرا ما أقام الحدود على المرتدين ، وكثيرا ما قام بكسر الخمارات ، وعزر أصحابها . كما أنه بين أحوال أهل الضلالة - في عصره - أو من قبله ممن قد تكون له مكانة في نفوس بعض الناس .

٥ - ومن أهم أسباب تبوئه لهذه المكانة والمنزلة العلم الغزير ، فهو إن درس أو خطب ، أو أفتى ، أو كتب رسالة أو كتابا في أي فن من الفنون أتى في ذلك بما يفوق علماء عصره ، وما يبهر عقولهم ؛ ولذلك صار ابن تيمية موضع ثقة الناس يسألونه عن كل ما عنَّ لهم . وإذا اختلف اثنان - وقد يكونان من العلماء أو طلبة العلم ، كما يدل على ذلك أسلوب بعض الأسئلة - كان مرجعهما والفيصل بينهما ما يقوله ابن تيمية ، ولذلك صارت الأسئلة تأتيه من الأطراف ومن البلاد البعيدة ، والأصل في ذلك كله الثقة في علومه ومنهجه في النظر والاستدلال .

هذه أهم أسباب تبوئه لهذه المنزلة ، وقد تجلت هذه المنزلة في مظاهر عديدة منها :

١) ما سبقت الإشارة إليه في عرض الأسباب من استفتائه في الأمور المشكلة وغيرها . وانتدابه للحض على الجهاد ، كما حدث في انتدابه إلى مصر ليحض السلطان على المجيء إلى الشام .

٢) تولية المناصب المهمة - أصبح غالبا - بإشارة ابن تيمية ، فمثلا تولية النائب الأفرم - نائب دمشق - ونقله إلى نيابة طرابلس كان بإشارة ابن تيمية [١] ، ولما آذى النائب الجديد لدمشق الناس ، تم عزله بإشارة ابن تيمية [٢] .

---

(١) انظر : البداية والنهاية (١٤/٦٠-٦١) .

(٢) المصدر السابق (١٤/٦١-٦٢) .

٣) وفي سنة ٧٠٩ هـ كان موقفه المشهور من أهل الذمة ، فألزموا باللباس المميز لهم ، وكذلك ورد سنة ٧١٢ هـ خطاب إلى دمشق أن لا يولى أحد بمال ولا رشوة (١) .

٤) بل المناصب الشرعية من الخطابة ، وإدارة دور الحديث كان يعين أصحابها بإشارة من ابن تيمية ، كما حدث سنة ٧٠٣ هـ (٢) .

سابعا : محنه وسجنه :

امتحن شيخ الإسلام ابن تيمية محنا عديدة ، وما تكاد تنتهي عاصفة إحدى المحن حتى تبدأ محنة جديدة ، حتى لقي ربه وهو في سجن القلعة بدمشق .

ومما يحز في النفس أن هذا الإيذاء والعداء له لم يأت من أعداء الإسلام الذين ظهرت عداوتهم له من اليهود والنصارى والتتار والرافضة ، وإنما جاء من علماء وفضلاء ، قضاة ومفتين ، أشربوا شبه بعض أهل الكلام والتصوف فانضاف إلى ذلك حسدهم لشيخ الإسلام وما له من مكانة في نفوس الناس ، فقاموا عليه معتمدين على مناصبهم في الفتيا والقضاء وعلاقتهم بالسلاطين والأمراء ، ومما يلفت الانتباه أن غالب محنه كانت مع الأشاعرة متمثلين في علماء ذلك الوقت ، حتى محنته مع المتصوفة في مصر لم يكن الأشاعرة بعيدين عنها ، ومعلوم أن التصوف دخل في المذهب الأشعري ضمن التطورات التي مر بها هذا المذهب ، أما محنته بسبب فتياه في الطلاق فلم تكن القضية قضية خلاف اجتهد فيه ابن تيمية وخالف بعض فقهاء عصره ، وإنما كانت مرتبطة بما جرى قبلها حول ردوده على الأشاعرة والمحن التي وقعت بسبب ذلك .

أما أسباب العداء له فلم تكن بعيدة عما سبق بيانه مما تبوأه ابن تيمية من مكانة ومنزلة غطت على مكانة أولئك العلماء – خاصة من كان منهم في منصب القضاء أو الإفتاء أو الخطبة – فلم تكن لهم أو لبعضهم تلك المواقف العظيمة

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٦٦/١٤) .
(٢) المصدر السابق (٢٨/١٤) .

في أيام المحن والشدائد حين كان التتار يثيرون الرعب في النفوس قبل قدومهم بوقت طويل إذا جاءت الإشاعة أنهم قادمون ، وحين كان بعض هؤلاء القضاة والعلماء يحمل أولاده وأهل بيته وما يستطيع حمله من أثاث ومال مبتعدا بهم عن هذا الهول المرتقب القادم إلى دمشق ، كان شيخ الإسلام ابن تيمية يلقي درسه في الجامع عن الجهاد في سبيل الله وفضله وفضل الإنفاق فيه ، بل ويصدر فتوى - يلزم بها الناس - بأنه لا يجوز لأحد الفرار من دمشق ، بل يجب البقاء فيها لحمايتها من الأعداء ، ويبقى أولئك العلماء في دمشق لكن أولادهم وأهليهم أرسلوهم إلى مصر وغيرها . وحين انتهت هذه المحن بطرد التتار وهزيمتهم برز ابن تيمية - كإمام من أئمة العلم والجهاد - ، وصارت له الوجاهة والمنزلة عند الناس .

وهناك أسباب أخرى - لهذه المحن التي مر بها - تتعلق بمواقفه من أهل الكلام والتصوف والفلسفة ، إذ لم تقتصر هذه المواقف على بيان مذهب السلف والسكوت عمن عداهم ، أو بيان حرمة القول الفلاني أو خطئه فقط ، أو غير ذلك من المواقف الباردة ، بل كانت مواقفه قائمة على الرد على تلك الفرق والطوائف المختلفة ، وذلك ببيان أصولها المنحرفة التي ترجع إليها ومناقضتها لأصول ومنهج السلف - رحمهم الله تعالى - فلما بدأ وهو الخبير بأصول الفرق ونشأتها وتطور المقالات الفلسفية والكلامية وكيف يؤثر بعضها على بعض ويتلقي بعضها من بعض ؛ يشرح أصول أهل الكلام - وفيهم الأشاعرة - ويرجعها إلى أصول أهل الفلسفة والتجهم والاعتزال ، ويوضح أصول مذهب السلف وتميزها عن منهج هؤلاء جميعا ، وكل ذلك بأسلوب علمي قوي قائم على الأدلة والنصوص والنقول عن كتب ومصادر هذه الطوائف مما لا يقدر أحد على إنكاره أو ادعاء التحريف في نقله لما صار يتحدث ويكتب بهذا الأسلوب أفزع أولئك العلماء المقلدة الذين نشأوا وتلقوا عن شيوخهم مذاهبهم وعقائدهم ، وهم لا يشكون انها هي مذهب أهل السنة والجماعة .

لذلك قاموا على ابن تيمية يتهمونه بالطعن على السلف ، ويدافعون عن المذهب الأشعري ، فكانت بينه وبينهم صولات وجولات استمرت زمنا طويلا .

ومن الأشياء التي تلفت الانتباه في محن ابن تيمية دوره الإيجابي فيها ، فلم تكن تلك الأحداث وما يصاحبها من التشهير والسجن وصنوف الإيذاء النفسي والجسدي تبعد به عن أهدافه الكبرى من تعليم الناس وبيان الحق لهم ، ولذا تجده وهو في وسط المحنة إذا أحس بانفراج - ولو كان محدودا - لا يلتفت إلى ذاته ونفسه والدفاع عنها ، والانتقام لها ، وإنما يتوجه إلى أصل القضية التي يدافع عنها يبين الدليل عليها ، ويؤلف الكتب والرسائل حولها ولعل تلك الكتب العظيمة التي قد يبلغ الواحد منها مجلدات والتي ألفت على أثر بعض تلك المحن من أعظم الجوانب الإيجابية فيها .

وسنعرض لجانبين اثنين حول محنه :

الجانب الأول : عرض مختصر لمحنه التي مر بها .

والجانب الآخر : أدوار ابن تيمية الإيجابية في هذه المحن .

أ - عرض مختصر للمحن التي مر بها :

١ - محنته بسبب « الحموية » :

وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨ هـ ، في آخر سلطنة المنصور حسام الدين لاجين - [٦٩٦ - ٦٩٨ هـ] وذلك بين سلطنة الناصر قلاوون الأولى والثانية - وكان نائب الشام سيف الدين قبج المنصوري ، فلما كان في أول عام ٦٩٨ هـ بلغ النائب والأمراء أن السلطان غاضب عليهم ، فعزموا على الذهاب إلى بلاد التتر والنجاة بأنفسهم [(١)] ، فوقع اضطراب شديد ، ففي هذه الأثناء وقعت محنة ابن تيمية حول الحموية ، ولعل الفقهاء استغلوا هذه الفوضى فحملوا على عقيدة الشيخ ، وملخص هذه المحنة « أنه كتب جوابا سئل عنه من حماه » [(٢)] في الصفات ،

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٢/١٤) .

(٢) يقول ابن تيمية : « كنت سئلت من مدة طويلة بعيدة سنة تسعين وستمائة عن الآيات والأحاديث الواردة في صفات الله ، في فتيا قدمت من حماه فأحلت السائل على غيري فذكر أنهم يريدون الجواب مني ، فكتبت الجواب في قعدة بين الظهر والعصر » نقض التأسيس المخطوط (٣/١) .

فذكر فيه مذهب السلف ، ورجحه على مذهب المتكلمين ، وكان قبل ذلك بقليل أنكر أمر المنجمين [(١)] ، واجتمع بسيف الدين جاغان [(٢)] في ذلك في حال نيابته بدمشق ، وقيامه مقام نائب السلطنة ، وامتثل أمره ، وقبل قوله ، والتمس منه كثرة الاجتماع به ، فحصل بسبب ذلك ضيق لجماعة ، مع ما كان عندهم قبل ذلك من كراهية الشيخ ، وتألمهم لظهوره وذكره الحسن ، فانضاف شيء إلى أشياء ، ولم يجدوا مساغا إلى الكلام فيه لزهده وعدم إقباله على الدنيا ، وترك المزاحمة على المناصب ، وكثرة علمه ، وجودة أجوبته وفتاويه ، وما يظهر فيها من غزارة العلم وجودة الفهم .

فعمدوا إلى الكلام في العقيدة لكونهم يرجحون مذهب المتكلمين في الصفات والقرآن على مذهب السلف ، ويعتقدونه الصواب ، فأخذوا الجواب الذي كتبه ، وعملوا عليه أوراقا في رده ، ثم سعوا السعي الشديد إلى القضاة والفقهاء ، واحدا واحدا ، وأغروا خواطرهم ، وحرفوا الكلام ، وكذبوا الكذب الفاحش وجعلوه يقول بالتجسيم – حاشاه من ذلك – وأنه قد أوعز ذلك المذهب إلى أصحابه ، وأن العوام قد فسدت عقائدهم بذلك ، ولم يقع من ذلك شيء ، والعياذ بالله ، وسعوا في ذلك سعيا شديدا ... [(٣)] ، وقد وافقهم القاضي الحنفي جلال الدين بن حسام الدين [(٤)] ، ومشى معهم إلى دار الحديث الأشرفية [(٥)] وطلب حضوره وأرسل إليه فلم يحضر ، وإنما أجابه ابن تيمية بقوله :« إن العقائد

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى (١٧٢/٣٥) ، حين ناقش زعماءهم وبين فساد صناعتهم بالأدلة العقلية التي يعترفون بصحتها .

(٢) انظر في توليه النيابة أحيانا السلوك (٨٢٤/١-٨٢٩ ، ٨٤٧،٨٤٩) .

(٣) العقود الدرية (ص : ١٩٨-٢٠٠) ، وانظر : الكواكب (ص : ١١٣-١١٥) .

(٤) وهو : أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن الرازي الحنفي ، توفى قضاء الحنفية في الشام لما تولى أبوه القضاء بمصر . ولد سنة ٦٥١ هـ ، وتوفي سنة ٧٤٥ هـ . انظر : البداية والنهاية (٢١٤/١٤) ، والسلوك (٦٧٤/٢) ، والجواهر المضية (١٥٤/١) ، والفوائد البهية (ص : ١٦) .

(٥) بناها الأشرف مظفر الدين موسى ابن العادل سنة ٦٢٨ هـ ، وأول من تولى مشيختها ابن الصلاح . انظر الأطلال (ص : ٢٤-٢٥) وما بعدها . وخطط الشام (٧١/٦) .

ليس أمرها إليك ، وإن السلطان إنما ولاك لتحكم بين الناس ، وإن إنكار المنكرات ليس مما يختص به القاضي » ، فلما وصل إلى القاضي هذا الجواب غضب وأمر بأن ينادى في البلد ببطلان هذه العقيدة ، ولكن الأمير سيف الدين جاغان أرسل طائفة إلى المنادي فضرب ومن كان معه ، وأمر الأمير بطلب من سعى في ذلك فاختفوا ، ثم إن شيخ الإسلام ابن تيمية لما هدأت الأمور جلس يوم الجمعة ثالث عشر هذا الشهر - شهر ربيع الأول - وكان تفسيره في درسه لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] وذكر الحلم وكان درسا عظيما [١] .

ثم بعد ذلك اجتمع ابن تيمية بعد ذلك بالقاضي الشافعي إمام الدين القزويني [٢] وواعده لقراءة جزئه الذي أجاب فيه وهو المعروف بالحموية ، فاجتمعوا يوم السبت رابع عشر الشهر - من الصباح إلى الثلث من الليل - ميعادا طويلاً مستمراً ، فقرئت جميع العقيدة وبين مراده من مواضع أشكلت ، ولم يحصل إنكار عليه من الحاكم ولا ممن حضر المجلس بحيث انفصل عنهم والقاضي يقول : « كل من تكلم في الشيخ يعزر » ، ورجع ابن تيمية إلى دار في ملأ كثير من الناس ، وهم في فرح واستبشار به [٣] ، وكان إمام الدين - كما يذكر ابن كثير - معتقده حسنا ومقصده صالحا - [٤] .

وهكذا سكنت هذه الفتنة بالاعتراف للشيخ ، في أنه على الحق في عقيدته التي كتبها وسميت « الحموية » وتعتبر من أهم وأقوى رسائل ابن تيمية التأصيلية لمذهب السلف . ومن خلال هذا العرض لهذه المحنة التي نقلها صاحب العقود الدرية نلمح الظروف والأسباب التي دعت هؤلاء للقيام عليه .

---

(١) انظر : العقود (ص : ٢٠٠-٢٠٢) .

(٢) هو : عمر بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد القزويني تولى قضاء القضاة بدل بدر الدين ابن جماعة ، ثم لما جاء التتار انجفل إلى مصر سنة : ٦٩٩ هـ ومات بعد وصوله بقليل . انظر : طبقات السبكي (٣١٠/٨) ، والبداية والنهاية (١٣/١٤) .

(٣) انظر : العقود (ص : ٢٠٢) .

(٤) انظر : البداية والنهاية (٤/١٤) .

٢ – محنته ومناظرته حول « الواسطية » :

وبداية هذه المحنة في يوم الاثنين ٨ رجب سنة ٧٠٥ هـ حين ورد مرسوم من السلطان في مصر إلى نائب الشام أن يسأل الشيخ عن عقيدته ، فجمع النائب القضاة والفقهاء وابن تيمية – وهم لا يدرون لماذا جمعوا – فقال النائب : هذا المجلس عقد لك لمساءلتك عن عقيدتك ، يقول ابن تيمية : « فقلت : أما الاعتقاد فلا يؤخذ عني ، ولا عمن هو أكبر مني ، بل يؤخذ عن الله ورسوله ، وما أجمع عليه سلف الأمة ، فما كان في القرآن وجب اعتقاده ، وكذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة مثل صحيح البخاري ومسلم . وأما الكتب فما كتبت إلى أحد كتابا ابتداء أدعوه به إلى شيء من ذلك ، ولكنني كتبت أجوبة أجبت بها من يسألني من أهل الديار المصرية وغيرهم . وكان قد بلغني أنه زوّر عليَّ كتاب إلى الأمير ركن الدين الجاشنكير [(١)] – أستاذ دار السلطان – يتضمن ذكر عقيدة محرفة ، ولم أعلم بحقيقته ، لكن علمت أن هذا مكذوب ، وكان يرد علي من مصر وغيرها من يسألني مسائل في الاعتقاد أو غيره ، فأجبته بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة » [(٢)] ثم طلبوا منه أن يملي عقيدته فأملاها ، ثم قال للأمير والحاضرين : « أنا أعلم أن أقواما يكذبون عليّ كما قد كذبوا عليّ مرة [(٣)] ، وإن أمليت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون : كتم بعضه ، أو داهن

---

(١) هو : بيبرس البرجي الجاشنكير ، تسلطن سنة ٧٠٨ هـ ، كان يعتقد في نصر المنبجي ولذلك آذوا ابن تيمية زمن سلطنته . وقتل سنة ٧٠٩ هـ لما رجع الناصر إلى السلطنة ، انظر البداية والنهاية (٥٥/١٤) ، والدرر الكامنة (٣٦/٢) ، والنجوم الزاهرة (٢٣٢/٨) ، والمنهل الصافي (٤٦٧/٣) .

(٢) العقود (ص : ٢٠٧-٢٠٨) .

(٣) قضية الكذب على ابن تيمية والتزوير عليه أمر مشهور حتى قبل : أنه رجع إلى عقيدة الأشاعرة وأنه كتب ذلك بخطه . وكل ذلك كذب – وليس العجب أن يقع الكذب عليه وإنما العجب أن يقوم مؤرخ ثقة فاضل – كابن حجر العسقلاني – فينقل ترجمته في الدرر الكامنة (١٥٤/١) ترجمة مطولة لابن تيمية وينقل عن غيره ويذكر هذه الأمور – التي هي في الحقيقة كذب عليه – ثم يسكت عنها . ومن نماذج الكذب على ابن تيمية : أنه في سنة : ٧٠٢ هـ وقع في يد نائب السلطنة كتاب مزور فيه أن ابن تيمية وجماعة يناصحون التتر ويكاتبونهم ، ثم فُضح المزورون ووجد معهم مسودة الكتاب وعوقبوا . البداية والنهاية (٢٢/١٤) ، وكذلك وقع الكذب عليه أنه رجع عن عقيدته . =

أو دارى ، فأنا أحضر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين ، قبل مجيء التتر إلى الشام »[(١)] فأحضرت العقيدة الواسطية ، وقرئت وتناقشوا فيها . ثم أجلت بعض المباحث منها إلى المجلس الثاني الذي عقد يوم الجمعة بعد الصلاة ثاني عشر رجب ، وفي هذه المرة أخذوا أهبتهم في الاستعداد للمناظرة وأحضروا معهم من يعتبرونه أكبر شيوخهم وهو صفي الدين الهندي[(٢)] ، فلما اجتمعوا بدأ ابن تيمية الكلام وذكر أن الله أمر بالجماعة والائتلاف ونهانا عن الفرقة والاختلاف ، ثم قال بأسلوب قوي : « وربنا واحد ، وكتابنا واحد ، ونبينا واحد ، وأصول الدين لا تحتمل التفرق والاختلاف ، وأنا أقول ما يوجب الجماعة بين المسلمين وهو متفق عليه بين السلف ، فإن وافق الجماعة فالحمد لله ، وإلا فمن خالفني بعد ذلك كشفت له الأسرار وهتكت الأستار ، وبينت المذاهب الفاسدة ،

= انظر : العقود (ص : ٢٠٤،٢٠٧،٢٠٩) ، وحين احتالوا عليه أن يرجع عن عقيدته - بأن يكتب كتابا ثم يمزقوه - فرفض ذلك . ترجمة بقلم خادمه (ص : ٢٧-٢٩) ، وكذلك الكذب عليه في الزعم بأنه أنكر تبديل التوراة ، وأنه طعن في عمر وعلي . القول الجلي (ص : ٥٧،٦٦،٦٧) ، وكذلك الكذب عليه في مسألة شد الرحال العقود (ص : ٣٢٨) ، والبداية والنهاية (١٤/١٢٣) ، وكذلك الإخنائي كذب عليه . الرد على الإخنائي (ص : ١٠) ط السلفية . وكذلك الكذب عليه في مسألة النزول . الدرر الكامنة (١/١٦٤) ، وابن بطوطة في رحلته (ص : ١١٠) ط الرسالة .

(١) العقود (ص : ٢٠٩) .

(٢) هو : محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي الهندي ولد سنة ٦٤٤ هـ وتوفي سنة ٧١٥ هـ ، وكان من الذين حضروا المجلس الثاني في مناظرة الواسطية ، واستعان به العلماء لزعمهم أنه من محققي المذهب الأشعري لكن كما قال ابن كثير (البداية : ١٤/٣٦) « ساقيته لاطمت بحرا » . ويذكر ابن تيمية أن الثقة حدثه بعد المناظرة أنه اجتمع به فقال : « قلت لهم : مالك على الرجل اعتراض ، فإنه نصر ترك التأويل ، وقال أنا أختار قول ترك التأويل ، وأخرج وصيته التي أوصى بها وفيها قول ترك التأويل . لكن يبدو أن الصفي رجع فإنه ألف « الرسالة التسعينية في الأصول الدينية » نصر فيها مذهب الأشاعرة وقال في أولها « أما بعد فهذه رسالة مشتملة على تسعين مسألة من مسائل أصول الدين ألفتها لما رأيت طلبة أهل الشام المحروس مقبلين على تحصيل هذا الفن بعد ما جرى من الفتنة المشهورة بين أهل السنة والجماعة ، وبين بعض الحنابلة ... » (التسعينية للأرموي الهندي ورقة ٢ مخطوطة) .

انظر في ترجمته : البداية والنهاية (١٤/٦٥) ، وطبقات السبكي (٩/١٦٢) ، والوافي (٣/٢٣٩) ، ونزهة الخواطر (٢/١٣٥) ، وتاريخ الصالحية (١/١٦٧) ، وطبقات الأسنوي (٢/٥٣٤) ، والبدر الطالع (٢/١٨٧) .

التي أفسدت الملل والدول ، وأنا أذهب إلى سلطان الوقت على البريد ، وأعرفه من الأمور ما لا أقوله في هذا المجلس فإن للسلم كلاما وللحرب كلاما » [(١)] .
ثم جرى نقاش حول عدة قضايا حول الكلام ، والتجسيم ، والاشتراك والتواطؤ في الصفات ، وحديث الأوعال ، وكان ابن تيمية الشيخ والمرجع فإذا تكلم لم يستطيعوا رد كلامه وأدلته . وانتهى هذا المجلس ورجع تقي الدين إلى بيته معززاً مكرماً [(٢)] .

ثم عقد المجلس الثالث في سابع شعبان بالقصر ، واجتمع الجماعة على الرضى بالعقيدة ، وعزل القاضي ابن صصري [(٣)] نفسه بسبب كلام سمعه من كمال الدين ابن الزملكاني [(٤)] ، ثم جاء مرسوم السلطان بإعادته إلى منصبه وفي الكتاب : « إنا كنا سمعنا بعقد مجلس للشيخ تقي الدين ابن تيمية ، وقد بلغنا ما عقد له من المجالس وأنه على مذهب السلف وإنما أردنا بذلك براءة ساحته مما نسب إليه » [(٥)] .

وكان سبب هذه المناظرات – حول الواسطية – وأمر السلطان بذلك ما قام به ابن تيمية – أول هذا العام ٧٠٥ هـ – من غزو الروافض والنصيرية في الكسروان ، ثم بعد ما قام في جمادي الأولى من مناظرة الأحمدية المتصوفة وإنكاره عليهم ،

---

(١) العقود (ص : ٢٣٣-٢٣٤) .
(٢) انظر : البداية والنهاية (٣٧/١٤) .
(٣) قاضي القضاة نجم الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن سالم ابن صصرى الشافعي ولد سنة ٦٥٥ هـ ، وتوفي سنة ٧٢٣ هـ ، انظر : البداية والنهاية (١٠٦/١٤) ، وطبقات السبكي (٢٠/٩) .
(٤) هو : محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني ، قاضي القضاة ، ولد سنة ٦٦٧ هـ وتوفي سنة ٧٢٧ هـ ، مدح ابن تيمية ثم رد عليه ، وفي سنة ٧٢٧ هـ – وهي قاضي قضاة حلب – فجاء الأمر بالذهاب إلى مصر ليتولى قضاء القضاة في الشام وكان من نيته أن يؤذي شيخ الإسلام إذا رجع – بسبب ما بينهما حول مسألة الزيارة – فدعا عليه شيخ الإسلام فمات ببلبيس قبل وصوله إلى القاهرة .
انظر : البداية والنهاية (١٣١/١٤) ، والدرر الكامنة (١٩٢/٤) ، والوافي (٢١٤/٤) ، وفوات الوفيات (٧/٤) ، وطبقات السبكي (١٩٠/٩) .
(٥) انظر : البداية والنهاية (٣٧/١٤) .

وإلزامهم بالشرع وأن من خرج عليه ضربت عنقه ، ثم ظهر الشيخ نصر المنبجي [١] – في مصر – وشاع أمره وميوله نحو المتصوفة ، فأرسل إليه ابن تيمية بالإنكار عليه ، فأغرى الشيخ نصر القضاة والعلماء في مصر ، وقال : إنه سيىء العقيدة مبتدع معارض للفقراء وغيرهم ، وطعنوا فيه عند السلطان ، ولا يبعد أن يكون الروافض قد برطلوا – أي ارتشوا – عليه فورد مرسوم السلطان بمساءلته عن عقيدته فعقدت له تلك المجالس في رجب [٢] .

ولكن المنبجي لم يرض بما انتهت إليه المجالس ، فعمد بأسلوب آخر إلى السعي لدى السلطان لامتحان ابن تيمية مرة أخرى .

٣ – محنته وذهابه إلى مصر :

لم يقتنع نصر المنبجي بما انتهى إليه المرسوم السلطاني الأول ، فسعى إلى السلطان الجاشنكير – الذي كان يعتقد في نصر – فاجتمع به مع طائفة من علماء مصر « فأوهمه الشيخ نصر أن ابن تيمية يخرجهم من الملك ويقيم غيرهم ، وأنه مبتدع ، فورد مرسوم السلطان إلى دمشق بإحضار ابن تيمية إلى مصر [٣] في خامس شهر رمضان سنة ٧٠٥ هـ فلما طلب إلى الديار المصرية مانع نائب الشام وقال : قد عقد له مجلسان بحضرتي ، وحضرة القضاة والفقهاء وما ظهر عليه شيء ، فقال الرسول لنائب دمشق : أنا ناصح لك ، وقد قيل : إنه يجمع الناس عليك ، وعقد لهم بيعة ، فجزع من ذلك وأرسله إلى القاهرة على البريد » [٤] ،

---

(١) هو : نصر بن سليمان ، أبو الفتح المنبجي ، توفي سنة ٧١٩ هـ ، وكان الجاشنكير – السلطان يعتقد فيه – وكان يغالي في محبة ابن عربي الصوفي ، أنشأ له زاوية خارج باب النصر وصار يتعبد فيها ويتردد عليه فيها الأكابر ، ثم مات ودفن فيها . انظر : البداية والنهاية (٩٥/١٤) ، والدرر الكامنة (١٦٥/٥) ، وطبقات الأولياء لابن الملقن (ص : ٤٧٧) ، والخطط للمقريزي (٤٣٢/٢) .

(٢) انظر الكواكب (ص : ١٢٧–١٢٨) .

(٣) وكان المرسوم بالكشف عما جرى في محنته الأولى أيام نيابة جاغان وولاية القاضي إمام الدين القزويني – حول الحموية – سنة ٦٩٨ هـ ، وموضوع المناظرة الأول والأخير واحد هو الصفات ولكن القصد إيهام الناس اختلاف الموضوع بالإحالة على ما كان قبل سنين وإلا فالمناظرات بسبب المرسوم الذي قبله انتهت قبل قليل من ورود هذا المرسوم .

(٤) الكواكب (ص : ١٢٨) .

ويقال : إن النائب أشار على الشيخ بترك التوجه إلى مصر ، وأنه يكاتب في ذلك فامتنع الشيخ من ذلك و لم يقبل ، وذكر أن في توجهه إلى مصر مصالح كثيرة [(١)] .

ولما توجه ابن تيمية إلى مصر - ازدحم الناس لوداعه وكان يوما مشهودا - فلما كان يوم الخميس ٢٢ رمضان وصل مع القاضي ابن صصري إلى القاهرة ، وفي ثاني يوم بعد صلاة الجمعة جمع القضاة وأكابر الدولة في القاعة لمحفل ، وادعى عليه القاضي ابن مخلوف المالكي [(٢)] أنه يقول بالاستواء وأن الله يتكلم بحرف وصوت ، فأخذ ابن تيمية في حمد الله والثناء عليه ، فقيل له : أجب ، ماجئنا بك لتخطب ، فقال : ومن الحاكم فيّ ، فقيل له القاضي المالكي ، قال : كيف يحكم فيّ وهو خصمي ؟ وغضب غضباً شديداً وانزعج ، فحبس في برج مرسما [(٣)] عليه أياما ، وفي ليلة عيد الفطر نقل إلى الحبس المعروف بالجب [(٤)] هو وأخواه شرف الدين عبد الله وزين الدين عبد الرحمن وبقي في السجن عاماً كاملاً وقرئ تقليد في الشام ومصر بالحط على ابن تيمية ومخالفته في العقيدة ، في ليلة عيد الفطر سنة ٧٠٦ هـ اجتمع نائب السلطنة سيف الدين سلار [(٥)] بالقضاة والفقهاء وتكلم في إخراج الشيخ من السجن فاتفقوا على أن يشترط عليه أمور وأن يرجع عن بعض العقيدة ، فأرسلوا إليه من يحضره ليتكلموا معه فأبى أن يحضر ، وتكرر إليه الرسول ست مرات وصمم على عدم الحضور فطال عليهم المجلس ثم انصرفوا من غير شيء .

---

(١) انظر : العقود الدرية (ص : ٢٤٩) ، والبداية والنهاية (١٤/٣٧-٣٨) .

(٢) علي بن مخلوف بن ناهض بن مسلم النويري المالكي قاضي القضاة - ولد سنة ٦٣٤ هـ وتوفي سنة ٧١٨ هـ ، انظر : توشيح الديباج للقرافي (ص : ١٦٢) ، ط دار الغرب - والبداية والنهاية (١٤/٩٠) ، والدرر الكامنة (٣/٢٠٢) .

(٣) الترسيم معناه تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه ، ويكون في السجن غالبا ، والبرج - أحد السجون في القاهرة - وكان الذي سجن فيه ابن تيمية بحارة الديلم في القاهرة ، انظر نظم دولة سلاطين المماليك - النظم السياسية (ص : ١٣٦) ، والسلوك (٢/١٨) .

(٤) سجن « الجب » كان بالقلعة ، وكان يحبس فيه الأمراء وكان مهولا مظلما ، كريه الرائحة يقاسي المسجون فيه ما هو كالموت وأشد منه . انظر : الخطط (٢/٢١٣) ط بولاق .

(٥) كان نائبا للسلطنة سنة ٦٩٨ هـ ، ثم قتل سنة ٧١٠ هـ ، انظر : البداية والنهاية (١٤/٥٨-٥٩) .

ثم طلب أخوا الشيخ إلى نائب السلطنة في ذي الحجة سنة ٧٠٦ هـ وحضر ابن مخلوف وجرت مناقشات بين عبد الله شرف الدين وبين القاضي المالكي فظهر عليه وخطأه في مواضع [١] ، وفي صفر سنة ٧٠٧ هـ اجتمع القاضي بدر الدين ابن جماعة [٢] بالشيخ تقي الدين في دار الأوحدي بالقلعة وطال بينهما الكلام في غير نتيجة [٣] .

فلما كان في ربيع الأول من سنة ٧٠٧ هـ دخل الأمير حسام الدين : مهنا بن عيسى ملك العرب [٤] إلى مصر ، وحضر بنفسه إلى الجب وأقسم على الشيخ تقي الدين ليخرجن ، فلما خرج أقسم عليه ليأتين معه إلى دار سلار ، فاجتمع بعض الفقهاء وجرت بحوث ثم بات الشيخ في دار نائب السلطنة سلار ، ثم اجتمعوا بعد ذلك مرة أخرى بمرسوم من السلطان - ولم يحضر القضاة - ولما طلبوا للحضور اعتذروا بعضهم بالمرض وبعضهم بغيره ، والحقيقة أنه كان هروبا من مناقشة ابن تيمية فقبل نائب السلطنة عذرهم ولم يكلفهم الحضور بعد أن رسم السلطان بحضورهم أو بفصل المجلس على خير . وبات الشيخ عند نائب السلطنة ثم جاء حسام الدين بن مهنا يريد أن يستصحب معه الشيخ تقي الدين إلى دمشق ، فأشار سلار بأن يقيم الشيخ عنده بمصر ليرى الناس فضله .

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٤٣/١٤) ، والعقود (ص : ٢٥٢) .

(٢) محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة ، قاضي القضاة ، ولد سنة ٦٣٩ هـ وتوفي سنة ٧٣٣ هـ ، انظر : طبقات السبكي (١٣٩/٩) ، وطبقات المفسرين (٤٨/٢) ، والدرر الكامنة (٣٦٧/٣) ، والأنس الجليل (١٣٦/٢) ، وطبقات ابن قاضي شهبة (٣٦٩/٢) ، والوافي (١٨/٢) .

(٣) انظر : البداية والنهاية (٤٥/١٤) ، والعقود (ص : ٢٥٢) .

(٤) في القرن السادس صارت منطقة الجزيرة وبادية الشام مكانا لكثير من البدو فنشأت إمارات متفرقة - يسمون أمراء العرب ، ثم برزت أسرة آل مهنا بن عيسى ، ابن آل فضل ، يرجعون إلى ربيعة وصاروا في الأخير يتولون الإمرة من سلاطين مصر ، ولذلك لما برزت هذه الأسرة سمي أميرها ملك العرب ، - كانت لمهنا علاقة قوية بالسلطان الناصر قلاوون الذي كان مشغوفا بالخيل وجمع النادر منها وكان مهنا يحضر له العدد الكثير ، انظر : الخطط (٢٥٥/٢) . والذي يلفت الانتباه ويحتاج إلى بحث كيف توطدت الصلة بين آل مهنا وابن تيمية إلى حد أن يأتي إليه في السجن ويقسم عليه أن يخرج ؟ . انظر عن قبيلة آل مهنا ونسبها ودورها في الأحداث : مسالك الأبصار - قطعة عن قبائل العرب - (ص : ١١٢-١٣٦) ، وصبح الأعشى (٢٠٣/٤) ، وتاريخ ابن خلدون (٤٢٦/٥) ط بولاق ، =

وكتب ابن تيمية كتابا إلى الشام يتضمن ما وقع له ، وكان مدة مقامه في الجب ثمانية عشر شهراً ، وفرح الناس بخروجه فرحاً شديداً . ثم تفرغ للتدريس والإفتاء [١] .

أما أهل الشام فكانوا يتابعون ما يجري للشيخ ويتألمون لما وقع له ، حتى إنه لما جاء خطاب من الشيخ وهو في الجب إلى دمشق أخبر نائب السلطنة في الشام فأرسل في طلبه فقرئ على الناس ، وجعل النائب يشكر الشيخ ويثني على علمه [٢] .

٤ - محنته مع الصوفية في مصر :

بقي ابن تيمية في مصر - بعد خروجه من السجن - يعلم الناس ويفتيهم ويذكر الله ويدعو إليه ، ويتكلم في الجوامع بتفسير القرآن بعد صلاة الجمعة إلى العصر ، ولما كان كثيرا ما يتطرق إلى جوانب عديدة في العقيدة منها ما له مساس بأحوال الصوفية وبدعهم ، إضافة إلى أن خصمه نصرا المنبجي لم ينل - وهو المقدم عند الجاشنكير - ما أراد من إيذاء ابن تيمية ، بل انعكس الأمر وصار ما جرى له سببا في شهرته وإكباب الناس على الاجتماع به والاستفادة من علومه ليلاً ونهاراً .

فجاء الأسلوب هذه المرة من نصر المنبجي وابن عطاء الله السكندري [٣] بإثارة أتباعهم من المتصوفة فاجتمع خلق كثير منهم من أهل الخوانق والربط والزوايا واتفقوا على أن يشكوا الشيخ إلى السلطان ، فطلع منهم خلق كثير إلى القلعة وكانت لهم ضجة شديدة لفتت انتباه السلطان ، فقيل له هؤلاء قد جاءوا من أجل ابن تيمية يشكونه ويقولون : إنه يسب مشايخهم ، واستعانوا عليه بالأمراء وغيرهم .

= وانظر عشائر الشام : أحمد وصفي زكريا (ص : ٨٩)وما بعدها .

(١) انظر : العقود (٢٥٢-٢٥٦) ، و(ص : ١٣١) ، والبداية والنهاية (٤٥/١٢) .

(٢) انظر : البداية والنهاية (٤٣/١٤) ، والعقود (ص : ٢٥١) .

(٣) هو : أحمد بن محمد بن عطاء الله السكندري الشاذلي ، توفي سنة ٧٠٩ هـ ، انظر : الديباج المذهب (٢٤٢/١) ، والدرر الكامنة (١٩١/١) ، وطبقات السبكي (٢٣/٩) ، وشجرة النور (٢٠٤/١) .

وكان ذلك في شوال سنة ٧٠٧ هـ ، فأمر بأن يعقد له مجلس فعقد له مجلس يوم الثلاثاء ١٠ شوال ٧٠٧ هـ ، وظهر من علم الشيخ وشجاعته وقوة قلبه الشيء الكثير ، فادعى عليه ابن عطاء بأشياء لم يثبت عليه منها شيء ، ثم جاء الأمر من الدولة أن يخير بين ثلاثة أشياء ، إما أن يسير إلى دمشق ، أو الإسكندرية بشروط أو الحبس ، فاختار الحبس ، ثم دخل عليه جماعة في السفر إلى دمشق ملتزما ما شرط فأجاب أصحابه إلى ما اختاروه جبرا لخواطرهم ، ثم لما سافر ليلة ١٨ شوال ، رد من الطريق وقيل : إن الدولة لا ترضى إلا الحبس ، واستناب ابن جماعة بعض القضاة أن يحكموا فيه بالحبس فامتنع أحدهم وتحير الآخر ، فلما رأى الشيخ توقفهم في حبسه قال : أنا أمضي إلى الحبس وأتبع ما تقتضيه المصلحة ، فأرسل إلى حبس القضاة وأذن له بأن يكون معه من يخدمه ، فبقي الشيخ في السجن يُستفتى في الأمور المعضلة ويجتمع الناس به ليلا ونهارا ، وكان له دور عظيم في توجيه المحابيس وإصلاح أحوالهم حتى صار له منهم تلاميذ يختارون الإقامة عنده بعد خروجهم [(١)] ، ثم عقد له مجلس بالصالحية بعد ذلك كله ونزل الشيخ بالقاهرة بدار ابن شقير وأكب الناس على الاجتماع به ليلا ونهارا حتى دخلت سنة ٧٠٨ هـ [(٢)] .

٥ - نقله إلى ثغر الاسكندرية :

لما كثر اجتماع الناس به وترددهم عليه ساء ذلك أعداءه وحصرت صدورهم وصاحب ذلك تطور سياسي فقد تسلطن الجاشنكير - حين خرج الناصر إلى الكرك مكرها بسبب كف يده عمليا عن السلطة [(٣)] - وكان بيعة الجاشنكير في ٢٣ شوال ٧٠٨ هـ - وكان ابن تيمية وهو يعلم خفايا الأحداث وقصة ذهاب الناصر إلى الكرك - ينال من الجاشنكير ومن شيخه نصر ويقول :

---

(١) انظر : البداية والنهاية (٤٥/١٤) ، والعقود (ص : ٢٦٧) وما بعدها ، والكواكب (١٣٣) .

(٢) انظر : البداية والنهاية (٤٦/١٤) .

(٣) لقد زور علي السلطان كتاب يتضمن عزل نفسه فأثبت ذلك القضاة في مصر ، وليس ذلك صحيحا ، انظر : البداية والنهاية (٤٨/١٤) ، وانظر : تحقيقا علميا ودراسة للموضوع في : التاريخ السياسي لشرق الأردن في العصر المملوكي (ص : ١٥٤) وما بعدها .

« زالت أيامه وانتهت رياسته وقرب انقضاء أجله ويتكلم فيه وفي ابن عربي وأتباعه » [١] ، فقرروا أن يسيروه إلى الإسكندرية كهيئة المنفي لعل أحدا من أهلها – وفيهم بقايا المتفلسفة والمتصوفة والغلاة – أن يقتله ، ومنعوا أن يذهب أحد من أصحابه معه ، يقول خادمه : فلما كان بعد العصر – وقد جاء الأمر بنقله إلى الاسكندرية – وقفت أبكي ، فقال لي الشيخ لا تبك ، ما بقيت هذه المحنة تبطىء . وركب على باب الحبس ؟ قال له إنسان : يا سيدي هذا مقام الصبر ، فقال له : بل هذا مقام الحمد والشكر ، والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قسم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم ، ولو أن معي في هذا الموضع ذهبا وأنفقته ما أديت عشر هذه النعمة التي أنا فيها » [٢] ، ولما ركب الشيخ – وقد منع أحد أن يصحبه – قال ابن تيمية لخادمه إبراهيم : « يا إبراهيم انزل الشام وقل لأصحابنا ، وحق القرآن – ثلاث مرات – ما بقيت هذه المحنة تبطيء وتنفرج قريبا فوق ما في النفوس ، ويقلب الله مملكة بيبرس أسفلها أعلاها ، وليجعلن الله أعز من فيها أذل من فيها » [٣] . وكان ذهابه في نهاية شهر صفر سنة ٧٠٩ هـ وأقام بثغر الإسكندرية في برج مليح واسع والناس يترددون عليه وقد لحق به بعض أصحابه ، وفي رسالة كتبها أخو الشيخ شرف الدين إلى أخيه بدر الدين في الشام يقول فيها : « فنحن والجماعة في نعم الله الكاملة ومننه الشاملة التي تفوق العد والإحصاء ... فمنها : نزل الأخ الكريم بالثغر المحروس ، فإن أعداء الله قصدوا بذلك أمورا يكيدون بها الإسلام وأهله ، وظنوا أن ذلك يحصل عن قريب ، فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة المعلومة ، وانعكست من كل الوجوه ، وأصبحوا وما زالوا عند الله وعند العارفين من المؤمنين سود الوجوه يتقطعون حسرات وندما على ما فعلوه ، وأقبل أهل الثغر أجمعون إلى الأخ ، متقبلين لما يذكره وينشره من كتاب الله وسنة رسوله والحط والوقيعة في أعدائهما من أهل البدع

---

(١) انظر : البداية والنهاية (١٤/٤٩) ، وقد جرت في هذه الأثناء أحداث ووساطات من الشيخ الدباهي الذي جاء من دمشق ، ومن المشايخ التدامرة ، وفيها أحداث عجيبة . انظر ترجمته بقلم خادمه (ص : ٢٤) وما بعدها .

(٢) ناحية من حياة شيخ الإسلام بقلم خادمه إبراهيم أحمد الغباشي (ص : ٣١،٣٢) .

(٣) المصدر السابق (ص : ٣٢-٣٣) .

والضلالات والكفر والجهالات ، خصوصا أخبث الملاحدة والاتحادية ثم الجهمية . واتفق أنه وجد بها إبليس إلحادهم قد باض وفرخ ، ونصب بها عرشه ودوح ، وأضل بها فريقي السبعينية والعربية [١] ، فمزق الله بها بقدومه الثغر جموعهم شذر مذر ، وهتك أستارهم وكشف رمز إلحادهم وأسرارهم وفضحهم ، واستتاب جماعات منهم وتوّب رئيسا من رؤسائهم ، وصنف هذا التائب كتابا في كشف كفرهم وإلحادهم » [٢] .

وبقي الشيخ في الإسكندرية ثمانية أشهر ، فلما رجع السلطان الناصر إلى الحكم وقدم إلى مصر يوم عيد الفطر سنة ٧٠٩ هـ لم يكن له دأب إلا طلب الشيخ ابن تيمية من الإسكندرية ، فوجه إليه في ثاني يوم من شوال فقدم الشيخ في ثامن هذا الشهر – وفي الإسكندرية خرج خلق يودعونه – فاجتمع السلطان يوم الجمعة في مجلس فيه القضاة والفقهاء ، وقد زالت دولة الجاشنكير وأتباعه ، وعرض الناصر على ابن تيمية أن ينتقم له من أعدائه ولكنه رفض ذلك ، وهنا يسجل للشيخ موقف عظيم ومعرفة بواقع الأمر ، فالناصر لما عرض عليه أن يفتيه في قتل بعض الفقهاء والقضاة كان يريد أن ينتقم منهم بسبب موقفهم منه لما تسلطن الجاشنكير ، ففطن ابن تيمية لمراده وأخذ يعظم القضاة والعلماء وينكر أن ينال أحدا منهم سوء ، وقال له : إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم ، فقال له : إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مرارا فقال الشيخ : من آذاني فهو في حل ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه وأنا لا أنتصر لنفسي ، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح [٣] ، وإنه لموقف عظيم ينبغي أن يتفكر فيه العلماء مرارا ، إذ كثيرا ما تأتي بعض القضايا مما لها وجه في الشرع ولكن الحكام يحرصون عليها لا لأجل ذاتها واتباعا للشرع فيها ، وإنما لأنها تخدم أغراضا أخرى لهم ، والدليل على ذلك أنهم لا يرجعون إلى الشرع دائما وإنما عند الحاجة .

---

(١) نسبة إلى ابن سبعين وابن عربي .

(٢) العقود (ص : ٢٧٣-٢٧٥) .

(٣) انظر : البداية والنهاية (١٤/٥٣-٥٤) ، والعقود (ص : ٢٧٨-٢٨٢) .

ثم أقام ابن تيمية في القاهرة إلى سنة ٧١٢ هـ يفتي ويدرس ويؤلف والناس والأكابر يترددون عليه ، وكتب إلى أقاربه بدمشق يقول : « والحق دائما في انتصار وعلو وازدياد ، والباطل في انخفاض وسفال ونفاد ، وقد أخضع الله رقاب الخصوم وأذلهم غاية الذل ، وطلب أكابرهم من السلم والانقياد ما يطول وصفه . ونحن – ولله الحمد – قد اشترطنا عليهم في ذلك من الشروط ما فيه عز الإسلام والسنة ، وانقماع الباطل والبدعة ، وقد دخلوا في ذلك كله وأقنعنا حتى يظهر ذلك إلى الفعل ، فلم نثق لهم بقول ولا عهد ولم نجبهم إلى مطلوبهم حتى يصير المشروط معمولا والمذكور مفعولا ، ويظهر من عز الإسلام والسنة للخاصة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم ، وقد أمد الله من الأسباب التي فيها عز الإسلام والسنة وقمع الكفر والبدعة بأمور يطول وصفها في كتاب » .

« وكذلك جرى من الأسباب التي هي عز الإسلام وقمع اليهود والنصارى بعد أن كانوا قد استطالوا وحصلت لهم شوكة ، وأعانهم من أعانهم على أمر فيه ذل كبير من الناس ، فلطف الله باستعمالنا في بعض ما أمر الله به ورسوله وجرى في ذلك مما فيه عز المسلمين وتأليف قلوبهم ، وقيامهم على اليهود والنصارى وذل المشركين وأهل الكتاب مما هو من أعظم نعم الله على عباده المؤمنين ، ووصف ذلك يطول ، وقد أرسلت إليكم كتابا أطلب ما صنفته في أمر الكنائس وهي كراريس بخطي ... » [١] .

وكتب الشيخ – إلى والدته – كتابا يمتلىء رقة وحنانا ويعتذر لها عن بقائه في مصر ، وعدم عودته إلى الشام ومما قاله لها : « وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد إنما هو لأمور ضرورية متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا ولسنا والله مختارين للبعد عنكم ، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم ، ولكن الغائب عذره معه ، وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور ، فإنكم ولله الحمد ما تختارون الساعة إلا ذلك ، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهرا واحدا ، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم ، وادعوا لنا بالخيرة ... » [٢] .

---

(١) العقود (ص : ٢٨٤–٢٨٥) .

(٢) العقود (ص : ٢٥٧–٢٥٨) ، ومجموع الفتاوى (٢٨/٤٩–٥٠) .

وجرت على الشيخ بعض الأحداث في مصر [١] ، ثم لما كانت سنة ٧١٢ هـ خرج لجهاد التتر صحبة الجيش المصري ، فلما وصلوا إلى عسقلان توجه إلى بيت المقدس لأنه علم أن التتار رجعوا إلى بلادهم فتحقق من عدم الغزاة ، وأقام في القدس أياما ، ثم قدم إلى دمشق أول ذي القعدة سنة ٧١٢ هـ ، ثم استقر في دمشق زمنا طويلاً تفرغ فيه للتأليف وكتابة الرسائل ، وكانت من أخصب فترات عمره التي ألف فيها كثيرا من كتبه [٢] .

٦ - محنته بسبب « الطلاق » :

كان استقرار ابن تيمية في دمشق بعد عودته من مصر - كما يشير مترجموه - عاملا على تفرغه للبحث والتنقيب في مسائل العقيدة ، والأحكام ، وكان من نتيجة ذلك ترجيحه في بعض مسائل الأحكام ما يخالف فقهاء عصره ، ومن هذه المسائل مسألة الحلف بالطلاق هل يكون طلاقا إذا حنث فيه كما يرى الجمهور ، أم يكون يمينا إذا كان القصد به اليمين كما رجحه ابن تيمية وصار يفتي فيه ، ومسألة اعتبار الثلاث بكلمة واحدة طلاقا رجعيا ، وكان لمنزلة الشيخ ومكانته عند الناس أبعد الأثر في ظهور وانتشار مثل هذه الفتاوى والاقتناع بها ، بل ومناقشة من يعارضها ولو كان من العلماء .

فاجتمع جماعة من كبار العلماء إلى القاضي الحنبلي شمس الدين بن مسلم الحنبلي وكلموه في أن يكلم الشيخ وأن يشير عليه بترك الإفتاء في الحلف في الطلاق ، فقبل الشيخ ابن تيمية إشارته ونصيحته وترك الإفتاء بها وكان ذلك في منتصف ربيع الآخر سنة ٧١٨ هـ ، فلما كان يوم السبت مستهل جمادى الأولى من هذه السنة

---

(١) منها قيام جماعة من الغوغاء عليه بجامع مصر في ٤ رجب ٧١١ هـ وانتصرت الحسينية له حتى كادوا أن يبطشوا بالذين آذوه ولم ينصرفوا إلا بعد مناقشة الشيخ لهم وأمرهم بالانصراف وأن الحق له وليس لهم ، انظر : العقود (ص : ٢٨٥) وما بعدها ، وبعد أيام أوذي من فقيه يقال له المبدى ، وحضر جماعة من الجند للانتصار للشيخ ، ثم تراجع الفقيه وشفع فيه جماعة . العقود (ص : ٢٨٩) .

(٢) انظر : البداية والنهاية (١٦٧/١٤) ، والعقود (ص : ٣٢١) . فقد ذكر أن الشيخ بعد عودته إلى دمشق لم يزل ملازما لـ « نشر العلم وتصنيف الكتب وإفتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة وغيرها » .

جاء الأمر من السلطان بالمنع من الفتوى فيها ، وأمر بعقد مجلس في ذلك فعقد يوم الاثنين ثالث الشهر المذكور ، والفصل على ما أمر به السلطان ونودي بذلك في البلد من الغد .

ثم إن ابن تيمية عاد إلى الإفتاء بذلك وقال لا يسعني كتمان العلم ، فلما كان يوم الثلاثاء ٢٩ رمضان سنة ٧١٩ هـ جمع القضاة وقرئ كتاب السلطان وفيه فصل يتعلق بالشيخ ابن تيمية بسبب الفتوى وأحضر وعوتب على فتياه ، وأكد عليه في المنع من ذلك ، ولكن الشيخ لم يمتنع بل عاد إلى الإفتاء بذلك . فلما كان يوم ٢٢ رجب سنة ٧٢٠ هـ عقد مجلس بدار السعادة حضره النائب والقضاة وجماعة من المفتين وحضر الشيخ وعاودوه في الإفتاء وعاتبوه ، وحكموا بحبسه في القلعة فبقي فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يوما ، ثم ورد مرسوم السلطان بإخراجه فأخرج منها يوم الاثنين – يوم عاشوراء – سنة ٧٢١ هـ [(١)] . ثم تفرغ للعلم والتدريس والإفتاء .

٧ – محنته بسبب فتواه في « شد الرحال إلى القبور » :

وهذه المحنة من أعظم المحن التي مرت على الشيخ وعلى أتباعه والذي يبدو أن أعداء الشيخ والحاقدين عليه والحاسدين له لم يجدوا في مسألة الطلاق – كل ما يأملونه – وإن كان قد سجن بسببها الشيخ ابن تيمية ، فصاروا يبحثون وسيلة وقضية أخرى يدخلون من خلالها على إيذاء شيخ الإسلام وأتباعه ، فعثروا على فتوى له – منذ سبع عشرة سنة – حول شد الرحال وإعمال المطي إلى قبور الأنبياء والصالحين ، ومنها قبر النبي – ﷺ – ، وكانت الفتوى تتضمن ذكر القولين الواردين وترجيح أحدهما – وهو التحريم – مع الأدلة على ذلك .

ففرحوا بذلك وكثر الكلام حولها ، واشتد الأمر ، يقول ابن عبد الهادي : « وكان للشيخ في هذه المسألة كلام متقدم أقدم من الجواب المذكور بكثير ذكره

---

(١) انظر : العقود (ص : ٣٢٥–٣٢٧) ، والبداية والنهاية (٨٧/١٤ ، ٩٧–٩٨) ، والكواكب (١٤٦–١٤٧) .

في كتاب « اقتضاء الصراط المستقيم » [١] وغيره ، وفيه ما هو أبلغ من هذا الجواب الذي ظفروا به ، وكثر الكلام ، والقيل والقال بسبب العثور على الجواب المذكور ، وعظم التشنيع على الشيخ ، وحرف عليه ، ونقل عنه ما لم يقله ، وحصل فتنة طار شررها في الآفاق واشتد الأمر ، وخيف على الشيخ من كيد القائمين في هذه القضية بالديار المصرية والشامية وكثر الدعاء والتضرع والابتهال إلى الله تعالى ، وضعف من أصحاب الشيخ من كان عنده قوة ، وجبن منهم من كانت له همة . وأما الشيخ – رحمه الله – فكان ثابت الجأش قوي القلب ، وظهر صدق توكله واعتماده على ربه » [٢] .

وفي يوم الاثنين ٦ شعبان سنة ٧٢٦ هـ جاء مرسوم السلطان بإقامته في القلعة [٣] فأحضر له مركوب وسار إليها ، وأخليت له فيها قاعة حسنة أجرى عليها الماء ، وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه بإذن السلطان ، ويلاحظ ما يلي :

أ – سرور شيخ الإسلام العظيم بذلك ، وقال : أنا كنت منتظرا ذلك ، وهذا فيه خير عظيم .

ب – مع أن الأمر السلطاني جاء بحبس شيخ الإسلام فقط ، إلا أن نائب السلطنة وقاضي القضاة أصدروا أمرهم بحبس جماعة من أصحاب الشيخ والتضييق عليهم ، بل عزر جماعة منهم على دواب ونودي عليهم ، ثم أطلقوا سوى ابن القيم الذي بقي في حبس القلعة [٤] ، فما الداعي لذلك وقد حبس شيخ الإسلام .

---

(١) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم (٦٦٥/٢) ، إلى آخر الكتاب كله حول القبور والشركيات فيها .

(٢) العقود (ص : ٣٢٨) .

(٣) هي قلعة دمشق ، وتسمى الأسد الرابضي ، وهي قلعة حصينة ، يمر من عند النهر ، بناها تاج الدولة تتشي سنة ٤٧١ هـ . وبنيت فيها دار الإمارة وصارت مدينة كاملة لكنها محصنة . وفي سنة ٦٩١ هـ أكمل بناء قاعاتها ودورها . انظر نزهة الأنام في محاسن الشام للبدري (ص : ٦٠) ، وخطط الشام (٢٧٦/٥) ، ومنادمة الأطلال (ص : ٣٩٧) .

(٤) انظر : البداية والنهاية (١٢٣/١٤) ، والعقود (ص : ٣٣٠) .

جـ – أخذ ابن تيمية يؤلف ويكتب وتنتشر رسائله ومنها رده على الإخنائي المسماة « الإخنائية » . ولذلك صدر أمر السلطان قبل وفاة شيخ الإسلام بأشهر باخراج ما عنده من الكتب ، فكان ذلك من أعظم المصائب عليه وصار يكتب رسائله بالفحم [١] .

د – أما علامة الاستفهام هنا فهي : لماذا تغير السلطان الناصر على ابن تيمية بعد تلك العلاقات الكبيرة بينهما في مصر ؟ ومن خلال تتبع الأحداث تتبين أمور لعلها تفي بالجواب :

١ – الكذب والتحريف على الشيخ وعلى فتواه ، حتى حملت عباراته ما لم تحتمل ، يقول ابن عبد الهادي بعد ذكره لنص فتوى شيخ الإسلام : « ولما ظفروا في دمشق بهذا الجواب كتبوه ، وبعثوا به إلى الديار المصرية ، وكتب عليه قاضي الشافعية : « قابلت الجواب عن هذا السؤال المكتوب على خط ابن تيمية فصح – إلى أن قال – وإنما المخزى [٢] جعله زيارة قبر النبي – ﷺ – وقبور الأنبياء صلوات الله عليهم معصية بالاجماع متطوعا بها » يقول ابن عبد الهادي : هذا كلامه فانظر إلى هذا التحريف على شيخ الإسلام والجواب ليس فيه المنع من زيارة قبور الأنبياء والصالحين ، وإنما ذكر فيه قولين في شد الرحل والسفر إلى مجرد زيارة القبور ... » [٣] .

٢ – دور القضاة والمفتين في مصر والشام ، الذين بادروا بأن كتبوا وشنعوا على ابن تيمية تشنيعا شديدا حتى كتب السلطان بحبسه وكذلك قد يكون للرافضة أو الصوفية دور في ذلك .

٣ – بعد السلطان عن ابن تيمية ، ولو كان عنده لعرف حقيقة الأمر ولسمع من رأيه وأدلته مباشرة ، ولكنه وهو في مصر إنما يسمع ما يقوله من حوله

---

(١) انظر : العقود (ص : ٣٦٣-٣٦٤) ، والبداية والنهاية (١٣٤/١٤) ، والكواكب (ص : ١٧٣) .

(٢) في العقود : المحرف والتصويب من الكواكب . وفي البداية والنهاية (١٢٤/١٤) كتبت : المحز .

(٣) العقود (٣٤٠-٣٤١) ، والكواكب (ص : ١٥٧) .

من القضاة فإذا انضاف إلى ذلك ما في المسألة من تحريف على الشيخ ، فلا يبعد أن يأمر السلطان بما أمر ، والدليل على ذلك أن ابن تيمية لما مرض – مرض الوفاة – دخل عليه شمس الدين الوزير بدمشق فاعتذر له والتمس منه أن يحلله فأجابه الشيخ : « إني قد أحللتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أني على الحق ، وقال ما معناه : إني قد أحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه إياي ، كونه فعل ذلك مقلدا غيره ، معذور ، أو لم يفعله بحظ نفسه بل لما بلغه ، مما ظنه حقا من مبلغه والله يعلم أنه بخلافه » [١] .

٤ – انتصر لشيخ الإسلام علماء بغداد وكتبوا بما يوافق قوله في مسألة شد الرحال وسجلوا ذلك بخطوطهم – نقل بعضها ابن عبد الهادي [٢] – بل وكتب علماء بغداد للملك الناصر – مع نفس الأجوبة – كتابا يثنون فيه على ابن تيمية ويستنكرون ما جرى له وكان مما قالوه في خطابهم هذا « أحمد ابن تيمية درة يتيمة يتنافس فيها ، تشترى ولا تباع ، ليس في خزائن الملوك درة تماثلها وتؤاخيها ... وليس يقع من مثله أمر ينقم منه عليه إلا أن يكون أمرا قد لبس عليه ، ونسب إلى ما لا ينسب مثله إليه » [٣] كما كتب إلى السلطان كتاب آخر ، ويعلق صاحب الكواكب الدرية بقوله : « قلت والظاهر أن هذه الكتب لم تصل للسلطان الملك الناصر ، إما لعدم من يوصلها أو لموت الشيخ قبل وصولها ، وإلا لظهر لها نتيجة » [٤] .

ب – دور ابن تيمية الإيجابي في هذه المحن :

الذين يتعرضون لمثل هذه الابتلاءات والمحن كثيرون ، والرجال الأشداء ذوو الإيمان الصادق هم الذين لا يضعفون أمامها ، وثباتهم وعدم ضعفهم يعتبر نصرا لهم أمام هذه الابتلاءات التي قد تكون مما أجراه الله على يد بعض الظالمين

---

(١) الأعلام العلية (ص : ٨٢) ، والكواكب (ص : ١٧٤-١٧٥) .
(٢) انظر : العقود (ص : ٣٤٢-٣٦٠) ، والكواكب (ص : ١٥٩) وما بعدها .
(٣) العقود (ص : ٣٥٧) ، والكواكب (ص : ١٦٩) .
(٤) الكواكب (ص : ١٧١) .

ليبتلي بهم عباده المؤمنين . فإذا ما تحولت المحنة والابتلاء إلى زيادة في الإيمان وإيجابية في العمل في العلم وثقة تامة بهذه العقيدة التي أوذي من أجلها ، وانطلاقة صادقة في الدعوة إليها ، وتحويل جو المحنة – وما فيها من أذى شخصي ونفسي – إلى خدمة المبدأ الذي يدعو إليه ، إذا ما أصبحت آثار وإيجابية المحنة بهذا المستوى فتلك قمة السموق التي لا يصل إليها إلا القليل من الرجال .

وقد كان شيخ الإسلام من هؤلاء ، فالمحن التي مر بها تحولت بفضل الله وعونه له إلى مواقف إيجابية كان فيها الخير للإسلام والمسلمين والعزة لعقيدة أهل السنة والجماعة التي يدعو إليها : وهذه نماذج من إيجابياته فيها :

١ – اختياره الذهاب إلى مصر – لما جاء طلب السلطان بإشخاصه إلى مصر – وأراد النائب أن يعتذر عنه وأن يبقى في الشام ، ولكن شيخ الإسلام اختار الذهاب وقال : إن فيه مصلحة ، وفعلاً كم كان من الخير والمصلحة في ذهابه إلى هناك ومناقشاته لنفاة الصفات وللصوفية الذين كان خطرهم قد عم وطم .

٢ – ثم وهو ذاهب إلى مصر – ويعلم أن أمامه قضاة يريدون محاكمته – يمر في الطريق على مدينة غزة ثم يعقد في جامعها مجلسا علميا عظيما ، فهل كان وهو يعقد مجلسه هذا لتعليم الناس وتدريسهم لا يفكر فيما أمامه من سجن وإيذاء ؟ .

٣ – دوره التربوي داخل السجون – إذا كان مع بقية السجناء – كما حدث له في سجنه في مصر بسبب الصوفية ، فإنه لما دخل وجد السجناء مشغولين باللهو واللعب كالنرد والشطرنج مع تضييع الصلوات ، فأنكر عليهم الشيخ ذلك وأمرهم بملازمة الصلاة والتوجه إلى الله بالأعمال الصالحة ، وعلمهم من السنة ما يحتاجون إليه ورغبهم في أعمال الخير ، حتى صار الحبس بالاشتغال بالعلم والدين خيرا من كثير من المدارس والخوانق والربط والزوايا . ومثل ذلك ما حدث له في سجن الإسكندرية .

٤ – اختياره الذهاب إلى الحبس لما اختلف فيه القضاة وتمنعوا في الحكم عليه والدولة تريد حبسه ، فاختار أن يذهب بنفسه إلى الحبس دون أن يصدر في ذلك حكم قاض .

٥ - اختياره للبقاء في مصر بعد الإفراج عنه ومجيء الملك الناصر ، وكان ذلك كما يقول في خطابه لوالدته لأمور ضرورية في الدين والدنيا ، وكان لبقائه في مصر هذه المدة خير كثير في نصر السنة وقمع البدعة ، وإيقاف أهل الذمة من اليهود والنصارى عند حد الشرع وقد تطاولوا قبل ذلك كثيرا .

٦ - أما التأليف والكتابة في أثناء سجنه ، وكذلك ما يضاف إلى ذلك من التدريس والتعليم بعد سجنه كل مرة ، فتلك كانت من أعظم إيجابياته فيها ، ففي سجنه في الإسكندرية وكذلك في سجنه الأخير في القلعة كان مكبا على التأليف والردود ، خاصة في القضايا المطروحة التي سجن من أجلها ، وكذلك كان لا يخرج من سجن إلا ويتجه مباشرة إلى التدريس والتعليم ، لا يأخذ فترة راحة ولا استجمام .

٧ - ولما أراد الذهاب إلى الشام - موطنه ، وفيه والدته الحنون - لم يذهب إلا مع الجيش للجهاد في سبيل الله ، ثم لما علم أن الجيش لن يلقى قتالا توجه في طريقه إلى القدس وعجلون وبلاد السواد وزرع - ولا تذكر الكتب ماذا فعل هناك - ولكنه لن يترك التعجل إلى دمشق إلا لأمر من أمور الخير مما اعتاده - رحمه الله - .

٨ - عفوه عمن ظلمه ، ومسامحته لأعدائه حتى بعد القدرة عليهم وتلك سجية فريدة شهد له بها أعداؤه ، حتى قال ابن مخلوف قاضي المالكية وخصمه - بعد مجادلته للملك الناصر حتى حلم عنهم وصفح - : « ما رأينا مثل ابن تيمية ، حرضنا عليه فلم نقدر عليه ، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا »[١] وقال أيضا : « ما رأينا أتقى من ابن تيمية ، لم نبق ممكنات في السعي فيه ، ولما قدر علينا عفا عنا »[٢] .

٩ - وأخيرا فقد كانت المحنة بحد ذاتها سببا في ذيوع وانتشار كتب ورسائل ابن تيمية حتى قال في سجنه الأخير - في ورقة مكتوبة بالفحم - « وكانوا قد سعوا

---

(١) البداية والنهاية (٥٤/١٤) .
(٢) العقود (ص : ٢٨٣) .

في أن لا يظهر من جهة حزب الله ورسوله خطاب ولا كتاب وجزعوا من ظهور الإخنائية ، فاستعملهم الله تعالى حتى أظهروا أضعاف ذلك وأعظم وألزمهم بتفتيشه ومطالعته ، ومقصودهم إظهار عيوبه وما يحتجون به فلم يجدوا فيه إلا ما هو حجة عليهم ... » (١) .

ثامنا : تلاميذه والمتأثرون به :

من الصعب الإحاطة بتلاميذ ابن تيمية والمتأثرين به ، لأن كتبه ومنهجه تحول إلى مدرسة كبرى لها تلاميذها الذين تحولوا إلى شيوخ كبار وهذه المدرسة قائمة إلى اليوم ومنتشرة في العالم الإسلامي والحمد لله ، وستبقى إن شاء الله تعالى ، لأنها تسير على وفق منهج السلف أهل السنة والجماعة ، ومن ثم فهي لا تنتسب إلى شخص أو طائفة ، بل تحصر انتسابها في متابعة الكتاب والسنة والسير على طريق الرسول - ﷺ - والسلف الصالح ، فليس لابن تيمية ولا لمن بعده إلا فضيلة تجديد ما اندرس أو نسي منها ، وبذل الجهد في الدفاع عنها والدعوة إليها .

وشيخ الإسلام ابن تيمية كثرت في عصره الطوائف والفرق وصار لكل طائفة شيوخ وأتباع ، ومنهج وكتب يتداولونها ، فعظمت مصيبة الأمة الإسلامية بهذه الفرقة ، خاصة وأن كل طائفة تدعي أنها على الحق ، وكان من أعظم ما دخل على المسلمين - وخفي على كثير منهم - اختلاط الحق بالباطل ، وامتزاج العقيدة السلفية بعلم الكلام والفلسفة ، حتى وصل الأمر إلى أن قعدت قواعد وأصلت أصول كلامية ونسبت إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، فكان دور شيخ الإسلام دور المميز لمذهب ومنهج السلف ، والمصفي له عن تلك الشوائب ، مضيفا إلى ذلك نقد تلك الأصول الكلامية ونقض أسسها التي قامت عليها ، فظهر - منهج السلف - واضحا بينا لمن أراده ، وتبين أن غيره ما هي إلا أصول كلامية وقواعد فلسفية جاء بها أصحابها واستقوها بعيدا عن المنابع الصافية من الكتاب والسنة .

---

(١) المصدر السابق (ص : ٣٦٤) .

ولذلك نرى بعض العلماء يعيش في حيرة دهرا يقلب في كتب أهل الكلام ، فلا يهتدي إلى الصواب فيها ، فلما اطلع على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية تبين له الحق الذي كان يبحث عنه يقول أحدهم : « وكنت قبل وقوفي على مباحث إمام الدنيا – رحمه الله – قد طالعت مصنفات المتقدمين ، ووقفت على مقالات المتأخرين من أهل الفلسفة ونظار أهل الإسلام ، فرأيت منها الزخارف والأباطيل والشكوكات التي يأنف المسلم الضعيف في الإسلام أن يخطرها بباله فضلا عن القوى في الدين مكان يتعب قلبي ويحزنني ما يصير إليه الأعاظم من المقالات السخيفة والآراء الضعيفة التي لا يعتقد جوازها آحاد العامة ، وكنت أفتش على السنة المحضة في مصنفات المتكلمين من أصحاب الإمام أحمد – رحمه الله – على الخصوص ، لاشتهارهم بالتمسك بمنصوصات إمامهم في أصول العقائد ، فلا أجد عندهم ما يكفي ، وكنت أراهم يتناقضون إذ يؤصلون أصولا يلزم فيها ضد ما يعتقدونه ، ويعتقدون خلاف مقتضى أدلتهم ، ... وكنت ألتجيء إلى الله سبحانه وتعالى وأتضرع إليه ، وأهرب إلى ظواهر النصوص وألقي المعقولات المتباينة والتأويلات المصنوعة لنبوّ الفطرة عن قبولها ، ثم قد تشبثت فطرتي بالحق الصريح في أمهات المسائل ، غير متجاسرة على التصريح بالمجاهرة قولا وتصميما للعقد عليه ، حيث لا أراه مأثورا عن الأئمة وقدماء السلف ، إلى أن قدر الله تعالى وقوع مصنف الشيخ إمام الدنيا – رحمه الله – في يدي قبيل واقعته الأخيرة بقليل ، فوجدت ما بهرني ، من موافقة فطرتي لما فيه ، وعزو الحق إلى أئمة السنة وسلف الأمة ، مع مطابقة المعقول والمنقول ، فبهت لذلك ، سرورا بالحق وفرحا بوجود الضالة التي ليس لفقدها عوض ، فصارت محبة هذا الرجل – رحمه الله – محبة ضرورية ، يقصر عن شرح أقلها العبارة ولو أطنبت ، ولما عزمت على المهاجرة إلى لقيه ، وصلني خبر اعتقاله ، وأصابني لذلك المقيم المقعد ... » [(١)] وصمم على السفر إليه سنة ٧٢٨ هـ ولكن جاءه بخبر وفاته فحزن عليه حزنا عميقا [(٢)] .

---

(١) العقود الدرية (ص : ٥٠٣–٥٠٥) . وهذا الرجل اسمه عبد الله بن حامد من بغداد ، وانظر : الأعلام العلية (ص : ٣٢) ، والرد الوافر (ص : ١٩٦،٢١٦) ، ففيهما شيء مشابه . وقد رجع بعض الصوفية ، انظر : السبعينية (ص : ١٣٥) ، والإستغاثة (٢٧٦/٢) .

(٢) انظر : العقود (ص : ٥٠٥) .

هذا نموذج لكيفية ونوعية التأثير في مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية ، ونشير بإجمال إلى بعض تلاميذه والمتأثرين به ، فمنهم :

١ - ابن القيم ، محمد بن أبي بكر ، ت ٧٥١ هـ .

٢ - الذهبي ، محمد بن أحمد ، ت ٧٤٨ هـ .

٣ - المزي ، يوسف بن عبد الرحمن ، ت ٧٤٢ هـ .

٤ - ابن كثير ، إسماعيل بن عمر ، ت ٧٧٤ هـ .

٥ - ابن عبد الهادي ، محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة . ولد سنة ٧٠٤ هـ وتوفي سنة ٧٤٤ هـ [(١)] .

٦ - البزار ، عمر بن علي ، ٦٨٨ - ٧٤٩ هـ [(٢)] .

٧ - ابن قاضي الجبل ، أحمد بن حسن بن عبد الله بن عمر بن قدامة ، قاضي القضاة ، ٦٩٣ - ٧٧١ هـ [(٣)] .

٨ - ابن فضل الله العمري ، أحمد بن يحيى بن فضل الله بن المحلى بن دعجان ٦٩٧ - ٧٤٩ هـ [(٤)] .

٩ - محمد بن المنجا بن عثمان التنوخي ، ٦٧٥ - ٧٢٤ هـ [(٥)] .

١٠ - يوسف بن عبد المحمود بن عبد السلام البتي ، توفي سنة ٧٢٦ هـ [(٦)] .

---

(١) انظر : تاريخ الصالحية (ص : ٤٣٢) ، وذيل طبقات الحنابلة (٤٣٦/٢) ، وذيل تذكرة الحفاظ للحسيني (ص : ٤٩) ، والرد الوافر (ص : ٦٢) .

(٢) انظر : الدرر الكامنة (٢٥٦/٣) ، وذيل ابن رجب (٤٤٤/٢) .

(٣) انظر : المنهل الصافي (٢٨٤/١) ، والدرر الكامنة (١٢٩/١) ، وشذرات الذهب (٢١٩/٦) .

(٤) انظر : المنهل الصافي (٢٦١/٢) .

(٥) انظر : البداية والنهاية (١١٦/١٤) ، وذيل ابن رجب (٣٧٧/٢) .

(٦) انظر : ذيل طبقات الحنابلة (٣٧٩/٢) ، وهو من الذين انتصروا لابن تيمية من علماء بغداد في مسألة شد الرحال ، وناله بسبب ذلك سجن ومحنة ، وانظر : العقود (ص : ٣٥٣) ، والكواكب (ص : ١٥٩) .

١١ - ابن شيخ الحزاميين ، أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي ، ٦٥٧ - ٧١١ هـ [(١)] .

١٢ - أبو العباس الزرعي ، أحمد بن موسى ، توفي سنة ٧٦١ هـ [(٢)] .

١٣ - شمس الدين الأصبهاني محمود بن عبد الرحمن بن أحمد ، توفي سنة ٧٤٩ هـ [(٣)] .

١٤ - محمد بن أحمد أبي نصر الدباهي ، الزاهد ، شمس الدين ، ٦٣٦ - ٧١١ هـ [(٤)] .

١٥ - محمد بن عمر بن عبد المحمود الحراني ، ٦٧٧ - ٧١٨ هـ [(٥)] .

١٦ - ابن أبي النجيح : شرف الدين محمد بن سعد الله - ت ٧٢٣ هـ [(٦)] .

١٧ - وأخوه : زين الدين عمر بن سعد الله - ت ٧٤٩ هـ [(٧)] .

١٨ - محمد بن عمر بن قوام البالس - ٦٥٠ - ٧١٨ هـ [(٨)] .

---

(١) كان أبوه شيخ الطائفة الأحمدية ، ولما جاء إلى دمشق صحب ابن تيمية وتأثر به ، وصنف في الرد على الاتحادية ، وكان على عقيدة السلف الصالح . ذيل طبقات الحنابلة (٢/٣٥٨-٣٦٠) .

(٢) قدم القاهرة لما سجن ابن تيمية وكلم الأمير الجاشنكير في أمره وأمعن ، المنهل الصافي (٢/٢٣١-٢٣٢) .

(٣) وهو غير الأصبهاني - صاحب العقيدة التي شرحها وناقشها ابن تيمية ، أما هذا فقد قدم دمشق سنة ٧٢٥ هـ وصار يتردد على ابن تيمية ولازمه ، انظر : الدرر الكامنة (٥/٩٥) ، وبغية الوعاة (٢/٢٧٨) ، وطبقات السبكي (١٠/٣٨٣) ، وطبقات الأسنوى (١/١٧٢) ، وطبقات المفسرين للداودي (٢/٣١٣) .

(٤) ذهب إلى مصر ليصلح بين ابن تيمية والمنبجي ، انظر ترجمة ابن تيمية بقلم خادمه (ص : ٢٤) . وانظر في ترجمة الدباهي : ذيل ابن رجب (٢/٣٦١) .

(٥) سافر سنة ٧١١ هـ لزيارة شيخ الإسلام في مصر فأسر في الطريق ، انظر : ذيل طبقات الحنابلة (٢/٣٧٣) .

(٦) كان مع ابن تيمية في المواطن الصعبة التي لا يستطيع الأقدام عليها إلاّ الأبطال الخلص الخواص . البداية والنهاية (١٤/٢١٠) .

(٧) انظر : البداية والنهاية (١٤/٢٢٧) .

(٨) انظر : المصدر السابق (١٤/٨٩-٩٠) .

١٩ – السرمري : يوسف بن محمد بن مسعود العقيلي ، ٦٩٦ – ٧٧٦ هـ [١] .

٢٠ – يعقوب بن فارس الجعبري ، توفي سنة ٧٢٦ هـ [٢] .

٢١ – علي بن أحمد بن هوس الهلالي ، ت ٧٢٧ هـ [٣] .

٢٢ – محمد بن علي البابا الحلبي العوام ، توفي سنة ٧٢٥ هـ [٤] .

٢٣ – إبراهيم بن الموله البعلبكي ، توفي سنة ٧٢٥ هـ [٥] .

٢٤ – عبد الله بن موسى الجزري ، توفي سنة ٧٢٥ هـ [٦] .

٢٥ – أم زينب فاطمة بنت عباس ، توفيت سنة ٧١٤ هـ [٧] .

وغيرهم كثير ، ذكرهم في الرد الوافر ، والشهادة الزكية .

تاسعا : مؤلفاته ورسائله :

قبل الدخول في الكلام عن مؤلفاته نشير إلى بعض الملامح حول طريقته في الكتابة فابن تيمية كان سريعا في الكتابة ، وكان له جلد عليها ، يقول أخوه عبد الله : « وقد من الله عليه بسرعة الكتابة ، ويكتب من حفظه من غير نقل » [٨] ويقول ابن عبد الهادي : « وأخبرني غير واحد أنه كتب مجلدا لطيفا في يوم ، وكتب غير مرة أربعين ورقة في جلسة وأكثر ، وأحصيت ما كتبه وبيضه في يوم فكان ثماني كراريس في مسألة من أشكل المسائل » [٩] .

---

(١) له نظم : « الحمية الاسلامية في الانتصار لمذهب ابن تيمية » لحظ الألحاظ (ص : ١٦٠) ، أو بغية الوعاة (٣٦٠/٢) ، والدرر الكامنة (٢٤٩/٥) .
(٢) البداية والنهاية (١٢٧/١٤) .
(٣) المصدر السابق (١٣٠/١٤) .
(٤) نفسه (١٢٠/١٤) .
(٥) نفسه (١١٩/١٤) .
(٦) نفسه (١١٩/١٤) .
(٧) نفسه (٧٢/١٤) .
(٨) العقود (ص : ٦٤) ، وانظر أعيان العصر – مجموع للمنجد (ص : ٥٠) .
(٩) المصدر السابق (ص : ٦٤) .

وكان عند ابن تيمية من يبيض له كتبه لأنه يكتب بسرعة ، وكان هناك شخص يكتب مصنفات الشيخ اسمه : عبد الله بن رشيق المغربي ، [توفي سنة ٧٤٩ هـ] يقول ابن كثير : « وكان أبصر بخط الشيخ منه » [(١)] .

وكان أحيانا يتفرغ للإصلاح في كتبه والزيادة فيها والنقصان . كما حدث له بعد خروجه من السجن – بسبب الطلاق – سنة ٧٢١ هـ [(٢)] .

وبعد رجوعه من مصر إلى الشام سنة ٧١٢ هـ تفرغ للكتابة المطولة [(٣)] .

وكان يهتم كثيرا بما ينسب إليه أنه من خطه [(٤)] ، ويبدو أن الكذب عليه وتحريف كلامه جعله حساسا من هذا الجانب .

وكان لا يؤخر الأجوبة – إذا سئل – بل « يكتب في الحال عدة أوصال بخط سريع في غاية التعليق والإغلاق » [(٥)] ، وقد يكون صاحب الرسالة مستعجلاً فيشير إلى ذلك [(٦)] .

وكان يؤلف في سجنه من حفظه ، وينسب الأقوال إلى قائليها ، ثم تأتي بعد المقابلة كما نقل [(٧)] .

وكان يقرأ كثيرا فيطلع أحيانا على تفسير الآية الواحدة أكثر من مئة تفسير [(٨)] .

وكان يسأل إذا احتاج إلى الكتب ، فسأل مرة هل للمدينة كتاب يتضمن أخبارها ؟ كما صنف في أخبار مكة [(٩)] .

---

(١) البداية والنهاية (٢٢٩/١٤) .
(٢) انظر : العقود (ص : ٣٢٧) .
(٣) انظر : البداية والنهاية (٦٧/١٤) .
(٤) انظر : مجموع الفتاوى (٣١٥/٢٧) – الجواب الباهر – .
(٥) انظر : تاريخ ابن الوردي (٤٠٨/٢) .
(٦) انظر مثلا : الكيلانية مجموع الفتاوى (٤١٦/١٢–٤١٧) ، وانظر : مسألة الأحرف مجموع الفتاوى (١١٦/١٢) .
(٧) انظر : الأعلام العلية (ص : ٢٢) ، والكواكب (ص : ٨١) ، والدرر الكامنة (١٦٣/١) .
(٨) انظر : العقود (ص : ٢٦) ، والكواكب (ص : ٧٨) ، والوافي (١٦/٧) .
(٩) انظر : الرسالة المدنية ، مجموع الفتاوى (٣٧٣/٦) .

وكان يرى أنه لا يجوز لمالك الكتب أن يمنعها من سأل عنها ، ويقول : لا ينبغي أن يمنع العلم ممن يطلبه [١] .

وكتب ورسائل ابن تيمية كثيرة جدا وقد ضاع بعضها لأسباب منها : المحن التي مر بها هو وأتباعه فلابد أن تنال المحنة كتبه ورسائله ، وقد وصل الأمر أن يخاف أتباعه أن يظهروا كتبه . إضافة إلى حرص تلاميذ الشيخ على رسائله حتى أنه إذا سئل عن مسألة قال كتبت في هذا ، فلا يدري أين هو ، فيلتفت إلى أصحابه ويقول : ردوا خطي وأظهروه لينقل ، فمن حرصهم عليه لا يردونه ، ومن عجزهم لا ينقلونه فيذهب [٢] .

أما مؤلفاته ورسائله فكثيرة جدا ، بلغت أكثر من ثلاثمائة مجلد ، وقال الذهبي : إنه وجدها أكثر من ألف مصنف [٣] ، وقد قام بمحاولة لإحصائها بعض العلماء [٤] ، ونحن هنا نقصر الكلام على بعض مؤلفاته التي أفردها في العقيدة وفيها ردود على الأشاعرة :

١ – العقيدة الحموية :

وهي جواب لسؤال ورد من حماه ، وموضوع السؤال آيات الصفات كالاستواء وأحاديث الصفات كالأصابع والقدم ، فأجاب شيخ الإسلام بهذه الرسالة التي سميت : الفتوى الحموية الكبرى ، وقد يكون هناك فتوى حموية صغرى قبلها ، وكان قد كتبها في قعدة بين الظهر والعصر .

والحموية خالصة في الرد على الأشاعرة ، وقد جاءت بأسلوب تقريري قوي ، فهي على اختصارها – بالنسبة للكتب الأخرى – مليئة بالقواعد الأصولية

---

(١) انظر : الأعلام العلية (ص : ٦٦) ، والكواكب (ص : ٨٧) .

(٢) العقود (ص : ٦٥) .

(٣) انظر : الرد الوافر (ص : ٧٢) .

(٤) منهم ابن القيم ، له رسالة في مؤلفات ابن تيمية ، والصفدي في الوافي (٢٣/٧) ، وفي العصر الحديث صالح المنصور في كتابه أصول الفقه وابن تيمية (١٥٦/١) وما بعدها . وصبري المتولي في منهج ابن تيمية في تفسير القرآن (ص : ٢٧٢) وما بعدها – ترجمه عن غيره – .

وقد تعرض لمقولة الأشاعرة : إن مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم وأحكم ، ونقضها وبين أن مذهب السلف أسلم وأعلم وأحكم . كما عرض لنشأة تأويل الصفات وأرجع تأويلات ابن فورك والرازي والغزالي إلى تأويلات المريسي ، ثم ختمها بنقول كثيرة للعلماء الذين ينتسب إليهم الأشاعرة وغيرهم وفيها ما يرد عليهم .

ومن يقرأ هذه الرسالة العظيمة لا يستبعد أن تطيش بسببها عقول أشاعرة ذلك العصر . ولذلك امتحن بسببها مرتين مرة في الشام ومرة في مصر .

٢ - جواب الاعتراضات المصرية على الفتاوي الحموية :

ويقع في أربعة مجلدات ، وقد ألفه في مصر [١] ، وواضح من عنوانه أنه جاء بعد محنته الأولى في مصر حين استدعي لمساءلته عن الحموية - ومناظرته الأولى فيها - ولم يصلنا شيء عن هذا الكتاب .

٣ - نقض أساس التقديس :

ويسمى أحيانا : كتاب تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ويسمى نقض تأسيس الجهمية ، والذين تحدثوا عنه قديما ذكروا أنه في ست مجلدات ، وأنه أكبر من درء تعارض العقل والنقل [٢] .

والكتاب من أهم كتب ابن تيمية لأنه جعله خاصا بالرد على كتاب من أعظم كتب الأشاعرة ، وقد عول عليه من جاء بعده ، وهو كتاب « أساس التقديس للرازي » والمطلع على كتاب الرازي هذا يرى خطورة هذا الكتاب لأنه حشد فيه خلاصة أدلة الأشاعرة وشبههم بأسلوب عقلي قوي ، خاصة وأنه أفرده

---

(١) انظر : ذيل طبقات الحنابلة (٤٠٣/٢) .

(٢) يذكر ابن عبد الهادي في العقود (ص : ٢٥) أن درء تعارض العقل والنقل في أربع مجلدات - وبعض النسخ في أكثر من أربعة مجلدات - ، ويذكر في (ص : ٢٨) أن بيان تلبيس الجهمية في ست مجلدات ، وبعض النسخ منه في أكثر من ذلك . أما البزار في الأعلام العلية (ص : ٢٣) فيذكر أن تلخيص التلبيس في اثنى عشر مجلدا ، وأن درء العقل والنقل في سبع مجلدات ، أما ابن الوردي في تتمة المختصر (٤٠٩/٢) فيذكر أن تأسيس التقديس في سبع مجلدات والموافقة في مجلدين .

في مسائل الصفات فقط . يقول ابن تيمية مبينا ظروف تأليفه لهذا الكتاب وأسبابه : « أما بعد فإني كنت سئلت من مدة طويلة بعيدة سنة تسعين وستمائة عن الآيات والأحاديث الواردة في صفات الله في فتيا قدمت من حماه ، فأحلت السائل على غيري ، فذكر أنهم يريدون الجواب مني زائد ، فكتبت الجواب في قعدة بين الظهر والعصر وذكرت فيه مذهب السلف والأئمة المبني على الكتاب والسنة ، المطابق لفطرة الله التي فطر الناس عليها ... وحصل بعد ذلك من الأهواء والظنون ما اقتضى أن اعترض قوم علىٰ خفي هذه الفتيا بشبهات مقرونة بشهوات ، وأوصل إلى بعض الناس مصنفا لأفضل القضاة المعارضين ، وفيه أنواع من الأسئلة والمعارضات ، فكتبت جواب ذلك وبسطته في مجلدات ، ثم رأيت أن هؤلاء المعترضين ليسوا مستقلين بهذا الأمر استقلال شيوخ الفلاسفة والمتكلمين ، فالاكتفاء بجوابهم لا يحصل ما فيه المقصود للطالبين ... واستشعر المعارضون لنا أنهم عاجزون عن المناظرة التي تكون بين أهل العلم والإيمان ، فعدلوا إلى طريق أهل الجهل والظلم والبهتان ، وقابلوا أهل السنة بما قدروا عليه من البغي باليد عندهم واللسان ، نظير ما فعلوه قديما من الامتحان ، وإنما يعتمدون على ما يجدونه في كتب المتجهمة المتكلمين ، وأجل ما يعتمدون كلامه هو أبو عبد الله الرازي إمام هؤلاء المستأخرين ، فاقتضى ذلك أن أتم الجواب عن الاعتراضات المصرية الواردة على الفتيا الحموية بالكلام على ما ذكره أبو عبد الله الرازي في كتابه الملقب بتأسيس التقديس ، لتبيين الفرق بين البيان والتلبيس ، ويحصل بذلك تخليص التلبيس ، ويعرف فصل الخطاب فيما في هذا الباب من أصول الكلام ، التي كثر بسببها بين الأمة النزاع والخصام »[1] ثم تحدث عن منزلة الرازي عند المتكلمين .

وهذا الكتاب – للأسف الشديد – لم يصل إلينا كاملا وإنما وصل بعضه ، وقد طبع جزء من هذا الذي وصل[2] ، وبعضه لا زال مخطوطا[3] ،

---

(١) نقض أساس التقديس المخطوط (١/٣–٥) .

(٢) طبع مجلدان بتحقيق ابن قاسم ، والأول منهما لم يتمحض للكتاب وإنما فيه تكميلات وضعت في صلب الكتاب من كتب ابن تيمية الأخرى .

(٣) في جامعة الملك سعود ثلاثة أجزاء مخطوطة – ليس في المطبوع منها شيء – ويلاحظ أن الثالث منها منزلته الثاني .

والذي لم يصل من الكتاب أكثر مما وصل [١] .

وهكذا تأتي هذه الكتب الثلاثة على الترتيب ، الحموية ، فالجواب عن الاعتراضات عليها ، فنقض أساس التقديس .

٤ - درء تعارض العقل والنقل :

وهذا الكتاب من أعظم كتب ابن تيمية ، وقد ألفه في الرد على الأشاعرة الذين يقولون بوجوب تقديم العقل على النقل إذا تعارضا ، وجعلوا ذلك قانونا كليا لهم ، ومن الذين قالوا بهذا القانون الرازي [٢] وأتباعه ، والغزالي [٣] ، والجويني [٤] ، والقاضي أبو بكر بن العربي [٥] ، وغيرهم .

وقد ألف ابن تيمية هذا الكتاب بعد تأليفه لنقض أساس التقديس ، وقد رجح المحقق - رحمه الله - أنه ألفه بعد وصوله إلى الشام من مصر أي بين عامي ٧١٢ - ٧١٨ هـ [٦] ، ويقول ابن تيمية مشيرا إلى ذلك « وهذه الطريقة هي ثابتة في الأدلة الشرعية والعقلية ، فإنا قد بينا في الرد على أصول الجهمية النفاة للصفات في الكلام على تأسيس التقديس وغيره » [٧] ، فهذا النص أخر تأليف هذا الكتاب عن كتابه الآخر الذي ألفه في مصر نقض أساس التقديس ، ونلمح هنا التدرج التأليفي في نقض أصول الأشاعرة ، فهو في البداية رد على أدلتهم مباشرة وأجاب عن الاعتراضات الواردة عليها ، ثم رأى أن هؤلاء إنما يعتمدون في شبههم واعتراضاتهم على ما كتبه شيخهم ومقدمهم الرازي فرأى أن من تمام الكلام في نقض كلامهم نقض كلام شيوخهم - كالرازي - فألف نقض أساس التقديس ،

---

(١) كتاب الرازي يقع في ١٩٦ وعدد الصفحات التي شملها الرد - المخطوط والمطبوع - ما يقارب ٦٠ صفحة فقط .

(٢) في كتبه ومنها : أساس التقديس (ص : ١٧٢) .

(٣) في كتابه قانون التأويل . طبع مع معارج القدس للغزالي . مكتبة الجندي .

(٤) انظر مثلا : الإرشاد (ص : ٣٥٨) .

(٥) انظر : قانون التأويل له (ص : ٦٤٦-٦٤٧) .

(٦) انظر : درء تعارض العقل والنقل (جـ ١ المقدمة ص : ٧-١٠) .

(٧) درء تعارض العقل والنقل (٢١٨/١٤) .

ثم بعد ذلك رأى أن الرازي وأمثاله ليسوا مستقلين بذلك استقلالاً كاملاً وإنما مادة كلامهم من كلام الفلاسفة فأراد أن يكمل الرد بنقض أصولهم الفلسفية فجاء هذا الكتاب « درء تعارض العقل والنقل » الذي لم يكن مقتصرا على جواب هذه المسألة فقط : تقديم العقل على النقل ، وإنما حوى مباحث طويلة مع الفلاسفة – شيوخ الرازي – وغيرهم ، ونقل أقوالهم وبين من وجوه عديدة أنواعاً من تناقضاتهم ورد بعضهم على بعض .

والكتاب – والحمد لله – وصل إلينا كاملا ونشر نشراً علمياً ممتازاً ، فجزى الله محققه خيراً وغفر له ورحمه .

٥ – القاعدة المراكشية :

وهي أيضا في الرد على الأشاعرة في مسألة « العلو » والاستواء على العرش ، وقد ألفها في السنة الأخيرة من سنوات مقامه في مصر ٧١٢ هـ ، وسبب تأليفها حدوث نزاع بين بعض المغاربة المالكيين حول مسألة العلو ، واختلافهم حول معنى ما جرى للإمام مالك مع السائل له عن الاستواء حين قال له « وما أراك إلا رجل سوء » ، وهل معنى ذلك أنه لا يجب معرفة هذا الأمر بل من تكلم فيه فهو مبتدع مجسم ؟ ، وقد ورد سؤال في ذلك وجه إلى شيخ الإسلام ابن تيمية فأجاب بهذه القاعدة العظيمة التي سميت بـ « القاعدة المراكشية » [1] ، وقد ذكر فيها أصولاً مهمة تتعلق بإكمال الدين ، وفهم النصوص ، ثم تكلم عن العلو وثبوته والرد على شبه المخالفين ، ثم رد على « الواقفة » [2] – الذين أوحى بهم ظاهر السؤال واحتجوا بقول الإمام مالك – وبين خطأهم من وجوه ، وبين أن قول الإمام مالك صريح في الإثبات وأنه لم يكن من الواقفة بحال ، ثم نقل أقوال العلماء في ذلك من المغاربة وغيرهم .

---

(١) طبعت مع مجموع الفتاوى (٥/١٥٣–١٩٣) ، ومجموعة الرسائل والمسائل (جـ ١ ص : ١٨٥–٢١٦) ، كما طبعت مستقلة ومحققة ، طـ دار طيبة .

(٢) انظر : المراكشية (ص : ٥٤) ، وما بعدها ، المحققة .

وهذه الرسالة تجيب على التساؤل الذي يرد دائما بالنسبة للمغاربة وهو : كيف يتبنى المغاربة المذهب الأشعري ، وفيه نفي العلو وتأويل الاستواء ، مع أن الإمام مالكاً إمامهم ، وهم لا يخرجون عن أقواله بل ويتعصبون له ، وهذا الإمام يثبت الاستواء – كما في الرواية المشهورة عنه – ؟ .

٦ – الرسالة التدمرية :

وهي من الرسائل – ذات القواعد العظيمة – في إثبات الصفات والشرع والقدر ، والرد على المخالفين من الأشاعرة وغيرهم ، وهي رسالة مشهورة لكن لم يتبين تاريخ كتابة هذه الرسالة ، وإن كان فيها ما يدل على أن السائلين كانوا من تدمر وقد وصفهم ابن تيمية بقوله : « أما بعد فقد سألني من تعينت إجابتهم أن أكتب لهم مضمون ما سمعوه مني في بعض المجالس » [1] فالظاهر من حالهم أنهم من تلاميذه ، أو ممن قدموا إليه وتتلمذوا عليه زمنا وحضروا مجالسه ، ويرد ذكر مجموعة من المشايخ التدامرة – في مصر – ولهم محاولات للوساطة بين شيخ الإسلام ومناوئيه [2] .

٧ – شرح الأصفهانية :

والأصفهانية متن في العقيدة مختصر لشمس الدين الأصبهاني ، محمد ابن محمود بن عباد [3] ، قدم القاهرة وتولى القضاء ثم استقر بها ، وقد ورد في مقدمة شرح ابن تيمية تاريخ ومكان كتابتها ، ففيها : « سئل شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين ابن تيمية قدس الله روحه .... وهو مقيم بالديار المصرية في شهور سنة اثنتي عشرة وسبعمائة أن يشرح العقيدة ، التي ألفها الشيخ شمس الدين محمد بن الأصفهاني ، الإمام المتكلم المشهور الذي قيل : إنه لم يدخل

---

(١) التدمرية (ص : ٣) المحققة .

(٢) انظر : ناحية من حياة شيخ الإسلام بقلم خادمه (ص : ٢٥–٣٠) .

(٣) ولد سنة ٦١٦ هـ ، وتوفي سنة ٦٨٨ هـ ، وفي بغية الوعاة أنه توفي سنة ٦٧٨ هـ . ولعله وهم : انظر : طبقات السبكي (١٠٠/٨) ، وبغية الوعاة (٢٤٠/١) ، والوافي (١٢/٥) ، وفوات الوفيات (٣٨/٥) والعبر (٣٦٧/٣) وشذرات الذهب (٤٠٦/٥) ، والنجوم الزاهرة (٣٨٢/٧) ، وحسن المحاضرة (٥٤٢/١) ، ومتن العقيدة ذكره السبكي (١٠٢/٨–١٠٣) .

إلى الديار المصرية أحد من رؤوس علماء الكلام مثله ، وأن يبين ما فيها »[١] .

فأجاب إلى ذلك واعتذر بأنه لابد عند شرح ذلك الكلام من مخالفة بعض مقاصده لما توجبه قواعد الإسلام فإن الحق أحق أن يتبع والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين »[٢] .

وقد شرح ابن تيمية هذه العقيدة ، ورد الأصول الكلامية فيها ، وبين ما فيها من انحراف عن منهج أهل الحق ، وقد ذكر شيخ الإسلام أن المصنف سلك في الصفات مسلك الرازي[٣] .

وقد اشتمل الشرح على مباحث العقيدة كلها ومنها الصفات والإيمان ، والمعاد ، واليوم الآخر والقدر والنبوات وغيرها .

٨ - المناظرة حول الواسطية :

وهي تسجيل لما جرى حول « الواسطية » من مجالس ناقشه فيها الأشاعرة وجوابه لهم ، وقد سجلها ابن تيمية بنفسه وذكر ما ورد فيها من اعتراضات ومناقشات حول التحريف والتأويل ، ومسألة الحرف والصوت ، والإيمان وأنه قول وعمل ، والاستواء ، والأشعري ومذهبه في الصفات الخبرية .

٩ - الرسالة المدنية في الحقيقة والمجاز في الصفات :

وقد لخص فيها ابن تيمية مناظرة جرت له مع بعض الأشاعرة حول : وصف الله بالعلو على العرش ، ومسألة القرآن ، ومسألة تأويل الصفات ، وتكلم على مقولة : هل الظاهر مراد أو غير مراد ، وبين أنه لا يجوز صرف النصوص عن ظاهرها اللائق بجلال الله تعالى ، وقد كتبها الزاهد شمس الدين من أهل المدينة[٤] .

---

(١) شرح الأصفهانية ، ط. مخلوف (ص : ٣) .
(٢) نفس المصدر (ص : ٣) .
(٣) انظر : نفس المصدر (ص : ٨،١٥،١٨،١٩) .
(٤) انظر : مجموع الفتاوى (جـ ١ ص : ٣٥١-٣٧٣) .

١٠ - التسعينية :

وهي في الرد على الأشاعرة في مسألة « الكلام النفسي » رد فيها عليهم من أوجه عديدة ، وهذه الرسالة كتبها في مصر في محنته الأولى سنة ٧٠٦ هـ [١] ، وذلك حينما ناقشه علماء الأشاعرة في مسائل العلو والكلام ، وجرى في ذلك فصول سطرها ابن تيمية في مقدمته للتسعينية ، وقال : « وقد كتبت هنا بعض ما يتعلق بهذه المحنة التي طلبوها مني في هذا اليوم ، وبينت بعض ما فيها من تبديل الدين واتباع غير سبيل المؤمنين لما في ذلك من المنفعة للمسلمين وذلك من وجوه كثيرة نكتب منها ما يسره الله تعالى » [٢] ، وهذه الرسالة من رسائل ابن تيمية الفريدة التي ذكر فيها أموراً مهمة ومسائل قد لا توجد في كتبه الأخرى .

١١ - النبوات :

وهو في الرد على الأشاعرة - ومنهم الباقلاني [٣] - في مسألة معجزات الأنبياء والفرق بينها وبين الكرامات والخوارق الشيطانية ، وهو مطبوع لكن فيه نقص ولعل الله أن ييسر مخطوطات هذا الكتاب ليحقق ويخرج بشكل جيد .

١٢ - الإيمان :

وفيه الرد على المرجئة ، ومنهم الأشاعرة ، ونقل أقوالهم في الإيمان وأدلتهم ثم ناقشها [٤] . وهو مطبوع .

١٣ - شرح أول المحصل للرازي :

ولم يصل إلينا ، وكثيرا ما يشير إليه ابن تيمية في كتبه .

---

(١) في المطبوعة سنة ست وعشرين ، وهو خطأ ، إذ في هذه السنة ٧٢٦ هـ كان معتقلا بسبب شد الرحال ، وقد ظن البعض - اعتمادا على ما في المطبوعة - أن هذه الرسالة كتبها ابن تيمية في آخر حياته . وقد قال ابن تيمية فيها (ص : ٣) « فقد قلت هذا بالشام وأنا قائله هنا » .

(٢) التسعينية (ص : ٤) .

(٣) انظر : النبوات (ص : ٤٤) وما بعدها ، ط دار الكتب العلمية .

(٤) انظر : الإيمان (ص : ١١٥) وما بعدها ، ط المكتب الإسلامي .

١٤ - مسائل من الأربعين للرازي :

والأربعين في أصول الدين للرازي مطبوع ، أما كتاب ابن تيمية فلم يصل إلينا .

أما كتب ابن تيمية ورسائله التي رد فيها على مسائل عقيدة الأشاعرة فكثيرة جداً ، ومنها : منهاج السنة ، والاستقامة ، والصفدية ، والجواب الصحيح ، وشرح حديث النزول ، والسبعينية ، والرد على الإخنائي ، والرد على البكري المعروف بالاستغاثة ، وقاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، والحسنة والسيئة ، والرسالة العرشية ، وقاعدة في المعجزات والكرامات ، والمسألة المصرية في القرآن ، والاحتجاج بالقدر ، ورسالة في علم الظاهر والباطن ، والاكليل في المتشابه والتأويل ، وتفسير سورة الإخلاص ، وغيرها ، ولم تفرد هنا لكونها ألفت في الرد على غير الأشاعرة ، لكن جاء الحديث عنهم فيها ضمن ردود ومناقشات أخرى .

عاشرا : عبادته وتوكله وذكره لربه :

لقد تحدث مترجموه عما اشتهر عنه - رحمه الله تعالى - من العبادة والزهد والورع والإيثار والتواضع والكرم الجم [١] .

وأبرز ما في عبادته صدق توكله على ربه وإيمانه بقضائه وقدره ولذلك فهو في أشد حالات الإيذاء والمضايقة تجده يكون في أشد حالات التوكل والثقة بالله تعالى ، ولما جاءه الخبر بنفيه إلى الإسكندرية وقيل له : هم عاملون على قتلك أو نفيك أو حبسك فقال لهم : « أنا إن قتلت كانت لي شهادة ، وإن نفوني كانت لي هجرة ، ولو نفوني إلى قبرص لدعوت أهلها إلى الله وأجابوني ، وإن حبسوني كان لي معبداً ، وأنا مثل الغنمة كيفما تقلبت تقلبت على صوف » [٢] . ومن أقواله : « إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة » [٣] يقول ابن القيم وقال لي مرة : « ما يصنع أعدائي بي ، أنا جنتي وبستاني في صدري ،

---

(١) انظر : الأعلام العلية (ص : ٣٦-٤١،٤٢،٤٨،٦٣) ، والكواكب (٨٣-٨٨) .

(٢) ناحية من حياة شيخ الإسلام بقلم خادمه (ص : ٣٠) .

(٣) الوابل الصيب (ص : ٦٠) - ط دار البيان .

إن رحت فهي معي لا تفارقني ، إن حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة » [١] ويقول ابن القيم : « وكان يقول في محبسه في القلعة : لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبا ما عدل عندي شكر هذه النعمة ، أو قال : ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ونحو هذا ، وكان يقول في سجوده وهو محبوس : « اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » ما شاء الله ، وقال لي مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى ، والمأسور من أسره هواه » [٢] ويقول ابن القيم أيضا : « وعلم الله ما رأيت أحدا أطيب عيشا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش ، وخلاف الرفاهية والنعيم ، بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق ، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً ، وأشرحهم صدراً وأقواهم قلباً وأسرهم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه ، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون ، وضاقت بنا الأرض ، أتيناه ، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كله ، وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة » [٣] .

ويقول ابن القيم عن ذكره لربه : « وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه يقول : « الذكر للقلب مثل الماء للسمك ، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء .. وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ، ثم التفت إليّ وقال : « هذه غدوتي ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي » [٤] .

حادي عشر : وفاته :

لما أخرجت الكتب والأوراق والدواة والقلم من عند شيخ الإسلام في القلعة في يوم الاثنين تاسع جمادى الآخر سنة ٧٢٨ هـ ، تفرغ الشيخ للعبادة وقراءة القرآن واستمر على هذه الحال حتى توفي في ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة من هذه السنة ٧٢٨ هـ . وكانت وفاته على أثر مرض ألم به أياما يسيرة ،

---

(١) الوابل الصيب (ص : ٦٠) ط دار البيان .
(٢) المصدر السابق (ص : ٦١) .
(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .
(٤) المصدر نفسه (ص : ٥٣-٥٤) .

ولما كان الشيخ قد ضيق عليه – خاصة بعد إخراج كتبه وأوراقه – فقد كانت وفاته مفاجئة للناس جميعا ، فقد أصيبوا بصدمة وما كادوا يعلمون صباح الاثنين حتى خرجوا جميعا في جنازته ، واشتد زحامهم عليها ، وقد اعتبرها المؤرخون من الجنائز النادرة فيشبهونها بجنازة الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل – رحمه الله – في بغداد ، وابن تيمية مات في دمشق وهي أصغر من بغداد وليست عاصمة للخلافة ، كما أن ابن تيمية مات مسجوناً مسخوطاً عليه من جهة السلطان وكثير من الفقهاء والصوفية الفقراء يذكرون عنه للناس – مما يسيىء – أشياء كثيرة ، ومع ذلك كانت جنازته مشهودة ومشهورة .

يقول البزار : « ثم إن الشيخ – رحمه الله – بقي إلى ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة الحرام وتوفي إلى رحمه الله تعالى ورضوانه في بكرة ذلك اليوم وذلك من سنة ثمان وعشرين وسبع مئة وهو على حاله ، مجاهداً في ذات الله تعالى ، صابراً ، محتسباً لم يجبن ولم يهلع ، ولم يضعف ، ولم يتتعتع ، بل كان رضي الله عنه إلى حين وفاته مشتغلاً بالله عن جميع ما سواه ، قالوا : فما هو إلا أن سمع الناس بموته ، فلم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه وأراده إلا حضر لذلك وتفرغ له ، حتى غلقت الأسواق بدمشق ، وعطلت معايشها حينئذ وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم ، وخرج الأمراء والرؤساء والعلماء والفقهاء ، والأتراك ، والأجناد ، والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام ، قالوا : لم يتخلف أحد من غالب الناس فيما أعلم إلا ثلاثة أنفس ، كانوا قد اشتهروا بمعاداته ، فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم ، بحيث غلب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس فأهلكوهم » [1] .

ويذكر ابن كثير أن نائب السلطنة كان غائبا فحارت الدولة ماذا يصنعون ، وجاء الصاحب شمس الدين غبريال – نائب القلعة – فعزاه فيه ، وجلس عنده ،

---

(١) الأعلام العلية (ص : ٨٢-٨٣) .

وفتح باب القلعة لمن يدخل من الخواص والأصحاب والأحباب ، فاجتمع عند الشيخ في قاعته خلق من أخصاء أصحابه من الدولة وغيرهم من أهل البلد والصالحية ، فجلسوا عنده يبكون ويثنون [١].

« ثم شرعوا في غسل الشيخ ... ولم يدعوا عنده إلا من ساعد في غسله منهم شيخنا الحافظ المزي وجماعة من كبار الصالحين الأخيار ، أهل العلم والإيمان ، فما فرغ منه حتى امتلأت القلعة وجنح الناس بالبكاء والثناء والدعاء والترحم ، ثم ساروا به ... إلى الجامع الأموي والخلائق فيه بين يدي الجنازة وخلفها وعن يمينها وشمالها ما لا يحصى عدتهم إلا الله تعالى ، فصرخ صارخ وصاح صائح : هكذا تكون جنائز أئمة السنة ، فتباكى الناس ، وضجوا عند سماع هذا الصارخ ، ووضع الشيخ في موضع الجنائز مما يلي المقصورة ، وجلس الناس من كثرتهم وزحمتهم على غير صفوف بل مرصوصين رصا ، لا يتمكن أحد من السجود إلا بكلفة ، جوّ الجامع ويرىّ الأزقة والأسواق ، وذلك قبل أذان الظهر بقليل ، وجاء الناس من كل مكان ، ونوى خلق الصيام لأنهم لا يتفرغون هذا اليوم لأكل ولا لشرب ، وكثر الناس كثرة لا تحد ولا توصف ، فلما فرغ من أذان الظهر أقيمت الصلاة عقبه على السدة خلاف العادة ، فلما فرغوا من الصلاة خرج نائب الخطيب - لغيبة الخطيب بمصر - فصلى عليه إماما ، وهو الشيخ علاء الدين الخراط ، ثم خرج الناس من كل مكان من أبواب الجامع والبلد ... واجتمعوا بسوق الخيل » [٢] في أرض فسيحة فوضعت الجنازة وتقدم للصلاة عليه هناك أخوه زين الدين عبد الرحمن ثم حملت جنازته إلى قبره ، ودفن بمقابر الصوفية إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله قبيل العصر - رحمهم الله جميعا - .

ثم صاروا يتناوبون بالصلاة عليه في قبره - ممن لم يتمكن من الصلاة عليه في المرات السابقة - ، وما وصل خبر موته إلى بلد إلا وصلى عليه في جميع جوامعه

---

(١) انظر : البداية والنهاية (١٣٨/١٤) .

(٢) المصدر السابق (١٣٨/١٤-١٣٩) .

ومساجده خصوصا الشام ومصر والعراق وتبريز والبصرة وغيرها [١] .

وقد رثى بمراثي عديدة ، ذكرها كثير ممن ترجم له [٢] .

✵ ✵ ✵

(١) انظر : الأعلام العلية (ص : ٨٥) .

(٢) انظر : في وفاته ومراثيه : العقود الدرية (ص : ٣٦٩-٥٠٢) ، وتاريخ ابن الوردي (٤٠٦/٢-٤٠٧) ، وذيل ابن رجب (٤٠٥/٢) ، والكواكب (ص : ١٧٤) وما بعدها ، والدرر الكامنة (١٥٩/١) ، وتذكرة النبيه (١٨٥/٢) .

الفصل الثاني

منهج ابن تيمية في تقرير عقيدة السلف وفي رده على الخصوم

تمهيـد .

أولا : مقدمات في المنهج .

ثانيـا : منهجه في المعرفة والاستدلال .

ثالثـا : منهجه في بيان العقيدة وتوضيحها .

رابعـا : منهجه في الرد على الخصوم .

خامسا : الأمانة العلمية .



الفصل الثاني

تمهيـد

الكتابة عن منهج ابن تيمية تحتاج إلى بحث مستقل ، لأن هناك قضايا في منهجه لابد من طرحها بوضوح وشمول حتى يتبين حقيقة مذهبه ومنهجه فيها . ومن ثم فمن الصعوبة أن يحصر الباحث الكلام في منهجه في العقيدة في فصل ضمن فصول أخرى يحتاج كل واحد منها إلى استقصاء المراجع حوله وأن يأخذ ما يستحقه ضمن فصول الرسالة من الدراسة والتحقيق .

وابن تيمية – رحمه الله – لم يركز في كتاباته حول العقيدة على جانب معين فقط ، بل تنوعت كتبه وردوده ، ومناقشاته للمخالفين ، فكتب في شرح عقيدة السلف ، وأقوال أئمة الإسلام ، كما رد وناقش الفلاسفة ، والمعتزلة ، والقدرية ، والجهمية ، والمرجئة ، والمشبهة ، والخوارج ، والصوفية ، والرافضة ، والأشاعرة ، وغيرهم ، وكان موقفه من هؤلاء ، ومنهجه في الرد عليهم نابعا من المنهج السلفي القائم على الكتاب والسنة بموازين دقيقة .

وهذه الحقيقة تميز شيخ الإسلام عن غيره من العلماء ، الذين كانت لهم جهود مشكورة ومساع محمودة في نصرة هذا الدين والذب عن حوزته ، لكن الواحد منهم إنما يشتهر في قضية واحدة من قضايا العقيدة ، أو الرد على طائفة واحدة فقط من هذه الطوائف المنحرفة ، وقد يكون متلبسا بانحراف معين قالت به طائفة أخرى ، والمقصود بهذا الكلام العلماء المتأخرون بعد القرون المفضلة ، وذلك حين كانت هذه الفرق والطوائف المنحرفة موجودة في كل مكان في العالم الإسلامي .

إن من نعم الله الكبرى – على شيخ الإسلام ابن تيمية – أنه رد على كل طائفة وما وقع في انحراف الطائفة المقابلة لها ، ولا شك أن من اعتصم بالله وبكتابه وسنة نبيه محمد – ﷺ – من غير غلو ولا تقصير فإن الله يوفقه إلى الوسطية ، ودين الله وسط بين الأديان ، وأهل السنة وسط بين الطوائف .

لقد كان شيخ الإسلام صاحب منهج واضح ، وقد وظف هذا المنهج في جميع ما كتب ، فما تغيرت طريقته ولا وقع في التناقض كما حدث لغيره . ولا نريد أن نقارن بينه وبين الغزالي - مثلا - كما فعل بعضهم ، لأن الغزالي وإن كان قد رد على الفلاسفة والباطنية ، إلا أنه لم يكن مستمرا على منهج واحد ثابت ، ولذلك تقلبت به الأحوال كثيرا .

ولكن نقارن بين شيخ الإسلام وعلم آخر ، كان صاحب منهج ، سطر منهجه في كتبه ، كما كان صاحب آراء اجتهادية وأصولية جدد فيها تجديدا جعله من أعلام هذا العلم ، وهذا الإمام هو أبو إسحاق الشاطبي المتوفي سنة ٧٩٠ هـ [(١)] أي بعد وفاة ابن تيمية بما يزيد قليلا عن ستين عاما ، فهذا الإمام كانت له جهود مشكورة في مجالات متعددة ، أهمها جانبان :

أحدهما : التجديد في مجال « أصول الفقه » ، والتركيز على مسائل المصالح المرسلة ، وبيان كمال هذه الشريعة ، وشرح الكليات المتضمنة لمقاصد الشارع في وضع الشريعة ، كما طرق مباحث أصول الفقه وربطها بتلك الكليات والمقدمات فجاءت مباحث هذا الكتاب فريدة في منهجها وأسلوب عرضها .

والآخر : التجديد في مجال تمحيص السنة ورد البدعة ، وقد كانت له مواقف عملية في هذا الجانب ، ولما رأى الناس في عصره - مالوا إلى ما أحدثه متصوفة عصره وغيرهم من البدع في الأذكار والعبادات وإقامة الموالد وغيرها - أيقن أنه لابد من الرجوع إلى الأصول الشرعية لتمييز ما هو من قبيل الشرع موافق لأصوله وأدلته ، عن ما هو من قبيل البدع التي حرمها دين الإسلام ونهي عنها ، فجاء كتاب « الاعتصام » فريدا في أسلوبه ومنهجه ، فعرض بشكل مفصل لقضايا البدع

---

(١) هو : الإمام إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي ، صاحب الموافقات والاعتصام والإفادات والإنشادات وغيرها ، توفي سنة ٧٩٠ هـ ، انظر : برنامج المجاري (ص : ١١٦) ، ونيل الابتهاج بحاشية الديباج (ص : ٤٦) ، وفهرس الفهارس (١٩١/١) ، وشجرة النور الزكية (٢٣١/١) ، والفكر السامي (٢٤٨/٢) ، وانظر أوفى ترجمة له في مقدمة تحقيق الفتاوي للشاطبي : لمحمد أبو الأجفان (ص : ١٩-٦٤) .

ومنشئها وحكمها ، فمن القضايا المنهجية في كتابه :

١ - مأخذ أهل البدع في الاستدلال [١] .

٢ - أحكام البدع الحقيقية والإضافية والفرق بينهما [٢] .

٣ - الفرق بين البدع والمصالح المرسلة والإستحسان [٣] .

٤ - أنواع دخول البدعة في الشرع أربعة : الجهل بأدوات المقاصد ، والجهل بالمقاصد ، وتحسين الظن بالعقل ، واتباع الهوى [٤] .

فهذان الكتابان - الموافقات والاعتصام - بما فيهما من تجديد ومنهجية كانا سبباً في شهرة مؤلفهما ، وتبوئه لمكانة في النفوس بوصفه من المدافعين عن مذهب السلف الذين عملوا على تمحيصه مما شابه من بدع وضلالات .

ولكن هل هذا المنهج استمر مع الشاطبي في جميع مباحث العقيدة ؟ وهل الأصول المنهجية التي وضعها في كتاب « الاعتصام » طبقها في جوانب العقيدة الأخرى ؟ .

الجواب عن ذلك [٥] يتبين من خلال تتبع بعض أقواله في العقيدة وقضاياها التي يذكرها عرضا : وهذه أمثلة :

١ - يقول في معرض ذكره لانحراف المنحرفين الذين يتبعون المتشابه :

---

(١) انظر : الاعتصام (٢٢٠/١) .

(٢) المصدر السابق (٢٨٦/١) .

(٣) نفسه (١١١/٢) .

(٤) نفسه (٢٩٣/٢) وما بعدها .

(٥) الشاطبي وكتبه لها مكانة في النفوس وما كنت أقصد زعزعة هذه المكانة بهذه المناقشات ، والذي دعاني إلى ذلك أمران ، أحدهما : انتشار كتاب الاعتصام بين عامة الناس وثقتهم به ، وقد يغتر من لا علم عنده بمثل هذه الزلات التي وقع فيها الشاطبي ، أما الأمر الثاني : فهو أن بعض الناس ليس عنده إلا أبيض أو أسود ، فأما أن يقبل هذا العالم أو هذا الكتاب بكل ما فيه أو يرده بكل ما فيه لوجود ملاحظات عليه ، والمنهج الصحيح الاعتراف لأهل الحق بما عندهم من حق وقبوله ولو كانت عليهم ملاحظات .

« ومثاله في ملة الإسلام مذهب الظاهرية [١] في إثبات الجوارح للرب – المنزه عن النقائص – من العين واليد والرجل والوجه – المحسوسات ، والجهة ، وغير ذلك من الثابت للمحدثات » [٢] ، قد يتبادر إلى الذهن أنه يقصد الرد على المشبهة خاصة وأنه قال « المحسوسات » ، ولكن ذكره للجهة – والسلف يثبتون لله صفة العلو – وقوله « وغير ذلك من الثابت للمحدثات » يدل على أن إثبات هذه الصفات : العين ، اليد ، وغيرها لله تعالى على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته عنده لا تجوز لأنها من الصفات التي تثبت للمحدثات ، ومن ثم فيجب تأويلها وهذا هو مذهب الأشاعرة ، وإذا كان قد ذكر من مآخذ أهل البدع في الاستدلال « ردهم للأحاديث التي جرت غير موافقة لأغراضهم ومذاهبهم ، ويدعون أنها مخالفة للمعقول ، وغير جارية على مقتضى الدليل فيجب ردها كالمنكرين لعذاب القبر ، والصراط ، والميزان ، ورؤية الله عز وجل في الآخرة » [٣] فكيف – وهذه عبارة الشاطبي نفسه – نفرق بين الموقفين والمنهجين ؟ .

٢ – ويقول أيضا في معرض رده على أهل البدع في استدلالهم بأحد الأحاديث : « والثاني أنه خبر واحد في مسألة قطعية فلا يسمع » [٤] ، هذا كلام واضح وصريح في هذه المسألة الخطيرة ، التي بسببها ردت أحاديث كثيرة في الصفات ، ولكن الشاطبي نفسه – في موضع آخر لا يتبنى هذا القول بل يرد – في أثناء عرضه لمآخذ أهل البدع في الاستدلال على الذين لا يأخذون بأحايث الآحاد فيقول : « وذهبت طائفة إلى نفي أخبار الآحاد جملة ، والاقتصار على ما استحسنته عقولهم في فهم القرآن ، حتى أباحوا الخمر بقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ الآية [المائدة : ٩٣] ففي هؤلاء وأمثالهم قال رسول الله – ﷺ – « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول : لا أدري ما وجدنا

---

(١) ما بعد هذه الكلمة يوضح المراد منها ، وقد يقصد بعض علماء الظاهرية كداود وغيره فإنهم مثبتة في الصفات .

(٢) الاعتصام (٢٤٠/١) .

(٣) المصدر السابق (٢٣١/١) .

(٤) الاعتصام (١٥٢/٢) .

في كتاب الله اتبعناه » (١) وهذا وعيد شديد تضمنه النهي لاحق بمن ارتكب رد السنة (٢) ، فهل الرد للحديث في الموضع الأول مختلف عنه في الموضع الثاني .

٣ - ونضرب مثالا ثالثا - والتركيز في الأمثلة على ما فيها منهج ليس على الجزئيات - يقول الشاطبي في معرض ذكره لأنواع دخول البدع في الشرع وأسبابه وأن منها تحسين الظن بالعقل ، يقول بعد كلام طويل : « فهو أصل اقتضى للعاقل أمرين : أحدهما : أن لا يجعل العقل حاكما بإطلاق ، وقد ثبت عليه حاكم بإطلاق وهو الشرع ، بل الواجب عليه أن يقدم ما حقه التقديم - وهو الشرع - ويؤخر ما حقه التأخير - وهو نظير العقل - لأنه لا يصح تقديم الناقص حاكما على الكامل ، لأنه خلاف المعقول والمنقول ، بل ضد القضية هو الموافق للأدلة ولا معدل عنه » (٣) ، هذا الكلام منهجي وسليم - موافق لمذهب أهل السنة - ، لكنه لما ذكر الأمثلة على ذلك مما قد يتوهم أن العقل يحيله وهو ثابت في الشرع ذكر هذا المثال : « والسابع : رؤية الله في الآخرة جائزة ، إذ لا دليل في العقل يدل على أنه لا رؤية إلا على الوجه المعتاد عندنا ، إذ يمكن أن تصح الرؤية على أوجه صحيحة ليس فيها اتصال أشعة ، ولا مقابلة ، ولا تصور جهة ، ولا فضل جسم شفاف ، ولا غير ذلك ، والعقل لا يجزم بامتناع ذلك بديهة ، وهو إلى القصور في النظر أميل ، والشرع قد جاء بإثباتها فلا معدل عن التصديق » (٤) . أراد الشاطبي أن يقول لا مانع من إثبات الرؤية ونفي صفة العلو لله تعالى ؛ وذلك حين قال : « ولا تصور جهة ولا فضل جسم » ،

---

(١) رواه الإمام أحمد (٨/٦،١٣١/٤) ، والدارمي - باب السنة قاضية على الكتاب (١٤٤/١) - ط دهمان ، وأبو داود في السنة - باب لزوم السنة ورقمه (٤٦٠٤-٤٦٠٥ ، ٥/١٠-١٢) - ط الدعاس ، والترمذي في العلم ، باب ما نهى عنه أن يقال عند حديث النبي - ﷺ - ورقمه (٣٧/٥،٢٦٦٣) ، ط عطوة ، وابن ماجه في المقدمة ، باب حديث رسول ﷺ ، (١٣/١٢) . والحاكم (١٠٨/١-١٠٩) وصححه ووافقه الذهبي ، كما قال فيه الترمذي : حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني في صحيح الجامع .

(٢) الاعتصام (١٣٢/١) .

(٣) الاعتصام (٣٢٦/٢) .

(٤) المصدر السابق (٣٣٠/٢) .

ولكن كيف يصنع بأدلة العلو التي هي أضعاف أضعاف أدلة الرؤية ؟ وكيف يسلم لمن نفى العلو - الجهة - لشبهة التجسيم أو مخالفة العقل ، وينعي على نفي الرؤية لنفس التعليل ، وكلاهما وردت به النصوص ؟ ، وهذا التناقض إنما ساير فيه الشاطبي الأشاعرة ، وهو من المضايق الخانقة في مذهبهم ، وقد فشلوا في الجواب عنه فشلاً ذريعاً - كما سيأتي إن شاء الله - .

هذه أمثلة توضح الفرق بين المنهجين : منهج الشاطبي ، ومنهج شيخ الإسلام ابن تيمية ، الذي جاءت كتبه كلها - سائرة على منهج واحد - حتى أن الإنسان ليحتار أي كتبه ألفه أولا ، ليس هناك مراحل في منهجه وحياته - كما حدث لغيره - وإنما هو منهج وطريق واحد في جميع القضايا التي طرحها في كتبه .

لقد التزم شيخ الإسلام بمذهب ومنهج السلف - في جميع ما كتب - حتى أن بعض عباراته لا يتبين لأول وهلة أهي عبارته أم عبارة غيره من السلف حين ينقل شيئا من كلامهم .

ومما يعجب له في هذا الباب أن أحد العلماء [(١)] - المعاصرين لابن تيمية - رد على ابن تيمية في مسألة العلو - أو الجهة كما يسميها - في كتاب ذكره السبكي بتمامه في طبقاته [(٢)] ، فكان مما قاله هذا العالم : « ولو تنازل [(٣)] واكتفى بما نقل عن إمامه الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - حيث قال : « لا يوصف الله تعالى إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله - ﷺ - ، لا نتجاوز القرآن والحديث ، ونعلم أن ما وصف الله به من ذلك فهو حق ، ليس فيه لغو ولا أحاج ، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه

---

(١) هو : أحمد بن يحيى بن إسماعيل شهاب الدين ، ابن جهبل الكلابي الحلبي الأصل ، ولد سنة ٦٧٠ هـ وتوفي سنة ٧٣٣ هـ ، طبقات السبكي (٩/٣٤) ، والبداية والنهاية (١٤/١٦٣) ، وشذرات الذهب (٦/١٠٤) ، وطبقات الأسنوي (١/٣٩٠) ، والدرر الكامنة (١/٣٥٠) .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (جـ ٩ ص : ٣٥-٩١) .

(٣) في الطبقات « ولا تنازل » والتصويب من تنبيه النبيه والغبي في الرد على المدراسي والحلبي ، لأحمد ابن إبراهيم بن عيسى .

وهو مع ذلك ليس كمثله شيء في نفسه المقدسة ، المذكورة بأسمائه وصفاته ، ولا في أفعاله فكما نتيقن [١] أن الله سبحانه له ذات حقيقة [٢] وأفعال حقيقة [٢] فكذلك [٣] له صفات حقيقة [٢] وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، وكل ما أوجب نقصا أو حدوثا فإن الله عز وجل منزه عنه حقيقة ، فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه ، ممتنع عليه الحدوث لامتناع العدم عليه ، واستلزام الحدوث سابقة العدم وافتقار المحدث إلى محدث ووجوب وجوده بنفسه سبحانه وتعالى » [يقول ابن جهبل بعد هذا مباشرة :] هذا نص إمامه فهلا اكتفى به ، ولقد أتى إمامه في هذا المكان بجوامع الكلم ، وساق أدلة المتكلمين على ما يدعيه هذا المارق بأحسن رد وأوضح بيان » [٤] .

يقول الشيخ أحمد ابن إبراهيم بن عيسى النجدي [٥] في رده على هذا الكتاب لما نقل النص السابق : « أقول : لله در هذا الحلبي ما أمد باعه وأشد جمعه للعلوم واطلاعه ، حيث أدرج كلام الإمام أحمد بن تيمية مع كلام الإمام أحمد من غير تمييز ، وكلام الإمام أحمد انتهى إلى قوله « لا نتجاوز القرآن والحديث » فظن الحلبي بجهله أن الجميع كلام الإمام أحمد ، فأخذ يحتج به على ابن تيمية

---

(١) في الطبقات (٣٩/٩) « فكان ينبغي » والتصويب من الفتوى الحموية ، مجموع الفتاوى (٥/ ٢٦) ، والذي في تنبيه النبيه والغبي « فكما » فقط والمعنى صحيح .

(٢) في المواضع الثلاثة في طبقات السبكي « حقيقية » والتصويب من الحموية والتنبيه .

(٣) في طبقات السبكي « وكذلك » والتصويب من نفس المصدرين السابقين .

(٤) طبقات الشافعية للسبكي (٣٩/٩-٤٠) ، وتنبيه النبيه والغبي (ص : ٢٤٤) .

(٥) ولد في شقراء سنة : ١٢٥٣ هـ ، تتلمذ على الشيخ عبد الرحمن بن حسن ، وعلى ابنه عبد اللطيف ، كان يتردد على مكة وجده للتجارة « والتقى بعبد القادر التلمساني التاجر وجرت بينهما مناقشات اقتنع الشيخ عبد القادر هذا بمذهب السلف ، وصار ينشر كتبهم في مصر ، وهو الذي نشر على نفقته كتاب ابن عيسى هذا التنبيه مع مجموعة منها الرد الوافر وغيره – ط الكردي » – من كتب أحمد ابن عيسى شرح النونية المطبوع ، ولم يذكر طابعوه – المكتب الإسلامي – له ترجمة ! . توفي سنة ١٣٢٧ هـ .

انظر : فهرس الفهارس (٢٥/١) ، ومعجم المؤلفين (١٤١/١) ، ومشاهير علماء نجد (ص : ٨٥) .

وهو نفس كلامه ... ونظير هذا أن بعض معاصري [١] شيخ الإسلام ممن رد عليه في مسألة الاستغاثة صار يرد على الشيخ من كتابه « الصارم المسلول على منتقص الرسول » ، فانظر إلى هذه السذاجة يرد عليه من كتابه » [٢] .

يقول ابن تيمية – في المسألة الثانية قضية البكري – بعد أن نقل كلامه في حرص السلف على حمايته – ﷺ – من السب أو التنقص : « هذا كله منقول من كلام المجيب من كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول ، لكنه أزال بهجته وحذف من محاسنه ما يبين حقيقته ، فالمجيب هو المنافح عن الله ورسوله ، وهذا كلام المتشبع بما لم يعط ، ومن تشبع بما لم يعط فهو كلابس ثوبي زور [٣] » [٤] .

هناك ملاحظة أخرى حول منهج ابن تيمية وهي أنه أطال النفس في مناقشة الخصوم من أهل الكلام والفلسفة ، ونقل نصوصاً طويلة من كتبهم وناقشها ، حتى أن القارىء – وقد يكون من المهتمين بمثل هذه القضايا – يجد صعوبة بالغة في ملاحقة الأفكار التي يناقشها ، وهذا جزء من منهجه الذي ارتآه ، لأنه لا يمكن قطع دابر بعض الشبه إلا بملاحقة أصولها ، ومناقشة تلك الأصول التي قد تكون من المسائل الفلسفية التي لابد لردها من عرضها بوضوح ليتم نقضها بوضوح أيضا ، وهذه بعض الأسباب نتلمسها من منهجه في هذا :

---

(١) هو البكري : واسمه علي بن يعقوب بن جبريل البكري الشافعي المصري ، أبو الحسن ، نور الدين ، فقيه أهل القاهرة ، هاجم القبط في كنائسهم ، وكانت له مواقف من السلطان ، رد عليه ابن تيمية في مسألة الاستغاثة ، ولد سنة ٦٧٣ هـ ، وتوفي سنة ٧٢٤ هـ ، انظر : البداية والنهاية (١١٤/١٤) ، والدرر الكامنة (٢١٤/٣) ، وطبقات ابن قاضي شهبة (٣٦٠/٢) ، والأسنوي (٢٨٨/١) ، وشذرات الذهب (٦٤/٦) ، وذيول العبر (ص : ٦٩) .

(٢) تنبيه النبيه والغبي (ص : ٢٤٤-٢٤٥) .

(٣) متفق عليه لكن بلفظ « المتشبع » ، البخاري كتاب النكاح ، باب المتشبع بما لم ينل ، رقمه (٥٢١٩) ، الفتح (٣١٧/٩) ، ومسلم في اللباس ، باب النهي عن التزوير في اللباس ورقمه (٢١٢٩-٢١٣٠) ، وانظر : المقاصد الحسنة (ص : ٦٣٩) تحقيق الخشت .

(٤) الاستغاثة (٣٦٠/٢) .

١ – فقد سأله البزار – أحد تلاميذه – عن سبب اهتمامه بالأصول ، فأجابه ، يقول البزار : « ولقد أكثر – رضي الله عنه – التصنيف في الأصول ، فضلا عن غيره من بقية العلوم ، فسألته عن سبب ذلك ، والتمست منه تأليف نص في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ، ليكون عمدة في الإفتاء ، فقال لي ما معناه : الفروع أمرها قريب ، فإذا قلد المسلم فيها أحد العلماء المقلدين ، جاز له العمل بقوله ، ما لم يتيقن خطأه ، وأما الأصول : فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء كالمتفلسفة ، والباطنية ، والملاحدة ، والقائلين بوحدة الوجود ، والدهرية ، والقدرية ، والنصيرية ، والجهمية ، والحلولية ، والمعطلة ، والمجسمة ، والمشبهة ، والراوندية [١] ، والكلابية ، والسليمية [٢] ، وغيرهم من أهل البدع قد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال ، وبان لي أن كثيراً منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية ، الظاهرة العلية على كل دين ، وإن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم ، ولهذا قل أن سمعت أو رأيت معرضاً عن الكتاب والسنة مقبلاً على مقالاتهم إلا وقد تزندق أوصار على غير يقين في دينه واعتقاده » .

« فلما رأيت الأمر على ذلك بان لي أنه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم ، وقطع حجتهم وأضاليلهم ، أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم ، ويزيف دلائلهم ، ذبا عن الملة الحنيفية والسنة الصحيحة الجليلة » .

---

(١) الراوندية أو الريوندية أتباع ابن الريوندي ، وهي إحدى فرق الكيسانية ، يزعمون أن الإمامة كانت أولا حقا للعباس ، انظر : إعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص : ٦٣) ، ت النشار . وابن الريوندي هو : أحمد بن يحيى بن إسحاق ، أبو الحسن ، فيلسوف مجاهر بالإلحاد ، توفي سنة ٢٩٨ هـ ، انظر وفيات الأعيان (٩٤/١) ، والمنتظم (٩٦/٦) ، ولسان الميزان (٣٢٣/١) .

(٢) هكذا ، وفي طبعة المنجد (ص : ٣٤) « السلمية » ، والمشهور « السليمانية » إحدى فرق الزيدية ، أتباع سليمان بن جرير الزيدي ، يزعمون الإمامة شورى ، ويقول بصحة إمامة المفضول مع وجود الفاضل ، ولذا يقرون بإمامة الشيخين ، لكنهم يكفرون عثمان وطلحة والزبير .

انظر : مقالات الإسلاميين (ص : ٦٨) – ت ريتر – الفرق بين الفرق (٣٢) ، التبصير بالدين (ص : ٣٣) ، الملل والنحل للشهرستاني (١٥٩/١) .

« ولا والله ما رأيت منهم أحداً ممن صنف في هذا الشأن وادعى علو المقام إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام ، وسبب ذلك إعراضه عن الحق الواضح المبين ، وعن ما جاءت به الرسل الكرام عن رب العالمين ، واتباعه طرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سموها بزعمهم : حكميات ، وعقليات ، وإنما هي جهالات وضلالات ، وكونه التزمها معرضا عن غيرها أصلاً ، فغلبت عليه حتى غطت على عقله السليم ، فتخبط حتى خبط فيها خبط عشواء ، ولم يفرق بين الحق والباطل وإلا فالله أعظم لطفا بعباده أن لا يجعل لهم عقلاً يقبل الحق ويثبته ، ويبطل الباطل وينفيه ، لكن عدم التوفيق وغلبة الهوى أوقع من أوقع في الضلال ، وقد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزاناً يزن به العبد الواردات فيفرق به بين ما هو من قبيل الحق وما هو من قبيل الباطل ، ولم يبعث الله الرسل إلا إلى ذوي العقل ، ولم يقع التكليف إلا مع وجوده ، فكيف يقال : إنه مخالف لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن الله تعالى ؟ هذا باطل قطعا ، يشهد له كل عقل سليم لكن ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] .

« قال الشيخ الإمام قدس الله روحه : فهذا ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جل همي إلى الأصول ، وألزمني أن أوردت مقالاتهم ، وأجبت عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة النقلية والعقلية » (١) .

فابن تيمية يرى أن سبب تركيزه على هذه الجوانب وإطالة النفس فيها ما رأى عند هذه الطوائف من ضلالات ترمي إلى زعزعة العقيدة ثم الشريعة ، وأن الذين ردوا عليها من أهل الكلام - اتبعوا طرق واصطلاحات الفلاسفة - فساعدوا بمضمون كلامهم في هدم قواعد دين الإسلام ، فرأى أنه لابد من بيان الحق للناس صافياً والرد على هذه المقالات بالأدلة النقلية والعقلية .

٢ - وفي مناسبة يعلل ابن تيمية السبب في ذكر حجج الفلاسفة والرد عليها طويلا ، ويبين أن كل من كان بفساد الباطل أعرف كان بصحة الحق أعرف

---

(١) الأعلام العلية (ص : ٣٣-٣٥) .

يقول : « ونحن نبين فساد طريق هؤلاء بالطرق الإيمانية والقرآنية تارة ، وبالأدلة التي يمكن أن يعقلها من لا يستدل بالقرآن والإيمان ؛ وذلك لأنا في مقام المخاطبة لمن يقر بأن ما أخبر به الرسول حق ، ولكن قد يعارض ما جاء منه عقليات يجب تقديمها عليه ، وإذا كنا في مقام بيان فساد ما يعارضون به من العقليات على وجه التفصيل ، فذلك - ولله الحمد - هو علينا من أيسر الأمور » .

« ونحن - ولله الحمد - قد تبين لنا بيانا لا يحتمل النقيض فساد الحجج المعروفة للفلاسفة والجهمية والقدرية ونحوهم ، التي يعارضون بها كتاب الله ، علمنا بالعقل الصريح فساد أعظم ما يعتمدون عليه من ذلك ، وهذا - ولله الحمد - مما زادنا الله به هدى وإيماناً ، فإن فساد مما يؤيد معرفة الحق ويقويه ، وكل من كان أعرف بفساد الباطل ، كان أعرف بصحة الحق ... » [(١)] .

والمقصود هنا أن معرفة ما يعارض الكتاب والمرسلين كنبوة مسيلمة ونحوه من الكذابين ، وأقاويل أهل الإلحاد الذين يعارضون بعقولهم وذوقهم ما جاء به الرسول كلما ازداد العارف معرفة بها بما جاء به الرسول ، تبين له صدق ما جاء به الرسول وبيانه وبرهانه ، وبطلان هذه وفسادها وكذبها » [(٢)] .

٣ - ويقول - في موضع آخر - معللا كثرة ردوده على ملاحدة الصوفية والجهمية ، بأن هؤلاء ظهروا وانتشروا ، وكثير من الناس يثق فيهم بل ويجعلهم أهل التحقيق ، ويقول : « ولولا أن أصحاب هذا القول كثروا ، وظهروا وانتشروا ، وهم عند كثير من الناس سادات الأنام ، ومشايخ الإسلام ، وأهل التوحيد والتحقيق ، وأفضل أهل الطريق ، حتى فضلوهم على الأنبياء والمرسلين وأكابر مشايخ الدين ، لم يكن بنا حاجة إلى بيان فساد هذه الأقوال ، وإيضاح هذا الضلال ، ولكن يعلم أن الضلال لا حد له ، وأن العقول إذا فسدت لم يبق لضلالها حد معقول ، فسبحان من فرق بين نوع الإنسان ؛ فجعل منه من هو أفضل العالمين ،

---

(١) الدرء (٥/٢٥٨) .

(٢) نفس المصدر (٥/٢٦٠) .

وجعل منه من هو شر من الشياطين ، ولكن تشبيه هؤلاء بالأنبياء والأولياء كتشبيه مسيلمة الكذاب بسيد أولي الألباب ؛ هو الذي يوجب جهاد هؤلاء الملحدين ، الذين يفسدون الدنيا والدين » [١] .

٤ – ويعلل – في موضع آخر – كثرة نقوله وردوده أن بعض الناس كلما كان طريق الاستدلال أدق وأخفى وأطول كان أنفع له ، يقول : « وقد بسطنا الكلام على ما قاله الناس في هذا المقام من « الحدوث والإمكان » وعلة الافتقار إلى المؤثر ، وذكرنا عامة طرائق أهل الأرض في « إثبات الصانع » من المتكلمين والفلاسفة وطرق الأنبياء – صلوات الله عليهم – وما سلكه عامة نظار الإسلام من معتزلي ، وكرامي ، وكلابي ، وأشعري ، وفيلسوف ، وغيرهم ، في غير موضع مثل كتاب درء تعارض العقل والنقل ، وغير ذلك ، وكذلك بينا طرق الناس في إثبات العلم بالنبوات في « شرح الأصبهانية » ، وكتاب « الرد على النصارى » وغيرهما [٢] . وبينا أن كثيراً من النظار يسلك طريقاً في الاستدلال على المطلوب ويقول : لا يوصل إلى المطلوب إلا بهذا الطريق ، ولا يكون الأمر كما قاله في النفي ، وإن كان مصيبا في صحة ذلك الطريق ، فإن المطلوب كلما كان الناس إلى معرفته أحوج يسر الله على عقول الناس معرفة أدلته ، فأدلة إثبات الصانع وتوحيده وأعلام النبوة وأدلتها كثيرة جدا ، وطرق الناس في معرفتها كثيرة وكثير من الطرق لا يحتاج إليه أكثر الناس ، وإنما يحتاج إليه من لم يعرف غيره ، أو من أعرض عن غيره » .

« وبعض الناس يكون الطريق كلما كان أدق وأخفى وأكثر مقدمات وأطول كان أنفع له ، لأن نفسه اعتادت النظر الطويل في الأمور الدقيقة ، فإذا كان الدليل قليل المقدمات ، أو كانت جلية ، لم تفرح نفسه به ، ومثل هذا قد يستعمل معه الطريق الكلامية المنطقية وغيرها لمناسبتها لعادته ، لا لكون العلم المطلوب

---

(١) الحجج العقلية والنقلية فيما ينافي الإسلام من بدع الجهمية والصوفية ، مجموع الفتاوى (٣٥٧/٢-٣٥٨) .

(٢) انظر أيضا في ذكره لتدرج ردوده على المخالفين ، النبوات (ص : ٢٢٦-٢٢٧) ط دار الكتب العلمية .

متوقفا عليها مطلقا ، فإن من الناس من إذا عرف ما يعرفه جمهور الناس وعمومهم أو ما يمكن غير الأذكياء معرفته ، لم يكن عند نفسه قد امتاز عنهم بعلم ، فيحب معرفة الأمور الخفية الدقيقة الكثيرة المقدمات ، وهذا يسلك معه هذه الطريق »[١] .

« وأيضا فإن النظر في العلوم الدقيقة يفتق الذهن ويدربه ويقويه على العلم ، فيصير مثل كثرة الرمي بالنشاب وركوب الخيل ، تعين على قوة الرمى والركوب وإن لم يكن ذلك وقت قتال ، وهذا مقصد حسن ، ولهذا كان كثير من علماء السنة يرغب في النظر في العلوم الصادقة الدقيقة ، كالجبر والمقابلة ، وعويص الفرائض ، والوصايا ، والدور[٢] ، لشحذ الذهن ، فإنه علم صحيح في نفسه ، ولهذا يسمى « الرياضي » فإن لفظ الرياضة يستعمل في ثلاثة أنواع : في رياضة الأبدان بالحركة والمشي ، كما يذكر ذلك الأطباء وغيرهم ، وفي رياضة النفوس بالأخلاق الحسنة المعتدلة ، والآداب المحمودة ، وفي رياضة الأذهان بمعرفة دقيق العلم والبحث عن الأمور الغامضة ، ويروى عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنه قال : « إذا لهوتم فالهوا بالرمي ، وإذا تحدثتم فتحدثوا بالفرائض »[٣] ، أراد : إذا لهوا بعمل أن يلهوا بعمل ينفعهم في دينهم وهو الرمي ، وإذا لهوا بكلام ، لهوا بكلام ينفعهم أيضا في عقلهم ودينهم وهو الفرائض »[٤] .

---

(١) الرد على المنطقيين (ص : ٢٥٣–٢٥٥) ، وانظر (ص : ٣٢٨) وما بعدها ، وانظر درء التعارض (٩٧/٣، ١٠٥، ١٩٧) .

(٢) لابن تيمية كتاب في الدور ، والدور أنواع : الدور الكوني : وهو نوعان : دور قبلي ودور معي ، والنوع الثاني : الدور الحكمي الفقهي ، والنوع الثالث : الدور الحسابي . انظر الرد على المنطقيين (ص : ٢٥٧) .

(٣) روى موقوفا ، رواه الحاكم في المستدرك (٣٣٣/٤) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٩/٦) ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، لكن قال ابن حجر في تلخيص الحبير (٨٥/٣) ، « ورواته ثقات إلا أنه منقطع » ، كما ضعفه الألباني في إرواء الغليل برقم (١٦٦٦) الإرواء (١٠٧/٦) . وفيه أبو هلال الراسبي : محمد بن سليم ، صدوق فيه لين ، التقريب ، وقال ابن عدي في الكامل (٢٢٢٠/٦) « عامة أحاديثه عن قتادة غير محفوظة » .

قلت : وهذا منها فقد رواه عن قتادة .

(٤) الرد على المنطقيين (ص : ٢٥٥–٢٥٦) .

وبعد هذا التمهيد نعرض لمنهج شيخ الإسلام العام ، والكلام حول هذا الموضوع كما يلي :

أولا : مقدمات في المنهج .
ثانيا : منهجه في المعرفة والاستدلال .
ثالثا : منهجه في بيان العقيدة وتوضيحها .
رابعا : منهجه في الرد على الخصوم .
خامسا : الأمانة العلمية .

* * *

أولاً : مقدمات في المنهج :

كثيرا ما يضع ابن تيمية بين يدي ردوده ومناقشاته ، أو توضيحه لبعض قضايا العقيدة أصولا ومنطلقات ينطلق منها ، وتكون هذه الأمور كالمقدمات الممهدة تفتح للقارئ آفاقا قد يكون غافلا عنا ، أو غير متصور لها تصورا كاملا ، وقد ينير له الطريق في معرفة أقسام الناس أو العلماء أو أنواع من طرق الاستدلال .... ومن أمثلة ذلك :

١ – ما يحتاجه الناس في العقيدة :

يقول ابن تيمية : « يحتاج المسلمون في العقيدة إلى شيئين : أحدهما : معرفة ما أراد الله ورسوله – ﷺ – بألفاظ الكتاب والسنة ، بأن يعرفوا لغة القرآن التي نزل بها ، وما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر علماء المسلمين في معاني تلك الألفاظ ، فإن الرسول – ﷺ – لما خاطبهم بالكتاب والسنة عرفهم ما أراد بتلك الألفاظ ، وكانت معرفة الصحابة لمعاني القرآن أكمل من حفظهم لحروفه ، وقد بلغوا تلك المعاني إلى التابعين أعظم مما بلغوا حروفه ... » [1] ، « ثم [وهذا هو الثاني] معرفة ما قال الناس في هذا الباب

---

(١) تفسير سورة الإخلاص – مجموع الفتاوى (٣٥٣/١٧) .

لينظر المعاني الموافقة للرسول والمعاني المخالفة لها » [١] ، ثم شرح الوجه الثاني وبين أن الألفاظ التي يوردها الناس نوعان « نوع يوجد في كلام الله ورسوله ، ونوع لا يوجد في كلام الله ورسوله ، فيعرف معنى الأول ، ويجعل ذلك المعنى هو الأصل ، ويعرف ما يعنيه الناس بالثاني ويرد إلى الأول ، هذا طريق أهل الهدى والسنة ، وطريق أهل الضلال والبدع بالعكس ؛ يجعلون الألفاظ التي أحدثوها ومعانيها هي الأصل ، ويجعلون ما قاله الله ورسوله تبعا لهم ، فيردونها بالتأويل والتحريف إلى معانيهم ... » [٢] . وفرق بين منهج أهل السنة وأهل البدعة في هذا .

٢ – لما سئل شيخ الإسلام عن الهم والعزم على فعل المعاصي – وعدم فعلها – هل يعاقب عليه ؟ أجاب بقوله « الحمد لله ، هذه المسألة – ونحوها – تحتاج قبل الكلام في حكمها إلى حسن التصور لها ، فإن اضطراب الناس في هذه المسائل وقع عامته من أمرين :

أحدهما : عدم تحقيق أحوال القلوب وصفاتها ، التي هي مورد الكلام .

والثاني : عدم إعطاء الأدلة الشرعية حقها ... [٣] .

وابن تيمية يبين الأصل في الفتوى المبني على معرفة الواقعة وحسن التصور لها ، ثم معرفة الأدلة الشرعية وحكم الله فيها .

٣ – بين طرق الناس في طلب العلم والدين فقال : « والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان ، وطريق شرعي :

فالطريق الشرعي : هو النظر فيما جاء به الرسول ، والاستلال بأدلته والعمل بموجبها ، فلابد من علم بما جاء به ، وعمل به ، لا يكفي أحدهما ،

---

(١) المصدر السابق (٣٥٥/١٧) .

(٢) نفسه . وانظر مجموع فتاوى (١٩١/٤) فقد قسم الأقوال إلى قسمين : أقوال منقولة عن الأنبياء ، وأقوال غير منقولة عنهم ، ثم بين حكم كل منها .

(٣) مجموع الفتاوى (٧٢٠/١٠-٧٢١) .

وهذا الطريق متضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية ، فإن الرسول بين بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه ، والرسل بينوا للناس العقليات التي يحتاجون إليها ، كما ضرب الله في القرآن من كل مثل ، وهذا هو الصراط المستقيم الذي أمر الله عباده أن يسألوه هدايته .

وأما الطريقان المبتدعان : فأحدهما :طريق أهل الكلام البدعي ، والرأي البدعي ، فإن هذا فيه باطل كثير ، وكثير من أهله يفرطون فيما أمر الله به ورسوله من الأعمال ، فيبقى هؤلاء في فساد علم وفساد عمل ، وهؤلاء منحرفون إلى اليهودية الباطلة .

والثاني : طريق أهل الرياضة والتصوف والعبادة البدعية وهؤلاء منحرفون إلى النصرانية الباطلة ... [١] ، فالأقسام ثلاثة : من يجمع بين العلم والعمل وهم أهل السنة ، ومن يميل إلى العلم بلا عمل وهم أهل الكلام ومن يميل إلى العمل بلا علم وهم أهل التصوف .

٤ - أحسن طريقة لحكاية الخلاف في مسألة من المسائل :

يبين ذلك ابن تيمية فيقول : « هذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف ؛ أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام ، وإن ينبه على الصحيح منها ، ويبطل الباطل ، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته فيشتغل به عن الأهم ، فأما من حكى خلافا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص ، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه ، أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضا ، فإن صحح غير الصحيح عامدا فقد تعمد الكذب ، أو جاهلا فقد أخطأ ، كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكى أقوالا متعددة لفظا ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى ، فقد ضيع الزمان وتكثر بما ليس بصحيح فهو كلابس ثوبي زور » [٢] .

---

(١) منهاج السنة (١٠٧/٣) .

(٢) مقدمة في أصول التفسير (ص : ١٠١-١٠٢) ت زرزور .

فقد ذكر أربع ملاحظات على كثير ممن يحكي الخلاف والأقوال :

١ – عدم استيعاب الأقوال ، وقد يكون الحق في القول الذي أغفله .
٢ – حكاية الخلاف بلا بيان للصحيح .
٣ – حكاية الخلاف فيما لا فائدة تحته .
٤ – تكثير الأقوال وهي ترجع إلى أقل مما ذكره .

وفي موضع آخر بين أنواع النزاع وكيف يفصل النزاع الواقع بين اثنين فيقول : « فصل النزاع قد يكون بوجهين :

أحدهما : نهي كل منهما عن منازعة الآخر بهذا ، إذ هو نزاع فيما لا فائدة فيه ، كما لو تنازع اثنان في لون كلب أصحاب الكهف ، ومقدار السفينة ، والبعض من البقرة الذي أمر الله بالضرب فيه إن قدر أنه كان معينا – مع أن ظاهر القرآن يدل على أنه مطلق لا معين – وفي أمثال ذلك من الأمور التي لا فائدة فيها ، وقد لا يكون إلى معرفتها سبيل – فمثل هذا ينهى كل منهم عن منازعة الآخر ، بل ينهى عن أن يقول ما لا يعلم .

والثاني : أن يفصل النزاع ببيان الخطأ من الصواب » (١) .

٥ – تقعيده في الرد على الخصوم :

احتج بعض النصارى بالقرآن على معتقداتهم الباطلة وذلك بما يزعمون أنه دليل لهم ولا دليل فيه ، أما النصوص التي تبين كفرهم وتبين عبودية المسيح عليه السلام فلم يحتجوا بها ، بل قالوا : إن القرآن يناقض بعضه بعضا ، فرد عليهم ابن تيمية في قولهم : إن القرآن يناقض بعضه بعضا قائلا : « إن هذا أيضا إن كان حقا فإنه يقدح في رسالته [أي رسالة محمد – ﷺ –] فإن الرسول لا يناقض بعض خبره بعضا ، ومن كان كذلك لم يصح لكم أن تحتجوا بشيء مما جاء به ، وإن كان باطلا لم يرد عليه ، فعلم أن استدلالهم بما في هذا الكتاب على صحة دينهم الذي خالفوا به هذا الكتاب في غاية الفساد ، وهو جمع بين النقيضين ،

---

(١) درء التعارض (١٠/٣١٣-٣١٤) .

واستدلال بما في الكتاب على ما يوجب بطلان الاستدلال بشيء مما في الكتاب »[(١)] ، وقال في موضع آخر في الرد على النصارى : « والمقصود هنا : أنهم سواء صدقوا محمدا أو كذبوه فإنه يلزم بطلان دينهم على التقديرين ؛ فإنه إن كان نبياً صادقاً فقد بلغ عن الله في هذا الكتاب كفر النصارى في غير موضع ودعاهم إلى الإيمان به ، وأمر بجهادهم ، فمن علم أنه نبي ولو إلى طائفة معينة ، فيجب تصديقة في كل ما أخبر به – وقد أخبر بكفر النصارى وضلالهم – .... وإن كذبوا محمدا تكذيبا عاما وقالوا : ليس هو نبى أصلا ، ولا أرسل إلى أحد ، لا إلى العرب ولا إلى غيرهم ، بل كان من الكذابين ؛ امتنع مع هذا أن يصدقوا بنبوة غيره ؛ فإن الطريق الذي يعلم به نبوة موسى وعيسى يعلم به نبوة محمد بطريق الأولى »[(٢)] .

وبمثل هذه المناقشات والمقدمات يفتح آفاقا في مناهج مناقشة النصارى ومجادلتهم .

أقسام العلماء وأنواعهم في مدى معرفتهم بالمعقول والمنقول :

كثيرا ما يردد شيخ الإسلام ابن تيمية في ردوده على أهل الكلام والنفاة أن أكثرهم قليل المعرفة بما جاء به الرسول – ﷺ – والسلف ، وقد أورد اعتراضا على قوله هذا ثم أجاب عنه . فقال : « فإن قيل : **قلت** : إن أكثر أئمة النفاة من الجهمية والمعتزلة كانوا قليلي المعرفة بما جاء عن الرسول وأقوال السلف في تفسير القرآن وأصول الدين ، وما بلغوه عن الرسول ، ففي النفاة كثير ممن له معرفة بذلك .

قيل : هؤلاء أنواع :

نوع ليس لهم خبرة بالعقليات ، بل هم يأخذون ما قاله النفاة عن الحكم والدليل ويعتقدونها براهين قطعية ، وليس لهم قوة على الاستقلال بها ، بل هم في الحقيقة مقلدون فيها ، وقد اعتقد أقوال أولئك ، فجميع ما يسمعونه من القرآن

---

(١) الجواب الصحيح (٢/٢٦٣-٢٦٤) ط المدني .

(٢) الجواب الصحيح (١/١٧٤-١٧٥) .

والحديث وأقوال السلف لا يحملونه على ما يخالف ذلك ، بل إما أن يظنوه موافقا لهم وإما أن يعرضوا عنه مفوضين لمعناه ، وهذه حال مثل أبي حاتم البستي [١] وأبي سعد السمان المعتزلي [٢] ، ومثل أبي ذر الهروي [٣] ، وأبي بكر البيهقي [٤] ، والقاضي عياض [٥] ، وأبي الفرج بن الجوزي [٦] ، وأبي الحسن علي بن المفضل المقدسي [٧] وأمثالهم .

والثاني : من يسلك في العقليات مسلك الاجتهاد ويغلط فيها كما غلط غيره فيشارك الجهمية في بعض أصولهم الفاسدة ، مع أنه لا يكون له من الخبرة

---

(١) هو : محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ التميمي البستي ، صاحب الثقات وصحيح ابن حبان ، ولد سنة بضع وسبعين ومئتين ، وتوفي سنة ٣٥٤ هـ ، وجهت له تهمة في دينه ، لكن دافع عنه الذهبي ، وقال فيه « وإن كان في تقاسيمه » صحيح ابن حبان « من الأقوال والتأويلات البعيدة والأحاديث المنكرة عجائب » سير أعلام النبلاء (٩٧/١٦) ، وانظر أيضا تذكرة الحفاظ (٩٢٠/٣) ، والوافي (٣١٧/٢) ، ولسان الميزان (١١٢/٥) .

(٢) إسماعيل بن علي بن الحسين الرازي ، قال عنه الذهبي : الحافظ المتقن ، وأنكر عليه بدعة الاعتزال ، توفي سنة ٤٤٥ هـ ، تذكرة الحفاظ (١١٢١/٣) ، والأنساب (١٣٠/٧) ، وذكر أن بدعته نفي القدر ، والجواهر المضية (٤٢٤/١) ، والبداية والنهاية (٦٥/١٢) .

(٣) عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ، الأنصاري الخراساني الهروي المالكي من تلاميذ الباقلاني وأخذ عنه المذهب الأشعري ونشره في الحرم ، ولد سنة ٣٥٥ - أو ٣٥٦ هـ ، وتوفي سنة ٤٣٤ - أو ٤٣٥ هـ ، انظر : ترتيب المدارك (٢٢٩/٧) ، والمنتظم (١١٥/٨) ، والعقد الثمين (٥٣٩/٥) ، وسير أعلام النبلاء (٥٥٤/١٧) .

(٤) ستأتي ترجمته إن شاء الله في الفصل الخامس .

(٥) هو : عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي الأندلسي ، السبتي المالكي ، ولد سنة ٤٧٦ هـ ، وتوفي سنة ٥٤٤ هـ ، انظر : الصلة (٤٥٣/٢) ، والإحاطة (٢٢٢/٤) ، وبغية الملتمس (ص : ٤٣٧) ، والتكملة لابن الأبار (ص : ٣٠٦) ، وأزهار الرياض ، وسير أعلام النبلاء (٢١٢/٢٠) .

(٦) عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي ، القرشي البكري البغدادي الحنبلي ، ولد سنة ٥٠٩ - أو ٥١٠ هـ ، وتوفي سنة ٥٩٧ هـ ، انظر : التكملة للمنذري (٣٩٤/١) ، وسير أعلام النبلاء (٣٦٥/٢١) ، وذيل طبقات الحنابلة (٣٩٩/١) .

(٧) هو : أبو الحسن علي بن المفضل بن علي بن مفرج بن حاتم ، شرف الدين المقدسي ، ولد سنة ٥٤٤ هـ ، وتوفي سنة ٦١١ هـ ، انظر : التكملة للمنذري (٣٠٦/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٦٦/٢٢) ، والتاج المكلل (ص : ٨٢) - هندية - .

بكلام السلف والأئمة في هذا الباب ما كان لأئمة السنة ، وإن كان يعرف متون الصحيحين وغيرهما ، وهذه حال أبي محمد بن حزم [١] ، وأبي الوليد الباجي [٢] ، والقاضي أبي بكر بن العربي [٣] ، وأمثالهم ، ومن هذا النوع بشر المريسي [٤] ، ومحمد بن شجاع الثلجي [٥] وأمثالهما .

ونوع ثالث : سمعوا الأحاديث والآثار ، وعظموا مذهب السلف ، وشاركوا المتكلمين الجهمية في بعض أصولهم الباقية ، ولم يكن لهم من الخبرة بالقرآن والحديث والآثار ما لأئمة السنة والحديث ، لا من جهة المعرفة [٦] والتمييز بين صحيحها وضعيفها ، ولا من جهة الفهم لمعانيها ، وقد ظنوا صحة بعض الأصول العقلية للنفاة الجهمية ، ورأوا ما بينهما من التعارض ، وهذه حال أبي بكر بن فورك [٧] ، والقاضي أبي يعلى [٨] ، وابن عقيل وغيرهم ، [٩]

---

(١) الإمام المشهور علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي اليزيدي ، ولد سنة ٣٨٤ هـ ، وتوفي سنة ٤٥٦ هـ ، انظر : الذخيرة (ق ١ م ١ ص : ١٦٧) ، والإحاطة (١١١/٤) ، وسير أعلام النبلاء (١٨٤/١٨) ، وانظر رأي الذهبي في ابن حزم فهو مهم (ص : ٢٠١-٢٠٢) ، ولسان الميزان (١٩٨/٤) .

(٢) هو : سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التجيبي الأندلسي القرطبي الباجي ، ولد سنة ٤٠٣ هـ ، وتوفي سنة ٤٧٤ هـ ، انظر : ترتيب المدارك (١١٧/٨) ، ووفيات الأعيان (٤٠٨/٢) ، والديباج المذهب (٣٧٧/١) ، وسير أعلام النبلاء (٥٣٥/١٨) .

(٣) محمد بن عبد الله بن عبد الله ابن العربي الأندلسي الأشبيلي المالكي ، ولد سنة ٤٦٨ هـ ، وتتلمذ على الغزالي ، وأبي بكر الشاشي ، وهو صاحب عارضة الأحوذي وأحكام القرآن ، والعواصم من القواصم ، توفي سنة ٥٤٣ هـ ، انظر : بغية الملتمس (ص : ٩٢) ، ونفح الطيب (٢٥/٢) ، والمغرب في حلي المغرب (٢٥٤/١) ، وسير أعلام النبلاء (١٩٧/٢٠) .

(٤) بشر بن غياث بن أبي كريمة المريسي ، توفي سنة ٢١٨ هـ وقيل ٢١٩ هـ ، انظر تاريخ بغداد (٥٦/٧) ، ووفيات الأعيان (٢٧٧/١) ، وميزان الاعتدال (٣٢٢/١) ، ولسان الميزان (٢٩/٢) .

(٥) هو : محمد بن شجاع ، أبو عبد الله البغدادي الحنفي المعروف بابن الثلجي ، قال عنه ابن عدي : كان يضع الأحاديث في التشبيه ، ومنها حديث : عرق الخيل ، توفي سنة ٢٦٦ هـ ، انظر الكامل لابن عدي (٢٢٩٢/٦) ، وتاريخ بغداد (٣٥٠/٥) ، وسير أعلام النبلاء (٣٧٩/١٢) ، وميزان الاعتدال (٥٧٧/٣) ، وتهذيب التهذيب (٢٢٠/٩) .

(٦) كذا ولعل فيها سقط كلمة « بالسنة » أو نحوها .

(٧) ستأتي ترجمته إن شاء الله في الفصل الخامس .

(٨) محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد البغدادي ، الحنبلي ، الفراء ولد سنة ٣٨٠ هـ =

ولهذا كان هؤلاء **تارة** يختارون طريقة أهل التأويل كما فعله ابن فورك وأمثاله في الكلام على مشكل الآثار [١] ، **وتارة** يفوضون معانيها ويقولون تجرى على ظاهرها كما فعله القاضي أبو يعلى وأمثاله في ذلك ، **وتارة** يختلف اجتهادهم فيرجحون هذا تارة وهذا تارة كحال ابن عقيل وأمثاله .

وهؤلاء قد يدخلون في الأحاديث المشكلة ما هو كذب موضوع ولا يعرفون أنه موضوع ، وما له لفظ يدفع الاشكال مثل أن يكون رؤيا منام فيظنونه كان في اليقظة ليلة المعراج .

ومن الناس من له خبرة بالعقليات المأخوذة من الجهمية وغيرهم وقد شاركهم في بعض أصولها ، ورأى ما في قولهم من مخالفة الأمور المشهورة عند أهل السنة ، كمسألة القرآن والرؤية فإنه قد اشتهر عند العامة والخاصة أن مذهب السلف وأهل السنة والحديث أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن الله يرى في الآخرة ، فأراد هؤلاء أن يجمعوا بين نصر ما اشتهر عند أهل السنة والحديث ، وبين موافقة الجهمية في تلك الأصول العقلية التي ظنها صحيحة ، ولم يكن لهم من الخبرة المفصلة بالقرآن ومعانيه والحديث وأقوال الصحابة ما لأئمة السنة والحديث ، فذهب مذهبا مركبا من هذا وهذا وكلا الطائفتين ينسبه إلى التناقض ، وهذه طريقة الأشعري وأئمة أتباعه كالقاضي أبي بكر [٢] ، وأبي إسحاق الاسفراييني [٣] وأمثالهما ، ولهذا تجد أفضل هؤلاء كالأشعري يذكر مذهب

= وتوفي سنة ٤٥٨ هـ ، انظر : تاريخ بغداد (٢/٢٥٦) ، وطبقات الحنابلة (٢/١٩٣) ، والوافي (٣/٧) ، وسير أعلام النبلاء (١٨/٨٩) .

(٩) علي بن عقيل بن محمد بن عقيل الحنبلي ، العالم المشهور ، ولد سنة ٤٣١ هـ ، وتوفي سنة ٥١٣ هـ ، انظر : ذيل طبقات الحنابلة (١/١٤٢) ، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد (ص : ١٩٢) ، وسير أعلام النبلاء (١٩/٤٤٣) ، وانظر كلام الذهبي عنه مع تعليقات المحققين .

(١) له كتاب « مشكل الحديث وبيانه » وفيه ردود على ابن خزيمة في كتابه « التوحيد » .

(٢) الباقلاني ، وستأتي ترجمته إن شاء الله .

(٣) هو : إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ابن مهران ، الأستاذ أبو إسحاق الاسفراييني روى عنه البيهقي والقشيري كان من معاصري الباقلاني وابن فورك ، توفي سنة ٤١٨ هـ ، انظر : طبقات السبكي (٤/٢٥٦) ، وتبيين كذب المفترى (ص : ٢٤٣) ، وسير أعلام النبلاء (١٧/٣٥٣) .

أهل السنة والحديث على وجه الإجمال ويحكيه بحسب ما يظنه لازما ، ويقول : إنه يقول بكل ما قالوه ، وإذا ذكر مقالات أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم حكاها حكاية خبير بها عالم بتفاصيلها ، وهؤلاء كلامهم نافع في معرفة تناقض المعتزلة وغيرهم ، ومعرفة فساد أقوالهم ، وأما في معرفة ما جاء به الرسول ، وما كان عليه الصحابة والتابعون فمعرفتهم بذلك قاصرة .

وإلا فمن [1] كان عالما بالآثار ، وما جاء عن الرسول وعن الصحابة والتابعين من غير حسن ظن بما يناقض ذلك لم يدخل مع هؤلاء . إما لأنه علم من حيث الجملة أن أهل البدع المخالفين لذلك مخالفون للرسول قطعا ، وقد علم أنه من خالف الرسول فهو ضال ، كأكثر أهل الحديث . أو علم مع ذلك فساد أقوال أولئك وتناقضها كما علم أئمة السنة من ذلك ما لا يعلمه غيرهم كمالك ... [عدد جمهرة من أئمة أهل السنة ثم قال] : ومن لا يحصى عدده إلا الله من أئمة الإسلام وورثة الأنبياء وخلفاء الرسل ، فهؤلاء كلهم متفقون على نقيض قول النفاة ، كما تواترت الآثار عنهم وعن غيرهم من أئمة السلف بذلك ، من غير خلاف بينهم في ذلك » [2] .

إن هذا التقسيم المبني على الاستقراء الجيد لأقوال وكتب هؤلاء يجيب عن كثير من الأسئلة التي ترد في نفس المسلم – المتمسك بمذهب السلف – وفي قوله ، ومن أهمها : كيف وقع هؤلاء العلماء في حبائل علم الكلام ومسائله وقالوا بها ؟ وكيف يجمع بين اهتمامهم بالسنة وروايتها ، وبين اعتقادهم لأقوال أهل البدع وكثير منها حرب على السنة وما جاء فيها ؟ . ثم لماذا يتردد بعض هؤلاء في هذه المسائل فتارة يرجحون مذهب السلف ، وتارة يميلون إلى أقوال أخرى مخالفة له ؟ . هذه الأسئلة وغيرها يتضح الجواب عنها من خلال حكم ابن تيمية على هؤلاء العلماء والمعرفة بأحوالهم والاعتراف لهم بما عندهم من العلم والنية الصادقة ، « ومن المعلوم – بعد كمال النظر واستيفائه – أن كل من كان

---

(١) هذا قسم أهل السنة .

(٢) درء التعارض (٧/٣٢–٣٧) .

إلى السنة وإلى طريقة الأنبياء أقرب - كان كلامه في الإلهيات ؛ بالطرق العقلية أصح كما أن كلامه بالطرق النقلية أصح ، لأن دلائل الحق وبراهينه تتعاون وتتعاضد ، لا تتناقض وتتعارض » (١) .

وإذا كان هذا تقسيما للعلماء فإن ابن تيمية أحيانا ينظر نظرة فاحصة إلى الكتب بفنونها - من غير نظر إلى مؤلفيها فيقول : « والمقصود هنا أن يعلم أنه لم يزل في أمة محمد - ﷺ - من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وأن أمته لا تبقى على ضلالة ، بل إذا وقع منكر من لبس حق بباطل أو غير ذلك فلابد أن يقيم الله تعالى من يميز ذلك فلابد من بيان ذلك ولابد من إعطاء الناس حقوقهم ، كما قالت عائشة - رضي الله عنها - أمرنا رسول الله - ﷺ - أن ننزل الناس منازلهم ، رواه أبو داود وغيره (٢) . وهذا الموضع لا يحتمل من السعة

---

(١) درء التعارض (٢٤٨/٦) .

(٢) هذا الحديث ذكره مسلم في مقدمة صحيحه - بلا إسناد - فقال : « وذكر عن عائشة ... (ص : ٦) ، ورواه غيره مسندا : فرواه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب تنزيل الناس منازلهم ورقمه (٤٨٤٢) ، سنن أبي داود (١٧٣/٥) طـ الدعاس ، كما رواه البيهقي في كتاب « الآداب » (ص : ١٩٣-١٩٤) ، وأبو نعيم في الحلية (٣٧٩/٤) ، وأبو يعلى الموصلي في مسنده رقم (٤٨٢٦ ، ٢٤٦/٨) ، كما رواه ابن خزيمة ، والبزار والعسكري في الأمثال وغيرهم كما أشار إلى ذلك السخاوي في المقاصد الحسنة ، رقم (١٧٩) « أمرنا » والزبيدي في إتحاف السادة (٣٤٢/١) ، كما رواه الخرائطي بلفظ آخر عن معاذ في مكارم الأخلاق (ص : ٨) طـ السلفية ، وقد اختلف العلماء في حكمهم عليه .

أ - فضعفه أبو داود حيث قال في هذا الحديث « ميمون لم يدرك عائشة » ، كما ضعفه المنذري في مختصر سنن أبي داود (١٩٠/٧) رقم (٤٦٧٥) ، حيث قال بعد نقل كلام أبي داود « وقيل لأبي حاتم الرازي ميمون بن أبي شبيب عن عائشة متصل قالا : لا » ، كما ضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم (١٣٤٢) ، ورقم (١٣٤٤) . ومحقق مسند أبي يعلى ، والمناوي في فيض القدير (٥٧/٣-٥٨) حيث تعقب السيوطي في تصحيحه له .

ب - أما الذين صححوه أو حسنوه : فالحاكم في معرفة علوم الحديث (ص : ٦٢) ، قال « فقد صحت الرواية عن عائشة ... » ، كما صححه ابن الصلاح في صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط (ص : ٨٣-٨٤) فقال : « وأما قول مسلم في خطبة كتابه « وقد ذكر عن عائشة ... فهذا بالنظر إلى أن لفظه ليس لفظا جازما بذلك عن عائشة غير مقتض كونه مما حكم بصحته ، =

وكلام الناس في مثل هذه الأمور التي وقعت ممن وقعت منه ، بل المقصود التنبيه على حمل ذلك لأن هذا محتاج إليه في هذه الأوقات : فكتب الزهد والتصوف فيها من جنس ما في كتب الفقه والرأي وفي كليهما منقولات صحيحة وضعيفة بل وموضوعة ومقالات صحيحة وضعيفة بل وباطلة ، وأما كتب الكلام ففيها من الباطل أعظم من ذلك بكثير ، بل فيها أنواع من الزندقة والنفاق ، وأما كتب الفلسفة فالباطل غالب عليها ، بل الكفر الصريح كثير فيها » [١] .

تلك مقدمات يحرص ابن تيمية على ذكرها في مجال ردوده ورسائله وهي قضايا من منهجه – رحمه الله – .

ثانيا : منهجه في المعرفة والاستدلال :

هذه المسألة من المسائل المهمة ، لأنها المنطلق الذي ينبغي أن ينطلق منه في مثل هذه المباحث المتعلقة بالعقيدة وأصول الدين ، وشيخ الإسلام له منهج واضح في هذا الموضوع ، ولكن منهجه هذا لم يكتب فيه كتابة مستقلة في رسالة أو كتاب ، وإنما أشار إلى شذرات متفرقة من خلال ردوده على المخالفين ، وأكثر مظانه في بحوثه المتعلقة بنقض المنطق ، والنبوات ، وبيان موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول .

وقد قام منهجه في هذا على أساسين كبيرين :

أحدهما : نقض أصول ومناهج الاستدلال الفلسفية والكلامية .

والثاني : بيان المنهج الشرعي الإسلامي في ذلك .

= وبالنظر إلى أنه احتج به وأورده إيراد الأصول لا إيراد الشواهد يقتضي كونه مما حكم بصحته ، ومع ذلك فقد حكم الحاكم .... بصحته » ، ثم ذكر قول أبي داود أن ميمون لم يسمع من عائشة ورده بأنه عاصرها وعند مسلم يكفي المعاصرة ، وانظر شرح النووي (١٩/١) ، فقد نقل كلام ابن الصلاح وأيده ، كما حسنه السخاوي في المقاصد الحسنة رقم (١٧٩) وقال السخاوي بعد كلام « وبالجملة فحديث عائشة حسن » كما حسنه وأطال الكلام حوله في الجواهر والدرر (٤/١) . كما أيده العجلوني في كشف الخفا (١٩٤/١) رقم (٥٩٠) ، وفي مختصر المقاصد قال : حسن كما رمز له السيوطي بعلامة الصحة .

(١) شرح الأصفهانية (ص : ١٤٥-١٤٦) .

أما الأول : فقد كانت لشيخ الإسلام جهود عظيمة فيه لفتت انتباه من أتى بعده من الموافقين والمخالفين له ، حتى أصبحوا يعتبرون موقفه موقفا متميزا يؤرخون فيه مرحلة من مراحل نظرة المسلمين إلى الفلسفة ، والمنطق بشكل خاص [١] . ولن ندخل في هذا الموضوع ولكن نشير إشارات مجملة إلى نقده لتلك المناهج :

١ – فقد نقض أصول الفلسفة وأهدافها العليا ، ورد على المناطقة الذين يزعمون أن فلسفتهم وبراهينهم توصل إلى العلوم الكمالية ، وقد بين شيخ الإسلام أن كمال النفس إنما يكون بالإيمان بالله والعمل الصالح ، أما علومهم هذه فإنها لا تفيد – إن أفادت – إلا أمورا كلية لا حقيقة لها ولا ثمرة [٢] ، ولذلك قال شيخ الإسلام عن علومهم هذه : إنها « لحم جمل غث ، على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقي » [٣] ، وقال عن المنطق اليوناني : « لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد » [٤] ، بل بين حكم تعلم المنطق وبين بطلان من قال بوجوبه وأنه فرض كفاية مثل اللغة العربية ، كما بين أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين لم يعرفوه [٥] ، بل بين لماذا اشتهر عند المسلمين أنه يجر إلى الإلحاد والزندقة [٦] .

٢ – لما كان المنطق اليوناني يزعم أصحابه أنه آلة قانونية تعصم الذهن من أن يزل فكره ، نقض هذا المنطق وكتب فيه كتابا مستقلا مرتبا ومبوبا ، وأتى على جميع مباحثه بالمناقشة والنقد ، فنقد الحد ، وقول المناطقة : إن التصورات

---

(١) انظر فهارس : مناهج البحث للنشار ، والمدرسة السلفية وموقفها من المنطق وعلم الكلام – نصار – وغيرها .

(٢) انظر : الرد على المنطقيين (ص : ١٢٢–١٤٧) ، ونقض المنطق (ص : ١٦٤) .

(٣) درء التعارض (٥/٧١،٨/٢٣٤،٧/٤٢) وفيه « ولا سمين فينتقل » ، والعبارة وصف إحدى النساء لزوجها في حديث أم زرع ، البخاري في النكاح ورقمه (٥١٨٩) ، الفتح (٩/٢٥٤) .

(٤) الرد على المنطقيين (ص : ٣) .

(٥) انظر : المصدر السابق (ص : ١٧٨–١٨٠) ، ومجموع الفتاوى (٩/٢٦٩–٢٧٠) .

(٦) انظر : درء التعارض (١/٢١٧–٢١٨) ، ومجموع الفتاوى (٩/٢٦١) .

لا تنال إلا بالحد [(١)] ، كما نقض قولهم لا يعلم شيء من التصديقات إلا بالقياس [(٢)] ورد قضية الكلية التي يقوم عليها [(٣)] ، كما رد عليهم حصرهم له بأنه لابد أن يقوم على مقدمتين ، فبين بأنه قد يقوم على مقدمة واحدة ، وقد يحتاج الوصول إلى نتيجة إلى ثلاث مقدمات أو أكثر ، فحصرها بهذا العدد محض تحكم [(٤)] . كما بين أن كون القضية بديهية أو نظرية أمر نسبي وليس وصفا لها ، إذ قد تكون عند شخص بديهية وعند آخر ليست بديهية [(٥)] ، كما نقض قضايا المنطق الأخرى [(٦)] .

٣ – وإذا كان أهل الفلسفة حصروا منهجهم العلمي بالمنطق والقياس ، فإن هناك طائفة قابلتهم في هذا الباب ، فرأوا أن مصدر المعرفة ليست في شيء من ذلك ، وجعلوا مصدرها ما عندهم من خيالات صوفية ، وفيوضات – قد تكون فيوضات شيطانية – وغفل هؤلاء وهؤلاء عن الطريقة الشرعية ، ولذلك كان بعض العلماء [(٧)] يتعوذ بالله من قياس فلسفي وخيال صوفي [(٨)] .

---

(١) انظر : الرد على المنطقيين (ص : ٧) وما بعدها ، و(ص : ٣٢) وما بعدها ، ودرء التعارض (٣١٩/٣) وما بعدها (٥٢٣/٨) ، ونقض المنطق (ص : ١٨٣) وما بعدها .

(٢) انظر : الرد على المنطقيين (ص : ٨٨) ، ونقض المنطق (ص : ١٥٦) ، ومجموع الفتاوى (٢٦٨/٩) ، وانظر المدرسة السلفية (ص : ٣٦٠) .

(٣) انظر : الرد على المنطقيين (ص : ٣٦٨ – ٣٨١،٣٧١) ، ومناهج البحث للنشار (ص : ١٦٩، ١٧٨، ١٨٢) .

(٤) انظر : الرد على المنطقيين (ص : ١٦٧) وما بعدها ، ومنهاج السنة (٨٤/٢) ، مكتبة الرياض الحديثة ، وانظر منطق ابن تيمية (ص : ١٠٠) ، ومناهج البحث (ص : ١٩٦،١٨٤) ، والمدرسة السلفية (ص : ٣٨٢) .

(٥) انظر : درء التعارض (٣٠٤/٣) ، والرد على المنطقيين (ص : ٣٦٣،٨٨) ، والمدرسة السلفية (ص : ٣٧٠) .

(٦) مثل أقسام الصفات اللازمة وهل تنقسم إلى ذاتي وعرضي ، انظر الدرء (٣٧٤/٢ ، ٢٨/٣ ، ١٠/٥-١٣) .

ومثل : الفرق بين الماهية ووجدها ، انظر الرد على المنطقيين (ص : ٦٤) ، وتفريقهم بين الزاتي واللازم . انظر : الرد على المنطقيين (ص : ٧٠) .

(٧) منهم أبو القاسم السهيلي ، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد ، صاحب الروض الأنف في شرح السيرة ، توفي سنة : ٥٨١ هـ ، ترجمته في إشارة التعيين (ص : ١٨٢) ، وأنباء الرواة (١٦٢/٢) ، وبغية الوعاة (٨١/٢) .

(٨) انظر : الرد على المنطقيين (ص : ٤٨٢) وما بعدها ، ونقض المنطق (ص : ٣٥) ، ودرء التعارض (٣٠٣/٣) .

٤ – وقد وقع الفلاسفة – وأهل الكلام – في غلط كبير ، حين بنوا علومهم على أن كل ما لم يدل عليه الدليل يجب نفيه ، وهذا تحكم ظاهر ؛ إذ أن معناه أن كل ما جهله الناس أو لم يجدوا له دليلا فعليهم أن ينفوه وينكروا وجوده أو حصوله ، وقد رد عليهم شيخ الإسلام ببيانه لقاعدة عامة وهي أن عدم العلم ليس علما بالعدم ، أي أن الجهل بالشيء ليس دليلا على أن هذا الشيء غير موجود ، وهنا يتبين خطأ المنحرفين حين نفوا أشياء كثيرة – ربما تكون من صفات الله أو اليوم الآخر أو المغيبات – لأنهم لم يجدوا عليها دليلا ، وليس الخطأ جهلهم بالدليل ، وإنما الخطأ حين جعلوا عدم علمهم بالدليل دليلا على انتفاء هذا الشيء [(١)] ، والنافي عليه الدليل كما على المثبت [(٢)] .

٥ – كما تطرق ابن تيمية كثيرا إلى شبهة أخرى أضلت كثيرا من الفلاسفة والمتصوفة وأهل الكلام ، وهي اشتباه ما في الأذهان بما في الأعيان ، أو ما يسمى بالكلي المطلق ، فهؤلاء قد يتصورون في أذهانهم أشياء مثل الكليات العقلية التي يزعمون أنها تكون خارج العقل ولا يمكن الإشارة إليها ولا الإحساس بها وليست داخل العالم ولا خارجه ، ومثل الكليات المجردة مثل وجود مطلق ، أو إنسانية مطلقة ، ومثل أصحاب الاتحاد المطلق توهموه في أذهانهم فظنوا أنه في الخارج [(٣)] .

أما الثاني : فقد أشار إلى المنهج الصحيح للمعرفة والاستدلال ويمكن أن نعرضه كما يلي :

١ – في البداية يوضح شيخ الإسلام مراتب الدلالة فيقول « ولا ريب أن الدلالة على مراتب : أحدها : أن يدل الدليل بغير شعور منه ولا قصد ، فهذا الذي يسمى لسان الحال .... والدرجة الثانية : أن يكون الدال عالما بالمدلول عليه ،

---

(١) انظر : الرد على المنطقيين (ص : ٤٣٧،١٠٠) ، والصفدية (١٨٠/١) ، ونقض المنطق (ص : ٧٣) ، والجواب الصحيح (٢٩٦/٤) ، ودرء التعارض (٤٤/٥،٥٩/٤) .

(٢) انظر : الصفدية (١٦٦/١) ، وانظر المدرسة السلفية (ص : ٣٠٥) .

(٣) هذه القضية بحثها ابن تيمية كثيرا – وربما تعرض فيما بعد – وانظر نقض أساس التقديس المطبوع (٣٣٢/١) ، ودرء التعارض (٢٨٩،٢٨٥،٢١٦/١ ، ٣١٣،١٧٣،١٢٧،١١١/٥ ، ٩٦/٦) ، والسبعينية (ص : ١٠٠،٩٠) ، والصفدية (١١١٧-١١٢/١ ، ٢٩٦-٣٠٨) ، والجواب الصحيح (٧٨/٣) .

لكن لم يقصد إفهام مخاطب ، ولكن حاله دل المستدل على ما علمه ، كالأصوات التي تدل بالطبع مثل البكاء والضحك ونحوهما ، فإنها تدل على ما يعلمه المرء من نفسه مثل الحزن والفرح ، وكذلك صفرة الرجل وحمرة الخجل ... والدرجة الثالثة : الدلالة التي يقصدها الدال ، فمنها : الإعلام بغير خطاب مسموع ، كمن يعلم لغيره علامات تدله على ما يريد وكإشارة الأخرس ونحو ذلك ... »[1] . ويبين في موضع آخر أن الدليل ينقسم إلى ما يدل بنفسه وما يدل بدلالة الدال به ، فالمخلوقات تدل على الله الخالق ، فهذا مثال ما يدل بنفسه ، أما ما يدل بغيره فقد يكون دالا بالمواطأة والاتفاق بين اثنين فصاعدا ، مثل أن يتفق الرجل مع وكيله على علامة لمن يرسله إليه تدل على أنه أرسله مثل وضع خنصره في خنصره ، ومثل وضع يده على ترقوته ، ومثل شعار الناس في الحرب فلكل طائفة شعار خاص بهم يعرفون به بعضهم . وقد يدل بغيره قصدا من غير مواطأة مع المستدلين على أنه دليل ، لكنهم يعلمون أنه قصد الدلالة لعلمهم بأحوال مثل أن يرسلوا عمامته أو ثوبه مع شخص فيعلمون أنه أرسلها علامة على أنه أرسله[1] .

وشيخ الإسلام إنما يهدف إلى عدم حصر الاستدلال بطريقة معينة ، فإثبات الصانع وحدوث العالم ، ودلالة صدق الأنبياء وغيرها لا ينحصر الاستدلال لها في قالب معين كما فعل أهل الفلسفة والكلام الذين وصل بهم الأمر إلى إنكار ما لم يأت عن غير هذا الطريق الذي زعموه .

٢ - يقول المتكلمون : إنه لابد للوصول إلى العلم من النظر ولذلك يقولون : إن النظر يضاد العلم ، لأنه لو كان عالما لما احتاج إلى النظر ، لكن يرجع هؤلاء فيقولون : إن النظر مستلزم للعلم ، وهذا تناقض ، ويبين ابن تيمية أن الذي يفصل في القضية أن النظر نوعان : أحدهما : النظر الطلبي ، وهو النظر في المسألة التي هي القضية المطلوب حكمها ليطلب دليلها ، فهذا هو النظر الذي لا يجامع العلم بل يضاده ، لأنه ينظر في المطلوب فقد يجده وقد لا يجده ، فهذا نظر في الحكم

---

(١) درء التعارض (١٠/٢٠٠-٢٠٢) .

(٢) انظر : النبوات (ص : ٢٦٦-٢٧٩) ، وانظر (ص : ٣٦٩) .

كالذي ينظر في المسألة لينال دليلها من القرآن والحديث ، والثاني : النظر الاستدلالي : وهو النظر في الدليل الذي يوصله ويستلزم المدلول ، وهذا هو الذي يوجب العلم ولا ينافيه فهو كالذي ينظر في القرآن والحديث فيعلم الحكم [١] .
لكن هل النظر واجب ؟ يجيب شيخ الإسلام : « لكن من حصر العلم بطريق عينه ، هو مثل حد معين ودليل معين ، أخطأ كثيرا ، كما أن من قال : إن حد غيره ودليله لا يفيد بحال أخطأ كثيرا ، وهذا كما أن الذين أوجبوا النظر وقالوا : لا يحصل العلم إلا بهٍ مطلقا ، أخطأوا ، والذين قالوا : – لا حاجة إليه بحال ، بل المعرفة دائما ضرورية لكل أحد في كل حال – أخطأوا ، بل المعرفة وإن كانت ضرورية في حق أهل الفطر السليمة ، فكثير من الناس يحتاج فيها إلى النظر ، والإنسان قد يستغنى عنه فى حال ويحتاج إليه في حال ، وكذلك الحدود قد يحتاج إليها تارة ويستغنى عنها أخرى كالحدود اللفظية ، والترجمة قد يحتاج إليها تارة ، وقد يستغنى عنها أخرى ، وهذا له نظائر . وكذلك كون العلم ضروريا أو نظريا ، والاعتقاد قطعيا وظنيا أمور نسبية ، فقد يكون الشيء قطعيا عند شخص في حال ، وهو عند آخر وفي حال أخرى مجهول فضلا عن أن يكون مظنونا ، وقد يكون الشيء ضروريا لشخص في حال ، ونظريا لشخص آخر وفي حال أخرى ، وأما ما أخبر به الرسول فإنه حق في نفسه ، لا يختلف باختلاف عقائد الناس وأحوالهم ، فهو الحق الذي لا يقبل النقيض ، ولهذا كل ما عارضه فهو باطل مطلقا » [٢] .

والعلم علمان : عملي ونظري ، فالأول : « ما كان شرطا في حصول المعلوم كتصور أحدنا لما يريد أن يفعله ، فالمعلوم هنا متوقف على العلم به محتاج إليه . والثاني : العلم الخبري النظري ، وهو ما كان المعلوم غير مفتقر في وجوده إلى العلم به كعلمنا بوحدانية الله وأسمائه وصفاته وصدق رسله ، وبملائكته وكتبه وغير ذلك ، فإن هذه المعلومات ثابتة سواء علمناها أو لم نعلمها ، فهي مستغنية عن علمنا بها » [٣] .

---

(١) انظر : الرد على المنطقيين (ص : ٣٥٢-٣٥٣) .
(٢) درء التعارض (٣/٣٠٣-٣٠٤) .
(٣) درء التعارض (١/٨٨) .

٣ - ما حد الدليل ؟ هل هو المرشد إلى المطلوب وهو ما يكون العلم به مستلزما للعلم المطلوب ، فهو بذاته دليل يوصل إلى المقصود ، أم الدليل هو ما يكون النظر الصحيح فيه موصلا إلى المطلوب ، اختلف النظار في ذلك ، ويرى شيخ الإسلام أن كون بعضهم خص الثاني باسم الإمارة دون الدليل ، نزاع اصطلاحي ، ولكن يرى أن « الضابط في الدليل أن يكون مستلزما للمدلول ، فكل ما كان مستلزما لغيره أمكن أن يستدل به عليه ، فإن كان التلازم من الطرفين ، أمكن أن يستدل بكل منهما على الآخر ، فيستدل المستدل بما علمه منهما على الآخر الذي لم يعلمه »[1] ثم بين شيخ الإسلام أن هذا اللزوم إن كان قطعيا كان الدليل قطعيا ، وإن كان ظاهرا وقد يتخلف كان الدليل ظنيا ، ويمثل للقطعي بدلالة المخلوقات على خالقها وصفاته كالعلم والقدرة والمشيئة والرحمة والحكمة[2] .

٤ - والآن ننتقل إلى مسألة أخرى مهمة وهي : طرق العلم والمعرفة ومصادرها هل هي مختصة بجانب معين لا يوصل إلى العلم إلا من خلاله ؟ لقد تباينت مذاهب الناس في ذلك فبعضهم حصر العلم بالمحسوس فقط فهو الذي يثبت به الاستدلال يقينا وما عداه لا دليل فيه ، وبعضهم حصر الاستدلال بالاعتبار والقياس المنطقي فقط ، وبعضهم اعتمد على غير ذلك ، ويرى شيخ الإسلام أن طرق العلم متعددة وكثيرة ويمكن إجمالها بثلاث طرق :

أحدها : الحس الباطن والظاهر ، وهو الذي تعلم به الأمور الموجودة بأعيانها .

والثاني : الاعتبار بالنظر والقياس وإنما يحصل العلم به بعد العلم بالحس ، مما أفاده الحس معينا يفيده العقل والقياس مطلقا ، فهو لا يفيد بنفسه علم شيء معين لكن يجعل الخاص عاما ، والمعين مطلقا ، فإن الكليات إنما تعلم بالعقل ، كما أن المعينات إنما تعلم بالإحساس .

---

(١) الرد على المنطقيين (ص : ١٦٥) ، وانظر : (ص : ١٥١) ، ودرء التعارض (٣٠٣/٣، ١٢٢/١٠) ، والنبوات (ص : ٢٨٢) ، ومناهج البحث (ص : ١٩٤، ١٩٧ - ١٩٩، ٢١٦) ، ونظرية القياس الأصولي (ص : ٣٢٢) .

(٢) انظر : الرد على المنطقيين (ص : ١٦٥-١٦٦) .

والثالث : الخبر ، والخبر يتناول الكليات والمعينات والشاهد والغائب ، فهو أعم وأشمل ، لكن الحس والعيان أتم وأكمل [١] .

ويوسع شيخ الإسلام – في مناسبات مختلفة – الكلام حول هذه الأدلة ، ولكنه يركز على مسألة تنوع الأدلة ، كما يركز على دليل الخبر الصادق ، ولذلك يقول عن أهل الكلام : « إنهم قد سلموا أنه يعلم بالسمع أمور ، كما يذكرونه كلهم من أن العلوم ثلاثة أقسام : منها ما لا يعلم إلا بالعقل ، ومنها ما لا يعلم إلا بالسمع ، ومنها ما لا يعلم بالسمع والعقل ، وهذا التقسيم حق في الجملة ، فإن من الأمور الغائبة عن حس الإنسان ما لا يمكن معرفته بالعقل ، بل لا يعرف إلا بالخبر » ثم بين طرق العلم فيقول : « وطرق العلم ثلاثة : الحس ، والعقل ، والمركب منهما كالخبر » [٢] ويوضح النقطة الأخيرة في مكان آخر فيقول : « إن الخبر أيضا لا يفيد إلا مع الحس أو العقل ، فإن المخبر عنه إن كان قد شوهد ، كان قد علم بالحس ، وإن لم يكن شوهد فلابد أن يكون شوهد ما يشبهه من بعض الوجوه ، وإلا لم يعلم بالخبر شيء ، فلا يفيد الخبر إلا بعد الحس والعقل ، فكما أن العقل بعد الحس فالخبر بعد العقل والحس ، فالإخبار يتضمن هذا وهذا » [٣] .

وليس الحس وحده تعلم به الأمور إذ هناك المجريات والمتواترات ، ويرى شيخ الإسلام أن هذه الأدلة توصل إلى اليقين ، ولكن الخطأ الذي وقع فيه الفلاسفة وأهل المنطق أنهم جعلوا ما علم بالحس يمكن أن يستنبط منه قضية كلية عامة ، ينبى عليها القانون المنطقي ، يقول شيخ الإسلام عنهم : « إنهم كما حصروا اليقين في الصورة القياسية حصروه في المادة التي ذكروها من القضايا الحسيات ، والأوليات والمتواترات والمجربات أو الحدسيات ، ومعلوم أنه لا دليل على نفي ما سوى هذه القضايا .... ثم مع ذلك إنما اعتبروا في الحسيات والعقليات وغيرهم

---

(١) درء التعارض (٣٢٤/٧) ، وانظر : الاستقامة (٢٩/١) ، والرد على المنطقيين (ص : ٣٦٤ ، ٤٧٣) ، ونقض أساس التقديس المطبوع (٥٣٩/٢) .

(٢) درء التعارض (١٧٨/١) .

(٣) نفسه (٣٢٥/٧) .

ما جرت العادة باشتراك بني آدم فيه ، وتناقضوا في ذلك ، وذلك أن بني آدم إنما يشتركون كلهم في بعض المرئيات وبعض المسموعات ، فإنهم كلهم يرون عين الشمس والقمر والكواكب ، ويرون جنس السحاب والبرق ، وإن لم يكن ما رآه هؤلاء من ذلك هو ما يراه هؤلاء ، وكذلك يشتركون في سماع صوت الرعد ، وأما ما يسمعه بعضهم من كلام بعض وصوته فهذا لا يشترك بنو آدم في عينه ، بل كل قوم يسمعون ما لا يسمع غيرهم ، وكذلك أكثر المرئيات ، فانه ما من شخص ولا أهل درب ولا مدينة ولا إقليم إلا ويرون من المرئيات ما لا يراه غيرهم ، وأما الشم والذوق واللمس فهذا لا يشترك جميع الناس في شيء معين فيه ... وكذلك ما يعلم بالتواتر والتجربة والحدس ، فإنه قد يتواتر عند هؤلاء ما لم يتواتر عند غيرهم ولم يجربوه ، ولكن قد يتفقان في الجنس ، كما يجرب قوم بعض الأدوية ويجرب الآخرون جنس تلك الأدوية ، فيتفق في معرفة الجنس لا في معرفة عين المجرب » [(١)] ، فإذا كانت هذه حال هذه الأدلة فلماذا يفرق أهل المنطق بينها ، فيقولون : إن ما علم بالحس يمكن أن يكون دليلا عاما ، أما المتواترات والمجربات فليست دليلا عاما وإنما يختص بها من علمها ، مع أن اشتراك الناس في المتواترات أكثر ، وفي المجريات يحصل المعنى الكلي الذي يقوم في النفس بخلاف الحسيات فليس فيها شيء كلي [(٢)] ، لقد أدى هذا التفريق بأهل المنطق أن أنكروا المتواترات والأخبار التي تعلم أو جاءت عن طريق الأنبياء ، وكذلك الأدلة القرآنية من الأمثلة الضرورية التي ذكر الله تعالى فيها ما جرى للأمم السابقة وأنه يجري على من عمل مثل عملهم .

إن شيخ الإسلام يرى أن – الحسيات والمتواترات والمجربيات – يمكن أن تكون دليلا ومصدرا من مصادر المعرفة ، ولا يفرق بينها ، ويمكن أن ننقل نصا يوضح هذه المسألة ، يقول : « وقد ذكر من ذكر من هؤلاء المنطقيين أن القضايا المعلومة بالتواتر والتجربة والحدس يختص بها من علمها بهذا الطريق ، فلا تكون حجة على غيره بخلاف غيرها فإنها مشتركة يحتج بها على المنازع . وقد بينا ...

---

(١) الرد على المنطقيين (ص : ٣٨٤–٣٨٥) .

(٢) الرد على المنطقيين (ص : ٣٨٥) .

أن هذا تفريق فاسد ؛ فإن الحسيات الظاهرة والباطنة تنقسم أيضا إلى خاصة وعامة وليس ما رآه زيد أو شمه أو ذاقه أو لمسه يجب اشتراك الناس فيه ، وكذلك ما وجده في نفسه من جوعه وعطشه وألمه ولذته ، لكن بعض الحسيات قد تكون مشتركة بين الناس ، كاشتراكهم في رؤية الشمس والقمر والكواكب ، وأخص من ذلك اشتراك أهل البلد الواحد في رؤية ما عندهم من جبل وجامع ونهر وغير ذلك من الأمور المخلوقة والمصنوعة » .

« وكذلك الأمور المعلومة بالتواتر والتجارب قد يشترك فيها عامة الناس كاشتراك الناس في العلم بوجود مكة ونحوها من البلدان المشهورة ، واشتراكهم في وجود البحر وأكثرهم ما رآه ، واشتراكهم في العلم بوجود موسى وعيسى ومحمد وادعائهم النبوة ونحو ذلك ، فإن هؤلاء قد تواتر خبرهم إلى عامة بني آدم وإن قدر من لم يبلغه أخبارهم فهم في أطراف المعمورة لا في الوسط ، وكذلك المجربات ، فعامة الناس قد جربوا أن شرب الماء يحصل معه الري ، وأن قطع العنق يحصل معه الموت ، وأن الضرب الشديد يوجب الألم . والعلم بهذه القضية تجريبي فإن الحس إنما يدرك ريا معينا وموت شخص معين ، وألم شخص معين ، أما كون كل من فعل به ذلك يحصل له مثل ذلك ، فهذه القضية الكلية لا تعلم بالحس ، بل بما يتركب من الحس والعقل ، وليس الحس هنا هو السمع . وهذا النوع قد يسميه بعض الناس كله تجريبيات ، وبعضهم يجعله نوعين : تجريبيات وحدسيات ، فإن كان الحس المقرون بالعقل من فعل الإنسان كأكله وشربه وتناوله الدواء سماه تجريبيا ، وإن كان خارجا عن قدرته كتغير أشكال القمر عند مقابلة الشمس سماه حدسيا » [1] .

فهذه الحسيات والمجربات من طرق العلم عند شيخ الإسلام ، ولكنه لا يحصر طرق العلم بها ، واعتناؤه بهذه الأمور – خاصة التجربة – أثار انتباه وإعجاب كثير من الباحثين المعاصرين حتى قال أحدهم – ممن يخالف شيخ الإسلام في آرائه – بعد أن نقل كلامه في ذلك : « وأخيرا لا يسعنا أمام

---

(١) الرد على المنطقيين (ص : ٩٢-٩٣) .

هذه الروح العلمية التجريبية التي اتسمت بها فلسفة ابن تيمية إلا أن نقرر أنه لو قدر لهذه الفلسفة أن توضع في قالب منهجي لعد ابن تيمية – بحق – على رأس الفلاسفة التجريبيين ، وحسبه أنه وضع الأفكار في وقت كانت فيه أوربا ترسف في أغلال الجهل وتعاني من جمود الفكر النظري طوال العصور الوسطى » [١] .

وإذا كانت مثل هذه القضايا أثارت إعجاب هؤلاء الباحثين بشيخ الإسلام فإن الذي أثار إعجاب تلامذة ابن تيمية – من عصره وإلى اليوم – ما عمل رحمه الله من الدعوة إلى العودة إلى مذهب السلف ، ومنهجهم ، ومن ذلك : المنهج الشرعي للاستدلال ، الذي تنكبه الفلاسفة والمتكلمون قديما وتلامذتهم حديثا – وهذا ما نشير إليه في الفقرة التالية .

٥ – من أصول الاستدلال وطرق المعرفة الكبرى : الطريق والدليل الشرعي ، ولكن ما الدليل الشرعي ؟ هل هو مقتصر على ما أفاده الخبر بنصه فقط ، أو ما يسميه البعض الدليل السمعي ، المختص بما لا يمكن العلم به إلا بالسمع وخبر الصادق ، لقد فهم كثير من أهل الكلام هذا ، ورأوا أن الشرع – من الكتاب والسنة – ليس فيه أدلة عقلية ، وإنما أخبار عن مغيبات يجب التصديق بها ، وغفل هؤلاء عن الأدلة القرآنية الكثيرة التي فيها مجادلة ومحاجة المنكرين للألوهية والنبوة ، والبعث وغيرها ، وهؤلاء المنكرون من مشركي العرب وأهل الكتاب وغيرهم لم يكونوا مقرين بنبوة محمد – ﷺ – ولا بما نزل عليه من الكتاب ، ولذلك كان من أصول منهج شيخ الإسلام – في كتبه – التركيز على المنهج الشرعي وينبه إلى غلط أهل الكلام في حصرهم لهم في خبر الصادق فقط يقول : [الدليل] الشرعي قد يكون سمعيا وقد يكون عقليا ، فإن كون الدليل شرعيا يراد به :

أ – كون الشرع أثبته ودل عليه .
ب – ويراد به كون الشرع أباحه وأذن فيه .

---

(١) المدرسة السلفية (ص : ٤٤٩) ومؤلفه : محمد عبد الستار نصار ، وانظر : مناهج البحث للنشار (ص : ١٦٦، ١٧٣، ١٧٨) .

(أ) فإذا أريد بالشرعي ما أثبته الشرع ، فإما أن يكون معلوما بالعقل أيضا ولكن الشرع نبه عليه ودل عليه ، فيكون شرعيا عقليا ، وهذا كالأدلة التي نبه الله تعالى عليها في كتابه العزيز من الأمثال المضروبة وغيرها الدالة على توحيده وصدق رسله ، وإثبات صفاته وعلى المعاد ، فتلك كلها أدلة عقلية يعلم صحتها بالعقل وهي براهين ومقاييس عقلية ، وهي مع ذلك شرعية . وإما أن يكون الدليل الشرعي لا يعلم إلا بمجرد خبر الصادق ، فإنه إذا أخبر بما لا يعلم إلا بخبره كان ذلك شرعيا سمعيا .

وكثير من أهل الكلام يظن أن الأدلة الشرعية مَنحصرة في خبر الصادق فقط وأن الكتاب والسنة لا يدلان إلا على هذا الوجه ، ولهذا يجعلون أصول الدين نوعين : العقليات ، والسمعيات ، ويجعلون القسم الأول مما لا يعلم بالكتاب والسنة . وهذا غلط منهم ، بل القرآن دل على الأدلة العقلية وبينها ونبه عليها وإن كان من الأدلة العقلية ما لا يعلم بالعيان ولوازمه كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

(ب) وأما إذا أريد بالشرعي ما أباحه الشرع وأذن فيه ، فيدخل في ذلك ما أخبر به الصادق ، وما دل عليه ونبه عليه القرآن ، وما دلت عليه وشهدت به الموجودات ، والشارع يحرم الدليل لكونه كذبا في نفسه ، مثل أن تكون إحدى مقدماته باطلة ، فإنه كذب والله يحرم الكذب لاسيما عليه ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ [الأعراف : ١٦٩] ، ويحرمه لكون المتكلم به يتكلم بلا علم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الاسراء : ٣٦] وقوله تعالى : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وقوله : ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [آل عمران : ٦٦] [1] .

---

(١) درء التعارض (١٩٨/١-٢٠٠) .

فالأدلة الشرعية قد تكون سمعية ، وقد تكون عقلية نبه عليها الشرع ، وشيخ الإسلام دائما ما ينبه إلى أنه لا يمكن أن يتعارض العقل والشرع ، ولذلك لم يفصل بين جنس الأدلة - كما فعل أهل الفلسفة والكلام - فالأدلة قد تكون حسية وقد تكون عقلية وقد تكون شرعية ، وكلها صادقة ، لأن الكل من عند الله ، فالكون مخلوق لله والإنسان الذي يعقل ويحس مخلوق لله ، والنصوص السمعية منزلة من عند الله ، فالذين يتوهمون أنهم قد يعلمون بعقولهم ومقاييسهم أمورا قد يعارضها السمع غالطون أشد الغلط بل ومنحرفون في إيمانهم وثقتهم بما جاء من عند الله من الكتاب والسنة ، إذ كلها وحي من الله تعالى ، ولهذا يقول شيخ الإسلام منبها إلى أن حصول المعرفة بالشرع على وجوه « أحدها : أن الشرع ينبه على الطريق العقلية التي بها يعرف الصانع ، فتكون عقلية شرعية ، والثاني : أن المعرفة المنفصلة [1] بأسماء الله وصفاته التي بها يحصل الإيمان تحصل بالشرع كقوله تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] ، وقوله : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّى ﴾ [سبأ : ٥٠] ، وقوله : ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ [إبراهيم : ١] ، وأمثال ذلك من النصوص التي تبين أن الله هدى العباد بكتابه المنزل على نبيه » [2] .

فالهداية التامة والمعرفة الصادقة التي لا يدخلها شك أعظم ما تتم عن طريق الكتاب والسنة ، إن كان ثمة طريق غيرهما تحصل به هذه المعرفة ؛ ويوضح شيخ الإسلام في هذافيقول : « وأما النظر المفيد للعلم فهو ما كان في دليل هاد ، والدليل الهادي - على العموم والإطلاق - هو كتاب الله وسنة نبيه ، فإن الذي جاءت به الشريعة من نوعي النظر : هو ما يفيد وينفع ويحصل الهدى ، وهو يذكر الله وما نزل من الحق ، فإذا أراد النظر والاعتبار في الأدلة المطلقة

---

(١) كذا ، ولعلها : المفصلة .

(٢) درء التعارض (٩/٣٧-٣٨) .

من غير تعيين مطلوب فذلك النظر في كتاب الله وتدبره كما قال تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥-١٦] ... » (١) .

٦ - ونعرض للأدلة الشرعية التي ذكرها شيخ الإسلام :

أ - فأولها دلالة السمع من الكتاب والسنة على كل ما تنازع الناس فيه ، لأن فيهما الهدى التام ، فمن اعتصم بالوحي فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ولذلك فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، « دعوا الناس إلى عبادة الله أولا بالقلب ، واللسان ، وعبادته متضمنة لمعرفته ، وذكره ، فأصل علمهم وعملهم هو العلم بالله والعمل لله » (٢) ، ولذلك فالرسل لم يدعوا الناس إلى الإقرار بوجود الله وأنه الخالق ، لأن هذا معروف مسلم مركوز في فطر الناس ، وإنما دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ومنه ينطلق إلى الأمور الأخرى ، لأن من عبد الله وحده وأخلص له في العبادة فلابد أن يصدق برسله وبما جاءوا به من عند ربهم تعالى ، يقول شيخ الإسلام : « إن الله سبحانه لما كان هو الأول الذي خلق الكائنات والآخر الذي إليه تصير الحادثات فهو الأصل الجامع ؛ فالعلم به أصل كل عمل وجامعه ، وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته ، وإذا حصل لهم ذلك فما سواه إما فضل نافع وإما فضول غير نافعة ، وإما أمر مضر » ، « ثم من العلم به تتشعب أنواع العلوم ، ومن عبادته وقصده تتشعب وجوه المقاصد الصالحة ، والقلب بعبادته والاستعانة به معتصم مستمسك قد لجأ إلى ركن وثيق ، واعتصم بالدليل الهادي ، والبرهان الوثيق ، فلا يزال إما في زيادة العلم والإيمان ، وإما في السلامة من الجهل والكفر ، وبهذا جاءت النصوص الإلهية في أنه بالإيمان يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وضرب مثل المؤمن - وهو المقر بربه علما وعملا - بالحي والبصير والسميع والنور والظل - وضرب

(١) نقض المنطق (ص : ٣٣) .
(٢) مجموع الفتاوى (٢/١٥) .

مثل الكافر - بالميت والأعمى والأصم ، والظلمة والحرور » [١] ، فمنهج الرسل على الضد من منهج المتكلمين الذين يبدأون بالأمور النظرية فيبدأون بإثبات الصانع ثم النبوات ثم السمعيات ، وقد تختلط عليهم الأدلة في أول الطريق أو في وسطها أو في آخرها فلا يصلون إلى المقصود ، أما الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم جميعا - فيبدأون من حيث ينتهي الفلاسفة ، فإذا كان قصارى ما ينتهي إليه هؤلاء إثبات أن هذا العالم لابد له من خالق ، فالأنبياء يبينون لأممهم أنه يجب عبادة الله وحده لا شريك له ما دامت قضية الإقرار به وبوجوده مسلمة للجميع .

وخلاصة هذا الدليل : أن عبادة الله والإخلاص هي الأساس وهي الموصلة إلى تصديق رسله - والله أيدهم بما يدل على صدقهم من المعجزات وغيرها - فإذا تمت الشهادتان : الألوهية والرسالة ، كان ما جاء به هؤلاء الرسل من أمر أو خبر هو الحق الذي يعتصم به المؤمنون وإذا كان المتصوفة على عكس المتكلمين والفلاسفة ، فإن أهل الحق والإيمان لا يعتمدون على ما يخطر بقلوبهم من خواطر مطلقا ، وإنما يزنونها بالكتاب والسنة ، ولا يقدمون عليهما شيئا من الأدلة أو الخواطر ، ولذلك فما « أوتيه علماء أهل الحديث وخواصهم من اليقين والمعرفة والهدى فأمر يجل عن الوصف ، ولكن عند عوامهم من اليقين والعلم النافع ما لم يحصل منه شيء لأئمة المتفلسفة والمتكلمين ، وهذا ظاهر شهود لكل أحد » [٢] .

ب - وهناك دليل آخر وهو دليل الفطرة التي فطر الله الناس جميعا عليها ، لأن الإنسان خلقه الله تعالى متميزا عن غيره من المخلوقات ، فعنده الشعور والإحساس ولديه الإرادة والحركة ، ففي الشعور والإدراك يميز بين الحق والباطل والصدق والكذب ، وبالإرادة والحركة يحب ويبغض فيحب ما ينفعه ويميل إليه ، ويبغض ما يضره وينفر منه ، وهذه هي الفطرة [٣] ، يقول شيخ الإسلام : « والله سبحانه

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٢) .
(٢) نقض المنطق (ص : ٢٦) .
(٣) انظر : المصدر السابق (ص : ٢٩) .

خلق عباده على الفطرة التي فيها معرفة الحق والتصديق به ومعرفة الباطل والتكذيب به ، ومعرفة النافع الملائم والمحبة له ، ومعرفة الضار المنافي والبغض له بالفطرة ، فما كان حقا موجودا صدقت به الفطرة ، وما كان حقا نافعا عرفته الفطرة أحبته وأطمأنت إليه ، وذلك هو المعروف ، وما كان باطلا معدوما كذبت به الفطرة فأبغضته الفطرة وأنكرته » [1] .

ونصوص الفطرة دالة على أن كل مولود يولد على فطرة الإسلام ، وهي الحنيفية المقتضية لعبادة الله وحده لا شريك له والحب والخضوع له تعالى . يقول شيخ الإسلام : « فعلم أن في فطرة الإنسان قوة تقتضي اعتقاد الحق وإرادة النافع ، وحينئذ فالإقرار بوجود الصانع ومعرفته والإيمان به هو الحق أو نقيضه ؟ والثاني معلوم الفساد قطعا ، فتعين الأول ، وحينئذ فيجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي معرفة الصانع والإيمان به ، وأيضا : فإنه مع الإقرار به إما أن تكون محبته أنفع للعبد أو عدم محبته ، والثاني معلوم الفساد ، وإذا كان الأول أنفع له كان في فطرته محبة ما ينفعه ، وأيضا فإنه إما أن تكون عبادته وحده لا شريك له أكمل للناس علما وقصدا أو الإشراك به ، والثاني معلوم الفساد فوجب أن يكون في فطرته مقتضى يقتضي توحيده ، وأيضا : فإما أن يكون دين الإسلام مع غيره من الأديان متماثلين أو الإسلام مرجوحا أو راجحا ، والأول والثاني باطلان باتفاق المسلمين وبأدلة كثيرة ، فوجب أن يكون في الفطرة مقتض يقتضي خير الأمرين لها ، وامتنع أن تكون نسبة الإسلام وسائر الملل إلى الفطرة واحدة ، سواء كانت نسبة قدرة أو نسبة قبول » [2] .

وهذه الفطرة بما فيها من الاستعداد والقبول كافية لحصول مقتضاها من معرفة الله وعبادته ، لا يشترط لذلك وجود أدلة يتعلمها من خارج ، يوضح شيخ الإسلام هذه المسألة فيقول : « وإذا لزم أن يكون في الفطرة مرجح للحنيفية التي أصلها معرفة الصانع ومحبته وإخلاص الدين له ، فإما أن يكون مع ذلك

---

(١) نقض المنطق (ص : ٢٩) .

(٢) درء التعارض (٨/٤٥٨-٤٥٩) .

لا يوجد مقتضاها إلا بسبب منفصل ، مثل من يعلمه ويدعوه ، أو يمكن وجود ذلك بدون هذا السبب المنفصل ، فإن كان الأول لزم أن يكون موجبها متوقفا على مخاطب منفصل دائما ، فلا يحصل بدونه البتة ، ثم القول في حصول موجبها لذلك المخاطب المنفصل ، كالقول في الأول ، وحينئذ فيلزم التسلسل في المخاطبين ، ووجود مخاطبين لا يتناهون ، وهم أيضا مخاطبون وهذا تسلسل في الفاعلين وهو ممتنع ، وإن كان من المخاطبين من حصل له بموجب الفطرة بلا مخاطب منفصل دل على إمكان ذلك بالفطرة ، فبطل هذا التقرير وهو كون موجب الفطرة لا يحصل قط إلا لمخاطب منفصل ، وإذا أمكن حصول موجب الفطرة بدون مخاطب منفصل علم أن في الفطرة قوة تقتضي ذلك ، وإن ذلك ليس موقوفا على مخاطب منفصل ، لكن قد يكون لذلك المقتضى معارض مانع وهذا هو الفطرة » [1] .

وهذه الفطرة توافق ما أخبرت به الرسل ولا تعارضها أبدا ، ولذلك فإن دليل الفطرة على علو الله تعالى لا يمكن أن يكون ما جاءت به النصوص بخلافه كما زعم نفاته [2] ، وهكذا .

جـ - ومن الأدلة النظرية التي تفيد العلم ، وقد جاء بها القرآن ، دليل الآيات ، فالمخلوقات تدل على الخالق وتوجب العلم به ، وآيات الأنبياء توجب العلم بنبوتهم ، وهكذا يقول شيخ الإسلام إن من الأدلة « الآيات كما يذكر الله ذلك في القرآن ، والآية هي دليل عليه بعينه ، لا تدل على قدر مشترك بينه وبين غيره ، فنفس الكائنات وما فيها وهو عين وجودها في الخارج مستلزم لوجود الرب ، وهو آية له ودليل عليه ، وشاهد بوجوده بعينه ، لا قدر مشترك بينه وبين غيره » [3] ، ودليل الآيات يختلف عن دليل القياس ، لأن دليل الآية هو نفسه مستلزم لعين المدلول عليه ، يقول شيخ الإسلام : « وأما استدلاله بالآيات

---

(١) درء التعارض (٨/٤٥٩-٤٦٠) .

(٢) انظر : درء التعارض (٥/٣١٢) ، وانظر : دلالة الفطرة الدرء (٨/٣٧١) ، ونقض التأسيس المطبوع (٢/٤٧٥) .

(٣) نقض أساس التقديس - المطبوع - (٢/٤٧٤) .

فكثير في القرآن ، والفرق بين الآيات وبين القياس أن الآية هي العلامة ، وهي الدليل الذي يستلزم عين المدلول ، ولا يكون مدلوله أمرا كليا مشتركا بين المطلوب وغيره ، بل نفس العلم به يوجب العلم بعين المدلول ، كما أن الشمس آية النهار قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الاسراء : ١٢] فنفس العلم بطلوع الشمس يوجب العلم بوجود النهار ، وكذلك آيات نبوة محمد – ﷺ – نفس العلم بها يوجب العلم بنبوته بعينه ، لا يوجب أمرا كليا مشتركا بينه وبين غيره ، وكذلك آيات الرب تعالى ، نفس العلم بها يوجب العلم بنفسه المقدسة تعالى لا يوجب علما كليا مشتركا بينه وبين غيره ، والعلم بكون هذا مستلزما لهذا هو جهة الدليل » (١) ، ودليل الآيات إنما هو استدلال بجزئي على جزئي ، وهذا يخالف القياس المنطقي (٢) .

د – قياس الأولى :

يرى شيخ الإسلام أن هذا من أدلة القرآن ، وأنه يستخدم في حق الله تعالى لأن الله تعالى ليس مثل خلقه ، بحيث يقاس على خلقه لأن الله تعالى ليس كمثله شيء ، وهذا الدليل ركز عليه شيخ الإسلام كثيرا ، وبين دلالته على إثبات التوحيد لله ونفي الصاحبة والولد عنه ، وعلى إثبات صفات الكمال لله ، وعلى النبوة والمعاد ، يقول شيخ الإسلام : « وأما قياس الأولى الذي كان يسلكه السلف اتباعا للقرآن فيدل على أنه يثبت له من صفات الكمال التي لا نقص فيها أكمل مما علموه ثابتا لغيره ، مع التفاوت الذي لا يضبطه العقل ، كما لا يضبط التفاوت بين الخالق والمخلوق ، بل إذا كان العقل يدرك من التفاضل الذي بين مخلوق ومخلوق ما لا يحصر قدره ، وهو يعلم أن فضل الله على كل مخلوق أعظم من فضل مخلوق على مخلوق ، كان هذا مما يبين له أن ما يثبت للرب أعظم مما يثبت

---

(١) الرد على المنطقيين (ص : ١٥١) .

(٢) انظر : نفس المصدر (ص : ١٦٣) ، وانظر : (ص : ٣٥٦) ، ومجموع الفتاوى (٤٨/١،٩/٢) ، وانظر : منطق ابن تيمية (ص : ٢٤٧) ، والمدرسة السلفية (ص : ٤٤٣،٣٦٨) ، ومناهج البحث (ص : ٢١٦) .

لكل ما سواه بما لا يدرك قدره » [١] ، ويقول أيضا : « ومما يوضح هذا أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل [٢] يستوي فيه الأصل والفرع ، ولا بقياس شمولي [٣] تستوي فيه أفراده ، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء فلا يجوز أن يمثل بغيره ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها » [٤] ، ثم طبق هذا على مسألة المعاد [٥] ، ثم ذكر أن الله استعمله سبحانه في تنزيهه وتقديسه عما أضافوه إليه من الولادة سواء سموها حسية أو عقلية [٦] ، ثم ذكر النصوص القرآنية التي فيها الإنكار على المشركين في زعمهم أن لله ولدا ، أو أن لله البنات ، ثم عقب شيخ الإسلام قائلا : « فبين سبحانه أن الرب الخالق أولى بأن ينزه عن الأمور الناقصة منكم ، فكيف تجعلون له ما تكرهون أن يكون لكم ، وتستحيون من إضافته إليكم مع أن ذلك واقع لا محالة ، ولا تنزهونه عن ذلك وتنفونه عنه ، وهو أحق بنفي المكروهات المنقصات منكم » [٧] ، فذكر قياس الأولى في ذلك [٨] .

---

(١) الرد على المنطقيين (ص : ١٥٤) .

(٢) قياس التمثيل هو القياس المشهور في كتب أصول الفقه وهو : إثبات الحكم في جزئيٍّ لثبوته في جزئيٍّ آخر لمعنى مشترك بينهما وهو العلة كقولنا : النبيذ حرام لأنه كالخمر في الإسكار الذي هو علة الحرمة ، انظر التهذيب : شرح الخبيصي وحواشيه (ص : ٤١٤) ، وإيضاح المبهم (ص : ١٧) ، وتحرير القواعد المنطقية (ص : ١٦٦) ، والمرشد السليم (ص : ٢٥٣) .

(٣) قياس الشمول : هو قياس المناطقة المشهور وهو : قول مؤلف من قضايا إذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر ، مثل أن يقال كل إنسان حيوان وكل حيوان حساس ، النتيجة : كل إنسان حساس . انظر المصادر السابقة : التهذيب : شرح الخبيصي (ص : ٣٦٣) ، وتحرير القواعد (ص : ١٣٨) ، والمرشد السليم (ص : ١٣٦) .

(٤) درء التعارض (٢٩/١) .

(٥) انظر : المصدر نفسه (١/٣٠-٣٥) .

(٦) الحسية مثل قول النصارى في عيسى ، والعقلية مثل قول الفلاسفة بتولد العقول العشرة والأفلاك .

(٧) درء التعارض (١/٣٦-٣٧) .

(٨) انظر : في قياس الأولى وشرح ابن تيمية له : منطق ابن تيمية (ص : ٢٥٤) ، ونظرية القياس الأصولي (ص : ٣٣٤) ، ومناهج البحث (٢١٨) .

هـ – الميزان القرآني :

وردت نصوص تدل على « الميزان » وأن الله أنزله ، مثل قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى : ١٧] ، وقوله : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ* وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٧-٩] وغيرها ، فما هذا الميزان ؟ يقول شيخ الإسلام : « وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى : ١٧] وقال : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد : ٢٥] والميزان يفسره السلف بالعدل ، ويفسره بعضهم بما يوزن به [١] ، وهما متلازمان ، وقد أخبر أنه أنزل ذلك مع رسله كما أنزل معهم الكتاب ليقوم الناس بالقسط ، فما يعرف به تماثل المتماثلات من الصفات والمقادير هو من الميزان ، وكذلك ما يعرف به اختلاف المختلفات ، فمعرفة أن هذه الدراهم أو غيرها من الأجسام الثقيلة بقدر هذه تعرف بموازينها ، وكذلك مثل هذا الزمان يعرف بموازينه التي يقدر بها الأوقات ... فكذلك الفروع المقيسة على أصولها في الشرعيات والعقليات تعرف بالموازين المشتركة بينهما ، وهي الوصف الجامع المشترك الذي يسمى الحد الأوسط ، فإنا إذا علمنا أن الله حرم خمر العنب لما ذكره من أنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وتوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء ، ثم رأينا نبيذ الحبوب من الحنطة والشعير والرز وغير ذلك يماثلها في المعنى الكلي المشترك الذي هو علة التحريم ، كان هذا القدر المشترك الذي هو العلة هو الميزان التي أنزلها الله في قلوبنا لنزن بها هذا نجعله مثل هذا ، فلا نفرق بين المتماثلين ، والقياس الصحيح هو من العدل الذي أمر الله تعالى به » [٢] ، ويوضح النقطة الأخيرة فيقول : « إن القياس الصحيح هو من العدل الذي أنزله ، وإنه لا يجوز قط أن يختلف الكتاب والميزان ، فلا يختلف نص ثابت عن الرسل وقياس صحيح ، لا قياس شرعي

---

(١) انظر هذين القولين في تفسير الآية : ٢٥ من سورة الحديد : تفسير الطبري ، وزاد المسير .

(٢) الرد على المنطقيين (ص : ٣٧٢) .

ولا عقلي ، ولا يجوز قط أن الأدلة الصحيحة النقلية تخالف الأدلة الصحيحة العقلية ... » [١] ، ويورد اعتراضا على هذا ثم يرد عليه ، فيقول : « فإن قيل : إذا كان هذا مما يعرف بالعقل فكيف جعله الله تعالى مما أرسلت به الرسل ؟ قيل : لأن الرسل ضربت للناس الأمثال العقلية التي يعرفون بها التماثل والاختلاف ، فإن الرسل دلت الناس وأرشدتهم إلى ما به يعرفون العدل ، ويعرفون الأقيسة العقلية الصحيحة التي يستدل بها على المطالب الدينية ، فليس العلوم النبوية مقصورة على مجرد الخبر ، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام ، ويجعلون ما يعلم قسيما للعلوم النبوية ، بل الرسل – صلوات الله عليهم – بينت العلوم العقلية التي بها يتم دين الناس علما وعملا ، وضربت الأمثال ، فكملت الفطرة بما نبهتا عليه وأرشدتها مما كانت الفطرة معرضة عنه ، أو كانت الفطرة قد فسدت بما حصل لها من الآراء والأهواء الفاسدة ، فأزالت ذلك الفساد وبينت ما كانت الفطرة معرضة عنه ، حتى صار عند الفطرة معرفة الميزان التي أنزلها الله وبينتها رسله » [٢] ، ويوضح شيخ الإسلام أن الله كما أنزل مع رسله الإيمان ، فلا يحصل الإيمان إلا بهم ، فكذلك أنزل الميزان في القلوب وذلك لما بينت الرسل العدل وما يوزن به [٣] .

ولما كان القياس أحد الأصول المعتبرة في الأحكام عند جماهير المسلمين ، وقف شيخ الإسلام مع أهل المنطق وقفة طويلة حول زعمهم أن قياسهم الشمولي هو الذي يفيد اليقين ، أما القياس التمثيلي – الذي هو قياس الأصوليين – فلا يفيد إلا الظن [٤] ، ظنا منهم أن استخدامه في الأحكام الفرعية من جانب الفقهاء

---

(١) الرد على المنطقيين (ص : ٣٧٣) .

(٢) نفسه (ص : ٣٨٢) .

(٣) نفسه (ص : ٣٨٣-٣٨٤) .

(٤) سبق التعريف بقياس الشمول والتمثيل والفرق بينهما أن الشمولي إنتقال من خاص إلى عام ثم انتقال من ذلك العام إلى الخاص ، أما التمثيلي فهو انتقال من حكم معين (جزئي) إلى حكم معين (جزئي) لاشتراكهما في ذلك المعنى الكلي ، ومع ذلك فيمكن إرجاع أحدهما إلى الآخر كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية . ويلاحظ أن بعض الباحثين في علوم المنطق ردوا على إخوانهم المناطقة في قولهم : إن القياس التمثيلي ظني وبينوا أنه قد يكون قطعيا ، انظر التهذيب شرح الخبصي ، حاشية العطار (٤١٤) كما ذكروا له =

دليل على أنه ظني [١] ، ويرى شيخ الإسلام أنه لا فرق بينهما ، بل يمكن إرجاع القياس الشمولي إلى التمثيلي وبالعكس ، يقول : « تفريقهم بين قياس الشمول وقياس التمثيل بأن الأول قد يفيد اليقين ، والثاني لا يفيد إلا الظن ، فرق باطل ، بل حيث أفاد أحدهما اليقين أفاد الآخر اليقين ، وحيث لا يفيد أحدهما إلا الظن لا يفيد الآخر إلا الظن فإن إفادة الدليل لليقين أو الظن ليس لكونه على صورة أحدهما دون الآخر ، بل باعتبار تضمن أحدهما لما يفيد اليقين ، فإن كان أحدهما اشتمل على أمر مستلزم للحكم يقينا حصل به اليقين ، وإن لم يشتمل إلا على ما يفيد الحكم ظنا لم يفد إلا الظن » [٢] ، ثم بين أنه لا فرق بينهما فيقول : « فإن قلت : النبيذ حرام قياسا على الخمر ، لأن الخمر إنما حرمت لكونها مسكرة ، وهذا الوصف موجود في النبيذ ، كان بمنزلة قولك كل نبيذ مسكر وكل مسكر حرام ، فالنتيجة قولك : النبيذ حرام ، والنبيذ هو موضوعها وهو الحد الأصغر ، والحرام محمولها وهو الحد الأكبر ، والمسكر هو المتوسط بين الموضوع والمحمول ، وهو الحد الأوسط المحمول في الصغرى الموضوع في الكبرى » [٣] ، وبين شيخ الإسلام أن الفقهاء صاروا يستعملون في الفقه القياس الشمولي ، كما يستعمل في العقليات القياس التمثيلي [٤] .

بل يرى شيخ الإسلام أن قياس التمثيل أقوى من قياس الشمول ، لأن التمثيل إنما هو من قياس الغائب على الشاهد الذي جاء في القرآن الكريم وهو الميزان الذي أنزله الله ، يقول شيخ الإسلام ردا على المناطقة : « إذا كان لابد في برهانهم من قضية كلية فالعلم بتلك القضية الكلية لابد له من سبب ، فإن عرفوها باعتبار الغائب بالشاهد وأن حكم الشيء حكم مثله ، كما إذا عرفنا أن هذه النار محرقة علمنا أن النار الغائبة محرقة لأنها مثلها ، وحكم الشيء حكم مثله ، فيقال : هذا استدلال بقياس التمثيل .... » [٥] .

= فوائد في البحث العلمي وتقدم العلوم ، انظر : المرشد السليم (ص : ٢٥٧) .

(١) انظر : الرد على المنطقيين (ص : ٢٣٤) .
(٢) نفس المصدر (ص : ٢١١) .
(٣) انظر : الرد على المنطقيين (ص : ٢١١) .
(٤) نفس المصدر (ص : ١١٧) .
(٥) نفسه (ص : ١١٥) .

والخلاصة أن ما ورد به الشرع من قياس التمثيل واعتبار الغائب بالشاهد هو الموصل إلى اليقين ، وهذا هو الاعتبار الذي ورد الأمر به ، وهو بتناول قياس الطرد وقياس العكس ، ويشرح شيخ الإسلام ذلك ويمثل له من القرآن فيقول : « ومن أعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف ، فإذا رأى الشيئين المتماثلين علم أن هذا مثل هذا ، فجعل حكمهما واحدا ، كما إذا رأى الماء والماء ، والتراب والتراب ، والهواء والهواء ، ثم حكم بالحكم الكلي على القدر المشترك ، وإذا حكم على بعض الأعيان ومثله بالنظير وذكر المشترك كان أحسن في البيان فهذا قياس الطرد ، وإذا رأى المختلفين كالماء والتراب فرق بينهما وهذا قياس العكس ، وما أمر الله به من الاعتبار في كتابه يتناول قياس الطرد وقياس العكس ، فإنه لما أهلك المكذبين للرسل بتكذيبهم كان من الاعتبار أن يعلم أن من فعل ما فعلوا أصابه ما أصابهم فيتقي تكذيب الرسل حذرا من العقوبة ، وهذا قياس الطرد ، ويعلم أن من لم يكذب الرسل بل اتبعهم لا يصيبه ما أصاب هؤلاء وهذا قياس العكس ، وهو المقصود من الاعتبار بالمعذبين ، فإن المقصود ثبت في الفرع عكس حكم الأصل لا نظيره ، والاعتبار يكون بهذا وهذا ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [يوسف : ١١١] »[١] .

٧ – هذه هي الأدلة الشرعية – سمعية وعقلية – جاءت بها ودلت عليها النصوص ، وهي دالة على التكامل وأن لا تعارض بين العقل والنقل ، ورسل الله تعالى جاءوا بالحق المبين ، ولا يمكن أن يأتوا بما يعارض العقول الصحيحة ، لكن قد يأتون بما تعجز عنه العقول ولا تستطيع إدراكه ، ولذا كثيرا ما يردد شيخ الإسلام أن الرسل يخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول[٢] .

ولكن إذا كان المنهج القرآني والشرعي لا يقتصر على مجرد الخبر ، فلماذا يرد عن السلف أنهم كثيرا ما يقولون : أن مثل هذا الأمر مما لا مجال للعقل فيه ، أو ينهون عن إدخال العقل في بعض الأمور ، ونحو ذلك ؟ هذا سؤال مهم

---

(١) الرد على المنطقيين (ص : ٣٧١) ، وانظر : منطق ابن تيمية (ص : ٢٢٢) .
(٢) انظر : درء التعارض (٥/٢٩٧،٧/٣٢٧) .

ولذلك يخصه شيخ الإسلام بجواب مركز فيقول - عن أهل الكتاب والسنة - « وأما ما قد يقولونه من أن العقل لا مجال له في ذلك ، أو ينهون عن الكلام ، أو عن ما سمي معقولات ونظرا ، ونحو ذلك ، فهذا له وجوه صحيحة ثابتة بالكتاب والسنة ، بل وبالعقل أيضا ، وبعضهم قد لا يفرق بين ما يدخل في ذلك من حق وباطل ، وبعضهم قد يقصر عن الحق الذي يدل عليه الكتاب السنة .... ولا ريب أن التقصير ظاهر على أكثر المنتسبين إلى الكتاب والسنة من جهة عدم معرفتهم بما دل عليه الكتاب والسنة ولوازم ذلك ، فيقال : **من الوجوه الصحيحة** أن ما نطق به الكتاب وبينه ، أو ثبت بالسنة الصحيحة ، أو اتفق عليه السلف الصالح فليس لأحد أن يعارضه ، معقولا ونظرا أو كلاما وبرهانا ، وقياسا عقليا أصلا ، بل كل ما يعارض ذلك فقد علم أنه باطل علما كليا عاما ، وأما تفصيل العلم ببطلان ذلك فلا يجب على كل أحد ، بل يعلمه بعض الناس دون بعض ، وأهل السنة الذين هم أهلها يردون ما عارض النص والإجماع من هذه ، وإن زخرفت بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٢] ، فأعداء النبيين دائما يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » .

« وكذلك **من الوجوه الصحيحة** أن موارد النزاع لا تفصل بين المؤمنين إلا بالكتاب والسنة ، وإن كان أحد المتنازعين يعرف ما يقوله بعقله ، وذلك أن قوى العقول متفاوتة مختلفة ، وكثيرا ما يشتبه المجهول بالمعقول ، فلا يمكن أن يفصل بين المتنازعين قول شخص معين ولا معقوله ، وإنما يفصل بينهم الكتاب المنزل من السماء ، والرسول المبعوث المعصوم فيما بلغه عن الله تعالى ، ولهذا يوجد من خرج عن الاعتصام بالكتاب والسنة من الطوائف فإنهم يفترقون ويختلفون ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود : ١١٩] ، وأهل الرحمة هم أهل الإيمان والقرآن » .

ومن الوجوه الصحيحة أن معرفة الله بأسمائه وصفاته على وجه التفصيل لا تعلم إلا من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام : إما بخبره ، وإما بخبره وتنبيهه

ودلاله على الأدلة العقلية ، ولهذا يقولون : لا نصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصف به رسوله - ﷺ - ، قال الله تعالى : ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠-١٨٢] » (١) .

أما أمور المغيبات ، مثل أخبار من سبق ، أو أخبار الآخرة : أشراطها وأحوال اليوم الآخر وما فيه ، والموازين والصراط والجنة والنار وتفاصيل ذلك ، فهذا مما اتفق جميع أهل الإيمان على أنه مما يتلقى عن الوحي ، فثبوتها والإقرار بها مبني على خبر المعصوم .

« وبالجملة فينبغي للعاقل أن يعلم أن قيام دين الله في الأرض إنما هو بواسطة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فلولا الرسل لما عبد الله وحده لا شريك له ، ولما علم الناس أكثر ما يستحقه سبحانه من الأسماء الحسنى والصفات العلى ، ولا كانت له شريعة في الأرض ، ولا تحسبن أن العقول لو تركت وعلومها التي تستفيدها بمجرد النظر عرفت الله معرفة مفصلة بصفاته وأسمائه على وجه اليقين ، فإن عامة من تكلم في هذا الباب بالعقل فإنما تكلم بعد أن بلغه ما جاءت به الرسل واستصغى لذلك واستأنس به .... والقدر الذي يمكن العقل إدراكه بنظره فإن المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم - نبهوا الناس عليه وذكروهم به ، ودعوهم إلى النظر فيه ، حتى فتحوا أعينا عميا ، وآذانا صما وقلوبا غلفا ، والقدر الذي يعجز العقل عن إدراكه علموهم إياه وأنبأوهم به .... » (٢) .

ثالثا : منهجه في بيان العقيدة وتوضيحها :

هناك فرق بين حالين ، الحال الأولى : بيان العقيدة الإسلامية للناس والدعوة إليها ، والحال الثانية : الرد على خصومها وبيان العقيدة الصحيحة من خلال ذلك ،

---

(١) نقض أساس التقديس - المطبوع (١/٢٤٧-٢٤٨) .
(٢) الصارم المسلول (ص : ٢٤٩-٢٥٠) .

ففي الحال الأولى يجب ذكر العقيدة سليمة ، صافية ، بعيدة عن إثارة الشبهات أو أدلة الخصوم والرد عليها ، وإنما تذكر أدلة القول الصحيح وتشرح وتوضح حتى يستقر الحق في النفوس ـــ بعيدا عما يضاده من شبهات المخالفين ـــ .
أما في الحالة الثانية فلابد من دفع المعارض وبيان الحق من خلال المناقشة ، وهذا ما فعله ابن تيمية ، ففي الرسائل والأجوبة التي يسأل فيها عن العقيدة أو إحدى قضاياها – ولم يطلب السائل جواب شبهة واردة – ولا يعلم ابن تيمية من حاله حاجته إلى ذلك ، يأتي الجواب بعرض عقيدة السلف بأدلتها واضحة صافية [١] ، وقد يجمع بين الطريقتين بأسلوب إجمالي يميل إلى تقرير الحق في الأمور المختلف فيها ، كما فعل في رسالته العظيمة « الوصية الكبرى » [٢] .

ولتميز مسألة إثبات الأسماء والصفات عن غيرها من جوانب العقيدة بأصول خاصة ، سنفردها وحدها لبيان منهجه فيها ، ولذا يمكن أن يكون منهجه عموما كما يلي :

أ – منهجه في العقيدة عموما :

١ – عرضها بأسلوب سهل ميسور ، يفهمه الجميع ، المتعلم وغير المتعلم وهذا ما فعله حين كتب « العقيدة الواسطية » ، ففيها الوضوح والبعد عن أي نوع من أنواع التعقيد أو إثارة المشكلات ، وقد تميز عرضه للعقيدة بما يلي :

أ – عدم الدخول في متاهات أهل الكلام .

ب – دعم ما يقول بالنصوص من الكتاب والسنة وأقوال السلف .

---

(١) من أمثلة ذلك العقيدة الواسطية ، وقاعدة في توحيد الألوهية ، أما ردوده على المخالفين وبيان عقيدة السلف من خلالها فأغلب كتبه على هذا المنهج ، الذي سار عليه ابن تيمية بعد المناقشات والمحن التي مر بها ، ورأى أنه لابد منه لإيضاح الحق للناس .

(٢) وهي الوصية التي كتبها إلى جماعة من أتباع عدى بن مسافر ، عدى هو : عدى بن مسافر ابن إسماعيل الأموي الشامي الهكاري ، من التصوفة رافق أحمد البدوي وأحمد الرفاعي وعبد القادر الجيلاني وغيرهم ، توفي سنة ٥٥٧ هـ ، انظر : البداية والنهاية (١٤٣/١٢) ، ووفيات الأعيان (٢٥٤/٣) ، والنجوم الزاهرة (٣٦١/٥) ، وللشيخ عدى عقيدة مطبوعة سار فيها على مذهب ومنهج الأشاعرة ، انظرها (ص : ١٢) وما بعدها .

جـ - الشمول في بيان العقيدة ، وبيان جميع أمورها ، سواء منها ما يتعلق بالإيمان بالله وتوحيده وأسمائه وصفاته ، أو الإيمان بالرسالة وبقية أركان الأيمان من الإيمان بالملائكة ، والكتب ، والرسل ، واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، أو ما يتعلق بالإيمان وما يشمله من القول والاعتقاد والعمل ، أو ما يتعلق بالموقف من الصحابة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... [(١)] .

٢ - التركيز على أكبر المسائل وأهمها وهو توحيد الألوهية ، والبعد عن الشرك بجميع أنواعه ، وربطه ذلك بشهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله ، فهاتان الشهادتان هما أصل دين الإسلام ، يقول : « فهذا أصل عظيم على المسلم أن يعرفه فإنه أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر ، وهو الإيمان بالوحدانية والرسالة ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وقد وقع كثير من الناس في الإخلال بحقيقة هذين الأصلين ، أو أحدهما ، مع ظنه أنه في غاية التحقيق والتوحيد ، والعلم والمعرفة ، فإقرار المشرك بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه ، لا ينجيه من عذاب الله ، إن لم يقترن به إقراره بأنه لا إله إلا الله فلا يستحق العبادة أحد إلا هو ، وأن محمدا رسول الله فيجب تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، فلابد من الكلام على هذين الأصلين : الأصل الأول : توحيد الإلهية ... الأصل الثاني : حق الرسول - ﷺ - » [(٢)] .

ودائما ما يركز على أنواع العبادة التي لا يجوز صرف شيء منها إلا لله تعالى ، وخاصة أصول العبادة التي تحرك القلوب إلى الله تعالى وهي : المحبة والخوف والرجاء ، يقول شيخ الإسلام : « ولابد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب إلى الله عز وجل ، فتعتصم به ، فتقل آفاتها وتذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته فنقول : اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة : المحبة ، والخوف ، والرجاء ، وأقواها المحبة ، وهي مقصودة تراد لذاتها لأنها تراد في الدنيا والآخرة ،

---

(١) انظر لما سبق « الواسطية » .

(٢) التدمرية ، مجموع الفتاوى (جـ ٣ ص : ١٠٤-١٠٩) .

بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ أَلآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : ٦٢] ، والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق فالمحبة تلقى العبد في السير إلى محبوبه ، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه ، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب ، والرجاء يقوده ، فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له ، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه ، وكل أحد يجب أن يكون عبدا لله لا لغيره »[(١)] .

٣ - بيان شروط قبول العمل : الإخلاص لله ، والمتابعة لرسوله - ﷺ - ، وذلك بأن لا يعبد إلا الله ، وأن يعبد بما شرع رسوله وأمر لا بغير ذلك من البدع ، وقد ركز على هذه القضية في جميع كتبه ودائما ما يعرج عليها لأنها من منطلقات العقيدة الأساسية[(٢)] .

٤ - انتسابه إلى مذهب السلف لا إلى مذهب معين ، يقول - رحمه الله - عن نفسه « مع أني في عمري إلى ساعتي هذه لم أدع أحدا قط في أصول الدين إلى مذهب حنبلي وغير حنبلي ، ولا انتصرت لذلك ، ولا أذكره في كلامي ، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها »[(٣)] ، ويقول : « فدين المسلمين مبني على اتباع كتاب الله وسنة رسوله وما اتفقت عليه الأمة ، فهذه الثلاثة هي أصول معصومة ، وما تنازعت فيه الأمة ردوه إلى الله والرسول ، وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصا يدعو إلى طريقته ويوالي عليها ويعادي ، غير النبي - ﷺ - ، ولا ينصب لهم كلاما يوالي عليه ويعادي غير كلام الله تعالى وكلام رسوله - ﷺ - وما اجتمعت عليه الأمة ، بل هذا من فعل أهل البدع

---

(١) مجموع الفتاوى (٩٥/١) ، وانظر : الوجوه التسعة التي بين بها توحيد الألوهية ، فهي عظيمة جدا ، وتدل على منهج تأصيلي عظيم ، قاعدة في توحيد الألوهية ، مجموع الفتاوى (٢٠/١-٣٢) .

(٢) انظر - على سبيل المثال - : رسالة العبودية ، مجموع الفتاوى (١٠/١٧٢-١٧٤،٢٣٤) ، ومجموع الفتاوى (١١/٥٨٥،٢٨/١٧٧) ، والنبوات (ص : ١٢٦) ، وقاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص : ١٢٣-١٢٥) ، و(ص : ١٣٨-١٥٨) ط المكتب الإسلامي ، وجامع الرسائل « قاعدة في المحبة » (٢٢٦/٢) ، وتلخيص الاستغاثة (١/٥٢،٧٥) ، والتدمرية ، مجموع الفتاوى (١٢٤/٣) .

(٣) مجموع الفتاوى (٢٢٩/٣) .

الذين ينصبون لهم شخصا أو كلاما يفرقون به بين الأمة ، يوالون على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون ... » [١] ، ثم بين لماذا تحكى أقوال الأئمة وتنسب إلى أصحابها فقال : « والأقوال إذا حكيت عن قائلها أو نسبت الطوائف إلى متبوعها فإنما ذاك على سبيل التعريف والبيان ، وأما المدح والذم والموالاة والمعاداة فعلى الأسماء المذكورة في القرآن العزيز كاسم المسلم والكافر ، والمؤمن ، والمنافق ، والبر والفاجر ، والصادق والكاذب ، والمصلح والمفسد وأمثال ذلك ، وكون القول صوابا أو خطأ يعرف بالأدلة الدالة على ذلك بالمعلومة بالعقل والسمع » [٢] .

أما نسبة مذهب أهل السنة إلى الإمام أحمد فقد سبق – في التمهيد عند الحديث عن نشأة أهل السنة – أن نقلنا نصا عن ابن تيمية يبين السبب في نسبته إلى الإمام أحمد وأن مذهب السلف قديم قبل الأئمة الأربعة . ولكن لما امتحن فيه الإمام أحمد نسب إليه ، ويقول في نص آخر : « والاعتقاد إنما أضيف إلى الإمام أحمد لأنه أظهره وبينه عند ظهور البدع ، وإلا فهو كتاب الله وسنة رسوله ، حظ أحمد منه كحظ غيره من السلف : معرفته والإيمان به ، وتبليغه والذب عنه ، كما قال بعض أكابر الشيوخ : الاعتقاد لمالك والشافعي ونحوهما من الأئمة ، والظهور لأحمد بن حنبل ... [ثم قال :] وأئمة السنة ليسوا مثل أئمةَ البدعة ، فإن أئمة السنة تضاف السنة إليهم لأنهم مظاهر بهم ظهرت ، وأئمة البدعة تضاف إليهم لأنهم مصادر عنهم صدرت » [٣] ، ويقول أيضا : « فإن أحمد ابن حنبل لم يبتدع من عنده شيئا ولكن كان أعلم زمانه بما أنزل الله على رسوله ، وما كان عليه الصحابة والتابعون ، وكان اتبع الناس لذلك ، وابتلي بالمخالفين من أهل الأهواء ومناظرتهم بالخطاب والكتاب والرد عليهم ، فأظهر من علوم السلف ما هو متبع فيه كسائر الأئمة قبله ، وما من قول يقوله إلا وقد قاله بلفظه أو بمعناه ما شاء الله من الأئمة قبله وفي زمانه ، وعلى ذلك من الدلائل ما شاء الله ،

---

(١) درء التعارض (٢٧٢/١) .

(٢) درء التعارض (٢٧٣/١) .

(٣) نفس المصدر (٥/٥-٦) .

فلهذا اتخذته الأمة إماما ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] وكان الإمام أحمد – رحمه الله تعالى – ممن آتاه الله الصبر واليقين بآيات الله ما استحق به الإمامة حتى اشتهر ذلك عند الخاصة والعامة ، فصار لفظ الإمامة مقرونا باسمه أكثر وأشهر مما يقترن باسم غيره » (١) ، وابن تيمية وهو يقول هذا الكلام كان يتهم بأنه حنبلي وأنه يسير على اعتقاد الحنابلة الذين كثيرا ما يتهمهم أعداؤهم بأنهم مجسمة مشبهة ، وقد أجاب ابن تيمية عن هذا بأن أتباع الإمام أحمد من الحنابلة أقل انحرافا من غيرهم ، وما فيهم من انحراف ففي غيرهم ما هو أشد منه ، ثم يبين أن الحنابلة منهم من كان على مذهب الإمام أحمد وأهل السنة ، لكن أيضا من كان يميل إلى التفويض ، أو مذهب الأشاعرة ، أو مذهب المعتزلة فهم كغيرهم من الطوائف ، وانتسابهم إلى الإمام أحمد لا يكفي لأن يكونوا على وفق مذهب السلف ما لم تكن أقوالهم كذلك (٢) .

٥ – التركيز على بيان وسطية مذهب السلف ، وكثيرا ما يبنيها على وسطية أمة محمد – ﷺ – بين الأمم ، يقول في بداية رده على النصارى : « وقد خص الله تعالى محمدا – ﷺ – بخصائص ميزه الله بها على جميع الأنبياء والمرسلين ، وجعل له شرعة ومنهاجا ، أفضل شرعة وأكمل منهاج مبين ، كما جعل أمته خير أمة أخرجت للناس فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله من جميع الأجناس ، هداهم الله بكتابه ورسوله لما اختلفوا فيه من الحق قبلهم ، وجعلهم وسطا عدلا خيارا ، فهم وسط في توحيد الله وأسمائه وصفاته ، وفي الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه من الأمر والنهي والحلال والحرام .. [ثم ذكر أمثلة ثم قال :] « وأهل السنة والجماعة في الإسلام كأهل الإسلام في أهل الملل : فهم وسط في باب صفات الله عز وجل ، بين أهل الجحد والتعطيل ، وبين أهل التشبيه والتمثيل .... وهم وسط في باب أفعال الله عز وجل بين المعتزلة المكذبين بالقدر ،

---

(١) نقض أساس التقديس – المخطوط (٣/٩٨) ، وانظر في نفس الموضوع نقض أساس التقديس المطبوع (٢/٩١) ، ومجموع الفتاوى (٦/٢١٤–٢١٥) .

(٢) انظر : درء التعارض (١٠/٢٥٧–٢٥٨) ، ونقض أساس التقديس المطبوع (٢/٩٠–٩٢) .

والجبرية النافين لحكمة الله ورحمته وعدله ، والمعارضين بالقدر أمر الله ونهيه وثوابه وعقابه ، وفي باب الوعد والوعيد : بين الوعيدية الذين يقولون بتخليد عصاة المسلمين في النار ، وبين المرجئة الذين يجحدون بعض الوعيد وما فضل الله به الأبرار على الفجار ، وهم وسط في أصحاب رسول الله - ﷺ - بين الغالي في بعضهم الذي يقول فيه بالهية أو نبوة أو عصمة ، والجافي فيهم ، الذي يكفر بعضهم أو يفسقه وهم خيار الأمة » (١) ، وبين أن كل طائفة من الطوائف من غير أهل السنة لا ينفردون بحق ، بل كل من كان معه شيء من الحق ففي أهل السنة والجماعة من يقول به (٢) .

٦ - وعند الحاجة إلى ذكر أقوال المخالفين ، فلابد من المذهب الصحيح المستنبط من الكتاب والسنة ، أولا ، وذكر أقوال المخالفين في ضمن ذلك ، يقول في مقدمة كتاب « الإيمان » : « ونحن نذكر ما يستفاد من كلام النبي - ﷺ - ، مع ما يستفاد من كلام الله تعالى ، فيصل المؤمن إلى ذلك من نفس كلام الله ورسوله ، فإن هذا هو المقصود ، فلا نذكر اختلاف الناس ابتداء ، بل نذكر من ذلك - في ضمن بيان ما يستفاد من كلام الله ورسوله - ما يبين أن رد موارد النزاع إلى الله وإلى رسوله خير وأحسن تأويلا ، وأحسن عاقبة في الدنيا والآخرة » (٣) .

وقد طبق هذا المنهج في كتابه هذا .

ب - منهجه في الأسماء والصفات :

لما كانت هذه المسألة من أعظم المسائل التي خاض فيها الناس واضطربت فيها أقوالهم ، خاصة وأنها تتعلق بالله تعالى وما ينبغي له من صفات الكمال

---

(١) الجواب الصحيح (٨٠٦/١) ، وانظر : أيضا (٢٣٠/١-٢٣٥) ، وأيضا (٢٩٢/١-٢٩٣) ، وأيضا (٥٢/٢-٥٣) .

(٢) انظر : منهاج السنة (٤٤/٣) ، وانظر في بيان وسطية أهل السنة : الواسطية - مجموع الفتاوى (١٤١/٣) ، والوصية الكبرى - مجموع الفتاوى (٣٧٣/٣-٣٧٥) .

(٣) الإيمان (ص : ١) .

وما ينبغي أن ينزه عنه من صفات النقص ، فقد حرص شيخ الإسلام ابن تيمية من خلال مناقشاته أن يؤصل أصولا ينطلق منها المسلم في بحث هذا الموضوع الخطير ، لأن الخطأ والزلل فيه ليس كغيره من المسائل ، وكان يركز في دروسه على مثل هذه الأصول حتى أن بعض تلاميذه طلبوا منه أن يكتب لهم هذه القواعد لشعورهم بأهميتها وحاجاتهم إليها ، فكتب الرسالة التدمرية ، التي تعتبر خلاصة متينة وقوية لما قرره ابن تيمية في كتبه المطولة الأخرى : ويمكن أن نلخص منهجه في هذا الباب بما يلي :

١ - إن الأصل في باب الأسماء والصفات أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله - ﷺ - ، ومعناه أن يقتصر على ما جاء به الكتاب والسنة فهما المصدران الأساسان في هذا الأمر المتعلق بذات الله تعالى وما له من صفات الجلال والكمال ، يقول شيخ الإسلام : « وأصل دين المسلمين أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه في كتبه وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل يثبتون له تعالى ما أثبته لنفسه ، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه ، ويتبعون في ذلك أقوال رسله ، ويجتنبون ما خالف أقوال الرسل كما قال تعالى : ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات : ١٨٠] أي عما يصفه الكفار المخالفون للرسل ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات : ١٨١] لسلامة ما قالوه من النقص والعيب ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٢] ، فالرسل وصفوا الله بصفات الكمال ، ونزهوه عن النقائص المناقضة للكمال ، ونزهوه عن أن يكون له مثل في شيء من صفات الكمال ، وأثبتوا له صفات الكمال على وجه التفصيل ، ونفوا عنه التمثيل » [١] .

والسلف - رحمهم الله تعالى - ساروا على هذا الأصل ، فجاء مذهبهم في الأسماء والصفات مبنيا على إثبات ما أثبته الله ورسوله ، ونفي ما نفاه الله ورسوله ، ويركز شيخ الإسلام كثيرا على منهجهم هذا ، ولذلك ذكر منهجه

---

(١) الجواب الصحيح (٣/١٣٩-١٤٠) .

في نقل كلامهم وطبقه في كتبه ، يقول : « فإنا لما أردنا أن نبين مذهب السلف ذكرنا طريقين :

أحدهما : أنا ذكرنا ما تيسر من ذكر ألفاظهم ، ومن روى ذلك من أهل العلم بالأسانيد المعتبرة .

والثاني : أنا ذكرنا من نقل مذهب السلف من جميع طوائف المسلمين من طوائف المسلمين من طوائف الفقهاء الأربعة ، ومن أهل الحديث ، والتصوف وأهل الكلام كالأشعري وغيره .

فصار مذهب السلف منقولا بإجماع الطوائف وبالتواتر ، لم نثبته بمجرد دعوى الإصابة لنا والخطأ لمخالفنا كما يفعل أهل البدع [(١)] ، ويقول عن السلف : « فقولهم في الصفات مبني على أصلين :

أحدهما : أن الله تعالى منزه عن صفات النقص مطلقا كالسنة والنوم والعجز والجهل وغير ذلك .

والثاني : أنه متصف بصفات الكمال التي لا نقص فيها على وجه الاختصاص بما له من الصفات ، فلا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات » [(٢)] ، بل إن شيخ الإسلام استقصى أقوال السلف فلم يجد ما يخالف ما ذكره عنهم يقول « والله تعالى يعلم أني قد بالغت في البحث عن مذاهب السلف فما علمت أحدا منهم خالف ذلك » [(٣)] ، ومواضع نقله لمذهب السلف إجمالا أو تفصيلا منتشر في كتبه ورسائله رحمه الله [(٤)] .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥٢/٤) ، والمتتبع لكتب ابن تيمية كالحموية ، ودرء تعارض العقل والنقل ، وغيرهما يرى تطبيقه لمنهجه هذا واضحا .

(٢) منهاج السنة : تحقيق – رشاد سالم – (٤٢٧/٢) .

(٣) التسعيني (ص : ١٢٦) .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى (٥١٥/٦ ، ٢/٤–٨ ، ٣/٣–٤) ، « التدمرية » أيضا (٤٧٩/١١–٤٨٠) ، الحموية مجموع الفتاوى (٢٦/٥–٢٧ ، ٤٥) ، الواسطية ، مجموع الفتاوى (١٢٩/٣–١٣٠) ، ومجموع الفتاوى (١٩٥/٥،٢٦٣ ، ٥٧٤/١٢–٥٧٥) ، ومنهاج السنة : المحققة (٨٠/٢)، ونقض المنطق (ص : ٢–٧) ، وشرح الأصفهانية (ص : ٩) وغيرها .

٢ – إن الرسل جاءوا بإثبات مفصل ونفي مجمل ، فأثبتوا لله صفات الكمال على وجه التفصيل ، ونفوا عنه صفات النقص على وجه الإجمال ، على الضد من أهل البدع ، وقد أوضح ابن تيمية هذه المسألة – في مناسبات عديدة – يقول – رحمه الله – « والرسل عليهم صلوات الله جاءوا بإثبات مفصل ونفي مجمل ، وهؤلاء ناقضوهم جاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل ، بأن الرسل أخبرت كما أخبر الله في كتابه الذي بعث به رسوله أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه حكيم عزيز ، غفور ودود ، وأنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ، وأنه كلم موسى تكليما ، وتجلى للجبل فجعله دكا ، وأنه أنزل على عبده الكتاب ، إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته ، وقال في النفي والتنزيه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ٤] ، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥] ، وهؤلاء الملاحدة جاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل ، فقالوا في النفي : ليس بكذا ولا كذا ولا كذا فلا يقرب من شيء ، ولا يقرب منه شيء ، ولا يرى لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا له كلام يقوم به ، ولا له حياة ، ولا علم ولا قدرة ، ولا غير ذلك ، ولا يشار إليه ولا يتعين ولا هو مباين للعالم ولا حال فيه ، ولا داخله ولا خارجه ، إلى أمثال العبارات السلبية التي لا تنطبق إلا على المعدوم ، ثم قالوا في الإثبات : هو وجود مطلق ، أو وجود مقيد بالأمور السلبية ، وقالوا : لا تقول موجود ولا معدوم ... » [(١)] . ويقول : « مما يبين أن طريقة أتباع الأنبياء من أهل السنة هي الموصلة إلى الحق دون طريقة من خالفهم من الفلاسفة والمتكلمين : إن المقصود هو العلم ، وطريقه هو الدليل ، والأنبياء جاءوا بالإثبات المفصل والنفي المجمل ، كإثبات الصفات لله مفصلة ونفي الكفؤ عنه ، والفلاسفة يجيئون بالنفي المفصل : ليس بكذا ولا كذا ، فإذا جاء الإثبات أثبتوا وجودا مجملا واضطربوا في أول مقامات ثبوته ... » [(٢)] . وهذه هي القاعدة العامة الغالبة ، وإلا فقد يرد في النصوص الإثبات المجمل والنفي المفصل ، كنفي الصاحبة والولد – كما سيأتي في الفقرة التالية .

---

(١) الصفدية (١/١١٦-١١٧) .

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٦٦) ، وانظر (ص : ٣٦-٣٧ ، ٦٦-٦٧ ، ١١٥) ، وانظر : التدمرية =

٣ – إن النفي الذي وصف الله تعالى به ، هو ما تضمن إثبات كمال الله تعالى ، وهو النفي غير المحض ، أما النفي المحض – الذي لا يتضمن إثباتا – فلم يوصف الله تعالى به ، يقول شيخ الإسلام في معرض رده على نفاة الرؤية في احتجاجهم بقوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] : « ومما يبين ذلك أن الله تعالى ذكر هذه الآية يمدح بها نفسه سبحانه وتعالى ، ومعلوم أن كون الشيء لا يرى ليس صفة مدح ، لأن النفي المحض لا يكون مدحا إن لم يتضمن أمرا ثبوتيا ، لأن المعدوم أيضا لا يرى ، والمعدوم لا يمدح ، فعلم أن مجرد نفي الرؤية لا مدح فيه ، وهذا أصل مستمر ، وهو أن العدم المحض الذي لا يتضمن ثبوتاً لا مدح فيه ولا كمال ، فلا يمدح الرب نفسه به ، ولا يصف نفسه به ، وإنما يصفها بالنفي المتضمن معنى ثبوت كقوله ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ وقوله ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ وقوله ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ وقوله ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وقوله : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ : ٣] وقوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] ونحو ذلك من القضايا السلبية التي يصف الرب تعالى بها نفسه ، وأنها تتضمن اتصافه بصفات الكمال الثبوتية ، مثل كمال حياته وقيوميته ، وملكه وقدرته وعلمه وهدايته ، وانفراده بالربوبية والإلهية ونحو ذلك ، وكل ما يوصف به العدم المحض فلا يكون إلا عدما محضا ، ومعلوم أن العدم المحض يقال فيه : إنه لا يرى ، فعلم أن نفي الرؤية عدم محض ، ولا يقال في العدم المحض : لا يدرك ، وإنما يقال هذا فيما لا يدرك لعظمته لا لعدمه » [١] ، ويقول في الرد على النفاة القائلين برفع النقيضين ، الذين يقولون لا داخل العالم ولا خارجه ونحو ذلك : « ومما يبين هذا أن الصفات السلبية ليس فيها بنفسها مدح ، ولا توجب كمالا

= – مجموع الفتاوى (٣٥/٣) ، وأيضا (١١١/٢٠–١١٢) ، والنبوات (ص : ٢٢٥) ، ودرء التعارض (١٦٣/٥–١٦٤ ، ٣٤٨/٦) ، والتسعينية (ص : ١٣) ، واقتضاء الصراط المستقيم (٨٥٣/٢) ، ونقض أساس التقديس المخطوط (١٢١/١–١٢٢) .

(١) منهاج السنة : المحققة (٢٤٤/٢–٢٤٥) .

للموصوف ، إلا أن تتضمن أمرا وجوديا كوصفه سبحانه بأنه لا تأخذه سنة ولا نوم ، فإنه يتضمن كمال حياته وقيوميته ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] متضمن كمال قدرته ، وقوله : ﴿ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَوٰتِ وَلاَ فِي ٱلأَرْضِ ﴾ [سبأ : ٣] يقتضي كمال علمه ، وكذلك قوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ ٱلأَبْصَـٰرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] يقتضي عظمته بحيث لا تحيط به الأبصار ، وكذلك نفي المثل والكفؤ عنه يقتضي أن كل ما سواه فإنه عبد مملوك له ، وذلك يقتضي من كماله ما لا يحصل إذا كان له نظير مستغن عنه مشارك له في الصنع ، فإن ذلك نقص في الصانع ، فأما العدم المحض ، والنفي الصرف ، مثل كونه لا يمكن رؤيته بحال ، وكونه لا مباينا للعالم ولا مداخلا له ، فإن هذا أمر يوصف به المعدوم ، فإن المعدوم لا يمكن رؤيته بحال ، وليس هو مباينا للعالم ولا مداخلا له ، والمعدوم المحض لا يتصف بصفة كمال ولا مدح ولهذا كان تنزيه الله تعالى بقوله « سبحان الله » يتضمن مع نفي صفات النقص عنه إثبات ما يلزم ذلك من عظمته ، فكان في التسبيح تعظيم له مع تبرئته من السوء »[1] ، ويوضح هذا في التدمرية في القاعدة الأولى فيقول : « وينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال ، إلا إذا تضمن إثباتا ، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال ، لأن النفي المحض عدم محض ، والعدم المحض ليس بشيء ، وما ليس بشيء هو كما قيل ليس بشيء ، فضلا عن أن يكون مدحا أو كمالا ، ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال ... [ثم ذكر أمثلة ، ثم قال :] ... وإذا تأملت ذلك وجدت كل نفي لا يستلزم ثبوتا هو مما لم يصف الله به نفسه ، فالذين لا يصفونه إلا بالسلوب لم يثبتوا في الحقيقة إلها محمودا ، بل ولا موجودا ، وكذلك من شاركهم في بعض ذلك كالذين قالوا : إنه لا يتكلم ، أو لا يُرى ، أو ليس فوق العالم ، أو لم يستو على العرش ، ويقولون : ليس بداخل العالم ولا خارجه ، ولا مباين للعالم ولا محايث له ؛ إذ هذه الصفات يمكن أن يوصف بها المعدوم ، وليست مستلزمة صفة ثبوت »[2] .

---

(١) درء التعارض (٦/١٧٦-١٧٧) .

(٢) التدمرية : تحقيق السعوي (ص : ٥٧-٦٠) .

وهكذا يتضح الفرق بين منهج أهل البدع في النفي الذي يصفون الله به ، وبين منهج القرآن في النفي ، فنفي أهل البدع يتضمن نقصا لأنهم يسلبون عنه صفات المدح والوجود ، والنفي الوارد إنما يتضمن إثبات كمال ضد المنفي وهو صفات الكمال لله تعالى (١) .

٤ - إن ما لم يرد في النصوص إثباته ولا نفيه فيجب التوقف فيه ، والاستفصال عنه ، وعن معناه ، فإن كان المراد به حقا موافقا للنصوص ولا يعارضها قبل ، وإلا رد ، يقول شيخ الإسلام : « كل لفظ أحدثه الناس فأثبته قوم ونفاه آخرون فليس علينا أن نطلق إثباته ولا نفيه حتى نفهم مراد المتكلم ، فإن كان مراده حقا موافقا لما جاءت به الرسل والكتاب والسنة من نفي أو إثبات قلنا به ، وإن كان باطلا مخالفا لما جاء به الكتاب والسنة من نفي أو إثبات منعنا القول به » ، ويقسم الألفاظ - عموما - إلى نوعين فيقول : « ومن الأصول الكلية أن يعلم أن الألفاظ نوعان : نوع جاء به الكتاب والسنة ، فيجب على كل مؤمن أن يقر بموجب ذلك ، فيثبت ما أثبته الله ورسوله ، وينفي ما نفاه الله ورسوله ، فاللفظ الذي أثبته الله أو نفاه حق ، فإن الله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، والألفاظ الشرعية لها حرمة ، ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما أثبته ، وينفي ما نفاه من المعاني ، فإنه يجب علينا أن نصدقه في كل ما أخبر ، ونطيعه في كل ما أوجب وأمر ، ثم إذا عرفنا تفصيل ذلك كان ذلك من زيادة العلم والإيمان وقد قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] وأما الألفاظ التي ليست في الكتاب والسنة ، ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده ، فإن أراد بها معنى يوافق خبر الرسول أقر به ،

---

(١) انظر : في هذه المسألة أيضا : درء التعارض (٢٩١/١٠) ، والجواب الصحيح (١٠٥/٢) ، ونقض التأسيس المطبوع (٩٧/٢) ، ومجموع الفتاوى (٩٩/١٦) ، وجواب أهل العلم والإيمان ، ومجموع الفتاوى (١٤٤/١٧) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣٦/٦-٣٧) .

وإن أراد بها معنى يخالف خبر الرسول أنكره ، ثم التعبير عن تلك المعاني إن كان في ألفاظه اشتباه أو إجمال عبر بغيرها ، أو بين مراده بها ، بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي ، فإن كثيرا من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ومعان مشتبهه » [(١)] ، ويوضح في موضع آخر فيقول : « وبالجملة فمعلوم أن الألفاظ نوعان : نوع ورد في الكتاب والسنة أو الإجماع ، فهذا اللفظ يجب القول بموجبه سواء فهمنا معناه أو لم نفهمه ؛ لأن الرسول - ﷺ - لا يقول إلا حقا والأمة لا تجتمع على ضلاله ، والثاني : لفظ لم يرد به دليل شرعي ، كهذه الألفاظ التي تنازع فيها أهل الكلام والفلسفة ، هذا يقول : هو متحيز ، وهذا يقول : ليس بمتحيز ، وهذا يقول : هو في جهة ، هذا يقول : ليس هو في جهة ، وهذا يقول : هو جسم أو جوهر ، وهذا يقول : ليس بجسم ولا جوهر ، فهذه الألفاظ ليس على أحد أن يقول فيها بنفي ولا إثبات حتى يستفسر المتكلم بذلك ، فإن بين أنه أثبت حقا أثبته ، وإن أثبت باطلا رده ، وإن نفى باطلا نفاه ، وإن نفى حقا لم ينفع ، وكثير من هؤلاء يجمعون في هذه الأسماء بين الحق والباطل في النفي والإثبات » [(٢)] ، والألفاظ المجملة كثيرة جدا ، منها لفظ « الحلول » [(٣)] ، والتركيب [(٤)] ، والافتقار [(٥)] ،

---

(١) مسألة الأحرف ، مجموع الفتاوى (١٢/١١٣-١١٤) .

(٢) في النصوص السابقة مثل ابن تيمية للألفاظ المجملة بـ « الجهة ، والتحيز ، والجسم » ، وانظر : التدمرية (ص : ٦٥-٦٨) المحققة ، ومجموع الفتاوى (٦/٣٨-٤٠ ، ٧/٦٦٣) ، والجواب الصحيح (٣/٨٤) .

(٣) أي ما يتوهم أن فيه حلولا مثل قول أبيّ بن كعب في قوله (مثل نوره) « النور ٣٥ » قال : مثل نوره في قلب المؤمن « تفسير الطبري » (١٨/١٣٦) حلبية ، وحديث « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » رواه الترمذي - في التفسير - سورة الحجر ورقمه (٣١٢٧) » ، وقال غريب ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ، كما ضعفه محقق جامع الأصول (١/٢٠٦) ، فالنصارى غلوا في « الحلول » ، وقابلهم آخرون فأنكروا هذا الاسم بجميع ما فيه وكلا الأمرين باطل ، انظر : الجواب الصحيح (١/٨٧ ، ١١٧-١١٨) .

(٤) لأن من شبه نفاة الصفاة قولهم يلزم من إثباتها لله التركيب ، انظر : الرد على المنطقيين (ص : ٢٢٢-٢٢٩) ، ونصوص ابن تيمية في ذلك كثيرة جدا .

(٥) مثل قول النفاة : إن المركب مفتقر إلى أجزائه ، وينفون الصفات لذلك ، انظر : منهاج السنة - المحققة - (٢/٤٣٤-٤٣٥) ، ونقض أساس التقديس المطبوع (٢/١٣٢) .

و« المناسبة » [(١)] ، و« الغير » [(٢)] ، ولفظ « ذات » [(٣)] ، والجزء [(٤)] ، وغيرها .

٥ – عدم العلم بالكيفية والبعد عن التشبيه ، فالصفات تثبت لله تعالى لورود النصوص بها ، والله تعالى أراد أن يعرفنا بنفسه وبما له من صفات الجلال والكمال ، فنحن نثبت ما ورد ونفهم المعاني ، ولكن كيفية هذه الصفات لا يعلمها إلا الله تعالى ، فلا يجوز أن نكيفها ، كما أنه لا يجوز أن نشبهها بصفات أحد من الخلق ، ولذلك يذكر شيخ الإسلام – وغيره من السلف – مع الإثبات ما يقيده أنه إثبات بلا تكييف ولا تمثيل ، فكما أنه يجب الإثبات مع عدم التعطيل أو التأويل أو التحريف ، فكذلك أيضا لا يجوز أن يؤدي نفي هذه الأمور إلى الطرف المقابل من التكييف أو التمثيل ، وهذا مبني على قاعدة وهي أنه كما أن لله ذاتا لا تشبه ذوات المخلوقين فكذلك له صفات لا تشبه صفات المخلوقين ، يقول شيخ الإسلام : « وحدث مع الجهمية قوم شبهوا الله تعالى بخلقه فجعلوا صفاته من جنس صفات المخلوقين ، فأنكر السلف والأئمة على الجهمية المعطلة ، وعلى المشبهة الممثلة » [(٥)] ، وقد حرص السلف على البعد عن التشبيه كحرصهم على البعد عن التعطيل ، والشيطان يأتي الإنسان من جهة التشبيه والتمثيل فإذا عجز عنه أتاه من جهة التعطيل ، نقل شيخ الإسلام عن عمرو بن عثمان المكي [(٦)] أنه قال :

---

(١) قال نفاة صفة « المحبة » إنها مناسبة بين المحب والمحبوب ، ومناسبة الرب للخلق نقص ، انظر : الرسالة الأكملية ، مجموع الفتاوى (٦/٦٩،١١٤-١١٥) .

(٢) مثل مسألة : هل الاسم هو المسمى أو غيره ؟ ، أو هل الكلام هو المتكلم أو غيره ؟ أو هل الصفة هي الموصوف أو غيره ؟ . انظر : الجواب الصحيح (٢/١٥٤) ، ومجموع الفتاوى (١٢/٥٦٠) ، ونقض أساس التقديس المطبوع (٢/١٢٩-١٣٢) .

(٣) هل يطلق لفظ « ذات » على النفس ، أم لم ترد إلا مضافة فيقال ذات علم وقدرة ، ثم هل الذات تكون من غير أن تقوم بها صفات ؟ انظر : الرسالة الاكملية ، مجموع الفتاوى (٦/٩٨-٩٩) ، وأيضا (٦/٣٤١-٣٤٢) ، ودرء التعارض (٤/١٤٠،١٠/١٥٧) .

(٤) ومثله البعض ، لأن نفاة الصفات يقولون : إن مثبتة الصفات التزموا القول بالأجزاء والأبعاض إذا أثبتوا اليدين والوجه والقدم وغيرها ، انظر : نقض أساس التقديس المطبوع (١/٤٧،٤٩-٥٢) .

(٥) مجموع الفتاوى (٦/٣٥) .

(٦) هو : عمرو بن عثمان بن كرب بن غصص ، أبو عبد الله المكي ، أحد مشايخ الصوفية ، توفي سنة ٢٩٧ هـ ، وقيل غير ذلك ، انظر : طبقات الصوفية للسلمي (ص : ٢٠٠) ، =

« واعلم رحمك الله أن كل ما توهمه قلبك أو سنح في مجاري فكرك أو خطر في معارضات قلبك من حسن أو بهاء أو ضياء أو إشراق أو جمال ، أو شبح ماثل (١) أو شخص متمثل ، فالله تعالى بغير ذلك ، بل هو تعالى أعظم وأجل وأكبر ، ألا تسمع لقوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ٤] أي لا شبيه ولا نظير ولا مساوي ولا مثل ، أو لم تعلم أنه لما تجلى للجبل تدكدك لعظم هيبته ، وشامخ سلطانه ؟ كذلك لا يتوهمه أحد إلا هلك ، فرد بما بين الله في كتابه من نفسه عن نفسه التشبيه والمثل والنظير والكفؤ ، فإن اعتصمت بها وامتنعت منه [أي من الشيطان] أتاك من قبل التعطيل لصفات الرب تعالى وتقدس ؛ في كتابه وسنة رسوله محمد - ﷺ - فقال لك : إذا كان موصوفا بكذا أو وصفته أوجب له التشبيه فأكذبه لأنه اللعين إنما يريد أن يستزلك ويغويك ويدخلك في صفات الملحدين الزائفين الجاحدين لصفة الرب تعالى » (٢) ، وعندما يذكر شيخ الإسلام جمل أقوال الطوائف في الصفات يذكر المشبهة مع المنحرفين يقول : « أما باب الصفات والتوحيد ، فالنفي فيه في الجملة قول الفلاسفة والمعتزلة وغيرهم من الجهمية .... والإثبات في الجملة مذهب الصفاتية من الكلابية والأشعرية والكرامية وأهل الحديث وجمهور الصوفية والحنبلية وأكثر المالكية والشافعية إلا الشاذ منهم وكثير من الحنفية أو أكثرهم وهو قول السلفية (٣) ، لكن الزيادة في الإثبات إلى حد التشبيه هو قول الغالية من الرافضة ، ومن جهال أهل الحديث وبعض المنحرفين ، وبين نفي الجهمية وإثبات المشبهة مراتب » (٤) .

= وحلية الأولياء (٢٩١/١٠) ، وتاريخ بغداد (٢٢٣/١٢) ، والعقد الثمين (٤١٠/٦-٤١١) ترجم له مرتين .

(١) في الأصل : أو سنح مسائل والتصويب من حلية الأولياء (٢٩١/١٠) .

(٢) مجموع الفتاوى (٦٢/٥-٦٣) وهذا النص نقله ابن تيمية من كتابه « التعرف بأحوال العباد والمتعبدين » ، وأورد مترجموه كلاما قريبا من هذا أجاب به سائلا ، انظر : طبقات الصوفية للسلمي (ص : ٢٠٢) ، وتاريخ بغداد (٢٢٤/١٢) ، وحلية الأولياء (٢٩١/١٠) ، والعقد الثمين (٤١٢/٦) .

(٣) كذا ولعل الصواب « السالمية » .

(٤) مجموع الفتاوى (٥١/٦) .

٦ – قاعدة « الكمال » أو ما يسميه أحيانا « قياس الأولى » ، وقد شرح ذلك في مناسبات مختلفة ، لكنه أفرد لذلك رسالة عظيمة نافعة ، أجاب فيها على سؤال ورد عليه ، وصيغة السؤال الطويل – الذي ورد في ثلاث صفحات – تدل على أن صاحبه من العلماء أو من طلبة العلم ممن ليس مبتدئا في هذا الشأن . وقد جاء جواب شيخ الإسلام واضحا ومقعدا ، يقول – رحمه الله – : الجواب عن هذا السؤال مبني على مقدمتين :

إحداهما : أن يعلم أن الكمال ثابت لله ، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية ، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب تعالى ، يستحقه بنفسه المقدسة ، وثبوت ذلك مستلزم نفي نقيضه ، فثبوت الحياة يستلزم نفي الموت ، وثبوت العلم يستلزم نفي الجهل ، وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز ، وإن هذا الكمال ثابت له بمقتضى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية ، مع دلالة السمع على ذلك ، ودلالة القرآن على الأمور نوعان : أحدهما : خبر الله الصادق ، فما أخبر الله ورسوله به فهو حق كما أخبر الله به ، والثاني : دلالة القرآن بضرب الأمثال وبيان الأدلة العقلية الدالة على المطلوب ، فهذه دلالة شرعية عقلية ، فهي شرعية لأن الشرع دل عليها ، وأرشد إليها ، وعقلية : لأنها تعلم صحتها بالعقل ، ولا يقال : إنها لم تعلم إلا بمجرد الخبر ، وإذا أخبر الله بالشيء ودل عليه بالدلالات العقلية صار مدلولا عليه بخبره ، ومدلولا عليه بدليله العقلي الذي يعلم به ، فيصير ثابتا بالسمع والعقل ، وكلاهما داخل في دلالة القرآن التي تسمى « الدلالة الشرعية » ، وثبوت « معنى الكمال » قد دل عليه القرآن بعبارات متنوعة ، دالة على معاني متضمنة لهذا المعنى ، فما في القرآن من إثبات الحمد له ، وتفصيل محامده ، وإن له المثل الأعلى ، وإثبات معاني أسمائه ونحو ذلك كله دال على هذا المعنى » [1] ، ثم شرح ذلك وذكر الأدلة العقلية والشرعية عليه ، فذكر لفظ « الكامل » وهل ورد – والخلاف حوله – وأدلة إثبات العقل للكمال لله من وجوه ، والمثل الأعلى ، وأدلة الشرع على ذلك ، ودلالة إثبات أن لله « الحمد » وأنه « حميد مجيد » على ذلك [2] ، ثم قال :

---

(١) الرسالة الأكملية ، مجموع الفتاوى (٦/٧١-٧٢) .
(٢) انظر نفس الرسالة (٦/٧٢-٨٤) .

« **وأما المقدمة الثانية** » فنقول : لابد من اعتبار أمرين :

أحدهما : أن يكون الكمال ممكن الوجود .

والثاني : أن يكون سليما من النقص ، فإن النقص ممتنع على الله [١] .

ثم يجيب عن السؤال الذي يرد حول هذه القاعدة وهو : أن النقص والكمال من الأمور النسبية ، فالأكل والشرب والنكاح كمال للمخلوق نقص للخالق والكبر والتعاظم والثناء على النفس نقص للمخلوق كمال للخالق ، فيقول : « وأما الشرط الآخر وهو قولنا : الكمال الذي لا يتضمن نقصا – على التعبير بالعبارة السديدة – أو الكمال الذي لا يتضمن نقصا يمكن انتفاؤه – على عبارة من يجعل ما ليس بنقص نقصا – ، فاحترز عما هو لبعض المخلوقات كمال دون بعض ، وهو نقص بالإضافة إلى الخالق لاستلزامه نقصا ، كالأكل والشرب مثلا ، فإن الصحيح الذي يشتهي الأكل والشرب من الحيوان أكمل من المريض الذي لا يشتهي الأكل والشرب ، لأن قوامه بالأكل والشرب ، فإذا قدر غير قابل له كان ناقصا عن القابل لهذا الكمال ، لكن هذا يستلزم حاجة الآكل والشارب إلى غيره ، وهو ما يدخل فيه من الطعام والشراب ، وهو مستلزم الخروج شيء منه كالفضلات ، وما لا يحتاج إلى دخول شيء فيه أكمل مما يحتاج إلى دخول شيء فيه ، وما يتوقف كماله على غيره أنقص مما لا يحتاج في كماله إلى غيره ، فإن الغني عن شيء أعلى من الغني به ، والغني بنفسه أكمل من الغني بغيره ، ولهذا كان من الكمالات ما هو كمال للمخلوق وهو نقص بالنسبة إلى الخالق ، وهو : كل ما كان مستلزما لامكان العدم عليه المنافي لوجوبه وقيومته ، أو مستلزما للحدوث المنافي لقدمه ، أو مستلزما لفقره المنافي لغناه » [٢] .

٧ – وهناك قواعد أخرى – في منهجه – نشير إليها هنا لأنها سترد إن شاء الله مفصلة في موقفه من الأشاعرة في الصفات . ومنها :

---

(١) الرسالة الأكملية ، مجموع الفتاوى (٦/٨٥) .

(٢) انظر نفس الرسالة (٦/٨٧) .

أ – القول في الصفات كالقول في الذات .

ب – القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر .

جـ – الاشتراك في الاسم والصفة بين الله وخلق لا يقتضي التماثل .

د – حجية خبر الآحاد .

هـ – إثبات السلف للصفات ليس تفويضاً للمعنى . وغيرها .

رابعا : منهجه في الرد على الخصوم :

واجه شيخ الإسلام خصوما كثيرين ، ويجمعهم أنهم المخالفون لمذهب السلف ولذلك تنوعوا حسب الفرق والطوائف المشهورة ، فإضافة إلى الأشاعرة كان هناك من هو أشد انحرافا منهم ، ولذلك رد شيخ الإسلام على جميع الطوائف تقريبا ، انتداء بملاحدة الفلسفة والتصوف والباطنيين والرافضة إلى أصحاب المقالات المنحرفة في جانب أو جوانب من العقيدة .

وكان منهجه في الرد عليهم يقوم على أساسين بارزين :

أحدهما : بيان حال الخصوم من أهل البدع والانحراف ، وشرح مناهجهم وخلفياتهم لأن الحكم عليهم ونقض أقوالهم لابد أن يكون مبنيا على المعرفة بأحوالهم .

والثاني : رده عليهم ، وكان له في ذلك منهج واضح ، ولذا سنعرض لمنهجه في الرد على الخصوم من خلال هذه الأمرين :

أ – بيان حال الخصوم :

١ – ينطلق شيخ الإسلام – في البداية – إلى وجوب بيان حال أهل البدع ، وإن ذلك لا يعتبر من الغيبة ، يقول في بيان ما يباح منها : « وكذلك بيان أهل العلم لمن غلط في رواية عن النبي – ﷺ – ، وتعمد الكذب عليه ، أو على من ينقل عنه العلم ، وكذلك بيان من غلط في رأي رآه في أمر من أمور الدين من المسائل العلمية والعملية فهذا إذا تكلم فيه الإنسان بعلم وعدل ، وقصد النصيحة فالله تعالى يثيبه على ذلك ، لا سيما إذا كان المتكلم فيه داعيا إلى بدعة فهذا يجب

بيان أمره للناس فإن دفع شره عنهم أعظم من دفع شر قاطع الطريق » [١]، وفي موضع آخر يركز على أئمة أهل البدع ووجوب بيان حالهم وإن ذلك ليس بغيبة يقول : « ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة ، أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة ، فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين ، حتى قيل لأحمد بن حنبل : الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع ؟ فقال : إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه ، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين ، هذا أفضل ، فبين أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله ، إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين ، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين ، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب ، فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعا ، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء » [٢] .

ولقد كان إحساس شيخ الإسلام بهذا الواجب عظيما ، فقضى جزءا كبيرا من عمره في مجاهدة أصحاب البدع علما وعملا .

٢ – كشف أسباب نشأة الفرق والبدع ، وهذا ضروري للرد عليها لأن كشف الأسباب التي أدت إلى قيامها يهيىء الأمر ليصبح الرد عليها مبنيا على منهج سليم ، والطبيب المعالج لا ينبغي له أن يكتفي بمكافحة المرض فقط وإنما يبحث عن أسبابه لأن معرفتها قد تعين في التشخيص ومن ثم العلاج ، وقد يبين أن علاج المرض بمنع أسبابه ، وهكذا أمراض القلوب والعقول .

أ – فشيخ الإسلام في البداية يشير إلى أن الاختلاف من لوازم النشأة الإنسانية لأن الشهوات والشبهات لازمة للنوع الإنساني ، لذلك فالاختلاف والتفرق لابد أن يوجد [٣] .

---

(١) منهاج السنة (٣٦/٣) – مكتبة الرياض الحديثة .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٣١/٢٨-٢٣٢) .

(٣) انظر : نقض أساس التقديس – المخطوط (٣١٩/٢) .

ب – وكثيرا ما يشير إلى الأسباب الخارجية لنشوء الفرق ، ويركز على أثر الفلسفة التي انتشرت في العالم الإسلامي في عهد المأمون ومن جاء بعده [١] . ويخص الترجمة – التي قد تكون دقيقة أو غير دقيقة – يكون من الأسباب المهمة [٢] .

جـ – أما حين يتحدث عن الأسباب الداخلية – التي نشأت من الداخل مثل الاختلاف في فهم النصوص ، أو الاستدلال بأدلة ليست عند الآخرين ، فيعرض لها مفصلة ، فيتكلم عن أسباب الانحراف عن طريق الأنبياء من اليهود والنصارى والمسلمين ، يقول في معرض رده على النصارى : « إن جميع ما يحتجون به من هذه الآيات [٣] وغيرها فهو حجة عليهم لا لهم ، وهكذا شأن جميع أهل الضلال ، إذا احتجوا بشيء من كتب الله وكلام أنبيائه كان في نفس ما احتجوا به ما يدل على فساد قولهم ، وذلك لعظمة كتب الله المنزلة وما نطق به أنبياؤه ، فإنه جعل ذلك هدى وبيانا للخلق وشفاء لما في الصدور فلابد أن يكون في كلام الأنبياء – صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين – من الهدى والبيان ما يفرق الله به بين الحق والباطل والصدق والكذب ، لكن الناس يؤتون من قبل أنفسهم لا من قبل أنبياء الله : **إما** من كونهم لم يتدبروا القول الذي قالته الأنبياء حق التدبر حتى يفقهوه ويفهموه . **وإما** من جهة أخذهم ببعض الحق دون بعض ، مثل أن يؤمنوا ببعض ما أنزله الله دون بعض فيضلون من جهة ما لم يؤمنوا به كما قال تعالى عن النصارى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [المائدة : ١٤] . **وإما** من جهة نسبتهم إلى الأنبياء ما لم يقولوه من أقوال كذبت عليهم .

---

(١) انظر : نقض أساس التقديس – المطبوع (١/٣٢٣-٣٢٤ ، ٣٧٤-٣٧٥) .

(٢) انظر درء التعارض (١/٢٩٩) .

(٣) مثل احتجاجهم بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ﴾ [المائدة : ١١٠] قالوا : سماه الله خالقا ، وقد رد عليهم شيخ الإسلام بعد هذا النص الذي نقلناه من عشرة أوجه ، الجواب الصحيح (٢/٢٨٨-٢٩٣) .

ومن جهة : ترجمة أقوالهم بغير ما تستحقه من الترجمة ، وتفسيرها بغير ما تستحقه من التفسير الذي دل عليه كلام الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فإنه يجب أن يفسر كلام المتكلم بعضه ببعض ، ويؤخذ كلامه ها هنا وها هنا ، وتعرف ما عادته يعنيه ويريده بذلك اللفظ إذا تكلم به ، وتعرف المعاني التي عرف انه أرادها في موضع آخر ، فإذا عرف عرفه وعادته في معانيه وألفاظه كان هذا مما يستعان به على معرفة مراده ، وأما إذا استعمل لفظه في معنى لم تجر عادته باستعماله فيه ، وترك استعماله في المعنى الذي جرت عادته باستعماله فيه ، وحمل كلامه على خلاف المعنى الذي قد عرف أنه يريده بذلك اللفظ يجعل كلامه متناقضا ، ويترك كلامه على ما يناسب سائر كلامه ، كان ذلك تحريفا لكلامه عن موضعه وتبديلا لمقاصده وكذبا عليه ، فهذا أصل من ضل في تأويل كلام الأنبياء على غير مرادهم » (١) . فهذه أسباب أربعة بين فيها كيف يضل الضالون عن طريق أنبيائهم ، ويجمعها التفريط في اتباع ما جاء به الرسول ، يقول شيخ الإسلام : « لكن ينبغي أن يعرف أن عامة من ضل في هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق فإنما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول ، وترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفته ، فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا » (٢) .

وفي موضع آخر يذكر أسباب الانحراف والضلال لطوائف خاصة فيقول : « ومما ينبغي أن يعلم أن سبب ضلال النصارى وأمثالهم من الغالية كغالية العباد والشيعة وغيرهم ثلاثة أشياء :

أحدها : ألفاظ متشابهة ، مجملة ، منقولة عن الأنبياء ، تمسكوا بها وعدلوا الصريحة المحكمة بها ، وهم كلما سمعوا لفظا لهم فيه شبهة تمسكوا به وحملوه على مذهبهم وإن لم يكن دليلا على ذلك ، والألفاظ الصريحة المخالفة لذلك إما أن يفوضوها وإما أن يتأولوها ... » .

---

(١) الجواب الصحيح (٢/٢٨٧-٢٨٨) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٣١٤) .

والثاني : خوارق ظنوها من الآيات وهي من أحوال الشياطين ، وهذا مما ضل به كثير من الضلال المشركين وغيرهم ، مثل دخول الشياطين في الأصنام وتكليمهم للناس ، ومثل إخبار الشياطين للكهان بأمور غائبة ، لابد لهم مع ذلك من كذب ، ومثل تصرفات تقع من الشياطين .

والثالث : أخبار منقولة إليهم ظنوها صدقا وهي كذب ... [١] .

وكثيرا ما يركز على منشأ البدع واختلاط الحق بالباطل فيها « فإن البدعة لو كان باطلا محضا لظهرت وبانت ، وما قبلت ، ولو كانت حقا محضا لا شوب فيه لكانت موافقة للسنة ، فإن السنة لا تناقض حقا محضا لا باطل فيه ، ولكن البدعة تشتمل على حق وباطل » [٢] ، وبعد ما يبين شيخ الإسلام لبس الحق بالباطل وكيف يكون [٣] يقول : « والبدع التي يعارض بها الكتاب والسنة التي يسميها أهلها كلاميات وعقليات وفلسفيات ، أو ذوقيات ووجديات ، وحقائق وغير ذلك ، لابد أن تشتمل [٤] على لبس حق بباطل وكتمان ، وهذا أمر موجود يعرفه من تأمله ، فلا تجد قط مبتدعا إلا وهو يحب كتمان النصوص التي تخالفه ، ويبغضها ، ويبغض إظهارها وروايتها والتحدث بها ، ويبغض من يفعل ذلك » [٥] .

ومن أعظم أسباب بدع المتكلمين من الجهمية وغيرهم – كما يرى شيخ الإسلام – « قصورهم في مناظرة الكفار والمشركين ، فإنهم يناظرونهم ويحاجونهم بغير الحق والعدل لينصروا الإسلام – زعموا – بذلك ، فيسقط عليهم أولئك لما فيهم من الجهل والظلم ويحاجونهم بممانعات ومعارضات ، فيحتاجون حينئذ إلى جحد طائفة من الحق الذي جاء به الرسول ، والظلم والعدوان لإخوانهم المؤمنين بما استظهر عليهم أولئك المشركون ، فصار قولهم مشتملا على إيمان وكفر ،

---

(١) الجواب الصحيح (٣١٦/١-٣١٧) .

(٢) درء التعارض (٢٠٩/١) .

(٣) انظر المصدر السابق (٢٠٩/١-٢٢٠) .

(٤) في الأصل : تشمل ، والتصويب من طبعة محيي الدين عبد الحميد ، والفقي (١٣٢/١) .

(٥) درء التعارض (٢٢١/١) .

وهدى وضلال ، ورشد وغي ، وجمع بين النقيضين ، وصاروا مخالفين للكفار والمؤمنين كالذين يقاتلون الكفار والمؤمنين » [(١)] ، ويمثل حالهم بحال بعض ملوك النواحي والأطراف في عصره الذين استزلهم الشيطان فأصبحوا « يقاتلون العدو قتالا مشتملا على معصية الله من الغدر والمثلة والغلول والعدوان ، حتى احتاجوا في مقاتلة ذلك العدو إلى العداون على إخوانهم المؤمنين » [(٢)] ، ثم يطبق على مثال من التاريخ الكلامي [(٣)] .

ومن أسباب الانحراف عدم فهم كلام العلماء ، وتفريع المسائل على مسألة معينة قد يكون العالم تكلم فيها بكلمة زل فيها ، أو قصد الرد على طائفة معينة ، فحملت على محامل أخرى لم يقصدها ، ويذكر لذلك أمثلة عديدة [(٤)] .

٣ - المعرفة التاريخية بنشوء الفرق ، وتاريخها ، والتسلسل التاريخي لظهور البدع ، والمدن التي انتشرت فيها ، وهذه المعرفة تفيد في بيان أول البدع ظهورا ، وأثر البدع السابقة في ظهور البدع اللاحقة ، كما أنها تعين على فهم الخلفيات التاريخية والعقدية لظهورها .

وكثيرا ما يقرن شيخ الإسلام بين الأحداث التاريخية والبدع التي صاحبتها ، والشواهد على ذلك من كتابات شيخ الإسلام كثيرة ، ففي إحدى رسائله يتحدث بشكل موسع عن ظهور البدع ، وتاريخها ، فيذكر أنه في آخر خلافة علي - رضي الله عنه - ظهرت بدعة الخوارج والرافضة لأنها متعلقة بالإمامة والخلافة ، ثم حدثت فتنة أهل الحرة ، وقصة بن الزبير بمكة ، وظهور المختار بن أبي عبيد بالعراق ، وذلك في أواخر عهد الصحابة فحدثت بدعة القدرية والمرجئة ، وتكلموا في مسائل القدر ومسائل الإيمان والوعد والوعيد ، أما نفي الصفات فلم يحدث

---

(١) التسعينية (ص : ٣٢) .

(٢) المصدر السابق (ص : ٣٢) .

(٣) وهي قصة الجهم بن صفوان لما ناظر نفرا من « السمنية » الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوس ، وحين احتجوا على الجهم في إنكار وجود الله لأنه غير محسوس ، أجابهم بأن الروح نقر بوجودها وإن كنا لا نراها ، فأدى هذا بالجهم إلى نفي صفات الله ، وأنه يمكن نفي جميع الصفات عنه مع الإقرار بوجوده . انظر : التسعينية (ص : ٣٢-٣٨) .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى (٨/٤٢٢-٤٢٨) .

إلا في أواخر عصر صغار التابعين ، وذلك في أواخر عهد الدولة الأموية ، وبداية الدولة العباسية ، وكيف أنه لما تولى الأعاجم ، وعربت الكتب العجمية من كتب الفرس والهند والروم ، حدث ثلاثة أشياء : الرأي ، والكلام ، والتصوف . وحدث التجهم ونفي الصفات ، وبإزائه التمثيل ، وكان جمهور الرأي في الكوفة ، وجمهور الكلام والتصوف في البصرة ، ويذكر أول دويرة بنيت للصوفية في البصرة . وهكذا - بهذا الاسلوب - يستمر في عرض أحوال البلاد الإسلامية وانتشار البدع فيها [1] .

والمعرفة التاريخية أوصلت شيخ الإسلام إلى استنتاجات وتحليلات مهمة ، فمثلا : أحاديث السفر لزيارة القبور والمشاهد أول من أحدثها أهل البدع من الروافض [2] ، ونسبة رسائل إخوان الصفا إلى جعفر الصادق ليست صحيحة ، ويرى أنها صنفت بعد المئة الثالثة [3] ، وأحيانا ينقد متون بعض الروايات التاريخية من خلال الاستقراء والمعرفة بالتاريخ [4] .

٤ - معرفته بأحوال الخصوم ، مذاهبهم وعقائدهم ، وأدلتهم ، وكتبهم ، وهذا غير ما سبق من معرفته بتاريخ نشوء الفرق ، أو أسباب نشوئها ، وقد كان شيخ الإسلام في معرفته بأحوال الخصوم واثقا من نفسه حتى قال في إحدى مناقشاته ومناظراته لهم : « كل من خالفني في شيء مما كتبته ، فأنا أعلم بمذهبه منه » [5] ، وقال عن نفسه : « وقلت في ضمن كلامي : أنا أعلم كل بدعة حدثت في الإسلام ، وأول من ابتدعها وما كان سبب ابتداعها » [6] .

---

(١) انظر : لما سبق مجموع الفتاوى (١٠/٣٥٦-٣٧٢) ، وانظر أيضا : منهاج السنة (١/٢١٨-٢٢٧) ، تحقيق : رشاد سالم ، والنبوات (ص : ١٩٣-١٩٨) .

(٢) انظر : الرد على الإخنائي (ص : ٣٢) ط السلفية .

(٣) انظر : منهاج السنة (٢/٣٧٠) . تحقيق : رشاد سالم ، وأيضا (٢/١٥٤) ، مكتبة الرياض الحديثة ، والسبعينية (ص : ٥٩) .

(٤) انظر : درء التعارض (٧/٢٥٤-٢٥٧) .

(٥) الواسطية - مجموع الفتاوى (٣/١٦٣) .

(٦) نفس المصدر (٣/١٨٤) .

وبلغ من معرفته بأحوال الخصوم أن قال عن « الاتحادية » : « ولهذا لما بينت لطوائف من أتباعهم ورؤسائهم حقيقة قولهم ، وسر مذهبهم ، صاروا يعظمون ذلك ، ولولا ما أقرنه بذلك من الذم والرد لجعلوني من أئمتهم ، وبذلوا لي من طاعة نفوسهم وأموالهم ما يجل عن الوصف ، كما تبذله النصارى لرؤسائهم والإسماعيلية لكبرائهم ، وكما بذل آل فرعون لفرعون ... » [١] .

ولما عرض لمسألة : أفعال العباد ، وهل هي قديمة قال : « ولم يقل قط أحد لا من أصحاب أحمد المعروفين ، ولا من غيرهم من العلماء المعروفين : إن أفعال العباد قديمة ، وإنما رأيت هذا [قولا] لبعض المتأخرين بأرض العجم وأرض مصر من المنتسبين إلى مذهب الشافعي وأحمد فرأيت بعض المصريين يقولون : إن أفعال العباد من خير وشر قديمة ، ويقولون : ليس مرادنا بالأفعال نفس الحركات ولكن مرادنا الثواب الذي يكون عليها » [٢] .

وكثيرا ما يمحص الأقوال التي تنسب إلى الخوارج [٣] ، أو بعض طوائف النصارى [٤] ، بل قال عن الزبور : « وقد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد – ﷺ – باسمه ورأيت نسخة أخرى « من الزبور » [٥] فلم أر ذلك فيها ، وحينئذ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي – ﷺ – ما ليس في أخرى » [٦] . ومن علمه بحال الخصوم معرفته بالبلدان التي يكثر فيها الكفر والشرك والأحوال الشيطانية والتي يقل فيها ذلك [٧] .

---

(١) حقيقة مذهب الاتحاديين ، مجموع الفتاوى (١٣٨/٢) ، وانظر : قصته معهم في الإسكندرية لما جاء أحد فضلائهم وطلب منه أن يشرح له مذهبهم ، فشرحه ، النبوات (ص : ١٢٠) ، دار الكتب العلمية .

(٢) مجموع الفتاوى (٤٠٨/٨) .

(٣) انظر : الصارم المسلول (ص : ١٨٤-١٨٥) .

(٤) انظر : مناقشته للطبري وغيره حول طوائف النصارى وعقائدهم في الجواب الصحيح (١٧٠/١-١٧١) .

(٥) في الأصل : بالزبور ، ولعل الصواب ما ذكرته .

(٦) الجواب الصحيح (٢٧/٢) .

(٧) انظر : تلخيص الاستغاثة (٤٩/١-٥٠) .

٥ - بيانه لمنهج أهل البدع والكلام ، المخالف لمنهج السلف - رحمهم الله تعالى - ولاشك أن بيان منهج الباطل يعين على معرفة منهج أهل الحق ، ولذلك أشار في الوصية الكبرى إلى جوامع من أصول أهل الباطل فقال : « وأنا أذكر جوامع من أصول الباطل التي ابتدعها طوائف ممن ينتسب إلى السنة وقد مرق منها وصار من أكابر الظالمين ، وهي فصول : الفصل الأول : أحاديث رووها في الصفات زائدة على الأحاديث التي في دواوين الإسلام مما نعلم باليقين القاطع أنها كذب وبهتان ، بل كفر شنيع ... فصل : وكذلك الغلو في بعض المشايخ ... فصل : وكذلك التفريق بين الأمة وامتحانها بما لم يأمر الله به ولا رسوله ... » [١] ، ويقول عن أهل البدع : إنهم على عكس منهج الرسل ، فالرسل « يأمرون بالغايات المطلوبة من الإيمان بالله ورسوله وتقواه ، ويذكرون من طرق ذلك وأسبابه ما هو أقوى وأنفع ، وأما أهل البدع المخالفون لهم فبالعكس يأمرون بالبدايات والأوائل ، ويذكرون من ذلك ما أضعف وأضر ، فمتبع الأنبياء لا يضل ولا يشقى ، ومتبع هؤلاء ضال شقي ... » [٢] .

ومن منهج أهل الباطل أنهم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها ، وهؤلاء أصناف [٣] .

ويذكر شيخ الإسلام أن من منهج أهل الباطل التلبيس على أتباعهم والتدرج بهم ، حيث يبدأون بالألفاظ المتشابهة ثم يؤلفون أقوالهم ويعظمونها في النفوس ويهولونها ، حتى يستجيب لهم من يدعونه ولو لم يكن مقتنعا بأقوالهم ، ويشبه هذا ما تفعله القرامطة من التدرج في دعوتهم ، يقول شيخ الإسلام : « ولكن هؤلاء عمدوا إلى ألفاظ مجملة مشتبهة تحتمل في لغات الأمم معاني متعددة ، وصاروا يدخلون فيها من المعاني ما ليس هو المفهوم منها في لغات الأمم ، ثم ركبوها ، وألفوها تأليفا طويلا بنوا بعضه على بعض ، وعظموا قولهم وهولوه في نفوس من لم يفهمه ،

---

(١) الوصية الكبرى ، مجموع الفتاوى (٣/٣٨٤-٣٨٥ ، ٣٩٥،٤١٥) .
(٢) درء التعارض (٨/٢١) .
(٣) انظر : مقدمة في أصول التفسير (ص : ٨١-٩٣) ، تحقيق : زرزور .

ولا ريب أن فيه دقة وغموضا لما فيه من الألفاظ المشتركة والمعاني المشتبهة فإذا دخل معهم الطالب وخاطبوه بما تنفر عنه فطرته ، فأخذ يعترض عليهم قالوا له : أنت لا تفهم هذا ، وهذا لا يصلح لك ، فيبقى ما في النفوس من الأنفة والحمية يحملها على أن تسلم تلك الأمور قبل تحقيقها عنده ، وعلى ترك الاعتراض عليها خشية أن ينسبوه إلى نقص العلم والعقل ، ونقلوا الناس في مخاطبتهم درجات كما ينقل إخوانهم القرامطة المستجيبين لهم درجة بعد درجة ... » [(١)] .

ومن منهجهم فرارهم إلى التقليد ، فرأس الطائفة إذا قال كلاما بقي ذلك الكلام « دائرا في الاتباع ، يدرسونه كما يدرس المؤمنون كلام الله ، وأكثر من يتكلم به لا يفهمه ، وكلما كانت العبارات أبعد عن الفهم كانوا لها أشد تعظيما ، وهذه حال الأمم الضالة ، كلما كان الشيء مجهولا كانوا أشد له تعظيما ، كما يعظم الرافضة المنتظر ، الذي ليس لهم منه حس ولا خبر ولا وقعوا له على عين ولا أثر ، وكذلك تعظيم الجهال من المتصوفة الغوث وخاتم الأولياء ، ونحو ذلك مما لا يعرفون له حقيقة » [(٢)] ، ثم يقول شيخ الإسلام عن تقليدهم لشيوخهم : « وهذا القدر قد تبينته من الطوائف المخالفين للكتاب والسنة – ولو في أدنى شيء ممن رأيت كتبهم وممن خاطبتهم ، وممن بلغني أخبارهم – إذا أقيمت على أحدهم الحجة العقلية التي يجب على طريقته قبولها ، ولم يجد له ما يدفعها به فر إلى التقليد ولجأ إلى قول شيوخه ، وقد كان في أول الأمر يدعو إلى النظر والمناظرة ، والاعتصام بالعقليات والإعراض عن الشرعيات ، ثم إنه في آخر الأمر لا حصل له علم من الشرعيات ولا من العقليات ، بل هو كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج : ٣] » [(٣)] .

ثم يذكر تناقضهم فيقول : « ولست تجد أحدا من هؤلاء إلا متناقضا وهو نفسه يخالف قول ذلك المتبوع الذي عظمه في موضع آخر » [(٤)] .

---

(١) درء التعارض (١/٢٩٥–٢٩٦) ، وانظر أيضا (٥/٦١–٦٢) .

(٢) درء التعارض (٥/٣١٥) .

(٣) درء التعارض (٥/٣١٧) .

(٤) نفس المصدر (٥/٣١٨) .

وإذا كان كثيرا ما يتكلم عن المنهج العام للمبتدعة مثل اتباع الهوى والإعراض عن الكتاب والسنة ، وتقديم معقولهم عليهما ، وغير ذلك - فإنه أحيانا يتكلم عن منهج بعض الطوائف ، فيتكلم عن منهج الجهمية وما ارتكبوه من العظائم [(١)] ، ويتكلم عن منهج المعتزلة واستدلالهم بدليل حدوث الأجسام وتقديمهم للدليل العقلي على دليل السمع [(٢)] .

ولسنا بصدد استقصاء ما كتبه في منهج أهل البدع ، وإنما الغرض بيان أن من منهجه في رده على الخصوم شرحه لمناهجهم .

ب - الرد على الخصوم ومناقشتهم ومنهجه في ذلك :

في الفقرة السابقة كان الحديث عن أن من منهج شيخ الإسلام في الرد على الخصوم شرح أحوالهم ونشأة بدعهم وأسباب ذلك ، ومناهجهم ، ونذكر هنا منهجه في مناقشتهم ونقض أقوالهم والرد على أدلتهم ، والكلام في ذلك طويل ، ولكن نعرض لبعض الملامح في ذلك :

١ - ثقته المطلقة بما عنده من الحق ، حتى قال مرات - في مناظرته حول الواسطية - : « قد أمهلت كل من خالفني في شيء منها ثلاث سنين ، فإن جاء بحرف واحد عن أحد من القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي - ﷺ - حيث قال : « خير القرون القرن الذي بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » [(٣)] يخالف ما ذكرته فأنا أرجع عن ذلك ... [(٤)] ، وفي موضع ذكر أنه قال : « أمهلت كل من خالفني ثلاث سنين ، إن جاء بحرف واحد عن السلف يخالف شيئا مما ذكرته كانت له الحجة وفعلت وفعلت » [(٥)] .

---

(١) درء التعارض (٢٧٧/١) .

(٢) انظر : شرح حديث النزول ، مجموع الفتاوى (٥٤١/٥-٥٤٢) .

(٣) متفق عليه - لكن مع إختلاف يسير عن هذا اللفظ - البخاري ، كتاب الشهادات ، باب لا يشهد على شهادة جور ورقمه (٢٦٥٢) الفتح (٢٥٩/٥) ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ورقمه (٢٥٣٣) وما بعدها .

(٤) المناظرة حول الواسطية ، مجموع الفتاوى (١٦٩/٣) .

(٥) مجموع الفتاوى (١٥/٦) .

وهذه الثقة بما عنده من الحق المبني على الكتاب والسنة وأقوال السلف بارزة في جميع ما كتب ، وخاصة عند مناقشته لخصوم العقيدة ، وكانت من عوامل وحدة المنهج عنده ، حيث أصبح يتعامل مع جميع من يناقشه – وهم كثر – من خلالها ، ولم يمر عليه في وقت من الأوقات أو في مناظرة من المناظرات أن تردد في دلالة الكتاب والسنة ، أو في صحة مذهب السلف .

٢ – اعتماده في العقيدة على الكتاب والسنة ، وتقديمهما على غيرهما ، وهذه سمة بارزة في منهجه يجد الإنسان شاهدها في جميع كتبه :

أ – « فالقرآن قد دل على جميع المعاني التي تنازع الناس فيها دقيقها وجليلها » [١] .

ب – والرسول – ﷺ – قد بلغ البلاغ المبين لأصول الدين وفروعه [٢] .

جـ – وما صح من السنة – من أخبار الآحاد وغيره – هو حجة في العقائد كما أنه حجة في غيرها [٣] .

د – لا تعارض بين العقل والنقل [٤] .

٣ – كيف تفهم نصوص الكتاب والسنة ؟ ، لأن قائلا قد يقول : كل من ينتسب إلى الإسلام يدعي أنه يعتمد في أقواله على الكتاب والسنة ، وقليلون هم الذين يجاهرون بنبذها مباشرة ، هذه مسألة لا يغفلها شيخ الإسلام بل يرى أنها سبب مهم للاختلاف الواقع بين الناس ، ولذلك وضع لها قواعد وضوابط :

أ – فقد كتب رسالة في أصول التفسير ، أوضح فيها المنهج الصحيح لتفسير كلام الله تعالى ، وهذا المنهج نقله ابن كثير في مقدمة تفسيره ، ثم طبقه في تفسيره

---

(١) درء التعارض (٥/٥٦) .

(٢) انظر : نقض أساس التقديس المخطوط (٢/٣٢١-٣٢٣) ، والحموية ، مجموع الفتاوى (٥/٦-٧) ، ومجموع الفتاوى (٣/٢٩٤-٢٩٦) ، والقاعدة المراكشية (ص : ٢٦-٢٨) وغيرها .

(٣) انظر مثلا : الجواب الصحيح (٢/١٢) .

(٤) سيأتي شرح لذلك في موقفه من الأشاعرة .

الذي انتشر بين المسلمين انتشارا عظيما [١] .

ب – كيف يفهم كتاب الله ؟ يقول شيخ الإسلام : « دلالة الكلام على المراد تعرف تارة بالضرورة وتارة بالاستدلال ، ويستدل على ذلك بما نقله الأئمة ، وبما كان يقوله السلف يفسرون به القرآن ، وبدلالة السنة ، وبدلالة سائر الآيات وغير ذلك ... » [٢] .

جـ – ويركز على أنه لابد في معرفة لفظ القرآن والحديث من ذكر نظائره يقول « كل من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها ، عرف عادته في خطابه ، وتبين له من مراده ما لا يتبين لغيره ، ولهذا ينبغي أن يقصد إذا ذكر لفظ من القرآن والحديث أن يذكر نظائر ذلك اللفظ ، ماذا عنى بها الله ورسوله ، فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث ، وسنة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده ، وهي العادة المعروفة من كلامه ... » [٣] ، ويطبق هذا المنهج في بعض الألفاظ [٤] .

د – ولابد أيضا من معرفة اللغة العربية ودلالة الألفاظ ، يقول شيخ الإسلام : « ولابد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ وكيف يفهم كلامه ، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه ، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني ، فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب ، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه ، ولا يكون الأمر كذلك » [٥] .

هـ – وليس كل معنى يفسر به لفظ الآية والحديث ويعلل ذلك بـ « أن المعاني تنقسم إلى حق وباطل ، فالباطل لا يجوز أن يفسر به كلام الله ، والحق

---

(١) انظر : مقدمة في أصول التفسير (ص : ٩٣-١٠٥) . تحقيق : زرزور ، وهناك أكثر من رسالة علمية في منهج ابن تيمية في التفسير .

(٢) نقض التأسيس المخطوط (٣٢٨/٢) .

(٣) الإيمان (ص : ١١٠) .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى (٤٣/١-٤٤ ، ٦٧) .

(٥) الإيمان (ص : ١١١-١١٢) ، وانظر : (ص : ١٦١) .

إن كان هو الذي دل عليه القرآن فسر به ، وإلا فليس كل معنى صحيح يفسر به اللفظ لمجرد مناسبة كالمناسبة التي بين الرؤيا والتعبير ، وإن كانت خارجة عن وجوه دلالة اللفظ كما تفعله القرامطة والباطنية » [١] ، كما أنه ليس « لأحد أن يقول : إن الألفاظ التي جاءت في القرآن موضوعة لمعاني ، ثم يريد أن يفسر مراد الله بتلك المعاني هذا من فعل أهل الالحاد والمفترين » [٢] ، ويذكر شيخ الإسلام أمثلة لذلك [٣] .

٤ - أن السلف أعلم وأحكم من غيرهم ، ولذلك يجب الرجوع إلى فهمهم في العقيدة وكلامهم حولها ، لأنهم أعلم الناس بالكتاب والسنة ومعانيهما [٤] .

٥ - ومن منهجه : جواز استعمال المصطلحات الحادثة ، ومخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم إذا احتيج إلى ذلك ، ويرى مع ذلك أن معرفة لغة العدو واصطلاحه جائز وقد يكون واجبا [٥] ، ومثله استخدام المصطلحات والألفاظ الحادثة قد يحتاج إليه وقد يكون مستحبا وقد يكون واجبا [٦] .

وهذه المسألة شرحها شيخ الإسلام شرحا مستفيضا ، وذكر الأحوال المختلفة لذلك ، يقول في معرض كلامه عن استخدام أهل الكلام للكلام المتشابه الذي يخدعون به جهال الناس ، وذلك بالألفاظ المجملة التي يعارضون بها نصوص الكتاب والسنة : مثل لفظ : العقل ، والمادة ، والصورة ، والجوهر ، والعرض ، والجسم ، والتحيز ، والجهة ، والتركيب ، والجزء ، والعلة والمعلول ، والحدوث والقدم ، والواجب والممكن وغيرها ، يقول شيخ الإسلام معقبا على ذلك : « وما من أهل فن إلا وهم معترفون بأنهم يصطلحون على ألفاظ يتفاهمون بها مرادهم ،

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/٢٧) .
(٢) الرسالة الأكملية ، مجموع الفتاوى (٦/١١١) .
(٣) انظر : المصدر السابق (ص : ١١١-١١٢) .
(٤) هذه قضية من أسس منهجه العام ، وسيأتي إيضاحها - إن شاء الله - عند مناقشتة للأشاعرة .
(٥) انظر : السبعينية (ص : ٢٥) ، وانظر أيضا : نقض أساس التقديس المخطوط (٢/٥-٦) .
(٦) انظر : نقض أساس التقديس المطبوع (٢/٣٨٩) ، ومجموع الفتاوى (٣/٣٠٦-٣٠٨) .

كما لأهل الصناعات العملية ألفاظ يعبرون بها عن صناعتهم ، وهذه الألفاظ هي عرفية عرفا خاصا ، ومرادهم بها غير المفهوم منها في أصل اللغة ، سواء كان ذلك المعنى حقا أو باطلا ، وإذا كان كذلك فهذا مقام يحتاج إلى بيان : وذلك أن هؤلاء المعارضين إذا لم يخاطبوا بلغتهم وإصطلاحهم فقد يقولون : إنا لا نفهم ما قيل لنا ، أو إن المخاطب لنا والراد علينا لم يفهم قولنا ، ويلبسون على الناس بأن الذي عنيناه حق معلوم بالعقل أو بالذوق ، ويقولون أيضا : إنه موافق للشرع إذا لم يظهروا مخالفة الشرع ، كما يفعله الملاحدة من القرامطة والفلاسفة ومن ضاهاهم وإذا خوطبوا بلغتهم واصطلاحهم – مع كونه ليس هو اللغة المعروفة التي نزل بها القرآن – فقد يفضي إلى مخالفة ألفاظ القرآن في الظاهر .... وإذا كانت هذه الألفاظ مجملة كما ذكر فالمخاطب لهم : إما أن يفصل ويقول : ما تريدون بهذه الألفاظ ؟ فإن فسروها بالمعنى الذي يوافق القرآن قبلت ، وإن فسروها بخلاف ذلك ردت ، وإما أن يمتنع عنِ موافقتهم في التكلم بهذه الألفاظ نفيا وإثباتا ، فإن أمتنع عن التكلم بها معهم فقد ينسبونه إلى العجز والانقطاع ، وإن تكلم بها معهم نسبوه إلى أنه أطلق تلك الألفاظ التي تحتمل حقا وباطلا ، وأوهموا الجهال باصطلاحهم : أن إطلاق تلك الألفاظ يتناول المعاني الباطلة التي ينزه الله عنها ، فحينئذ تختلف المصلحة : فإن كانوا في مقام دعوة الناس إلى قولهم وإلزامهم به أمكن أن يقال لهم : لا يجب على أحد أن يجيب داعيا إلا إلى ما دعا إليه رسول الله – ﷺ – ، فما لم يثبت أن الرسول دعا الخلق إليه لم يكن على الناس إجابة من دعا إليه ، ولا له دعوة الناس إلى ذلك ، ولو قدر أن ذلك المعنى حق . وهذا الطريق تكون أصلح إذا لبس ملبس منهم على ولاة الأمور ، وأدخلوه في بدعتهم [1] كما فعلت الجهمية بمن لبسوا عليه من الخلفاء حتى أدخلوه في بدعتهم من القول بخلق القرآن وغير ذلك ، فكان من أحسن مناظرتهم أن يقال : ائتونا بكتاب أو سنة حتى نجيبكم إلى ذلك وإلا فلسنا نجيبكم إلى ما لم يدل عليه الكتاب والسنة ، وهذا لأن الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء ،

---

(١) كذا ولعل العبارة : وأدخلهم في بدعته .

وإذا ردوا إلى عقولهم فلكل واحد منهم عقل ، وهؤلاء المختلفون يدعي أحدهم أن العقل أداة إلى علم ضروري ، ينازعه فيه الآخر ، فلهذا لا يجوز أن يجعل الحاكم بين الأمة في موارد النزاع إلا الكتاب والسنة » [١] ، وذكر شيخ الإسلام مناظرة الإمام أحمد للجهمية ، ثم يوضح الحالة الثانية فيقول :

« فهذه المناظرة هي التي تصلح إذا كان المناظر داعيا ، وأما إذا كان المناظر معارضا للشرع بما يذكره ، أو ممن لا يمكن أن يرد إلى الشريعة ، مثل من لا يلتزم الإسلام ويدعو الناس إلى ما يزعمه من العقليات ، أو ممن يدعي أن الشرع خاطب الجمهور ، وأن المعقول الصريح يدل باطن يخالف الشرع ، ونحو ذلك ، أو كان الرجل ممن عرضت له شبهة من كلام هؤلاء ، فهؤلاء لابد في مخاطبتهم من كلام على المعاني التي يدعونها : إما بألفاظهم ، وإما بألفاظ يوافقون على أنها تقوم مقام ألفاظهم ، وحينئذ فيقال لهم : الكلام إما أن يكون في الألفاظ ، وإما أن يكون في المعاني ، وإما أن يكون فيهما ، فإن كان الكلام في المعاني المجردة من غير تقييد بلفظ ، كما تسلكه المتفلسفة ونحوهم ممن لا يتقيد في أسماء الله وصفاته بالشرائع ، بل يسميه علة وعاشقا ومعشوقا ونحو ذلك ، فهؤلاء إن أمكن نقل معانيهم إلى العبادة الشرعية كان حسنا ، وإن لم يمكن مخاطبتهم إلا بلغتهم فبيان ضلالهم ودفع صيالهم عن الإسلام بلغتهم أولى من الإمساك عن ذلك لأجل مجرد اللفظ ، كما لو جاء جيش كفار ولا يمكن دفع شرهم عن المسلمين إلا بلبس ثيابهم ، فدفعهم بلبس ثيابهم خير من ترك الكفار يجولون في خلال الديار خوفا من التشبه بهم في الثياب .

وأما إذا كان الكلام مع من يتقيد بالشريعة فإنه يقال له : إطلاق هذه الألفاظ نفيا وإثباتا بدعة ، وفي كل منهما تلبيس وإيهام ، فلابد من الاستفسار والاستفصال ، أو الامتناع عن إطلاق كلا الأمرين في النفي والإثبات [٢] ، ويشير هنا شيخ الإسلام إلى ما يظنه بعض الناس من أن السلف ذموا الكلام لأجل الاصطلاحات الحادثة فيه ، ويقول : « ليس الأمر كذلك ، بل ذمهم للكلام

---

(١) درء التعارض (١/٢٢٢-٢٢٩) .

(٢) درء التعارض (١/٢٣١-٢٣٢) .

لفساد معناه أعظم من ذمهم لحدوث ألفاظه ، فذموه لاشتماله على معان باطلة مخالفة للكتاب والسنة ، ومخالفته للعقل الصريح ، ولكن علامة بطلانها مخالفتها للكتاب والسنة ، وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل قطعا ، ثم من الناس من قد يعلم بطلانه بعقله ومنهم من لا يعلم ذلك » (١) .

ويوضح شيخ الإسلام ما سبق فيقول : « وبالجملة ، فالخطاب له مقامات : فإن كان الإنسان في مقام دفع من يلزمه ويأمره ببدعة ، ويدعوه إليها ، أمكنه الاعتصام بالكتاب والسنة ، وأن يقول لا أجيبك إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله ، بل هذا هو الواجب حقا ....

وأما إذا كان الإنسان في مقام الدعوة لغيره والبيان له وفي مقام النظر أيضا فعليه أن يعتصم بالكتاب والسنة ، ويدعو إلى ذلك ، وله أن يتكلم مع ذلك ويبين الحق الذي جاء به الرسول بالأقيسة العقلية والأمثال المضروبة ، فهذه طريقة الكتاب والسنة وسلف الأمة ... » (٢) ، وضرب شيخ الإسلام أمثلة من الكتاب والسنة ومواقف السلف (٣) .

« وإذا كان المتكلم في مقام الإجابة لمن عارضه بالعقل ، وادعى أن العقل يعارض النصوص ، فإنه قد يحتاج إلى حل شبهته وبيان بطلانها ، فإذا أخذ الثاني يذكر ألفاظا مجملة .... فهنا يستفصل السائل ويقول له : ماذا تريد بهذه الألفاظ المجملة ؟ » (٤) فإن أراد حقا قبل وإن أراد باطلا رد .

ومن هذا الكلام وتفصيل ابن تيمية فيه يتبين لماذا رد شيخ الإسلام على الفلاسفة وأتباعهم وذكر عباراتهم ونقلها من كتبهم ، ولماذا رد عليها ردودا طويلة ،

---

(١) درء التعارض (١/٢٣٢-٢٣٣) .

(٢) نفس المصدر (١/٢٣٤-٢٣٦) .

(٣) انظر الأمثلة لذلك في المصدر السابق (١/٢٣٦-٢٣٨) ، فقد ضرب أمثلة من القرآن في بيان التوحيد وصدق الرسل والمعاد ، ومن السنة في مسألة الرؤية حينما سأله أبو رزين : كيف وهو واحد ونحن كثير فأجابه بمثال القمر ، ومن أقوال السلف يقول ابن عباس في مسألة الرؤية وأن السماء ترى ولا يحاط بها ، وقول الإمام أحمد في مسألة المعية مع الاستواء والعلو .

(٤) درء التعارض (١/٢٣٨) .

تصل إلى حد أن القارئ لا يستطيع متابعته والاستمرار معه ، بل ينقطع حين يقف على نصوص من كلام هؤلاء الفلاسفة المبني على المنطق والعبارات والتراكيب الغامضة ، والاصطلاحية .

٦ – تناقض أقوال الخصوم ، وكون أدلة كل فريق ترد على أدلة الفريق المقابل ، ويبقى مذهب السلف هو الحق والعدل ، يقول شيخ الإسلام : بعد ذكره للنزاع بين المعتزلة والأشعرية حول كلام الله وأفعال العباد : « وهذا أعظم ما يستفاد من أقوال المختلفين الذين أقوالهم باطلة ، فإنه يستفاد من قول كل طائفة بيان فساد قول الطائفة الأخرى ، فيعرف الطالب فساد تلك الأقوال ، ويكون ذلك داعيا له إلى طلب الحق ، ولا تجد الحق إلا موافقا لما جاء به الرسول – ﷺ – ، ولا تجد ما جاء به الرسول إلا موافقا لصريح المعقول »[1] ، ويرى شيخ الإسلام أن هناك فوائد من ذكر كلامهم وأدلتهم ومنها : « نقض بعضهم كلام بعض ، فلا يعتقد شيء منها ، ثم إن عرف الحق الذي جاء به الرسول فهذا الصواب الموافق لصريح المعقول ، وإلا استفيد من ذلك السلامة من تلك الاعتقادات الباطلة »[2] .

وكل واحد من أصحاب البدع يقدح في أدلة الآخرين ، « ولهذا لا يتفق اثنان رئيسان على جميع مقدمات دليل إلا نادرا ، فكل رئيس من رؤساء الفلاسفة والمتكلمين له طريقة في الاستدلال تخالف طريقة الرئيس الآخر ، بحيث يقدح كل من أتباع أحدهما في طريقة الآخر ، ويعتقد كل منهما أن الله لا يعرف إلا بطريقته وإن كان جمهور أهل الملة بل عامة السلف يخالفونه فيها »[3] .

ويضرب لذلك أمثلة[4] ، وطريقته في ذلك جزء من بيانه لوسطية مذهب السلف .

---

(١) مجموع الفتاوى (٣١٤/١٢) .

(٢) منهاج السنة : المحققة (١٩٧/٢) .

(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/٢) .

(٤) انظر : المصدر السابق (٢٢/٢-٢٤) ، ومنهاج السنة (٧٢/٣،٧٦،١٠٤) .

وعندما أطال في ذكر مناقشات ونقول عن ابن سينا وابن رشد والطوسي في مسألة علم الله ، يقول : « وبيان بطلان أقوالهم النافية للصفات يطول ، وإنما القصد هنا إبطال بعضهم لقول بعض ، فإن هذا يؤنس نفوسا كثيرة قد تتوهم أنه ليس الأمر كذلك » (١) .

وأحيانا يركز شيخ الإسلام على تناقض الشخص نفسه في أقوال ، ومن أمثلة ذلك ما ذكره من تناقض ابن سينا (٢) ، وبعض أصحاب وحدة الوجود (٣) .

٧ - ويرى شيخ الإسلام - وهذا جانب من تناقض الخصوم - « أن جميع ما يحتج به المبطل من الأدلة الشرعية والعقلية إنما تدل على الحق ، لا تدل على قول المبطل وهذا ظاهر يعرفه كل أحد ، فإن الدليل الصحيح لا يدل إلا على حق ، لا على باطل .... والمقصود هنا .... أن نفس الدليل الذي يحتج به المبطل هو بعينه إذا أعطي حقه وتميز ما فيه من حق وباطل ، وبين ما يدل عليه ، تبين أنه يدل على فساد قول المبطل المحتج به في نفس ما احتج به عليه . وهذا عجيب قد تأملته فيما شاء الله من الأدلة السمعية فوجدته كذلك » (٤) .

ومن منهجه ؛ الذي طبقه أن « المناظرة تارة تكون بين الحق والباطل وتارة بين القولين الباطلين لتبيين بطلانهما ، أو بطلان أحدهما ، أو كون أحدهما أشد بطلانا من الآخر ، فإن هذا ينتفع به كثيرا في أقوال أهل الكلام والفلسفة وأمثالهم ، ممن يقول أحدهم القول الفاسد ، وينكر على منازعه ما هو أقرب منه إلى الصواب ، فيبين أن قول منازعه أحق بالصحة إن كان قوله صحيحا ، وأن قوله أحق بالفساد إن كان قول منازعه فاسدا ، لتنقطع بذلك حجة الباطل فإن هذا أمر مهم ، إذ كان المبطلون يعارضون نصوص الكتاب والسنة بأقوالهم

---

(١) درء التعارض (٩٧/١٠) .
(٢) انظر : درء التعارض (١٨٦،١٣٣،٣٢/٨ ، ٩٨/١٠-١٠٤ ، ١٥٩-١٦٠) .
(٣) انظر : نموذج لتناقض التلمساني في الجواب الصحيح (٢٠١/٣-٢٠٢) .
(٤) مجموع الفتاوى (٢٨٨/٦) ، وانظر : (٢٩/٨) .

فإن بيان فسادها أحد ركني الحق وأحد المطلوبين ، فإن هؤلاء لو تركوا نصوص الأنبياء لهدت وكفت ، ولكن صالوا عليها صول المحاربين لله ولرسوله ، فإذا دفع صيالهم وبين ضلالهم كان ذلك من أعظم الجهاد في سبيل الله » [١] .

٨ – إنصافه للخصوم والاعتراف بما عندهم من الحق ، وسيأتي – إن شاء الله – بيان إنصافه للأشاعرة ، ولكن نقرر هنا أن هذه قاعدة عنده حتى مع من هو أشد انحرافا من الأشاعرة من المعتزلة والجهمية ، والفلاسفة ، والمتصوفة والرافضة وغيرهم .

ولكن ينبغي أن نشير هنا إلى ردوده القوية على الخصوم حين يعارضون الكتاب والسنة وكلام السلف وإجماعهم ، أو حين يؤولون النصوص الصريحة تأويلات فاسدة ، أو حين يقدمون معقولاتهم على نصوص الشرع أو غير ذلك من مناهج المنحرفين وأدلتهم الباطلة ، فإذا ما واجه مثل ذلك تحركت غيرته على هذا الدين وواجه هذه الأقوال الفاسدة نقضا وإبطالا وردا ، وأطال النفس في ذلك ، وواجه خصومه مواجهة صريحة ، يخطئهم ويضلل أقوالهم ، ويبين تناقضهم وقلة أدبهم في تعاملهم مع نصوص الشرع .

ولسنا بصدد ذكر نماذج لذلك فغالب كتبه شاهد على ذلك ، ولكن نشير – ونحن بصدد بيان إنصافه للخصوم – إلى مواقفه وعباراته القوية في مخاطبة بعض خصومه فحين ذكر طرقا عديدة من الأدلة تدل على وجوب قتل ساب النبي – ﷺ – حتى بعد التوبة ، ذكر في أثناء الطريقة الخامسة والعشرين قول من يقول : إن سب النبي مثل سب غيره ، ثم قال : « واعلم أن منشأ الشبهة في هذه المسألة القياس الفاسد ، وهو التسوية في الجنس بين المتباينين تباينا لا يكاد يجمعها جامع ، وهو التسوية بين النبي وغيره في الدم أو في عرض – إذا فرض عود المنتهك إلى الإسلام – وهو مما يعلم بطلانه ضرورة ، ويقشعر الجلد من التفوه به ، فإن من قتله للردة أو للنقض فقط ، ولم يجعل لخصوص كونه أذى له أثرا ،

---

(١) درء التعارض (٢٠٦/٤) .

وإنما المؤثر عنده عموم وصف الكفر ، إما أن يهدر خصوص الأذى ، أو يسوى فيه بينه وبين غيره زعما منه أن جعله كفرا أو نقضا هو غاية التعظيم ، وهذا كلام من لم ير للرسول حقا يزيد على مجرد تصديقه في الرسالة ، وسوى بينه وبين سائر المؤمنين فيما سوى هذا الحق .

وهذا كلام خبيث يصدر عن قلة فقه ، ثم يجر إلى شعبة نفاق ، ثم يخاف أن يخرج إلى النفاق الأكبر ، وإنه لخليق به » (١) .

ولما تكلم ابن سينا في أتباع الرسول – ﷺ – من الصحابة ووصفهم بأنهم أهل الوبر ، وأنهم لا يستطيعون فهم المعاني الغامضة التي يحتاج من هو أفضل منهم من المبرزين المتفلسفة إلى مزيد إيضاح وشرح لفهمها ؛ هجم عليه شيخ الإسلام هجوما شديدا لأن هذا استخفاف بأفضل الخلق بعد الرسل وهم صحابة رسول الله – ﷺ – فقال : « فإذا قدرت بعض الناقصين من ذلك القرن ، فقابله بإخوانك القرامطة الباطنية وعوام الفلاسفة الدهرية ، وأمثالهم من عوام النصيرية والإسماعيلية وأمثالهم فإنك تجد بين أدنى أولئك وخيار هؤلاء في الذهن والعلم من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق ، أليس أصحابك هم المستجيبين لدعوة بني عبيد ، الذين راج عليهم مكرهم وكيدهم في الدنيا والدين ، حتى اعتقدوا فيمن هو أكفر الناس وأكذبهم أنه إمام معصوم ، يعلم علم الأولين والآخرين ، بل عوام النصارى مع فرط جهلهم وضلالهم أحذق وأذكى من عوام أصحابك المستجيبين لمثل هؤلاء المنقادين لهم ، وهل وجد في العالم أمة أجهل وأضل وأبعد عن العقل والعلم من أمة يكون رؤوسها فلاسفة ؟ أو لم تكن أئمتكم اليونان – كأرسطو وأمثاله – مشركين يعبدون الأوثان ، ويشركون بالرحمن ، ويقربون أنواع القرابين لذرية الشيطان ، أو ليس من أعظم علومهم السحر ، الذي غايته أن يعبد الإنسان شيطانا من الشياطين ويصوم له ويصلي ... وأما أئمتكم البارعون – كأرسطو وذويه – فغايته أن يكون مشركا سحارا وزيرا لملك مشرك سحار .... » (٢) ، ثم يقول شيخ الإسلام : « وهذا الكلام وأمثاله

---

(١) الصارم المسلول (ص : ٤٥٥) .

(٢) درء التعارض (٥/٦٤-٦٥) .

إنما قيل للمقابلة لما في كلام هؤلاء من الاستخفاف بأتباع الأنبياء ، وأما أئمة العرب وغيرهم من أتباع الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – ، كفضلاء الصحابة مثل : أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، ومعاذ بن جبل ، وأبيّ بن كعب ، وعبد الله ابن مسعود ، وعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، وأبي الدرداء ، وعبد الله بن عباس ، ومن لا يحصى عدده إلا الله تعالى ، فهل سمع في الأولين والآخرين بعد الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – بقوم كانوا أتم عقولا ، وأكمل أذهانا ، وأصح معرفة ، وأحسن علما من هؤلاء ؟ » [1] ، ثم يقول : « ثم يقال لهذا الأحمق ... » [2] . وفي مناسبة أخرى يقول عن مذهبه : « وكل ذلك فضيحة من الفضائح » [3] .

ويقول في معرض مناقشته لابن رشد وأقواله : « قلت : ليتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدعون من الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل ، كيف يتكلمون في غاية حكمتهم ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين ... » [4] .

وفي رده على الطوسي الذي رد على ابن سينا وما رضي برجوعه إلى إثبات الصفات : « قلت : فليتدبر العاقل – الذي هداه الله تعالى وفهمه ما جاءت به الرسل ، وما قاله غيرهم – كلام هذا الذي هو رئيس طائفته في وقته ، وما قرر به كلام سلفه الملحدين في علم الله تعالى ، لما كان ابن سينا – وهو أفضل متأخريهم – قد قال في ذلك بعض الحق الذي يقتضيه العقل الصريح مع موافقته للنقل الصحيح ، فأراد هذا الطوسي أن يرد ما قاله ابن سينا من الحق انتصارا لطائفته الملاحدة ، فقال في الكلام الذي عظم قدره وتبجح به ما يظهر لمن فهمه أنه من أفسد أقوال الآدمين وأشبه الأشياء ، بأقوال المجانين ، ولا ريب أن هذه عقول كادها باريها ، لما ألحدت في صفات الله تعالى ، وأرادت نصر التعطيل وقعت في هذا الجهل الطويل ... » [5] .

---

(١) درء التعارض (٦٩/٥) .
(٢) نفس المصدر (٧٠/٥) .
(٣) نفسه (٣٣/١٠) .
(٤) نفسه (٤٢٧/٣) .
(٥) درء التعارض (٤٤/١٠–٤٥) .

هذه أساليبه مع هؤلاء ، ويلاحظ أن هذه العبارات جاءت مع المتفلسفة الملاحدة ، ومع ذلك فلم يمنعه ما يجده من مقالاتهم وانحرافاتهم الواضحة ، من أن ينصفهم ويعترف لهم بالحق الذي معهم ، سواء على وجه الإجمال أم التفصيل عند عرض المسألة المعينة .

وينطلق شيخ الإسلام في ذلك ببيان وجوب الإنصاف والعدل مع الآخرين ومع النفس فيقول : « وكثير من هذه الطوائف يتعصب على غيره ، ويرى القذاة في عين أخيه ، ولا يرى الجذع المعترض في عينه ، ويذكر تناقض أقوال غيره ومخالفتها للمنصوص والمعقول ، ما يكون له من الأقوال في ذلك الباب ما هو من جنس تلك الأقوال أو أضعف منها أو أقوى منها ، والله تعالى يأمر بالعلم والعدل ، ويذم الجهل والظلم كما قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلإِنسَـٰنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً .. ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ... ومعلوم أن الحكم بين الناس في عقائدهم وأقوالهم أعظم من الحكم بينهم في مبايعهم وأموالهم » [١] .

ثم هو يقسم الطوائف إلى طبقات فالفلاسفة والصوفية وأتباع الفلاسفة ، هم أبعد عن الحق من المعتزلة ، والمعتزلة أقرب منهم ، ومتكلمة أهل الإثبات من الكلابية والكرامية والأشعرية والسالمية أقرب من المعتزلة ، والسلف وأهل الحديث أقرب الطوائف إلى الحق [٢] .

وهو ينبه إلى أنه قد يكون في كلام المبتدعة وأهل الكلام ما هو حق لأنهم قد يذكرون معاني حسنة وصحيحة ، ولكن الضلال جاء من جهة أنهم نفوا ما زاد عليها من الحق مما يثبته أهل السنة ، ويذكر أمثلة لذلك ومنها : « ما يثبته المتكلمة من أن العبد يتقرب ببدنه وروحه إلى الأماكن المفضلة التي يظهر منها نور الرب كالسموات والمساجد ، وكذلك الملائكة ، فهذا صحيح ، لكن دعواهم أنهم لا يتقربون إلى ذات الله ، وأن الله ليس على العرش ، فهذا باطل ، وإنما الصواب إثبات ذلك وإثبات ما جاءت به النصوص من قرب العبد إلى ربه ،

---

(١) درء التعارض (٧/٤٦٣-٤٦٤) .

(٢) انظر الصفدية (١/١٦٠-١٦١) .

وتجلي الرب لعباده بكشف الحجب المتصلة بهم والمنفصلة عنهم ، وإن القرب والتجلي فيه علم العبد الذي هو ظهور الحق له ، وعمل العبد الذي هو دنوه إلى ربه ... ثم بعض المتسننة والجهال إذا رأوا ما يثبته أولئك من الحق قد يفرون من التصديق به ، وإن كان لا منافاة بينه وبين ما ينازعون أهل السنة في ثبوته ، بل الجميع صحيح ، وربما كان الإقرار بما اتفق على إثباته أهم من الإقرار بما حصل فيه نزاع ؛ إذ ذلك أظهر وأبين وهو أصل للمتنازع فيه ، فيحصل بعض الفتنة في نوع تكذيب ، ونفي حال أو اعتقاد كمال المبتدعة ، فيبقى الفريقان في بدعة وتكذيب ببعض موجب النصوص ، وسبب ذلك أن قلوب المثبتة تبقى معلقة بإثبات ما نفته المبتدعة ، وفيهم نفرة عن قول المبتدعة بسبب تكذيبهم بالحق ونفيهم له ، فيعرضون عن ما يثبتونه من الحق ، أو ينفرون منه أو يكذبون به » [(١)] ، ثم يذكر أمثلة أخرى فيقول : « كما قد يصير بعض جهال المتسننة في إعراضه عن بعض فضائل علي وأهل البيت إذا رأى أهل البدعة يغلون فيها ، بل بعض المسلمين يصير في إعراض عن فضائل موسى وعيسى بسبب اليهود والنصارى .... حتى يُحكى عن قوم من الجهال أنهم ربما شتموا المسيح إذا سمعوا النصارى يشتمون نبينا في الحرب ، وعن بعض الجهال أنه قال : سبوا عليا كما سبوا عتيقكم ، كفر بكفر وإيمان بإيمان ... » [(٢)] .

وحين يذكر تناقض الفلاسفة وغيرهم – حتى في قواعدهم المنطقية – وما أوقعتهم فيه من عقائد فاسدة ، يقول : « وهم لم يقصدوا هذا التناقض ، لكن أوقعتهم فيه قواعدهم الفاسدة المنطقية » [(٣)] .

ويركز دائما على أن الانحراف درجات ، وأن المنتسبين إلى أصول الدين والكلام أيضا درجات ، فيقول : « ومما ينبغي أيضا أن يعرف أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات : منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة ، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة .

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/٢٥-٢٦) .

(٢) نفس المصدر (٦/٢٦)

(٣) شرح حديث النزول ، مجموع الفتاوى (٥/٣٤١) .

ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن السنة منه ؛ فيكون محمودا فيما رده من الباطل ، وقاله من الحق ، لكن يكون قد جاوز العدل في رده بحيث جحد بعض الحق وقال بعض الباطل ، فيكون قد رد بدعة كبيرة ببدعة أخف منها ، ورد بالباطل باطلا بباطل أخف منه [(١)] ، وهذه حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة ، ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولا يفارقون به جماعة المسلمين ، يوالون عليه ، ويعادون ، كان من نوع الخطأ والله سبحانه يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك » [(٢)] ، والانحراف بعضه أخف من بعض فـ « قد يكون الرجل على طريقة من الشر عظيمة ، فينتقل إلى ما هو أقل منها شرا وأقرب إلى الخير ، فيكون حمد تلك الطريقة ومدحها لكونها طريقة الخير الممدوحة ، مثال ذلك : أن الظلم كله حرام مذموم ، فأعلاه الشرك ، فإن الشرك لظلم عظيم ، والله لا يغفر أن يشرك به وأوسطه ظلم العباد بالبغي والعدوان ، وأدناه ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله ... وهكذا النحل التي فيها بدعة ، قد يكون الرجل رافضيا فيصير زيديا ، فذلك خير له ، وقد يكون جهميا قدريا فيصير جهميا غير قدري ، أو قدريا غير جهمي ، أو يكون من الجهمية الكبار ، فيتجهم في بعض الصفات دون بعض ونحو ذلك » [(٣)] .

ومن قواعد إنصافه أنه لا يبرىء بعض أهل السنة من المحدثين وغيرهم من الوقوع في الخطأ فيقول : « لكن يوجد في أهل الحديث مطلقا من الحنبلية وغيرهم من الغلط في الإثبات أكثر مما يوجد في أهل الكلام ، ويوجد فى أهل الكلام من الغلط فى النفى أكثر مما يوجد في أهل الحديث .... » [(٤)] .

تلك قواعد في منطلقه في الإنصاف والعدل ، وهي التي مهدت لشيخ الإسلام ليتميز بمنهج سليم في هذا الباب ، أما الذين ينطلقون في ردودهم على الخصوم على أساس أن الحق معهم أو مع طائفتهم ، وأن طائفتهم لا يقع فيها خطأ

---

(١) كذا ، ولعل العبارة : ورد الباطل بباطل أخف منه .

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٣٤٨-٣٤٩) .

(٣) الاستقامة (١/٤٦٤-٤٦٥) .

(٤) تفسير سورة الإخلاص ، مجموع الفتاوى (١٧/٣٦٣) .

ولا انحراف ، وأن خصومهم على الباطل ، وأقوالهم كلها باطلة - هكذا بإطلاق - فهؤلاء لابد أن يقعوا في الخطأ أو باقتراب شيء من الباطل ونسبته إلى الحق ، أو جحد شيء من الحق لأن الخصوم قالوا به .

وننتقل الآن إلى ذكر نماذج من إنصافه لخصومه ، والفلاسفة هم أشد خصوم ابن تيمية ومع ذلك يقول فيهم « نعم ، لهم في « الطبيعيات » كلام غالبه جيد ، وهو كلام كثير واسع ، ولهم عقول عرفوا بها ذلك ، وهم يقصدون الحق لا يظهر عليهم العناد ، لكن جهال بالعلم الإلهي إلى الغاية ، ليس عندهم منه إلا قليل كثير الخطأ » (١) ، كما يذكر أنهم يتفاوتون في القرب والبعد عن الحق (٢) .

ويعترف للمعتزلة ويميزهم عن غيرهم من أهل البدع فيقول : « ولا ريب أن المعتزلة خير من الرافضة والخوارج ، فإن المعتزلة تقر بخلافة الخلفاء الأربعة .... ويعظمون الذنوب ، فهم يتحرون الصدق كالخوارج ، لا يختلقون الكذب كالرافضة ولا يرون أيضا اتخاذ دار الإسلام كالخوارج ، ولهم كتب في تفسير القرآن ونصر الرسول ، ولهم محاسن كثيرة يترجحون على الخوارج والروافض .... » (٣) ، ويرى أنه لم يكن أصل دينهم تكذيب الرسول لكنهم احتجوا بحجج عقلية أدت إلى هذا (٤) .

أما الشيعة فيرى أنه « ليس كل ما أنكره بعض الناس عليهم يكون باطلا بل من أقوالهم أقوال خالفهم فيها بعض أهل السنة ووافقهم بعض ، والصواب مع من وافقهم ، ولكن ليس لهم مسألة انفردوا بها أصابوا فيها » (٥) ، ولما ذكر تفضيل الخوارج والمعتزلة عليهم ذكر « أن الزيدية من الشيعة خير منهم [أي من الرافضة] وأقرب إلى الصدق والعدل والعلم » (٦) ، ثم قال : « ومع هذا

---

(١) الرد على المنطقيين (ص : ٤٣) .
(٢) درء التعارض (٢٧٦/٩) .
(٣) الفرقان بين الحق والباطل ، مجموع الفتاوى (٩٧/١٣-٩٨) .
(٤) انظر : درء التعارض (١٠٦/٧-١٠٧) .
(٥) منهاج السنة ، تحقيق : رشاد سالم (٢٧/١) .
(٦) المصدر السابق - مكتبة الرياض الحديثة (٣٩/٣) .

فأهل السنة يستعملون معهم العدل والإنصاف ولا يظلمونهم ، فإن الظلم حرام مطلقا بل وأهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم لبعض ، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض ، وهذا مما يعترفون هم به ويقولون : أنتم تنصفوننا ما لا ينصف بعضنا بعضا » [(١)] .

أما أهل الكلام فكثيرا ما يفضلهم على الفلاسفة ، ويرى أنهم أقل انحرافا منهم [(٢)] .

فإذا انتقلنا إلى إنصافه للأفراد ، فابن سينا الذي رد عليه كثيرا وذكر عبارات قاسية في الرد عليه يقول عنه : إنه أفضل متأخرى الفلاسفة [(٣)] ، ولما نقل من كلامه في الإشارات والتنبيهات حول مقامات العارفين ، ذكر أن فيه حقا وباطلا ، وأن ما فيه من حق يقبل ، ولما نقل كلامه قال : إنه كلام صحيح [(٤)] . ولما خالف ابن سينا بقية الفلاسفة في مسألة علم الله مدحه شيخ الإسلام وقال : « وكون ابن سينا خالفهم في هذا هو من محاسنه وفضائله ، التي علم فيها ببعض الحق ، والحجة معه عليهم ، كما أن أبا البركات كان أكثر إحسانا منه في هذا الباب فكل من أعطى الأدلة حقها ، وعرف من الحق ما لم يعرفه غيره كان ذلك مما يفضل ويمدح » [(٥)] ويذكر أن « الصواب في هذا الباب أن يقرر ما ذكره ابن سينا من الطريق الدال على كونه عالما بالمخلوقات فإنها طريق صحيحة ... » [(٦)] .

ويمدح أبا البركات البغدادي [(٧)] صاحب المعتبر ونحوه ويرى أنهم « كانوا بسبب عدم تقليدهم لأولئك [أي الفلاسفة] وسلوكهم طريقة النظر العقلي

---

(١) منهاج السنة (٣٩/٣) .

(٢) انظر الرد على المنطقيين (ص : ٣٩٥) ، والصفدية (١٦١/١-١٦٢) ، ودرء التعارض (١٤٣/٧) .

(٣) انظر : النبوات (ص : ٧) ، ودرء التعارض (٤٤/١٠) .

(٤) انظر : درء التعارض (٥٩/٦) .

(٥) انظر : درء التعارض (١٤٠/١٠) .

(٦) انظر : درء التعارض (١٤٦/١٠) .

(٧) هو : هبة الله بن علي بن ملكا ، كان يهوديا فأسلم ، ولد نحو سنة ٤٨٠ هـ ، وتوفي سنة ٥٦٠ هـ ، عيون الأنباء (ص : ٣٧٤) ، ووفيات الأعيان (٧٤/٦) ، وأخبار الحكماء للقفطي (ص : ٢٢٤) .

بلا تقليد ، واستنارتهم بأنوار النبوات أصلح قولا في هذا الباب من هؤلاء وهؤلاء ، فأثبت علم الرب بالجزئيات ورد على سلفه ردا جيدا ، وكذلك أثبت صفات الرب وأفعاله وبين ما بينه من خطأ سلفه ، ورأى فساد قولهم في أسباب الحوادث ، فعدل عن ذلك إلى أن أثبت للرب تعالى ما يقوم به [من] الإرادات (١) الموجبة للحوادث » (٢) .

وابن عربي – الصوفي – يرى أنه أقرب الاتحادية إلى الإسلام » لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد كثيرا ، ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيره ، بل هو كثير الاضطراب فيه ، وإنما هو قائم مع خياله الواسع الذي يتخيل فيه الحق تارة والباطل أخرى ، والله أعلم بما مات عليه » (٣) ، ويرى أنه أقرب إلى الإسلام لأنه « يفرق بين الظاهر والمظاهر ، فيقر الأمر والنهي والشرائع على ما هي عليه » (٤) ومع ذلك فقد رد عليه وبين ما في كلامه وأقواله من الكفر .

والطوسي لما بين مخازيه ، وتآمره مع هولاكو ضد أهل الإسلام قال : « ومع هذا فقد قيل : إنه كان آخر عمره يحافظ على الصلوات ويشتغل بتفسير البغوي والفقه ونحو ذلك ، فإن كان قد تاب من الإلحاد فالله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات والله تعالى يقول : ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٥٣] » (٥) .

هذه نماذج لمواقفه من خصومه وإنصافه لهم ، وهنا يرد السؤال الذي يطرحه بعض من يترجم لابن تيمية وهو : كيف يوجه شدة ابن تيمية على خصومه في مواضع ، ثم رفقه بهم في مواضع أخرى ؟ .

---

(١) في طبعة رشاد سالم – الإرادات – بدون « من » ، والتصويب من طبعة مكتبة الرياض الحديثة (١٢٨/١) .

(٢) منهاج السنة ، تحقيق : رشاد سالم (٢٤٧/١) .

(٣) حقيقة مذهب الاتحاديين – مجموع الفتاوى (١٤٣/٢) .

(٤) رسالته إلى نصر المنبجي ، مجموع الفتاوى (٤٧٠/٢-٤٧١) .

(٥) منهاج السنة النبوية – مكتبة الرياض الحديثة – (١٢٣/٢) .

والإجابة عن هذا السؤال واضحة لمن يتتبع منهج شيخ الإسلام وطريقته في الرد على خصومه .

أ – فشيخ الإسلام يفرق بين الأشخاص والأقوال ، فإذا كان في مقام الرد على إحدى المقالات الفاسدة ، نقضها بقوة ، وردها إلى أصولها الأخرى الفاسدة ، وشنع على من يعتقد مثل هذا الكلام ، ويستدل بهذا الدليل الفاسد ، ومن ثم يكون موقفه قويا وشديدا في سبيل نصرة الحق ورد الباطل ، أما حين يتجه إلى صاحبها فقد يكون رجع عن هذه المقالة ، أو تاب في آخر عمره ، ومن ثم فلابد من إنصافه .

ب – ثم هو – رحمه الله – إذا رد إحدى المقالات الباطلة رد على المقالة نفسها فنقضها ونقض ما فيها من استدلال ، وشنع على من قال بها فيشتد في موقفه ، لكنه حين يحكم على الأشخاص لا يحكم عليهم من خلال هذه المقالة الفاسدة التي ردها ، وإنما ينظر إليهم نظرة متكاملة فيرى أن لهذا الشخص جهودا في الرد على النصارى ، أو الفلاسفة ، أو الرافضة ، أو الجهمية ، فيمدح أقواله تلك ويمدحه لأجلها . وهكذا .

٩ – وأخيرا نشير إلى لمحات في منهجه :

أ – فهو يقرن الأمور العلمية بالعملية ، وكانت حياته – كما أسلفنا – قائمة على هذا ، ولهذا فهو مع ردوده على أصحاب وحدة الوجود – الذين كانوا كثيرين في عهده – يقول : « ويجب عقوبة كل من انتسب إليهم ، أو ذب عنهم ، أو أثنى عليهم ، أو عظم كتبهم ، أو عرف بمساعدتهم ، ومعاونتهم ، أو كره الكلام فيهم ، أو أخذ يعتذر لهم بأن هذا الكلام لا يدري ما هو ؟ أو من قال : إنه صنف هذا الكتاب ؟ وأمثال هذه المعاذير التي لا يقولها إلا جاهل أو منافق ، بل تجب عقوبة كل من عرف حالهم ولم يعاون على القيام عليهم ، فإن القيام على هؤلاء من أعظم الواجبات ؛ لأنهم أفسدوا العقول والأديان على خلق من المشايخ والعلماء والأمراء ، وهم يسعون في الأرض فسادا ويصدون عن سبيل الله ، فضررهم في الدين أعظم من ضرر من يفسد على المسلمين دنياهم ويترك دينهم كقطاع الطريق ، وكالتتار الذين يأخذون منهم الأموال ويبقون لهم دينهم »[1] .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣٢/٢) .

ولما سئل عمن يقول : إن رد أحمد بن حنبل على اللفظية كان خوفا من الناس أجاب بجواب طويل ، لكنه قال في البداية : « بطلان هذا يعلمه كل عاقل بلغه شيء من أخبار أحمد ، وقائل هذا إلى العقوبة البليغة التي يفتري بها على الأئمة أحوج منه إلى جواب .... » [١] .

ب – ويرى أن بعض المسائل الفرعية التي وقع فيها الخلاف لا ينبغي مفاتحة عوام المسلمين فيها وامتحانهم حولها ، ومن ذلك مسألة رؤية الكفار لله ، فهو يقول في رسالته إلى أهل البحرين حول هذه المسألة وغيرها « وهنا آداب تجب مراعاتها ... [ومنها] : « وكذلك لا يفاتحوا فيها عوام المسلمين ، الذين هم في عافية وسلام من الفتن ، ولكن إذا سئل الرجل عنها ، أو رأى من هو أهل لتعريفه ذلك ألقى إليه مما عنده من العلم ما يرجو النفع به ، بخلاف الإيمان بأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة ، فإن الإيمان بذلك فرض واجب ، لما قد تواتر فيها عن النبي – ﷺ – وصحابته وسلف الأمة » [٢] .

جـ – كما يرى التدرج في ذكر المسائل العلمية ، يقول بعد كلام طويل حول القدر : « ومن فهم ما كتب انفتح له الكلام في هذا الباب ، وأمكنه أن يحصل تمام الكلام في جنس هذه المسائل ، فإن الكلام فيها بالتدرج مقاما بعد مقام هو الذي يحصل به المقصود ، وإلا فإذا هجم على القلب الجزم بمقالات لم يحكم أدلتها وطرقها والجواب عما يعارضها ؛ كان إلى دفعها والتكذيب بها أقرب منه إلى التصديق بها فلهذا يجب أن يكون الخطاب في المسائل المشكلة بطريق ذكر دليل كل قول ، ومعارضة الآخر له حتى يتبين الحق بطريقة لمن يريد الله هدايته ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] » [٣] .

د ـ ويرى أن القول الباطل قد يتبين بطلانه في نفسه من غير بيان وجه ذلك يقول بعد أن بين مذهب ابن عربي وأنه مبني على الزعم بأن المعدوم شيء ثابت

---

(١) الكيلانية – مجموع الفتاوى (٤٣٨/١٢) .

(٢) مجموع الفتاوى (٥٠٣/٦–٥٠٤) .

(٣) أقوم ماقيل في القضاء والقدر : مجموع الفتاوى (١٥٨/٨) .

في العدم : « واعلم أن المذهب إذا كان باطلا في نفسه لم يمكن الناقد له أن ينقله على وجه يتصور تصورا حقيقيا ؛ فإن هذا لا يكون إلا للحق ، فأما القول الباطل فإذا بين فبيانه يظهر فساده ، حتى يقال : كيف اشتبه هذا على أحد ، ويتعجب من اعتقادهم إياه » [١] .

ذ – ويرى أيضا أنه لابد من هدم الباطل الذي عند الخصم ، ثم بناء الحق مكانه ، ولذلك لما ذكر مناظرة الإمام أحمد للجهمية حين سألوا عن كلام الله أهو الله أو غير الله ، فقال لهم أحمد : ما تقولون في علم الله ، أهو الله أو غيره فعارضه أحمد بالعلم فسكت مناظرة – قال ابن تيمية – معلقا : « وهذا من حسن معرفة أبي عبد الله بالمناظرة – رحمه الله – فإن المبتدع الذي بنى مذهبه على أصل فاسد ، فينبغي إذا كان المناظر مدعيا أن الحق معه ، أن يبدأ بهدم ما عنده ، فإذا انكسر وطلب الحق فأعطه إياه ، وإلا فما دام معتقدا نقيض الحق لم يدخل الحق إلى قلبه ، كاللوح الذي كتب فيه كلام باطل ، امحه أولا ، ثم اكتب فيه الحق ، وهؤلاء كان قصدهم الاحتجاج لبدعتهم فذكر لهم الإمام أحمد – رحمه الله – من المعارضة ما يبطلها » [٢] . وهذا يدل على براعة علماء السلف – رحمهم الله تعالى – .

هـ – كما يرى شيخ الإسلام أن جواب الشبهة يجب أن يكون قويا حتى ينقضها ويعيب على الذين يوردون شبهات أهل الباطل ثم يردون عليها ردودا ضعيفة ، ولما عرض لمسألة مجادلة أهل الكتاب ورأى جواز ذلك ، ورد على من زعم أن جواز مجادلتهم منسوخ بآيات الجهاد والقتال [٣] ، قال في أثناء الوجه السابع : « ومما يعجب منه أن بعض المنكرين لمجادلة الكفار بناء على ظهور دلائل النبوة نجده هو ومن يعظمه من شيوخه الذين يعتمد في أصول الدين على نظرهم ومناظرتهم ، ويزعمون أنهم قرروا دلائل النبوة قد أوردوا من الشبهات والشكوك

---

(١) حقيقة مذهب الاتحاديين ، مجموع الفتاوى (١٤٥/٢) .

(٢) جواب أهل العلم والإيمان ، مجموع الفتاوى (١٥٨/٧-١٥٩) .

(٣) انظر : الجواب الصحيح (٦٦/١-٧٨) .

والمطاعن على دلائل النبوة ما يبلغ نحو ثمانين سؤالا ، وأجابوا عنه بأجوبة لا تصلح أن تكون جوابا في المسائل الظنية ، بل هي إلى تقرير شبه الطاعنين أقرب منها إلى تقرير أصول الدين ، وهم مثلهم الغزالي وغيره بمن يضرب شجرة ضربا يزلزلها به وهو يزعم أنه يريد أن يثبتها »[1] . والمشكلة أنه في بعض الأحيان يورد البعض الشبهة ، وإن لم يوردها الخصوم ، ويصورها تصويرا جيدا ، ثم يجيب عنها فيأتي الجواب أضعف منها ، ولو لم يوردها لكان أفضل .

و - ومن قواعد شيخ الإسلام مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذلك فيما إذا ولد الأمر بالمعروف ترك معروف أكبر ، أو ولد النهي عن المنكر منكرا أكبر ، وبني ذلك على مسألة المصالح والمفاسد إذا تعارضت ، أو تزاحمت الحسنات والسيئات ، « فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد وتعارضت المصالح والمفاسد ؛ فإن الأمر والنهي - وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة - فينظر في المعارض له ، فإن كان الذي يفوت من المصالح ، أو يحصل من المفاسد : أكثر ، لم يكن مأمورا به ، بل يكون محرما إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته ، لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة ، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها ، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر ، وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيرا بها وبدلالتها على الأحكام .

وعلى هذا : إذا كان الشخص والطائفة جامعين بين معروف ومنكر ، بحيث لا يفرقون بينهما ، بل إما أن يفعلوهما جميعا ، أو يتركوهما جميعا ، لم يجز أن يؤمروا بمعروف ، ولا ينهوا عن منكر ، بل ينظر : فإن كان المعروف أكثر أمر به ، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر ، ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه ، بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله ، والسعي في زوال طاعته وطاعة رسول الله - ﷺ - ، وزوال فعل الحسنات .

---

(١) انظر : الجواب الصحيح (١/٦٦-٧٧) .

وإن كان المنكر أغلب نهى عنه ، وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف ، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه : أمرا بمنكر وسعيا في معصية الله ورسوله .

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان : لم يأمر بهما ، ولم ينه عنهما . فتارة يصلح الأمر ، وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهي ، حيث كان المعروف والمنكر متلازمين ، وذلك في الأمور المعينة الواقعة ، وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقا ، وينهى عن المنكر مطلقا » (١) ، ويمثل لذلك في مكان آخر فيقول : « ولهذا لا يجوز إنكار المنكر بما هو أنكر منه ، ولهذا حرم الخروج على ولاة الأمر بالسيف ، لأجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأن ما يحصل بذلك من فعل المحرمات وترك واجب ، أعظم مما يحصل بفعلهم المنكر والذنوب ، وإذا كان قوم على بدعة أو فجور ، ولو نهوا عن ذلك وقع بسبب ذلك شر عظيم مما هم عليه من ذلك - ولم يمكن منعهم منه ، ولم يحصل بالنهي مصلحة راجحة - لم ينهوا عنه » (٢) .

وهذه مسألة مهمة ، ينبغي دراستها بعمق ، ودراسة أصولها الشرعية لئلا يؤدى الأمر إلى نوع من الإفراط أو التفريط في هذه المسألة التي اعتبرها بعض العلماء من أصول الدين .

ز - كان شيخ الإسلام لا يطلب رضى الناس ، ويعلل ذلك بأن رضى المخلوقين غير ممكن ، ولأننا مأمورون بأن نتحرى رضى الله تعالى ، كما أن علينا أن لا نخاف إلا الله ، ومن لزم هذه الطريقة كانت العاقبة له (٣) .

ح - أمر بالاجتماع وعدم الفرقة ، ويرى أن الاختلاف الذي ذكره الله في القرآن قسمان : قسم يذم فيه الطائفتان جميعا ، وقسم يحمد فيه إحدى الطائفتين

---

(١) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص : ٣٤) ت الجليند .

(٢) مجموع الفتاوى (٤٧٢/١٤) .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى (٢٣٢/٣-٢٣٣) .

– وهم المؤمنون – وتذم فيه الطائفة الأخرى المخالفة لهم ، كما يرى أن هناك اختلاف تنوع واختلاف تضاد ، وإن الخلاف الذي بين السلف في تفسير الآيات وغيره إنما هو من النوع الأول [١] ، ثم يورد الأحاديث الواردة في النهي عن الاختلاف [٢] .

ويرى شيخ الإسلام أن « البدعة مقرونة بالفرقة ، كما أن السنة مقرونة بالجماعة ، فيقال : أهل السنة والجماعة ، كما يقال : أهل البدعة والفرقة » [٣] ، « ونتيجة الجماعة : رحمة الله ورضوانه وصلواته ، وسعادة الدنيا والآخرة وبياض الوجوه ، ونتيجة الفرقة : عذاب الله ولعنته ، وسواد الوجوه وبراء الرسول منهم » [٤] .

ط – ضربه للأمثلة بما يوضح المراد ، ففي مسألة التوسل ، إنكار الوسائط بين الله وخلقه ، ووضح المراد بضرب الأمثلة بالوسائل التي بين الملوك وبين الناس [٥] – ، كما ضرب الأمثلة لعذاب الروح والبدن ونعيمها في القبر [٦] ، كما ضرب الأمثلة في مناسبات أخرى [٧] .

خامسا : الأمانة العلمية :

قد يظن البعض أن المنهجية العلمية والأمانة في نقل النصوص ونسبتها إلى أصحابها ، ومقارنة النسخ الخطية للوصول إلى نص المؤلف ... وغيرها ، من مبتكرات هذا العصر ، عصر الطباعة والنشر على نطاق واسع ، كما يظن أن المستشرقين هم الذين تنبهوا إلى ذلك وتبنوه ، ثم حذا حذوهم المسلمون ، وليس المقام مقام مناقشة هذه الأمور لأن مثل هذه القضايا – والحمد لله – أصبحت

---

(١) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم (١/١٢٦-١٣٣) .
(٢) نفس المصدر (١/١٣٥-١٤٤) .
(٣) الاستقامة (١/٤٢) .
(٤) مجموع الفتاوى (١/١٧) .
(٥) انظر : الواسطة بين الحق والخلق – ط المكتب الإسلامي – (ص : ٨-١٠) .
(٦) انظر : مجموع الفتاوى (٤/٢٧٤-٢٧٦) .
(٧) انظر : درء التعارض (٣/٩٧-٩٨ ، ٥/٣٦٦) .

واضحة لدى الكثير من المهتمين بأمور التراث والبحث العلمي ، والمستشرقون وحركتهم المعادية للإسلام ، وحقدهم الدفين عليه وعلى تراثه وعلى المتمسكين به لا يكاد يجهله من عنده غيرة على هذا الدين ، والإيجابيات - التي صاحبت حركتهم - جاءت مشوبة بهذه الأغراض الخبيثة ، وهذا حكم عام ، وإلا فالمستشرقون ليسوا على حد سواء .

والأمانة العلمية من صميم ما يدعو إليه الإسلام ، ولذلك طبقها المسلمون في حياتهم :

أ - فالإسلام حث على الصدق والعدل ، ونهى عن الكذب والقول بلا علم .

ب - ثم تمثل ذلك في علم مصطلح الحديث ، بأبوابه وفنونه ، التي وصلت إلى أدق ما يمكن من الإتقان والضبط في الجرح والتعديل ، والتحمل والأداء ، وطبقات الرواة ، والإدراج ، والتصحيف والتحريف ، وغيرها من علوم الحديث التي تميزت بها هذه الأمة عن غيرها من الأمم .

وشيخ الإسلام إنما سار على منهج علماء الإسلام في هذا الباب ، ولما كان يواجه خصوما عديدين برزت عنده كمنهج له طبقها في كتاباته ورسائله ...

وشهد له بهذه المنهجية أعداؤه الذين لا يرضون سلفيته وردوده على من يعظمونه من أهل الاعتزال والأشاعرة وغيرهم ، فالنشار - الذي يتهم شيخ الإسلام بتهم عديدة منها الكذب على الأشاعرة [(١)] - لا يملك إلا أن يناقض نفسه فيقول : « ولكن حسبنا من ابن تيمية أنه كان مؤرخا ممتازا للفكر الإسلامي ، وأنه ترك لنا نصوصا رائعة نستطيع بواسطتها أن نصوغ المذاهب التي لم تصل إلينا مصادرها الأصلية صياغة منهجية متكاملة » [(٢)] ، ويقول : « وبهذا حفظت لنا كتب

---

(١) انظر : نماذج من اتهاماته لشيخ الإسلام في نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (جـ ١ ص : ٣٧٨،٣٣٣،٣٥٦،٣٦٦،٣٧١) وغيرها .

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور علي سامي النشار (٢٧٨/١) .

ابن تيمية الكثير من عناصر المذهب الكلابي ، وسيقدم لنا عرضه السهل الممتع تفسيرا هاما له ، علاوة على أن ابن تيمية كان مؤرخا ممتازا للأفكار الفلسفية » [١] .

والدكتور أحمد صبحي لما انتقد البغدادي في كتبه لأنه شوه أقوال الفرق علق على ذلك بمدح من ينقل الأقوال بأمانة ومنهم : « ابن تيمية في منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ، ومن لم يطلع على كتاب « منهاج الكرامة في الإمامة » لابن المطهر الحلي - والذي يرد عليه ابن تيمية - يستطيع أن يستخلص من كتاب ابن تيمية معظم عبارات ابن المطهر بنصها ، وتلك نزاهة في الحوار لم يعرفها البغدادي » [٢] .

وكاتب آخر يقول : « ولكن الثابت أن ابن تيمية ينقل آراء الخصوم نقلا أمينا ، ويشرع في مناقشتها بعد ذلك » [٣] ، وبذلك أصبحت كتبه موضع ثقة الدارسين كما أشار أحد الكتاب [٤] .

وشيخ الإسلام ينطلق في هذا الباب من بيان أن من صفة أهل السنة العدل والرحمة ، فيعدلون على من خرج عن السنة ويرحمون الخلق ويحبون الخير لهم [٥] ، ويشير إلى أن الإمام أحمد - رحمه الله - كان يعطي كل ذي حق حقه [٦] ، وانه في كل فن يجب أن يرجع فيه إلى أهل فنه فالأحاديث يرجع فيها إلى أهل المعرفة بالحديث ، والأحكام يرجع فيها إلى أهل المعرفة بها [٧] .

ثم يطبق هذا فيقول مثلا في رده على الإخنائي ؛ حين خلط بين الأحاديث الواردة فيما سنه الرسول - ﷺ - لأمته من زيارة القبور ، وما نهى عنه مما يقصده

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي (٢٧٠/١) ، وانظر (٣٩٢/٢-٣٣٩) .
(٢) في علم الكلام : أحمد صبحي (٩٥/٢-٩٦) .
(٣) نشأة الأشعرية وتطورها ، للدكتور جلال محمد موسى (ص : ٣٣٤) .
(٤) دراسات في فكر ابن تيمية : عبد اللطيف محمد العبد (ص : ١٤-١٥) .
(٥) انظر : الاستغاثة (٢٥٦/٢-٢٥٧) .
(٦) انظر : تلخيص الاستغاثة (١٢/١) .
(٧) انظر : نفس المصدر (١٢/١-١٣) .

أهل البدع من السفر لزيارة القبور ودعائهم والاستشفاع بهم : « وهذا الموضع يغلط فيه هذا المعترض وأمثاله ، ليس الغلط فيه من خصائصه ، ونحن نعدل فيه ونقصد قول الحق والعدل فيه كما أمر الله تعالى ، فإنه أمر بالقسط على أعدائنا الكفار ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨] ، فكيف بإخواننا المسلمين ، والمسلمون إخوة ، والله يغفر له ويسدده ، ويوفقه وسائر إخواننا المسلمين » [١] .

ويرى شيخ الإسلام أن عامة ما يؤتى الناس إما في تفريط في الحق وأدلته أو دخول في الباطل [٢] ، كما أنه يؤكد أن الحجج القوية لا تقابل بالجحد فيقول : « وليس مما أمر الله به ورسوله ولا مما يرتضيه عاقل أن تقابل الحجج القوية بالمعاندة والجحد ، بل قول الصدق والتزام العدل لازم عند جميع العقلاء ، وأهل الإسلام والملل أحق بذلك من غيرهم ؛ إذ هم - ولله الحمد - أكمل الناس عقلا ، وأتمهم إدراكا ، وأصحهم دينا ، وأشرفهم كتابا ، وأفضلهم نبيا ، وأحسنهم شريعة » [٣] .

وبعد هذه المقدمة نذكر نماذج من منهجه :

أ - دعوته إلى نقل الأقوال بألفاظها :

١ - قال في رده على النصارى : « وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانها ، فصلا فصلا ، وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعا وأصلا وعقدا وحلا ... » [٤] ، ثم لما نقل نصا من كتاب النصارى الذي ردوا به على المسلمين

---

(١) الرد على الإخنائي (ص : ٨١-٨٢) ط السلفية .

(٢) انظر : الصفدية (١/٢٩٣-٢٩٤) .

(٣) انظر : درء التعارض (٩/٢٠٧) .

(٤) الجواب الصحيح (١/١٩) .

قال : « وهذه ألفاظهم بأعيانها في الفصل الأول » [(١)] .

٢ - وينعي على الإخنائي الذي رد على ابن تيمية فحرف كلامه ، يقول : « وكان ينبغي أن يحكي لفظ المجيب بعينه ، ويبين ما فيه من الفساد ، وإن ذكر معناه فيسلك سبيل الهدى والسنة ، فأما أن يذكر عنه ما ليس فيه ، ولا يذكر ما فيه فهذا خروج عن الصدق والعدل إلى الكذب والظلم » [(٢)] .

٣ - ولما نقل الرازي مناظرة ابن الهيصم لابن فورك حول العلو ، وذكر الرازي أنه نظم حجة ابن الهيصم أحسن من نظمه ، فقال ابن تيمية في معرض المناقشة : « وأما الحجة التي ذكرها عن ابن الهيصم فلم يذكر ألفاظها ، لكن ذكر أنه نظمها أحسن من نظمه ، ونحن في جميع ما نورده نحكي ألفاظ المحتجين بعينها ، فإن التصرف في ذلك قد يدخله خروج عن الصدق والعدل ، إما عمدا وإما خطأ ، فإن الإنسان إن لم يتعمد أن يلوي لسانه بالكذب أو يكتم بعض ما يقوله غيره ، لكن المذهب الذي يقصد الإنسان إفساده لا يكون في قلبه من المحبة له ما يدعوه إلى صوغ أدلته على الوجه الأحسن حتى ينظمها نظما ينتصر به ، فكيف إذا كان مبغضا لذلك ؟ والله أعلم بحقيقة ما قاله ابن الهيصم ونقله هذا عنه ، لكن نحن نتكلم على ما وجدناه ، مع العلم بأن الكرامية فيهم نوع بدعة في مسألة الإيمان وغيرها كما في الأشعرية أيضا بدعة ، لكن المقصود في هذا المقام ذكر كلامهم وكلام النفاة » [(٣)] .

ومن هذا النص المهم يتبين حرص شيخ الإسلام على نقل ألفاظ الخصوم بعينها ، وأن هذه خطة اختطها لنفسه ، كما أنه يشير إلى ناحية نفسية عند الإنسان حين يريد إبطال مذهب أو قول ، وهو تنبيه إلى أمر واقعي ، كثيرا ما يكون سببا في كثرة الجدال ، وغلبة الشحناء وعدم الوصول إلى الحق بسرعة .

---

(١) الجواب الصحيح (٢٨/١) .

(٢) الرد على الإخنائي (ص : ١٣) ط السلفية .

(٣) نقض أساس التقديس المطبوع (٣٤٤/٢) ، وانظر ردا آخر على أحد المعترضين عليه حول اسم « النور » وأنه لم يقل ما قاله المعترض على الوجه الذي حكاه ، مجموع الفتاوى (٣٧٥/٦) .

ب – الدقة في نسبة الأقوال إلى أصحابها :

١ – فهو يعتمد النقل الصحيح للأقوال ، فيقول : « وقد بلغني بإسناد متصل عن بعض رؤوسهم – وهو الخونجي [١] – صاحب « كشف الأسرار في المنطق » – وهو عند كثير منهم غاية في هذا الفن – أنه قال عند الموت « أموت وما علمت شيئا إلا أن الممكن يفتقر إلى الواجب » ثم قال : « الافتقار وصف عدمي ، أموت وما علمت شيئا » ، وذكر الثقة عن هذا الآمدي أنه قال : « أمعنت النظر في الكلام وما استفدت شيئا إلا ما عليه العوام ، أو كلاما هذا معناه .. » . وكذلك حدثني الثقة من قرأ على ابن واصل الحموي أنه قال : « أبيت بالليل وأستلقي على ظهري وأضع الملحفة على وجهي ، أقابل أدلة هؤلاء بأدلة هؤلاء وبالعكس ، وأصبح وما ترجح عندي شيء » كأنه يعني أدلة المتكلمين والفلاسفة » [٣] .

وكثيرا ما ينقل شيخ الإسلام عن الثقات فيما يتعلق بأحوال عصره وأقوال رجالهم .

٢ – ولما رمى ابن المطهر الحلي المسلمين بأنهم حشوية ومجسمة ، قال شيخ الإسلام في معرض الرد عليه : « ومن أراد أن ينقل مقالة عن طائفة فليسم القائل والناقل ، وإلا فكل أحد يقدر على الكذب ، فقد تبين كذبه فيما نقله عن أهل السنة » [٣] .

٣ – ويرى أن المعرفة بحقيقة أقوال الناس إنما تتم بنقل ألفاظهم فيقول : « وكثير من الناقلين ليس قصده الكذب ، لكن المعرفة بحقيقة أقوال الناس من غير نقل ألفاظهم وسائر ما به يعرف مرادهم قد يتعسر على بعض الناس ويتعذر على بعضهم » [٤] .

---

(١) هو : أفضل الدين أبو عبد الله محمد بن ناماور بن عبد الملك ، الخونجي الشافعي ، تولى قضاء القضاة في مصر ، ولد سنة ٥٩٠ هـ ، وتوفي سنة ٦٤٦ هـ ، له الجمل في المنطق ط – وكشف الأسرار – في المنطق وغيرها ، انظر : عيون الأنباء (ص : ٥٨٦) ، وذيل الروضتين (١٨٢) ، وسير أعلام النبلاء (٢٢٨/٢٣) ، ومقدمة رسالتان في المنطق (ص : ٥–٢٥) .

(٢) درء التعارض (٢٦٢/٣–٢٦٤) .

(٣) منهاج السنة ؛ المحققة (٤١٣/٢) .

(٤) منهاج السنة (٢٠٨/٣) – مكتبة الرياض الحديثة .

٤ – وفي رده على الآمدي حين نقل عن طائفة أنهم يقولون عن الله : إنه جسم كالأجسام ، حقق القول في هذه النسبة فقال : « مع أني إلى ساعتي هذه لم أقف على قول لطائفة ، ولا نقل عن طائفة أنهم قالوا : جسم كالأجسام مع أن مقالة المشبهة الذين يقولون : يد كيدى ، وقدم كقدمي ، وبصر كبصري مقالة معروفة ، وقد ذكرها الأئمة كيزيد بن هارون ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق ابن راهويه ، وغيرهم ، وأنكروها وذموها ، ونسبوها إلى مثل داود الجواربي البصري وأمثاله ، ولكن مع هذا صاحب هذه المقالة لا يمثل بكل شيء من الأجسام ، بل ببعضها ، ولابد مع ذلك أن يثبتوا التماثل من وجه والاختلاف من وجه ، لكن إذا أثبتوا من التماثل ما يختص بالمخلوقين كانوا مبطلين على كل حال » [1] .

٥ – ولما ذكر أقوال المرجئة في الوعيد قال : « ويذكر عن غلاتهم أنهم نفوا الوعيد بالكلية ، لكن لا أعلم معينا معروفا أذكر عنه هذا القول ، ولكن حكي هذا عن مقاتل بن سليمان ، والأشبه أنه كذب عليه » [2] . وأحيانا يقول : وأظن أن قول فلان هو هذا وما يشبه هذا [3] ، وقد يعبر أحيانا بمثل قوله : « كأن في الحكاية عنهما غلطا » [4] .

٦ – تصحيحه للأقوال التي تنسب خطأ إلى بعض الناس ، فالكرامية الذين يقولون : إن الإيمان قول في اللسان – وعليه فالمنافقون عندهم مؤمنون – يقول عنهم : « وبعض الناس يحكى عنهم أن من تكلم بلسانه دون قلبه فهو من أهل الجنة ، وهو غلط عليهم ، بل يقولون : إنه مؤمن كامل الإيمان ، وأنه من أهل النار » [5] .

---

(١) درء التعارض (٤/١٤٤–١٤٥) ، وانظر (٤/٢٦–٢٧) .

(٢) شرح الأصفهانية (ص : ١٤٤) ، وانظر منهاج السنة (٣/٧٣) . وقال « والظاهر أنه غلط عليه » .

(٣) الرسالة الأكملية ، مجموع الفتاوى (٦/٩٦) .

(٤) النبوات (ص : ٥) ، دار الكتب العلمية .

(٥) الفرقان بين الحق والباطل – مجموع الفتاوى (١٣/٥٦) .

ويقول – بعد أن نقل كلاما للحلاج رواه عنه القشيري في الرسالة – : « قلت هذا الكلام – والله أعلم – هل هو صحيح عن الحلاج أم لا ؟ فإن في الإسناد من لا أعرف حاله ، وقد رأيت أشياء كثيرة منسوبة إلى الحلاج من مصنفات وكلمات ورسائل ، وهي كذب عليه لاشك في ذلك ، وإن كان في كثير من كلامه الثابت عنه فساد واضطراب ، لكن حملوه أكثر مما حمله .... » [(١)] .

ولما ذكر مسألة الاستثناء في الماضي المعلوم المتيقن ، مثل قوله : هذه شجرة إن شاء الله ، وهذا إنسان إن شاء الله ، قال : « هذه بدعة مخالفة للعقل والدين ، ولم يبلغنا عن أحد من أهل الإسلام ، إلا عن طائفة من المنتسبين إلى الشيخ أبي عمرو بن مرزوق [(٢)] ، ولم يكن الشيخ يقول بذلك ، ولا عقلاء أصحابه ولكن حدثني بعض الخبيرين أنه بعد موته تنازع صاحبان له : حازم وعبد الملك فابتدع حازم هذه البدعة في الاستثناء في الأمور الماضية المقطوع بها ، وترك القطع بذلك ، وخالفه عبد الملك في ذلك موافقة لجماعة المسلمين وأئمة الدين ، وأما الشيخ أبو عمرو فكان أعقل من أن يدخل في مثل هذا الهذيان فإنه كان له علم ودين ... » [(٣)] .

٧ – ولما انتقد بعض العلماء لأنه يحرف المقالات ذكر الدليل على ذلك ، بالمقارنة بين نقله والأصل المنقول عنه ، ولما نقل عن هذا العالم نفسه نصا آخر شك في وجود تحريف فيه قال بكل أمانة : « وكذلك فيما نقله من كلام الأشعري كيف زاد فيه ونقص مع أن المنقول نحو ورقتين فلعله أيضا قد عمل ذلك فيما نقله من كلام ابن كلاب إذ لم نجد نحن نسخة الأصول الذي [(٤)] نقل منها حتى نعلم كيف فعل فيها ، وفيما نقله تحريف بين » [(٥)] .

---

(١) الاستقامة (١١٩/١) .

(٢) هو : الشيخ عثمان بن مرزوق بن حميد القرشي ، توفي سنة ٥٦٤ هـ ، ذيل طبقات الحنابلة (٣٠٦/١-٣١١) .

(٣) مجموع الفتاوى (٤٢١/٨-٤٢٢) .

(٤) كذا في المخطوط وصحة العبارة أن يقال (التي) .

(٥) نقض أساس التقديس المخطوط (٨٧/١) ، وانظر في المثال الأول ، الذي أثبت فيه التحريف لوجود الأصل الذي نقل عنه (ص : ٥٤) .

جـ – رجوعه إلى المصادر والكتب ، والاعتذار إذا لم يجدها :

١ – فيشير إلى أن أقوال الخوارج إنما عرفها بنقل الناس عنهم ، ولم يقف لهم على كتاب مثل غيرهم ، يقول : « وأقوال الخوارج إنما عرفناها من نقل الناس عنهم ، لم نقف لهم على كتاب مصنف ، كما وقفنا على كتب المعتزلة ، والرافضة ، والزيدية ، والكرامية ، والأشعرية ، والسالمية ، وأهل المذاهب الأربعة ، والظاهرية ، ومذاهب أهل الحديث ، والفلاسفة والصوفية ونحو هؤلاء » (١) .

٢ – ولما تكلم في إحدى المسائل – مسألة الإرادة الجازمة هل يعاقب عليها إذا كانت معصية – فصل القول تفصيلا دقيقا ، لكنه اعتذر أثناء الجواب فقال : « وحين كتبت هذا الجواب لم يكن عندي من الكتب ما يستعان به على الجواب فإن له موارد واسعة » (٢) .

٣ – ولما نقل كلام الباقلاني من كتابه « الإبانة » بما يدعم مذهب أهل السنة قال : « وقال في كتاب التمهيد كلاما أكثر من هذا ؛ لكن ليست النسخة حاضرة عندي » (٣) .

٤ – اعتماده الخط – إذ عرف صاحبه – يقول : « ورأيت بخط القاضي أبي يعلى – رحمه الله – على ظهر كتاب « العدة » بخطه قال : « نقلت من آخره كتاب الرسالة للبخاري في أن القراءة غير المقروء ... » (٤) .

د – رجوعه إلى أكثر من نسخة للكتاب الواحد :

١ – فحينما يرجع إلى سنن الترمذي ، يذكر اختلاف النسخ في حكم الترمذي على الأحاديث ، فمثلا في حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – قال :

---

(١) الفرقان بين الحق والباطل ، مجموع الفتاوى (٤٩/١٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (٧٦٥/١٠–٧٦٦) .

(٣) الفتوى الحموية ، مجموع الفتاوى (٩٩/٥) .

(٤) الكيلانية ، مجموع الفتاوى (٣٦٢/١٢) ، وفي نموذج آخر : لما نقل أبيات ابن عربي المشهورة وتكلم عليها قال : « ولهذا يقول : إن قلت عبد فذاك ميت » ، وفي موضع آخر رأيته بخطه « إن قلت عبد فذاك نفي » ، مجموع الفتاوى (١١٤/٢–١١٥) .

« لعن رسول الله – ﷺ – زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » قال : رواه أهل السنن الأربعة ، وقال الترمذي « حديث حسن » وفي بعض نسخه « صحيح » (١) .

٢ – ولما نقل من كتاب « الرد على الجهمية » للإمام أحمد بن حنبل رجع إلى أكثر من نسخة ، ففي أحد النصوص : « ولا يكون شيئين مختلفين ، وفي نسخة ولا يوصف بوصفين مختلفين ... » وفي نص آخر : تبين للناس أنهم لا يأتون بشيء – وفي نسخة : لا يثبتون شيئا – ... » (٢) .

٣ – وأيضا في كتاب « الحيدة » لعبد العزيز الكناني رجع إلى أكثر من نسخة (٣) ، وطرح رأيه في إحداها وناقشه (٤) .

٤ – ولما نقل عن الرازي نصا فيه « فقد التزمه أصحابنا » قال : وفي نسخة « بعض أصحابنا » (٥) .

هـ – تصويبه لما يرى من أخطاء بعد نقل النص كما هو :

١ – ومن أمثلة ذلك أن الإخنائيَّ احتج في رده على ابن تيمية بحديث موضوع صحفه ليحتج به ، ولفظه كما ذكره : « من صلى علي عند قبري سمعته ، ومن صلى علي نائيا سمعته » قال شيخ الإسلام : « هكذا في النسخة التي أحضرت إليَّ مكتوبة عن المعترض ، وقد صحح على قوله « سمعته » وهو غلط

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٩٤/١) ، والحديث رواه الترمذي في أبواب الصلاة ، باب ما جاء في كراهية أن يتخذ على القبر مسجدا ورقمه (٣٢٠) « (١٣٦/٢) – تحقيق : شاكر » وقد رجعت إلى طبعة عبد الوهاب عبد اللطيف (٢٠١/١) ورقمه (٣١٩) ، وإلى تحفة الأحوذي (٢٦٦/١) ، هندية ، وإلى عارضة الأحوذي (١١٧/٢) ، ومعارف السنن (٣٠٩/٣) وفي كلها أن الترمذي قال « حديث حسن » وابن تيمية إنما رجع إلى نسخة أخرى غير ما اعتمد عليه هؤلاء .

(٢) درء التعارض (١٧٦/٥–١٧٧) ، وانظر نموذجا آخر في نقله من هذا الكتاب في الجواب الصحيح (١٧٣/١) .

(٣) درء التعارض (٢٥١/٢، ٢٧٢، ٢٩٠) .

(٤) المصدر نفسه (٢٧٣/٢) .

(٥) نقض التأسيس المخطوط (١١٦/٢) .

فإن لفظ الحديث « من صلى علي عند قبري سمعته ، ومن صلى علي نائيا بلغته » هكذا ذكره الناس »[١] . ثم ذكر من رواه وكلام العلماء في إسناده ورجاله ، وما يغني عنه من الأحاديث الأخرى[٢] .

٢ – ولما نقل عن أبي محمد بن عبد المالكي من كتابه في أصول السنة والتوحيد ، نقل كلامه حول المعارف فذكر أنه قال : « فأول الكلام الواقع في الخلاف في المعارف فجمهور قول المعتزلة أن جميعها اضطرار ، قلت : كأنه بالعكس »[٣] ، وفي نص آخر قال أبو محمد بن عبد : « فعز ربنا أن يقوم بالعلل فيصير دليلا بعدما كان مدلولا » ، هكذا رأيته في الكتاب ، وإنما أراد : فيصير مدلولا بعدما كان دليلا »[٤] .

هذا منهج شيخ الإسلام ، جاء الكلام حوله طويلا ، لكثرة كتبه وتنوعها ، وطولها ، ولعل ما سبق يعين على إعطاء صورة واضحة لذلك .

✲ ✲ ✲

---

(١) الرد على الإخنائي (ص : ١٣١-١٣٤) ط السلفية ، وانظر : مختصره في مجموع الفتاوى (٢٤١/٢٧-٢٤٢) . والحديث ذكر شيخ الإسلام أن القاضي عياض نسبه إلى ابن أبي شيبة ، وقد اطلعت على المصنف في مظانه ومنها أحاديث فضل الصلاة على النبي – ﷺ – فلم أجده ، انظر : المصنف كتاب الفضائل (٥٠٤/١١) وما بعدها ، لكن ذكر حديثا فيه أن ملكا موكلا بمن صلى عليه أن يبلغ عنه ؛ نظره في (٥٠٧/١١) برقم (٨٤١) ، كما ذكر ابن تيمية أن البيهقي رواه وذلك في شعب الإيمان كما في كنز العمال (٤٩٢/١) برقم (٢١٦٥) . ثم وجدته في الشعب رقم ١٤٨١ (٢١٣/٤-٢١٤) – ط الدار السلفية الهند . وانظر تعليق المحقق عليه .

(٢) انظر : الرد على الإخنائي (ص : ١٣٢) وما بعدها .

(٣) درء التعارض (٥٠٤/٨) .

(٤) نفس المصدر (٥٠٧/٨) .



الفصل الثالث

أبو الحسن الأشعرى

أولا : عصره .

ثانيـــا : نسبه ومولده ووفاته .

ثالثـــا : ثناء العلماء عليه .

رابعـــا : شيوخه .

خامسا : تلاميذه .

سادسا : مؤلفاته .

سابعـــا : أطوار حياته العقدية :

أ – طور الأشعرى الأول (الاعتزال) .

ب – رجوعه عن الاعتزال وتاريخه وأسبابه .

جـ – مذهب الأشعرى بعد رجوعه : وهل كان طورا أو طورين .

ثامنـــا : عقيدته .



أولا : عصر الأشعرى :

عاش أبو الحسن الأشعري - رحمه الله - بين سنتي ٢٦٠ هـ - ٣٢٤ هـ - على الأرجح ، وعاش في البصرة وبغداد في العراق ، بلد الخلافة العباسية التي بقيت داخلة تحت حكمهم إلى أن سقطت الخلافة سنة ٦٥٦ هـ .

ويتميز عصر الأشعري بما يلي :

١ - ضعف الدولة العباسية ، بسبب ضعف الخلفاء ، الذي بدأ في عهد الخليفة أبي إسحاق محمد المعتصم بالله [خلافته : ٢١٨ - ٢٢٧ هـ] ، وذلك حين بدأ نفوذ الأتراك يزداد لما أكثر منهم ، حتى ضاقت فيهم بغداد فبنى لهم سامراء (١) التي أصبحت عاصمة الخلافة وكان ذلك سنة ٢٢١ هـ ، وقد استمرت عاصمة للخلفاء من بعده إلى أن تحول عنها الخليفة أبو العباس أحمد المعتمد على الله [خلافته : ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ] ، حيث استقرت دار الخلافة مرة أخري في بغداد (٢) .

وهؤلاء الأتراك - الذين أصبحوا جند الخلافة - أصبح نفوذهم كبيرا حتى أنهم صاروا ينصبون من يشاءون ويعزلون أو يقتلون من يشاءون من الخلفاء ، وكان الوزير هو الذي يتولى تدبير شؤون البلاد ، وليس للخليفة إلا الاسم .

وقد عاصر أبو الحسن الأشعري ستة من الخلفاء أولهم المعتمد على الله وآخرهم أبو العباس أحمد الراضي بالله [خلافته : ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ] .

٢ - كما يتميز عصره ببعض القلاقل والأحداث من أهمها ثورة الزنج التي

---

(١) سامراء أو سر من رأى ، بلدة على نهر دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخا ، بين بغداد وتكريت ، وقد خربت ولم يبق فيها إلا سرداب الشيعة حيث ينتظر الشيعة خروج مهديهم منه ، انظر : الأنساب للسمعاني (١٤/٧) ، ومعجم البلدان (١٧٣/٣) ، والروض المعطار (ص : ٣٠٠) .

(٢) انظر : العالم الإسلامي في العصر العباسي (ص : ٣٢٣) ومابعدها ، والكامل (٤٥٥/٧) .

استمرت قرابة خمسة عشر عاما من سنة ٢٥٥ هـ إلي سنة ٢٧٠ هـ [١] ، ومنها ابتداء أمر القرامطة سنة ٢٧٨ هـ الذين أشاعوا الفتن وحربوا الخلافة العباسية واستمرت تحركاتهم ردحا من الزمن [٢] ، وإقامة الدولة العبيدية الفاطمية في المغرب سنة ٢٩٦ هـ [٣] ، ثم في مصر بعد ذلك ، واستقلال الطولونيين بحكم مصر وسوريا من سنة ٢٦٤ هـ إلي سنة ٢٩٢ هـ بعد أن كانوا ولاة على مصر من قبل العباسيين [٤] وبلغ من قوة هذه الدولة وضعف الخلفاء أن الخليفة المعتمد عزم على الذهاب إلى ابن طولون في مصر لاستبداد أخيه الموفق ، ثم عمل أخوه على إرجاعه ، وكان ذلك سنة ٢٦٩ هـ قبل وفاة أحمد بن طولون بعام [٥] .

٣ – أما من الناحية العلمية ، فتميز هذا العصر بوجود عدد من العلماء في الحديث والفقه والعقيدة ومن أبرز أعلام هذا العصر :

– داود بن علي الظاهري ، الذي توفي سنة ٢٧٠ هـ [٦] .

– والربيع بن سليمان ، صاحب الشافعي ، توفي سنة ٢٧٠ هـ [٧] .

– وابن ماجه ، صاحب السنن ، توفي سنة ٢٧٣ هـ [٨] .

---

(١) انظر : الكامل (٢٠٥/٧،٢٣٥،٢٤١،٢٤٤،٤٠٥) ، والعبر (٣٨٧/١،٣٨٨) .

(٢) انظر : تاريخ الطبري (٢٣/١٠) ، وفضائح الباطنية (ص : ١٢) ، والمنتظم (١١٠/٥) ، وتثبيت دلائل النبوة : عبد الجبار الهمذاني (٣٧٦/٢) ، وكشف أسرار الباطنية (ص : ٢٠١) مطبوع في آخر التبصير بالدين ، والقرامطة : محمود شاكر (ص : ٥) وما بعدها .

(٣) انظر في نشأة الدولة العبيدية الفاطمية : عيون الأخبار للداعي الإسماعيلي إدريس القرشي ، السبع الخامس (ص : ٤٤) وما بعدها ، ورسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان الإسماعيلي (ص : ٥٤) وما بعدها ، واتعاظ الحنفاء (٥٥/١) وما بعدها ، وانظر : القوى السنية في المغرب (٩٨/١) وما بعدها .

(٤) انظر : حسن المحاضرة (٥٩٤/١) ، وتاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة (١٢٨/١) .

(٥) انظر : الكامل (٣٩٤/٧) ، والعبر (٣٨٦/١) .

(٦) العبر (٣٨٩/١) ، والكامل (٤١٢/٧) ، والبداية والنهاية (٤٧/١١) .

(٧) العبر (٣٩٠/١) ، والبداية والنهاية (٤٨/١١) .

(٨) الكامل (٤٢٥/٧) ، والبداية والنهاية (٥٢/١١) .

– وأبو بكر المروزي – أحد أجلاء أصحاب الإمام أحمد ، توفي سنة ٢٧٥ هـ [١] .

– وأبو داود السجستاني – صاحب السنن – ت ٢٧٥ هـ وهو من تلاميذ الإمام أحمد ، توفي بالبصرة [٢] .

– ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم عالم وخطيب أهل السنة . ت ٢٧٦ [٣] هـ في بغداد .

– الترمذي – صاحب السنن – ت ٢٧٩ هـ [٤] .

– عثمان بن سعيد الدارمي ، الذى كان « جذعا في أعين المبتدعة ، قيما بالسنة » [٥] . توفي سنة ٢٨٠ هـ .

– إبراهيم بن إسحاق الحربي ، أحد تلامذة الإمام أحمد ، وكان يشبه به في وقته ، توفي سنة ٢٨٥ هـ [٦] .

– عبد الله بن الإمام أحمد . ت ٢٩٠ هـ [٧] .

– محمد بن نصر المروزي ، المحدث الشافعي ، ت ٢٩٤ هـ [٨] .

– النسائي – صاحب السنن ، ت ٣٠٣ هـ [٩] .

– الطبري – صاحب التفسير ، ت ٣١٠ هـ [١٠] .

---

(١) العبر (٣٩٦/١) .
(٢) العبر (٣٩٦/١) ، والبداية والنهاية (٥٤/١١) .
(٣) الكامل (٤٣٨/٧) ، والعبر (٣٩٧/١) ، وجعله ابن كثير في وفيات ٢٧٠ هـ ، البداية (٤٨/١١) .
(٤) الكامل (٤٦٠/٧) ، والعبر (٤٠٢/١) ، والبداية (٦٦/١١) .
(٥) العبر (٤٠٣/١) ، والبداية (٦٩/١١) .
(٦) الكامل (٤٩٢/٧) ، والعبر (٤١٠/١) ، والبداية (٧٩/١١) .
(٧) الكامل (٥٣٩/٧) ، والعبر (٤١٨/١) ، والبداية (٩٦/١١) .
(٨) العبر (٤٢٦/١) ، والبداية (١٠٢/١١) .
(٩) الكامل (٩٦/٨) ، والعبر (٤٤٤/١) ، والبداية (١٢٣/١١) .
(١٠) الكامل (١٣٤/٨) ، والعبر (٤٦٠/١) ، والبداية (١٤٥/١١) .

– ابن خزيمة – إمام الأئمة محمد بن إسحاق – ت ٣١١ هـ [١] .

– الطحاوي – أحمد بن محمد بن سلامة – ت ٣٢١ هـ [٢] .

وغيرهم من العلماء ، وهم كثير ، لكن لم نشر إليهم اختصارا .

٤ – كما وجد عدد من أهل الكلام والاعتزال والتصوف ، وغيرهم ، كما وجدت بعض الأحداث ، فإضافة إلى القرامطة كان للخوارج بعض التحركات [٣] ، كما عزم الخليفة المعتضد سنة ٢٨٤ هـ على لعن معاوية – رضي الله عنه – على المنابر [٤] ، كما كان عام ٣٢١ هـ ابتداء ظهور دولة بني بويه الشيعية [٥] .

ومن أشهر أهل الكلام والتصوف والرفض :

– أحمد بن مخالد ، مولى المعتصم ، وكان من دعاة المعتزلة ، ت ٢٦٩ هـ [٦] .

– وابن الراوندي الملحد ، كان معتزليا ثم خرج عليهم ، ت ٣٠٠ هـ [٧] .

– والجبائي ، أبو علي محمد بن عبد الوهاب ، ت ٣٠٣ هـ [٨] .

– والكعبي ، عبد الله بن أحمد البلخي شيخ المعتزلة ، ت ٣١٩ هـ [٩] .

– والجبائي ، أبو هاشم ، ت ٣٢١ هـ [١٠] .

---

(١) العبر (٤٦٢/١) ، وسير أعلام النبلاء (٣٦٥/١٤) ، وطبقات السبكي (١٠٩/٣) .
(٢) العبر (١١/٢) ، والبداية (١٧٤/١١) .
(٣) انظر : الكامل (٤٢٣/٧،٤٣٧،٤٥٣،٤٦٢،٤٧٠،٤٧٦) ، أحداث سنة ٢٧٣ هـ – ٢٨٣ هـ .
(٤) انظر : الكامل (٤٨٥/٧) ، والعبر (٤٠٨/١) ، والبداية (٧٦/١١) .
(٥) الكامل (٢٦٤/٨) .
(٦) الكامل (٣٩٨/٧) .
(٧) العبر (٤٣٩/١) .
(٨) الكامل (٩٦/٨) .
(٩) العبر (٤/٢) .
(١٠) الكامل (٢٧٣/٨-٢٧٤) ، والعبر (١٢/٢) .

- سهل بن عبد الله التستري ، ت ٢٨٣ هـ [١] .

- والخزاز أحمد بن عيسى ، أول من تكلم في الفناء والبقاء ، ت ٢٨٦ هـ [٢] .

- الجنيد ، أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري ، سيد الطائفة الصوفية ، ت ٢٩٨ هـ [٣] .

- الحلاج ، قتل سنة ٣٠٩ هـ [٤] .

- الشلمغاني ، قتل سنة ٣٢٢ هـ [٥] .

- الكليني الرافضي : محمد بن يعقوب صاحب الكافي ، توفي سنة ٣٢٩ هـ [٦] .

كما كان من العلماء الذين كانت لهم ميول إلى أقوال أهل الكلام :

- الصبغي : أحمد بن إسحاق ، ولد سنة ٢٥٨ هـ ، وتوفي سنة ٣٤٢ هـ وكانت له قصة مع ابن خزيمة حول الكلام ومذهب ابن كلاب [٧] .

- وأبو علي الثقفي : محمد بن عبد الوهاب ، من ولد الحجاج ، ولد سنة ٢٤٤ هـ وتوفي سنة ٣٢٨ هـ ، قال عنه الصبغي : « ما عرفنا الجدل والنظر حتى ورد أبو علي الثقفي العراق » [٨] ، وكان ممن خالف ابن خزيمة .

---

(١) العبر (٤٠٧/١) .
(٢) العبر (٤١٢/١) .
(٣) المصدر السابق (٤٣٥/١) .
(٤) الكامل (١٢٦/٨-١٢٩) ، والعبر (٤٥٤/١) .
(٥) اسمه محمد بن علي المعروف بابن أبي القراقر ، وشلمغان قرية بنواحي واسط ، انظر : الكامل (٢٩٠/٨-٢٩٤) ، والعبر (١٤/٢) .
(٦) سير أعلام النبلاء (٢٨٠/١٥) .
(٧) ستأتي ترجمة الصبغي وابن كلاب في الفصل الرابع .
(٨) سير أعلام النبلاء (٢٨٢/١٥) وستأتي ترجمته في الفصل الرابع .

– الماتريدي : محمد بن محمد بن محمود ، أبو منصور ، إمام الماتريدية ، توفي سنة ٣٣٣ هـ [١] .

٥ – كما كان للحنابلة أحيانا نفوذ في بغداد ، وكانت تقع بينهم وبين غيرهم بعض الفتن [٢] ، وفي سنة ٣٢٣ هـ كان لهم نفوذ عظيم في عهد عالمهم البربهاري – أبو محمد الحسن بن علي بن خلف الذي توفي سنة ٣٢٨ هـ [٣] – ثم خرج توقيع الخليفة الراضي ضدهم بتهمة التشبيه حتى اختفى واستتر شيخهم وتوفى وهو مستتر [٤] .

هذا عصر الأشعري الذي عاش فيه ، وهو يدل على قوة أهل السنة بأعلامهم الكبار ، الذي كان لهم نفوذ كبير وصل إلى أن يصدر الأمر من المعتضد إلى الوراقين ببغداد – سنة ٢٧٩ هـ – أن يحلفوا أن لا يبيعوا كتب الكلام والفلسفة ، وأن لا يمكن أحد من القصاص والطرقية والمنجمين ومن أشبههم من الجلوس في المساجد ولا في الطرقات [٥] .

* * *

---

(١) ستأتي ترجمته في الفصل الرابع .

(٢) انظر : الكامل (٢١٣/٨) حوادث عام ٣١٧ هـ .

(٣) ستاتي ترجمته ومصادرها (ص : ٣٨٤) ، وانظر : حول نفوذ الحنابلة الكامل (٣٠٧/٨) ، والعبر (١٨/٢) .

(٤) انظر : الكامل (٣٠٨/٨–٣٠٩) .

(٥) انظر : الكامل (٤٥٣/٧) ، والعبر (٤٠٠/١) ، والبداية والنهاية (٦٤/١١) .

ثانيا : نسبه ومولده ووفاته :

هو الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر - إسحاق - بن سالم ابن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري - صاحب رسول الله ﷺ - فأبو الحسن الأشعري ينتهي نسبه إلى هذا الصحابي الجليل ، واسمه عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري اليماني [(١)] .

اختلف في تاريخ ولادته فقيل سنة ٢٦٠ هـ ، وقيل سنة ٢٦٦ هـ [(٢)] ، وقيل سنة ٢٧٠ هـ [(٣)] ، والأول هو الأرجح الذي عليه أكثر مترجميه ، كما أنه يتناسب مع ماذكر [(٤)] في حياته من تحوله عن الاعتزال وهو في الأربعين ، وهو الذي رجحه الخطيب البغدادي وابن عساكر .

---

(١) انظر في ترجمة الأشعري : تاريخ بغداذ (٣٤٦/١١) وتبيين كذب المفتري ، والفهرست (ص : ٢٣١) - ط طهران - ، والمنتظم لابن الجوزي (٣٣٢/٦) ، والكامل في التاريخ (٣٩٢/٨) ، والأنساب للسمعاني (٢٧٣/١) ، واللباب (٦٤/١) ، وتكملة تاريخ الطبري للهمذاني (ص : ٣٣٤) ت - أبو الفضل إبراهيم - و(ص : ١٣٠) من الطبعة الكاثوليكية . وترتيب المدارك (٢٤/٥) - الطبعة المغربية - ، ووفيات الأعيان (٢٨٤/٣) ، والعبر (٢٣/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٨٥/١٥) ، والبداية والنهاية (١٨٧/١١، ٢٠٤، ٢٠٦) ، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٨١/١) ، وللسبكي (٣٤٧/٣) ، وللأسنوي (٧٢/١) ، والمختصر لأبي الفداء (٨٩/٢) ، وتتمة المختصر لابن الوردي (٤٠٩/١) ، والديباج المذهب (٩٤/٢) ، والجواهر المضية (٥٤٤/٢ ، ٣٣/٤) ، والخطط للمقريزي (٣٥٨/٢) - ط - بولاق -، وشذرات الذهب (٣٠٣/٢) ، والنجوم الزاهرة (٢٥٩/٣) ، وطبقات المفسرين للداودي (٣٩٠/١) ، وشجرة النور الزكية (٧٩/١) ، وجلاء العينين (ص : ٢٤٧) - ط المدني - ، ومفتاح السعادة (١٥٢/٢) ، ودائرة المعارف الإسلامية (٢١٨/٢) ، وبروكلمان (٣٨/٤) ، وسزكين (م١ ج٤ ص : ٣٥) ، ومعجم أعلام الفكر الإنساني (٥٨٧/١) ، والأشعري حمودة غرابة ، ومذاهب الإسلاميين : بدوي (٤٨٧/١) ، ونشأة الأشعرية وتطورها (ص : ١٦٥) ، وفي علم الكلام أحمد صبحي (جـ ٢) عن الأشاعرة (ص : ٣٥) ، ومقدمة تحقيق الإبانة لفوقية حسين محمود (ص : ٩) وما بعدها ، والأعلام (٢٦٣/٤) ، ومعجم المؤلفين (٣٥/٧) وغيرها .

(٢) انظر : الخطط (٣٥٩/٢) .

(٣) انظر : السير للذهبي (٨٥/١٥) ذكر هذا القول والقول الأول ، وابن خلكان (٢٨٤/٣) .

(٤) انظر : تاريخ بغداد (٣٤٧/١١) ، والتبيين (ص : ١٤٦) .

فأما أبوه إسماعيل فكان سنيا جماعيا حديثيا ، ويدل على ذلك أنه أوصى عند وفاته إلى زكريا بن يحيى الساجي [١] ، وفيه دلالة على أن أباه توفي وابنه أبو الحسن صغير ، ولذلك عاش في كنف زوج أمه الجبائي .

وكان مولد أبي الحسن في البصرة ولذلك يقال له البصري ، وكانت أسرته من ولد الصحابي أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قد سكنوا هذه المدينة .

أما وفاته ، فقد قيل : إنه توفي سنة ٣٢٠ هـ ، وقيل : ٣٣٠ هـ وهو أرجحها ، وقد رجحه ابن عساكر [٢] .

ثالثا : ثناء العلماء عليه :

أثنى عليه العلماء – وخاصة علماء الأشاعرة – وتركز ثناؤهم على ما كان له من نسب ، وماقام به من الرد على المعتزلة والملحدة وغيرهم ، فيقول الخطيب البغدادي : « أبو الحسن الأشعري المتكلم صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج ، وسائر أصناف المبتدعة » [٣] ، ويروى عن أبي بكر بن الصيرفي [٤] أنه قال : « كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله تعالى الأشعري فجحرهم في أقماع السمسم » [٥] .

ويقول القاضي عياض عند ترجمته : « وصنف لأهل السنة التصانيف ،

---

(١) انظر : التبيين (ص : ٣٥) .

(٢) انظر : التبيين (ص : ١٤٦ – ١٤٧) ، ووفيات الأعيان (٢٨٥/٣) .

(٣) تاريخ بغداد (٣٤٦/١١–٣٤٧) .

(٤) هو : محمد بن عبد الله ، أبو بكر الصيرفي ، الإمام الأصولي ، توفي سنة ٣٣٠ هـ ، كانت له مناظرة مع أبي الحسن الأشعري حول وجوب شكر النعم ، طبقات السبكي (١٨٦/٣) .

(٥) تاريخ بغداد (٣٤٧/١١) ، وتبيين كذب المفتري (ص : ٩٤) وقال : « إسناد هذه الحكاية مضيء كالشمس ، ورواتها لا يخالط عدالتهم شك في النفس » ، والأنساب (٢٧٤/١) ، وطبقات السبكي (٣٤٩/٣) ، وعزا الزركشي في المعتبر في تخريج أحاديث المنهاج والمختصر (ص : ٢٦٨) هذه العبارة إلى أبي بكر بن العربي ، ولعله وهم ، وقد نبه على ذلك في الحاشية محقق المعتبر .

وأقام الحجج على إثبات السنة وما نفاه أهل البدع من صفات الله تعالى ورؤيته وقدم كلامه وقدرته ، وأمور السمع الواردة من الصراط ، والميزان ، والشفاعة ، والحوض وفتنة القبر التي نفت المعتزلة ، وغير ذلك من مذاهب أهل السنة والحديث ، فأقام الحجج الواضحة عليها من الكتاب والسنة والدلائل الواضحة العقلية ، ودفع شبه المبتدعة ومن بعدهم من الملحدة والرافضة ، وصنف في ذلك التصانيف المبسوطة التي نفع الله بها الأمة » [(١)] .

ويقول الذهبي : « ولأبي الحسن ذكاء مفرط ، وتبحر في العلم ، وله أشياء حسنة ، وتصانيف جمة تقضي له بسعة العلم » [(٢)] ويقول : « رأيت لأبي الحسن أربعة تواليف في الأصول يذكر فيها قواعد مذهب السلف في الصفات وقال فيها : تمر كما جاءت ، ثم قال : وبذلك أقول وبه أدين ، ولا تؤول » [(٣)] .

أما ابن عساكر في الكتاب الذي أفرده في ترجمته والدفاع عنه ، فقد مدحه كثيرا ، وجعله من المجددين ، وذكر الروايات الواردة في مدح قومه وأسرته . وكذلك السبكي في طبقات الشافعية – ذلك الكتاب الذي يصح أن يسمي « طبقات الأشاعرة » – فقد بالغ في مدح شيوخ الأشاعرة ونقل أقوالهم وعقائدهم [(٤)] ، ولذلك فمن المتوقع أن يمدح الأشعري عندما يصل إلي ترجمته ، وكان مما قال فيه : « شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالي ، الشيخ أبو الحسن الأشعري البصري شيخ طريقة أهل السنة والجماعة ، وإمام المتكلمين ، وناصر سنة سيد المرسلين والذاب عن الدين ، والساعي في حفظ عقائد المسلمين ، سعيا يبقى أثره إلي يوم يقوم الناس لرب العالمين ، إمام حبر ، وتقي برّ ، حمى جناب الشرع

---

(١) ترتيب المدارك (٥/٢٤) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٥/٨٧) .

(٣) المصدر السابق (١٥/٨٦) .

(٤) يتهم السبكي الذهبي أنه يعلي من شأن الحنابلة ويحط من شأن الأشاعرة ، وليس هذا موضع مناقشة هذه التهمة ، وقد ناقشها بشار عواد في مقدمته لسير أعلام النبلاء (ص : ١٢٧–١٣٥) ، ولكن نقول : أن السبكي وقع في تراجم الأشاعرة في طبقاته في نفس الشيء الذي يتهم به الذهبي .

من الحديث المفترى ، وقام في نصرة ملة الإسلام فنصرها نصرا مؤزرا ... » [(١)] .

وغيرهم من العلماء الذين مدحوه وأثنوا على ماقام به من نَصر السنة والرد على المبتدعة من المعتزلة وغيرهم ، لكنه لم يسلم من القدح والذم ، فقد ذمه أبو علي الأهوازي [(٢)] وألف كتابا في مثالبه [(٣)] ، كما شنع عليه ابن حزم [(٤)] ، وابن الجوزي والمقبلي [(٥)] .

رابعا : شيوخه :

لم يكن الأشعري مشهورا بالرواية عن أهل الحديث ، سوى بعض الروايات التي رواها في تفسيره عن بعض شيوخه ، أما مذهبه الفقهي فقد تنازع الانتساب إليه كل من الشافعية والمالكية والحنفية ، كما هو واضح في قائمة الكتب التي ترجمت له ، وكما صرح بذلك بعض العلماء [(٦)] ، والأرجح أنه كان شافعي المذهب ، وهو الذي عليه الأكثر .

---

(١) طبقات السبكي (٣٤٧/٣) .

(٢) هو : الحسن بن علي بن إبراهيم ، أبو علي الأهوازي مقرئ الشام في عصره ، ولد سنة : ٣٦٢ هـ ، صنف كتابا في الصفات أتى فيه بموضوعات ، اتهم بوضعها الأهوازي نفسه منها حديث : رأيت ربي بعرفات على جمل أحمر عليه إزار ، وغيره ، فصل القول فيه الذهبي في ميزان الاعتدال (٥١٢/١-٥١٣) . وقال : « لو حابيت أحدا لحابيت أبا علي لمكان علو روايتي في القراءات عنه » ، توفي سنة ٤٤٦ هـ ، وانظر : معرفة القراء الكبار (٤٠٢/١) ، وغاية النهاية في طبقات القراء (٢٢٠/١) .

(٣) رد عليه ابن عساكر في تبيين كذب المفتري .

(٤) انظر : ترتيب المدارك (٢٦/٥) .

(٥) ابن الجوزي في المنتظم (٣٣٢/٦) ، والمقبلي في العلم الشامخ (ص : ٢٩٠-٣٦٣) وغيرها . ط دار البيان .

(٦) من الذين قالوا إنه مالكي المذهب القاضي عياض في ترتيب المدارك (٢٤/٥) ، وابن فرحون في الديباج (٦٤/٢) .

ومن الذين قالوا إنه حنفي المذهب : القرشي في الجواهر المضية (٥٤٥/٢) .

وأهم شيوخـــه :

١ - أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائيُّ ، شيخه في الاعتزال قبل رجوعه .

٢ - زكريا بن يحيى الساجي ، محدث البصرة وشيخها ومفتيها ، المتوفي سنة ٣٠٧ هـ ، يقول الذهبي : « أخذ عنه أبو الحسن الأشعري مقالة السلف في الصفات ، واعتمد عليها أبو الحسن في عدة تآليف » (١) وسبقت الإشارة إلى أن والده لما توفي أوصى إلى الساجي ، وممن ذكر تتلمذه على الساجى ابن عساكر (٢) والسبكي (٣) والبغدادي (٤) .

٣ - أبو إسحاق المروزي : إبراهيم بن أحمد المروزي ، صاحب أبي العباس ابن سريج وأكبر تلامذته ، انتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي ، توفي سنة ٣٤٠ هـ (٥) ، وممن ذكر تتلمذ الأشعري عليه الخطيب البغدادي وابن خلكان (٦) ، فقد ذكروا أنه كان يجلس إلى حلقته في بغداد .

٤ - أبو العباس بن سريج : أحمد بن عمر بن سريج القاضي البغدادي ولد سنة ٢٤٠ هـ ، توفي سنة ٣٠٣ هـ (٧) ، قال ابن كثير عن الأشعري : « وتفقه بابن سريج » (٨) .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩٨/١٤) وانظر ترجمته أيضا في طبقات السبكي (٢٩٩/٣) ، وتذكرة الحفاظ (٧٠٩/٢) .

(٢) انظر : التبيين (ص : ٤٠٠) .

(٣) طبقات السبكي (٢٩٩/٣،٣٥٥) .

(٤) الملل والنحل للبغدادي (ص : ١٢٨-١٢٩) .

(٥) ترجمته في تاريخ بغداد (١١/٦) ، وسير أعلام النبلاء (٤٢٩/١٥) ، وشذرات الذهب (٣٥٥/٢) .

(٦) انظر : تاريخ بغداد (٣٤٧/١١) ، ووفيات الأعيان (٢٨٤/٣) .

(٧) انظر : سير أعلام النبلاء (٢٠١/١٤) ، وطبقات السبكي (٢١/٣) .

(٨) البداية والنهاية (١٨٧/١١) .

٥ – أبو بكر القفال الشاشي : محمد بن علي بن إسماعيل القفال الكبير ، توفي سنة ٣٦٥ هـ [١] ، ذكر السبكي : « أن القفال أخذ علم الكلام عن الأشعري ، وأن الأشعرى كان يقرأ عليه الفقه ، كما كان هو يقرأ عليه الكلام » [٢] ، وذكر ابن عساكر عن القفال أنه « كان في أول أمره مائلا عن الاعتدال قائلا بمذاهب أهل الاعتزال [٣] » وذكر السبكي أنه رجع إلى مذهب الأشعري [٤] .

٦ – أبو خليفة الجمحي : الفضل بن الحباب ، واسم الحباب : عمرو ابن محمد بن شعيب ، ولد أبو خليفة سنة ٢٠٦ هـ ، وتوفي ٣٠٥ هـ ، قال عنه الذهبي : « وكان ثقة ، صادقا مأمونا أديبا ، فصيحا مفوها ، رحل إليه من الآفاق وعاش مئة عام سوى أشهر » [٥] . وممن ذكر تتلمذ الأشعري عليه ابن عساكر والذهبي والسبكي [٦] .

٧ – سهل بن نوح .

٨ – عبد الرحمن بن خلف الضبي .

٩ – محمد بن يعقوب المقبري ، أو المقري .

ذكر تتلمذ الأشعري على هؤلاء الثلاثة ابن عساكر والسبكي [٧] .

---

(١) انظر : تبيين كذب المفتري (ص : ١٨٢) ، وطبقات السبكي (٢٠٠/٣) ، وسير أعلام النبلاء (٢٨٣/١٦) .

(٢) طبقات السبكي (٢٠٢/٣) .

(٣) التبيين (ص : ١٨٣) .

(٤) الطبقات (٢٠١/٣) ، وقد دافع عنه الذهبي فقال بعد ذكره ماقاله أبو سهل الصعلوكي عن تفسير القفال من أنه دنسه من جهة نصره للاعتزال ، قال الذهبي معلقا : « الكمال عزيز وإنما يمدح العالم بكثرة ماله من الفضائل ، فلا تدفع المحاسن لورطة ، ولعله رجع عنها ، وقد يغفر له باستفراغه الوسع في طلب الحق ، ولا قوة إلا بالله » السير (٢٨٥/١٦) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٨/١٤) ، وانظر أيضا في ترجمته البداية والنهاية : (١٢٨/١١) .

(٦) وذلك في التبيين (ص : ٤٠٠) ، وسير أعلام النبلاء (٨٦/١٥) ، وطبقات السبكي (٣٥٥/٣) .

(٧) التبيين (ص : ٤٠٠) ، والطبقات (٣٥٥/٣) ، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في =

خامسا : تلاميذه :

تتلمذ على الأشعري كثيرون ، ولا شك أن قصة رجوعه وماصاحبها كان سببا في انكباب كثير من التلاميذ عليه ، والظاهر أن هذه التلمذة إنما كانت – في الغالب – في مجال العقيدة وما آمن به الشيخ الأشعري بعد رجوعه عن الاعتزال .

وإذا كان تلاميذه كثيرين فإن أخصهم به كما يقول السبكي أربعة : ابن مجاهد ، وأبو الحسن الباهلي ، وبندار خادمه ، وأبو الحسن الطبري [١] .

ونذكر هؤلاء ، ثم نذكر بعض تلاميذه :

١ – ابن مجاهد : محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب الطائيّ البغدادي ، توفي سنة ٣٧٠ هـ ، تتلمذ عليه الباقلاني [٢] .

٢ – أبو الحسن الباهلي : توفي في حدود سنة ٣٧٠ هـ ، تتلمذ عليه أبو إسحاق الإسفراييني ، وابن فورك والباقلاني ، وكان يلقي عليهم دروسه من وراء حجاب بسبب أنهم يرون السوقة فلا يريد أن يروه بالعين التي رأوا فيها أولئك ، وكان زاهدا متصوفا [٣] .

٣ – أبو الحسين بندار بن الحسين الشيرازي الصوفي : خادم أبي الحسن الأشعري ، وكان من أصحاب الشبلي ، توفي سنة ٣٥٣ هـ [٤] .

٤ – أبو الحسن علي بن مهدي الطبري ، توفي في حدود سنة ٣٨٠ هـ [٥] .

= كتابه التسعينية (ص : ٢٠١) عن ابن الراوندي أنه يقال : إنه أحد شيوخ أبي الحسن الأشعري .

(١) طبقات السبكي (٣/٣٦٨–٣٦٩) .

(٢) تبيين كذب المفتري (ص : ١٧٧) ، وسير أعلام النبلاء (١٦/٣٠٥) ، والديباج المذهب (٢/٢١٠) .

(٣) التبيين (ص : ١٧٨) ، وسير أعلام النبلاء (١٦/٣٠٤) ، والوافي في الوفيات (١٢/٣١٢) .

(٤) التبيين (ص : ١٧٩) ، حلية الأولياء (١٠/٣٨٥) ، وطبقات الصوفية (ص : ٤٦٧) ، وسير أعلام النبلاء (١٦/١٠٨) ، وطبقات السبكي (٣/٢٢٤) .

(٥) التبيين (ص : ١٩٥) ، وطبقات السبكي (٣/٤٦٦) .

٥ - أبو بكر القفال الشاشي ، وهو من شيوخ الأشعري أيضا وتقدم .

٦ - ابن خفيف : أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي الصوفي ، توفي سنة ٣٧١ هـ ، كانت له رحلة إلى الأشعري وله معه حكايات [١] .

٧ - أبو الحسن عبد العزيز بن محمد الطبري المعروف بالدمل ، نشر مذهب الأشعري بالشام [٢] .

٨ - أبو سهل الصعلوكي ، محمد بن سليمان بن محمد ، ولد سنة ٢٧٦ هـ ، وتوفي سنة ٣٦٩ هـ [٣] .

٩ - أبو زيد المروزي : محمد بن أحمد بن عبد الله ، ت ٣٧١ هـ [٤] .

وغيرهم [٥] .

سادسا : مؤلفاتـــه :

لأبي الحسن الأشعري مؤلفات كثيرة ، قال ابن حزم إنها خمسة وخمسون

---

(١) التبيين (ص : ١٩٠) ، وحلية الأولياء (٣٨٦/١٠) ، وسير أعلام النبلاء (٣٤٢/١٦) ، وطبقات السبكي (١٤٩/٣) .

(٢) تبيين كذب المفتري (ص : ١٩٥) ، ونزهة الألباب في الألقاب لابن حجر ترجمة رقم (١٠٦٤) ، تحقيق عبد العزيز بن محمد السديري ، مطبوع على الآلة الكاتبة .

(٣) تبيين كذب المفتري (ص : ١٨٣) ، وسير أعلام النبلاء (٢٣٥/١٦) .

(٤) التبيين (ص : ١٨٨) ، وسير أعلام النبلاء (٣١٣/١٦) .

(٥) الذين ذكروا هم الذين ثبت انهم التقوا بالأشعري وتتلمذوا عليه ، أما من يسميهم ابن عساكر بالطبقة الأولى من أصحاب الأشعري فلم يثبت عنهم كلهم تتلمذهم عليه ، ولهذا قال : « فالطبقة الأولى هم أصحابه الذين أخذوا عنه ومن أدركه ممن قال بقوله أو تعلم منه » (التبيين ص : ١٧٧) ، وكذلك احتاط السبكي فقال : لما عدد جماعة من الآخذين عن الشيخ قال : « وربما كان في هؤلاء من لم يثبت عندنا انه جالس الشيخ ولكن كلهم عاصروه وتمذهبوا بمذهبه ... » الطبقات (٣٦٨/٣) ، ويتبين غلط بعض الباحثين الذين سرَدوا أسماء الطبقة الأولى الذين ذكرهم ابن عساكر على أنهم تلاميذه . (منهم صاحب رسالة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه في العقيدة (ص : ٣٧) .

مصنفا ، وقال غيره : إنها أكثر من ثمانين وثلاثمائة مصنف [١] .

ولا حاجة إلى سرد هذه المصنفات ، فقد سبق أن سردها غير واحد [٢] ، ولكن أشير إلى مؤلفاته التي وصلت إلينا ، ثم إلى كتاب ابن فورك « مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري » .

فمصنفاته التي وصلت إلينا حتى الآن :

١ - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين :

وهو من أهم كتب المقالات وأوثقها وأدقها في نسبة الأقوال إلى أصحابها ، ويلاحظ في هذا الكتاب :

أ - التكرار ، فكثيرا ما يكرر الأقوال ، وخاصة حين يتكلم عن الطوائف وأقوالها ، ثم يعيد الكلام عن بعض الموضوعات وأقوال الطوائف فيها .

ب - معرفة الأشعري بمذاهب أهل الكلام ، وخاصة المعتزلة ، ولذلك فصل أقوالهم ومذاهبهم ، وفروق أقوالهم الدقيقة .

جـ - ذكره بالتفصيل لأقوال شيخه في الاعتزال ، الجبائيِّ ، ويعتبر من أهم المصادر لأقوال الجبائيِّ - الذي لم يصل إلينا من مؤلفاته شيء - ، وهو يدل على مدى تأثير الجبائيِّ على الأشعري في المرحلة الأولي من حياته .

د - ذكره لأقوال السلف - الذين يسميهم أهل الحديث وأهل السنة - بإجمال ، لأنه لم يكن خبيرا بتفاصيل أقوالهم ، ولهذا نسب إليهم

---

(١) انظر : التبيين (ص : ٩٢، ١٣٦) وفيه (ص : ١٣٦) « مئتين وثلاثمائة » وهو خطأ والتصويب من النقض (١/ ٨٧) .

(٢) منهم ابن فورك وابن عساكر في التبيين (ص : ١٢٨) وما بعدها ، وبدوي في مذاهب الإسلاميين (١/ ٥٥) ، ومقدمة الإبانة تحقيق فوقيه محمود (ص : ٣٨) .

ما لم يقولوه ، فمثلا قال عنهم : إنهم يقولون عن الله إنه « ليس بجسم ... » [١] وليس مذهب السلف بهذا الإطلاق ، كما ذكر عنهم أنهم يقولون : « ان أحدا لا يستطيع أن يفعل شيئا قبل أن يفعله ... » [٢] وهذا أيضا ليس مذهب أهل السنة .

وأهم طبعات الكتاب طبعة ريتر ، وطبعة محمد محي الدين عبد الحميد التي أضاف إليها حواشي جيدة ، وإن كان قد اعتمد على طبعة ريتر ولم يشر إلى فروق النسخ .

٢ – اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع :

لم يشك أحد في نسبته إلى الأشعري ، وقد بين فيه كثيرا من القضايا الكلامية التي رد فيها على المعتزلة ، وشرح فيها مذهبه خاصة في مسائل : وجود الصانع ، والقرآن ، والإرادة ، والرؤية ، والقدر – والكسب – والاستطاعة ، ثم مسائل التعديل والتجوير والإيمان ، والوعد والوعيد والإمامة .

وسيأتي – إن شاء الله – تفصيل آخر عنه ، وقد طبع مرتين : بتحقيق مكارثي ، وحمودة غرابة .

٣ – رسالته إلى أهل الثغر :

وسماه ابن عساكر : « جواب مسائل كتب بها إلى أهل الثغر [٣] في تبيين ما سألوه عنه من مذهب أهل الحق [٤] ، وهذا الثغر العظيم المسمي باب الأبواب

---

(١) مذاهب الإسلاميين (ص : ٢١١) – ت – ريتر .

(٢) المصدر السابق (ص : ٢٩١) .

(٣) يسمي باب الأبواب ، وهو على ساحل بحر طبرستان المسمي بحر الخزر (قزوين) ويسمي باب الأبواب دربنداي دربند أو شروان ، ويقع في إقليم الران بين القوقاز وأذربيجان ، وكان هذا الثغر علي حدود الدولة الإسلامية . انظر: تفصيلات أخري في كتاب الأقاليم للإصطخري (ص : ٧٩) « مخطوطة مصورة » ، ومعجم البلدان (٣٠٣/١) ، وآثار العباد (ص : ٥٠٦) ، والروض المعطار (ص : ٧٧) .

(٤) تبيين كذب المفتري (ص : ١٣٦) ، وهذه الرسالة ثابتة للأشعري ، وقد نقل منها شيخ الإسلام ابن تيمية نصا طويلا في درء التعارض (١٨٦/٧) .

يسكن فيه أناس كثيرون مختلفوا اللغات ، وقد ذكر الإصطخري أنها نيف وسبعون لغة حتي أن الجار لا يعرف لغة جاره ، ومع ذلك فهو من ثغور الإسلام العظيمة ، فهو يحمي ظهور المسلمين وينذرهم إذا قدم العدو ، والذين سألوا الأشعري يظهر أنهم كانوا من العلماء ولهذا قال في مقدمة الرسالة : « أما بعد أيها الفقهاء والشيوخ من أهل الثغر ... » [١] .

أما موضوعها فيشتمل على مقدمة طويلة حول الاستدلال ومنهج الرسل فيه ، مع بيان أنهم لم يدعوا إلى دليل الاعراض الذي دعا إليه المعتزلة وأهل الكلام ، ويستغرق هذا مايقرب من نصف الرسالة ، ثم بعد ذلك عرض لما أجمع عليه السلف في مسائل العقيدة المختلفة ، الصفات ، والرؤية ، والقدر ، والنبوة ، والإيمان ، ومرتكب الكبيرة ، وعذاب القبر ، والصراط ، والشفاعة ، والصحابة . وغيرها .

والشيء الملفت في هذه الرسالة ما ورد في مقدمتها من قول الأشعري : « ووقفت أيدكم الله على ما ذكرتموه من إحمادكم جوابي علي المسائل التي كنتم أنفذتموها إليّ في العام الماضي وهو سنة سبع وستين ومئتين » [٢] ، هكذا في المخطوطة التي اعتمد عليها من طبع هذه الرسالة ، والأشعري ولد علي القول الراجح سنة ٢٦٠ هـ وهو أيضا أقدم ما أرخت به ولادته ؛ إذ الأقوال الأخري فيها أن ولادته بعد هذا إما في سنة ٢٦٦ هـ أو سنة ٢٧٠ هـ ، وعلي أقصي التقديرات يكون عمر الأشعري ثماني سنوات ، والرسالة إنما ألفها بعد رجوعه عن الاعتزال .

والحل الأقرب ما أشار إليه بعض الباحثين [٣] من أنه ربما يكون هناك سهو من الناسخ للمخطوطة وأن صوابه ٢٩٧ هـ ، فيكون تاريخ رسالته هذه إلى أهل الثغر سنة ٢٩٨ هـ ، وهذا التاريخ يعطي دلالة على زمن تحول الأشعري

---

(١) رسالة أهل الثغر (ص : ٣١) تحقيق الجليند .

(٢) نفس المصدر والصفحة ، وهو في النسخة الخطية - مصورة معهد المخطوطات - لوحة رقم (١) .

(٣) انظر : مذاهب الإسلاميين (١/٥٢٢-٥٢٣) ، ومقدمة الجليند للرسالة (ص : ١٢-١٣،٣١) .

عن الاعتزال وأنه كان قبل الثلاثمائة – ولو بقليل – وبه يظهر خطأ من جعل هذه الرسالة مما ألفه الأشعري بعد سنة ٣٢٠ هـ بدون دليل يذكره [(١)] .

وهذه الرسالة طبعت في بعض الدوريات في تركيا [(٢)] ، وأخيرا طبعت عام ١٤٠٧ هـ بتحقيق محمد السيد الجلیند ، كما أنها حققت فى الجامعة الإسلامية في المدينة وطبعت أيضا ، وهى بتحقيق عبد الله شاكر .

٤ – الإبانة عن أصول الديانة :

وهو من أهم كتب الأشعري ، وأكثرها إثارة للجدل ، لأنه يحوي جوانب من العقيدة تخالف ما عليه متأخرو الأشعرية ، خاصة في مسائل الصفات الخبرية والعلو والاستواء .

ونسبته إلى الأشعري مشهورة ، ففضلا عن النسخ الخطية التي تنسب هذا الكتاب إليه فإن جمهرة من جلة العلماء نسبوه إليه ، وفيهم من دافع عن الأشعرية – في المحن التي مروا بها – من خلال بيان صحة اعتقاد الأشعري الذي ينتسبون إليه ، وذلك بالنقل من هذا الكتاب مما يوافق مذهب أهل السنة ، ومن هؤلاء العلماء : البيهقي ، والصابوني ، وابن عساكر ، ونصر المقدسي ، وأبو بكر السمعاني [(٣)] ، وابن تيمية وابن القيم [(٤)] ، حتى الأهوازي الذي ألف في مثالب

---

(١) انظر : مقدمة تحقيق الإبانة (ص : ٩٠–٩١) ، ويلاحظ أن في عبارة ابن فورك بعد أن عدد مؤلفات الأشعري مايدل علي أن هذه الرسالة ألفها الأشعري قبل سنة ٣٢٠ هـ فإنه قال : « هذا هو أسامي كتبه التي ألفها إلي سنة عشرين وثلاثمائة سوي أماليه والجوابات المتفرقة عن المسائل الواردات من الجهات المختلفات » تبيين كذب المفترى (ص : ١٣٥) فهذا يعطي ظنا غالبا تقدم هذه الرسالة عن التاريخ المذكور .

(٢) نشرها قوام الدين في مجلة دار الفنون بإستانبول ، ثم نشرها في مجلة كلية الإلهيات سنة ١٩٢٨ م في (جـ ٧ ،٨) ، مذاهب الإسلاميين (٥٢١/١) ، ودرء التعارض (١٨٦/٧) ، حاشية المحقق ، وانظر : بروكلمان – تاريخ الأدب العربي (٤٠/٤) – من الطبعة العربية .

(٣) انظر : الاعتقاد للبيهقي (ص : ١٠٨–١٠٩) تحقيق أحمد عصام الكاتب ، وتبيين كذب المفتري (ص : ١٥٢ ، ص : ٣٨٩) ، ورسالة في الذب عن الأشعري فإنها كلها تثبت أن الإبانة للأشعري ، وذلك لإثبات العلماء له ، وانظر : ما يأتي عند الحديث عن أطوار الأشعري .

(٤) ابن تيمية في غالب كتبه ومنها الحموية ، ودرء التعارض ، ونقض التأسيس ، وابن القيم في اجتماع الجيوش (ص : ١٨٢) .

الأشعري ورد عليه ابن عساكر لم ينكر نسبة الإبانة إلي الأشعري ، بل قال : إن الحنابلة لم يقبلوا من الأشعري ما أظهره في الإبانة [١] ، وهذا دليل على أنه يقر بأنه له [٢] .

ومع ذلك لم يسلم هذا الكتاب من إعراض بعض الأشعرية المتقدمين عنه ، وصل إلى حد الإنكار ، مما أوقع الشك عند بعض المعاصرين حول نسبته إلي الأشعري [٣] .

ومن أمثلة الإنكار ما ذكره ابن درباس المتوفي سنة ٦٠٥ هـ في معرض حديثه عن إحدي نسخ الإبانة الموجودة عند بعض العلماء فإنه قال : « ولقد عرضها بعض أصحابنا على عظيم من عظماء الجهمية المنتمين افتراء إلى أبي الحسن الأشعري ببيت المقدس فأنكرها وجحدها ، وقال : ماسمعنا بها قط ولا هي من تصنيفه ، واجتهد آخراً في إعمال رويّته ليزيل الشبهة بفطنته فقال بعد تحريك لحيته : لعله ألفها لما كان حشويا فما دريت من أي أمريه أعجب ؟ أمن جهله بالكتاب مع شهرته وكثرة من ذكره في التصانيف من العلماء ، أو من جهله بحال شيخه الذي يفتري عليه بانتمائه إليه واشتهاره قبل توبته بالاعتزال بين الأمة عالمها وجاهلها » [٤] .

---

(١) انظر : التبيين (ص : ٣٨٩) .

(٢) يذكر ابن درباس في رسالته في الذب عن أبي الحسن الأشعري (ص : ١١٤) – ت الفقيهي – أن من العلماء الذين أثبتوا الإبانة للأشعري إمام القراء أبا علي الحسن بن علي ين إبراهيم الفارسي ، ثم ترجم المحقق في الحاشية له علي أنه الأهوازي ، ولكن في الإسناد مايثير الشك ، وذلك أن أبا الحسن بن نجية المولود سنة ٥٠٨ هـ وزوجته فاطمة بنت سعد الخير المولودة سنة ٥٢٢ هـ قالا في الإسناد « أنبأنا الإمام أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم المقري وذكر الإمام أبا الحسن الأشعري ... » ، والأهوازي توفي سنة ٤٤٦ هـ ، فكيف يرويان عنه بقولهما « أنبأنا » حتى على القول بأنها قد تستخدم – عند بعض العلماء – في الإجازة ؟ وقد بحثت طويلا في كتب التراجم عمن يسمى بهذا الاسم مما يناسب الإسناد فلم أجد سوى ماذكره المحقق مع مافي سند الرواية إليه من الإشكال ، والله أعلم .

(٣) من هؤلاء المستشرقان مكارثي وآلار ، انظر : مذاهب الإسلاميين – بدوي – (٥١٧/١–٥١٨) ، ومقدمة تحقيق الإبانة : فوقية محمود (ص : ٧٥–٧٩) .

(٤) رسالة في الذب عن أبي الحسن الأشعري (ص ١٣١) تحقيق الفقيهي .

ومن أسباب الشك أن ابن فورك لم يذكر الإبانة عند ذكره لمؤلفات الأشعري ، بل ولم ينقل منها حين جمع مقالات الأشعري ، أو مقالات ابن كلاب مع مقارنتها بأقوال الأشعري ، وهذا مثير للانتباه فعلا ، لأن الأشعرية يفتخرون بهذا الكتاب ويؤكدون نسبته إلى الأشعري ليبينوا عدم انحراف أمامهم وأنهم تبع له ، فكيف يجهل ابن فورك هذا الكتاب المهم ؟ . وإذا كان ابن فورك قد توفي سنة ٤٠٦ هـ فإن تلميذه الذى يروي عن شيخه ابن فورك في أسانيده – الإمام الحافظ أبا بكر البيهقي المولود سنة ٣٨٤ هـ – أثبت نسبة الإبانة للأشعري ونقل عنه في بعض كتبه – كما تقدم قريبا – والبيهقي – المحدث الفقيه – أجل من ابن فورك الذي غلب عليه علم الكلام (١) .

ولابن تيمية كلام مهم حول هذا الموضوع – نثبته هنا لعلاقته بكتاب الإبانة ونسبته إلى الأشعري ، فإنه قال بعد ذكره للعلماء الذين أثبتوه ونقلوا عنه – « فإن قيل : فابن فورك وأتباعه لم يذكروا هذا ؟ ، قيل له سببان :

أحدهما : أن هذا الكتاب ونحوه صنفه ببغداد في آخر عمره لما زاد استبصاره في السنة ، ولعله لم يفصح في بعض الكتب القديمة بما أفصح به فيه وفي أمثاله وإن كان لم ينف فيها ما ذكره هنا في الكتب المتأخرة ، ففرق بين عدم القول وبين القول بالعدم ... [ثم نقل ابن تيمية ماذكره ابن عساكر عن ابن فورك وماذكره من مؤلفات الأشعري وتعقب ابن عساكر له] ... .

السبب الثاني : أن ابن فورك وذويه كانوا يميلون إلي النفي في مسألة الاستواء ونحوها ، وقد ذكرنا فيما نقله هو من ألفاظ ابن كلاب – وهو من

---

(١) ومع ذلك فقد يتحرز ابن فورك في بعض الأحيان في الرواية والضبط ، حتى أنه عندما تكلم في مشكل الحديث وبيانه (ص : ٣٦–٣٧) ط المكتبة العصرية ، حول تأويل حديث « رأيت ربي في أحسن صورة » – وذكر القول بأنه منام – قال بعد ذلك « وقد تهور بعض المتكلمين في ذلك أيضا فغير اللفظ المسموع إلى مالم يضبط ولم ينقل تعسفا في التأويل فقال : إنما هو « ربي » بكسر الراء وهو اسم عبد كان لعثمان – رضي الله عنه – رآه ﷺ في النوم على تلك الصفات ، وهذا غلط ، لأن التأويل والتخريج إنما يكون لمسموع مضبوط منقول ، ولم يثبت سماع ذلك على هذا الوجه ... » . فهذا يدل على احترامه لنصوص السنة ، وإن كان قد وقع في كثير من التأويل الباطل .

المثبتين لذلك – كيف تصرف في كلامه تصرفا يشبه تصرفه في ألفاظ النصوص الواردة في إثبات ذلك كما فعله في كتابه تأويل شكل النصوص ، فكان هواه في النفي يمنعه من تتبع ماجاء في الإثبات من كلام أئمته وغيرهم ، وكذلك فيما نقله من كلام الأشعري كيف زاد فيه ونقص مع أن المنقول نحو ورقتين [١] ، فلعله قد عمل ذلك فيما نقله من كلام بن كلاب ، إذ لم نجد نحن نسخة الأصول التي نقل منها ، حتى نعلم كيف فعل فيها . وفيما نقله تحريف بيّن ، لكن مأخذه في ذلك مأخذ من ينسب فتاويه وعقائده إلى السنة والشريعة النبوية لظنه أن هذا هو الحق الذي لا تأتي بخلافه ، فكذلك هو يظن أن مازاده ونقصه يوجبه بعض أصول ابن كلاب والأشعري ، وإن كان فيما ظهر من كلامهما خلافه ، وهذا أصل معروف لكثير من أهل الكلام والفقه يسوغون أن ينسب إلي النبي – ﷺ – نسبة قولية توافق ما اعتقدوه من شريعته حتي يضعوا أحاديث توافق ذلك المذهب ولينسبونها إلي النبي ، لكن ابن فورك لم يكن من هؤلاء [٢] ، وإنما هو من الطبقة الثانية الذين ينسبون إلي الأئمة ما يعتقدون هم أنه الحق فهذا واقع في كثير من طائفته ، حتي أن في زماننا في بعض المجالس المعقودة قال كبير القضاة : إن مذهب الشافعي المنصوص عنه كيت وكيت ، وذكر القول الذي يعلم هو وكل عالم أن الشافعي لم يقله ، ونقل القاضيان الآخران عن أبي حنيفة ومالك مثل ذلك ، فلما روجع ذلك القاضي قيل له : هذا الذي نقلته عن الشافعي من أين هو ؟ ، أي أن الشافعي لم يقل هذا ، فقال : هذا قول العقلاء ، والشافعي عاقل لا يخالف العقلاء ، وقد رأيت في مصنفات طوائف من هؤلاء ينقلون عن أئمة الإسلام المذاهب التي لم ينقلها أحد عنهم لاعتقادهم أنها حق ، فهذا أصل ينبغي أن يعرف .

« ومن أسباب ذلك أيضا أن الأشعري ليس له كلام كثير منتشر في تقرير مسألة العرش والمباينة للمخلوقات ، كما كان لابن كلاب إمامه ، وذلك لأنه تصدى للمسائل التي كان المعتزلة تظهر الخلاف فيها كمسألة الكلام والرؤية وإنكار القدر والشفاعة في أهل الكبائر ونحو ذلك ، وأما العلو فلم يكونوا يظهرون

---

(١) يشير ابن تيمية إلي ماسبق من مناقشة (ص : ٥٤-٥٥) من الجزء الأول المخطوط .

(٢) انظر : الحاشية فى الصفحة السابقة .

الخلاف فيه إلا لخاصتهم لإنكار جمهور المسلمين لذلك ، وإنما كان سلف الأمة وأئمتها يعلمون ما يضمرون من ذلك بالاستدلال ، فالأشعري تصدي لرد ما اشتهر من بدعهم فكان اظهر خلافهم في القرآن والرؤية من شعار مذهبه التي لم يتنازع فيها أصحابه وإن كانوا قد يفسرون ذلك بما يقارب قول المعتزلة بخلاف مالم يكونوا يظهرون مخالفته فإنه كان أدخل في السنة وأعظم في الأمة وأثبت في الشرع والعقل مما أظهروا مخالفته ... »[1] .

ولعل هذا النص – الطويل – يعين على فهم تجاهل بعض الأشاعرة لهذا الكتاب الذي يعتبر من الكتب التي ترد على نفاة العلو والاستواء من الأشعرية المنتسبين إلى مؤلفه . وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام عن ابن فورك ليس ببعيد وسيأتي مثال عملي على ذلك عند الكلام على كتاب « مجرد مقالات الأشعري » .

والخلاصة : أن كتاب الإبانة ثابت للأشعري ، أما طبعاته فقد طبع عدة طبعات في الهند ومصر ولبنان كما طبعته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

وأهم طبعاته – التي اشتهرت مؤخرا – تلك الطبعة المحققة على أربع نسخ خطية مع دراسة مطولة عن الأشعري ومؤلفاته ومنهجه ، وقامت بها الدكتورة فوقية حسين محمود ، ونشرته دار الأنصار سنة ١٣٩٧ هـ ، ومع ذلك فهناك ملاحظات على هذه الطبعة لا يجوز السكوت عنها ، أهمها ملاحظتان :

الأولى : كثرة الأخطاء والتحريفات ، إما بسبب الطباعة ، أو بسبب الخطأ في قراءة بعض الكلمات أو الجمل ، وقد يوضع ماهو خطأ حتما في الأصل ، ثم تجد الصواب في الحاشية جاءت به إحدي النسخ الخطية ، ولأجل هذه الملاحظات أصبحت قراءة النص متعبة وتحتاج إلى أن تكون بين يديك بعض الطبعات الأخرى .

أما الملاحظة الأخرى : فتهون الأولى أمامها ، ألا وهي اعتماد إحدى النسخ الخطية التي انفردت بزيادات ليست موجودة في النسخ الأخري ، وقد أثبتت

---

(١) نقض أساس التقديس المخطوط (١/٨٥-٨٩) .

هذه الزيادات في النص الأصلي وأشير إليها في الحاشية ، وهذه النسخة حفلت بزيادات من نوع خاص – وهو ما يضفي ظلالا من الشك عليها – وقد أثار هذا انتباه المحققة فقالت في حديثها عن هذه النسخة في الدراسة : « وقد اعتبرتها النسخة الأم لأنها تخلو من التقديم والتأخير المخلين بالمعنى ، وليس بها خروم ذات قيمة ، بخلاف النسخ الأخرى ، ولأن ناسخها كان يضبط الألفاظ إلى حد كبير ، غير أنه يجب أن يلاحظ أن مابها من زيادات في حاجة إلى المراجعة الدقيقة ، لاستبعاد ماعلق به من عبارات مدسوسة ، فقد ظهر رغم أن هذه الزيادات تؤكد بصفة عامة اتجاه السلف تصريح يخالف هذا الاتجاه ، مثال ذلك ما ورد في صفحة (٨١) لتفسير الاستواء من أنه بالقهر والقدرة ، فهذا تصريح لابد وأنه بيد أحد قراء المخطوط الميالين إلى الاعتزال والذين هم في نفس الوقت على جهل بحقيقة الأمور ، ويؤكد هذا تعليقة بصفحة (٨٢) نصها [وهي في المطبوعة في الحاشية ص ١٢٠] : « قف على هذا الباب ، فإن المؤلف تسامح في إيراده هذه العبارات فإنها تدل على الجهات تصريحا وعلي الجسمية ضمنا » يدل الكلام هنا علي أن صاحبه يتجه إلى التنزيه المطلق الذي يقول به المعتزلة والذي ترتب عليه نفي الصفات ، على نحو ما بينا قبل ذلك ، خاصة وأن الالتزام باتجاه السلف في هذه الزيادات واضح لكل فاحص مدقق .

ويلاحظ أننا لم نقع على تاريخ نسخ هذا الأصل بسبب انتهاء الميكروفيلم مباشرة بعد نهاية النص ، كما أنه بدأ ببدايته ، وهي بخط معتاد ، وقد رمزت إليها بالحرف « س » [1] . هذا ما قالته المحققة عن هذه النسخة .

وهنا لابد من التعليق بما يلي :

١ – كيف تجعل هذه النسخة هي الأصل – عند التحقيق – مع أنها مجهولة التاريخ والناسخ ؟ وهل كون ناسخها يضبط الألفاظ مسوغا لذلك ؟ ثم هي مخرومة الآخر فعيبها مثل عيب النسخ الأخري ، ووجود الزيادات المدسوسة

---

(١) الإبانة : المقدمة (ص : ١٨٨) تحقيق فوقية حسين محمود .

تقتضي صرف النظر عنها لاجعلها أصلا ثم إدخال الزيادات في النص المحقق ، وعلى الأقل جعلها نسخة ثانوية .

٢ – القول بأن هذه الزيادات كتبت بيد أحد الميالين إلى الاعتزال لا دليل عليه ، بل الراجح أنه أحد متأخري الأشعرية النافين للعلو [الجهة] وللصفات الخبرية كالوجه واليدين بناء على انها مستلزمة للتجسيم .

٣ – حفلت هذه النسخة بزيادات لا تتمشي مع الإثبات الذي جاء به هذا الكتاب ، خاصة في مسألة الاستواء والعلو ، وإذا كانت زيادة « بالقهر والقدرة » في تفسير الاستواء واضحة في هذا ، ولذلك لم تثبتها المحققة فهناك عبارات أخري قريبة من هذه العبارة وقد انفردت بها هذه النسخة ومن ذلك :

أ – في ص ٢١ في فصل إبانة قول أهل الحق والسنة ورد في النسخ الثلاث ما يلي : « وأن الله مستو علي عرشه كما قال : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ . أما في نسخة « س » صاحبة الزيادات » فجاءت العبارة هكذا : « وأن الله تعالى استوى على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعني الذي أراده ، استواء منزها عن المماسة [في المطبوعة الممارسة] والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش ، وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون في قبضته ، وهو فوق العرش ، وفوق كل شيء إلى تخوم الثري ، فوقية لا تزيده قربا إلي العرش والسماء ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش ، كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلي العبد من حبل الوريد ، وهو علي كل شيء شهيد » .

فانظر إلي الفرق بينهما ، وهل هذه الزيادة متوافقة مع مذهب السلف كما تدعي المحققة ؟ هل قوله « استواء منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال » وقوله « فوقية لا تزيده قربا إلي العرش والسماء » هل هذا موافق لما يثبته السلف من صفة « العلو » ؟ والأشعري في هذه المسألة إنما قال بقول السلف خلافا لمتأخري الأشعرية .

ثم إن هذا النص المقحم منقول بحروفه من كتاب الأربعين للغزالي [١] .

ب – في ص ١٢٦ – حول إثبات صفة اليدين لله تعالى ورد ما يلي تعقيبا على أحد الأحاديث : « وغرس شجرة طوبى [في المطبوعة طولى] بيده ، (أي بيد قدرته سبحانه) » فهذه العبارة الشارحة انفردت بها نسخة « س » ، دون باقي النسخ ، وهو تأويل لصفة اليد بما يوافق قول متأخري الأشعرية وليس هو قول الأشعري ، بل رد عليه وناقشه فيما بعد ص ١٣٠ – ١٣٢ ، ولا شك أن هذه الزيادة مدسوسة .

جـ – هناك زيادات أخرى أو نقص انفردت به هذه النسخة وهي إن لم تكن ذات بال إلا أنها تدل على ما نحن بصدده ، فمثلا في ص ١٥٦ سطر ٣ ورد عبارة « وجب أن ينفي ذلك عن الله تعالى » بينما الصواب مافي النسخ الأخرى « وجب أن لا ينفي ذلك عن الله تعالى » ، وفي ص ١٩٣ سطر ١٠ – ١١ وردت زيادة « أعاذنا الله من ذلك » وقد انفردت بها نسخة « س » وهي عبارة زائدة مخلة بسياق الكلام إلا إذا وضعت في مكان آخر كأن تكون بعد قوله « وأجلهم » .

د – وهناك فروق أخرى – ملفتة للانتباه – لكن شاركتها نسخة أخرى – خاصة نسخة « د » – لكنها مخالفة للنسخ المطبوعة الأخرى [٢] .

هذا ما يتعلق بكتاب الإبانة ، نسبته إلى الأشعري ، ونسخه ، وقد طال الكلام حوله لأن له علاقة بما سيأتي من الكلام عن أطوار الأشعري وعقيدته ،

---

(١) انظر الأربعين في أصول الدين للغزالي (ص : ٧–٨) ط : دار الآفاق .

(٢) من الأمثلة على ذلك ماورد (ص : ١١٢) من الإبانة – ت فوقية – بعد إيراد حديث النزول من عبارة « نزولا يليق بذاته من غير حركة وانتقال تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا » فهذه العبارة ليست موجودة في نسختي ك – ز ، كما أنها ليست موجودة في الطبعة الهندية (ص : ٤٨) ، ولا المصرية (السلفية) (ص : ٣٨) ، ومثلها عبارة « في (ص : ١١٣) « استواء منزها عن الحلول والاتحاد » ليست موجودة إلا في نسخة س – د .

ولو اعتمدت الدراسة علي مافي هذه الطبعة بزياداتها لصار للدراسة مسار مختلف .

٥ - رسالة استحسان الخوض في علم الكلام :

وتسمي « رسالة في الرد على من ظن أن الاشتغال بالكلام بدعة » [١] ، ومضمونها الرد على من زعم أن الاشتغال بعلم الكلام والمصطلحات الحادثة بدعة لم تكن في زمن النبي - ﷺ - وأصحابه - رضي الله عنهم - .

وقد طبعت هذه الرسالة مرتين [٢] ، وقد شكك بعض الباحثين في نسبتها إلى الأشعري [٣] ، لكن الرسالة مروية بالإسناد ، ولها نسخة خطية ، كما أن هناك تشابها في بعض العبارات مع اللمع الثابت نسبته إلى الأشعري [٤] ، ولعلها هي المقصودة برسالة الحث على البحث التي ذكرها ابن عساكر [٥] ، ولا يمنع أن تكون من مؤلفات الأشعري الأولى .

٦ - رسالة في الإيمان - في ورقتين - ، حققها شبيتا [٦] .

٧ - العمد في الرؤية : وصلت قطعة صغيرة منه ذكرها ابن عساكر وفيها ذكر الأشعري أسماء مؤلفاته [٧] .

٨ - كتاب تفسير القرآن : رد فيه على شيخه الجبائي ، وعلى البلخي ،

---

(١) انظر : تاريخ التراث ، سزكين (م١ جـ٤ ص٣٨) .

(٢) طبعت في الهند - حيدرأباد - سنة ١٣٢٣ هـ ، ومرة ثانية سنة ١٣٤٤ هـ ، ثم طبعها على هذه الطبعة مكارثي مع كتاب اللمع سنة ١٩٥٢ م ، المطبعة الكاثونيكية بيروت .

(٣) منهم عبد الرحمن بدوي في مذاهب الإسلاميين (١/٥١٩-٥٢١) ومحققة الإبانة (ص : ٧٢-٧٤) من الدراسة ، وأحالت على كتاب لها تحت الطبع بعنوان « كتب منسوبة للأشعري » .

(٤) قارن مثلا بين اللمع ورسالة استحسان الخوض - في طبعة مكارثي التي جمعت بين الكتابين - (ص : ٩٠ - سطر ١٠) ومابعده من اللمع ، وأيضا (ص : ٩٢ سطر ١٥) ومابعده من الاستحسان بصفحة (٧ سطر ١٣) من اللمع .

(٥) التبيين (ص : ١٣٦) .

(٦) انظر : تاريخ التراث ، سزكين (م١ جـ ٤ ص٣٨) .

(٧) التبيين (ص : ١٢٩-١٣٤) .

وقد وصلت قطعة منه أثبتها ابن عساكر [١] ، وقد سماه أبو بكر بن العربي بالمختزن [٢] فقال : « وانتدب أبو الحسن إلى كتاب الله فشرحه في خمسمائة مجلد وسماه بالمختزن ، فمنه أخذ الناس كتبهم ومنه [في المطبوعة ومنهم] أخذ عبد الجبار الهمذاني كتابه في تفسير القرآن الذي سماه بالمحيط في مائة سفر قرأته في خزانة المدرسة النظامية بمدينة السلام [ثم ذكر قصة إحراق نسخة تفسير الأشعري ، ثم قال :] ففقدت بين أيدي الناس إلا أني رأيت الأستاذ الزاهد الإمام أبا بكر ابن فورك يحكي عنه ، فلا أدري وقع على بعضه أم أخذه من أفواه الرجال » [٣] .

* * *

هذه مؤلفات الأشعري التي وصلت إلينا ، وهي قليلة جدا بالنسبة لمؤلفاته الكثيرة التي عرفت أسماؤها ، وقد وصلت بعض أقوال الأشعري عن طريق مصادر أخرى نسبت بعض الأقوال إليه ومن أهمها كتب الأشاعرة أمثال : الجويني ، والبغدادي ، والشهرستاني ، والرازي ، إلا أن هناك كتابا لابن فورك حاول فيه أن يجرد مقالات أبي الحسن الأشعري معتمدا علي مجموعة كبيرة من كتبه أكثرها لم يصل إلينا ، ولأهمية هذا الكتاب بالنسبة لأقوال الأشعري نذكر نبذه عنه في هذا المكان :

---

(١) المصدر السابق (ص : ١٣٧-١٣٩) .

(٢) ذكر ابن عساكر في التبيين (ص : ١١٧) أن الأشعري ألف في القرآن كتابه الملقب بالمختزن ، وأنه بلغ فيه سورة الكهف ، لكن نقل في (ص : ١٣٣) عن الأشعري أنه قال في العمد : « وألفنا كتابا في ضروب من الكلام سميناه : المختزن ، ذكرنا فيه مسائل للمخالفين لم يسألونا عنها ولا سطروها في كتبهم ولم يتجهوا للسؤال وأجبنا عنها بما وفقنا الله تعالى له » ، فهل هما كتابان مختلفان اسمهما واحد ، أم أن الأشعري قال في تفسيره : إنه في ضروب من الكلام لغلبة هذه المسائل عليه ، ولذلك قال أبو بكر ابن العربي منه أخذ الناس كتبهم « لعل هذا أرجح » . والله أعلم .

(٣) العواصم من القواصم (ص : ٩٧-٩٨) - ت عمار طالبي - كما ذكره في قانون التأويل (ص : ٤٥٦) .

كتاب ابن فورك هذا اسمه « مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري »[١] ، وكان مخطوطا ثم طبع هذا العام ١٩٨٧ م بتحقيق دانيال جيماريه ، وقد اعتمد ابن فورك في كتابه على كتب الأشعري التالية : الإدراك ، الأصول الكبير ، الإيضاح ، التفسير ، الرد على البلخي في أدب الجدل ، الرؤية الكبير ، زيادات النوادر ، الصفات الكبير ، العمد ، في أدب الجدل ، في أصول الفقه ، في أفعال النبي ، في الإمامة ، اللمع ، المختزن ، المختصر في التوحيد والقدر ، المسائل المنثورة ، مسألة في الاجتهاد ، مسألة تعريف عجز المعتزلة عن جواب الجسمية ، مسألة العجز ، المعرفة ، المقالات ، الموجز ، نقض الاستطاعة على الجبائيّ ، النقض على ابن الراوندي في الصفات ، النقض على أصول الجبائيّ ، النقض على أوائل الأدلة للبلخي ، النقض على الجبائيّ والبلخي ، نقض اللطيف على الإسكافي ، النوادر[٢] .

فهذه ٣٢ كتابا من مؤلفات الأشعري اعتمد عليها ابن فورك ونقل عنها ، وكان من المفترض أن يكون هذا المجرد من أهم الكتب التي تدل على أقوال الأشعري خاصة في مؤلفاته المفقودة – وهي كثيرة – إلا أن منهج ابن فورك في كتابه هذا وطريقته في النقل لم تسلم من ملاحظة جوهرية تؤثر على قيمة الكتاب إلى حد كبير .

يقول ابن فورك في المقدمة : « أما بعد ، فقد وقفت على ما سألتم أسعدكم الله بطاعته من شدة حاجتكم إلى الوقوف على أصول مذاهب شيخنا أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري – رضي الله عنه – ، وما تبني عليه أدلته وحججه على المخالفين ، وأن أجمع لكم منها متفرقها في كتبه ما يوجد منها منصوصا له ،

---

(١) في المخطوطة التي فيها ذكر اسم مؤلف الكتاب والموجودة في مكتبة عارف حكمة ، كتب اسم المملي لهذا الكتاب « الشيخ الإمام أبي بكر محمد بن المبارك » وقد رجح المحقق بأدلة ذكرها أنه ابن فورك ، انظر : المقدمة (ص : ٣–٤) ، ويؤيد ذلك أن ابن فورك ذكر ذلك فقال : « وكان ذلك على أثر ماجمعت من متفرق مقالات شيخنا الأشعري » (درء التعارض ١٢١/٦) .

(٢) اعتمدت في هذا التعداد فهرس كتب الأشعري – المذكورة في المتن – للمجرد (ص : ٣٦١–٣٦٢) .

ومالا يوجد منصوصا له أجبنا فيه على حسب ما يليق بأصوله وقواعده ، وأعرفكم مع ذلك ما اختلف قوله فيه في كتبه ، وما قطع به منهما ، ومالم يقطع بأحدهما ، ورأينا أن أحدهما أولي بمذهبه وأليق بأصوله فنبهنا عليه » [١] ، ويوضح أكثر في الخاتمة فيقول : « وقد كنا شرطنا في أول الكتاب أنا نذكر ماوجدنا عنه فيه نصا منه عليه في كتاب له معروف وننسبه إلى ذلك الكتاب إذا لم يكن ذلك من المشهور الذي لا يحتاج إلي ذكره الحكاية عنه لشهرته وإن لم نجد عنه فيه نصا عليه ووجدنا أصوله تشهد بذلك وقواعده عليه تبني نسبناه إليه على هذا الوجه ، وما وجدنا له معنى ما حكيناه عنه أضفناه إليه على أنه معنى مذهبه ، وقلنا في جميع ذلك : إنه كان يقول كذا وكذا ، وتفصيل ذلك على الوجه الذي بينا ، وطريقنا في نسبة ذلك إليه من جهة القول ومن طريق أنه قال جارية على الرسم الذي كشفنا عنه » [٢] .

ومن هذين النصين يتبين منهجه في كتابه ، وكيف أنه أجاز لنفسه أن ينسب إليه مالم يقله ، ويقول – لأنه يري أنه جار على أصول مذهبه :– إنه كان يقول كذا وكذا ، فما الذي يميز نصوص الأشعري عن نصوص ابن فورك التي أدخلها ، وكيف ينسب الإنسان إلى الأشعري قولا من هذا الكتاب ومؤلفه نهج فيه هذا النهج ؟ لو أن ابن فورك نقل نصوص الأشعري من كتبه ثم أضاف أو علق ، وميز هذا من هذا لكانت للكتاب مكانة وأهمية لا تقدر .

وحتى لا يصبح الكلام نظريا ، وحتى يتبين مستوي التغيير الذي أحدثه ابن فورك في أقوال الأشعري ، نضرب لذلك بأمثلة مما نقله من كتبه الموجودة بين أيدينا :

أ – يقول ابن فورك في المجرد – في مسألة رؤية الله – : « وحكى في كتاب المقالات عن رقبة بن مصقلة وسليمان التيمي أنه قال : « رأيت الله تعالى في النوم فقال لي : أكرمت مثوي سليمان التيمي » [٣] .

---

(١) مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري (ص : ٩) .

(٢) مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري (ص : ٣٣٨-٣٣٩) .

(٣) المصدر السابق (ص . ٨٧) .

لكن عبارة الأشعري في المقالات هكذا : « وروي عن رقبة بن مصقلة أنه قال : رأيت رب العزة في النوم فقال : لأكرمن مثواه ، يعني سليمان التيمي ، صلى الفجر بطهر العشاء أربعين سنة » (١) . ومن يدقق يجد فروقا كثيرة .

ب – ذكر ابن فورك في كتابه هذا في مسألة القدرة المحدثة وهل تخلو عن العلم في اكتساب الفعل المحكم بها ، فذكر أن الأشعري اختلف جوابه ، وأنه ذكر في بعض كتبه أن ذلك سائغ ، ثم قال : « وهو ماذكره في كتاب اللمع » في قوله : « ولو وجدت قدرة الحياكة مع عدم الإحسان لها لوجدت مع قدرتها لا محالة » (٢) .

وعند الرجوع إلى اللمع نجد العبارة مختلفة ، ولتوضيح المعنى نذكر النص كاملا ونشير إلي العبارة التي نقلها ابن فورك ، يقول الأشعري في الكلام عن الاستطاعة : « فإن قالوا : إذا كان في عدم الإحسان للحياكة عدم الحياكة ، فلم لا يكون في وجود الإحسان لها وجودها ؟ قيل : إن الحياكة تعدم لعدم قدرتها لا لعدم إحسانها ، ولو عدمت الحياكة لعدم الإحسان لها لوجدت بوجود الإحسان لها . فلما لم يكن ذلك كذلك ، وكان الإحسان لها يجامعه العجز علم أنها إنما تعدم لعدم القدرة عليها ، [ولو أجرى الله تعالى العادة أن يخلق القدرة عليها مع عدم الإحسان لها لوقعت القدرة عليها لا محالة] » (٣) ، والعبارة الأخيرة هي العبارة التي نقلها ابن فورك ، ويلاحظ ما بينهما من فرق ، إذ عبارة اللمع تربطها بإجراء الله العادة .

جـ – ذكر في المجرد عبارة حول العلم (٤) ، وحين تبحث عن العبارة في الكتاب المنقول عنه وهو اللمع تجد أول العبارة ولا تجد باقيها (٥) .

---

(١) مقالات الإسلاميين (ص : ٢١٤) – ت ريتر ، (٢٦٣/١) – ت محمد محيي الدين عبد الحميد .
(٢) المجرد (ص : ٩٣) .
(٣) اللمع (ص : ٥٧) – ت مكارثي ، (وص : ٩٨) – ت غرابة .
(٤) انظر المجرد (ص : ٢٦٧) سطر ١٣-١٤ .
(٥) قارن المصدر السابق – نفس الصفحة باللمع (ص : ١٢) سطر ١٧ – ت مكارثي (وص : ٢٨) سطر ١ – ت غرابة .

فهذه المقارنات تدل على أن حكاية ابن فورك لأقوال الأشعري لا تؤخذ قضية مسلمة على أنها عبارته وكلامه ، خاصة وأن المسائل التي ذكرها في كتابه هذا – مما لا يوجد في كتب الأشعري المطبوعة – كثيرة جدا ، سواء في جليل المسائل أو دقيقها ، ولعل المقارنة بين هذا الكتاب وما يذكره الأشعري في كتبه المطبوعة ، أو ما ينسبه إليه من ينقل أقوال الأشعري من بقية علماء الأشعرية كالجويني ، والبغدادي والشهرستاني والرازي ، تؤدي إلى استخلاص فائدة علمية من هذا الكتاب .

وهذا الكتاب يعطي مضمون مافي كتب الأشعري الكلامية التي لم تصل إلينا ، وكيف أنه خاض في كثير من المسائل على منهج المتكلمين ، وذلك حين خاض في قضايا كثيرة من دقيق المسائل التي نجدها عند بعض علماء الأشعرية كالشهرستاني والجويني والرازي والآمدي وغيرهم .

سابعا : أطوار حياته العقدية :

مر الشيخ أبو الحسن الأشعري في حياته بأطوار ، منها ماهو متفق عليه بين العلماء والمترجمين له ، ومنها ماوقع حوله خلاف ، وقد شغل الناس قديما وحديثا في هذا الأمر ، ولا شك أن التطور الذي حدث لمذهب الأشعرية – بعد الأشعري – كان من أسباب طرق هذا الموضوع الذي يتصل بمؤسسه ومن ينتسبون إليه ؛ وذلك من خلال علاقته ودوره في هذا التطور الذي حدث للمذهب الأشعري ، وشيء آخر وهو محاولة الدفاع عن هذا المذهب من خلال بيان سلامة عقيدة من ينتسبون إليه ورجوعه إلى مذهب السلف .

والملاحظ أن بعضا ممن كتب عن الأشعري وتطرق لهذا الموضوع لم يتجرد من مغالبة الهوي والميل مع أو ضد الأشعري ، فجاء كلامه وأسلوبه متضمنا للمدح أو الذم ، ومع ذلك فهناك من حاول الإنصاف ، ووضع الأمر موضعه الصحيح ، والتوفيق بيد الله سبحانه وتعالى .

وسيكون الكلام حول هذا الموضوع من خلال ما يلي :

أ – طور الأشعري الأول ، المتفق عليه .

ب – رجوعه عن الاعتزال وتاريخه وأسبابه .

جـ – مذهب الأشعري بعد رجوعه : هل كان طورا واحدا أو طورين ؟ .

ا – طور الأشعري الأول (مرحلة الاعتزال) :

لم يشك أحد في أن الأشعري نشأ على مذهب المعتزلة ، وأنه أقام على ذلك فترة طويلة من الزمن ، وليس أدل على ذلك من اعترافه هو حين قال فى كتابه « العمد » يعدد مؤلفاته : « وألفنا كتابا كبيرا في الصفات [وهو أكبر كتبه] سميناه كتاب : الجوابات في الصفات عن مسائل أهل الزيغ والشبهات ، نقضنا فيه كتابا كنا ألفناه قديما فيها على تصحيح مذهب المعتزلة ، لم يؤلف لهم كتاب مثله ، ثم أبان الله سبحانه لنا الحق فرجعنا عنه فنقضناه وأوضحنا بطلانه »[(١)] ، وفي هذا النص نلمح المستوى الذي وصل إليه في مرحلة الاعتزال ، وكيف أنه صار يؤلف الكتب على مذهبهم ، بل إن هذا الكتاب المنقوض يذكر أنه لم يؤلف للمعتزلة مثله .

أما المصادر التي ترجمت له فتذكر ذلك ، فابن النديم يقول : « ابن أبي بشر وهو أبو الحسن على بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري من أهل البصرة ، وكان أولا معتزليا ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن في المسجد الجامع بالبصرة في يوم الجمعة »[(٢)] .

ويذكر السجزي[(٣)] المتوفي سنة ٤٤٤ هـ في رسالته إلى أهل زبيد

---

(١) التبيين (ص : ١٣١) .

(٢) الفهرست (ص : ٢٣١) – ط طهران .

(٣) هو : الإمام الحافظ أبو نصر عبيد الله بن سعيد بن حاتم الوايلي السجزي ، انظر الإكمال (٣٩٧/٧) ، والأنساب (٢٧٩/١٣) ، والتمييز والفصل لإسماعيل بن باطيش (ص : ٧٥٨) .

المسماة : « الرد على من أنكر الحرف والصوت » رواية عن خلف المعلم [١] – المتوفي سنة ٣٧١ هـ – من فقهاء المالكية أنه قال : « أقام الأشعري أربعين سنة على الاعتزال ، ثم أظهر التوبة ، فرجع عن الفروع وثبت على الأصول » [٢] ، أي أصول المعتزلة التي بنوا عليها نفي الصفات ، مثل دليل الاعراض وغيره .

ويذكر ابن عساكر أن أبا القاسم حجاج بن محمد الطرابلسي قال : « سألت أبا بكر إسماعيل بن أبي إسحاق الأزدي القيرواني المعروف بابن عزرة [٣] – رحمه الله – عن أبي الحسن الأشعري – رحمه الله – فقلت له : قيل لي عنه : إنه كان معتزليا ، وأنه لما رجع عن ذلك أبقي للمعتزلة نكتا لم ينقضها ، فقال لي : الأشعري شيخنا وإمامنا ومن عليه معولنا ، قام على مذاهب المعتزلة أربعين سنة ، وكان لهم إماما ، ثم غاب عن الناس فى بيته خمسة عشر يوما ، فبعد ذلك خرج إلى الجامع فصعد المنبر ... » [٤] وذكر قصته .

ومما ينبغي ملاحظته أن بداية نبوغه وطلبه للعلم قد لا تكون بدأت على مذهب المعتزلة ، لأن أباه – الذي لا يعرف متى كانت وفاته – قد أوصى بولده إلى الساجي الإمام المحدث ، ومن المحتمل أن يكون قد تتلمذ عليه وعلى أمثاله من العلماء فترة ، إلى أن تحول إلى مذهب الاعتزال على يد الجبائي ، ويذكر بعض مترجمي الأشعري سببا وجيها لهذه الصلة القوية بينه وبين الجبائي ، وذلك حين يذكرون أن الجبائي تزوج بأمه [٥] ، وبذلك صار الأشعري ربيبا عنده ،

---

(١) اسمه خلف بن عمر ، وقيل عثمان بن عمر ، وقيل عثمان بن خلف ، ويعرف بابن أخي هشام الربعي ، من أهل القيروان ، اختلف في وفاته فقيل ٣٧١ هـ وقيل ٣٧٣ هـ ، ترتيب المدارك (٦/٢١٠) ، ومعالم الإيمان (٣/٩٩) .

(٢) الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص : ١٦٨) ، مطبوع على الآلة الكاتبة .

(٣) هكذا في التبيين لابن عساكر ، والذي في ترتيب المدارك بن عذرة ، وذكر المحقق في الحاشية أن في إحدى النسخ عزرة كما في التبيين ، وهو فقيه من أصحاب ابن أبي زيد القيرواني وطبقته ، رحل إلى المشرق ولقي ابن مجاهد الطائي المتكلم – تلميذ الأشعري – وأخذ عنه وعن غيره ، لم يذكر له تاريخ ولادة ولا وفاة ، ترتيب المدارك (٧/٢٧٤) .

(٤) التبيين (ص : ٣٩) .

(٥) انظر : المختصر لأبي الفداء (٢/٩٠) ، وتاريخ ابن الوردي (١/٤١٠) ، والوافي للصفدي (٤/٧٤) ، وخطط المقريزي (٢/٣٥٩) – ط بولاق .

خاصة إذا كان هذا الزواج في حياة الأشعري المبكرة ، حيث يكون التأثير أقوي ، والتلمذ على يد علماء السنة - إن حصل - لم يكن قد بلغ مرحلة النضج والاستقلال .

وعلى أي حال فمما لا خلاف فيه أن الأشعري تتلمذ على يد الجبائيّ المعتزلي فمن الجبائيّ وما أهم آرائه ؟ .

الجبائيّ هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن حمران ابن أبان ، مولي عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ، الجبائيّ [1] البصري ، ولد سنة ٢٣٤ - أو - ٢٣٥ هـ ودرس الاعتزال على شيخ المعتزلة أبي يعقوب يوسف ابن عبد الله الشحام الذي انتهت عليه رياسة المعتزلة في البصرة ، ولما توفي الشحام سنة ٢٦٧ هـ تبوأ مكانه في رئاسة المعتزلة تلميذه أبو على الجبائيّ ، الذي عده ابن المرتضي على رأس الطبقة الثامنة من طبقات المعتزلة [2] ، وبقي أبو علي ينافح عن مذهب المعتزلة ويرد على من خالفه من المعتزلة وغرهم ، فكان ممن رد عليه أبو الحسن الخياط ، والصالحي والجاحظ والنظام وغيرهم من المعتزلة ، كما رد على تلميذه أبي الحسن الأشعري الذي كانت له أيضا كتب كثيرة في الرد على شيخه الجبائيّ ، ولم يصل إلينا شيء من كتبه ، وآراؤه مبثوثه في كتب المقالات - وأهمها كتاب الأشعري - وفى كتب المعتزلة وأهمها كتب عبد الجبار الهمذاني . ومن أبرز تلاميذ الجبائيّ أبو الحسن الأشعري - الذي ترك الاعتزال - وابنه أبو هاشم الجبائيّ الذي صار إماما للمعتزلة بعد والده ، وقد توفي أبو على الجبائيّ سنة ٣٠٣ هـ [3] .

---

(١) نسبة إلى « جبّي » بلد من أعمال خوزستان (الأهواز) قريبة من البصرة وليست من أعمالها ، انظر كتاب الأقاليم للإصطخري - مخطوط - (ص : ٥٤) ، والروض المعطار (ص : ١٥٦) ، ومعجم البلدان (٩٧/٢) ، وكلهم ذكر أبا على الجبائيّ ونسبته إليها .

(٢) انظر : كتاب المنية والأمل ، تحقيق محمد جواد مشكور (ص : ١٧٠) .

(٣) انظر ترجمته فى : الأنساب (١٧٦/٣) ، والمنتظم (١٣٧/٦) ، ووفيات الأعيان (٢٦٧/٤) ، وسير أعلام النبلاء (١٨٣/١٤) ، والوافي (٧٤/٤) ، والبداية والنهاية (١٢٥/١١) ، وطبقات المفسرين للداودي (١٨٩/٢) ، ولسان الميزان (٢٧١/٥) ، والمنية والأمل (ص : ١٧٠) ، =

وأهم ما يلاحظ في حياة الجبائيِّ أنه عاش في فترة انحسار الاعتزال ، التي بدأت في عهد المتوكل – تولي الخلافة سنة ٢٣٢ هـ – ، حين أبطل ما دعا إليه من قبله من الخلفاء من محاربة أهل السنة والدعوة إلي مذهب المعتزلة من القول بخلق القرآن وغيره ، والإمام أحمد الذي نصر الله به أهل السنة توفي في أول حياة الجبائيِّ سنة ٢٤١ هـ .

ومع ذلك فلم يصل الأمر إلى منع دراسة وتدريس الجدل وعلم الكلام ، وإنما أبطل المتوكل ما تبنته الدولة من نصرة المعتزلة وفرض مذهبهم على الناس ، ولذلك بقيت بعض المساجد في البصرة وبغداد وغيرها يتولى التدريس فيها أو في بعض حلقاتها بعض المعتزلة (١) .

وقد سبق في بيان أحوال عصر الأشعري ؛ أنه في عام ٢٧٩ هـ صدر الأمر بمنع الوراقين من بيع كتب الفلسفة والكلام (٢) ، وقد استمر هذا الانحسار بالنسبة للمعتزلة إلى مجيء البويهيين الذين دخلوا بغداد سنة ٣٣٤ هـ ، ومالوا إلى التشيع والاعتزال .

في هذه الفترة عاش الجبائيُّ ، وتزعم حركة الاعتزال بعد شيخه الشحام ، واستطاع بتبنيه لمذهب شيوخه ، وبآرائه التجديدية في مذهب الاعتزال أن يكوّن له طائفة أو فرقة سميت بالجبائية .

ومن الملفت للنظر حقا أن يكون رجوع الأشعري عن الاعتزال في هذه الفترة التي انحسر فيها مذهب المعتزلة ، فكيف يفسر هذا الفرح العظيم لأهل السنة ؟ هل كان الجدل بين أهل السنة والمعتزلة في تلك الفترة قويا دون أن يبرز على السطح ، أم أن الصراع الذي تلا هذه الفترة حين ظهرت للمعتزلة مكانة وسلطة في عهد البويهيين جعلت علماء السنة يستعيدون الأحداث السابقة التي تدعم مواقفهم ومنها قصة الأشعري ؟ . فصاروا ينشرونها ويؤلفون حولها .

= والفرق بين الفرق (ص : ١٨٣) ، والملل والنحل للبغدادي (ص : ١٢٨) ، والتبصير بالدين (ص : ٧٩) ، والملل والنحل للشهرستاني (٧٨/١) ، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي (ص : ٤٣) ، – ت النشار – ، و(ص : ٣٩) مع المرشد الأمين .

(١) انظر : الجبائيان (ص : ٦٦) .

(٢) انظر : عصر الأشعري في أول هذا الفصل .

أما أهم آراء أبي علي الجبائيّ ، فهي مبنية على مذهب المعتزلة القائم على أصولهم الخمسة ، ومع أن الجبائيّ يعتبر إماما للمعتزلة في زمانه إلا أنه انفرد بآراء تستوقف الناظر ، ولن نتعرض لجميع آرائه فقد كتبت حولها مع آراء ابنه أبي هاشم رسالة علمية [١] ، ولكن نذكر منها ما يلفت النظر ويعين على فهم الأجواء التي عاشها الأشعري في فترة تتلمذه عليه :

١ – في مسألة كلام الله ، قال بقول المعتزلة : أنه مخلوق ، لكنه أتى برأى جديد وهو قوله : « إن الله تعالى يحدث عند قراءة كل قارئ كلاما لنفسه في محل القراءة » [٢] ، وقوله « كلام الله يوجد مع قراءة كل قارئ ، ثم الكلام عنده حروف تقارن الأصوات المتقطعة على مخارج الحروف ، وليست هي أصواتا » [٣] وقوله « إذا اجتمع طائفة من القراء على تلاوة آية ، فيوجد بكل واحد منهم كلام الله ، والموجود بالكلام كلام واحد » [٤] ، فهل كان قوله : إن الله يحدث عند قراءة كل قارئ كلاما لنفسه ، وقوله إن الكلام بلا أصوات يقرب من الكلام النفسي الذي قال به الأشعرية [٥] ؟ . ، ومما يلاحظ أن الأشعرية شنعوا عليه في قوله : إن الصوت كامن في الحروف في المصاحف ، وقد علق ابن المرتضي على ذلك بقوله : « فالشيخ أبو علي خاف ما خاف أهل الأثر في المرتبة الأولى من الكفر في مخالفة السمع ، فتكلف مخالفة المعقول في كون الصوت في الحروف المكتوبة ، وفي إحداث صوت من الله مع صوت كل قارئ ، حتى

---

(١) بعنوان : الجبائيان أبو علي وأبو هاشم ، تأليف علي فهمي خشيم ، حصل عليها من جامعة عين شمس بمصر ، كلية الآداب بإشراف محمد عبد الهادي أبو ريدة ، وقد طبعت في ليبيا – دار الفكر سنة ١٩٦٨ م – ويظهر الباحث تعاطفه الشديد معهم وقد قال في المقدمة (ص : هـ) « كان المعتزلة استولوا على عقلي بعقلهم منذ زمن بعيد » .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني (٨١/١) .

(٣) الإرشاد للجويني (ص : ١٢٣) .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) انظر : الجبائيان (ص : ١١٧) .

يكون السامع لكل قارئ سامعا لكلام الله على الحقيقة كما سمعه موسى عليه السلام » [١] .

٢ – وهو ينكر الرؤية لكنه لا يكفر من أثبتها كما يقول المعتزلة [٢] .

٣ – من أصول المعتزلة إنفاذ الوعيد وأن أهل الكبائر لابد أن يخلدوا في النار وقد قال الجبائي بذلك ، لكنه قال بأنه يجوز على الله العفو وهذا مخالف لسائر المعتزلة ، يقول الأشعري عن المعتزلة : « واختلفوا هل كان في العقل يجوز أن يغفر الله لعبده ذنبا ويعذب غيره على مثله ، أم لا على مقالتين : فأجاز ذلك بعضهم وهو الجبائي ، وأنكره أكثرهم » [٣] .

٤ – يري أن العلة لا توجب معلولها ، والسبب لا يجوز أن يكون موجبا للمسبب ، ومعلوم أن أكثر المعتزلة يقولون : إن الأسباب موجبة لمسبباتها [٤] ، والجبائي « يصف ربه بالقدرة على أن يجمع بين النار والقطن ولا يخلق إحراقا وأن يسكن الحجر في الجو فيكون ساكنا لا على عمد من تحته ، وإذا جمع بين النار والقطن فعل ما ينفي إلا حراق وسكن النار فلم تدخل بين أجزاء القطن فلم يوجد إحراق » [٥] . فهذا القول يقرب مما أخذ به الأشعرية من إنكار الأسباب [٦] .

٥ – وفي الكسب كان له رأي متميز عن المعتزلة ، يقول الأشعري :

---

(١) إيثار الحق على الخلق (ص : ٣١٩) – رسالة محققة في جامعة الإمام ، ت أحمد مصطفي حسين صالح . وهو في الطبعة الأولى (ص : ١٢٥) .

(٢) انظر : شرح الأصول الخمسة (ص : ٢٧٥) .

(٣) مقالات الإسلاميين (ص : ٢٧٦) – ريتر – ، ويرى الجبائي : أن الفاسق الملي مؤمن من أسماء اللغة بما فعله من الإيمان ، وهذا مخالف لسائر المعتزلة الذين يقولون : إن الفاسق في منزلة بين المنزلتين ، بل زعم الجبائي أن في اليهودي إيمانا نسميه به مؤمنا مسلما من أسماء اللغة ، انظر : المقالات (ص : ٢٦٩) ، فهل الجبائي يقرب هنا من أقوال المرجئة ؟ .

(٤) انظر : المقالات (ص : ٤١٢-٤١٣) .

(٥) مقالات الإسلاميين (ص : ٥٧٠) .

(٦) انظر : الجبائيان (ص : ١٧٢) .

« واختلف الناس في معني مكتسب ، فقال قوم من المعتزلة : معناه أن الفاعل فعل بآلة وبجارحة وبقوة مخترعة ، وقال الجبائيُّ : معني المكتسب هو الذي يكتسب نفعا أو ضررا أو خيرا أو شرا ، أو يكون اكتسابه للمكتسب غيره كاكتسابه للأموال وما أشبه ذلك واكتسابه للمال غيره ، والمال هو الكسب له في الحقيقة وإن لم يكن له فعلا ، قال الأشعري : والحق عندي أن معني الاكتساب هو أن يقع الشيء بقدرة محدثة فيكون كسبا لمن وقع بقدرته »[١] . وقد خالف الجبائيُّ سائر المعتزلة في معنى أن الله خالق[٢] ، بل وقال : إن الله « لا يقدر على عين فعل العبد بدليل التمانع ... »[٣] .

٦ - وقوله في إرادة العبد خالف فيه سائر المعتزلة ، يقول الأشعري : « وأجمعت المعتزلة إلا الجبائيَّ أن الإنسان يريد أن يفعل ويقصد إلى أن يفعل ، وإن إرادته لأن يفعل لا تكون مع مراده ولا تكون إلا متقدمة للمراد ، وزعم الجبائيُّ : أن الإنسان إنما يقصد الفعل في حال كونه ، وأن القصد لكون الفعل لا يتقدم الفعل ، وأن الإنسان لا يوصف بأنه في الحقيقة مريد أن يفعل ، وزعم أن إرادة الباريء مع مراده »[٤] .

٧ - قوله بالشريعة العقلية ، يقول الشهرستاني عنه وعن ابنه أبي هاشم : « وأثبتا شريعة عقلية وردا الشريعة النبوية إلى مقدرات الأحكام ومؤقتات الطاعة التي لا يتطرق إليها عقل ولا يهتدي إليها فكر ، وبمقتضي العقل والحكمة يجب على الحكيم ثواب المطيع وعقاب العاصي ، إلا أن التأقيت والتخليد فيه يعرف

---

(١) المقالات (ص : ٥٤٢) .

(٢) انظر : المصدر السابق (ص : ٥٣٩) .

(٣) المواقف (ص : ٢٨٤) ، ومع شرحه (٦٤/٨) ، وقد شرح الإيجي معنى التمانع هنا على رأي الجبائية بأنه « لو أراد الله تعالى فعلا ، وأراد العبد عدمه ، لزم إما وقوعهما فيجتمع النقيضان أو لا وقوعهما فيرتفع النقيضان ، أو وقوع أحدهما فلا قدرة للآخر ، لا يقال يقع مقدور الله لأن قدرته أعم ، لأنا نقول معني كون قدرته أعم تعلقها بغير هذا المقدور ولا أثر له في هذا المقدور ، فهما في هذا المقدور سواء » .

(٤) مقالات الإسلاميين (ص : ٤١٨) .

بالسمع » [١] ، وهذا كلام خطير يدل على مقدار النبوة عند هؤلاء ، فالصلاة تجب بالعقل ، لكن توقيتها فجرا وظهرا وعصرا يعرف عن طريق النبي ، فالنبي جاء بالحكم الوضعي دون الحكم التكليفي ، وهذا القول – لشناعته – يظهر أن الجبائيّ لم يسطره في كتاب ولم يكن مذهبا مصرحا به عنده كما يقول عبد الجبار الهمذاني [٢] ، وهذه عادة الجبائيّ [٣] .

٨ – ومن الأمور المثيرة والتي قال بها الجبائيّ قوله – على مذهبه – إن بغداد – في عهده – دار كفر ، يقول الأشعري : « واختلفوا هل الدار دار إيمان أم لا ؟ فقال أكثر المعتزلة والمرجئة : الدار دار إيمان ، وقالت الخوارج من الأزارقة والصفرية : هي دار كفر وشرك ، وقالت الزيدية : هي دار كفر نعمة ، وقال جعفر بن مبشر ومن وافقه هي دار فسق . وقال الجبائيّ : كل دار لا يمكن فيها أحد أن يقيم بها أو يجتاز بها إلا بإظهار ضرب من الكفر ، أو باظهار الرضي بشيء من الكفر ، وترك الإنكار له فهي دار كفر ، وكل دار أمكن القيام بها والاجتياز بها من غير إظهار ضرب من الكفر أو إظهار الرضي بشيء من الكفر وترك الإنكار له فهي دار إيمان » ، ويعلق الأشعري على رأي الجبائيّ قائلا : « وبغداد على قياس الجبائيّ دار كفر لا يمكن المقام بها عنده إلا بإظهار الكفر الذي هو عنده كفر أو الرضي ، كنحو القول إن القرآن غير مخلوق ، وأن الله سبحانه وتعالى لم يزل متكلما به ، وأن الله سبحانه أراد المعاصي وخلقها ، لأن هذا كله عنده كفر ، وكذلك القول في مصر وغيرها على قياس قوله ، وفي سائر أمصار المسلمين ، وهذا هو القول بأن دار الإسلام دار كفر ومعاذ الله من ذلك » [٤] .

٩ – ومن أقواله العجيبة أيضا رأيه في النبوة ، يقول الأشعري : « واختلفوا

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني (١/٨١) .

(٢) انظر : المجموع المحيط بالتكليف (جـ : ٣ ، ص : ١٩٥) و – مخطوط – عن الجبائيان (ص : ٢٧٦) .

(٣) انظر : الجبائيان (ص : ٢٧٦) مع الحواشي .

(٤) مقالات الإسلاميين (ص : ٤٦٣ – ٤٦٤) .

في النبوة هل هي ثواب أو ابتداء ، فقال قائلون : هي ابتداء ، وقال قائلون : هي جزاء على عمل الأنبياء ، هذا قول عباد ، وقال الجبائيّ : يجوز أن تكون ابتداء » [(١)] ، فهل قوله يجوز أن تكون النبوة ابتداء فيه ميل إلى أولئك الذين يقولون : إن النبوة قد تكون مكتسبة ؟ .

١٠ – والجبائيّ كان يتوقف في المفاضلة بين علي وأبي بكر – رضي الله عنهما –، [(٢)] ثم مال أخيرا إلى تفضيل على ، وألف كتابا لعباد بن سليمان في تفضيل أبي بكر [(٣)] ، ويروي أن الجبائيّ هم أن يجمع بين المعتزلة والشيعة [(٤)] .

١١ – أما موقفه من السنة فهو موقف باقي المعتزلة ، وقد أورد بعض مترجميه أن أحدهم سأله عن حديث في الاحكام ورد بإسناد فقبله ، ولما أورد نفس هذا الإسناد في حديث حجاج آدم وموسى رده [(٥)] .

هذه أهم آراء الجبائيّ – البارزة – مع ملاحظة أنه يتبني مذهب المعتزلة ويقول بأقوالهم ، فهل كان لهذه الأقوال والتناقضات أثر في موقف الأشعري ورجوعه عن مذهب الاعتزال ؟ إن أقوال وحياة الجبائيّ يلاحظ فيها مايلي :

أ – خروجه عن بعض آراء أهل الاعتزال ، قد يكون أحيانا خروجا على إجماعهم .

ب – شناعة بعض أقواله : كقوله بالشريعة العقلية ، أو دار الكفر ، أو أن النبوة يجوز أن تكون ابتداء .

جـ – عدم تصريحه ببعض آرائه ومواقفه ، ولعل الأشعري الذي كان قريبا منه مطلع عليها كلها ، وحين نعلم أن الجبائيّ قد تعرض لمصادرة أمواله ،

---

(١) مقالات الإسلاميين (ص : ٤٤٨) .

(٢) انظر : المصدر السابق (ص : ٤٥٨–٤٥٩) .

(٣) انظر : المنية والأمل (ص : ١٧١–١٧٢) ، ت مشكور .

(٤) انظر : الجبائيان (ص : ٢٩٤) .

(٥) انظر : المنية والأمل (ص : ١٧١) .

وأن شيخه الشحام كان مقدما عند قائد الزنج ، الذين أثاروا فتنة عظيمة [١] ، وأن ذلك كان وقت أفول نجم المعتزلة ، فلا يستبعد أن تكون له بعض المواقف . والله أعلم .

هذه مرحلة الأشعري الأولى ، وقد تبوأ فيها مكانة عالية خاصة عند شيخه الجبائي ، الذي كان ينيبه في بعض مناظراته ، يقول ابن عساكر – عن العسكري –: « كان الأشعري تلميذ الجبائي يدرس عليه فيتعلم منه ويأخذ عنه ، لا يفارقه أربعين سنة ، وكان صاحب نظر في المجالس ، وذا إقدام على الخصوم ، ولم يكن من أهل التصنيف ، وكان إذا أخذ القلم يكتب وربما ينقطع وربما يأتي بكلام غير مرضي ، وكان أبو علي صاحب تصنيف وقلم ، إذا صنف يأتي بكل ما أراد مستقصي ، وإذا حضر المجالس وناظر لم يكن بمرض ، وكان إذا دهمه الحضور في المجالس يبعث الأشعري ويقول له نب عني ، ولم يزل على ذلك زمانا » [٢] ، وقد دافع ابن عساكر عما في هذه الحكاية من رداءة تصنيفه بأن ذلك كان في أول أمره قبل اهتدائه [٣] .

ب – رجوعه عن الاعتزال وأسبابه :

أعلن الأشعري رجوعه عن الإعتزال ، فقد غاب في بيته ثم خرج إلى الناس بعد صلاة الجمعة وأعلن رجوعه عليهم ، وإنه يتبرأ من جميع أقواله السابقة ، وأظهر بعض مؤلفاته الجديدة ، والملاحظ أن مترجمي الأشعري يشيرون إلى أن مدة مقامه في الاعتزال أربعين سنة ، فإذا كان الأشعري ولد سنة ٢٦٠ هـ والجبائي توفي سنة ٣٠٣ هـ ورجوع الأشعري كان قبل وفاة الجبائي لأن الجبائي نفسه رد على الأشعري ، فالأولي أن يعتبر هذا الكلام تقريبيا وأن المقصود أن رجوع الأشعري كان وهو قريب من الأربعين في عمره ، ولذلك عبر البعض بأن إقامة الأشعري في الاعتزال كانت عدة سنين [٤] .

---

(١) سبقت الإشارة إليها في أول هذا الفصل ، وانظر : الجبائيان (ص : ٢٧٧–٢٨٣) .

(٢) تبيين كذب المفتري (ص : ٩١) .

(٣) انظر المصدر السابق (ص : ٩١–٩٢) .

(٤) انظر : الخطط للمقريزي (٣٥٩/٢) ، بولاق .

ولما كان رجوع الأشعري عن الاعتزال بعد هذه المدة التي تعتبر طويلة إضافة إلى المفاجأة في ذلك ، فقد كثرت الأقوال في أسباب رجوعه ، ويمكن حصر أهمها فيما يلي :

١ – فالنوع الأول من الأسباب المباشرة للتحول : الرؤيا ، وتتعدد الروايات في ذلك ، فمنها ما ورد « أن الشيخ أبا الحسن – رحمه الله – لما تبحر في علم كلام الاعتزال وبلغ غاية ، كان يورد الأسئلة على أستاذيه في الدرس ، ولا يجد فيها جوابا شافيا فتحير في ذلك ، فحكى عنه أنه قال : وقع في صدري في بعض الليالي شيء مما كنت فيه من العقائد ، فقمت وصليت ركعتين ، وسألت الله تعالى أن يهديني الطريق المستقيم ، وقمت فرأيت رسول الله – ﷺ – في المنام فشكوت إليه بعض مابي من الأمر فقال رسول الله – ﷺ – عليك بسنتي ، فانتبهت وعارضت مسائل الكلام بما وجدت في القرآن والأخبار ، فأثبته ونبذت ماسواه ورائي ظهريا »[1] ، وهذه الرواية ينتهي إسنادها إلى بعض الأصحاب ، دون تحديد ، وفي رواية أخرى أطول : وأنه رأي النبي – ﷺ – في المنام في رمضان عدة مرات ، ويطلب منه نصرة المذاهب المروية ، وان الأشعري قال له في رؤياه إياه ليلة سبع وعشرين : كيف أدع مذهبا تصورت مسائله وعرفت أدلته منذ ثلاثين سنة لرؤيا ، فقال لي لولا أني أعلم أن الله تعالى يمدك بمدد من عنده لما قمت عنك حتي أبين لله وجوهها وكأنك تعد إتياني إليك هذا رؤيا ، أو رؤياي جبريل كانت رؤيا ، إنك لا تراني في هذا المعنى بعدها ، فجد فيه فإن الله سيمدك بمدد من عنده ، قال فاستيقظت وقلت مابعد الحق إلا الضلال ، وأخذت في نصرة الأحاديث في الرؤية والشفاعة والنظر وغير ذلك ، فكان يأتيني شيء ما سمعته من خصم قط ، ولا رأيته في كتاب فعلمت أن ذلك من مدد الله تعالى الذي بشرني به رسول الله – ﷺ – »[2] ، وهي رواية تنتهي إلى مجاهيل ، ويورد القاضي عياض هذه الرواية بلا إسناد ويذكر أن الرسول – ﷺ –

---

(١) التبيين (ص : ٣٨-٣٩) .

(٢) المصدر السابق (ص : ٤٠-٤١) ، وطبقات السبكي (٣/٣٤٨-٣٤٩) .

قال له في المنام : « إنما قلت لك اطلب علم الكلام ، واعمل بمسألة الرؤية ، ولم أقل لك نح الكلام » ، وأنه لما رآه ليلة سبع وعشرين قال له الأشعري لما سأله ما الذي عملت فيما قلت لك ؟ : « فقلت : يارسول الله ، كيف أدع مذهبا نصرته أربعين سنة ، وصنفت فيه ، ورسخت ؟ يقول الناس : هذا رجل موسوس يدع المذاهب بالمنامات » ، فغضب غضبا شديدا وقال : كذلك كانوا يقولون لي : موسوس ومجنون ، وماضيعت حق الله تعالي لقول الناس ، وتعد هذه من جملة المنامات ؟ أتردد إليك في الشهر ثلاث مرات ، ثم تقول : إنه منام ، هذه اعتذارات كلها باطلة فدعها ، ولا تعرج عليها ... » [1] .

ويلاحظ ما دخل هذه الروايات من زيادات حتي يقول الرسول : انظر علم الكلام ، وقد يكون لمسألة الرؤية أصل ، لكن ليس بهذه الأساليب والروايات التي لم يتصل سند شيء منها .

٢ - النوع الثاني من الأسباب : مناظراته لشيخه الجبائي ، وأشهر هذه المناظرات : مناظرته حول الصلاح والأصلح فقد أوردها ابن خلكان في ترجمة الجبائي فقال : « وعنه أخذ الشيخ أبو الحسن الأشعري شيخ السنة وعلم الكلام ، وله معه مناظرة روتها العلماء ، فيقال : إن أبا الحسن المذكور سأل أستاذه أبا علي الجبائي عن ثلاثة إخوة : أحدهم كان مؤمنا برا تقيا ، والثاني كان كافرا فاسقا شقيا ، والثالث كان صغيرا ، فماتوا ، فكيف حالهم ؟ فقال الجبائي : أما الزاهد ففي الدرجات ، وأما الكافر ففي الدركات ، وأما الصغير فمن أهل السلامة ، فقال الأشعري : إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد هل يؤذن له ؟ فقال الجبائي : لا ، لأنه يقال له : إن أخاك إنما وصل إلى هذه الدرجات بسبب طاعاته الكثيرة ، وليس لك تلك الطاعات ، فقال الأشعري : فإن قال ذلك الصغير : التقصير ليس مني ، فإنك ما أبقيتني ولا أقدرتني على الطاعة ، فقال الجبائي : يقول الباري جل وعلا : كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت وصرت مستحقا للعذاب الأليم ، فراعيت مصلحتك ، فقال الأشعري : فلو قال الأخ الكافر : يا إله العالمين ، كما علمت حاله فقد علمت حالي ، فلم راعيت مصلحته

---

(١) ترتيب المدارك (٥/٢٨-٢٩) .

دوني ؟ » [وفي بعض نسخ الوفيات الخطية] : فقال الجبائي للأشعري : إنك مجنون ، فقال : لا ، بل وقف حمار الشيخ في العقبة » [١] ، وبسبب انقطاع الجبائي رجع الأشعري عن الاعتزال [٢] ، وهناك مناظرة أخري حول هل يسمي الله عاقلا فقد « دخل رجل علي الجبائي فقال : هل يجوز أن يسمي الله تعالي عاقلا ؟ فقال الجبائي : لا ، لأن العقل مشتق من العقال ، وهو المانع ، والمنع في حق الله محال ، فامتنع الإطلاق . قال الشيخ أبو الحسن فقلت له : فعلى قياسك لا يسمي الله سبحانه حكيما ؛ لأن هذا الاسم مشتق من حكمة اللجام ، وهي الحديدة المانعة للدابة من الخروج ويشهد لذلك قول حسان بن ثابت – رضي الله عنه – :

فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء [٣]

وقول الآخر :

أبني حنيفة حكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا [٤]

أي نمنع بالقوافي من هجانا ، وامنعوا سفهاءكم ، فإذا كان اللفظ مشتقا من المنع ، والمنع على الله محال لزمك أن تمنع إطلاق حكيم عليه سبحانه وتعالى قال : فلم يحر جوابا ، إلا أنه قال لي : فلم منعت أنت أن يسمي الله سبحانه عاقلا ، وأجزت أن يسمي حكيما ؟ قال : فقلت له : لأن طريقي في مأخذ أسماء الله الإذن الشرعي دون القياس اللغوي ، فأطلقت حكيما لأن الشرع أطلقه ، ومنعت عاقلا لأن الشرع منعه ، ولو أطلقه الشرع لأطلقته » [٥] .

---

(١) وفيات الأعيان (٤/٢٦٧-٢٦٨) ، وانظر طبقات السبكي (٣/٣٥٦) ، وانظر رأي الجبائي في هذه المسألة في مقالات الأشعري (ص : ٥٧٥) ، وانظر : تعليق المقبلي القاسي على هذه القصة في العلم الشامخ (ص : ٢٩٧) .

(٢) انظر : الملل والنحل للشهرستاني (١/٩٣) ، ويذكر الرازي في تفسيره « سورة الأنعام » آية ١٢٥ » انها بعد رجوع الأشعري (١٣/١٨٥) .

(٣) ديوان حسان (ص : ٧٤) ، ت سيد حنفي وحسن كامل الصيرفي ، الهيئة المصرية العامة ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤ م .

(٤) البيت لجرير ، ديوانه (١/٤٦٦) وفيه « أحكموا » .

(٥) طبقات السبكي (٣/٣٥٧-٣٥٨) ، وانظر : ظهر الإسلام (٤/٦٨-٦٩) ، وانظر رأي الجبائي حول ذلك في مقالات الأشعري (ص : ٥٢٦) .

والمناظرات بين الأشعري والجبائي كثيرة ، وواضح أن بعضها كان بعد رجوع الأشعري [(١)] ، وقد تكون من عوامل عدم ثقته بمذهب الاعتزال .

٣ - أن سبب رجوعه حيرته وتكافؤ الأدلة عنده ، يروي ابن عساكر عن ابن عذرة أنه قال عن الأشعري : « قام على مذاهب المعتزلة أربعين سنة ، وكان لهم إماما ثم غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوما ، فبعد ذلك خرج إلى الجامع فصعد المنبر وقال : معاشر الناس : إني تغيبت عنكم في هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ، ولم يترجح عندي حق على باطل ، ولا باطل على حق ، فاستهديت الله تبارك وتعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه ، وانخلعت من جميع ماكنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا ، وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ودفع الكتب إلى الناس فمنها : كتاب اللمع ، وكتاب أظهر فيه عوار المعتزلة سماه بكتاب كشف الأسرار وهتك الأستار ، وغيرهما ، فلما قرأ تلك الكتب أهل الحديث والفقه من أهل السنة والجماعة أخذوا بما فيها ، وانتحلوه واعتقدوا تقدمه واتخذوه إماما حتى نسب مذهبهم إليه » [(٢)] .

٤ - وبعضهم يربط أسباب رجوعه بعوامل خارجية ، فمحنة الإمام أحمد ، ثم ماجرى بعد ذلك من انتصاره وأفول نجم أعدائه من المعتزلة في عهد المتوكل ، وأن الناس ملوا كثرة المماجكات والمحن التي شهدوها فكرهوا هذه الطائفة ، فولد هذا لدى الأشعري كراهية هذا المذهب فرجع عنه [(٣)] .

٥ - أن أسباب رجوعه نشأة الأشعري الحديثية ، والفقهية ، فأبوه كان

---

(١) انظر : ما أشار إليه الأشعري في المقالات (ص : ٣٥٥-٣٥٦) حول الحركة والسكون ، و(ص : ٤١٩) حول هل يريد الإنسان إرادته ، وانظر عيون المناظرات للسكوني ، فقد أورد للأشعري عدة مناظرات ، فإضافة إلى مناظراته حول الصلاح والأصلح ، وهل يسمي الله عاقلا (ص : ٢٢٦ وص : ٢٢٨) ذكر مناظرات أخرى : (ص : ٢٢٦ حول الرؤية ، وص : ٢٣٢) مع أحد النصارى حضرها بعض المعتزلة منهم الجبائي ، وأخرى (ص : ٢٣٤) لكن ليس فيها الجبائي .

(٢) التبيين (ص : ٣٩-٤٠) .

(٣) انظر ظهر الإسلام (٤/٦٦) ، منهج علماء الحديث والسنة (ص ١٦٠) ، نشأة الأشعرية وتطورها (ص : ١٧٩) .

محدثا جماعيا ، وأوصي به إلى الساجي المحدث ، ثم بعد ذلك صار الأشعري يتردد على حلقة الفقيه أبي إسحاق المروزي الشافعي ، فتأثر بذلك خاصة وأن موقف أهل الحديث من المعتزلة معروف ، كذلك الإمام الشافعي كان له موقف من آراء المعتزلة بل وعلم الكلام ، فلم يستطع الأشعري أن يجمع بين كونه شافعي المذهب يتعبد به ويدرس علي شيوخه وبين آرائه الاعتزالية التي تعظم العقل ، وترد أحاديث السنة فرجع عن مذهب المعتزلة [١] .

والبعض عرض هذا السبب بأسلوب آخر ، وهو أن الأشعري أراد أن يجمع بين الفقهاء والمحدثين وبين أهل الكلام ، الذين اشتد بينهم العداء ، وأن الأشعري لما رأى ذلك ساءل نفسه وما الذي يمنع من الجمع بين الفقه وعلم الكلام ، فأتي بمذهبه الذي توسط فيه بين المعتزلة والمحدثين [٢] .

والبعض يذكر هذا السبب وأن الذي دعا الأشعري إلي تحوله ما رآه من انقسام المسلمين عقائديا ، ما بين معتزلة يفرطون في النزعة العقلية ، ومن يقابلهم من أهل النص ، فأراد أن يسهل للأمة الإسلامية مخرجا وسطا بينهما [٣] .

٦ - وهناك أسباب أخرى ذكرها أعداؤه ليشنعوا عليه [٤] .

هذه أهم ما أورد من أسباب لتحول الأشعري ، وقد سبق عند الحديث عن الجبائي وآرائه التلميح إلى ما قد يكون من أسباب نبذه لمذهب المعتزلة ، ومع ذلك فكل ما ذكر لا يرقى أي منها إلى درجة اليقين ، إذ لم يرد عن الأشعري

---

(١) انظر : في علم الكلام (جـ ٢) ، الأشاعرة (ص : ٤٢-٤٣) .

(٢) انظر : مقدمة الكوثري لتبيين كذب المفتري (ص : ١٥) ونشأة الأشعرية وتطورها (ص : ١٨٦) .

(٣) انظر : تاريخ الفلسفة الإسلامية : هنري كوربان (ص : ١٨٠-١٨٢) ، ويقول سبيتا « لما عكف على دراسة الحديث وضح له مابين رأي المعتزلة وروح الإسلام من تناقض » دائرة المعارف الإسلامية (٢١٨/٢) ، وانظر : تاريخ الفلسفة العربية : الفاخوري ، الجر (١٧٧/١) .

(٤) مثل قول بعض المعتزلة : إن السبب تغير في عقله ، تبيين كذب المفتري (ص : ٣٨٠) ، وقول البعض : إنه مات له قريب فخاف أن يمنع من الميراث ، ومثل أنه فارق مذهب المعتزلة لأنه لم يظفر عند العامة بسمو المنزلة (التبيين ص : ٣٨١) . ومثل القول : إن السبب الضغط من أسرته وإغرائه بالمال ، أو أنه أراد أن يبني لنفسه بطولة ، أو مجاملته للحنابلة ، انظر المدرسة السلفية (ص : ٥٦٤-٥٦٥) .

بطريق صحيح أو في أحد كتبه المعتمدة السبب المباشر لتحوله ورجوعه ، لذلك لابدّ من التماس ذلك في أكثر من سبب ، علما بأن الرجوع إلي الحق ونبذ الباطل إنما هو عودة إلى الهداية الموافقة للفطرة ، وهو أمر يقذفه الله في قلب عبده المؤمن ، فليس الأمر غريبا أو مخالفا للمعقول حتي يتلمس له السبب ، والله أعلم .

* * *

جـ - مذهب الأشعري بعد رجوعه [هل كان طورا أو طورين ؟] :

اختلف العلماء والباحثون - بعد اتفاقهم علي الطور الأول الذي هو طور الاعتزال - هل مر الأشعري بعد تحوله بطور أو طورين ؟ ، ويمكن تحديد الأقوال كما يلي :

الأول : أن الأشعري - بعد تحوله - بقي على **طور واحد** ، وأنه في هذه المرحلة تابع ابن كلاب ، لكن كانت له آراء مستقلة توسط فيها بين المعتزلة والمثبتة ، نشأ عنها ما يسمي بالمذهب الأشعري ، وهذا قول الأشعرية ، أما كتاب الإبانة فإما أن يتغافلوا عنه ، أو يقولوا بإثباته ، لكنهم يفسرون مافيه من الإثبات بأن ذلك جاء علي طريقة « التفويض » وأن هذا لا يتعارض مع القول بتأويل بعض الصفات [(١)] .

وهذا القول يقول به أيضا بعض العلماء من غير الأشاعرة ، وهؤلاء يقولون : إن الأشعري سار علي طريقة ابن كلاب ، فبقيت عليه بقايا من مذهب الاعتزال ، أما كتاب الإبانة فيرون أنه مع أنه يقرب فيه كثيرا من مذهب السلف في الاستدلال بالنصوص ، إلا أن ما أثبت فيه هو مذهبه قبل ذلك ، ولذلك فليس فيه ما يعارض كتبه السابقة ، والمباحث التي ركز عليها في كتاب « اللمع »

---

(١) انظر : الملل والنحل للشهرستاني (٩٣/١) ، ولسان الميزان لابن حجر (٢٩١/٣) الذي يرى أن الأشعري مشي على طريقة ابن كلاب في كتابه الإبانة ، وهذا رأي ابن فورك الذي يرى أن أصولهما واحدة ، انظر : نص كلامه فيما جمعه من مقالات ابن كلاب ، نقض التأسيس المخطوط (٣٧/١-٤١) .

لم يركز عليها في كتاب الإبانة ، فليس بينهما تعارض ، وليس في الإبانة ما يدل على رجوعه عن مذهب ابن كلاب [١] .

فهذان رأيان يتفقان في أن الأشعري مرّ بعد الاعتزال بمرحلة واحدة ، ويختلفان في التفسير والتحليل .

الثاني : أن الأشعري بعد تحوله مرّ بطورين :

أ – طور التوسط والسير علي طريقة ابن كلاب .

ب – وطور الإثبات والتخلي عن طريقة ابن كلاب والسير علي منهاج أهل السنة والجماعة كما في « الإبانة » .

لكن أصحاب هذا القول اختلفوا علي قولين متعارضين :

أحدهما : أن الأشعري مر أولا بطور التوسط والسير علي طريقة ابن كلاب وألف في ذلك كتبه المختلفة التي اشتهرت وتناقلها الناس ، ثم رجع في الآخر إلي مذهب السلف من خلال تأليفه للإبانة وذلك في آخر عمره في بغداد [٢] .

---

(١) ويرى الدكتور فاروق دسوقي أن الأشعري ، رجع مرة واحدة إلي مذهب السلف ، ولم يتغير موقفه ولا منهجه ، ولا فرق بين الإبانة واللمع ، انظر : رأيه وحججه بالتفصيل في كتابه القضاء والقدر (٢٨٦/٢-٣٠٤) ، وهو رأي الدكتورة فوقية محمود ، الإبانة – الدراسة – (ص : ٩١) .

(٢) من الذين نصوا على أن الأشعري مر بثلاثة أطوار آخرها الرجوع إلي مذهب السلف ابن كثير كما نقل عنه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٤/٢) ، والشيخ محب الدين الخطيب في حواشيه على الروض الباسم (ص : ١٧٤) ، ومعارج القبول (٣٤٦/١) ، والمنتقي (ص : ٤١،٤٣) ، والشيخ أحمد بن حجر أبو طامي في العقائد السلفية (١٤٣/١) ، والشيخ محمد الصالح العثيمين في القواعد المثلي (ص : ٨٠-٨١) ، ومصطفي حلمي في ابن تيمية والتصوف (ص : ١٦) وفي قواعد المنهج السلفي – ط الثانية (ص : ٣٠) وغيرهم ، ومن الباحثين : هادي طالبي في رسالته أبو الحسن الأشعري بين المعتزلة والسلف (ص : ٣٩) ومابعدها ، وخليل إبراهيم الموصلي في رسالته بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه في العقيدة (ص : ٣٩) ومابعدها ، ومحمد باكريم باعبد الله في مقدمة تحقيقه لكتاب الرد على من أنكر الحرف والصوت للسجزي (ص : ٨) من الدراسة ومابعدها .

والآخر : العكس : وهو أن الأشعري ، انتقل أولا إلى مذهب السلف ، – الذي يسمونه مذهب الحنابلة – فألف الإبانة في حال الحماس والاندفاع ، ثم بعد ذلك انتقل إلى الطور الأخير الذي توسط فيه ، وألف فيه كتبه ومنها اللمع ، فهؤلاء يبنون قولهم علي أن الإبانة قبل اللمع [(١)] .

هذه أهم الأقوال الواردة في مسألة رجوع الأشعري – رحمه الله – ويمكن تلخيصها كما يلي :

١ – أن الأشعري تحول عن الاعتزال إلى التوسط ، أو ما يسمي بمذهب الأشعري ، وان ما رجع إليه هو الحق .

٢ – أنه رجع إلى مذهب السلف والقول الحق – الذي هو مذهب الإمام أحمد – ولم تختلف أقواله ولا كتبه .

٣ – أنه رجع إلى المذهب الحق لكنه تابع ابن كلاب وبقيت عليه بقايا اعتزالية .

٤ – أنه رجع أولا إلى التوسط ومتابعة ابن كلاب ، ثم رجع إلى مذهب السلف رجوعا كاملا .

٥ – أنه رجع أولا إلى مذهب السلف ، ثم انتقل إلى التوسط واستقر عليه .

مناقشة هذه الأقوال :

أولا : أما بالنسبة للقول الأول والثاني فمبنيان علي أن ما سطره الأشعري في كتبه إنما هو المذهب الحق الذي يقولون به ، فالأشاعرة المتأخرون الذين انحرفوا

---

(١) وهذا رأي الكوثري كما في تعليقه على تبيين كذب المفتري (ص : ٣٩٢) ، وتعليقه على كتاب اللمعة للحلبي (ص : ٥٧) ، وحمودة غرابة في كتابه عن الأشعري (ص : ٦٧–٦٩) ، وفي مقدمة تحقيقه للمع (ص . ٦–٩) ، وهو رأي عرفان عبد الحميد في دراسات في الفرق والعقائد (ص : ١٤٨) ، وجلال موسى في نشأة الأشعرية (ص : ١٩٤–١٩٥) ، وأحمد صبحي في كتابه عن الأشاعرة (ص : ٤٥–٤٦) ، وفوقية محمود في مقدمة الإبانة (ص ٧٩–٩٠،٨٠، ١٩١) ، والسقا في كتابه : الله وصفاته (ص : ١٠٠–١٠٣) .

كثيرا عن مذهب السلف إذا نوقشوا في أقوالهم وانها مخالفة لأقوال السلف ولأقوال شيخهم الأشعري لا يقرون بذلك ، وإنما يقولون : إن السلف والأشعري قصدوا من الإثبات التفويض ، ولا مانع من تفويض النصوص ، أو تأويلها بما يوافق المعقول ، وأن الأشعري ومن جاء بعده إنما أرادوا دعم العقيدة بالحجج والقواعد الكلامية ، لذلك تنتقل القضية مع هؤلاء من مسألة رجوع الأشعري إلى مسألة أوسع ألا وهي مذهب الأشعرية ومدى قربه أو بعده من مذهب السلف ، وفصول الرسالة القادمة متضمنة لمناقشة ذلك .

أما رأي الدكتور فاروق دسوقي – ومن وافقه – فبناه على أن الأشعري من المثبتة ، وأنه قال بأقوال أهل السنة والإمام أحمد ، وبنى ذلك على أنه ليس هناك تعارض بين اللمع والإبانة ، وأن مباحثهما متقاربة ، وإنما الاختلاف فقط في الأسلوب والطريقة ، لأن الأشعري هدف من اللمع الرد على أهل الزيغ والبدع ، وهدف من الإبانة بيان الأدلة على أصول الديانة ، فخلص من هذه الدراسة والمقارنة إلى أن الأشعري رجع إلى مذهب الإمام أحمد ، وهذا القول ربما يكون له وجاهة – مع بعض التحفظ أيضا – لو أن الأشعري ليس له إلا هذان الكتابان ، أما وقد ثبت أن للأشعري كتبا كثيرة نقل منها العلماء ، وهي تدل عليأن للأشعري بعض الآراء الكلامية التي لا توافق مذهب السلف ، فيصبح هذا الرأي ضعيفا جدا .

ثانيا : أما بالنسبة للقول الرابع والخامس ، فالخلاف بينهما مبني على الإبانة واللمع أيهما أسبق ، وبتحقيق الأمر في ذلك يتبين رجحان أحدهما .

وخلاصة أدلة من يرى أن كتاب الإبانة ألفه الأشعري أولا ما يلي :

١ – قول ابن خلكان بعد ذكره لقصة رجوع الأشعري وانخلاعه من ثوب كان عليه : « ودفع للناس ما كتبه علي طريقة الجماعة من الفقهاء والمحدثين »[1] ، والإبانة هو الذي كتبه الأشعري على هذه الطريقة .

---

(١) انظر : دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية للدكتور عرفان عبد الحميد (ص : ١٤٨) ، وانظر الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص : ١٠٠) ، ونسبها إلى طبعة عبد الحميد من الوفيات ولكن =

٢ - أن العادة أن الإنسان إذا انتقل من عقيدة إلى عقيدة يكون متحمسا لعقيدته الجديدة ، وأن الأشعري في أول فترة انتقاله كان متحمسا لعقيدة السلف ، يعيش رد فعل لحياته الأولى ، فمن الملائم - والحالة هذه - أن الأشعري قد ألف كتابه الإبانة ، التي يعلن فيها صراحة تمسكه بأقوال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - [١] .

٣ - أن المطلع على اللمع ، يرى أنه يمثل فترة نضوج فكري ، فهو يعرض فيه الأدلة والمناقشات بشكل جيد ، فالأشعري في هذا الكتاب أقوى حجة وبيانا فلذلك من المفترض أن يكون ألفه في مرحلته الأخيرة [٢] .

أما أدلة الذين يقولون إن الإبانة آخر كتب الأشعري فهي كما يلي :

١ - ما رواه ابن عساكر عن ابن عذرة في قصة رجوع الأشعري وفيها : « فبعد ذلك خرج إلى الجامع فصعد المنبر وقال : يا معشر الناس : إني إنما تغيبت عنكم في هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ، ولم يترجح عندي حق على باطل ، ولا باطل على حق ، فاستهديت الله تبارك وتعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا ، وانخلع من ثوب كان عليه ورمي به ودفع الكتب إلى الناس فمنها كتاب « اللمع » وكتاب أظهر فيه عوار المعتزلة سماه بكتاب « كشف الأسرار وهتك الأستار وغيرهما » [٣] ، فهذا دليل على تقدم اللمع على الإبانة .

٢ - أن الأشعري لما ذكر مؤلفاته في كتابه « العمد » لم يذكر منها الإبانة وقد ذكر ابن فورك أن هذه المؤلفات ألفها إلى سنة عشرين وثلاثمائة ، فلو كانت

= بعد الرجوع إلى هذه الطبعة (٢/٤٤٦-٤٤٧) لم أجده فيها ، كما لم أجده في الطبعة الأولى (١/٥٨٦-٥٨٧) ، ولا في طبعة دار صادر (٣/٢٨٥) .

(١) انظر : الأشعري : حمودة غرابة (ص : ٦٧-٦٨) ، ومقدمة اللمع له (ص : ٧-٨) ، والقضاء والقدر : للدسوقي (٢/٢٩٨) ، والأشاعرة : أحمد صبحي (ص : ٤٥-٤٦) .

(٢) انظر : نشأة الأشعرية وتطورها (ص : ١٩٤-١٩٥ ، ٢١٠) ، والقضاء والقدر للدسوقي (٢/٢٩٨) .

(٣) التبيين (ص : ٣٩) .

من ضمنها لذكرها ، ولما أضاف ابن فورك ما ألفه بعد ذلك لم يذكر الإبانة – وقد سبق عند الحديث عن الإبانة ضمن مؤلفات الأشعري – التفصيل في ذلك ، لكن ابن عساكر الناقل عن ابن فورك يذكر الإبانة وينقل منها نصوصا ، فهذا يدل علي أن الإبانة من آخر ما ألفه الأشعري ، مع أن الأشعري يذكر في قائمة كتبه كتاب اللمع وهذا يدل علي تقدم اللمع علي الإبانة [١].

٣ – قصة الأشعري مع شيخ الحنابلة في بغداد البربهاري [٢] ، فقد روي القاضي أبو يعلى أنه « لما دخل الأشعري إلى بغداد جاء إلى البربهاري ، فجعل يقول : رددت علي الجبائي وعلي أبي هاشم ، ونقضت عليهم وعلي اليهود والنصاري والمجوس ، وقلت لهم ، وقالوا وأكثر الكلام في ذلك ، فلما سكت قال البربهاري : ما أدري مما قلت قليلا ولا كثيرا ، ولا نعرف إلا ما قاله أبو عبد الله أحمد بن حنبل ، قال : فخرج من عنده وصنف كتاب الإبانة فلم يقبله منه ، ولم يظهر ببغداد إلى أن خرج منها » [٣] ، وقد ضعف ابن عساكر هذه الرواية فى قوله في آخرها « ولم يظهر ببغداد إلى أن خرج منها » بأن الأشعري إذ صار إليها لم يفارقها ولا رحل عنها فإن بها منيته [٤] ، وابن عساكر إنما ينكر هذه القصة لا تأخر الإبانة .

٤ – دليل عقلي وهو أن الإنسان يغلب عليه التدرج شيئا فشيئا في تنقلاته ، لأن الإنسان يتضح له الأمر شيئا فشيئا ، فينتقل إليه خطوة خطوة ، وهذا ما حدث للأشعري [٥] .

---

(١) انظر : تبيين كذب المفتري (ص : ١٢٨–١٣٥) .

(٢) هو : الحسن بن علي بن خلف أبو محمد البربهاري كان من المنكرين علي أهل البدع ، صحب جماعة من أصحاب الإمام أحمد ، توفي سنة ٣٢٨ هـ وقيل ٣٢٩ هـ ، طبقات الحنابلة (١٨/٢) ، وسير أعلام النبلاء (٩٠/١٥) .

(٣) طبقات الحنابلة (١٨/٢) ، والوافي (٢٤٦/١٢) ، والسير للذهبي (٩٠/١٥) .

(٤) انظر : التبيين (ص : ٣٩١) .

(٥) انظر : القضاء والقدر للدسوقي (٢٩٥/٢) .

٥ - أن مجموعة من العلماء قالوا بأن الإبانة آخر مؤلفات الأشعري ، ومنهم :

١ - إمام القراء أبو على الحسن بن على بن إبراهيم الفارسي ذكر انه صنف الإبانة في بغداد لما دخلها [١] .

٢ - أبو القاسم عبد الملك بن عيسي بن درباس المتوفي سنة ٦٠٥ هـ ، فإنه قال في رسالته في الذب عن الأشعري : « أما بعد : فاعلموا معاشر الإخوان وفقنا الله وإياكم للدين القويم وهدانا أجمعين للصراط المستقيم بأن كتاب الإبانة عن أصول الديانة الذي ألفه الإمام أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري هو الذي استقر عليه أمره فيما كان يعتقده » [٢] .

٣ - وشيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع عديدة من كتبه [٣] .

٤ - وابن قيم الجوزية ، نقل منه في بعض كتبه وأشار إلى أنه آخر مؤلفاته [٤] .

٥ - وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب ذكر أنه آخر مؤلفاته فقال : « وهو آخر كتاب صنفه وعليه يعتمد أصحابه في الذب عنه عند من يطعن عليه » [٥] .

٦ - وابن كثير كما نقل عنه الزبيدي [٦] .

---

(١) انظر : رسالة في الذب عن أبي الحسن الأشعري لابن درباس (ص : ١١٥) - ت الفقيهي .
(٢) المصدر السابق (ص : ١٠٧) .
(٣) من ذلك الرسالة المدنية - مجموع الفتاوي (٣٥٩/٦) ، والحموية - مجموع الفتاوي (٩٣/٥) ، ونقض التأسيس المخطوط (٨٣/١) ، وغيرها .
(٤) انظر : مختصر الصواعق (١٣٦/٢) ، ففيه أشار إلى أنه آخر مؤلفاته .
(٥) شذرات الذهب (٣٠٣/٢) .
(٦) انظر : إتحاف السادة المتقين (٤/٢) .

٧ – والشيخ إبراهيم بن مصطفي الحلبي ، المتوفي سنة ١١٩٠ هـ في كتابه « اللمعة في تحقيق مباحث الوجود والحدوث والقدر وأفعال العباد » [١] .

٨ – والشيخ إبراهيم بن حسن الكوراني ، المتوفي سنة ١١٠١ هـ كما في القول الجلي [٢] .

٩ – والشيخ خالد النقشبندي الشافعي شيخ مشايخ الألوسي كما في جلاء العينين [٣] .

١٠ – والشيخ نعمان خير الدين الألوسي في كتابه جلاء العينين [٤] .

١١ – والشيخ محب الدين الخطيب في تعليقه على المنتقي من منهاج الإعتدال [٥] .

وغيرهم [٦] ، وهؤلاء هم الذين نصوا على أن « الإبانة » آخر مؤلفات الأشعري أما الذين ذكروا الإبانة ونسبوها إلى الأشعري فكثيرون .

هذه خلاصة أدلة الذين يقولون بتأخر الإبانة عن اللمع ، وهي كما يلاحظ أدلة علمية تعتمد على نقل العلماء وأقوالهم . أما أدلة القول الأول فليس في واحد منها ما ينص على تأخر اللمع وتقدم الإبانة ؛ فعبارة ابن خلكان مجملة ، وجميع

---

(١) (ص : ٥٧) .

(٢) (ص : ٣٦) – ت سالم الدخيل ، ضمن مجلة كلية أصول الدين العدد الثاني ١٣٩٩–١٤٠٠ هـ وهو في (ص : ٢١٦) في ترقيم صفحات المجلة .

(٣) (ص : ١٥٧) – ط المدني .

(٤) (ص : ٤٦٢) .

(٥) (ص : ٤١،٤٣) .

(٦) فقد رجحه مجموعة من الباحثين منهم : راجع الكردي في كتابه « علاقة صفات الله تعالى بذاته (ص : ١٤٢) ، ومحمد أحمد محمود في كتابه « الحنابلة في بغداد (ص : ١٨٦) ، ورضا نعسان في علاقة الإثبات والتفويض (ص : ٤١–٤٤) ، وقد ذكر (ص : ٤١) أن فوقية محمود في تحقيقها للإبانة أثبتت انه آخر مؤلفاته وهو وهم بل هي ترى العكس انظر مقدمتها للإبانة (ص : ٧٩–٨٠،٩٠، ١٩١) ، وممن رجحه من المستشرقين جولد تسيهر في العقيدة والشريعة في الإسلام (ص : ١٢٢) ، ومكدونالد كما جاء في الحنابلة في بغداد (ص : ١٨٦) .

الذين يميلون إلى المذهب الأشعري يقولون إن كتبه كلها تسير على طريقة الفقهاء والمحدثين لا يفرقون بين الإبانة واللمع ، أما الدليل النفسي وأن الإنسان عند انتقاله يكون متحمسا فيقابله دليل نفسي آخر وهو التدرج الذي ورد في أدلة القول الثاني ، أما مسألة النضج ففي الإبانة مناقشات للمعتزلة لا تقل قوة عن مافي اللمع ، فيتبين بذلك أن الإبانة آخر مؤلفات الأشعري ، ويتبين أيضا ضعف هذا القول الذي يقول : إن الأشعري رجع أولا إلى مذهب السلف ثم استقر على التوسط .

ثالثا : من خلال المناقشة السابقة تبين أن القول الأول مع ظهور ضعفه فهو خارج محل النقاش فهو يقوم على دعوى أن الأشعري يتأول أحيانا الصفات الخبرية ، وأنه قال بالتفويض ، أو المجاملة للحنابلة حين ألف الإبانة وإلا فليس هذا معتقده ، وكل هذا من أجل تبرير التطور الذي حدث للمذهب الأشعري حين انحرف الأشعرية عن كثير من آراء شيخهم أبي الحسن – رحمه الله تعالى – كما تبين أن القول الثاني والقول الخامس ضعيفان .

وبقي من الأقوال :

١ – القول الثالث : أنه رجع إلى الحق لكنه تابع ابن كلاب وبقيت عليه بقايا اعتزالية وكلامية .

٢ – والقول الرابع : أنه رجع أولا إلى قول ابن كلاب ثم رجع أخيرا إلى مذهب السلف .

وقبل المناقشة وبيان أدلة الفريقين ثم الترجيح نعرض لما يلي :

١ – أن نسبة الأقوال إلى شخص إنما تأتي من خلال كتبه وأقواله المروية عنه ، وكثيرا ما يشتهر عن أحد من العلماء أقوال فتنسب إليه هذه الأقوال ويتناقلها الناس خاصة إذا كانت مسطرة في كتاب أو كتب اشتهرت باسمه فإذا ما رجع هذا العالم عن أقواله هذه فربما لاتشتهر بحيث تستدرك ما عرف أولا عنه ، وخاصة إذا تبني الأقوال الأولى أناس وشرحوها ودرسوها للناس على أنها القول الحق ،

فالغالب أنها هي التي تنتشر وتشتهر وتبقى أقواله المتأخرة خافتة وضعيفة ، ولا يحتج بها إلا عند الرد على الخصوم أو عند الحاجة ، وهذا الكلام ينطبق على كثير من أعلام أهل الكلام ، فالجويني مثلا اشتهرت كتبه الأشعرية كالشامل والإرشاد ولمع الأدلة ، وتناقلها الناس ، لكن رجوعه في آخر عمره إلى عقيدة السلف وما سطره في النظامية لا يكاد يعتمد على أنه قوله ومذهبه الذي يجب أن ينسب إليه ، ومثله الرازي الذي ألف كتبا فلسفية وكلامية على مذهب الأشاعرة ، انتشرت وتناقلها الناس ولكن رجوعه ووصيته في آخر عمره لا تكاد تذكر فيما ينسب إليه من العقائد .

وهذا نفسه ينطبق على الأشعري فكتبه الكلامية انتشرت وتناقلها الناس ، ومن يطالع مجرد مقالات أبي الحسن الأشعري الذي ألفه ابن فورك – على مافيه من ملاحظات – والذي اعتمد فيه على عدد كبير من مؤلفات الأشعري المفقودة يرى العجب من الآراء الكلامية والمنطقية ، ومع ذلك فهي التي انتشرت ونسبت إلى الأشعري ، أما ما ذكره في المقالات من أقوال أهل الحديث وماسطره في الإبانة فلا تجد له – في الغالب – ذكرا لدى الأشعرية المتأخرين .

لذلك فحينما نناقش قضية رجوع الأشعري قد لا تكون هناك فائدة كبيرة لأولئك الذين أشربوا المذهب الأشعري في أطواره الأخيرة ، وإنما هو منهج في بيان مذهب السلف والرد على متأخري الأشعرية بأقوال شيخهم أبي الحسن وانهم لم يقولوا بما قاله في كتبه المتأخرة كالإبانة وغيره ، وان أقواله إنما تدعم ما يقوله من يسير على مذهب السلف أهل السنة والجماعة .

٢ – أن أهم ما يميز مذهب ابن كلاب – الذي تابعه الأشعري بعد رجوعه عن الاعتزال – قوله في مسألة الكلام والصفات الاختيارية لله تعالى ، أما الصفات اللازمة لله تعالى فهو يثبتها مثل السمع والبصر والعلم والقدرة ، ومثل اليدين والوجه والعينين والعلو والاستواء وغيرها لكنه قال بامتناع أن تقوم الصفات الاختيارية بذات الله مما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال والكلام وغير ذلك ، وعلل ذلك بأنه يستلزم حلول الحوادث بذات الله تعالى وما لم يخل من الحوادث

فهو حادث واضطر لطرد هذا الأصل أن يقول في مسألة كلام الله : إنه ليس إلا مجرد المعنى وان الحروف ليست من كلام الله . كما أنه بناء على هذا الأصل لم يثبت لله صفة الرضي والغضب .

فهذه الطريقة لم تكن موجودة قبل ابن كلاب ، بل كان الناس قبله على قولين فقط ، قول المعتزلة والجهمية والنفاة ، وقول السلف الذين يثبتون لله جميع الصفات سواء كانت لازمة لذاته أو تتعلق بمشيئته وقدرته ، فلما جاء ابن كلاب أثبت الصفات لكنه نفي ما يتعلق بمشيئته وقدرته ، واتبعه على ذلك جماعة منهم الأشعري [١] .

٣ - أما الأدلة على كون الأشعري قد تابع ابن كلاب فيتضح من خلال النصوص التالية :

أ - يقول الأشعري في اللمع في الدلالة على إثبات الصانع - بعد أن ذكر دليل خلق الإنسان - : « فإن قالوا : فما يؤمنكم أن تكون النطفة لم تزل قديمة ؟ قيل لهم : لو كان ذلك كما ادعيتم لم يجز أن يلحقها الإعتمال والتأثير ، ولا الانقلاب والتغيير ، لأن القديم لا يجوز انتقاله وتغيره ، وأن يجري عليه سمات الحدث .. » [٢] ، والصفات الاختيارية التي تدل على أن الله يتكلم إذا شاء متى شاء ، وأنه ينزل ويأتي كما يليق بجلاله وعظمته هي عند الأشعري من الحوادث التي لا يجوز أن تحل بذاته تعالى .

ب - ويقول في مسألة كلام الله وأنه قديم أزلي : « دليل آخر على أن الله لم يزل متكلما : ان الكلام لا يخلو أن يكون قديما أو حديثا ، فإن كان محدثا لم يخل أن يحدثه في نفسه ، أو قائما بنفسه ، أو في غيره ، فيستحيل أن يحدثه في نفسه لأنه ليس بمحل للحوادث ... ثم يقول : وإذا فسدت الوجوه التي

---

(١) انظر : رسالة الرد على من أنكر الحرف والصوت للسجزي (ص : ٨٧) ومابعدها ط على الآلة الكاتبة ، وانظر : درء التعارض (٦/٢) ، وانظر : أقوال ابن كلاب في مقالات الأشعري (ص : ١٦٩،٥٨٤) - ط ريتر .

(٢) اللمع (ص : ١٩) غرابة ، و(ص : ٧) - ط - مكارثي .

لا يخلو الكلام منها لو كان محدثا صح أنه قديم وأن الله تعالى لم يزل به متكلما »[١] . فنفى أن يحدثه في نفسه أي أن يتكلم به إذا شاء متى شاء ، وعلل ذلك بأنه ليس محلا للحوادث ثم أثبت أن كلامه قديم وأن الله لم يزل به متكلما .

جـ – وفي مسألة الإرادة يقول بعد ذكره لدليل الكلام : « وهذا الدليل على قدم الكلام هو الدليل على قدم الإرادة لله تعالى لأنها لو كانت محدثة لكانت لا تخلو من أن يحدثها في نفسه أو في غيره أو قائمة بنفسها ، فيستحيل أن يحدثها في نفسه لأنه ليس بمحل للحوادث ، ويستحيل أن يحدثها قائمة بنفسها لأنها صفة والصفة لا تقوم بنفسها كما لا يجوز أن يحدث علما وقدرة قائمين بأنفسهما ، ويستحيل أن يحدثها في غيره لأن هذا يوجب أن يكون ذلك الغير مريدا بإرادة الله تعالى ، فلما استحالت هذه الوجوه التي لا تخلو الإرادة منها لو كانت محدثة ، صح أنها قديمة ، وأن الله لم يزل مريدا بها »[٢] .

د – ويقول الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر في باب ذكر ما أجمع عليه السلف من الأصول : « وأجمعوا على إثبات حياة الله عز وجل لم يزل بها حيا ، وعلما لم يزل به عالما ، وقدرة لم يزل بها قادرا ، وكلاما لم يزل به متكلما ، وإرادة لم يزل بها مريدا ، وسمعا وبصرا لم يزل به سميعا بصيرا ، وعلى أن شيئا من هذه الصفات لا يصح أن يكون محدثا ؛ إذ لو كان شيء منها محدثا لكان تعالى قبل حدثها موصوفا بضدها ، ولو كان كذلك يخرج عن الأهلية وصار إلى حكم المحدثين[٣] ، الذين يلحقهم النقص ويختلف عليهم صفات الذم والمدح ، وهذا يستحيل على الله عز وجل ، وإذا استحال ذلك عليه وجب أن يكون لم يزل بصفة الكمال ، إذا كان لا يجوز عليه الانتقال من حال من الكمال »[٤] . وهذا واضح في نفي الصفات الاختيارية له تعالى .

---

(١) اللمع (ص : ٤٣-٤٤) ، و(ص : ٢٢) – ط – مكارثي .

(٢) اللمع (ص : ٤٥-٤٦) – ط – غرابة ، و(ص : ٢٣) – مكارثي .

(٣) فى الطبعة الأخيرة – ت عبد الله شاكر (ص : ٢١٥) – « ولو كان كذلك لخرج عن الإلهية وصار إلى حكم المحدثين » .

(٤) رسالة أهل الثغر (ص : ٦٧-٦٨) ت الجليند وفيه وسار بدل (وصار) وهو خطأ .

هـ – وقال في إثبات صفات الله وأنها صفات له على الحقيقة لا على المجاز ، وذكر الحياة والقدرة والعلم والكلام والسمع والبصر والإرادة ، ثم قال : « واجب – إذا أثبتنا هذه الصفات له عز وجل على ما ذكرته العقول واللغة والقرآن والإجماع عليها – أن لا تكون محدثة ، لأنه تعالى لم يزل موصوفا بها ، ولا يجب أن تكون أعراضا لأنه عز وجل ليس بجسم ، وإنما توجد الأعراض في الأجساد ، وتدل بأعراضها فيها وتعاقبها عليها على حدثها ، ويجب أن لا تكون غيره عز وجل ، لأن غير الشيء هو مفارقته له على وجه من الوجوه ، والباريء عز وجل لا تجب مفارقة صفاته له من قبل أن مفارقتها له ما يوجب حدثه وخروجه عن الإلهية ، وهذا يستحيل عليه كما لا يجب أن تكون نفس الباريء عز وجل جسما أو جوهرا أو محدودا ، أو في مكان دون مكان ، أو غير ذلك ، مما لا يجوز عليه من صفاتنا لمفارقته لنا ، فلذلك لا يجوز على صفاته ما يجوز على صفاتنا ... » [1] ، وهذا واضح في أنه لا يرى مفارقة صفات الله له لأن هذا يوجب حدثه ، كما نفى أن يكون تعالى في مكان دون مكان ، ولذلك قال في صفة المجيء : « وأجمعوا على أنه يجيء يوم القيامة والملك صفا صفا ، لعرض الأمم وحسابها وعقابها وثوابها ، فيغفر لمن شاء من المذنبين ، ويعذب منهم من يشاء كما قال ، وليس مجيئه حركة ولا زوالا ، وإنما يكون المجيء حركة وزوالا إذا كان الجائيٌ جسما أو جوهرا ، فإذا ثبت أنه عز وجل ليس بجسم ولا جوهر لم يجب أن يكون مجيئه نقلة أو حركة ، ألا ترى أنهم لا يرون بقولهم : جاءت زيدا الحمي ، أنها تنقلت إليه أو تحركت من مكان كانت فيه ، إذ لم تكن جسما ولا جوهرا وإنما مجيئها إليه وجودها به » [2] ثم قال عن صفة النزول : « وأنه عز وجل ينزل إلى سماء الدنيا كما روي عن النبي – ﷺ – ، وليس نزوله تعالى نقلة لأنه ليس بجسم ولا جوهر ، وقد نزل الوحي على النبي – ﷺ – عند من خالفنا » [3] ، وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان .

---

(١) الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٧٠) ، وفى هذه الطبعة تحريف عدلته من ط عبد الله شاكر (ص : ٢١٨-٢١٩) .

(٢) نفس المصدر (ص : ٧٣-٧٤) .

(٣) الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٧٤) .

و - ويقول الأشعري في صفة الرضا والغضب : « وأجمعوا على أنه عز وجل يرضي عن الطائعين له [(١)] ، وأن رضاه عنهم إرادته لنعيمهم ، وأنه يحب التوابين ويسخط على الكافرين ويغضب عليهم وأن غضبه إرادته لعذابهم وأنه لا يقوم لغضبه شيء » [(٢)] .

فهذا نص في تأويل الرضا والغضب .

هذه آراء الأشعري الدالة على أنه سلك طريق ابن كلاب في مسألة الصفات ، فهل رجع عن هذا القول إلى مذهب السلف ؟ .

الذين يرون أنه رجع رجوعا كاملا :

١ - تصريح الأشعري في الإبانة برجوعه واتباعه للإمام أحمد ، فإنه قال : « قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب الله ربنا عز وجل ، وبسنة نبينا محمد - ﷺ - ، وما روي عن السادة ، الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد ابن محمد ابن حنبل - نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته - قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ؛ لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل ، الذي أبان الله به الحق ، ودفع به الضلال وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائفين ، وشك الشاكين فرحمة الله عليه من إمام مقدم ، وجليل معظم ، وكبير مفهم » [(٣)] ، فهذا تصريح منه برجوعه إلى مذهب السلف الذين يمثلهم الإمام أحمد ، وأنه قائل بأقواله ، مخالف لما خالفها ، والإمام أحمد - نفسه - كان شديدا على الكلابية ، ولذلك هجر الحارث المحاسبي لكونه كلابيا .

٢ - قول الحافظ ابن عساكر معلقا على النص السابق للأشعري حين نقله ونقل ماذكره من اعتقاده ، قال : « فتأملوا رحمكم الله هذا الاعتقاد ما أوضحه

---

(١) في المطبوعة هنا زيادة « وإن له » ويبدو أنه خطأ مطبعي والتصويب من المخطوطة (ص : ١٢) .
(٢) المصدر السابق (ص : ٧٤-٧٥) .
(٣) الإبانة (ص : ٢٠-٢١) - ت - فوقية ، و(ص : ٦-٧) - ط - هندية .

وأبينه ، واعترفوا بفضل هذا الإمام العالم الذي شرحه وبينه ، وانظروا سهولة لفظه فما أفصحه وأحسنه ، وكونوا ممن قال الله فيهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر ١٨] وتبينوا فضل أبي الحسن واعرفوا إنصافه واسمعوا وصفه لأحمد بالفضل ، واعترافه ، لتعلموا أنهما كانا في الإعتقاد متفقين ، وفي أصول الدين ومذهب السنة غير مفترقين » [١] .

٣ - تتلمذ الأشعري على الحافظ زكريا الساجي ، الذي توفي سنة ٣٠٧ هـ يقول الذهبي : « وكان الساجي شيخ البصرة وحافظها ، وعنه أخذ أبو الحسن الأشعري الحديث ومقالات أهل السنة » [٢] وقال أيضا عنه : « وعنه أخذ أبو الحسن الأشعري الأصولي تحرير مقالة أهل الحديث والسلف » [٣] . ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « قلت : زكريا بن يحيي الساجي أخذ عنه أبو الحسن الأشعري ما أخذه من أصول أهل السنة والحديث وكثير مما نقل في كتاب : مقالات الإسلاميين من مذهب أهل السنة والحديث » [٤] ، فهذا يدل على رجوع الأشعري إلي مذهب أهل السنة والحديث .

٤ - أن الأشعري في مقالات الإسلاميين الذي يعتبر من مؤلفاته المتأخرة فرق بين مقالة أهل السنة والحديث ومقالة ابن كلاب وأصحابه ، ثم لما ذكر مقالة أهل الحديث قال : « وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب » [٥] ، ولما ذكر مقالة ابن كلاب - في مواضع متفرقة - لم يقل : إنه يقول بقوله ، وهذا دليل على أنه - في تلك الفترة - لم يكن متابعا له .

٥ - قول الإمام ابن كثير : « ذكروا للشيخ أبي الحسن الأشعري ثلاثة أحوال :

أولها : حال الاعتزال التي رجع عنها لا محالة .

---

(١) التبيين (ص : ١٦٣) .
(٢) العلو (ص : ١٥٠) .
(٣) تذكرة الحفاظ (٩٠٧/٢) .
(٤) شرح حديث النزول ، مجموع الفتاوي (٣٨٦/٥) .
(٥) المقالات (ص : ٢٩٧) ، ريتر .

الحال الثاني : إثبات الصفات العقلية السبعة ، وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام ، وتأويل الجزئية كالوجه واليدين والقدم والساق ونحو ذلك [(١)] .

الحال الثالث : إثبات ذلك كله من غير تكييف ولا تشبيه جريا على منوال السلف وهي طريقته في الإبانة التي صنفها آخرا وشرحها الباقلاني ، ونقلها ابن عساكر » [(٢)] .

٦ - وأهم المسائل في مذهب الأشعرية التي تميزهم مسألة كلام الله ، ونصوصه في الإبانة تدل على أنه يقول بقول أهل السنة وأنه لا يقول بالكلام النفسي ، يقول : « وقد قال الله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء ١٦٤] والتكليم هو المشافهة بالكلام ، ولا يجوز أن يكون كلام المتكلم حالا في غيره ، مخلوقا في شيء سواه ، كما لا يجوز ذلك في العلم » [(٣)] ، ثم يقول عن القرآن « فإن قال قائل : حدثونا أتقولون إن كلام الله في اللوح المحفوظ ؟ قيل له : كذلك نقول ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج ٢١ - ٢٢] ، فالقرآن في اللوح المحفوظ ، وهو في صدور الذين أوتوا العلم ، قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَـٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت : ٤٩] وهو متلو بالألسنة ، قال الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القيامة : ١٦] والقرآن مكتوب في مصاحفنا في الحقيقة ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة ٦] » [(٤)] ، فهو يصرح أنه محفوظ مسموع متلو مكتوب كل ذلك في الحقيقة .

---

(١) هذا النقل غير دقيق ، إذ ليس للأشعري في الصفات الخبرية كالوجه واليدين قول بتأويلهما ، والزبيدي ذكر في إتحاف السادة (٣/٢) أنه سينقل من كتاب الطبقات لابن كثير .

(٢) نقلاً عن إتحاف السادة المتقين للزبيدي (٤/٢) .

(٣) الإبانة (ص : ٧٢) - ت - فوقية ، و(ص : ٢٩) - ط - هندية .

(٤) الإبانة (ص : ١٠٠-١٠١) - ت - فوقية ، و(ص : ٤٣-٤٤) - ط - هندية .

٧ – يقول الشيخ حافظ الحكمي الذي رجح رجوعه إلى مذهب السلف حتى في مسألة الكلام التى كان يقول فيها بقول ابن كلاب ، وذلك حين شرح الأقوال فى مسألة الكلام نقلا عن الصواعق لابن القيم ، فذكر المذهب الخامس – مذهب الأشعري – ومن وافقه أنه معنى واحد قائم بذات الرب ، لأنه ليس بحرف ولا صوت ولا ينقسم ، ثم ذكر أن هذا المذهب مبني على مسألة إنكار قيام الأفعال والأمور الاختيارية بالرب تعالى ، وهي مسألة حلول الحوادث [١] .

لكن الشيخ حافظ – رحمه الله – عقب قائلا : « وأقول : والحق يقال ، لا نشك أن ابن القيم هذا وشيخه ابن تيمية – رحمهما الله تعالى – من أعلم من صنف في المقالات والملل والنحل وأدراهم بمواردها ومصادرها وأبصرهم برد الباطل منها وإدحاضه ، وأوفاهم تقريرا لمذهب السلف أهل السنة والجماعة ، وأشدهم تمسكا به ونصرة له ، وأكملهم تحريرا لبراهينه عقلا ونقلا ، وأكثرهم اشتغالا بهذا الباب وتنقيبا عن عامل البدع واجتثاثا لأصولها ، ولكن هذا الذي ذكره – رحمه الله تعالى – عن الأشعري في مسألة القرآن هو الذي وجدناه عمن ينتسب إلى الأشعري ، ويسمون أنفسهم أهل الحق ، ويقررون ذلك ويكررونه في كتبهم ، ويناظرون عليه ، وأما أبو الحسن الأشعري نفسه – رحمه الله تعالى – فالذي قرره في كتابه الإبانة ، الذي هو من آخر ما صنف هو قول أهل الحديث ساقه بحروفه ، وجاء به برمته ، واحتج فيه ببراهينهم العقلية والنقلية ، ثم نقل أقوال الأئمة في ذلك كأحمد بن حنبل ، ومالك بن أنس ، والشافعي ، وأصحابه ، والحمادين ، والسفيانين ، وعبد العزيز بن الماجشون ، والليث بن سعد ، وهشام وعيسى بن يونس ، وحفص بن غياث ، وسعد بن عامر ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وأبى بكر بن عياش ، ووكيع ، وأبى عاصم النبيل ، ويعلى بن عبيد ، ومحمد بن يوسف ، وبشر بن المفضل ، وعبد الله ابن داود ، وسلام بن أبي مطيع ، وابن المبارك ، وعلي بن عاصم ، وأحمد بن يونس ، وأبي نعيم ، وقبيصة ابن عقبة ، وسليمان بن داود ، وأبى عبيد القاسم ابن سلام ، وغيرهم ، ولولا

---

(١) انظر : معارج القبول (٣٤٣/١–٣٤٤) – ط – السلفية .

خوف الإطالة لسقنا فصول كلامه بحروفه ، فإنه وإن أخطأ في تأويل بعض الآيات ، وأجمل في بعض المواضع ، فكلامه يدل على أنه مخالف للمنتسبين إليه من المتكلمين في مسألة القرآن ، كما هو مخالف لهم في إثباته الاستواء ، والنزول ، والرؤية ، والوجه ، واليدين ، والغضب ، والرضا ، وغير ذلك ، وقد صرح في مقالاته [١] ، بأنه قائل بما قال الإمام أحمد ابن حنبل وأئمة الحديث ، معتقد ما هم عليه ، مثبت لما أثبتوه ، محرم ما أحدث المتكلمون من تحريف الكلم عن مواضعه وصرف اللفظ عن ظاهره ، وإخراجه عن حقيقته ، وبالجملة فبينه وبين المنتسبين إليه بون بعيد ، بل هو بريء منهم ، وهم منه براء ، والموعد الله وكفي بالله حسيبا ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله » [٢] .

هذه أدلة الذين يرون رجوع الأشعري رجوعا كاملا إلى مذهب السلف .

الذين يرون انه بقى كلابيا :-

أما الذين يرون أنه بقى كلابيا ولم يكن رجوعه كاملا فأشهرهم ابن حزم [٣] ، وعبد الجبار الهمذاني [٤] ، وشارح الطحاوية ابن أبي العز [٥] ، وهو قول ابن تيمية وابن القيم ، وهذه بعض أقوالهما في ذلك - أما شارح الطحاوية فهو ناقل عنهما - :

١ - يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « وأبو الحسن الأشعري لما رجع عن مذهب المعتزلة سلك طريقة ابن كلاب ، ومال إلى أهل السنة والحديث ، وانتسب إلى الإمام أحمد ، كما قد ذكر ذلك في كتبه كلها ، كالإبانة والموجز والمقالات وغيرها ، وكان مختلطا بأهل السنة والحديث كاختلاط المتكلم

---

(١) أي أقواله في الإبانة ، لا كتاب المقالات .

(٢) معارج القبول (٣٤٤/١-٣٤٦) ، وقد علق محب الدين الخطيب هنا في الحاشية بما يؤيد قول المؤلف .

(٣) في الفصل (٢٥/٣) - المحققة ، ونسب إلى الأشعري أنه يقول : إن القرآن أزلي مع الله لم يفارقه ، ولا أنزل إلينا ولا سمعناه قط ! ، لكنه قبل ذلك ذكر قول أتباع الأشعري فيه .

(٤) في شرح الأصول الخمسة ، انظر : (ص : ٥٢٨) .

(٥) في شرح الطحاوية (ص : ١٨٠) - ط - المكتب الإسلامي .

بهم » [١] ، فهو ينسبه إلى مقالة ابن كلاب ، ومع ذلك لا يغفل انتسابه إلى الإمام أحمد ولا كتابه الإبانة ، بل ينسب كلابيته إليه وإلى المقالات والموجز ، ثم بعد كلامه عن الأشعري وإثباته الصفات الخبرية وأنه ليس له فيها قولان ، وإنما لأتباعه فيها قولان يقول : « وأما مسألة قيام الأفعال الاختيارية به : فإن ابن كلاب والأشعري وغيرهما ينفونها ، وعلى ذلك بنوا قولهم في مسألة القرآن وبسبب ذلك وغيره تكلم الناس فيهم في هذا الباب بما هو معروف في كتب أهل العلم ، ونسبوهم إلى البدعة ، وبقايا بعض الاعتزال فيهم » [٢] ، ولم يستثن الإبانة من هذا الحكم العام [٣] .

٢ - ولما ذكر أن متأخري الأشعرية مالوا إلى نوع من التجهم بل الفلسفة ، وفارقوا قول الأشعري وأئمة أصحابه قال : « والذي كان أئمة السنة ينكرونه على ابن كلاب والأشعري بقايا من التجهم والاعتزال ، مثل اعتقاد صحة طريق الأعراض وتركيب الأجسام ، وانكار اتصاف الله بالأفعال القائمة التي يشاؤها ويختارها ، وأمثال ذلك من المسائل التي أشكلت على من كان أعلم من الأشعري بالسنة والحديث وأقوال السلف والأئمة ، كالحارث المحاسبي ، وأبي علي الثقفي ، وأبي بكر بن إسحاق الصبغي ... » [٤] .

٣ - ولما ذكر قول من قال في كلام الله بأن حروف القرآن ليست من كلام الله وأن كلام الله معني قائم بذاته هو الأمر والنهي والخبر عقب بقوله : « وهذا القول أول من أحدثه ابن كلاب ، ولكنه هو ومن اتبعه عليه كالأشعري وغيره يقولون مع ذلك : إن القرآن محفوظ بالقلوب حقيقة ، متلو بالألسن حقيقة مكتوب في المصاحف حقيقة ... » [٥] ، وهذا نص مهم جدا في بيان رأي شيخ

---

(١) درء التعارض (١٦/٢) ، وقد نقل ابن القيم هذا الكلام في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص : ١٨١) مؤيدا له .

(٢) درء التعارض (١٨/٢) .

(٣) بل لشيخ الإسلام نص آخر في منهاج السنة (٢٢٧/٢-٢٢٩) - ط جامعة الامام - يذكر فيه أن الأشعري احتج في الإبانة بمقدمات سلمها للمعتزلة ، وأنه لذلك نسب إلى التناقض .

(٤) درء التعارض (٩٧/٧) .

(٥) مجموع الفتاوي (٤٢٤/٨) .

الإسلام في هذا النص الوارد في الإبانة ، والذي هو أحد الأدلة للذين يقولون برجوع الأشعري عن مذهب ابن كلاب إلى قول أهل السنة .

٤ – وذكر ابن القيم الأقوال في كلام الله ومنها قول الأشعري فقال : « المذهب الخامس : مذهب الأشعري ومن وافقه : انه معنى واحد ، قائم بذات الرب ، وهو صفة قديمة أزلية ، ليس بحرف ولا صوت ، ولا ينقسم ، ولا له أبعاض ، ولا له أجزاء ... » [1] .

٥ – وهناك كلام مهم لشيخ الإسلام ابن تيمية حول الإبانة ، ومن اعتقد مافيه ، فإنه قال : « فأما من قال منهم بكتاب الإبانة الذي صنفه الأشعري في آخر عمره ، ولم يظهر مقالة تناقض ذلك فهذا يعد من أهل السنة ، لكن مجرد الانتساب إلى الأشعري بدعة ، لا سيما وأنه بذلك يوهم حسنا بكل من انتسب هذه النسبة ، وينفتح بذلك أبواب شر » [2] ، وقد قال ذلك لبيان أن الأشعرية حين يصفهم بعض علماء السنة بأنهم جهمية إنما يقصدون نفاة الصفات الخبرية ، أما من قال بالإبانة ولم يظهر مقالة تناقض مافيها فليس بأشعري ، ويلاحظ هنا ما يلي :

أ – أن كلام ابن تيمية هنا حول الصفات الخبرية التي أولها متأخرو الأشعرية وليس الكلام عن كلام الله الذي كرر شيخ الإسلام ان الاشعرى متبع فيه لابن كلاب .

ب – أنه قال هنا : « ولم يظهر مقالة تناقض ذلك » ، ولا شك أن للأشعري أقوالا في مسألة الكلام تخالف مذهب السلف ، فهل يرى شيخ الإسلام أن على الأشعري أن يعلن في الإبانة – أو غيره – براءته من أقواله الأخري التي وافق فيها ابن كلاب ؟ .

جـ – وشيخ الإسلام لا يجعل أقوال الأشعري كلها بمنزلة واحدة في قربه

---

(١) مختصر الصواعق (٢٩١/٢) .

(٢) الرسالة المدنية ، مجموع الفتاوي (٣٥٩/٦–٣٦٠) .

من مذهب السلف ، فهو يرى أنه لما قدم بغداد أخذ أمورا أخرى من مذهب أهل السنة غير التي أخذها في البصرة ، يقول : « والأشعري وإن كان من تلامذة المعتزلة ثم تاب ، فإنه كان تلميذ الجبائيّ ، ومال إلى طريقة ابن كلاب ، وأخذ عن زكريا الساجي أصول الحديث بالبصرة ، ثم لما قدم بغداد أخذ عن حنبلية بغداد أمورا أخرى ، وذلك آخر أمره كما ذكره هو وأصحابه في كتبهم »[١] . فمنزلة الإبانة – عند شيخ الإسلام – ليست كمنزلة كتبه التي ألفها قبل قدومه إلى بغداد .

د – والدليل على أن شيخ الإسلام قصد من قوله : من قال بالإبانة فليس بأشعري – إثبات الصفات الخبرية – أن في الإبانة أقوالا في بعض المسائل ، لا توافق مذهب السلف ومنها مسألة الإستطاعة فإن الأشعري قال : « وان أحدا لا يستطيع أن يفعل شيئا قبل أن يفعله »[٢] ، وكذلك مسألة القدرة فإنه ذكر أن الكافرين غير قادرين على الإيمان وقال : « ووجب أن يكون الله تعالى اختص بالقدرة على الإيمان للمؤمنين »[٣] وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَ ٱلإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات ٥٦] قال « إن الله تعالي إنما عني المؤمنين دون الكافرين »[٤] ، وهذا بناء على أصل قوله في القدرة والتعليل .

هـ – واين تيمية كتب كتبه وقد اطلع على ما وصل إليه من كتب الأشعري ومنها المقالات ، والإبانة ، واللمع ، ورسالته إلى أهل الثغر ، ولم يذكر في موضع أن الأشعري ترك طريقة ابن كلاب ، بل كثيرا ما يمتدح ابن كلاب ويذكر أنه أكثر إثباتا واتباعا للسنة من الأشعري ، وكتاب الإبانة نقل عنه كثيرا خاصة في كتبه التي رد فيها على أشاعرة عصره الذين خالفوا الأشعري في كثير من أقواله .

---

(١) مجموع الفتاوي (٢٢٨/٣) .

(٢) الإبانة (ص : ٢٣) .

(٣) نفس المصدر (ص : ١٨٥) .

(٤) نفسه (ص : ١٩٢) .

ومما سبق يمكن أن نستخلص أدلة من يرى أنه بقي على كلابيته فيما يلي :

١ - أن الأشعري لم يذكر في الإبانة رجوعه عن مذهب ابن كلاب ، وأن عباراته المتعلقة بمسألة القرآن وكلام الله ركز فيها على الرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن ، ولو كان يعتقد بطلان مقالة ابن كلاب - التي اتبعها - لرد عليها ، وأبطلها ، فدل ذلك على أن عباراته الموافقة لمذهب أهل السنة لا تعارض ما يعتقده من مذهب ابن كلاب .

٢ - أن الأشعري لو كان رجوعه كاملا إلي مذهب السلف لما شنع عليه بعض علماء أهل السنة وأنكروا بعض أقواله .

الترجيـــح :

قد يكون من الصعب على الإنسان الترجيح في هذه المسألة ، خاصة وأن علماء أفاضل قالوا فيها بقولهم وأدلوا برأيهم ، فالفصل بينهم - مع قصر الباع وضعف القدرة - أمر شديد على النفس ، ولكن لما كان الأمر لا بد فيه من ترجيح رأيت أن أدلي بدلوي في ذلك ، والله الموفق .

ومنهج الترجيح قائم على تتبع كلام الأشعري في الإبانة ، ومقارنته ببعض كتبه التي صرح فيها بما يوافق قول ابن كلاب ومن خلال المقارنه يتبين هل بقي كلابيا ام أنه رجع عن ذلك إلى مذهب السلف ؟ :

ومن المعلوم أن مذهب ابن كلاب القول بأن كلام الله أزلي ، ومنع أن الله يتكلم إذا شاء متى شاء ، فعندهم لا يجوز أن يقال : إن الله إذا شاء تكلم وإذا شاء لم يتكلم ، كما أنه إذا شاء خلق ، وإذا شاء لم يخلق لأن هذا يلزم منه - على زعمهم - حلول الحوادث بذات الله تعالى ، والله تعالى ليس محلا للحوادث ، وحتى يفروا من هذا قالوا بأزلية الصفات ، ولم يفرقوا بين صفات الذات كالعلم والحياة والقدرة ، وصفات الفعل كالكلام والرضا والغضب ، ومع هذا فهم يقولون إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ويثبتون الصفات الواردة ، وقد لا ينتبه إلى حقيقة مذهبهم إلا من استفصل في ذلك . ولذلك جرت

قصة ابن خزيمة – إمام الأئمة – مع جماعة من كبار أصحابه (١) لما نمى إلى علمه أنهم مع إثباتهم للصفات يقولون بقول ابن كلاب ، فجرت لهم معه محنة طويلة استتيبوا ورجعوا ، ولهذا قال ابن خزيمة عنهم : « من زعم هؤلاء الجهلة أن الله لا يكرر الكلام ، فلاهم يفهمون كتاب الله ، إن الله قد أخبر في مواضع أنه خلق آدم ، وكرر ذكر موسى ، وحمد نفسه في مواضع ، وكرر ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن] ولم أتوهم أن مسلما يتوهم أن الله لا يتكلم بشيء مرتين وهذا قول من زعم أن كلام الله مخلوق ، ويتوهم أنه لا يجوز أن يقول : خلق الله شيئا واحدا مرتين » (٢) . ولما اجتمعوا لمصالحة ابن خزيمة « فقال له أبو علي الثقفي : ما الذي أنكرت أيها الأستاذ من مذاهبنا حتى نرجع عنه ؟ قال : ميلكم إلى مذهب الكلابية ، فقد كان أحمد بن حنبل من أشد الناس على عبد الله ابن سعيد بن كلاب ، وعلى أصحابه مثل الحارث وغيره ، حتى طال الخطاب بينه وبين أبي علي في هذا الباب ، فقلت : قد جمعت أنا أصول مذاهبنا في طبق ، فأخرجت إليه الطبق ، فأخذه وما زال يتأمله وينظر فيه ، ثم قال : لست أرى هاهنا شيئا لا أقول به ، فسألته أن يكتب عليه خطه ان ذلك مذهبه ، فكتب آخر تلك الأحرف ، فقلت لأبي عمرو الجيري : احتفظ أنت بهذا الخط حتى ينقطع الكلام ، ولا يتهم واحدا منا بالزيادة فيه ، ثم تفرقنا ، فما كان بأسرع من أن قصده أبو فلان وفلان وقالا : إن الأستاذ لم يتأمل ماكتب في ذلك الخط ، وقد غدروا بك وغيروا صورة الحال ، فقبل منهم ، فبعث إلى أبي عمرو الجيري لا سترجاع خطه منه ، فامتنع عليه أبو عمرو ، ولم يرده حتى مات ابن خزيمة ، وقد أوصيت أن يدفن معي ، فأحاجه بين يدي الله تعالى فيه » (٣) .

وقد أورد الذهبي جزءا من هذا الاعتقاد الذي كتبوه وفيه : « القرآن كلام الله تعالى ، وصفة من صفات ذاته ، ليس شيء من كلامه مخلوقا ،

---

(١) القصة كانت بنيسابور ، وكانت قرابة سنة ٣٠٩ هـ ، أي بعد رجوع الأشعري واعتناقه مذهب ابن كلاب .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤/٣٨٠) .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٤/٣٨٠-٣٨١) .

ولا مفعولا ولا محدثا [١] ، فمن زعم أن شيئا منه مخلوق أو محدث ، أو زعم أن الكلام من صفة الفعل فهو جهمي ضال مبتدع ، وأقول : لم يزل الله متكلما ، والكلام له صفة ذات ، ومن زعم أن الله لم يتكلم إلا مرة ، ولم يتكلم إلا ما تكلم به ، ثم انقضى كلامه ، كفر بالله ... » [٢] . وهذا الكلام موافق لمذهب الكلابية ، فقد جعل الكلام صفة ذات ، وليس صفة فعل ، وجعله أزليا ، ثم ذكر كفر من زعم أن الله لم يتكلم إلا مرة ولم يتكلم إلا ما تكلم به وهذا حق ، لكن قوله بعد ذلك ثم انقضى كلامه كفر بالله يدل على أنه يقصد أن كلام الله لازم لذاته كالعلم ، وهذا قول الكلابية الذين يقولون لو قلنا إنه يتكلم بكلام بعد كلام لحلت فيه الحوادث والتغير وهذا محال على الله .

بعد هذا الاستطراد نذكر عبارات الأشعري وكلامه في الإبانة لننظر هل فيه ما يوافق مذهب ابن كلاب ام لا ؟ :

١ - يقول في باب : أن القرآن كلام الله غير مخلوق : « فلما كان الله عز وجل لم يزل عالما ، إذ لم يجز أن يكون لم يزل بخلاف العلم موصوفا ، استحال أن يكون لم يزل بخلاف الكلام موصوفا ، لأن خلاف الكلام الذي لا يكون معه كلام سكوت أو آفة ، كما أن خلاف العلم الذي لا يكون معه علم جهل أو شك أو آفة ، ويستحيل أن يوصف ربنا جل وعلا بخلاف العلم ، وكذلك يستحيل أن يوصف بخلاف الكلام من السكوت والآفات ، فوجب لذلك أن يكون لم يزل متكلما ، كما وجب أن يكون لم يزل عالما » [٣] .

ويلاحظ في هذا النص أن الأشعري جعل كلام الله أزليا [٤] كما أن علم الله أزلي ، ثم ذكر أنه يستحيل أن يكون لم يزل بخلاف الكلام موصوفا ،

---

(١) في المطبوعة من السير « ليس شيء من كلامه مخلوق ولا مفعول ولا محدث » بالرفع ، وهو خطأ .

(٢) سير أعلام النبلاء (٣٨١/١٤) ، ومما يدل على أن هذا الاعتقاد الذي كتبوه موافق لمذهب الكلابية أن بعض علماء الاشاعرة ذكروا أن ابن خزيمة رجع إلى مذهب السلف - الذي هو مذهبهم - ومن هؤلاء البغدادي في أصول الدين (ص : ٣١٤) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص : ٦٩) .

(٣) الإبانة (ص : ٦٦-٦٧) - ت فوقية - .

(٤) السلف يقولون إن الله متكلم في الأزل ، لكنهم يقولون إنه يتكلم بمشيئته وقدرته .

وخلاف الكلام يفسره بأنه سكوت أو آفة ، وهذا واضح الدلالة أنه قصد أن الله لا يتكلم بكلام بعد كلام ، بل كلامه كله قديم أزلي ، ثم وضح ذلك بقوله : « فوجب لذلك أن يكون لم يزل متكلما كما وجب أن يكون لم يزل عالما » ، ويمكن أن يقارن بكلام له مشابه في كتابه اللمع – الذي سبق أن نقلنا منه نصوصا عديدة تدل على سيره على مذهب ابن كلاب – يقول في كتابه هذا : « ومما يدل من القياس على أن الله تعالى لم يزل متكلما انه لو كان لم يزل غير متكلم – وهو ممن لا يستحيل عليه الكلام – لكان موصوفا بضد من أضداد الكلام من السكوت أو الآفة » [1] .

٢ – ويقول في الإبانة في الأدلة على كلام الله وأنه غير مخلوق : « دليل آخر : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّي ﴾ [الكهف ١٠٩] ، فلو كانت البحار مدادا لكتبه لنفذت البحار ، وتكسرت الأقلام ، ولم يلحق الفناء كلمات ربي ، كما لا يلحق الفناء علم الله تعالى ، ومن فني كلامه لحقته الآفات ، وجرى عليه السكوت ، فلما لم يجز ذلك على ربنا سبحانه صح أنه لم يزل متكلما ، لأنه لو لم يكن متكلما وجب السكوت والآفات ، تعالى ربنا عن قول الجهمية علوا كبيرا » [2] ، فقد ربط الكلام بالعلم في كونه صفة أزلية قائمة بذات الله أزلا وأبدا ، وكلمات الله لا نهاية لها كما دلت على ذلك هذه الآية وغيرها ، لكنها لا تدل على أن الله لا يتكلم بكلام بعد كلام إذا شاء متى شاء ، وأنه كلم موسى بعد أن لم يكن مكلما له ، والأشعري جعل ضد الكلام السكوت وهذا يوحي بأنه يمنع من ذلك .

٣ – والأشعري يقول إن إرادة الله أزلية ، ولا يجعلها من صفات الأفعال بأنه يريد في وقت دون وقت ، ويقرن الإرادة بالكلام في هذا الباب كما يربطهما جميعا بالعلم ، فكما أن علم الله صفة لذاته وأنه أزلي وأنه لا يجوز أن يقال علم

---

(١) اللمع (ص : ١٧) – ت – مكارثي .
(٢) الإبانة (ص : ٦٧) – ت – فوقية .

بعد أن لم يكن عالما لأنه يدل على وصف الله بالنقص ، فكذلك الإرادة والكلام ، يقول في الإبانة : « يقال لهم [أي للمعتزلة] : ألستم تزعمون أن الله تعالى لم يزل عالما ؟ فمن قولهم : نعم ، قيل لهم : فلم لا ؟ قلتم : إن ما لم يزل عالما انه يكون في وقت من الأوقات لم يزل مريدا أن يكون في ذلك الوقت ، وما لم يزل عالما انه لا يكون فلم يزل مريدا أن لا يكون ، وانه لم يزل مريدا أن يكون ما علم كما علم ؟ » (١) . ثم قال : « فإن قالوا : لا يجوز أن يكون علم الله محدثا ، لأن من لم يكن عالما ثم علم لحقه النقصان ، قيل لهم : ولا يجوز أن تكون إرادة الله محدثة مخلوقة ، لأن من لم يكن مريدا ثم أراد لحقه النقصان ، وكما لا يجوز أن تكون إرادته تعالى محدثة مخلوقة كذلك لا يجوز أن يكون كلامه محدثا مخلوقا » (٢) ، وقد يتبادر إلى الذهن أنه قصد الرد على من قال بخلق القرآن – وهذا حق – لكنه قصد أيضا المنع من أن الله يتكلم بكلام بعد كلام بإرادته ومشيئته ، وأن الله يريد إذا شاء ، متي شاء وعلل ذلك بأنه يلزم منه أن يلحقه النقصان ، وحتي يتضح كلامه هنا ننقل كلامه من رسالته إلى أهل الثغر – التي نص فيها في مواضع – بما يوافق ابن كلاب ، فإنه بعد ذكره لقدم الصفات : الحياة ، والعلم ، والإرادة ، والكلام ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، قال : « [وأجمعوا] على أن شيئا من هذه الصفات لا يصح أن يكون محدثا ؛ إذ لو كان شيء منها محدثا لكان تعالى قبل حدوثها موصوفا بضدها ولو كان كذلك يخرج عن الأهلية وصار إلى حكم المحدثين الذين يلحقهم النقص ، ويختلف عليهم صفات الذم والمدح ، وهذا يستحيل على الله ، وإذا استحال ذلك عليه وجب أن يكون لم يزل بصفة الكمال ، إذ كان لا يجوز عليه الانتقال من حال من الكمال » (٣) . والذي ينتقل من حال إلى حال ويفعل بمشيئته وقدرته ، فيرضى عن هذا بعد أن لم يكن راضيا عنه ، ويسخط على هذا بعد أن لم يكن ساخطا

---

(١) الإبانة (ص : ١٦١) .

(٢) نفس المصدر (ص : ١٦٢-١٦٣) .

(٣) الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٦٧-٦٨) ت : الجلنيد ، وفى طبعة مكتبة العلوم والحكم ت : عبد الله شاكر (ص : ٢١٥) . ومنها : « لخرج عن الإلهية » . وفيها أيضا : « الانتقال من حال إلى حال » ولعلهما أصوب .

عليه ، ويريد أمرا بعد أن لم يكن مريدا له ، ويكلم أحدا من البشر بعد أن لم يكن مكلما له ، هذه - عندهم - حوادث وتغيرات لا يجوز أن يتصف بها الله ، لأن الحوادث لا تحل في ذاته .

٤ - والرضا والغضب - عند الكلابية أزليان - ولذلك التزموا بالقول بالموافاة . ومقتضاها : أن الله « لم يزل راضيا عمن يعلم أنه يموت مؤمنا وإن كان أكثر عمره كافرا ، ساخطا على من يعلم أنه يموت كافرا وإن كان أكثر عمره مؤمنا » [(١)] ، ومعناه أن لم يزل راضيا عن الصحابة ، حتى وهم قبل إسلامهم يقاتلون المسلمين ويشركون بالله ، ورضاه عنهم أزلي ، وكذلك العكس ، وهذا حتى لا يقول بتجدد الحوادث في ذاته تعالي إذا قيل إنه كان ساخطا على هذا ثم رضي عنه ، يقول الأشعري في الإبانة : « ثم يقال لهم : إذا كان غضب الله غير مخلوق وكذلك رضاه وسخطه فلم لا ؟ قلتم : إن كلامه غير مخلوق ، ومن زعم أن غضب الله مخلوق لزمه ان غضب الله وسخطه على الكافرين يفنى ، وان رضاه عن الملائكة والنبيين يفني حتي لا يكون راضيا عن أوليائه ولا ساخطا على أعدائه ، وهذا هو الخروج عن الإسلام » [(٢)] ، فقول الأشعري : « لزمه أن غضب الله وسخطه على الكافرين يفنى » هذا عنده خاص فيمن علم أنه يموت كافرا ، أما الإنسان لو عاش سنين طويلة كافرا ثم أسلم ومات على إسلامه ، فهذا - عند الأشعري - لا يجوز أن يقال إن الله كان ساخطا عليه في وقت كفره ، ثم رضي عنه لما أسلم ، وإنما يقال : إن الله لم يزل راضيا عنه حتى في حال كفره لأنه علم أنه يموت مؤمنا ، وهذا بناء على أصله الكلابي .

٥ - ولما كان من أدلة المعتزلة على قولهم أن القرآن مخلوق قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنبياء ٢] أجاب الأشعري عن هذه الآية بقوله : « الذكر الذي عناه الله عز وجل ليس هو القرآن ، بل هو كلام الرسول - ﷺ - ووعظه إياهم ... » [(٣)] ،

---

(١) المقالات (ص : ٥٤٧) - ط - ريتر ، ونسبه الأشعري إلي ابن كلاب .
(٢) الإبانة (ص : ٨٠-٨١) .
(٣) نفس المصدر (ص : ١٠٢) .

والذي دعاه إلى هذا التأويل البعيد خوفه من أن يوصف القرآن بأنه محدث ، والحدوث : في اصطلاح أهل الكلام بمعنى الخلق ، فالمحدث هو المخلوق ، وهذا هو الذي فر منه الأشعري ، لكن الحدوث في لغة العرب يكون بمعنى التجدد ، فيسمون ما تجدد حادثا ، وما تقدم على غيره قديما [1] ، فلماذا لم يفسر الأشعري هذه الآية بالمعنى الثاني وأن المقصود به القرآن ؟ ولا يقتضي ذلك أن يكون مخلوقا ، وقد بوب الإمام البخاري في صحيحه لذلك فقال : « باب قول الله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن ٢٩] ، ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء ٢] ، وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً ﴾ [الطلاق ١] ، وان حدثه لا يشبه حدث المخلوقين لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى ١١] ، وقال ابن مسعود عن النبي - ﷺ - : إن الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء ، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة » ، ثم ذكر البخاري أثرين عن ابن عباس في هذا ، أحدهما قوله : « كيف تسألون أهل الكتاب عن كتبهم وعندكم كتاب الله أقرب الكتب عهدا بالله ، تقرأونه محضا لم يشب [2] .. » [3] ، وفي رواية أخرى لهذا الأثر (أحدث الأخبار بالله) [4] ، وهذا بناء على قول أهل السنة : ان الله يتصف بالصفات الاختيارية ، وان كلامه متعلق بالمشيئة ، وان من صفات كمال تعالى أنه لم يزل متكلما إذا شاء ، وهذا الذي قال به الإمام أحمد والبخاري وغيرهما وردوا على الكلابية الذين ينكرون هذا [5] .

والظاهر أن تأويل الأشعري للآية ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة (٣٦/٢) ، ودرء التعارض (٣٧٤/١) ، وقد ذكر شيخ الإسلام أن هذه الآية تدل على نقيض قول المعتزلة « فإنها تدل على أن بعض الذكر محدث ، وبعضه ليس بمحدث ، وهو ضد قولهم » .

(٢) لم يشب أي لم يخالطه غيره ، الفتح (٤٩٩/١٣) .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، ورقم الأثر (٧٥٢٢) . الفتح (٣٩٦/١٣) .

(٤) انظر : فتح الباري (٤٩٩/١٣) .

(٥) انظر : درء التعارض (٢٩١/٢-٣٠١) .

اشتهر عند الأشاعرة الذين التزموا هذا الأصل ، ولذلك ذكره ابن حجر العسقلاني – في شرحه لباب البخارى هذا – وذكر تأويلات أخرى مشابهة ، وكل ذلك فرارا مما يدل عليه ظاهر الآية ، بل نقل ردود العلماء وأقوالهم في أن القول بأن المقصود بالآية القرآن « يلزم منه أن يكون الله متكلما بكلام حادث فتحل فيه الحوادث » [1] .

هذه أقوال الأشعرى من كتابه الإبانة وهي بمجموعها دالة على أنه بقي على اتباعه لابن كلاب ، وإن كان لم يصرح بذلك كتصريحه في كتبه الأخرى ، فهو في الإبانة – بلا شك – أكثر إثباتا واتباعا لأهل السنة ، وبعدا عن كلام أهل البدع ، خاصة وأنه رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن ، كما رد على الكرامية الذين يقولون : إن الله لم يكن متكلما ثم تكلم ، لكنه لم يرد على أقوال الكلابية الذين اشتهر في عهده إنكار السلف عليهم .

وهذه الملحوظات التى ذكرناها – فيما نقلناه عن الابانة – هى التى جعلت شيخ الاسلام يذكر ان الاشعري احتج فى الابانة وغيرها بمقدمات سلمها للمعتزلة . يقول شيخ الاسلام : « وهذا من الكلام الذى بقى على الأشعري من بقايا كلام المعتزلة ، فإنه خالف المعتزلة لما رجع عن مذهبهم فى أصولهم التى أشتهروا فيها بمخالفة أهل السنة كإثبات الصفات والرؤية ، وأن القرآن غير مخلوق ، وإثبات القدر ، وغير ذلك من مقالات أهل السنة والحديث ، وذكر فى كتاب « المقالات » انه يقول بما ذكره عن أهل السنة والحديث .

وذكر فى الإبانة أنه يأتم بقول الامام أحمد ، قال : « فإنه الامام الكامل والرئيس الفاضل ، الذى أبان الله به الحق ، وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائفين ، وشك الشاكين » ، وقال : « فإن قال قائل قد انكرتم قول الجهمية والمعتزلة والقدرية والمرجئة » ، واحتج فى ضمن ذلك بمقدمات سلمها للمعتزلة ، مثل هذا الكلام ، فصارت المعتزلة وغيرهم من أهل الكلام يقولون : إنه متناقض فى ذلك ، وكذلك سائر أهل السنة والحديث يقولون : إن هذا تناقض ، وان هذه بقية بقيت عليه من كلام المعتزلة » [2] .

---

(١) فتح الباري (١٣/٤٩٨) ، وانظر : شرح ابن حجر في (١٣/٤٩٧–٤٩٩) .

(٢) منهاج السنة (٢/٢٢٧–٢٢٩) ط جامعة الامام .

بقي في أدلة الذين قالوا برجوعه رجوعا كاملا إلى مذهب السلف دليلان – لابد من التعليق عليهما – أما بقية الأدلة فهي مجملة ومحتملة :

الأول : تصريح الأشعري في الإبانة بأن كلام الله مكتوب في اللوح المحفوظ في الحقيقة ، متلو بالألسن في الحقيقة ، محفوظ في الصدور في الحقيقة ، وان موسي – عليه الصلاة والسلام – سمع كلام الله ، فهل هذا يدل على أنه لا يقول بقول ابن كلاب ؟ ، لقد سبق في عرض أقوال ابن تيمية أنه يقول عن الكلابية : إنهم مع ذلك يقولون : القرآن محفوظ في القلوب حقيقة ، متلو بالألسن حقيقة ، مكتوب في المصاحف حقيقة . وشاهد ذلك أن أحد أعلام الأشاعرة – الباقلاني – صرح بأن كلام الله معني قائم بنفسه ، وأنه أزلي أبدي متكلم به في الأزل ، كما هو متكلم به فيما لا يزال ، لا أول لوجوده ولا آخر له ، وأنه ليس بحرف ولا صوت [١] – ومع ذلك صرح بأن « كلام الله تعالى مكتوب في المصاحف على الحقيقة » [٢] ، و « مسموع لنا على الحقيقة ، لكن بواسطة القاريء » [٣] ، وقال : « إن كلام الله مسموع بحاسة الآذان على الحقيقة » [٤] ، وهو يقول : إن موسى سمع كلام الله بلا واسطة لكنه يقول أيضا في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة ٦] بأن المسموع كلام الله القديم ، صفة لله تعالى قديمة موجودة بوجود قبل سماع السامع لها ، وإنما الموجود بعد أن لم يكن هو سمع السامع وفهم الفاهم لكلام الله تعالى ، يحدث الله تعالى له سمعا إذا أراد أن يسمعه كلامه ، وفهما إذا أراد أن يفهمه كلامه » [٥] . فلم يدل قوله : أن موسى سمع كلام الله أنه لا يقول بقول ابن كلاب .

---

(١) رسالة الحرة ، المطبوعة باسم الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به (ص : ٨٩،٩٩، ١٠٩-١١٠) .

(٢) المصدر السابق (ص : ٩٣) .

(٣) نفسه (ص : ٩٤) .

(٤) رسالة الحرة (ص : ١٣٦) ، ويلاحظ أن السجزي – الذي شنع على الأشعرية – قال في رسالته الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص : ١٣٦) إنهم يقولون : « كلام الله مكتوب في المصاحف على الحقيقة ، وليس بحروف » .

(٥) رسالة الحرة (ص : ٩٤-٩٥) .

الثاني : أن الأشعري فرق في كتابه « المقالات » بين أهل الحديث ، والكلابية ، وهذا دليل مهم ، ويلقي ظلالا من الشك في تبعيته لابن كلاب ، ومع ذلك فيلاحظ ما يلي :

١ - ان هذا الكتاب في مقالات أهل الإسلام ، يحكي فيه الأقوال دون أن يذكر معتقده في كل مسألة يعرض لها ، ولذلك لم يرد على المعتزلة أو الرافضة أو الخوارج أو المرجئة أو الجهمية أو غيرهم ، بل حكى أقوالهم وسكت إلا نادرا . ومن غير المعقول - وهو الخبير بمقالات أهل الكلام - أن لا يفرد مقالات ابن كلاب أو الكلابية ، وهم المتميزون عن كل من المعتزلة وأهل الحديث .

٢ - ان الأشعري لم يكن خبيرا بأقوال أهل الحديث ، ولذلك نسب إليهم قولين ليسا من أقوال أهل الحديث - وقد سبق ذكرهما عند الحديث عن مؤلفات الأشعري ومنهجه في كتاب المقالات - ولما ذكر مقالتهم بإجمال ذكر انتسابه إليهم وقوله بقولهم ، فلما ذكر مقالة ابن كلاب قال : « فأما أصحاب عبد الله بن سعيد القطان فإنهم يقولون بأكثر ما ذكرناه عن أهل السنة » [(١)] ، ثم ذكر بعض أقوالهم ، إذا هو لا يجعل الكلابية بعيدين عن أهل السنة والحديث .

٣ - ان المسألة التي تميز أهل السنة عن الكلابية وهي مسألة كلام الله والقرآن لم يذكرها الأشعري في عرضه لمقالة أهل الحديث ، بل قال كلاما مجملا قصيرا ، وهذا نصه : « ويقولون : إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، والكلام في الوقف واللفظ : من قال باللفظ أو بالوقف فهو مبتدع عندهم ، لا يقال : اللفظ بالقرآن مخلوق ولا يقال غير مخلوق » [(٢)] ، لكنه لما ذكر مسألة القرآن ذكر قول ابن كلاب فيها تفصيلا [(٣)] ، ثم ذكر أقوال غيره من المعتزلة وغيرهم ، وذكر مسائل كثيرة متفرعة ، ولم يذكر لنفسه أو لمن يقول بقولهم - كما يعبر أحيانا بقوله : قال أهل الحق ، أو الإثبات ، أو أهل الإسلام ، أو أهل السنة ،

---

(١) المقالات (ص : ٢٩٨) .
(٢) المقالات (ص : ٢٩٢) .
(٣) نفسه (ص : ٥٨٤) .

أو الاستقامه ... - قولا في ذلك ، فإذا لم يكن شرح قول أهل الحديث عند ذكره لمقالتهم ، ولا ذكر مقالتهم عند تفصيل القول في ذلك ، فما هو قول الأشعري في هذه المسألة ؟ ، علما بأن الأشعري ذكر قوله صراحة في بعض المسائل مثل مسألة « الكسب » [١] ، وهل الله موصوف بالقدرة على أن يضطر عباده إلى إيمان وكفر ؟ [٢] .

٤ - ثم إن الأشعري ذكر في ثنايا عرضه للأقوال في كتابه المقالات ما يدل على كلابيته ، فمثلا : ذكر في مسألة القول بأن الله قادر اختلاف المتكلمين في : هل يوصف الباريء بأنه قادر على الأعراض ، فقال : « قال المسلمون كلهم أجمعون - إلا معمرا -: إن الله قادر على الأعراض والحركات والسكون والألوان والحياة والموت والصحة والمرض والقدرة والعجز وسائر الأعراض ، وقال معمر : بالتعجيز لله ، وأنه لا يوصف القديم بأنه قادر إلا على الجواهر ، وأما الأعراض فلا يجوز أن يوصف بالقدرة عليها ... وأن من قدر على الحركة قدر أن يتحرك ... » ، فرد عليه الأشعري بقوله : « فيقال له إذا قلت : إن الباريء قادر على التحريك والتسكين ، فقل قادر على أن يتحرك ويسكن ، فإن كان من قدر على تحريك غيره وتسكينه لا يوصف بالقدرة أن يتحرك ، فكذلك من وصف بالقدرة على حركة غيره لا يوصف بالقدرة على أن يتحرك » - ثم قال الأشعري -: « وخالف أهل الحق أهل القدر ومعمرا في ذلك فقالوا : قد يوصف القديم بالقدرة على إنشاء الحركة ولا يوصف بالقدرة على التحرك » [٣] . والحركة من الحوادث التي لا يجوز أن تحل بالله عند الكلابية ، ولهذا قال الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر في صفة المجيء لله : « وليس مجيئه حركة ولا زوالا » [٤] . فرد الأشعري على معمر المعتزلي ثم نسبته إلى أهل الحق هذا القول يدل ميله إلى هذا الأصل الكلابي ، علما بأن لفظ الحركة أطلقه

---

(١) المقالات (ص : ٥٣٩-٥٤٢) .
(٢) نفسه (ص : ٥٥٢) .
(٣) نفسه (ص : ٥٤٨-٥٤٩) .
(٤) الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٧٣) .

بعض السلف ومنعه البعض لأنه لم يرد ، ويذكر العلماء هذا الكلام في مبحث الصفات الفعلية الاختيارية لله تعالى مثل المجيء والنزول .

مثال آخر : ذكر الأشعري الأقوال في أن الباريء متكلم ، فذكر أقوال المعتزلة ثم قال : « وقالت شرذمة : إن الله لم يزل متكلما ، بمعني أنه لم يزل مقتدرا على الكلام ، وأن كلام الله محدث ، وافترقوا فرقتين : فقال بعضهم مخلوق ، وقال بعضهم غير مخلوق » ثم قال : « وقال ابن كلاب : إن الله لم يزل متكلما ، والكلام من صفات النفس كالعلم والقدرة » (١) . ولا أدري من يقصد بهذه الشرذمة ، خاصة وأن منهم من يقول : إن كلام الله غير مخلوق ، وقد ذكر فيما بعد قول داود الأصبهاني فقال : « وبلغني عن بعض المتفقهة أنه كان يقول : إن الله لم يزل متكلما بمعني أنه لم يزل قادرا على الكلام ، ويقول : إن كلام الله محدث غير مخلوق وهذا قول داود الأصبهاني (٢) ، وقول داود مبني على أن كلام الله من صفات الفعل ، فهو أزلي ، ويتكلم إذا شاء متي شاء ، وعرض الأشعري للقضية يدل على ميل عنده عن هذا القول .

وقال الأشعري في معرض الإنكار على المعتزلة : « وأنكروا أن يكون الباريء سبحانه لم يزل مريدا متكلما ، راضيا ، ساخطا ، مواليا معاديا ، جوادا ، حكيما ، عادلا محسنا ، صادقا ، خالقا ، رازقا ، وزعموا أن هذا أجمع من صفات الأفعال » (٣) ، فما معني الإنكار منه أن تكون أو بعضها صفات أفعال الله ؟ .

فهذه الأدلة تدل على مارجحه شيخ الإسلام ابن تيمية من أن الأشعري وإن كان في الإبانة قد قرب كثيرا من مذهب أهل السنة إلا أنه قد بقيت عليه بقايا من مذهب ابن كلاب ، والله أعلم .

---

(١) المقالات (ص ٥١٧) - ريتر - .
(٢) نفس المصدر (ص : ٥٨٣) .
(٣) نفس المصدر (ص : ٥٠٥) .

ثامنا : عقيدتـــه :

قبل بيان عقيدته لابد من توضيح بعض الأمور :

الأمر الأول :

ان المصادر التي يرجع إليها في بيان عقيدته هي كتبه الثابتة عنه ، أما ماعدا ذلك من المصادر فالجزم بنسبة القول إليه منها لا يخلو من محاذير ، والسبب في ذلك – فوق مافي النقل من مظنة تغير العبارات أو الزيادة والنقص – أن الأشعري بالذات له منزلة خاصة لدي أتباعه الذين ينتسبون إليه ، والذين طوروا مذهبه وغيروا فيه واقتربوا كثيرا من المعتزلة ، لذلك فأقواله التي تخالف ما هم عليه لن تكون محل ارتياح لهم مما قد يؤدي إلى تحريف كلامه وأن ينسب إليه مالم يقله . وأقرب مثال على ذلك مسألة الصفات الخبرية كالوجه واليدين والعين فقد نسب إليه المتأخرون أن له فيها قولين : الإثبات مع التفويض أو التأويل ، وهذا غير صحيح مطلقا .

الأمر الثاني :

جمع ابن فورك مقالات الأشعري في كتاب كبير ، وذكر فيه قضايا عديدة من مسائل العقيدة ، ومن دقائق علم الكلام ، مما لم يوجد في كتبه التي وصلت إلينا ، وقد قال محقق الكتاب عن قيمته بالنسبة لفكر الأشعري : « سوف تدرك – دون كبير جهد – أهمية هذا الكتاب البالغة ، صحيح أن فكر الأشعري لم يكن مجهولا لدينا تماما ، فالجوهري منه على الأقل قد وصلنا ، خصوصا في كتاب « اللمع » إلا أن ذلك يعد نزرا يسيرا إذا ماقيس بفيض المعلومات التي يزودنا بها كتاب المجرد ، ولعلنا لا نبالغ كثيرا إذا نحن تحدثنا بهذا الخصوص عن بعث لفكر الأشعري ، ذلك أننا هنا إذا كان البعض لا يزال يشك – لفرط ماكان الأشعري ضحية للأفكار الخاطئة – أننا هنا أمام فكر الأشعري الحقيقي كاملا غير منقوص ، لا يؤكد ذلك فقط أن مرجعنا هو ابن فورك ، ولا يؤكد ذلك فقط الرجوع الكثير إلى مؤلفات الأشعري « إلى ثلاثين منها ، وبعضها يذكر أكثر من عشر مرات » وإنما كذلك المطابقة التامة بين الآراء التي يوردها الكتاب وبين الآراء التي ترد في اللمع أو تلك التي ينقلها أبو منصور البغدادي والجويني وأبو القاسم الأنصاري وغيرهم » .

« هكذا يستعيد الأشعري بصورة نهائية هويته الحقيقية : هويته لا بوصفه تلميذا إمعا لابن حنبل ، وإنما باعتباره متكلما حقيقيا من متكلمي عصره ، وتلميذا خليقا بشيخه أبي علي الجبائيّ ، متكلما كشيخه ، يقطع برأي نفسه في المسائل المختلفة ، ويخوض ببراعة شيخه في جميع لطائف « دقيق » الكلام ، هويته كرجل استحق بجدارة أن يطلق اسمه على كل المدرسة التي انتسبت إليه » [(١)] .

ولا شك أن من اطلع على « المجرد » يرى أن هذا الكلام صحيح في الجملة ، ويعلل كثيرا من الأمور – المثيرة للتساؤل – ومنها : لماذا كان موقف علماء السلف من الأشعري بهذه الشدة ؟ ، ولماذا نسبت هذه المدرسة – التي قربت كثيرا في مراحلها الأخيرة من المعتزلة – إلى أبي الحسن الأشعري دون غيره ؟ .

ومع ذلك فالكتاب منطو على مشكلة – عسير حلها – ألا وهي مدي الدقة في نسبة الأقوال إلى الأشعري في هذا الكتاب لأن ابن فورك تصرف في النقل – كما أشار إلى ذلك في مقدمة وخاتمة الكتاب – وقد سبق شرح ذلك في آخر مؤلفات الأشعري [(٢)] .

لذلك فكتاب المجرد يعطي رأيا مجملا في منهج الأشعري الكلامي وأنه خاض في هذه القضايا كلها خوض أهل الكلام ، لكنه لا يعطي رأيا محددا في مسألة معينة يمكن أن نطمئن على أنها من كلام الأشعري إلا بعد مقارنات بما نقله عنه الآخرون .

الأمر الثالث :

لاشك أن الأشعري جاء بقول توسط فيه بين أقوال المعتزلة وأقوال أهل السنة :

---

(١) المجرد ، مقدمة المحقق (ص : ٤-٥) – ت -- دانيال جيماريه .
(٢) (ص : ٣٥٩-٣٦٣) .

أ - فطبيعة نشأته في أحضان الاعتزال بقي تأثيرها على منهجه بعد رجوعه [١] : وتمثل ذلك في :

١ - خبرته بأقوال أهل الكلام ومعرفة دقائق أقوالهم .

٢ - قلة خبرته بأقوال أهل السنة ، ولذلك لا ينقل أقوالهم مفصلة بالطرق التي ينقلونها ، ثم قد ينسب إليهم مالم يقولوه .

٣ - قوله بأقوال ابن كلاب ، خاصة فيما يتعلق بالصفات الاختيارية .

ب - ورجوعه عن الاعتزال جعله يقول بكثير من أقوال أهل النسة وتمثل ذلك في :

١ - إثبات الصفات لله ومنها الصفات الخبرية وإقرارها كما جاءت .

٢ - إثبات العلو والاستواء والرؤية خلافا للمعتزلة .

٣ - إثبات السمعيات ، ومنها أمور خالف فيها المعتزلة أو بعضهم مثل الشفاعة ، وعذاب القبر ، وغيرها .

٤ - الاستدلال بالنصوص من الكتاب والسنة ، وموافقة إجماع السلف .

والآن نذكر باختصار عقيدته :

أ - إثبـــات وجـــود الله :

يحتج الأشعري على وجود الله بخلق الإنسان ، يقول في اللمع « إن سأل سائل فقال ما الدليل على أن للخلق صانعا صنعه ومدبرا دبره ؟ قيل : الدليل على ذلك أن الإنسان الذي هو في غاية الكمال والتمام كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحما وعظاما ودما ، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال ، لأنا نراه في حال كمال قوته وتمام عقله لا يقدر أن يحدث لنفسه سمعا ولا بصرا ،

---

(١) ذكر ابن عساكر عن الأشعري : أنه قال في بعض محاوراته مع مخالفيه : « إني أظهرت بدعة أنقض بها كفرهم » ، التبيين (ص : ٩٧) ، وانظر تعليق ابن عساكر وجوابه عن هذا ، ولما سئل الأشعري وقيل له : كيف تخالط أهل البدع وقد أمرت بهجرهم أجاب عن ذلك بأنه لابد من إظهار الحق ومعرفة أن لأهل السنة ناصرا ، انظر : جوابه في التبيين أيضا (ص : ١١٦) .

ولا أن يخلق لنفسه جارحة ، يدل ذلك على أنه في حال ضعفه ونقصانه عن فعل ذلك أعجز ؛ لأن ما قدر عليه في حال النقصان فهو في حال الكمال عليه أقدر ، وما عجز عنه في حال الكمال فهو في حال النقصان عنه أعجز ، ورأيناه طفلا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا ، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال الشباب إلى حال الكبر والهرم لأن الإنسان لو جهد أن يزيل عن نفسه الكبر والهرم ويردها إلى حال الشباب لم يمكنه ذلك فدل ماوصفنا على أنه ليس هو الذي ينقل نفسه في هذه الأحوال وأن له ناقلا نقله من حال إلى حال ودبره على ماهو عليه ، لأنه لا يجوز انتقاله من حال إلي حال بغير ناقل ولا مدبر » [١] ، ثم يشرح ذلك بأن القطن لا يتحول غزلا مفتولا ثم ثوبا منسوجا بغير ناسج ولا صانع [٢] .

واحتج بنفس الدليل في رسالته إلي أهل الثغر فقال : « ونبههم على حدثهم بما فيهم من اختلاف الصور والهيآت ، وغير ذلك من اختلاف اللغات ، وكشف لهم عن طريق معرفة الفاعل لهم بما فيهم وفي غيرهم بما يقتضي وجوده ، ويدل على إرادته وتدبيره حيث قال عز وجل ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات ٢١] فنبههم عز وجل بتقلبهم في سائر الهيئات التي كانوا عليها على ذلك وشرح بقوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون ١٢ – ١٤] » [٣] . لكن الأشعري لما شرح ذلك أتى باستدلال لا يسلم له حين قال معلقا على الآيات السابقات : « وهذا من أوضح ما يقتضي الدلالة على حدث الإنسان ووجود المحدث له ، من قبل أن العلم قد أحاط بأن كل متغير لا يكون قديما ، وذلك أن تغيره يقتضي مفارقة حال كان عليها قبل تغيره ، وكونه قديما ينفي تلك الحال ... » [٤] . فقد ذكر أمرين : إثبات حدث

---

(١) اللمع (ص : ٦) – ط – مكارثي .

(٢) انظر : نفس المصدر (ص : ٦–٧) .

(٣) الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٣٤–٣٥) .

(٤) نفس المصدر (ص : ٣٥) .

الإنسان ، وإثبات وجود المحدث له ، فاستدل للأول بالتغير الذي يحدث للإنسان وتقلبه من حال إلى حال وأن هذا يقتضي حدوثه ، ثم استدل بذلك على وجود المحدث له لأن كل متغير لا يكون قديما ، وهذا مبني على ما سبق بيانه من نفى حلول الحوادث الذي يقول به الأشعري ، والخلاصة أن الاستدلال بحدوث الإنسان وخلقه على خالقه دليل صحيح وهو الذي جاء به القرآن ، أما الاستدلال على حدث الإنسان بتغيره ، ثم ربط التغير بالمحدث (الخالق) – وانه لا يكون متغيرا وإلا لكان محدثا ؛ غير مسلم .

أما دليل الأعراض وحدوث الأجسام الذي احتج به المتكلمون ، وقالوا : إن إثبات الصانع لا يتم إلا بإثبات حدوث الأجسام ، ولا يتم إثبات حدوث الأجسام إلا بإثبات حدوث صفاتها (الأعراض) ، ورتبوا على ذلك نفى الصفات عن الله أو بعضها ، فقد بين الأشعري أن الرسل لم يدعوا إليه ، يقول : « فأما مادعاهم إليه عليه الصلاة والسلام من معرفة حدثهم ومعرفة محدثهم ، ومعرفة أسمائه الحسني وصفاته العليا ، وعدله وحكمته ، فقد بين لهم وجوه الأدلة في جميعه حتي ثلجت صدورهم به واستغنوا عن استئناف الأدلة فيه ، وبلغوا جميع ماوقفوا عليه من ذلك واتفقوا عليه إلى من جاء بعدهم ، فكان عذرهم فيما دعوا إليه من ذلك مقطوعا بما [1] نبههم النبي – ﷺ – من الأدلة على ذلك وما شاهدوه من آياته الدالة على صدقه ... وجميع ما اتفقوا عليه من الأصول مشهور في أهل النقل الذين عنوا بحفظ ذلك وانقطعوا إلى الاحتياط فيه ، والاجتهاد في طلب الطرق الصحيحة إليه من المحدثين والفقهاء ، يعلمه أكابرهم أصاغرهم ويدرسونه صبيانهم في كتاتيبهم لتقرر ذلك عندهم وشهرته فيهم ، واستغنائهم في العلم بصحة جميع ذلك بالأدلة التي نبههم صاحب الشريعة عليها في وقت دعوته » [2] ، ثم بعد هذه المقدمة المركزة لبيان استغناء الصحابة ومن بعدهم بأدلة الكتاب والسنة قال عن دليل الأعراض : « واعلموا أرشدكم الله أن ما دل على صدق النبي – ﷺ – من المعجزات بعد تنبيهه لسائر المكلفين على حدثهم

---

(١) في المطبوعة ، الجليند « بها » والتصويب من المخطوطة (ص : ٦) ، ودرء التعارض (٢٠٧/٧) .

(٢) الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٥٢-٥٤) .

ووجود المحدث لهم قد أوجب صحة اخباره ودل على أن ما أتي به من الكتاب والسنة من عند الله عز وجل ، وإذا ثبت بالآيات صدقه فقد علم صحة كل ما أخبر به النبي – ﷺ – عنه وصارت أخباره عليه الصلاة والسلام أدلة على صحة سائر ما دعا إليه من الأمور الغائبة عن حواسنا ، وصفات فعله ، وصار خبره عليه الصلاة والسلام عن ذلك سبيلا إلي إدراكه ، وطريقا إلى العلم بحقيقته ، وكان يستدل به من اخباره عليه الصلاة والسلام على ذلك أوضح دلالة من دلالة الأعراض التي اعتمد على الاستدلال بها الفلاسفة ومن اتبعها من القدرية وأهل البدع المنحرفين عن الرسل عليهم السلام » [1] ، لكن الأشعري يعلل ذلك ليس ببطلانها في ذاتها وإنما لأمور أخرى يقول – بعد الكلام السابق – : « من قبل أن الأعراض لا يصح الاستدلال بها إلا بعد رتب كثيرة يطول الخلاف فيها ، ويدق الكلام عليها » [2] – ثم شرح ذلك ثم قال – : « وإذا كان ذلك على ما وصفنا بان لكم أرشدكم الله أن طرق الاستدلال باخبارهم عليهم السلام على سائر ما دعينا إلى معرفته مما لا يدرك بالحواس ، أوضح من الاستدلال بالأعراض ؛ اذ كانت أقرب إلى البيان على حكم ما شوهد من أدلتهم المحسوسة مما اعتمدت عليه الفلاسفة ومن اتبعهم من أهل الأهواء .. » [3] .

ب – وحدانيـــة الله :

يستدل الأشعري لذلك بدليل التمانع ، وقد شرحه بقوله « لأن الاثنين لا يجري تدبيرهما على نظام ، ولا يتسق على احكام ، ولابد أن يلحقهما العجز أو واحدا منهما ، لأن أحدهما إذا أراد أن يحيى إنسانا وأراد الآخر أن يميته لم يخل أن يتم مرادهما جميعا ، أو لا يتم مرادهما ، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر ، ويستحيل أن يتم مرادهما جميعا لأنه يستحيل أن يكون الجسم حيا ميتا في حال واحدة ، وإن لم يتم مرادهما جميعا وجب عجزهما ، والعاجز لا يكون إلـها ولا قديما ، وإن تم مراد أحدهما دون الآخر وجب العجز لمن لم يتم مراده منهما ،

---

(١) الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٥٤–٥٥) .
(٢) المصدر السابق (ص : ٥٥) .
(٣) المصدر السابق (ص : ٥٧) .

والعاجز لا يكون إلـها ولا قديما ، فدل ما قلناه على أن صانع الأشياء واحد ، وقد قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلاَّ ٱللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء ٢٢] فهذا معنى احتجاجنا آنفا » [١] .

ودليل التمانع احتج به العلماء ، وهو دليل صحيح ، أما الاستدلال له بآية ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ الاَّ ٱللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ، فقد بناه الأشعري على رأيه في معنى الإله وأن المقصود به : القادر على الاختراع والخلق ، ففسر الألوهية بتوحيد الربوبية ، يقول الشهرستاني : « قال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري : إذا كان الخالق على الحقيقة هو الباري تعالى ، لا يشركه في الخلق غيره ، فأخص وصفه تعالى هو : القدرة على الاختراع ، قال : وهذا هو تفسير اسمه تعالى : الله » [٢] .

والآية إنما هي في توحيد الألوهية ، وأما توحيد الربوبية فقد كان المشركون وجميع الأمم مقرين به ، ولذلك جاءت الرسل بتقرير توحيد الألوهية والرد على المشركين فيه ، واحتجوا على ذلك بتوحيد الربوبية ، لأنه مستلزم له ، أما توحيد الألوهية - الذي دلت عليه الآية - فهو متضمن لتوحيد الربوبية .

جـ - عقيدته في الأسماء والصفات :

أما الأسماء :

فيثبت الأشعري جميع ما ورد من أسماء الله تعالى ، ويعتمد في ذلك على السمع فقط ، فما ورد أثبته ، ومالم يرد سكت عن إثباته ، ولذلك ناظر أبا علي الجبائي حول هل يسمي الله عاقلا مستخدما هذا المنهج [٣] .

وأما الصفات :

فإنه أثبت أيضا ماورد في النصوص ، وإن كان قد استدل لبعضها بالأدلة

---

(١) اللمع (ص : ٨) - ت مكارثي ، وذكره أيضا مع الإحتجاج بالآية في الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٤١) .

(٢) الملل والنحل (١/١٠٠) ، وذكره في نهاية الإقدام (ص : ٩١) ، كما ذكره ابن فورك في المجرد (ص : ٤٧) ، والبغدادي في أصول الدين (ص : ١٢٣) .

(٣) سبق عند الحديث عن أسباب رجوع الأشعري .

العقلية إلا أنه جعل أدلة السمع هي المقدمة ، ويمكن تفصيل أقواله في الصفات كما يلي :

١ - الصفات العقلية :

وهي صفات الذات العقلية التي يسميها المتكلمون صفات المعاني ، وهي سبع صفات : العلم والحياة والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة .

والأشعري يثبت هذه الصفات ويستدل لها بالنصوص وبالعقل ، يقول عن أهل السنة : « وأجمعوا على إثبات حياة لله عز وجل لم يزل بها حيا ، وعلما لم يزل به عالما ، وقدرة لم يزل بها قادرا ، وكلاما لم يزل به متكلما ، وإرادة لم يزل بها مريدا ، وسمعا وبصرا لم يزل به سميعا بصيرا » [١] ، ثم ذكر قدم هذه الصفات ، وأن صفاته لا تشبه صفات المخلوقين كما أن نفسه لا تشبه أنفس المخلوقين ، ويحتج على ذلك بدلالة الأسماء على الصفات فيقول : « واستدلوا على ذلك بأنه لو لم يكن له عز وجل هذه الصفات لم يكن موصوفا بشيء منها في الحقيقة ، ومن لم يكن له فعل لم يكن فاعلا في الحقيقة ، ومن لم يكن له إحسان لم يكن محسنا ، ومن لم يكن له كلام لم يكن متكلما في الحقيقة ، ومن لم يكن له إرادة لم يكن في الحقيقة مريدا ، وإن وصف شيء من ذلك مع عدم الصفات التي توجب هذه الأوصاف له لا يكون مستحقا لذلك في الحقيقة ، وإنما يكون وصفه مجازا أو كذبا ... وذلك أن هذه أوصاف مشتقة من أخص أسماء هذه الصفات ودالة عليها ... » [٢] .

ويقول في اللمع : « فإن قال قائل : لم قلتم : إن للباري تعالى علما به علم ؟ قيل له : لأن الصنائع الحكمية كما لا تقع منا إلا من عالم كذلك لا تحدث منا إلا من ذي علم ، فلو لم تدل الصنائع على علم من ظهرت منه منا ، لم تدل على أن من ظهرت منه منا فهو عالم » [٣] . ثم قال : « والدليل على أن لله تعالى قدرة وحياة كالدليل على أن لله تعالى علما ، وقد قال الله جل ذكره

---

(١) الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٦٧) .
(٢) الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٦٨-٦٩) ، وأشار إلى ذلك في الإبانة (ص : ١٥١) - ت - فوقية .
(٣) اللمع (ص : ١٢) - مكارثي - ، و(ص : ٢٦-٢٧) - ت - غرابة .

﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء : ١٦٦] وقال : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ [فاطر ١١ ، فصلت ٤٧] فثبت العلم لنفسه ، وقال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت ١٥] فثبت القوة لنفسه » [١] .

وفي الإبانة يذكر الأدلة السمعية على العلم وغيره [٢] ، ثم يذكر في معرض الرد على المعتزلة الدليل العقلي فيقول : « فإن قالوا : قلنا : إن الله عالم لأنه صنع العالم على مافيه من آثار الحكمة واتساق التدبير ، قيل لهم : فلم لا قلتم إن لله علما بما ظهر في العالم من حكمة وآثار تدبيره ؟ ؛ لأن الصنائع الحكمية لا تظهر إلا من ذي علم كما لا يظهر إلا من عالم ، وكذلك لا تظهر إلا من ذي قوة كما لا تظهر إلا من قادر » [٣] .

٢ - **الصفات الفعلية :**

وهي الصفات المتعلقة بإرادة الله ومشيئته مثل الكلام - وهو صفة ذات أيضا - والاستواء ، والنزول ، والمجيء ، والضحك ، والغضب ، والرضا ، والمحبة ، والتعجب ، وغيرها .

وقد سبق بيان أن الأشعري لا يقول بالصفات الاختيارية ويبني ذلك على أن الله لا تحله الحوادث [٤] .

لكن الأشعري يثبت ما ورد في النصوص منها ، ويتأولها بأحد أمرين :

أ - إما أن يجعل الصفة أزلية ، قديمة مع الله ، لا يتجدد له فيها حال كما يشاء ، وذلك مثل الكلام ، والمحبة ، والرضا .

---

(١) اللمع (ص : ١٣-١٤) - مكارثي - .

(٢) انظر : الإبانة (ص : ٢٢-٢٣،١٤١) - ت - فوقية .

(٣) الإبانة (ص : ١٤٨-١٤٩) ، وانظر : (ص : ١٥٦-١٥٩) ، وانظر : أيضا اللمع (ص : ١١-١٢) - مكارثي - .

(٤) عند الحديث عن أطوار الأشعري .

ب – وإما أن يجعل مقتضي الصفة مفعولا منفصلا عن الله لا يقوم بذاته كالخلق ، فإن الله خلق الخلق فلم تحل بذاته حوادث لأن الخلق هو المخلوق ، وكذلك يقول في الاستواء والنزول : إنه لا تقوم بالله صفة وإنما فعل فعلا في العرش سماه استواء ، كما فعل في سماء الدنيا فعلا سماه نزولا .

ونذكر نماذج من كلامه في هذه الصفات :

– الكلام :

يثبت أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ويذكر لذلك الأدلة من القرآن ، ويرد على المعتزلة ، يقول : « إن قال قائل : لم قلتم إن الله تعالى لم يزل متكلما وإن كلام الله تعالى غير مخلوق ؟ قيل له : لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل ٤٠] فلو كان القرآن مخلوقا لكان الله تعالى قائلا له : كن ، والقرآن قوله ، ويستحيل أن يكون قوله مقولا له ، لأن هذا يوجب قولا ثانيا ، والقول في القول الثاني وفي تعلقه بقول ثالث كالقول في القول الأول وتعلقه بقول ثان ، وهذا يقتضي مالا نهاية له من الأقوال ، وذلك فاسد ، وإذا فسد ذلك فسد أن يكون القرآن مخلوقا » [1] .

وفي الإبانة يذكر أدلة أخرى ومنها ، قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف ٥٤] ففرق بين الأمر والخلق [2] ، كما يحتج بقوله تعالى ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء ١٦٤] « والتكليم هو المشافهة بالكلام ، ولا يجوز أن يكون كلام المتكلم حالا في غيره مخلوقا في شيء سواه ، كما لا يجوز ذلك في العلم » [3] ، كما يذكر من الأدلة أن أسماء الله في القرآن ، فكيف يكون مخلوقا [4] .

---

(١) اللمع (ص : ١٥) – مكارثي – ، وانظر : الإبانة (ص : ٦٥) .
(٢) انظر : الإبانة (ص : ٦٣-٦٤) .
(٣) نفس المصدر (ص : ٧٢) .
(٤) انظر : نفس المصدر (ص : ٧٣) .

ويذكر ما ورد من الروايات عن الإمام أحمد وغيره في أن القرآن غير مخلوق (١) .

ويرد على من توقف في القرآن ، وقال لا أقول : إنه مخلوق ولا انه غير مخلوق ، ويقول لهم - بعد المناقشة - : « يلزمكم أن تتوقفوا في كل ما اختلف الناس فيه ولا تقدموا في ذلك على قول ، فإن جاز لكم أن تقولوا ببعض تأويل المسلمين إذا دل على صحتها دليل ، فلم لا قلتم : إن القرآن غير مخلوق بالحجج التي ذكرناها في كتابنا هذا » (٢) .

ثم يذكر أن كلام الله في اللوح المحفوظ ، وفي صدور الذين أوتوا العلم وهو متلو بالألسنة ، ويقول : « والقرآن مكتوب في مصاحفنا في الحقيقة ، محفوظ في صدورنا في الحقيقة ، متلو بألسنتنا في الحقيقة ، مسموع لنا في الحقيقة كما قال تعالى : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة ٦] » (٣) .

وأما مسألة اللفظ بالقرآن فإنه ينكر ذلك ويقول : « القرآن يقرأ في الحقيقة ويتلى ، ولا يجوز أن يقال يلفظ به لأن القائل لا يجوز له أن يقول : إن كلام الله ملفوظ به ، لأن العرب إذا قال قائلهم لفظت باللقمة من فمي فمعناه رميت بها ، وكلام الله لا يقال يلفظ به ، وإنما يقال : يقرأ ويتلى ويكتب ويحفظ ، وإنما قال قوم : لفظنا بالقرآن ليثبتوا أنه مخلوق ويزينوا بدعتهم وقولهم بخلقه ... » (٤) .

وفي اللمع يشرح عقيدته في كلام الله وأنه أزلي ويبنيه على مسألة حلول الحوادث (٥) .

---

(١) الإبانة (ص : ٨٧-٩٦) .

(٢) المصدر السابق (ص : ٩٩) .

(٣) نفس المصدر (١٠٠-١٠١) .

(٤) نفسه (ص : ١٠١) .

(٥) انظر : اللمع (ص : ٢٢-٢٣) - ط مكارثي - .

لكن بقي في مسألة الكلام ما نسب إلي الأشعري من أنه يقول : إن كلام الله واحد ، وانه معنى قائم بذات الله تعالى ، وانه لم يزل متصفا بكونه أمرا ونهيا وخبرا ، وانه ليس بحروف ولا أصوات .

فهذه الأقوال بذاتها لم نجدها منصوصا عليها في كتبه الموجودة ، لكن نسبها إليه أعلام الأشاعرة وغيرهم ، كابن فورك ، والجويني ، والشهرستاني ، وأبي نصر السجزي [١] ، ونقلها عن هؤلاء من جاء بعدهم .

- الاستواء والعلو :

أثبت الاستواء واستدل به وبغيره على إثبات علو الله تعالى ، يقول : « إن قال قائل : ما تقولون في الاستواء ؟ قيل له : نقول إن الله عز وجل مستو على عرشه كما قال : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه ٥] وقد قال الله عز وجل : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر ١٠] وقال : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء ١٥٨] وقال عز وجل : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة ٥] وقال حكاية عن فرعون : ﴿ يَاهَامَانُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ [غافر ٢٦ - ٢٧] ، كذب موسى عليه السلام في قوله : إن الله عز وجل فوق السموات ، وقال عز وجل : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ [الملك ١٦] فالسموات فوقها العرش فلما كان العرش فوق السموات قال : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَاءِ ﴾ لأنه مستو على العرش الذي فوق السموات ... » [٢] ، ثم رد على المعتزلة والجهمية وغيرهم في تأويلهم الاستواء

---

(١) انظر : المجرد (ص : ٦٧) ، والإرشاد (ص : ١٢٠) ، ونهاية الإقدام (ص : ٣٠٤، ٣١٣، ٣٢٠) ، والملل والنحل للشهرستاني (٩٦/١) ، والرد على من أنكر الحرف والصوت (ص : ٩٥، ١١٩) مطبوع على الآلة الكاتبة .

(٢) الإبانة (٤٥-٤٦) - ط هندية - .

بالاستيلاء والملك والقهر ، وقولهم : إن الله في كل مكان ، وناقشهم نقاشا قويا مركزا ، ثم احتج على الاستواء والعلو بأحاديث النزول ، وبأدلة أخري [١] .

هذا مذهب الأشعري وقوله في الاستواء كما ذكره في الإبانة والرسالة إلى أهل الثغر ، لكن نجد أن أتباعه ينسبون إليه تفسيرا للاستواء ، نذكره لأن مجموعة منهم نسب إليه ذلك ، يقول البيهقي : « وذهب أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري إلى أن الله تعالى جل ثناؤه فعل في العرش فعلا سماه استواء كما فعل في غيره فعلا سماه رزقا ونعمة أو غيرهما من أفعال ، ثم لم يكيف الاستواء إلا أنه جعله من صفات الفعل لقوله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف ٥٤ ، يونس ٣ ، الرعد ٢ ، الفرقان ٥٩ ، السجدة ٤ ، الحديد ٤] ، وثم للتراخي ، والتراخي إنما يكون في الأفعال ، وأفعال الله تعالى توجد بلا مباشرة منه إياها ولا حركة » [٢] ، وأشار إلى ذلك البغدادي ، وابن فورك وابن عساكر ، والجويني [٣] .

- النزول والمجيء :

يثبت الأشعري النزول للأحاديث الواردة في ذلك ، والتي يذكرها ، كما يثبت المجيء لله تعالي ويذكر أدلته من القرآن [٤] .

وقد شرحهما في رسالته إلى أهل الثغر بما يوضح مذهبه في أنه لا تقوم

---

(١) انظر : الإبانة (ص : ٤٦-٥٠) - هندية - ، وكان الاعتماد في الإبانة على الطبعة الهندية لأن طبعة فوقية المحققة فيها زيادات غير صحيحة - خاصة في هذه الفصول - ، وانظر : الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٧٥-٧٦) .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص : ٤١٠) ، وانظر : مختصره المسمي : « دقائق الإشارات إلى معاني الأسماء والصفات » لعبد الله بن محمد الأنصاري الخليلي ، توفي سنة ٧٢٤ هـ (ص : ٣١٢) مطبوع طباعة أولية .

(٣) انظر : أصول الدين (ص : ١١٣) ، والمجرد (ص : ٣٢٥-٣٢٦) ، وتبيين كذب المفتري (ص : ١٥٠) . والشامل (ص : ٥٥٥-٥٥٦) .

(٤) انظر : الإبانة - هندية - (ص : ١١،٤٧،٤٨) .

بذات الله صفات الفعل فيقول : « وليس مجيئه حركة ولا زوالا ... وليس نزوله تعالى نقلة لأنه ليس بجسم ولا جوهر ... » [١] .

وقد نسب البيهقي إلى الأشعري في معناهما مثل ما ورد في الاستواء بأن « يحدث الله تعالى يوم القيامة فعلا يسميه إتيانا ومجيئا ، لا بأن يتحرك أو ينتقل ... وهكذا قال في أخبار النزول : إن المراد به فعل يحدثه الله عز وجل في سماء الدنيا كل ليلة يسميه نزولا بلا حركة ولا نقلة ... » [٢] وهو موافق لتأويلات الأشعري السابقة .

- **الرضا والغضب :**

يثبتهما لكن يتأولهما بالإرادة ، فرضاه عن الطائعين إرادته لنعيمهم ، وغضبه على الكافرين إرادته لعذابهم [٣] ، وتأويله لهما مخالف لمذهب أهل السنة والجماعة ، لكن الأشعري يتأولهما ليسلم له الأصل الفاسد الذي قال به .

٣ - الصفات الخبرية :

يثبت الأشعري لله الصفات الخبرية ، كالوجه ، واليدين ، والعينين ، ويستدل لذلك بالنصوص ، ويرد على من تأولها من الجهمية وغيرهم ، وأطال بصفة خاصة في صفة اليدين ، وناقش من تأولهما مستدلا بنصوص الكتاب والسنة ، وهذا هو مذهب السلف - رحمهم الله [٤] - .

بقي أن بعض المتأخرين زعم أن للأشعري قولا آخر فيها وهو القول

---

(١) الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٧٣-٧٤) .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص : ٤٤٨-٤٤٩) .

(٣) انظر : الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٧٤-٧٥) .

(٤) انظر : الإبانة (ص : ٥١-٥٨) - هندية - ، و(ص : ١٢٠ - ١٤٠) - ت - فوقية ، وانظر : الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٧٢-٧٣) .

بتأويلها [١] ، وهذا غير صحيح ، والتأويل إنما هو قول متأخري الأشعرية فقط كالجويني ومن جاء بعده ، أما الأشعري فليس له فيها إلا قول واحد .

د - قوله في الرؤيـــة :

يثبت الأشعري الرؤية ، وان المؤمنين يرون الله عز وجل يوم القيامة بأعين وجوههم على ما أخبر به تعالى [٢] ، ويحتج لذلك بعدد كبير من النصوص من الكتاب والسنة ، ويناقش المعتزلة طويلا [٣] .

ويلاحظ أن الأشعري لا يفرق - أحيانا - بين الإدراك والرؤية ، ولذلك لما أورد سؤال سائل عن معني قوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ [الأنعام ١٠٣] قال : « قيل له : يحتمل أن يكون لا تدركه في الدنيا وتدركه في الآخرة ... » [٤] ، « ويحتمل أن يكون الله تعالى أراد بقوله : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ ﴾ يعني لا تدركه أبصار الكافرين المكذبين » [٥] ، وهذان جوابان ضعيفان ، ولذلك لما أطال في مناقشة المعتزلة وذكر اعتراضاتهم حول هذه الآية ألمح إلى الجواب الصحيح فقال : « فإن قالوا قوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ ﴾ يوجب أن لا يدرك بها في الدنيا والآخرة وليس ينفي ذلك أن نراه بقلوبنا ، ونبصره بها ولا ندركه بها ؟ قيل لهم : فما أنكرتم أن يكون لا ندركه بأبصار العيون ، ولا يوجب إذا لم ندركه بها أن لا نراه بها ، فرؤيتنا له بالعيون وابصارنا له بها ليس بإدراك له بها ، كما أن إبصارنا له بالقلوب ورؤيتنا له بها ليس بإدراك له ، فإن قالوا : رؤية البصر هي إدراك البصر ، قيل لهم : ما الفرق

---

(١) ممن ذكر ذلك : الإيجي في المواقف (٨/١١٠-١١٢) مع شرحه ، والبياضي في إشارات المرام (ص : ١٨٨) .

(٢) انظر : الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٧٦) .

(٣) عقد الأشعري لمسألة الرؤية أبوابا مستقلة في الإبانة (ص : ١٣-٢٤) - هندية - ، و(ص : ٣٥-٦٢) - ت - فوقية ، وفي اللمع (ص : ٣٢-٣٦) - ط مكارثي - .

(٤) الإبانة (ص : ٤٧) - فوقية ، انظر : اللمع (ص : ٣٥) مكارثي .

(٥) الإبانة (ص : ٤٧) .

بينكم وبين من قال : إن رؤية القلب وإبصاره هو إدراكه وإحاطته ؟ ، فإذا كان علم القلب بالله عز وجل وإبصار القلب له رؤيته إياه ليس بإحاطة ولا إدراك فما أنكرتم أن تكون رؤية العيون وإبصارها لله عز وجل ليس بإحاطة ولا إدراك » [١] ، فلو بنى الجواب على التفريق بين الإدراك والرؤية لوضح الأمر ولأصبحت الآية دالة على الرؤية ، فيكون الكلام في إثبات دلالتها على المذهب الحق ، وليس في بيان عدم دلالتها على نفى الرؤية .

أما الأدلة العقلية على إثبات الرؤية فقد ذكر دليلين :

أحدهما : دلالة الوجود ، و « أنه ليس موجودا إلا وجائز أن يريناه الله عز وجل ، وإنما لا يجوز أن يرى المعدوم ، فلما كان الله عز وجل موجودا مثبتا كان غير مستحيل أن يرينا نفسه عز وجل » [٢] .

والآخر : أن الله يرى الأشياء ، فإذا كان لنفسه رائيا فجائز أن يرينا نفسه ، ويقول : « ولما كان الله عز وجل رائيا للأشياء كان رائيا لنفسه ، وإذا كان رائيا لها فجائز أن يرينا نفسه كما أنه لما كان عالما بنفسه جاز أن يعلمناها » [٣] .

هذا كلامه في الإبانة ، لكنه في اللمع يستدل على جواز الرؤية باستدلال يقوم على أن الرؤية لا يلزم منها إثبات حدث الباري ، أو إثبات حدث معني فيه أو تشبيهه أو غيره مما يقول : إنه يستحيل أن يتصف به ، وذلك احترازا من اللوازم الباطلة التي يظنها نفاة الرؤية [٤] ، ولذلك ذكر الأشعري عن بعض أصحابه انه التزم جواز اللمس والذوق والشم إذا كان ذلك لا يقتضي إحداث معنى في الباري [٥] .

---

(١) الإبانة (ص : ٥٩) – ت – فوقية ، و(ص : ٢٢ – ٢٣) – هندية – .

(٢) المصدر السابق (ص : ٥٢) – ت – فوقية .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) اللمع (ص : ٣٢-٣٣) – مكارثي – .

(٥) انظر : نفس المصدر (ص : ٣٣) .

وإذا كان الأشعري يثبت لله صفة العلو والاستواء ، والمباينة للمخلوقات فإثبات الرؤية مستقيم على مذهبه خلافا لمتأخري أصحابه الذين أثبتوا الرؤية ونفوا العلو فتناقضوا .

والأشعري يرى أنه لا يلزم من اثبات الرؤية التجسيم لأنه لا يشترط أن يكون المرئيُّ جسما يقول : « فإن قال قائل : فهل شاهدتم مرئيا إلا جوهرا أو غرضا محدودا أو حالا في محدود ؟ قيل له : لا ، ولم يكن المرئيُّ مرئيا لأنه محدود ولا لأنه حال في محدود ولا لأنه جوهر ، ولا لأنه عرض ، فلما لم يكن ذلك كذلك لم يجب القضاء بذلك على الغائب ، كما لم يجب إذا لم نجد فاعلا إلا جسما ، ولا شيئا إلا جوهرا أو عرضا ، ولا عالما قادرا حيا إلا بعلم وحياة وقدرة محدثة ، أن نقضي بذلك على الغائب ، إذ لم يكن الفاعل فاعلا لأنه جسم ، ولا الشيء شيئا لأنه جوهر أو عرض » [١] .

هـ - قوله في القدر :

كلام الأشعري في القدر وأفعال العباد طويل جدا ومتفرع إلي مسائل كثيرة ، وهو يثبت علم الله الشامل المحيط بكل شيء [٢] ، كما يثبت الكتابة في اللوح المحفوظ وأن الله أثبت فيه جميع ماهو كائن إلي يوم القيامة ، وقد دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۔ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ [القمر ٥٢ - ٥٣] [٣] ، كما انه يثبت إرادة الله الشاملة لكل شيء - وهي التي بمعنى المشيئة - ويذكر الأدلة على ذلك ، ويناقش المعتزلة طويلا الذين يقولون : إن الله لا يريد الكفر ولا المعاصي وانها كائنة بغير إرادة منه [٤] ، كما أثبت قدرة الله وأن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها ورد على القدرية المعتزلة الذين

---

(١) اللمع (ص : ٣٦) .
(٢) انظر : الرسالة إلى الثغر (ص : ٨١) .
(٣) المصدر السابق (ص : ٧٩) .
(٤) انظر : الإبانة (ص : ١٦١) وما بعدها - ت - فوقية .

يقولون : إن الله غير خالق لأفعال العباد يقول : « ويقال لأهل القدر : أليس قول الله تعالى : ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٩] يدل على أنه لا معلوم إلا والله به عالم ، فإذا قالوا نعم ، قيل لهم : فما أنكرتم أن يدل قوله تعالى : ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة ٢٠] على أنه لا مقدور إلا والله عليه قادر ، وأن يدل قوله تعالى : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر ٦٢] على أنه لا محدث مفعول إلا والله محدث له فاعل خالق » [١] .

ويذكر في الإبانة بابا فيه الروايات الواردة في القدر ، مثل حجاج آدم وموسى ، وحديث النطفة في الرحم وتقلبها ، وكل ميسر لما خلق له ، وغيرها [٢] ، وهي دالة على قدر الله السابق الشامل .

لكن الأشعري مع قوله بهذه المراتب للقدر – مخالفا للمعتزلة وموافقا لأهل السنة – مال إلى الجبر ، وخالف أهل السنة في بعض المسائل ومنها :

القول بالكسب :

وهو من المسائل التي اشتهرت عن الأشعري ، وأخذ بها الأشعرية من بعده ، وقد جاء قوله بالكسب لإثبات قدرة الله الشاملة لكل شئ ، يقول الأشعري في المقالات : « واختلف الناس في معنى القول : إن الله خالق ، فقال قائلون : معنى أن الخالق خالق أن الفعل وقع منه بقدرة قديمة فإنه لا يفعل بقدرة قديمة إلا خالق ومعنى الكسب : أن يكون الفعل بقدرة محدثة ، فكل من وقع منه الفعل بقدرة قديمة فهو فاعل خالق ، ومن وقع منه بقدرة محدثة فهو مكتسب ، وهذا قول أهل الحق » [٣] ، وبعد أن يذكر عددا من الأقوال لأهل الإثبات وغيرهم يقول : « والحق عندي أن معنى الاكتساب هو أن يقع الشيء بقدرة محدثة ، فيكون كسبا لمن وقع بقدرته » [٤] .

---

(١) اللمع (ص : ٥٠-٥١) ، وانظر : الرسالة (ص : ٨٢) .
(٢) انظر : الإبانة (ص : ٢٢٥-٢٣٧) .
(٣) المقالات (ص : ٥٣٩) .
(٤) نفس المصدر (ص : ٥٤٢) .

والأشعري يفرق بين حركة الإضطرار كحركة المرتعش ، وحركة الاختيار مثل ذهاب الإنسان ومجيئه ، يقول : « فإن قال قائل : فيجب إذا كانت إحدى الحركتين ضرورة أن تكون الأخري كذلك ، وإذا كانت إحداهما كسبا أن تكون الأخري كذلك ، قيل له : لا يجب ذلك لافتراقهما في معني الضرورة والاكتساب ، لأن الضرورة ما حمل عليه الشيء وأكره وجبر عليه ، ولو جهد في التخلص منه وأراد الخروج عنه واستفرغ في ذلك مجهوده لم يجد منه انفكاكا ولا إلى الخروج عنه سبيلا ، فإذا كانت إحدى الحركتين بهذا الوصف الذي هو وصف الضرورة وهي حركة المرتعش من الفالج والمرتعد من الحمي كانت اضطرارا ، وإذا كانت الحركة الأخرى بخلاف هذا الوصف لم تكن اضطرارا ، لأن الإنسان في ذهابه ومجيئه وإقباله وإدباره بخلاف المرتعش من الفالج والمرتعد من الحمي ، يعلم الإنسان التفرقة بين الحالين من نفسه وغيره علم اضطرار لا يجوز معه الشك ، فقد وجب إذا كان العجز في إحدي الحالتين أن القدرة التي هي ضده حادثة في الحال الأخري ، لأن العجز لو كان في الحالين جميعا لكان سبيل الإنسان فيهما سبيلا واحدة ، فلما لم يكن هذا هكذا وكانت القدرة في إحدي الحركتين وجب أن تكون كسبا لأن حقيقة الكسب : أن الشيء وقع من المكتسب له بقوة محدثة لافتراق الحالين في الحركتين ، ولأن إحداهما بمعني الضرورة وجب أن تكون ضرورة ، ولأن الأخري بمعني الكسب وجب أن تكون كسبا ، ودليل الخلق في حركة الاضطرار وحركة الاكتساب واحد ، فلذلك وجب إذا كانت إحداهما خلقا أن تكون الأخري خلقا »[1] ، ويوضح أن كلا منهما خلق لله تعالى سواء كان اضطرارا أو اختيارا ، ثم يقول : « ليس العجز بأن يدل على أن الله تعالى خلق المعجوز عنه بأولي من أن تكون القدرة التي جعلها الله تعالى دلالة على أن الله خلق المقدور عليه ، لأن ماخلق الله القدرة فينا عليه فهو عليه أقدر ، كما أن ماخلق فينا العلم به فهو به أعلم ، وما خلق

---

(١) اللمع (ص : ٤١-٤٢) - مكارثى -.

فينا السمع له فهو له أسمع فإذا استوى ذلك فى قدرة الله تعالى وجب إذا قَدَّرْنا الله على حركة الاكتساب أن يكون هو الخالق لها فينا كسبا لنا ... » [١] .

وهذا الكلام قد يكون ظاهره أن الخلاف بين الأشعري والسلف الذين يقولون : إن الله خالق كل شيء ومن ذلك أفعال العباد ، وان العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة – خلاف في العبارات والألفاظ [٢] – ، لكن أقوال الأشعري الأخرى مما له علاقة في الموضوع تدل على أن الخلاف ليس لفظيا ، ومن ذلك :

أ – مسألة الاستطاعة :

يري الأشعري أن الاستطاعة – التي هي قدرة العبد – لا تكون إلا مع الفعل ، وليس له استطاعة قبله ، وهذه الاستطاعة التي يثبتها هي التي بها يتحقق الفعل ، ويبني ذلك على أن الإستطاعة والقدرة عرض ، والعرض لا يبقي زمانين ، يقول : « فإن قال قائل : فإذا أثبتم له استطاعة هي غيره فلم زعمتم أنه يستحيل تقدمها للفعل ، قيل له : زعمنا ذلك من قبل أن الفعل لا يخلو أن يكون حادثا مع الاستطاعة في حال حدوثها أو بعدها ، فإن كان حادثا معها في حال حدوثها فقد صح أنها مع الفعل للفعل ، وإن كان حادثا بعدها وقد دلت الدلالة على أنها لا تبقى وجب حدوث الفعل بقدرة معدومة ، ولو جاز ذلك لجاز أن يحدث العجز بعدها فيكون الفعل واقعا بقدرة معدومة ، ولو جاز أن يفعل في حال هو فيها عاجز بقدرة معدومة لجاز أن يفعل بعد مئة سنة من حال حدوث القدرة وإن كان عاجزا في المئة سنة كلها بقدرة عدمت من مئة سنة وهذا فاسد » [٣] ، ثم يذكر لماذا القدرة لا تبقي [٤] ، ويذكر بعض الأدلة على قوله [٥] .

وسيأتى بيان فساد القول بأن العرض لا يبقى زمانين .

---

(١) اللمع (ص : ٤٣) .

(٢) ممن رجح ذلك الشيخ هادي طالبي في رسالته للماجستير : أبو الحسن الأشعري بين المعتزلة والسلف (ص : ١١٤) – مطبوعة على الآلة الكاتبة – .

(٣) اللمع (ص : ٥٤) .

(٤) انظر : المصدر السابق (ص : ٥٥) .

(٥) انظر : نفس المصدر (ص : ٥٦–٥٨) .

ب - هل القدرة مؤثرة أو لا ؟ :

القدرة المحدثة التي أثبتها للعبد وبها يكسب أعماله ، يرى الأشعري أنها غير مؤثرة كما حكى عنه الشهرستاني الذي قال : « ولم يثبت شيخنا أبو الحسن - رحمه الله - للقدرة الحادثة صلاحية أصلا ، لا لجهة الوجود ، ولا لصفة من صفات الوجود ، فلم يلزمه التعميم والتخصيص » [(١)] ، وشرح ذلك في الملل والنحل فقال : « لا تأثير للقدرة الحادثة في الإحداث ؛ لأن جهة الحدوث قضية واحدة لا تختلف بالنسبة إلي الجوهر والعرض ، فلو أثرت في قضية الحدوث لأثرت في حدوث كل محدث ، حتي تصلح لإحداث الألوان والطعوم والروائح ، وتصلح لإحداث الجواهر والأجسام ، فيؤدي إلى تجويز وقوع السماء على الأرض بالقدرة الحادثة ، غير أن الله تعالى أجري سنته بأن يحقق عقيب القدرة الحادثة أو تحتها أو معها الفعل الحاصل إذا أراده العبد وتجرد له ، ويسمي هذا الفعل كسبا ، خلقا من الله تعالى إبداعا وإحداثا ، وكسبا من العبد حصولا تحت قدرته » [(٢)] ، وهذا يؤيد مافي المجرد من أنه لم يذكر مع القدرة المحدثة سوى العلم والإرادة للمكتسب ، يقول ابن فورك : « وكان يقول : إن ما استحق هذه العين المكتسبة من وصف الاكتساب فلأجل تعلق القدرة المحدثة بها ، واختلف جوابه في أن العين المكتسبة صارت مكتسبة بتعلق القدرة المحدثة فقط أم باقتران أوصاف أخر إليها ، فدار أكثر كلامه على أن التأثير في ذلك للقدرة المحدثة ، وربما قال : إنه لا بد معها من إرادة المكتسب وعلمه » [(٣)] ، وقوله التأثير للقدرة المحدثة أى ان العين وصفت بأنها مكتسبة بتأثير القدرة المحدثة ، لا أن القدرة المحدثة مؤثرة [(٤)] ، بدليل أن ابن فورك لما ذكر قوله الثاني لم يذكر إلا أنه يقول بأن

---

(١) نهاية الإقدام (ص : ٧٢) ، وانظر : أيضا (ص : ٧٨ ، وص : ٨٧) .

(٢) الملل والنحل (٩٧/١) .

(٣) المجرد (ص : ٩٣) .

(٤) ليس المقصود بالتأثير الانفراد بالإبداع لأن هذا لله تعالى الخالق لكل شيء ، وإنما المقصود أن قدرة العبد سبب وواسطة في خلق الله تعالى الفعل بهذه القدرة ، ولذلك لابد من الإرادة الجازمة ، ووجود القدرة وزوال المانع ، انظر : مجموع الفتاوي (٤٨٧/٨-٤٨٨) .

مع القدرة علم المكتسب وإرادته ، وكما هو واضح لا علاقة لهما بالقدرة هل هي مؤثرة أو لا ، يوضح ذلك قول الأشعري في اللمع : « فإن قال : فهل اكتسب الإنسان الشيء على حقيقته كفرا باطلا وإيمانا حسنا ؟ قيل له : هذا خطأ ، وإنما معنى اكتسب الكفر أنه كفر بقوة محدثة وكذلك قولنا اكتسب الإيمان إنما معناه أنه آمن بقوة محدثة من غير أن يكون اكتسب الشي على حقيقته بل الذي فعله علي حقيقته هو رب العالمين » (١) .

- تكليف مالا يطاق :

صرح الأشعري بجواز تكليف مالا يطاق (٢) ، ويستدل لذلك بعدة أدلة منها قصة أبي لهب ونزول السورة فيه ، يقول : « ويقال لهم قد قال الله تبارك وتعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَاكَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد ١ - ٣] وأمره مع ذلك بالإيمان ، فأوجب عليه أن يعلم أنه لا يؤمن ، وان الله صادق في إخباره عنه أنه لا يؤمن ، وأمره مع ذلك أن يؤمن ولا يجتمع الإيمان والعلم بأنه لا يكون ولا يقدر القادر على أن يؤمن وانه يعلم أنه لا يؤمن ، وإذا كان هذا هكذا فقد أمر الله سبحانه أبا لهب بما لا يقدر عليه لأنه أمره أن يؤمن وأنه يعلم أنه لا يؤمن » (٣) ، والأشعري يفرق بين عدم الاستطاعة للعجز عن الشيء وعدم الاستطاعة للاشتغال بضده ، فيقول : « فإن قال قائل : أليس قد كلف الله تعالى الكافر الإيمان ؟ قلنا له : نعم ، قال : فيستطيع الإيمان ، قيل له : لو استطاعه لآمن ، فإن قال : فكلفه مالا يستطيع ؟ قيل له : هذا كلام على أمرين : إن أردت بقولك : إنه لا يستطيع الإيمان لعجزه عنه فلا ، وإن أردت أنه لا يستطيعه لتركه والاشتغال بضده فنعم » (٤) ، وهذا تفصيل جيد يزيل الإشكالات الواردة حول تكليف مالا يطاق .

---

(١) اللمع (ص : ٤٠) .

(٢) انظر : المصدر السابق (ص : ٦٨) .

(٣) الإبانة (ص : ١٩٥) - فوقية - .

(٤) اللمع (ص : ٥٨-٥٩) .

- إنكار التعليل :

يصرح الأشعري بنفي التعليل في أفعال الله - خلافا لأهل السنة الذين يقولون به - ويقول : « وأجمعوا على أنه عز وجل غير محتاج إلى شيء مما خلق ، وأنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وينعم على من يشاء ويعز من يشاء ، ويغفر لمن يشاء ، ويغني من يشاء ، وانه لا يسأل في شيء من ذلك عما يفعل ، ولا لأفعاله علل ، لأنه مالك غير مملوك ، ولا مأمور ولا منهي ، وانه يفعل ما يشاء » [(١)] ، ولذلك يتأول الآية الواردة في ذلك وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات ٥٦] بأن المقصود : أنه أراد بعض الجن والإنس وهم العابدون لله منهم » [(٢)] ، أي إنه عني المؤمنين دون الكافرين [(٣)] . والآية نص في إثبات حكمة الله في خلق الجن والإنس ، وانه خلقهم للعبادة فهي نص في إثبات التعليل ، وقول الأشعري ضعيف كما سيأتي .

- التحسين والتقبيح :

قال بالتحسين والتقبيح الشرعي فقط ، يقول عن أهل السنة : « وأجمعوا على أن القبيح من أفعال خلقه كلها مانهاهم عنه وزجرهم عن فعله ، وأن الحسن ما أمرهم به أو ندبهم إلى فعله وأباحه لهم ، وقد دل الله عز وجل على ذلك بقوله : ﴿ وَمَآ ءَاتَـٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَـٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا ﴾ [الحشر ٧] » [(٤)] .

ولا يقبح من الله شيء ، « فلا يقبح منه أن يعذب المؤمنين ويدخل الكافرين الجنان ، وإنما نقول : إنه لا يفعل ذلك لأنه أخبرنا أنه يعاقب الكافرين وهو لا يجوز عليه الكذب في خبره » [(٥)] ، ويعلل ذلك بأن الله هو المالك القاهر وانه لا آمر

---

(١) الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٧٧) .
(٢) اللمع (ص : ٦٨) .
(٣) انظر : الإبانة (ص : ١٩٢) .
(٤) الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٧٨) .
(٥) اللمع (ص : ٧١) .

فوقه ، يقول : « والدليل على أن كل مافعله فله فعله أنه المالك القاهر الذي ليس بمملوك ولا فوقه مبيح ولا آمر ولا زاجر ولا حاظر ولا من رسم له الرسوم وحد له الحدود ، فإذا كان هذا هكذا لم يقبح منه شيء إذ [١] كان الشيء إنما يقبح منا لأنا تجاوزنا ماحد ورسم لنا ، وأتينا مالم نملك إتيانه ، فلما لم يكن الباري مملكا ولا تحت آمر لم يقبح منه شيء ، فإن قال : فإنما يقبح الكذب لأنه قبحه ؟ قيل له : أجل ، ولو حسنه لكان حسنا ولو أمر به لم يكن عليه اعتراض [٢] ، ومذهب الأشعري هذا يأتي في الطرف المقابل لمذهب المعتزلة الذين قالوا بالتحسين والتقبيح العقلي ، والحق مذهب السلف وهو التفصيل .

و - قوله في الإيمان :

صرح في الإبانة « أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص » [٣] ، وفصل ذلك في الرسالة فقال : « وأجمعوا على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وليس نقصانه عندنا شكا فيما أمرنا بالتصديق به ولا جهلا به ، لأن ذلك كفر ، وإنما هو نقصان في مرتبة العلم وزيادة البيان ، كما يختلف وزن طاعتنا وطاعة النبي - ﷺ - وإن كنا مؤدين للواجب علينا » [٤] ، وقوله : إن الإيمان قول وعمل ، يزيد ، وينقص هو قول أهل السنة والجماعة .

ولكنه في اللمع فسره بالتصديق بالله ، واحتج بإجماع أهل اللغة على أن الإيمان هو التصديق ، كما احتج بقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴾ [يوسف ١٧] أي بمصدق لنا ، ويقول الناس : « فلان يؤمن بعذاب القبر والشفاعة » ، يريدون : يصدق [٥] .

هذا ما هو موجود في كتبه ، وقد نسب إليه متأخرو الأشعرية وغيرهم

---

(١) فى طبعة مكارثى إذا ، وذكر فى الحاشية أن فى احدى النسخ إذ وهى الصواب .
(٢) اللمع ص : ٧١ .
(٣) الإبانة (ص : ٢٧) - فوقية - .
(٤) الرسالة إلى أهل الثغر (ص : ٩٣) .
(٥) انظر : اللمع (ص : ٧٥) .

انه يقول : إنه المعرفة [١] ، كما نسبوا إليه قولا آخر ؛ انه التصديق وان القول باللسان والعمل بالأركان غير داخلين فيه [٢] .

أما قوله في مرتكب الكبيرة فهو قول أهل السنة : انه مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته وانه لا يخلد في النار [٣] .

ز – **قوله في** : الشفاعة ، وعذاب القبر ، والحوض ، والصراط ، والإمامة والصحابة :

وقوله فيها جميعا : هو قول السلف – رحمهم الله تعالي – كما ذكر ذلك في أواخر كتبه كلها .

هذا هو أبو الحسن الأشعري الذي تنسب إليه طائفة الأشعرية ولعل ما سبق عرضه من حياته ، وأطواره وعقيدته يعطي صورة واضحة نوعا ما لهذا العلم الذي تكونت من بعده مدرسة مشهورة انتسبت إليه واشتهرت باسمه .

* * *

---

(١) انظر : المجرد (ص : ١٥١) ، ونهاية الإقدام (ص : ٤٧٢) ، والفصل لابن حزم (٢٦٦/٢) – ط – المحققة .

(٢) انظر : أصول الدين للبغدادي (ص : ٢٤٨) ، والمجرد (ص ١٥٠) ، والملل والنحل للشهرستاني (١٠١/١) ، ونهاية الإقدام (ص : ٤٧٢) .

(٣) انظر : الإبانة (ص : ٢٦) ، واللمع (ص : ٧٥) ، والرسالة (ص : ٩٣-٩٤) .

الفصـــل الرابـــع

نشأة الأشعرية وعقيدتهم

المبـــحث الأول : أسلاف الأشعرية « الكلابيه » وموقف السلف منهم .

المبـحث الثــاني : الماتريدية وعلاقتهم بالأشعرية .

المبـحث الثـالث : نشأة المذهب الأشعري وانتشاره .

المبـحث الرابـــع : عقيدة الأشاعرة .

المبحث الأول

أســلاف الأشعرية « الكلابية » وموقف السلف منهم

ارتبطت نشأة الأشعرية بالشيخ أبي الحسن الأشعري – رحمه الله – الذي أصبح فيما بعد شيخهم عند الإطلاق ، يرجعون إلى أقواله ، ويحاولون السير على ما سطره في كتبه من آراء .

والفصل السابق كان عن هذا الإمام وحياته وعقيدته ، وفي هذا الفصل محاولة استكمال موضوع النشأة في الحديث عن الذين تأثر بهم الأشعري ثم تأثر بهم تلامذته من بعده ، وأهم الطوائف التي يوجد لها صدي في عقائد الأشعرية هي :

١ – المعتزلة والجهمية .

٢ – أهل السنة .

٣ – الكلابيـــة .

أما المعتزلة فلا شك أن منهجهم الكلامي والعقلي كان ذا أثر مباشر أو غير مباشر على الكلابية ثم الأشعرية ، وهؤلاء وإن ردوا على المعتزلة وبينوا فساد أقوالهم إلا أنهم لم يخرجوا سالمين من المعركة كما خرج أعلام السلف ، بل اضطروا تحت وطأة الردود الكلامية والمناقشات العقلية أن يسلموا لهم بعض أصولهم وأن يلتزموا لوازمها ، وبذلك بدأت بوادر الاختلاف والانحراف في مذهبهم تبعد بهم عن مذهب السلف الخالص .

أما الجهمية فهم في الصفات شيوخ المعتزلة ، وفي القدر على النقيض من مذهبيهم ، والأشعرية في مسألة القدر مالوا إلى مذهب الجبر .

وأما أهل السنة فهم يجمعون ما عند الطوائف من حق ، ويردون على الباطل الموجود عند كل طائفة ، والأشعري لما رجع عن مذهب المعتزلة – وكذلك

الأشعرية الذين اتبعوه – ساروا على مذهب السلف واتبعوا منهجهم في كثير من المسائل ، وقد وقفوا مع أئمة السلف في الرد على سائر الطوائف في هذه المسائل ، ولا شك أن تأثرهم بأئمة أهل السنة وانتسابهم إليهم مشهور لا يحتاج إلى أدلة .

أما الكلابية فهم أسلاف الأشعرية حقا ، وقد اندمجوا فيهم حتي وصل الأمر – بعد انتشار مذهب الأشعرية – إلى أن يطلق اسم الطائفتين على الأخري ، وإن كان الغلب في التسمية للأشعرية ، ولما كانت نشأة الأشعرية ترتبط كثيرا بنشأة الكلابية كان لابد من الحديث عن أهم أعلام هذه الطائفة وأهم أقوالهم وآرائهم ، أما المعتزلة والجهمية وأهل السنة فأقوالهم وآراؤهم معروفة وقد كتب عنها الكثير ، ومن أهم أعلام الكلابية : ابن كلاب ، والمحاسبي ، والقلانسي .

أولا : ابن كلاب :

هو عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري ، أبو محمد [١] ، ويقال : « عبد الله بن محمد [٢] ، والأول أشهر ، ويلقب كلابا – مثل خطاف – وزنا ومعنى ، لأنه كان لقوته في المناظرة يجتذب من يناظره ويجره إليه كما يجتذب الكلاب الشيء [٣] .

---

(١) هكذا ترجمه الذهبي في السير (١٧٤/١١) ، وابن حجر في اللسان (٢٩٠/٣) ، وابن قاضي شهبة في الطبقات (٣٣/١) ، وكذلك سماه الأشعري في المقالات : عبد الله بن سعيد ، انظر : (ص : ٢٩٨) .

(٢) هكذا سماه ابن النديم في الفهرست (ص : ٢٣٠) – ط – طهران ، وذكر القولين السبكي في الطبقات (٢٩٩/٢) ، كما ترجمه الصفدي مرتين : مرة باسم عبد الله بن سعيد ، الوافي (١٩٧/١٧) ، ومرة باسم عبد الله بن محمد (٤٩٢/١٧) .

(٣) انظر : السير للذهبي (١٧٤/١١) ، والطبقات للسبكي (٢٩٩/٢) ، واللسان لابن حجر (٢٩١/٣) .

ومما يلاحظ هنا أنه يقال له ابن كلاب وليس كلابا ، مما يدل على أن هذا اللقب ليس له وإنما لأبيه أو أحد أجداده ، وهذا يجعل التعليل الذي ذكروه محل نظر .

قال عنه الذهبي : « رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه »[١] ، وذكر ابن النديم أنه كانت له مع عباد بن سليمان - المعتزلي - مناظرات[٢] ، ونقل السبكي عن والد الفخر الرازي[٣] ؛ أنه قال في آخر كتابه « غاية المرام في علم الكلام » : « ومن متكلمي أهل السنة في أيام المأمون عبد الله بن سعيد التميمي ، الذي دمر المعتزلة في مجلس المأمون ، وفضحهم ببيانه ، وهو أخو يحيى بن سعيد القطان ، وارث علم الحديث وصاحب الجرح والتعديل »[٤] ، قال السبكي معلقا : « وكشفت عن يحيى بن سعيد القطان هل له أخ اسمه عبد الله ؟ فلم أتحقق إلى الآن شيئا ، وإن تحققت شيئا ألحقته إن شاء الله »[٥] ، والصواب أنه ليس أخا له كما حققه ابن حجر[٦] والزبيدي[٧] .

ولمناقشات ابن كلاب للمعتزلة ومخالفته لهم فقد اتهم بأنه ابتدع أقواله ليدس دين النصارى في ملة المسلمين ، وأنه أرضى أخته النصرانية بذلك لما اعترضت على إسلامه ، وقد فند هذا القول وكذبه شيخ الإسلام ابن تيمية[٨] ، والذهبي[٩] .

---

(١) السير (١٧٤/١١) .

(٢) انظر : الفهرست (ص : ٢٣٠) .

(٣) هو : عمر بن حسين بن الحسن الرازي ، الشافعي ، ضياء الدين ، أبو القاسم ، خطيب الري من آثاره هذا الكتاب « غاية المرام » الذي مدحه السبكي كثيرا ، ذكر في هدية العارفين أنه توفي سنة ٥٥٩ هـ ، انظر : طبقات السبكي (٢٤٢/٧) ، وهدية العارفين (ص : ٧٨٤) ، ومعجم المؤلفين (٢٨٢/٧) .

(٤) طبقات السبكي (٣٠٠/٢) ، وهذا النص بتمامه في أصول الدين للبغدادي (ص : ٣٠٩) ، ولعل والد الفخر الرازي نقله عنه ، لأن البغدادي توفي سنة ٤٢٩ .

(٥) طبقات السبكي (٣٠٠/٢) .

(٦) في لسان الميزان (٢٩١/٣) .

(٧) في تاج العروس مادة « كلب » ، وفي إتحاف السادة المتقين (٦/٢) .

(٨) في منهاج السنة (٣٩٧/٢) ، ت رشاد سالم - ط الأولى - ، ودرء التعارض (١٥٥/٦) ، ومجموع الفتاوى (٥٥٥/٥ ، ١١٥/٨) .

(٩) السير (١٧٥/١١) .

ولم تشر المصادر إلى شيوخ ابن كلاب ، أما تلامذته فأشار الذهبي إلى أن ممن قيل إنه أخذ عنه الكلام : داود الظاهري ، والحارث المحاسبي ، ثم ذكر الذهبي أن ابن النجار ذكر لابن كلاب ترجمة لم يحررها وأنه ذكر فيها أنه كان في أيام الجنيد [١] – سيد الطائفة الصوفية – وذكر السبكي أنه وجد بخط الذهبي حاشية على تاريخ ابن النجار كتب فيها بإزاء ما ذكره من حكاية طويلة – بين ابن كلاب والجنيد – مانصه : « لا يصح ؛ فإن ابن كلاب له ذكر في زمان أحمد بن حنبل ، فكيف يتم له هذا مع الجنيد » [٢] ، قال السبكي مؤيدا « والأمر كما قال » [٣] . ومن المعلوم ان الحنيد قد توفي سنة ٢٩٨ هـ ، أما ولادته فقد كانت سنة نيف وعشرين ومئتين ، وأما ابن كلاب فقد توفى بعد الأربعين ومئتين [٤] ، وحددها صاحب هدية العارفين بسنة ٢٤١ هـ [٥] ، ومن ثم فليس مستبعدا – من الناحية التاريخية – أن يلتقي به وهو في شبابه .

وقد ذكر عبد القاهر البغدادي أن من تلامذة ابن كلاب عبد العزيز المكي [٦] ،

---

(١) انظر : السير (١١/١٧٥) ، والجنيد هو : الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي البغدادي القواريري ، ويلقب بالخزاز ، لم أطلع على من ترجم لولادته إلا الذهبي في السير فإنه ذكر أنه ولد سنة نيف وعشرين ، وتوفى سنة ٢٩٧ هـ وقيل سنة ٢٩٨ هـ وغلط الذهبي من أرخه بسنة ٢٩٧ هـ . انظر : تاريخ بغداد (٧/٢٤١) ، وطبقات السلمي (ص : ١٥٥) ، والحلية (١٠/٢٥٥) ، والأنساب (١٠/٢٥٤) في نسب القواريري ، وصفة الصفوة (٢/٤١٦) ، ووفيات الأعيان (١/٣٧٣) ، وسير أعلام النبلاء (١٤/٦٦-٧٧) وقد أدخل في ترجمته ترجمة الذي بعده .

(٢) طبقات السبكي (٢/٢٩٩) .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) انظر : نفس المصدر .

(٥) (ص : ٤٤٠) .

(٦) ذكر ابن تيمية في درء التعارض (٢/٢٤٥-٢٥٧) : انه لا يقول بقول ابن كلاب ، اسمه : عبد العزيز ابن يحيي بن عبد العزيز بن مسلم بن ميمون الكناني المكي ، يعتبر أحد أصحاب الشافعي ، وهو صاحب الحيدة ، توفي سنة ٢٤٠ هـ ، انظر : تاريخ بغداد (١٠/٤٤٩) ، وميزان الاعتزال (٢/٦٣٩) ، وطبقات الشيرازي (ص : ١٠٣) ، وطبقات الأسنوي (١/٤١) ، وطبقات السبكي (٢/١٤٤) ، ومقدمة تحقيق الحيدة (ص : ٩) وما بعدها .

والحسين بن الفضل البجلي [١] ، والجنيد [٢] ، وقد قرن الكلاعي - كما نقل عنه ابن عساكر - بين عبد العزيز المكي والحارث المحاسبي وابن كلاب في الزهد ومقاومة أهل البدع فقال بعد إشارته إلى محنة خلق القرآن وتورع أحمد ابن حنبل عن مجادلتهم - وانهم موهوا بذلك على الملوك : « وكان في ذلك الوقت من المتكلمين جماعة كعبد العزيز المكي والحارث المحاسبي وعبد الله بن كلاب وجماعة غيرهم وكانوا أولي زهد وتقشف لم ير واحد منهم أن يطأ لأهل البدع بساطا ولا أن يداخلهم ، فكانوا يردون عليهم ويؤلفون الكتب في إدخاض حججهم إلى أن نشأ بعدهم وعاصر بعضهم بالبصرة أيام إسماعيل القاضي ببغداد أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري رضي الله عنه ... » [٣] وسياق هذا الكلام جاء لبيان فضائل الأشعري وأنه صار يؤلف ويقصد أهل البدع ليناظرهم [٤] ، وإلا فعبد العزيز المكي ناقش المعتزلة في مجلس المأمون وأثبت ذلك في كتابه الحيدة [٥] ، وابن كلاب ذكر بعض مترجميه أنه دمر على المعتزلة في مجلس المأمون .

---

(١) هو : الإمام اللغوي المفسر أبو علي البجلي الكوفي ثم النيسابوري توفي سنة ٢٨٢ هـ ، طبقات المفسرين (١٥٦/١) ، والوافي (٢٧/١٣) ، وسير أعلام النبلاء (٤١٤/١٣) .

(٢) انظر : أصول الدين (ص : ٣٠٩) .

(٣) تبيين كذب المفتري (ص : ١١٦) .

(٤) انظر : نفس المصدر والصفحة .

(٥) هناك خلاف حول نسبة كتاب الحيدة لعبد العزيز الكناني ، فيري الذهبي في ميزان الاعتدال (٦٣٩/٢) أنها لم تصح نسبتها إليه وتابعه السبكي في الطبقات (١٤٥/٢) ، أما الذين أثبتوا نسبته إليه فهم جماهير العلماء ومنهم : الخطيب في تاريخ بغداد (٤٤٩/١٠) ، وابن النديم في الفهرست (ص : ٢٣٦) - ط طهران - ، وابن العماد في الشذرات (٩٥/٢) ، والفاسي في العقد الثمين (٤٦٦/٥-٤٦٧) ، وابن حجر في التهذيب (٣٦٣/٦) ، وفي التقريب (٥١٣/٢) ، وابن تيمية في درء التعارض (٢٤٥/٢) ، ومابعدها حيث نقل منه نصوصا ، وأيضا (١١٥/٦) ، بل والذهبي في دول الإسلام (١٤٦/١) حيث قال عنه « صاحب كتاب الحيدة » ، وأشار ابن الجوزي في المنتظم (٤١/٨) إلى أنه في عهد القادر بالله سنة ٤٢٠ هـ اجتمع العلماء والقضاة وكان مما قرأوه المناظرة التي جرت بين الكناني والمريسي ، وانظر : مقدمة تحقيق الحيدة : جميل صليبا (ص : ١٧-٢٣) .

أما مؤلفات ابن كلاب فقد ذكر له صاحب الفهرست : كتاب الصفات ، وكتاب خلق الأفعال ، وكتاب الرد على المعتزلة [١] ، أما صاحب هدية العارفين فقد ذكر له كتاب الرد على الحشوية ، ولم يذكر الرد على المعتزلة [٢] .

وقد تقدم أن وفاة ابن كلاب كانت بعد سنة ٢٤٠ هـ وحددها البعض بسنة ٢٤١ هـ .

- أهم أقوال ابن كلاب :

لم يصل إلينا شيء مما ذكر من مؤلفات ابن كلاب ، ولذلك فالاعتماد في بيان آرائه وأقواله إنما يكون بواسطة الناقلين عنه أو عن بعض كتبه ، وأهم مصدر لذلك ماكتبه الأشعري في المقالات ، والنتف التي نقلها شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعض كتبه .

وقد سبق - في الفصل الماضي - عند الحديث عن الأشعري ذكر أهم آراء ابن كلاب بإجمال ، ويمكن تفصيل ذلك فيما يلي :

أ - قوله في الأسماء والصفات :

يثبت ابن كلاب الأسماء والصفات لله تعالى ، يقول الأشعري : « قال عبد الله بن كلاب : لم يزل الله تعالى عالما قادرا ، حيا ، سميعا ، بصيرا ، عزيزا ، عظيما ، جليلا ، متكبرا ، جبارا ، كريما ، جوادا ، واحدا ، صمدا ، فردا ، باقيا ، أولا ، ربا ، إلها ، مريدا ، كارها ، راضيا عمن علم أنه يموت مؤمنا وإن كان أكثر عمره كافرا ، ساخطا على من علم أنه يموت كافرا وإن كان أكثر عمره مؤمنا ، محبا ، مبغضا ، مواليا ، معاديا ، قائلاً ، متكلما ، رحمانا ، بعلم وقدرة وحياة وسمع وبصر وعزة وعظمة وجلال ، وكبرياء ، وجود ، وكرم ، وبقاء ، وإرادة وكراهة ، ورضي وسخط ، وحب وبغض ، وموالاة ومعاداة ، وقول

---

(١) انظر : الفهرست (ص : ٢٣٠) ، والسير (١٧٦/١١) ، والوافي (٤٩٢/١٧) .
(٢) انظر : هدية العارفين (ص : ٤٤٠) .

وكلام ، ورحمة ، وأنه قديم لم يزل بأسمائه وصفاته ، وكان يقول : معني أن الله عالم أن له علما ، ومعني أنه قادر أن له قدرة ، ومعنى أنه حي أن له حياة ، وكذلك القول في سائر أسمائه وصفاته » [١] .

كما يثبت الصفات الخبرية كالوجه واليدين والعين وقال : « أطلق اليد والعين والوجه خبرا ، لأن الله أطلق ذلك ، ولا أطلق غيره ، فأقول : هي صفات لله عز وجل كما قال في العلم والقدرة والحياة أنها صفات » [٢] .

كما يثبت لله صفة الاستواء والعلو ، يقول في كتاب الصفات – في باب القول في الاستواء –: « فرسول الله ﷺ ، وهو صفوة الله من خلقه ، وخيرته من بريته ، وأعلمهم جميعا به ، يجيز السؤال بأين ، ويقوله ، ويستصوب قول القائل : إنه في السماء ، ويشهد له بالإيمان عند ذلك ، وجهم بن صفوان وأصحابه لا يجيزون الأين زعموا ، ويحيلون القول به ، ولو كان خطأً كان رسول الله ﷺ أحق بالإنكار له ، وكان ينبغي أن يقول لها [٣] : لا تقولي ذلك فتوهمين أن الله عز وجل محدود ، وأنه في مكان دون مكان ، ولكن قولي إنه في كل مكان لأنه الصواب دون ما قلت ، كلا لقد أجازه رسول الله ﷺ مع علمه بما فيه وانه أصوب الأقاويل ، والأمر الذي يجب الإيمان لقائله ، ومن أجله شهد لها بالإيمان حين قالته ، فكيف يكون الحق في خلاف ذلك ، والكتاب ناطق به وشاهد له ؟ » [٤] .

---

(١) المقالات للأشعري (ص : ١٦٩) – ط ريتر – .

(٢) نفس المصدر (ص : ٢١٧–٢١٨) ، وانظر : (ص : ٥٢٢) ، أما « الأصابع ففي طبقات الحنابلة (١٣٣/٢) إشارة إلى أنه يؤولها » .

(٣) الإشارة إلى حديث الجارية لما سألها الرسول ﷺ أين الله ؟ قالت في السماء ، فقال : اعتقها فإنها مؤمنة ، رواه مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب تحريم الكلام في الصلاة ورقمه (٥٣٧) ، كما رواه غيره .

(٤) درء التعارض (١٩٣/٦–١٩٤) ، وقد نقله عن ابن فورك .

وقال ابن كلاب : « ولو لم يشهد لصحة مذهب الجماعة في هذا الفن خاصة إلا ماذكرنا من هذه الأمور لكان فيه ما يكفي ، كيف وقد غرس في بنيه الفطرة ومعارف الآدميين من ذلك مالا شيء أبين منه ولا أوكد ؟ لأنك لا تسأل أحدا من الناس عنه ، عربيا ولا عجميا ، ولا مؤمنا ولا كافرا فتقول : أين ربك ؟ إلا قال : في السماء إن أفصح ، أو أومأ بيده أو أشار بطرفه إن كان لا يفصح ، لا يشير إلى غير ذلك من أرض ولا سهل ولا جبل ، ولا رأينا أحدا داعيا له إلا رافعا يديه إلى السماء ، ولا وجدنا أحدا غير الجهمية يسأل عن ربه فيقول : في كل مكان كما يقولون ، وهم يدعون أنهم أفضل الناس كلهم فتاهت العقول ، وسقطت الأخبار ، واهتدى جهم وحده وخمسون رجلا معه ، نعوذ بالله من مضلات الفتن » (١) .

ورد ابن كلاب على من يقول : إن الله لا داخل العالم ولا خارجه ، فقال : « وأخرج من النظر والخبر قول من قال : لا في العالم ولا خارج منه ، فنفاه نفيا مستويا ، لأنه لو قيل له : صفه بالعدم ما قدر أن يقول فيه أكثر منه ، ورد أخبار الله نصا ، وقال في ذلك مالا يجوز في خبر ولا معقول ، وزعم أن هذا هو التوحيد الخالص . والنفي الخالص عندهم هو الإثبات الخالص ، وهم عند أنفسهم قياسون » (٢) .

وقال مجيبا على شبهتهم : « فإن قالوا : هذا إفصاح منكم بخلو الأماكن منه ، وانفراد العرش به ، قيل : إن كنتم تعنون خلو الأماكن من تدبيره وأنه عالم بها فلا ، وإن كنتم تذهبون إلى خلوها من استوائه عليها كما استوى على العرش فنحن لا نحتشم أن نقول : استوى الله على العرش ، ونحتشم أن نقول : استوى على الأرض ، واستوى على الجدار ، وفي صدر البيت » (٣) .

---

(١) درء التعارض (٦/١٩٤) .

(٢) المصدر السابق (٦/١١٩) .

(٣) نفس المصدر (٦/١١٩-١٢٠) ، ويرى ابن كلاب ان استواء الله : كونه فوق العرش بلا مماسة ، انظر : أصول الدين (ص : ١١٣) .

كما يذكر مناقشات أخري لنفاة العلو [١] .

ب - صفات الفعل :

مع أن ابن كلاب يثبت الأسماء والصفات كما سبق إلا أنه ينفي منها ما يتعلق بمشيئة الله وإرادته ، بناء على نفي حلول الحوادث بذات الله تعالى ، وهو بهذا قد وافق المعتزلة على هذا الأصل المقرر عندهم المبني على دليل حدوث الأجسام وهو أن من قامت به الحوادث لا يخلو منها ، فنفوا جميع الصفات عن الله تعالى بناء على ذلك ، أما ابن كلاب فقد خالفهم فأثبت لله الصفات الذاتية والمعنوية وجعلها أزلية [٢] ، ونفي الصفات الاختيارية لموافقته لهم على هذا الأصل ، ويمكن عرض مذهبه وبيان الأدلة على أنه يقول بهذا الأصل ، من خلال ما يلي :

١ - قوله بأزلية الصفات كلها دون أن يفرق بين صفات الذات وصفات الفعل ، فيجعل صفات الرضي والسخط والمحبة والكرم والجود أزلية كالسمع والبصر والحياة ، حتي لا يفهم منها ما يدل على الصفات الاختيارية له تعالى [٣] .

٢ - قوله بالموافاة : وأنه الله لم يزل راضيا عمن يعلم أنه يموت مؤمنا ، وإن كان أكثر عمره كافرا ، ساخطا على من يعلم أنه يموت كافرا وإن كان أكثر عمره مؤمنا [٤] ، ومعنى ذلك أن الله لا يرضي عن المؤمن - الذي كان كافرا - بعد سخطه عليه لئلا يقال : إن الله حدث له أمر لم يكن موجودا من قبل .

٣ - انه حين أثبت العلو والاستواء ربطهما بما يدل على أنه يقول بنفي

---

(١) انظر : أصول الدين (٦/١٢٠) ومابعدها .

(٢) المعتزلة جعلوا الصفات كلها أعراضا ونفوها ، أما ابن كلاب فلم يسمها أعراضا وأثبتها أزلية لله ، انظر : مجموع الفتاوي (٦/٣٦) .

(٣) انظر : المقالات (ص : ١٦٩،٥٤٦،٥٨٤) .

(٤) نفس المصدر (ص : ٢٩٨،٥٤٧) ، وانظر : المجرد لابن فورك (ص : ٤٥) .

صفات الفعل لله تعالى كما يشاء ، يقول الأشعري عن ابن كلاب : « وكان يزعم أن الباري لم يزل ولا مكان ولا زمان قبل الخلق ، وأنه على مالم يزل ، وأنه مستو على عرشه كما قال ، وأنه فوق كل شيء تعالى » [(١)] ، ولو أخذت العبارات الأولى لتوهم أن ابن كلاب ينفي العلو والاستواء لنفيه الزمان والمكان قبل الخلق وانه بعد الخلق على مالم يزل ، لكن إثباته للإستواء والعلو ينفي هذا التوهم ، ولكن من مجموع الكلام يتضح مذهبه في نفي أن تكون لله صفة اختيارية .

٤ – نفيه لبعض صفات الفعل أن تكون من هذا النوع ، يقول الأشعري : « وقال ابن كلاب : الوصف لله بأنه كريم ليس من صفات الفعل » [(٢)] ، ولا شك أن الله كريم أزلا ، لكن أيضا يتكرم على عباده بما يشاء كما يشاء متى شاء فهو أيضا صفة فعل .

٥ – جعله ولاية الله وعداوته ورضاه وسخطه من صفات الذات لا من صفات الفعل [(٣)] ، وهذا معنى قوله : إنها أزلية .

٦ – قوله في مسألة الكلام ، وجعله مثل صفة العلم والقدرة ، يقول الأشعري : « وقال ابن كلاب : إن الله لم يزل متكلما ، والكلام من صفات النفس كالعلم والقدرة » [(٤)] ، ويقول : « إن كلامه قائم به كما أن العلم قائم به ، والقدرة قائمة به » [(٥)] .

ومن خلال الأدلة والنقول السابقة عن ابن كلاب يتبين أن ابن كلاب – مع مخالفته للمعتزلة – قد التزم هذا الأصل وقال به ، وهذا ما لم يمار فيه أحد من الباحثين [(٦)] .

---

(١) المقالات (ص : ٢٩٨-٢٩٩) .
(٢) نفس المصدر (ص : ١٧٩) .
(٣) نفسه (ص : ٥٨٢) .
(٤) نفسه (ص : ٥١٧) .
(٥) نفسه (ص : ٥٨٤) .
(٦) انظر : نشأة الفكر الفلسفي للنشار (١/٢١٧) ، ونشأة الأشعرية وتطورها (ص : ٤٢) وما بعدها ، ورسالة : الكلابية وأثرها في المدرسة الأشعرية (ص : ٨٧) – ط على الآلة الكاتبة – .

هذه أهم مسألة تميز بها مذهب ابن كلاب ، وقد تلقاها عنه تلاميذه كما تلقاها بعد ذلك الأشاعرة وصارت جزءا من مذهبهم ، وقد كانت من أهم الأسباب في موقف علماء السلف من الكلابية ورميهم بالابتداع والأمر بهجرهم ، كما كانت أيضا من أهم الأسباب في عدم قبول مذهب الأشعرية والطعن فيه من جانب علماء السلف .

جـ – قوله في الكلام والقرآن :

بنى ابن كلاب قوله على الكلام والقرآن فى نفي الصفات الاختيارية لئلا يقال : إن الله تعالى تحل فيه الحوادث ، لذلك قال بأزلية الكلام وأنه قائم بالله كالعلم والقدرة ، وأنه ليس بحروف ولا أصوات ولا ينقسم ولا يتجزأ ولا يتبعض ولا يتغاير ، وأنه معني واحد ، وأن القرآن الذي يتلي هو حكاية عن كلام الله مع قوله : إن القرآن غير مخلوق ، يقول الأشعري مفصلا مذهبه في ذلك : « قال عبد الله بن كلاب : إن الله سبحانه لم يزل متكلما ، وأن كلام الله سبحانه صفة له قائمة به ، وأنه قديم بكلامه ، وأن كلامه قائم به ، كما أن العلم قائم به ، والقدرة قائمة به ، وهو قديم بعلمه وقدرته ، وأن الكلام ليس بحروف ولا صوت ، ولا ينقسم ولا يتجزأ ولا يتبعض ولا يتغاير ، وأنه معني واحد بالله عز وجل ، وأن الرسم هو الحروف المتغايرة ، وهو قراءة القرآن ، وأنه خطأ أن يقال : كلام الله هو هو أو بعضه أو غيره ، وأن العبارات عن كلام الله سبحانه تختلف وتتغاير ، وكلام الله سبحانه ليس بمختلف ولا متغاير ، كما أن ذكرنا لله عز وجل يختلف ويتغاير ، والمذكور لا يختلف ولا يتغاير ، وإنما سمى كلام الله سبحانه عربيا لأن الرسم الذي هو العبارة عنه [1] – وهو قراءته – عربي ، فسمى عربيا لعلة ، وكذلك سمى عبرانيا لعلة ، وهي أن الرسم الذي هو

---

(١) المشهور أن ابن كلاب يقول عن القرآن : إنه حكاية عن كلام الله ، وأن الأشعري منع من ذلك وقال : هو عبارة عن كلام الله ، انظر : المجرد لابن فورك (ص : ٦٠) ، ومجموع الفتاوي (٢٧٢/١٢) ، والتسعينية (ص : ٨٧) ، ومختصر الصواعق (٢٩٠/٢) .

عبارة عنه عبراني ، وكذلك سمي أمرا لعلة وسمي نهيا لعلة ، وخبرا لعلة ، ولم يزل الله متكلما قبل أن يسمى كلامه أمرا وقبل وجود العلة التي لها سمي كلامه أمرا ، وكذلك القول في تسمية كلامه نهيا وخبرا ، وأنكر أن يكون الباريء لم يزل مخبرا أو لم يزل ناهيا ، وقال : إن الله لا يخلق شيئا إلا قال له كن ، ويستحيل أن يكون قوله كن مخلوقا » [١] .

وهذا النص الطويل يوضح كيف كان مذهب ابن كلاب في هذه المسألة العظيمة – مسألة كلام الله والقرآن – منحرفا عن مذهب السلف ، وكيف تأثر به الأشعرية فيما بعد ، مع ملاحظة الفرق بينه وبينهم في هذه المسألة فإنه قال هنا : « ولم يزل الله متكلما قبل أن يسمي كلامه أمرا وقبل وجود العلة التي لها سمي كلامه أمرا ... الخ ، فهو يقول : إن كلام الله لا يتصف بالأمر والنهي والخبر في الأزل ، وان هذه الأمور حادثة مع قدم الكلام ، أما الأشعرية فيقولون بأزلية الكلام النفسي وكذلك وصفه بكونه أمرا أو نهيا أو خبرا كل ذلك أزلي ، وقد أشار السبكي إلى هذه المسألة في ترجمته لابن كلاب فقال : « ثم زاد هو وأبو العباس القلانسي على سائر أهل السنة فذهبا إلى أن كلامه تعالى لا يتصف بالأمر والنهي والخبر في الأزل ؛ لحدوث هذه الأمور وقدم الكلام النفسي ، وإنما يتصف بذلك فيما لا يزال فألزمهما أئمتنا أن يكون القدر المشترك موجودا بغير واحد من خصوصياته » [٢] ، ويقصد السبكي بأهل السنة الأشعرية .

وابن كلاب يقول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق [٣] ويرد على المعتزلة في ذلك ، لكنه ينكر أن يتكلم الله بصوت ، كما يقول : إن كلام الله معني واحد قائم بذات الله تعالى ، و« ان ما نسمع التالين يتلونه هو عبارة عن كلام الله عز وجل ، وان موسى عليه السلام سمع الله متكلما بكلامه ، وأن معني قوله :

---

(١) المقالات (ص : ٥٨٤–٥٨٥) .

(٢) طبقات السبكي (٢/٣٠٠) ، وانظر : أصول الدين للبغدادي (ص : ١٠٨) ، والإرشاد للجويني (ص : ١١٩–١٢٠) ، ونهاية الإقدام (ص : ٣٠٣–٣٠٤) ، والمجرد (ص : ٣٢٨) .

(٣) المقالات (ص : ٢٩٨) .

﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة ٦] – معناه : حتى يفهم كلام الله ويحتمل على مذهبه أن يكون معناه حتي يسمع التالين يتلونه » [(١)] ، ولا شك أن إنكاره أن كلام الله بصوت ، وقوله إنه معنى واحد ، وان القرآن عبارة عن كلام الله ، كل ذلك مما أحدثه ابن كلاب وهو مخالف لمذهب السلف .

وهذه المسألة – مسألة كلام الله – مرتبطة بالمسألة السابقة مسألة الصفات الاختيارية وبسببهما أعلن السلف البراءة من مذهبهم هذا ، وهجروهم ونسبوهم إلى الاعتزال والابتداع .

د – رأيه في أحكام الصفات :

يقصد بأحكام الصفات ما يتعلق بها من أمور كالقدم وهل الصفة هي الذات أو غيرها ، وهل هي متغايرة أم لا ؟ :

١ – يرى ابن كلاب أنه لا ينبغي أن يقال عن صفات الله وحدها إنها قديمة ، وإنما يقال : الله بصفاته قديم [(٢)] ، وابن كلاب أراد الهرب من القول بتعدد القدماء مع الله حين يطلق على كل صفة لوحدها أنها قديمة ، وهذا يبين وجه التهمة التي اتهمه بها خصومه من انه يدعو إلي النصرانية سرا ، فنفاة الصفات اتهموه بذلك لاثباته الصفات لله ، وهذا كذب عليه كما سبق .

٢ – كما يرى أن الصفات والأسماء لا يقال هي الله ولا هي غيره وانها قائمة بالله تعالى [(٣)] ، وهذا القول موافق لمذهب السلف لأن إطلاق أحد الأمرين يحتمل معنى باطلا ، ومن ثم فلابد من الاستفصال [(٤)] .

٣ – أما مسألة كل صفة وهل هي الصفة الأخري أو غيرها فيرى ابن كلاب « أن صفات الباريء لا تتغاير ، وأن العلم لا هو القدرة ولا غيرها ،

---

(١) المقالات (ص : ٥٨٥) .
(٢) انظر : منهاج السنة (٣٩١/٢) – ت رشاد سالم – ط الأولى .
(٣) المقالات (ص : ١٦٩ وص : ٥٤٦) .
(٤) انظر : درء التعارض (٢٧٠/٢) .

وكذلك كل صفة من صفات الذات لاهي الصفة الأخرى ولا غيرها »[١]، وهذا قول موهم ، فابن كلاب وإن قصد بهذا ماقصده في الفقرة السابقة من أن الصفات لا يقال هي الله ولا غيره حتي لا يتعدد القدماء ، إلا أنه بقوله : إنه لا يقال الصفة هي الأخري ولا غيرها يقرب قليلا من أقوال النفاة الذين يرجعون صفات الله كلها إلى صفة واحدة كالعلم أو الإرادة ، ولهذا لما نقل الأشعري مقالة أبي الهذيل العلاف المعتزلي في هذه المسألة قال : « وأما أبو الهذيل من المعتزلة فإنه أثبت العزة والعظمة والجلال والكبرياء ، وكذلك في سائر الصفات التي يوصف بها لنفسه وقال : هي الباريء ، كما قال في العلم والقدرة ، فإذا قيل له : العلم هو القدرة ؟ قال : خطأً أن يقال هو القدرة ، وخطأً أن يقال هو غير القدرة ، وهذا نحو ما أنكر من قول عبد الله بن كلاب »[٢] . والشاهد من هذا عبارة الأشعري الأخيرة .

هـ - الرؤيـــة :

يثبت ابن كلاب الرؤية كما أثبتها أهل السنة[٣] ، ويبني ذلك على أن كل قائم بنفسه يري[٤] ، وابن كلاب يثبت العلو والاستواء ولذلك لا يرد على إثباته للرؤية ما ورد على متأخري الأشعرية الذين أثبتوا الرؤية ونفوا العلو والاستواء[٥] .

و - القضاء والقدر :

ذكر الأشعري أن ابن كلاب يقول فيه بقول أهل السنة وهو إثبات القدر

---

(١) المقالات (ص : ١٧٠ وانظر : ص ٥٤٦) .

(٢) انظر : المصدر السابق (ص : ١٧٧) .

(٣) المصدر نفسه (ص : ٢٩٨ مع ص ٢٩٢) .

(٤) انظر : المجرد لابن فورك (ص : ٣٣٣) ، وأصول الدين للبغدادي (ص : ٩٧) ، ومنهاج السنة (٢٥٤/٣) - ت رشاد سالم - .

(٥) انظر : الكلابية وأثرها في المدرسة الأشعرية (ص : ٢٢٢) وما بعدها ، والعجيب أن الباحث حرص على أن يقول إن ابن كلاب لا يقول بالجهة ليكون موافقا لمتأخري الأشعرية .

من الله تعالى ، لكن سياق الأشعري لمذهب أهل السنة في القدر ليس دقيقا [١] ، وقد أوضح البغدادي جانبا من مذهب ابن كلاب في القدر فقال : « قال شيخنا أبو محمد عبد الله بن سعيد : أقول في الجملة : إن الله أراد حدوث الحوادث كلها خيرها وشرها ، ولا أقول في التفصيل : إنه أراد المعاصي وإن كانت من جملة الحوادث التي أراد حدوثها ، كما أقول في الجملة عند الدعاء : ياخالق الأجسام ولا أقول في الدعاء يا خالق القرود والخنازير والدم والنجاسات ، وإن كان هو الخالق لهذه الأشياء كلها » [٢] ، وهذا موافق لقول أهل السنة .

أما مسألة الكسب فلم تذكر المصادر أن له كلاما فيه ، والمشهور أن هذه المسألة مما أحدثه وقال به الأشعري من بعد .

ز - الإيمان :

أول مسائل الإيمان تعريفه ، ويذهب ابن كلاب إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان والمعرفة ، يقول البغدادي : « وكان عبد الله بن سعيد يقول : إن الإيمان هو الإقرار بالله عز وجل وبكتبه وبرسله إذا كان ذلك عن معرفة وتصديق بالقلب ، فإن خلا الإقرار عن المعرفة بصحته لم يكن إيمانا » [٣] ، ويقول السبكي مبينا رأي ابن كلاب وأنه لا يخالف قول الأشعرية انه التصديق : « انه إقرار باللسان والمعرفة وهذا المذهب يعزي إلى عبد الله بن سعيد بن كلاب ، وكان من أهل السنة والجماعة على الجملة ، وله طول الذيل في علم الكلام وحسن النظر ، ولم يتضح لي بعد شدة البحث انفصال مذهبه عن مذهب القائلين بأنه التصديق ، فإن الإقرار باللسان والمعرفة يستدعي سبق المعرفة ... » [٤] ،

---

(١) لأنه لما ذكر عموم مشيئة الله تعالى قال : « وقالوا إن أحدا لا يستطيع أن يفعل شيئا قبل أن يفعله » وهذه حكاية عنهم بحسب ما يعتقده هو وليس مذهبا لهم .

(٢) أصول الدين (ص : ١٠٤) .

(٣) أصول الدين (ص : ١٤٩) .

(٤) طبقات السبكي (٩٥/١) .

والسبكي يريد أن لا يجعل ابن كلاب مخالفا لجمهور الأشعرية ، وهناك فرق بين من يجعل الإيمان هو التصديق فقط ومن يضيف إليه الإقرار باللسان ، كما أن هناك فرقا بين مذهب هؤلاء ومذهب السلف الذين يدخلون الأعمال في مسمى الإيمان .

ويرى ابن كلاب – كما يرى جمهور أهل السنة – صحة إيمان المقلد وأنه يحكم له بالإسلام (١) ، وكذلك مذهبه في مرتكب الكبيرة (٢) .

هذه أهم آراء وأقوال ابن كلاب كان المصدر في عرضها الكتب الناقلة لمذهبه سوى بعض النصوص القليلة من كتبه في إثبات العلو والاستواء ، وبها يتبين كيف كان ابن كلاب شيخا للأشعري ، وأن المسائل الكبرى التي ميزت المذهب الأشعري – كمسألة الصفات الاختيارية والكلام – قد سبقهم إليها ابن كلاب ، وهذا يفسر جانبا من جوانب نشأة المذهب الأشعري ، تسبق وجود أبي الحسن نفسه .

وليس هذا في مذهب ابن كلاب نفسه ، بل في مدرسته التي سار على طريقه فيها علماء آخرون ، كالمحاسبي والقلانسي وغيرهما .

ثانيا : الحارث المحاسبي :

أ – ترجمته :

هو الحارث بن أسد المحاسبي البغدادي (٣) ، أبو عبد الله ، ولد بالبصرة ولكنه انتقل إلى بغداد وعاش فيها ، وكانت ولادته سنة ١٦٥ هـ تقريبا ، أما وفاته فقد كانت سنة ٢٤٣ هـ .

---

(١) انظر : أصول الدين (ص : ٢٥٤) .

(٢) انظر : المقالات (ص : ٢٩٨ مع ص : ٢٩٣) .

(٣) انظر : في ترجمته : طبقات الصوفية (ص : ٥٦) ، والحلية (٧٣/١٠) ، وتاريخ بغداد (٢١١/٨) ، والرسالة القشيرية (٧٨/١) ، والأنساب (١٠٣/١٢) ، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٨/١) ، والكامل (٨٤/٧) ، وميزان الاعتدال (٤٣٠/١) ، والسير للذهبي (١١٠/١٢) ، ووفيات الأعيان (٥٧/٢) ، والوافي (٢٥٧/١١) ، وطبقات السبكي (٢٧٥/٢) ، وتهذيب الكمال للمزي (٢٠٨/٥) – المطبوعة – وتهذيب التهذيب (١٣٤/٢) ، والبداية والنهاية (٣٣٠/١٠–٣٣١،٣٤٥) ، والطبقات الكبري للشعراني (٦٤/١) وغيرها .

وقد حظي المحاسبي – نظرا لاشتهاره بالتصوف – بترجمات عديدة في كتب الرجال والتراجم والطبقات [١] ، كما أفردت عنه دراسات [٢] ، وهذا مالم يحظ به ابن كلاب والقلانسي وغيرهما من الكلابية .

ويمكن الإشارة إلى لمحات في حياته :

١ – كان أبوه رجلا موسرا ، ولكنه لم يكن على وفاق مع ابنه في المذهب الكلامي ، والمشهور أن أباه كان قدريا يقول بقول المعتزلة في القدر [٣] ، وقيل بل كان واقفيا [٤] ، أي يتوقف في مسألة القرآن فلا يقول : هو مخلوق ولا غير مخلوق ، وشذ السبكي فقال : إن أباه كان رافضيا [٥] ، وكان من آثار ذلك ما ورد من قصة الحارث معه حين دعاه أمام الناس إلى أن يطلق أمه ، وكذلك لما توفي لم يأخذ من تركته شيئا لهذا السبب ، وقد كان مبعث هذا أنه يرى كفر المعتزلة .

٢ – كان المحاسبي ذا صلة بأهل الحديث ، وقد روى عن جماعة منهم [٦] ، والظاهر أنه انصرف عن ذلك بانشغاله في التصوف والتأليف فيه ، ومع ذلك فقد ترجم في كتب الرجال ، وقال فيه الذهبي : « صدوق في نفسه

---

(١) كما سجل هو نفسه عرضا مختصرا لأحواله قبل سلوكه طريق التصوف ، انظر الوصايا (ص : ٥٩–٦٤) .

(٢) منها دراسة لعبد الحليم محمود بعنوان : أستاذ السائرين ، ولم تكن ترجمة بقدر ماكانت دعوة إلى التصوف على طريقته في مؤلفاته ، ومنها دراسة حسين القوتلي في مقدمته لتحقيق كتاب المحاسبي العقل وفهم القرآن ، وهي دراسة جيدة وعميقة وإن كانت لا تخلو من ملاحظات عليها .

(٣) انظر : الرسالة للقشيري (٧٨/١) ، والوفيات (٥٧/٢) ، والتعرف للكلاباذي (ص : ١٤٧) .

(٤) انظر : تاريخ بغداد (٢٤١/٨) ، والوافي (٢٥٧/١١) ، والسير (١١٠/١٢) .

(٥) انظر : الطبقات (٢٧٧/٢) .

(٦) انظر : تهذيب المزي (٢١٨/٥) ، وتهذيب التهذيب (١٣٤/٢) ، ومقدمة تحقيق العقل وفهم القرآن (ص : ١٣–١٨) .

وقد نقموا عليه بعض تصوفه وتصانيفه » [١] ، وقال فيه ابن حجر « مقبول » [٢] وليست له رواية عن أحد من أصحاب الكتب الستة .

٣ - كان معارضا للفرق المنحرفة في عصره وخاصة المعتزلة والرافضة ، والجهمية ، والخوارج والمرجئة [٣] ، وأشد مواقفه ماكان مع المعتزلة ، وقد رد عليها طويلا في كتابه « فهم القرآن » ، كما لم تخل كتبه الصوفية من فضح لأحوالهم وغرورهم ، ومن ذلك قوله فيهم : « فرقة ضالة مضلة ، لا تفطن لضلالتها ، لاتساعها في الحجاج ، ومعرفتها بدقائق مذاهب الكلام ، وحسن العبارة بالرد على من خالفها ، فهم عند أنفسهم من القائلين على الله عز وجل بالحق ، والرادين لكل ضلالة ، لا أحد أعلم منهم بالله ، ولا أولى به منهم ، وكل الأمم ضالة سواهم ، وان الله عز وجل لا يعذب مثلهم ، بل لاينجو أحد في زمانهم غيرهم ، وغيرهم من المغترين يدعي ذلك وينتحله ، ويشهد عليهم بالاكفار . فهم فرق كثيرة يكفر بعضها بعضا ، وكل فرقة منها مغترة ، لا ترى أن أحدا يقول عليه بالحق غيرها » [٤] ، والمحاسبي الذي يقول هذا الكلام ممن عاصر محنة القول بخلق القرآن ، من أولها إلى نهايتها ، فهو خبير بأحوالهم ، ولذلك لم يوافق على القول بخلق القرآن ، وإن لم ينله فيها ما نال أئمة أهل السنة من المحنة [٥] .

٤ - ترك المحاسبي مجموعة من المؤلفات ، وغالبها ذو صبغة صوفية ، ولذلك عني بنشرها من لهم اهتمام بهذا الشأن ، ومن كتبه :

---

(١) ميزان الإعتدال (١٣٠/١) .

(٢) التقريب (١٣٩/١) .

(٣) انظر : الرعاية للمحاسبي (ص : ٩٧) ، والمكاسب (ص : ١٠٨-١٠٩) ، وفهم القرآن (ص : ٣٣٣) .

(٤) الرعاية (ص : ٣٥٨) .

(٥) وقد تساءل هذا التساؤل عبد القادر عطا . انظر مقدمة تحقيق آداب النفوس (ص : ١٣) ، والمكاسب (ص : ١٣) ، وقد أجاب عن ذلك بأن العداء الذي وقع بينه وبين الإمام أحمد جعل السلطة ترى أنه لا خطر من المحاسبي ، ويمكن أن يضاف إلى هذا أن المحاسبي كان كلابيا يميل إلى النفي لبعض الصفات وهذا يقربه من المعتزلة .

- رسالة المسترشدين ، حققها عبد الفتاح أبو غدة .
- الرعاية لحقوق الله عز وجل ، طبع عدة مرات آخرها بتحقيق عبد القادر عطا .
- المسائل في الزهد .
- المسائل في أعمال القلوب والجوارح .
- المكاسب [طبع بتحقيق محمد عثمان الخشت باسم الرزق الحلال] .
- العقل ، وهذه الأربعة نشرها جميعا عبد القادر عطا ، ثم طبع المكاسب مستقلا ، كما طبع الزهد بتحقيق مصطفى عبد القادر عطا .
- التوبة ، تحقيق عبد القادر عطا .
- آداب النفوس ، طبع بتحقيق عبد القادر عطا .
- النصائح الدينية ، طبع باسم الوصايا ، تحقيق عبد القادر عطا .
- القصد والرجوع إلي الله ، طبع مع الكتاب السابق .
- بدء من أناب إلي الله ، طبع مع كتاب الوصايا .
- فهم الصلاة – طبع مع كتاب الوصايا ، كما طبع بتحقيق « محمد عثمان الخشت » .
- التوهم ، طبع عدة مرات ، ومنها طبعة مكتبة النهضة الإسلامية بالقاهرة ، وطبعة دار الوعي بحلب ، وبتحقيق عبد القادر عطا مع مجموع « الوصايا » .
- فهم القرآن ، طبع مع كتاب العقل بتحقيق شكري القوتلي .
- كتاب العلم ، طبع بتحقيق محمد المعابد مزالي .
- البعث والنشور ، طبع بتحقيق محمد عيسى رضوان .
- معاتبة النفس ، طبع مع الكتاب السابق .

وكتاب فهم القرآن هو الذي يحوي بعض آراء المحاسبي الكلامية ، وعليه اعتمد شيخ الإسلام ابن تيمية في نقل أقواله [١] .

٥ – وأبرز قضية في حياة المحاسبي هجر الإمام أحمد له ، وأمره الناس بهجره حتى انه لما مات لم يصل عليه إلا أربعة نفر ، وقل من يترجم له إلا ويتعرض لهذه المسألة ، ومن أهم أسباب ذلك دخوله في علم الكلام وموافقته لبعض أقوالهم وكلامه في التصوف .

مذهب الحارث وأقواله :

يعتبر الحارث من متقدمي أهل الكلام الذين عاصروا أئمة أهل السنة ، ووقفوا معهم ضد كثير من أقوال المعتزلة وخاصة في مسائل القرآن وأنه غير مخلوق ، والقدر والوعد والوعيد ، كما وقفوا معهم ضد الطوائف الأخري المنحرفة ، ولذلك فالمحاسبي ومن في طبقته أكثر إثباتا وأحسن اتباعا ممن جاء بعدهم كالأشعري وطبقته .

ولكن مع موافقته لأهل السنة في ذلك إلا أن في أقواله ما يخالف منهجهم من جانبين ، أحدهما : التصوف ، والآخر : آراؤه في العقيدة ، وفي كل من الجانبين كان المحاسبي شيخا للأشعرية كما يقول البغدادي [٢] .

– التصوف عند المحاسبي :

أما الجانب الأول فقد كان المحاسبي أحد رواده الكبار ، الذين كونوا مدرسة كبري ربطت بين الكلام والتصوف فيما بعد . وهذا من أبرز ماطرأ على المذهب الأشعري من تطور – كما سيأتي إن شاء الله – .

---

(١) انظر : درء التعارض (٤٥/٢) ، فقد نقل منه نصوصا ، كما أشار إليه في مجموع الفتاوي (٥٥٧/٥) .

(٢) يقول البغدادي في أصول الدين (ص : ٢٠٨-٢٠٩) « وعلى كتب الحارث ابن أسد في الكلام والفقه والحديث معول متكلمي أصحابنا وفقهائهم وصوفيتهم » .

وحتى تتضح الصورة بالنسبة لتصوفه لابد من الإشارة إلى ما يلي :

١ - أن تصوف المحاسبي لم يكن كتصوف غيره في الغلو والانحراف ، بل كان كثيرا ما يشير إلى وجوب الالتزام بالكتاب والسنة ، ومتابعة الشرع ، وإذا كان المحاسبي يركز على أعمال القلوب وخطرات النفوس ، ومسائل تتعلق ببواطن الأعمال ومقاصد الإنسان فيها كالنية ، والمراقبة ، والتوكل ، والتيقظ ، والعجب ، والرياء ، والحسد وغيرها - ويطيل الكلام في كل واحدة منها بما يراه من وسائل إصلاح النفس - إلا أنه يأمر مع ذلك باتباع الشرع بفعل الأوامر واجتناب النواهي ، يقول في آداب النفوس : « ثم اعلم يا أخي أن الله جل ذكره قد افترض فرائض ظاهرة وباطنة ، وشرع لك شرائع ، دلّك عليها ، وأمرك بها ، ووعدك على حسن أدائها جزيل الثواب ، وأوعدك على تضييعها أليم العقاب رحمة لك ، وحذرك نفسه شفقة منه عليك ، فقم ياأخي بفرائضه ، والزم شرائعه ، ووافق سنة نبيه ﷺ ، واتبع آثار أصحاب نبيه والزم سيرتهم ، وتأدب بآدابهم واسلك طريقهم ... » [1] ويقول عن أول منزلة من الرعاية لحقوق الله عز وجل أنها : « الرعاية عند الخطرات ، بعد اعتقاد جمل حقوق الله تعالى ، فلا تخطر بقلبه خطرة من أعمال قلبه إلا جعل الكتاب والسنة دليلين عليها ، فلم يقبلها باعتقاد الضمير ، ولا يتركها يسكن قلبه في مجال الفكر من التمني وغيره ، إلا أن يشهد له العلم أن الله تعالى قد أمر بها وندب إليها أو أذن فيها بأسبابها وعللها ووقتها وإرادته فيها ؛ فإنه قد يقبل الخطرة يرى أنها داعية إلى سنة وهي بدعة ، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهي معصية ، وقد يرى أنها داعية إلى خير وهي شر .... » [2] وكثيرا ما يذكر الأدلة على بعض الأمور التي يذكرها من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة [3] .

---

(١) آداب النفوس (ص : ٣٨) .

(٢) الرعاية (ص : ٩٦) .

(٣) انظر : رسالة المسترشدين (ص : ٣٦) وما بعدها .

ولذلك شنع المحاسبي على بعض متصوفة عصره وانحرافاتهم ، فذكر أنواعا من غرورهم بما عندهم وعدم مطابقة أقوالهم وقال بعد كلام طويل عنهم : « وإنما أطلت الوصف في هذه الفرقة لأنها عظيمة غرتها ، قد غلب ذلك على كثير ممن يتعبد ويرى أنه من النساك العاملين لله عز وجل »[١] ، كما يرد على الذين يقعد بهم توكلهم إلى التواكل وترك الكسب والعمل مثل شقيق البلخي الذي زعم أن الحركة في الكسب معصية[٢] ، بل يرد على من زعم أن القعود وترك العمل أفضل من الحركة ، ويفصل رده عليهم من وجوه[٣] ، ثم يعرض لأقوال العلماء في مسائل عملية كثر الجدال حولها مثل الورع وحدّه ، والعزلة عن الناس ومجانبتهم ، والشبهة ومعناها ، وجوائز السلطان ، وغير ذلك[٤] ، وقد عرض لهذه المسائل بشكل جيد ، كما رد على بعض الصوفية الذين يبيحون لأنفسهم بعض المحرمات مثل النظر المحرم ويرد حججهم الباطلة[٥] ، كما يرد على بعض الصوفية الذين يقولون بإيمان فرعون[٦] .

٢ – يركز المحاسبي على مسألة « العقل » ، وله كتاب في ذلك ، وهو وإن كان يميل إلى أقوال أهل الكلام إلا أنه يركز في مسألة « العقل » على ربطه بأعمال القلوب وأن الذي عقل عن ربه هو الذي يخافه ويعظمه ، ولذلك ذكر معاني العقل الواردة فيه وهي :

أ – انه « غريزة جعلها الله عز وجل في الممتحنين من عباده ، أقام به على البالغين للحلم الحجة ... »[٧] .

---

(١) انظر : الرعاية (ص : ٤٥٥) .

(٢) انظر : الكسب (ص : ٦١) .

(٣) انظر : المصدر السابق (ص : ٦٤) .

(٤) انظر : الكسب (ص : ٦٨) وما بعدها .

(٥) انظر : المسائل في أعمال القلوب والجوارح (ص : ١٦٣) .

(٦) انظر : فهم القرآن (ص : ٣٣٦) .

(٧) العقل مطبوع مع فهم القرآن (ص : ٢٠٣) .

ب – والمعنى الثاني : أنه « الفهم لإصابة المعنى ، وهو البيان لكل ماسمع من الدنيا والدين أو مس أو ذاق أو شم ، فسماه الخلق عقلا ، وسموا فاعله عاقلا » [١] .

جـ – والمعنى الثالث : هو البصيرة والمعرفة بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة ، ومنه العقل عن الله تعالى » [٢] ويستمر في شرح ذلك مركزا على جوانب من أحوال النفس وخطراتها من الخوف واليقين ، وحسن البصر بدين الله ، وما يتعلق بذلك .

فالمحاسبي بهذا التركيز على هذه الجوانب دون غيرها مما يتعلق بأمور العقيدة والإيمان ، ومعرفة سنة رسوله ﷺ وأحكام الشريعة ، إنما يفتح الطريق لمنهج سلوكي صوفي قد لايقف عند حد معين .

٣ – أدي التصوف بالمحاسبي إلي أن تكون له مواقف من علماء عصره من أهل الحديث والفقه ينعي فيها اهتمامهم بهذه الأمور وتركيزهم عليها ، يقول عنهم : « فأما المغترون بالعلم فهم فرق شتى على قدر منازلهم فيه ، فمنهم : فرقة تغتر بكثرة الرواية وحسن الحفظ مع تضييع واجب حق الله عز وجل ، وتخيل نفس أحدهم إليه وعدوه أن مثله لا يعذب لأنه من العلماء دائمة العباد الحافظين على المسلمين علمهم ... والفرقة الثانية : يغتر أحدهم بالفقه في العلم بالحلال والحرام ، وبالبصر في الفتيا والقضاء ، فهو يغتر كغرة الحافظ للعلم وأعظم منه غرة حتي لا يرى أن أحدا أعلم بالله عز وجل منه لأنه قد علم الحلال والحرام والفتيا والقضاء ... » [٣] ، وإذا كان في عصر المحاسبي قد يوجد من تكون فيه مثل هذه الصفات التي ذكرها إلا أن ما يعترض عليه أسلوبه في العرض حين يقول بعد كلامه حول طرق نفي الاغترار عند أهل الحديث : « فإذا ألزم قلبه ذلك انتفت عنه الغرة بما حفظ من العلم ، واهتم بطلب معانيه والتفكر فيه والقيام

---

(١) العقل مطبوع مع فهم القرآن (ص : ٢٠٨) .
(٢) المصدر نفسه (ص : ٢١٠) .
(٣) الرعاية (ص : ٤٤١–٤٤٥) .

به ، فلم يغتر بما حفظ ، وعد نفسه جاهلا بالعلم بعد حفظه له ، وأسوأ حالا ممن لم يحفظه ولم يدرسه ولم يروه » [١] .

فالمحاسبي بهذا الكلام إنما يرسم منهجا ارتضاه وينتقد من خالفه ، ولو كان من أهل الحديث والسنة ، ولاشك أن هؤلاء هم الذين حفظوا للأمة الحديث النبوي وميزوا صحيحه من ضعيفه ، وفي هذا من الجهاد والطاعة والعمل الصالح والتقرب إلى الله عز وجل والمنزلة عنده مالا يبلغه زهد الزاهدين وعزلتهم .

وقد عاب المحاسبي في كتاب العلم من يهتم بالفقه ومعرفة الحلال والحرام فيما يتنازع الناس فيه فقال : « أما ماتولد من ذلك [أى من أحكام الحلال والحرام] لتنازع الناس وتجاذبهم للدنيا فقد يستغنى عنه بعض الناس إذا قام به الغير ، وقد يكون الرجل في جميع عمره لا تنوبه مسألة من بعض تلك المسائل » [٢] ، ثم يعرضه منهجه ونقده لهم بقوله : « فلو أن رجلا تبحر في نحو هذه المسائل وغاص في فنونها فقيل له : ما النية ؟ وما عزيمتها ؟ وأي شيء محلها من القلب ؟ وماذا يدخل عليها من الفساد من قبل النفس ومن قبل العدو ؟ أو قيل له : ما الورع ؟ عجز عن جوابه ، فللورع منازل يحتاج إلى معرفتها ، فهذه أصول من أصول الدين التي يحدث فيها عند منازعة النفس وإدخالها فيها ماليس ينبغي أن يدخل فيها بتفرع القول فيها أكثر من تفرعه في الحلال والحرام ، وهو أولى في التعليم والحفظ على الأمة من ذلك ... » [٣] ، ويقول في موضع آخر : « فاتق الله ياعبد الله ولا تدع العلم بمعرفة الفتيا فإن العلم هو العلم بالله عز وجل » [٤] ، ويدعو إلى اتباع آثار الصوفية الذين هم الخاصة ويأمر بسلوك طريقهم [٥] .

---

(١) الرعاية (ص : ٤٤٤ – ٤٤٥) .

(٢) العلم (ص : ٨٦) .

(٣) المصدر السابق (ص : ٨٦–٨٧) .

(٤) المصدر نفسه (ص : ٩٢) .

(٥) انظر : فهم القرآن (ص : ٢٦٧–٢٧٠) .

وقد فسر محقق كتاب العلم هذا الهجوم بأنه موجه من المحاسبي إلى الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه [١] ، وسواء قصد المحاسبي الإمام أحمد أو لم يقصده فواضح من أقواله أنه يقصد طائفة من أهل الحديث الذين عنوا بالروايات ونقلها وتمحيصها وإفتاء الناس على ضوئها .

وبذلك يتضح أن تصوف المحاسبي ومنهجه مائل عن منهج أهل السنة الذي يقوم على الوسطية والتوازن والجمع بين العلم والعمل .

أقواله في العقيدة :

ترد أقوال المحاسبي في الغالب مقرونة برأي ابن كلاب ، ولذلك فهما متقاربان في كثير من مسائل العقيدة ، ولذا سيقتصر الكلام هنا على بعض أقواله التي ذكرها في كتابه « فهم القرآن » .

١ - إثباته للصفات :

يصف المحاسبي من يمتدحهم من الخاصة بأنهم « وصفوه بصفاته الكاملة ونزهوه من كل مالا يليق » [٢] ، فهو يثبت الصفات بإجمال ، وسيتضح أنه ينفي منها ما يتعلق بمشيئة الله من الصفات الاختيارية .

كما يثبت أن القرآن كلام الله « إذ تكلم الله عز وجل به تكليما من نفسه من فوق عرشه ، من فوق سماواته » [٣] .

ويقرر أن الصفات لا يجوز نسخها فيقول : « لا يحل لأحد أن يعتقد أن مدح الله جل ثناؤه ولا صفاته ولا أسماءه يجوز أن ينسخ جل وعز وصف نفسه بصفاته الكاملة ومدح نفسه بمدحه الطاهرة وبأسمائه الحسنى ، فمن أجاز النسخ فيها أجاز أن يبدل أسماءه الحسنى فيبدلها قبيحة سوى وصفاته الكاملة

---

(١) انظر : العلم ، المقدمة (ص : ٥٩-٦١) .
(٢) فهم القرآن (ص : ٢٦٧) .
(٣) المصدر السابق (ص : ٣٠٢) ، وانظر : (ص : ٣٠٩) .

العلية فتكون دنية ناقصة سفلى ، ومدحه الطاهرة فتكون مذمومة دنية ، جل وتعالى عن ذلك علوا كبيرا » [(١)] .

ويحتج لبعض الصفات بالعقل مع دليل السمع مثل صفة العلم [(٢)] .

٢ - إثباته للعلو والاستواء :

ذكر أدلة ذلك من نصوص القرآن ورد على الذين يقولون : إن الله في كل مكان [(٣)] ، ثم قال : « وأما قوله ﴿ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] .. ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٨] و ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك : ١٦] و﴿ إِذاً لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الإسراء : ٤٢] فهذه وغيرها مثل قوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ﴾ [فاطر : ١٠] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة : ٥] ، فهذا مقطع يوجب أنه فوق العرش ، فوق الأشياء ، منزه عن الدخول في خلقه لا يخفي عليه منهم خافية ، لأنه أبان في هذه الآيات أن ذاته بنفسه فوق عباده لأنه قال : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ [الملك : ١٦] يعني فوق العرش ، والعرش على السماء لأن من كان فوق شيء على السماء فهو في السماء ، وقد قال مثل ذلك ﴿ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [التوبة : ٢] يعني على الأرض ، لا يريد الدخول في جوفها ... » [(٤)] ويستمر في عرض الأدلة ، ويناقش أدلة الحلولية في مسألة المعية وان آية ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَة إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ [المجادلة : ٧] مبدوءة بالعلم ومختومة به ، ويناقش ذلك بشكل موسع وقوي [(٥)] .

---

(١) فهم القرآن (ص : ٣٣٢) .

(٢) نفسه (ص : ٣٣٨) .

(٣) انظر : فهم القرآن (ص : ٣٤٦-٣٤٩) .

(٤) المصدر السابق (ص : ٣٤٩-٣٥٠) .

(٥) انظر : نفس المصدر (ص : ٣٥٢-٣٥٦) .

٣ - كما يذكر أن القرآن غير مخلوق ويرد على المعتزلة الذين يسميهم الضلال ، ويذكر أدلتهم ويناقشها بالتفصيل [١] .

٤ - كما يذكر مسألة الوعد والوعيد ويرد على المعتزلة ويذكر مذهب أهل السنة في ذلك ويورد أقوالهم وأقوال الخوارج في مذهبهم في مرتكب الكبيرة ، [٢] ويناقش على ضوء ذلك مسألة الشفاعة وكيف أنكرها المعتزلة لقولهم بالوعيد على أهل الكبائر [٣] .

٥ - مذهبه في الصفات الاختيارية :

يوافق المحاسبي ابن كلاب في نفي هذه الصفات ، بناء على نفي حلول الحوادث بذات الله تعالى ، ونصوص المحاسبي في ذلك واضحة جدا :

أ - يقول عن القرآن وعظمته : « ومن عقل عن الله جل ذكره ما قال فقد استغنى به عن كل شيء ، وعزّ به من كل ذل ، لا تتغير حلاوته ، ولا تخلق جدته في قلوب المؤمنين به على كثرة الترداد والتكرار لتلاوته ، لأن قائله دائم لا يتغير ، ولا ينقص ، ولا يحدث به الحوادث [٤] » وهذا منطلق الكلابية في نفي ما يتعلق بمشيئته وقدرته .

ب - ويقول في مسألة علم الله : « والله جل ذكره لا تحدث فيه الحوادث ، لأنا لم نجهل موت من مات أنه سيكون ، وكذلك علمنا أن النهار سيكون صبيحة ليلتنا ، ثم يكون فنعلم أنه قد كان من غير جهل منا تقدم أنه سيكون ، فكيف بالقديم الأزلي الذي لا يكون موت ولا نهار ولا شيء من الأشياء إلا وهو يخلقه ونحن لا نخلق شيئا ، وكذلك قوله : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [الفتح ٢٧] وقوله : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا

---

(١) انظر : فهم القرآن (ص : ٣٦٣) وما بعدها .

(٢) انظر : نفس المصدر (ص : ٣٧٠) وما بعدها .

(٣) انظر : نفس المصدر (ص : ٣٩٠) .

(٤) انظر : فهم القرآن (ص : ٣٠٧) .

مُتْرَفِيهَا ﴾ [الإسراء : ١٦] وقوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا [١] لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] ، ليس ذلك ببدء منه لحدوث إرادة حدثت له ولا أن يستأنف مشيئة لم تكن له ، وذلك فعل الجاهل بالعواقب الذي يريد الشيء وهو لايعلم العواقب ، فلم يزل تعالى يريد ما يعلم أنه يكون ، لم يستحدث إرادة لم تكن ، لأن الإرادات إنما تحدث على قدر مالم يعلم المريد ، فأما من لم يزل يعلم ما يكون ومالا يكون من خير وشر فقد أراد على علم لا يحدث له بداء إذا كان لا يحدث فيه علم به » [٢] ، والمحاسبي يقرر مسألة أزلية صفات الله تعالى لينفي ما يتعلق بمشيئة الله تعالى من صفات الأفعال ، ولذلك يقول معلقا على الآية : ﴿ إِذَا أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] وقوله : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً .. ﴾ [الإسراء : ١٦] : « فإنه لم يزل يريد ، قبل أن يحدث الشيء أن يحدثه في وقت إحداثه ، فلم يزل يريد إحداثه في الوقت المؤخر ، فإذا جاء الوقت فهو أيضا يريد أن يحدثه فيه ، فبإرادته أحدثه في ذلك الوقت الذي فيه أحدثه ، فإرادة الله جل وعز دائمة لأنه مريد قبل الوقت الذي يحدث فيه المخلوقات ، وفي الوقت الذي أحدثه فيه ... » [٣] ، ولا يحتاج هذا إلى تعليق سوى التناقض الذي يفيده قوله « فإذا جاء الوقت فهو أيضا يريد أن يحدثه فيه » لأن هذه الإرادة إن كانت هي الإرادة الأزلية فلا فائدة من قوله هذا ، وإن كانت إرادة حادثة نقض قوله .

جـ - ومما يدل على كلابيته ونفيه الصفات الاختيارية أن تقوم بالله قوله في صفتي السمع والبصر : « وكذلك قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء : ١٥] ليس معناه إحداث سمع ، ولا تكلف لسمع مايكون من المتكلم في وقت كلامه ، وإنما معنى (إنا معكم مستمعون) ، ﴿ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ [التوبة : ٩٤] أي المسموع والمبصر لن يخفى على سمعي ولا على بصري أن أدركه

---

(١) في المطبوعة : أمرنا ، وهو خطأ .

(٢) فهم القرآن (ص : ٣٤٠-٣٤١) .

(٣) المصدر نفسه (ص : ٣٤٢-٣٤٣) .

سمعا وبصرا لا بالحوادث في الله جل وعز وتعالى عن ذلك ، وكذلك قوله : ﴿ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : ١٠٥] لا يستحدث بصرا ولحظاً محدثا في ذاته تعالى عن ذلك » [١] ، ثم يرد المحاسبي على من خالفه في هذا ممن يثبت لله الصفات الاختيارية فيقول : « وقد ذهب قوم [٢] أن لله جل وعز اسماعا حادثا في ذاته ، فذهب إلى ما يعقل من الخلق أنه يحدث فيهم علة لسمع ما يكون من قول عند سمعه للقول ، لأن المخلوق إذا سمع الشيء حدث له عنه فهم عما أدركته أذنه من الصوت ، وكذلك ذهب إلى أن رؤية تحدث له ، قال أبو عبد الله : وهذا خطأ ، وإنما معني (سيرى) و (إنا معكم مستمعون) أن المسموع والمبصر لم يخف على عيني ولا على سمعي أن أدركه سمعا وبصرا لا بالحوادث في الله جل وعز ، ومن ذهب إلى أنه يحدث له استماع مع حدوث المسموع ، وإبصار مع حدوث المبصر فقد أدعى على الله عز وجل مالم يقل وإنما على العباد التسليم كما قال ، وانه عالم سميع بصير ولا يريد مالم يكن ، وإنما معني (حتى يعلم) حتى يكون المعلوم ، وكذلك حتى يكون المبصر والمسموع ، ولا يخفى على الله عز وجل أن يعلمه موجودا ويراه موجودا ويسمعه موجودا بغير حدوث علم في الله جل وعز ، ولا سمع ولا بصر ، ولا يعني حدوثا في ذات الله ، جل الله عن الحوادث في نفسه وتعالى عن البداوات في علمه وإرادنه علوا كبيرا » [٣] .

ثم يذكر نصوص العلو والاستواء وأن ذلك لا يدل على حلول الحوادث [٤] .

وهذه النصوص – وهي من المصادر القليلة التي بقيت من كتب الكلابية – تبين إلى أي حد كان رسوخ هذه المسألة عندهم ، حتى ان المحاسبي يجزم

---

(١) فهم القرآن (ص : ٣٤٤-٣٤٥) .

(٢) يقصد الكرامية .

(٣) فهم القرآن (ص : ٣٤٥-٣٤٦) .

(٤) انظر : المصدر نفسه (ص : ٣٤٦-٣٤٩) .

ويقطع بما يراه ويخطىء من خالفه وكأنها من مسائل أصول أهل السنة المسلمة . وهذا يفسر موقف أهل السنة الصلب من الكلابية وخاصة موقف الإمام أحمد - رحمه الله - من الحارث المحاسبي .

- هل رجع الحارث عن قوله ؟ :

ينسب الكلاباذي إلى الحارث المحاسبي قولا في القرآن يخالف قول ابن كلاب ، فابن كلاب - كما سبق - يقول : إن كلام الله ليس بحرف ولا صوت ، أما الحارث فقد نسب إليه الكلاباذي أنه يقول : « وقالت طائفة منهم : كلام الله حروف وصوت ، وزعموا أنه لايعرف كلامه إلا كذلك مع إقرارهم أنه صفة الله تعالى ، في ذاته غير مخلوق ، وهذا قول الحارث المحاسبي » (١) ، فهذا القول قد يدعم ماذكره شيخ الإسلام ابن تيمية عن معمر ابن زياد أن الحارث رجع عن أقواله (٢) .

ثالثا : أبو العباس القلانسي :

يرتبط اسم القلانسي بابن كلاب كثيرا ، ومع اشتهاره إلا أن كتب التراجم لم تعن بترجمته كما فعلت مع ابن كلاب والمحاسبي ، ولذلك فتاريخ ولادة القلانسي ووفاته غير معروفين سوي أنه كان معاصرا لأبي الحسن الأشعري ، والذي ذكر ابن عساكر عنه أنه « أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن خال القلانسي الرازي ، من معاصري أبي الحسن - رحمه الله - لا من تلامذته كما قال الأهوازي ، وهو من جملة العلماء الكبار الأثبات ، واعتقاده موافق لاعتقاده في الإثبات » (٣) .

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص : ٤٠) .

(٢) انظر : درء التعارض (٧/١٤٨-١٤٩) ، وقد ذكر شيخ الإسلام أن معمر بن زياد ذكر رجوع المحاسبي في ماكتبه عن أخبار شيوخ أهل المعرفة والتصوف ، وذكر الدكتور محمد رشاد سالم - رحمه الله - أن لمعمر هذا نسخة خطية في دار الكتب المصرية بعنوان « شواهد التصوف » ورقمها ٦٦ م مجاميع .

(٣) تبيين كذب المفتري (ص : ٣٩٨) .

أما البغدادي فقد وصفه بأنه « إمام أهل السنة ... الذي زادت تصانيفه في الكلام على مئة وخمسين كتابا »[(١)] ، وقد أشار البغدادي كثيرا إلى أقواله في ثنايا كتابه « أصول الدين » .

وفي كتاب « الأسماء والصفات » للبيهقي نص مهم عن القلانسي ومنزلته وعلاقته بالكلابية ، وذلك عند حديثه عن الفتنة التي وقعت بين ابن خزيمة والكلابية من تلامذته كالثقفي والصبغي ، يقول البيهقي : « أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال : سمعت أبا الحسن علي بن أحمد الزاهد البوشنجي يقول : دخلت علي عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي بالري فأخبرته بما جرى بنيسابور بين أبي بكر ابن خزيمة وبين أصحابه فقال : ما لأبي بكر والكلام ؟ إنما الأولى بنا وبه أن لا نتكلم فيما لم نتعلمه ، فخرجت من عنده حتى دخلت على أبي العباس القلانسي فقال : كأن بعض القدرية من المتكلمين وقع إلى محمد بن إسحاق فوقع لكلامه عنده قبول ، ثم خرجت إلى بغداد فلم أدع بها فقيها ولا متكلما إلا عرضت عليه تلك المسائل فما منهم أحد إلا وهو يتابع أبا العباس القلانسي على مقالته ، ويغتم لأبي بكر محمد بن إسحاق فيما أظهره »[(٢)] .

والذين ساقوا القصة : كالبيهقي ، والبوشنجي كلابية لذلك فهم يرون تخطئة أمام الأئمة ابن خزيمة في موقفه من أصحابه الكلابية ، والقصة تدل بالنسبة للقلانسي على :

١ – أنه كان مقيما بالري ، من المدن الكبري المشهورة قرب خراسان .

٢ – أن مقالته كانت منتشرة وأقواله معروفه .

٣ – أنه كان يقول بقول الكلابية .

---

(١) أصول الدين (ص : ٣١٠) .

(٢) الأسماء والصفات (ص : ٢٦٩) .

- **ومن أبرز أقواله :**

١ - أنه يقول بتقديم العلوم النظرية على الحسية خلافا للأشعري [١] .

٢ - كما أجاز وجود الكلام لما ليس بحي خلافا للأشعرية الذين جعلوا الحياة شرطا في وجود الكلام [٢] .

٣ - وافق ابن كلاب أن الله قديم بقدم بمعنى هو قائم به ، خلافا للأشعري الذي يقول : إنه قديم لذاته [٣] .

٤ - وفي صفة اليدين قال القلانسي أن التثنية ترجع إلى اللفظ لا إلى الصفة [٤] ويفسر البغدادي ذلك حين يقول : « وزعم بعض أصحابنا أن اليدين صفتان لله سبحانه وتعالى ، وقال القلانسي هما صفة واحدة » [٥] .

٥ - وقال في الاستواء على العرش أن معناه : « كونه فوق العرش بلا مماسة » [٦] .

٦ - أنه يقول : « بوجوب المعارف العقلية على العاقل من جهة العقل » [٧] .

٧ - كما توقف في التفضيل بين علي وعثمان [٨] .

هذه أهم أقوال القلانسي ، ويجعل شيخ الإسلام القلانسي من العراقيين الذين هم أكثر إثباتا من أهل خراسان وإن كان الجميع كلابية فيقول : « كما أن العراقيين المنتسبين إلى أهل الإثبات من أتباع ابن كلاب كأبي العباس القلانسي وأبي الحسن الأشعري ، وأبي الحسن علي بن مهدي الطبري ، والقاضي أبي بكر

---

(١) انظر : أصول الدين للبغدادي (ص : ١٠) .
(٢) انظر : المصدر السابق (ص : ٢٩) .
(٣) انظر : أصول الدين للبغدادي (ص : ٨٩) .
(٤) انظر : نقض التأسيس المطبوع (١/٨٠) .
(٥) أصول الدين (ص : ١١١) وانظر : المجرد لابن فورك (ص : ٣٢٦) .
(٦) المصدر نفسه (ص : ١١٣) .
(٧) نفسه (ص : ٢٥٦) .
(٨) انظر : المصدر نفسه (ص : ٢٩٣-٣٠٤) .

ابن الباقلاني وأمثالهم أقرب إلى السنة وأتبع لأحمد بن حنبل وأمثاله ، من أهل خراسان المائلين إلى طريقة ابن كلاب » [١] .

* * *

هؤلاء هم أهم أعلام مدرسة ابن كلاب قبل الأشعري الذي وافقهم في أبرز أقوالهم مع زيادة في الشرح والتفصيل ولذلك نسب إليه هذا المذهب .

* * * *

موقف السلف من الكلابية :

لما كانت موازين علماء أهل السنة ثابتة ، ومنطلقاتهم مرتكزة على أساس متين لم تتغير مواقفهم من أهل الأهواء الذين يستحدثون بدعهم في كل زمن . ولذلك حذر السلف من أهل الكلام عموما وردوا بدعهم بل حذروا من علم الكلام الذي دخل منه الجهمية والمعتزلية والقدرية والرافضة وغيرهم .

والكلابية – وإن كانوا موافقين لأهل السنة في الرد على الجهمية والمعتزلة والرافضة وغيرهم – إلا أنهم تلبسوا بأشياء من أقوال أهل الكلام وبدعهم ، ومن ثم ذمهم السلف وحذروا من أقوالهم التي خالفوا فيها أهل السنة ، وهذه نماذج لمواقف السلف منهم :

أ – موقف الإمام أحمد من الكلابية ، فقد كان – رحمه الله – معاصرا لزعمائهم ولذلك حذر منهم ، ومواقفه من الحارث المحاسبي مشهورة ، والإمام أحمد وإن كان لا يعجبه تصوف الحارث إلا أن سبب هجره والتحذير منه إنما كان لقوله بأقوال أهل الكلام ويجمع على هذا جميع مترجمي المحاسبي تقريبا [٢] ، والعجب من السبكي حين يجعل موقف الإمام أحمد من المحاسبي من كلام الأقران

---

(١) انظر : درء التعارض (٢٧٠/١) .

(٢) انظر : تاريخ بغداد (٢١٤/٨) ، والكامل في التاريخ (٨٤/٧) ، وميزان الاعتدال (٤٣٠/١) ، وتلبيس إبليس (ص : ١٦٢) – منيرية – ، وشرح الكوكب المنير (ص : ٤٧) من التصويب ، وطبقات الحنابلة (٦٢/١–٦٣) .

الذين لا يقبل قول بعضهم في بعض [١] ، ولا شك أن القاعدة التي ذكرها السبكي لها قيمة كبري في الجرح والتعديل ولكن تطبيقه لها هنا لم يصادف محلا ، لأن الإمام أحمد انتقد عقيدة المحاسبي والبراهين واضحة جلية في دخوله علم الكلام وقوله ببعض أقوالهم ، ولو سلمت هذه القاعدة بإطلاق لما قبل قول السلف في معاصريهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والقدرية وغيرهم ، وهذا مالا يقول به السبكي ولا غيره .

ب - موقف الإمام ابن خزيمة :

كان في زمن ابن خزيمة علمان من أعلام الكلابية :

أحدهما : أبو علي الثقفي ، وهو شيخ خراسان أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب ، الثقفي ، النيسابوري ، الشافعي ، الواعظ الزاهد ولد سنة ٢٤٤ هـ ، قال عنه الصبغي : « ما عرفنا الجدل والنظر حتى ورد أبو علي الثقفي من العراق » [٢] ، وقال أبو عبد الرحمن السلمي : « كان إماما في أكثر علوم الشرع ، مقدما في كل فن منه ، عطل أكثر علومه واشتغل بعلم الصوفية وتكلم فيه أحسن كلام » [٣] ، وقال عنه البغدادي : « شيخ العلوم على الخصوص والعموم » وقال : « وتصانيف الثقفي ونقوضه على أهل الأهواء زائدة على مئة كتاب » [٤] وقال عنه الذهبي : « ومع علمه وكماله خالف الإمام ابن خزيمة في مسائل التوفيق والخذلان ، ومسألة الإيمان ، ومسألة اللفظ ، فألزم البيت ، ولم يخرج منه إلى أن مات وأصابه في ذلك محن » [٥] توفى الثقفي سنة ٣٢٨ هـ [٦] .

---

(١) انظر : الطبقات للسبكي (٢٧٨/٢) ، وقاعدة في الجرح والتعديل (ص : ٤٧) ، والرفع والتكميل (ص : ٢٦٣) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٨٢/١٥) .

(٣) طبقات الصوفية (ص : ٣٦١) .

(٤) أصول الدين (ص : ٣٠٠) .

(٥) السير (٢٨٢/١٥) .

(٦) انظر : في ترجمته إضافة إلى المصادر السابقة الرسالة القشيرية (١٦٤/١) ، وقال : به ظهر التصوف بخراسان ، والأنساب (١٣٥/٣) وغيرها .

والثاني : أبو بكر الصبغي ، وهو الإمام أبو بكر أحمد بن إسحاق بن أيوب بن يزيد ، النيسابوري الشافعي المعروف بالصبغي ، ولد سنة ٢٥٨ هـ كان يخلف إمام الأئمة ابن خزيمة في الفتوى بضع عشرة سنة ، ومن تصانيفه كتاب الأسماء والصفات ، وكتاب الإيمان ، وكتاب القدر ، وكتاب الخلفاء الأربعة ، وكتاب الرؤية ، وكتاب الأحكام ، وكتاب الإمامة ، توفي سنة ٣٤٢ هـ [١] ، والعجيب أن ابن فورك الذي رد على كتاب التوحيد لابن خزيمة ، رد أيضا على أحد كتب الصبغي وهو كتاب « الأسماء والصفات » [٢] .

هذان الإمامان : الثقفي والصبغي كانا من أخص تلامذة ابن خزيمة ، ولكنهما مع إثباتهما للصفات كما يثبتها إلا أنهما يقولان بقول ابن كلاب أن الله لا يتكلم إذا شاء متى شاء وإنما كلامه أزلي ، فلما علم بذلك ابن خزيمة ثارت ثائرته وغضب عليهم وعلى من معهم ممن يقول بقولهم ، وجرت بينه وبينهم وقائع استتيبوا فيها من قولهم ، وهي قصة طويلة ذكرها الحاكم في تاريخ نيسابور ، ونقل بعض أحداثها شيخ الإسلام ابن تيمية والذهبي [٣] .

جـ - أما غير الإمام أحمد وابن خزيمة ، فأبو عبد الرحمن السلمي كان يلعن الكلابية [٤] ، وكذلك أبو نصر السجزى [٥] ، وغيرهما [٦] .

* * *

---

(١) انظر : في ترجمته : الأنساب (٣٣/٨) - ط لبنان - ، وسير أعلام النبلاء (٤٨٣/١٥) ، وطبقات السبكي (٩/٣) .

(٢) انظر : مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص : ٢٠١) وما بعدها - ط المكتبة العصرية - .

(٣) انظر : درء التعارض (٧٧/٢) وما بعدها ، والسير (٣٧٧/١٤) وما بعدها .

(٤) عن درء التعارض لابن تيمية (٨٢/٢) .

(٥) انظر : رسالة الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص : ٨٧-٨٨) - ط على الآلة الكاتبة - .

(٦) انظر : درء التعارض (٨٣/٢) .